الياس طنوس الحويك
اللبناني

تاريخ
نابليون الأول

المجلد الثاني

دار ومكتبة الهلال
بيروت







تاريخ
نابوليون الأول



تاريخ
نابوليون الأول

لمؤلفه

الياس طنوس الحويك
اللبناني

الجزء الثاني

منشورات
دار ومكتبة الهلال
ص.ب ٥٠٠٣ - ١٥



الامبراطورة جوزفين



نابوليون الاول امبراطور الفرنسويين



كلمة المؤلف

رأينا ان نقسم تاريخ نابوليون الأول الى ثلاثة أجزاء لاسباب وجيهة ، وأهمها سببان : الأول مراعاة حياة نابوليون ، والثاني تخفيف حمل الكتاب ، فالجزء الأول الذي يتضمن ما كان من أمر نابوليون من مولده الى آخر عهد القنصلية انتهى طبعه ونباشر الآن طبع الجزء الثاني وهو يدور على عهد الامبراطورية وهو العهد الذي بلغ فيه نابوليون أعلى ذروة من ذرى المجد ولم يُبْقِ زيادة لمستزيد في هذا الصدد وجميع أجزاء الكتاب مزينة برسوم بديعة متقنة الصنع فلم نترك وسيلة من الوسائل إلا وتوسلنا بها لكي نجعل كتابنا يروق القراء ويكون لهم منبع لذة وفائدة معاً .

الفصل الاول

انشاء الحكومة الامبراطورية . أعمال الرحمة . معسكر بولون . الرحلة الى بلجيكا

إن بونابرت وإن لم يكن يتوخى سوى السلطة العظمى لاعادة النظام والوحدة الى ادارة شؤون الحكومة واعطاء الثورة الظاهرة حتى ذلك العهد بمظهر الحرب النمو المنظم بعد ما صيرته حركات الديمقراطية مغلول اليدين مدة طويلة فقد كانت مزاولته للسلطة العليا مدى حياته كافية لادراك الغاية التي يرمي اليها ولا سيما لحصوله على الحق باختيار خلف له فان انتقاء هذا الداهية خلفاً له كان أكبر ضامن لبقاء السلطة الجديدة وأفضل من القاء مقاليدها الى شخص لم يؤهله الى ذلك المنصب السامي إلا تحدره من أسرة ملكية .

وكان نابوليون وهو يسعى الى انشاء سلطة موروثة يعتقد ولا جرم انه لا يسعى الى ذلك إلا لتوطيد أركان المشروع العظيم الذي تولاه وحفظ النظام الجديد المنبثق من الفتنة الكبرى . وقد قال : « تستطيع الوراثة وحدها أن تحول دون مناوأة الثورة فما دمت حياً لا يخشى من حدوث شيء . إلا أن من يأتي بعدي من الزعماء المنتخبين لا تتسنى له مقاومة أنصار البوربون . . . ففرنسا مدينة بكثير من الامور لقوادها المشرين الذين أبلوا بلاء حسناً في الحرب ولكن لم يخلق أحد منهم ليكون قائداً أكبر أو رئيس حكومة . »

فهل كان هذا الحكم العنيف الذي أصدره بونابرت على قادة الجيش المشهورين مصيباً كبد الحقيقة ؟ أولم يكذب بعضهم ما عزي اليه من العجز عن ادارة شؤون الحكومة ؟ أو لا تزال حتى الآن متربعة في عرش أسوج أسرة قائد من أولئك القواد الذين قال عنهم بونابرت في سنة ١٨٠٤ انهم لم يوجدوا ليكون واحد منهم رئيس حكومة ؟ فمنشيء الاسرة المالكة في أسوج هو برنادوت وقد انتخب لهذا المنصب السامي في سنة ١٨١٠ من دون أن ينهض لمناوأته أبناء

الاسر المالكة العريقة في القدم الذين تألبوا وحطموا صولجان نابوليون أو يلفوا في عجز هذا القائد الفرنسوي القديم والهفوات التي ارتكبها ما يدعو الى ارجاع الاسرة المالكة الشرعية الى عرش أسوج كما فعلوا في فرنسا ويطهروا أوربا الملكية جمعاء من الشكوك الناشئة فيها لوجود الاسر الدخيلة التي أسعدتها الاحوال على القبض على أزمة الحكم في البلاد . وهب لم يكن بين أولئك القواد العظام من لا يصلحون حقيقة لان يكونوا رؤساء حكومات أولم يكن سوى أشخاص موصوفين بضعف المدارك العقلية بين الساسة المتفقين حول القنصل الاول ممن كان يمكنه أن ينتقي من بينهم رئيساً للحكومة كما كان يمكنه أن ينتقي هذا الرئيس من بين رجال الجندية ؟ نحن لا نعتقد صحة زعمه هذا وكأنما ببونابرت قد قصد بحمله الناس على النظر الى ارجع الوراثة الى العترة الحاكمة بعين الرضى أن يبين تعذر وجود شخص جدير بالقبض على أزمة السلطة العليا بين الرجال العظام الذين ولدتهم الثورة في فرنسا ولعمري أصبح دهاؤه هذه المرة خاضعاً لمطامعه . أجل ان بعضهم قال ان بونابرت لما سعى لايجاد ضمان لاستمرار بقاء الوراثة الملكية كان اعتماده على قوة المبدأ الوراثي أكثر مما كان على منزلة وارثه الشخصية . على انه لو كان هذا الامر قد نزل في فناء فؤاد القنصل الاول ومالأه عليه رجال الحكومة الذين ناصروه على ترميم العرش المتداعي لكان ذلك يدل على أن الدهاء السامي قد يلم به الوهن وان الذكاء الشديد يصيبه في غالب الاحيان ما يخمد نيرانه المضطرمة .

فلو كانوا قد عولوا قبل كل شيء على قوة المبدأ الوراثي الذي كان سائداً في القرون المتوسطة لكنا نحبذ عملهم فالوراثة في مثل هذه الحال لا تكون ممكنة بل ضرورية : تكون ممكنة لانه يكفي أن يكرسها الدين لتصبح مرعية الحرمة في انظار الملوك والشعوب التي يضمن ايمانها الحي والمتماثل خضوعاً مشتركا لكل نظام وشريعة ومبدأ مما هو موسوم بسمة الدين وتكون ممكنة أيضاً لان مسح الملوك لم يكن حفلة باطلة في الازمنة المنتشرة فيها الاعتقادات العامة الراسخة الاركان فقد كان للزيت المقدس قوة سياسية ولم يكن الحق الشرعي يخص إلا مسيح الرب وذريته . وكانت ضرورية لان السكينة والوحدة في المملكة تكونان بغير التكريس الديني لهذه العقيدة السياسية معرضتين للخطر

عند نهاية حكم كل ملك بما ينشأ عن ذلك من الخصومات الشديدة بين كبار العمال الذين يعالج بعضهم اصابة تاج الملك بقوة السلاح ويلجأ البعض الآخر الى القوة لينالوا الاستقلال ويحطموا نير كل سلطة . واذا كانت المطامع والاميال الى الفوضى قد ظهرت غير مرة مع ما كان من الحق العام للملكية المؤيد بالدين وكانت باعثاً على الحرب الاهلية في فرنسا من عهد نشأة أصحاب الاقطاعات حتى فتن الفرند (المقلاع) فما قولكم عما يجرؤ على اتيانه النبلاء الطامحة نفوسهم الى نيل السيادة واحراز الثورة والطامعة بالحرب والميالة الى نبذ كل شكيمة ان لم يكن ثمة رادع لمفاسدهم واطماعهم ناجم عن سلطة أدبية لمبدأ لا يجرؤون على تعدي حدوده من دون أن يستهدفوا لسهام التعنيف التي ترشقهم بها ضمائرهم ومن دون أن تتهمهم الكنيسة والدولة بالالحاد والمروق . ولا يخفى أن همجية أصحاب الاقطاعات وجماحهم مزقا بقساوة عظيمة أحشاء فرنسا ولم يتيسر لصاحب التاج الضرب على أيديهم والظفر بهم ظفراً مبيناً . إلا أن تأييد الدين لحقوق الوراثة جعل تمرد النبلاء على الملك غير مؤثر به كما انه أيضاً كان قد أولى جان دارك قوة عجيبة تدرعت بها وعضدت ملكاً حدثاً على تخليص مملكة من أعظم ممالك الأرض .

ولما أجهز ريشليو وبعده لويس الرابع عشر على الارسطقراطية العريقة في القدم ووضعا أساس الوحدة والانضمام اللذين أكملتهما الثورة الفرنسوية فيما بعد وحققتهما كان الظلم والاستبداد اللذان عاملا النبلاء بهما من أقوى العوامل لخدمة السلطة الملكية بدلا من صيرورتهما شؤماً عليها لأن السلطة الملكية كانت في ذلك العهد ممثلة للحق الالهي المصون بايمان الشعب . وان مناهضة الاشخاص المتغطرسين الذين كانوا عقبة كؤوداً في وجهها لم تكن تؤثر إلا بممثلي القوة الوحشية المحجوبة وراء ستار أبهة الألقاب .

وماذا جرى في سنة ١٨٠٤ لذلك الحق الالهي حامي ذمار السلطة الموروثة ؟ انه تخلى عن مكانه للحق الالهي المتسلسل عن الاهلية الشخصية والدهاء وصارت الثقة العامة من ذلك الحين منوطة بسيادة الشعب .

وهل كان من جهة أخرى حول المنصة القنصلية عمال ذوو سطوة وبأس وقوة ومراس يرفعون ألويتهم فوق أغنى ولايات المملكة وأوسعها ويهيئون

عدة الحرب في كل حين ويستعدون لتكدير حياض السلم في البلاد ليتسنى لهم القبض بأيديهم على السلطة العليا أو ليملنوا استقلالهم في ناحية من أنحاء الامبراطورية انه لم يكن من سبيل للخوف من وقوع شيء من هذه الاشياء : واذا كان حق الزيت المقدس قد تحطم فان شعار النبلاء تمزق أيضاً . وعلى أنقاض قوة أصحاب الاقطاعات المدربين خلفا عن سلف لايقاد نيران الحروب والمضطرين الى الاستعانة بالسلاح لحفظ كيانهم في هيئة اجتماعية مشيدة على الفتح ومنظمة على الحرب بنيت في فرنسا هيئة اجتماعية جديدة نشأت فيها من كل جهة قوات جديدة ملاكها الأهلية الشخصية سواء كان في الزراعة أو في التجارة أو في الفنون أو في العلوم فانتفت بذلك الامر أفضلية شرف المحتد المجرد ولم يكن نطاق تلك الامور يتسع وأجلها يطول إلا في آونة السلم . على ان أمراء الجندية أنفسهم لم يرتقوا الى المناصب العالية التي ارتقوا اليها الا بفضل الحالة الاستثنائية التي صارت اليها البلاد من خمس عشرة سنة وكانوا يفتخرون بأن يجملوها تتمتع في حالة السلم بحسنات ثورة كانت بتمهيدها السبيل للتوفيق بين أعمال الشعوب الادبية وأعمالهم الصناعية تصير الحرب غير ممكنة الوقوع . ولم يكن للقواد الفرنسويين تفوق شخصي في ناحية من أنحاء البلاد وحزب سياسي ووسائل تمكنهم من اعادة دور رجال الجندية في العهد البائد . ولم يكن بينهم أمثال لارمانياك ورغونيون ومنموراسي وأبرنون . وقد دل تصرفهم المقرون بالتحفظ والتعقل عند تغير شكل كل حكومة فيما بعد ان انتقال السلطة بطريق الوراثة أو بطريق الانتخاب لم يكن ليعروه أدنى اضطراب ينجم عن مقاصدهم الشخصية .

وكان بونابرت منخدعاً حين سعى لايجاد مسوغ لاعادة الملكية الموروثة بايراده مباديء وحوادث تنتمي الى حالة اجتماعية تختلف كل الاختلاف عن الحالة الحاضرة : فما كان ممكناً وضرورياً في هيئة اجتماعية ميالة الى الحرب ومعتصمة بأهداب الدين لم يبق ضرورياً وممكناً في هيئة اجتماعية كان من وكدها مزاولة الصناعة والارتياب في كل ما لايقوم عليه دليل بعد ماأمنت إثارة مثل هذه القلاقل التي كان أصحاب الاقطاعات يثيرونها ولم تكن تطمع بأن تصيب الغرض من وراء الحروب نفسها إلا اذا تيسر لها ان تتعاطى أشغالها السلمية بالامن .

وكان القنصل الأول قد أورد في زمان قريب من ١٨ برومير أسباباً قوية

لدعم انكاره للسلطة الموروثة وأعلن ان ذلك النظام الذي كان ملائماً لفرنسا في القرون المتوسطة لم يبق له مسوغ في القرن التاسع عشر واليكم الكلام نفسه الذي فاه به في هذا الصدد : « ان السلطة الموروثة تنافي الصواب وذلك من غير مانظر الى عدم ضمانها لرسوخ أركان الدولة وانما لامكان بقائها في فرنسا. ولقد كانت مرعية فيها مدة طويلة ولكن على قواعد كانوا يسيرون عليها في ذلك العهد وانتسخت آثارها الآن ولم يبق الرجوع اليها ممكناً أو ضرورياً . فالسلطة الموروثة مشتقة من الحق المدني وهي تفترض الملك . وقد جعلت لتضمن انتقاله . فكيف والحالة هذه يمكن التوفيق بين الوراثة في السلطة العليا ومبدأ السيادة الشعبية ؟ وكيف يمكن اقناع الافكار بأن هذه السلطة نوع من الملك. وحين كان تاج الملك موروثا كانت سلطات متعددة موروثة أيضا وكان هذا التمويه شريعة تكاد تكون عامة بيد انه لم يبق لنا شيء منها . »

فمن ابتداء القنصلية الى انتهائها أصبح المستحيل ممكنا فهل زال ما كان بين الحاضر والماضي من التباين الذي استفحل أمره في سنة ١٨٠٠ أو كاد لا يكون شيئاً مذكوراً في سنة ١٨٠٤ ؟

انه لم يحدث شيء من هذا قط وهب ظل كل عصر محافظاً على أخلاق أهله فان بونابرت غير أفكاره ولم يكن يعتبر السلطة العليا مدى حياته كافية له فوقع في نفسه ان ينشيء أسرة ويصير أسرته من عداد الاسر المالكة : فسياسته المبنية على الفلسفة وحب الوطن والمتسعة الدائرة نظير سعة الصدر المنبعثة عنه أصبحت تتمرس من ذلك الحين بالشؤون الصغيرة وتهبط الى وهدة الأباطيل طمعاً بانشاء العترة التي كان يحلم بها .

وهذا ماقاله عنه دي شاتوبريان من هذا القبيل : « ان هذا الجبار الهائل لم يكن يقرن حظه بحظ معاصريه فكان دهاؤه عصريا ومطامعه من بقايا العهد القديم وقد فاته ان معجزات حياته تفوق كثيراً قيمة التاج وان هذه الحلية الغوطية الطراز لاتلائمه . »

ولا بد من القول بأن بونابرت مع شعوره بالضعف أمام المطامع المتسربة اليه من العهد القديم لم يذهل عن حاجته الى الدهاء العصري فلم ينسب الى

السلطة الموروثة التي كان يبتغي انشاءها الصفة المطلقة والنتائج الجلية المنسوبة الى الحق الالهي القديم بل كان بعكس ذلك يرمي الى التوفيق بقدر الامكان بينها وبين سيادة الشعب . فلما مضى اليه أعضاء مجلس الشيوخ في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة (١٨ مايو سنة ١٨٠٤) ليرفعوا اليه قرارهم الذي يدعونه به الى تسلم العرش الامبراطوري واعلانهم الامبراطورية موروثة في أسرته خاطبهم بما يأتي : —

« اني أبسط للشعب قانون الوراثة منتظراً موافقته عليه وأؤمل ان فرنسا لاتندم أبداً على ايلاء أسرتي هذا الشرف الاثيل . وفي كل حال لاتبقى روحي مع ذريتي في اليوم الذي لاتبقى فيه هذه الذرية جديرة بمحبة الشعب الفرنسوي وثقته . » أولم ينشىء على هذه الصورة وراثة معلقة على شرط ويخضع امتيازات الأصل والفصل لحقوق الأمة ويدعم سيادة الشعب ويرض علنا بسقوط الاسرة التي أنشأها حين تفقد ثقة الشعب بها ؟

وعلى هذا النمط لم يكن مبدأ الوراثة يخول أعضاء الأسرة الامبراطورية إلا نوعا من الترشيح الشرعي الذي كان من شأنه ضمان النظام وثباته عند الخوف من حدوث شغب على أثر خلو العرش من الجالس عليه من دون ان ينزع من الشعب الحق السامي الذي يخوله نبذ الشخص الحاصل على حق الوراثة حين لا يكون هذا الشخص نائلا محبة الشعب وثقته .

وعلى هذه القاعدة بنيت السلطة الموروثة في فرنسا في مفتتح القرن التاسع عشر على أن بونابرت الموجس خيفة من قضاء نحبه قبل ان يتيسر له قضاء مايتوخاه من العمل الخطير والمبتغي ان يكون له وارث يضمن بقاء عمله وثباته سيعيش بعد اسرته ويبقى بعد الحكومة التي أنشأها لعدم تمكنه من وجدان عضد يضافره على الاجنبي في الاسد الشعبي الذي قيده أو خدره في ظل استبداده المجيد . فان اقتراع الكسمبور والمسح بالزيت المقدس في نوتردام لم يجدياه نفعاً لأن مجلس الشيوخ الذي نوه بمجده وأوصله حتى عنان السماء ماعتم ان نبذه نبذ النواة والحبر الذي منحه البركة مالبث ان قذفه باللعنة . ولما عادت الاسرة الشرعية القديمة وجلست على أنقاض الاسرة الامبراطورية وجعلت تتيه عجباً وخيلاء وتتحرش بروح العصر والأمة نهض بعض العملة المرتدين أطماراً

وتمكنوا من معاقبة هذه العترة على عجرفتها منتقمين للأمة والعصر ومؤيدين الكلمة التي فاه بها بونابرت نفسه : « ان السلطة الموروثة على مثال ما كانوا يفهمون معناها في عهد ملوكنا الأقدمين أصبحت من جملة المستحيلات . » وسيرى القراء فيما بعد ان دهاء الانسان وشرف المحتد والتكريس في باريس والتكريس في رنس ليست سوى ضمان باطل الثبات واذا كان التكريس الدستوري للعرش الموروث يدفع عن البلاد غوائل الفتن المتوالية بين الشعب والدسائس الانتخابية التي كثيراً ماتصحبها المتالف فما ذلك إلا ليجعله هدفاً لسهام الاضطرابات الثورية المتصل بعضها بالبعض الآخر . أجل انه لايكون ثمة سبيل للخوف من توالي الاجتماعات ولكن لا يكون هذا الأمر واقياً لعري العترة المالكة من الانفصام . فبدلا من ضجيج الناخبين يسمع في ذلك الحين قعقعة السلاح فتغزى البلاد أو يحل عقال الفتنة واذ ذاك يصبح نظام الخلافة الموهوم انه واسطة ثابتة لدوام بقاء الحكومات منتهك الحرمة مرتين في أقل من عشرين سنة تارة بالحراب الأجنبية لعضد منتخب الامة وتارة بسيف الأمة لعضد منتخب الحراب الاجنبية . فليكبروا والحالة هذه لنجاتهم من الاضطرابات الملازمة للطريقة الانتخابية ولوضعهم أمن الدولة وحظ الأسر المالكة تحت حماية السلطة الموروثة ! . . . »

فما هي النتيجة الأدبية لاعادة الملكية والسلطة الموروثة الى فرنسا وتأثيرها بأفكار الشعوب الاوربية ؟

واذا نظرنا الى الملكية والسلطة الموروثة نظرة مجردة فهل نرى انهما غنمتا فائدة حقيقية ؟ وهل أصبحت أركان العروش أكثر توطداً ؟ وهل ازدادت دعائم الأسر المالكة ثباتاً ؟ وهل استعاد تفوقها القديم الناشئة عنه فخامتها وسطوتها قوة السحر الذي كانت تتسلط به في خالي الحين على الهيئة الاجتماعية الاوربية جمعاء ؟

على ان هذه الفخامة كانت بعكس ذلك تضعف بين الشعوب حين كان القوم يرون ان الشعب المستعين بالثورة لاصابة السلطة وادراك الحول والطول اختار جندياً من بين جنوده وجعله عاهلا وألبسه الارجوان وعقد التاج على رأسه من دون ان يلقى الملأ في هذا الأمر مايدعو الى الشك مما لم تكن أوربا القديمة

تنظر اليه إلا عقلة النفور زاعمة انه ضرب من الالحاد والابتداع ونوع من المروق والاختلاس .

وقد طرأ على مبدإ الوراثة تغير ذو بال حين تسنى للأسر الخاملة الأصل ان تحل محل الأسر العريقة في الشرف في فرنسا وايطاليا وأسبانيا وغيرهن من البلدان وان تتآخى الأسر الدخيلة وأحفاد شارل الخامس وبطرس الاكبر وفريدريك العظيم .

ولا يخفى انه كان مكتوبا لبونابرت ان يظل عاملا من أقوى العوامل لخدمة الثورة حتى في أعماله التي كان يبدو عليها انها مخالفة كل المخالفة لمبادئ الثورة وكل يدري ان هذه الثورة اضطرت في مناصبتها لاوربا جمعاء الى الانتقال من الملكية الدستورية الى الجمهورية وألجئت في امتدادها في أوربا جميعها ونشر جرائيم المبادئ الفرنسوية في كل ناحية الى السعي وراء المطامع وركوب مركب الفتوح والتدرج من الجمهورية الى الملكية الجاهدة . وقد تم هذا الانتقال الاخير بقرار من المجلس صدر في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة (١٨ مايو سنة ١٨٠٤) فتوجه القنصل كمباسيريس حاملا القرار الخطير الى زميله الذي أصبح سيده ومولاه فقاه بحضرته بالكلام التالي :

« لقد ذاق الشعب الفرنسوي في أثناء القرون الماضية طعم الفوائد المعلقة على وراثة السلطة وقد اختبر اختبارا قصيرا بيد انه مؤلم المبدأ المعاكس لذلك الا أنه ركب بعد مفاوضات حرة ومبنية على التروي طريقا ملائما لأفكاره وهو يستعمل مختارا حقوقه ليسخر لجلالتك الامبراطورية قوة تحول مصلحته من دون مزاولتها بذاته وهو يقرر للأجيال الآتية وبوثيقة علنية القاء مقاليد سعادة أبنائه الى أعقاب تتحدر من نسلك . فهؤلاء يتصيرون فضائلك وأولئك يرثون محبتنا وأمانتنا . »

فأجاب نابوليون :

« كل ما يأول الى خير الوطن مرتبط من جوهره بسعادتنا فأنا أقبل اللقب الذي ترونه موافقا لمجد الامة »

ثم انه أخضع الوراثة الجديدة لتثبيت اقتراع الامة فصرف همته الى تحاشي اثارة نفور الديمقراطيين في ذلك العهد وعني بابداء علامات الاحترام لسلطة

الشعب بما أتاه من العمل الذي كان من شأنه أن يقف حاجزاً في وجه تلك السلطة ففاه حينئذ بالعبارة المشهورة التي أوردناها عنه : « اني أبسط للشعب قانون الوراثة منتظراً موافقته عليه وأؤمل أن فرنسا لا تندم أبداً على إيلاء أسرتي هذا الشرف الاثيل . وفي كل حال لا تبقى روحي مع ذريتي في اليوم الذي لا تبقى فيه هذه الذرية جديرة بمحبة الشعب الفرنسوي وثقته . »

ولما خرج أعضاء مجلس الشيوخ من حضرة الامبراطور توجهوا الى جوزفين حاملين اليها لقب امبراطورة فخاطبها كمباساريس بهذا الكلام : « يامولاتي ان لسان الشهرة يذيع الخبر الذي لاتزالين تأتينه وهو يقول أنك لا تنفكين عن مؤاساة البائسين ولا تستخدمين مالزعيم الحكومة من الثقة بك الالتفريج كرب الملهوفين وان جلالتك تضيفين الى مسرتك بعمل الاحسان لطافة ومحبة تجعلان الافراد بالجميل عذباً واتيان المعروف نافعاً . وهذه المقاصد الحسنة تجعلنا نتفاءل بأن اسم الامبراطورة جوزفين سيكون علامة للتعزية والامل . . . ويهنئ مجلس الشيوخ نفسه بأن يكون في مقدمة المهنئين لجلالتك الامبراطورية . »

وقد كوفئ كمباساريس على غيرته باسناد منصب المستشارية الكبرى اليه فيكون قد استبدل بلقب رئيس الجمهورية الثاني لقب التابع الاول للامبراطورية . وجعل لبرون ناظر بيت المال الاكبر .

ولم يقتصر نابوليون على مداراة عواطف الجمهوريين في جوابه لمجلس الشيوخ بل نم بالاسرار الكامنة في ضميره في صورة القسم الذي فاه به عند جلوسه على العرش . فقد أراد أن يجعل فرنسا قاطبة تدري أنه لا يزال كما كان وهو قنصل ممثل الثورة الاول وهو امبراطور والعضد المتين لمصلحة الأمة والنصير الاكبر للجمهورية نفسها . واليكم صورة ذلك القسم :

« أقسم على أن أحافظ على كمال أرض الجمهورية وعلى أن أحترم وأجعل الناس يحترمون قوانين الكنكردا وحرية الاديان وعلى أن أحترم وأجعل الناس يحترمون المساواة في الحقوق والحرية السياسية والمدنية وعدم نقض بيع مقتنيات الامة وعدم وضع ضرائب وفرض رسوم الا ما كان منها مطابقاً للقانون وعلى أن أحافظ على بقاء نظام جوقة الشرف وعلى أن أتولى الحكم وليس لي من غاية أرمي اليها سوى مصلحة الشعب الفرنسوي وسعادته وفخره » .

على أن نابوليون مع ما بذله من الجهد لاقناع الامة بأن انشاء الامبراطورية لايمس بشيء من الاشياء المبادئ الجمهورية لم يتسن له أن يجمل انشاء أسرة جديدة يزيل من أفكار الجمهوريين الشديدي الاعتصام بمبادئهم ما كان يجول فيها من المخاوف ولم يتمكن من منعهم عن اقامة النكير والاحتجاج بعنف على نوع الحكومة الجديدة وكان أشدهم عارضة في الاعتراض كارنو المفوض اليه أمر المناضلة عن الجمهوريين . وقد نشأت في ردهة المجلس فكرة إعادة السلطة الموروثة الى نابوليون وأسرته وهناك عاكسها كارنو من نشأتها وقاومها بما عرف عنه من الفصاحة وشدة الصريمة . وكان من جملة ماقاله في هذا الموضوع ما يأتي : « من ١٨ برومير دخل عصر فريد في بابه من انشاء العالم يستطيع فيه المرء أن يعمل عوامل فكرته وهو بعيد عن عواصف الاهواء والاقدار ويبني صرح الحرية على دعائم متينة اعترف بها الاختبار والعقل . فمد صائح امبان تمكن نابوليون من الاختيار بين الطريقة الجمهورية والطريقة الملكية . وكان يستطيع عمل كل ما يبتغيه بحيث انه لم يكن يلقى أدنى معارضة : فقد كان مؤتمناً على الحرية وقد آلى على نفسه أن يذود عنها . وكان بره بقسمه يتمم جميع رغائب الامة التي وجدت فيه الكفاءة لحل عقد مستبهمات مسائل الحرية العامة في بلادها المتراخية الاطراف . وكان يمكنه أن يرتدي بمطارف فخر فاقد النظير... »

وكان كلام كارنو كصوت صارخ في البرية فقد أجمعت كلمة المجالس في الحكومة على ترميم ما تداعى من صرح الملكية حتى خيل للناس ان في الامر بعثاً عجيبا في الحزب الأيمن من الجمعية الدستورية ومع ذلك لم يكن مجلس الشيوخ ولا مجلس النواب ولا المجلس الاشتراعي قد أخذوا ذلك الطريق من تلك الجهة للانتهاء الى الغاية التي كانوا يؤمونها بل كان مجرى الحوادث يدعو متقدمي الكنفنسيون الى التحول بغتة الى متزلفين متملقين ذاهلين عن المبادئ التي كانوا يعتصمون بحبلها بالامس واللهجة التي كانوا يفوهون بها والزي الذي كانوا يبرزون به للانظار

وقد تصير القواد الجمهوريون قدماء ممثلي الشعب في الاذهان لمقتضيات الأحوال فانهم ببقائهم على عهد الأمانة للفتنة الكبرى ارتضوا بأن يقفوا ذواتهم على خدمتها في شكلها الجديد ولا سيما حين وجدوا ضمانا لبقاء سيادتهم

وفي غد اليوم الذي ارتقى فيه نابوليون الى السدة الامبراطورية دعا اليه أشهر رفاقه في ميادين القتال وأنعم عليهم بلقب مارشال وهم برتيه ومورات ومنسي وجوردان وماسينا وأوجرو وبرنادوت وسولت وبرون ولان ومرتيه وناي ودافو وبسيار وكلرمان وليفيفر وبرينيون وسروريه .

ولم ينقم الشعب على أولئك الجنود الذين خدموا الجمهورية باخلاص وأمانة ولم يتهمهم بجحدهم مبادئها عند رؤيته اياهم يقبلون اللقب الذي يدير على النهى ذكر عهد الملكية بل اعتبر بعكس ذلك ان الميزة الجديدة نوع من الاحترام لمبادئ المساواة التي كانت عزيزة جداً عنده: أي ان هذه الميزة كانت تمنح مكافأة على الأهلية الجندية خلافاً للميزة التي كانت تمنح في عهد الملكية الماضية لشرف الأصل والفصل .

وما عتمت ان سنحت لنابوليون فرصة مكنته من افتتاح عصر جلوسه على عرش الامبراطورية بعمل من أعمال الرحمة فان مجلس الجنايات كان قد أصدر في ١٠ يونيو من سنة ١٨٠٤ حكماً قاضياً بالموت على جورج كادودال ورفاقه. وكان الجنرال مورو بما له من الشهرة وبما للجيش من التعلق به قد نجا من طائلة العقاب ومن الحكم الصادر على رفاقه المتآمرين فاكتفى المجلس بالحكم عليه بالسجن سنتين ثم استبدل بذلك الحكم النفي المؤبد . وكان بين المتهمين المحكوم عليهم بالموت أشخاص من أصحاب العنصر الكريم كدي ريفيار ودي بوليئياك وغيرهما . وبذلت لدى نابوليون جميع المساعي الفعالة لتخليصهم من غائلة الردى ووطنت جوزفين النفس على عضد مطالب أسر أولئك المنكودي الحظ . ومضت بايعاز منها لتلك الغاية عقيلة دي منتسون الى سان كلود وقدمت للامبراطور عقيلة دي بوليئياك ملتمسة منه العفو عن زوجها وعن دي ريفيار وبعد أيام قالت الامبراطورة: « تمكنا من ادخال عقيلة دي بوليئياك عليه فيالله ما أجملها! ولما أبصرها نابوليون تأثر وقال لها : ياحضرة السيدة لقد تعمد قرينك الايقاع بي ولكني أصفح عن جريمته »

ولم يقف كرم نابوليون عند حد العفو عن المحكوم عليهم الذين كان شرف نصابهم يوجد لهم من كبار القوم من يتدخلون في شؤونهم بل تجاوز الى ما وراء ذلك الحد فان فتاة خاملة الأصل لم يكن حظها أقل من حظ عقيلة دي بوليئياك لدى نابوليون فانها خرجت من قصر سان كلود نائلة مبتغاها أي انها أدركت

لأخيها ماتكرم به العاهل لقرين السيدة النبيلة . وان المرحمة الامبراطورية الملتمسة لدي بولينياك ودي ريفيار تناولت أيضاً لاجوله وبوفه دي لوزيه وروشل وغاليار وروسيليون وشارل دوزيه . أما جورج ورفاقه فانهم أرسلوا الى النطع . وانتحر بيشغرو في سجنه مستدركا بذلك الامر الحكم عليه واجراء الحكم بحقه . وقال نابوليون في هذا الصدد في مفكراته ما يلي : « ان اجراء الحكم بحق جورج لم يبق بعده أدنى أسف عند القوم لان جريمة القتل مهما كان السبب الداعي اليها تعتبر في عيون الفرنسويين ممقوتة . وان عمل يهوديت يقتضي كل ما في الكتاب المقدس من القوة لئلا يفور عليها ثائر القوم . » وأما انتحار بيشغرو فهو متلبس بالشك في عصر اتفقت فيه عواطف الاحزاب المختلفة واهواء الجماعات المدحورة على تسويد صحيفة الظافر والقدح في عرضه . وقد يكون ثمة اشخاص من كرام القوم قد قام في وجدانهم ان وفاة بيشغرو على تلك الصورة تمت بأمر من الامبراطور . واليكم ما قاله نابوليون في هذا الشأن في مفكراته .

« من العار على المرء ان يسعى لتبرئة نفسه وهو لعمري ضرب من الحماقة وأي فائدة كنت أؤمل اصابتها ؟ فمن كان ذا خلق نظير خلقي لا يفعل شيئاً من الاشياء من دون أن يكون مدفوعاً اليه بعامل من العوامل الكبيرة . وهل رآني أحد من الناس أسفك الدم منقاداً اليه بعامل الهوى ؟ ومهما بذل الخصوم من الجهد لتسويد صحيفة حياتي والغض من كرامتي فان الذين يعرفونني حق المعرفة يعلمون اني من ذات طبعي بعيد عن اقتراف الجرائم . وليس في حكومتي جميعها عمل من الاعمال الخاصة إلا وأستطيع ان أتكلم عنه أمام المحاكم وأنا ناعم البال وغير محاذر فيه لومة لائم . وواقع الحال يدل على ان بيشغرو لما وجد ان الامر ضاق عليه وانسدت في وجهه جميع المسالك لم يسع نفسه الكبيرة ان ينظر الى العذاب الذي يتوقعه من دون ان يشعر بفظاعة موقفه فتخير الانتحار لقنوطه من رحمتي أو لاستهانته بها . »

وبينما العمال والملوك والاقيال الذين أغروا جورج وبيشغرو على اتيان الخيانة وعادوا الى اجراء هذا الامر وهم في أرض بريطانيا العظمى يتجرعون كؤوس الخزي لانهم كانوا سبباً لمنح الصولجان لمن تعمدوا اهلاكه كان زعيم

آل البوربون المقيم في فرسوفيا والقائل عنه نابوليون انه لم يجده منتظما في سلك احدى المؤامرات الموجهة ضده رأساً معتقداً انه لا بد له من اذاعة نشرة يعارض بها ماقرره مجلس الشيوخ عن انشاء أسرة مالكة رابعة . وكان فوشه أول من وقف على النشرة فبادر الى رفعها الى الامبراطور متوهما ان نابوليون سيقدر له خدمته حق قدرها وانه سيصدر على الفور أمراً يحول دون انتشار نشرة لويس الثامن عشر في فرنسا . إلا ان سهم ظنه ضل عن المرمى فان نابوليون تناول النشرة وقرأها ثم أعادها الى الوزير وقال له برباطة جأش : « ان الكونت دي بروفنس يتعمد ركوب مركب الحماقة فليفعل مايروقه فعله ! ان حقي منوط بارادة فرنسا وما دام لي سيف فأنا أستطيع المحافظة عليه . ومع ذلك يجب على البوربون ان يعلموا اني لا أوجس خيفة منهم فليتركوني وشأني . أتقول ان الاغرار في دسكرة سان جرمان يبتغون ان يذيعوا نسخا من نشرة الكونت دي بروفنس الاعتراضية؟ فليقرأوها ماشاؤوا قراءتها. يافوشه ارسل هذه النشرة الى المونيطور . فأنا أريد أن تنشر في العدد الذي يصدر منه غداً . » وكان ان المونيطور نشر في عدده الصادر في أول يوليو اعتراض لويس الثامن عشر .

وبعد بضعة عشر يوماً وقع تذكار الاستيلاء على البستيل فتوهم بعضهم أن العاهل سينظر اليه بمقلة الاستنكار والنفور ولكن ساء ما توهموا فان نابوليون تمكن من الاستفادة من ذكرى ١٤ يوليو وجعلها مرتبطة كل الارتباط بالقوانين التي سنها والانظمة التي وضعها . فاختار ذلك اليوم لتوزيع نشان جوقة الشرف للمرة الاولى بعد انشائه وتفوه من منحوه بيمين الاقامة على عهد الامانة واحتفلوا بالحفلة في الانفاليد . نخف الكردينال دي بلوى رئيس أساقفة باريس في مقدمة كهنته لاستقبال الامبراطور عند مدخل المعبد . وكان يحف بنابوليون كبار رجال حكومته وعظماؤهم وبعد الحفلة الدينية انبرى لاسيبيد المستشار الاكبر لجوقة الشرف وخطب خطابا نقتطف منه العبارات التالية :

«ان كل ماتوخاه الشعب في ١٤ يوليو في سنة ١٧٨٩ نراه اليوم قد تم بمشيئته فقد ادرك حريته المبنية على أس الشرائع الثابتة وقد ابتغى المساواة فهي الآن تدافع عنها حكومة باتت المساواة ركنا من أركانها . . رددوا هذه الكلمات التي لفظت قبلا في هذا المكان وليردد صداها جميع أطراف الامبراطوريه ! فكل

ماوضعه اليوم الرابع عشر من شهر يوليو ثابت وغير متزعزع ولاشيء مماهدمه ذلك اليوم يستطاع ترميمه . »

وبعد هذا الخطاب قرأ لاسيبيد أسماء الذين نالوا نشان جوقة الشرف وكان بينها اسم الكردينال كبرارا . فلبس العاهل قبعته على مثال ملوك فرنسا وفي أثناء السكوت السائد على الجماعة قال بصوت جهوري :

« أيها القواد والضباط ورجال جوقة الشرف والوطنيون والجنود هل تقسمون بشرفكم على ان تقفوا نفوسكم على خدمة الامبراطورية والمحافظة على أرضها وبقاء كيانها كاملا والدفاع عن الامبراطور وشرائع الجمهورية والاملاك التي قدستها والمناوأة بجميع الوسائل التي يجيزها العدل والعقل والشرع لكل مشروع يراد به اعادة طريقة الحكم الاقطاعي والسعي بكل مالكم من القوة للمحافظة على الحرية والمساواة المعتبرتين قاعدتين اساسيتين لقوانيننا . هل تحلفون ؟ » فصاح جميع رجال جوقة الشرف بصوت واحد : « نعم نحلف » وتلا ذلك هتاف الحضور في المعبد فليحيي الامبراطور . ويقول المسيو دي بوريان انه كان متعذرا وصف ما أظهره القوم من الحماس في تلك الساعة .

ووضع في غد اليوم الذي احتفلوا فيه بتلك الحفلة الشائقة نظام جديد لمدرسة المهندسين .

وبعد يومين خرج نابوليون من باريس ميمما سواحل المانش لتعهد المعسكرات التي كان قد أمر بانشائها فيها وأذاع ان الغاية التي يرمي اليها من وراء رحلته هذه كانت توزيع نشان جوقة الشرف بحفلة كبيرة على الشجعان الذين لم يتيسر لهم حضور حفلة الانفاليد . الا ان هذا الأمر لم يحل عند القوم محل التصديق وعلم الجميع ان هذه الاذاعة لم تكن سوى حجة واهية وان غاية نابوليون الوحيدة كانت غزو الديار البريطانية .

وكانت الجيوش الفرنسوية في تلك الأنحاء ممتدة من أتابل حتى أستند وقد أسندت القيادة في دنكرك الى دافو وفي كاله الى ناي وفي سان أومير الى أودينو وعند حدود هولندا الى مرمون وفي المعسكر العام ببولون الى سولت

ولما وصل الامبراطور الى مدينة بولون وجد الجيش ملتهبا بنار الحماسة والجرأة فكان الجنود والقواد معتقدين انهم موشكون ان يجتازوا المضيق حتى

ان القوم الذين فى ما وراء المانش لم تكن أفكارهم تستقر على حال من فرط ماناً بهم من القلق . وكان في البحر خمس مئة سفينة يتولى قيادتها الاميرال فرهويل وهي تنتظر الأمر بالتوجه الى ثغور بريطانيا العظمى ولم يكن أحد غير نابوليون واقفاً على سر الغاية المتصودة من حشد هذه القوات الهائلة فى هاتيك الانحاء فانه مع تهديده لبريطانيا العظمى تهديداً حقيقياً كان يشعر بأن في القارة الاوربية عواصف جديدة تتهيأ للانقضاض عليه . وبينا هو يتذرع بالذرائع الفعالة لانشاء بمئة بحرية هائلة كان يدبر أيضاً بهمة لا يعتريها الملل أسباب حرب برية عظيمة كان يلمح بروقها تومض في الأفق البعيد ويخشى من صواعقها الفتاكة .

واحتشد من معسكري بولون ومنرويل ثمانون ألف رجل بقيادة المارشال سولت فى سهل فسيح قراب برج قيصر . وكان الامبراطور بينهم يحف به أركان حربه المؤلفون من أشهر قواد ذلك العصر . فوقف على يفاع من الأرض كان كأن الطبيعة هيأته له عمداً كعرش وهناك كرر بصوت جهير الخطاب الذي خطبه في حفلة الانفاليد فلم يكن كلامه في بولون أقل تأثيراً منه في باريس فبعث دفين الحماس في القلوب وقد ارتاح كل الارتياح الى ماشاهده من المظاهر بحيث ان الجنرال راب أحد حجابه صرح بأنه لم يشاهد قط العاهل نابوليون على ما كان عليه من الابتهاج في ذلك الحين .

الا أنه حدث عند انتهاء النهار ما كدر صفاء الحفلة الشائقة فان عاصفة شديدة هبت وجعلت الناس يتخوفون من تلف قسم من الاسطول . ولما انتهى الامر الى العاهل خف لساعته الى المرفأ وأمر باتخاذ التدابير اللازمة وراقب بذاته اجراءها . ولكنه ما كاد يصل الى المرفأ حتى سكنت العاصفة كأن العناصر كانت خاضعة لسلطة هذا الرجل العظيم . فدخل الاسطول المرفأ من دون أن يفقد منه شيء وعاد نابوليون الى المعسكر . وما عتم الجنود ان عادوا الى ارتشاف كؤوس الملذات ومزاولة الملاهي . وختمت الحفلة باقامة الزينات الباهرة بالنيران الصناعية ورشق السهام النارية في الفضاء وقيل ان القوم في سواحل انكلترا شاهدوا تلك السهام

وكان في أثناء اقامة نابوليون في معسكر بولون أن نوتيين بريطانيين أسيرين في فردون فرا وتمكنا من الوصول الى بولون حيث بنيا زورقا صغيراً ولم يكن لهما من الادوات غير مديتيهما اللتين عالجا بناءه بهما فكان لهما زورق صغير صمما على الذهاب به الى انكلترا وهو زورق خفيف يسهل على الرجل الواحد حمله على ظهره . ولما فرغا منه أنزلاه الى الماء وعالجا الوصول به الى سفينة حربية بريطانية كانت في عرض البحر قبالة الشاطىء . وما كادا يوغلان في اليم حتى لحقهما رجال المكس فلم يمض عليهما وقت طويل حتى أمسكا وأرجعا الى البر وسيقا أمام العاهل نابوليون وكان قد رغب في رؤيتهما ورؤية زورقهما الصغير لما كان قد شاع بين الجيش عن جرأتهما الغريبة . فسألهما العاهل قائلا : « أصحيح انكما عقدتما عروة العزم على اجتياز البحر بهذا الزورق ؟ » فأجاباه قائلين : « يا صاحب الجلالة ان كنت مرتاباً في أمرنا فافسح لنا بالمضي فتبصرنا منطلقين » . فقال لهما نابوليون : « أريد أن أفسح لكما بالانطلاق فأنتما جريئان مقدامان واني لتعجبني الشجاعة أيان كانت ولكنني لا أشاء أن تتعرضا للخطر فأنتما حران وسأصدر الامر بتوجيهكما الى سفينة بريطانية فقولا للناس في لندرة اني أحترم الشجعان وإن كانوا أعدائي » .

فهذان الرجلان اللذان لو لم يأمر العاهل بهما أن يمثلا لديه لكان قد قضي عليهما بالموت كجاسوسين لم يقتصر على منحهما الحرية بل جاد عليهما نابوليون ببعض الدنانير . وكان يسر وهو في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة بأن يروي لرفاقه هذه الحادثة .

قلنا ان العاهل نابوليون كان متوقعاً عاجلا أو آجلا اشتعال نار الحرب في أوربا وكان يفقه جيداً انه وان كانت الحكومات الملكية قد عدلت لهجتها وخففت من غلوائها خوفاً من سطوة وبأس الجيوش الفرنسوية فانها لم تكن لتغير شيئاً من عواطفها ومبادئها . وكان ينتظر من يوم الى آخر أن يرى دسائس الحكومة البريطانية تتمكن من اقناع حكومات فينا وبطرسبرج وبرلين بعقد محالفة جديدة لمناهضة فرنسا . وكل من يدري ما كان من التنافر بين حكومة فرنسا المعتبرة ربيبة للثورة والحكومة الملكية القديمة العهد في الممالك الاوربية

لا يقضي العجب بتة من رؤيته جميع هذه الممالك تعلن العداوة لفرنسا . وفضلا عن ذلك كان نابوليون واقفاً بواسطة سفرائه على سوء مقاصد الحكومات النمساوية والروسية والبروسيانية وميلهن الى إضرام مواقد الهيجاء .

وكان الجيش المحتشد لديه في بولون والمؤلف من ثمانين الف رجل يمكنه من الاشتباك بحرب هائلة كانت المقاصد السيئة الآنفة الذكر تبعث على الظن بقرب حدوثها . وكان يرى في ذلك الحادث مستقبله ومستقبل فرنسا وعليه لم يهمل شيئاً من شأنه إقالة عثار قوى الجيش واضرام سعير الحماسة في أفئدة رجاله فألف من ذلك الحين من بقايا جنود الجمهورية الكتائب الامبراطورية التي قيضت لها العناية أن تطأ بأرجلها جميع العواصم الاوربية . ولم يكن يرى في ذلك الحين الا الجنود أنفسهم والقواد ذواتهم ورجال القرن الثامن عشر وروحه وبعبارة أخرى أبناء الثورة الكبرى . وكان معسكر بولون مهداً للجيش العظيم الغازي الناشر مبادىء الثورة . وبعد ما أصاب في عشر سنوات انتصارات لم يسبق لها مثيل ألقى في سهول واترلو قبراً حفرته له يد الخيانة والقدر وأصبح مشهوراً ببسالة الابطال الذين آثروا الموت على الاستسلام للعدو .

على ان ما كان الامبراطور مهتما به من جهة تهيئة عدد الحرب لم يحل دون اهتمامه بمزاولة شؤون ادارة سلطنته فكان يسر بأن يظهر ان دهاءه وعنايته لم يكونا مقتصرين على جميع فروع الحكومة بل كان فكره يستطيع الامتداد في الوقت عينه من دون أن يفقد شيئاً من صفائه وحدته الى غير ذلك من الامور على اختلاف أنواعها فانه أنشأ وهو في معسكر بولون يتفقد شؤون الجيش ويعرضه الجوائز العشرية بمرسوم هذا نصه :

« من نابوليون عاهل الفرنسويين الى المطلعين على هذه النشرة سلام :

« حيث كانت غايتنا مناصرة العلوم والآداب والفنون التي من شأنها اعلاء منار مجد الامم وحيث لم تكن رغبتنا مقصورة على محافظة فرنسا على التفوق الذي أصابته في العلوم والفنون فقط بل كانت أمانينا أن نرى العصر الجديد يفوق جميع العصور التي تقدمته وحيث كنا نبتغي أن نعرف الاشخاص المبرزين على غيرهم بالاشتراك في تعزيز العلوم والآداب والفنون نأمر باذاعة ما يلي :

« المادة الاولى : في اليوم الموافق للثامن عشر من شهر بروميري يحتفل مرة

واحدة في كل عشر سنين بتوزيع جوائز سنية تسلم من يدنا في حفلة ومكان يسبق تعيينهما .

«المادة الثانية : ان جميع ما ينتشر من المؤلفات العلمية والادبية والفنية وجميع الاختراعات المفيدة والمنشئات المخصصة لتقدم الزراعة والصناعة الوطنية وينشر ويعرف أو يؤلف في خلال عشر سنوات وتسبق بسنة واحدة وقت التوزيع يحق له الاشتراك في المسابقة لنيل الجائزة الكبرى .

«المادة الثالثة : تقام الحفلة الاولى لتوزيع الجوائزالسنية في١٨ بروميير من السنة الثامنة عشرة ويتناول السباق بموجب منطوق البند السابق جميع المؤلفات والاختراعات أو المنشئات المنتشرة أو المعروفة فى المدة الممتدة بين ١٨ بروميير من السنة السابعة و ١٨ بروميير من السنة السابعة عشرة .

«المادة الرابعة : تكون قيمة بعض هذه الجوائز السنية عشرة آلاف فرنك وقيمة البعض الآخر خمسة آلاف فرنك

«المادة الخامسة : تكون الجوائز الكبرى البالغة قيمة الواحدة منها عشرة آلاف فرنك تسع جوائز تمنح على الوجه الآتي بيانه :

«١— لمؤلفي أفضل كتابين علميين أحدهما في العلوم الطبيعية والآخر في علم المعقولات

«٢— لمؤلف أفضل تاريخ أو أفضل قطعة تاريخية سواء كان في التاريخ القديم أو في التاريخ الحديث

«٣— لمخترع أنفع آلة في الفنون والمعامل

«٤— لمؤسس أفضل معهد للزراعة اوللصناعة الوطنية

«٥— لمؤلف أفضل رواية تمثيلية سواء كانت هزلية أومأساة تمثل على الملاعب الفرنسوية

«٦— لمنشيء أفضل أثرين أحدهما في التصوير والآخر في الحفر يمثلان اعمالا خطيرة أو حوادث كبيرة مأخوذة عن تاريخنا

«٧— لمؤلف أفضل قطعة موسيقية تنشد على ملعب ندوة الموسيقى الامبراطورية

«المادة السادسة : يكون عدد الجوائز الكبرى البالغة قيمة الواحدة منها خمسة آلاف فرنك ثلاث عشرة وتمنح على الصورة الآتية :

« ١ـ لمترجمي عشرة كتب من المخطوطات فى المكتبة الامبراطورية أو في غيرها من مكاتب باريس مما هو مكتوب باللغات القديمة أو اللغات الشرقيـة وتكون أجدى فائدة من سواها للعلوم أو التاريخ أو الاداب او الفنون .

«٢ـ لناظمي عقد ثلاث قصائد صغيرة من أبلغ القصائد يكون موضوعها دائراً على حوادث كبيرة من تاريخنا أو على اعمال خطيرة تعلي مجـد أخلاق الفرنسويين .

«المادة السابعة : تمنح هذه الجوائز بناء على تقرير واقتراح لجنة مؤلفة من أربعة مستشارين دائمين من لدن فروع الندوة العلمية الاربعة ومن أربعة رؤساء عاملين فى السنة التي تسبق سنة التوزيع » .

وبينا جميع أوربا تنتظر غزوة نابوليون لانكلترا شاهدته بروسل يغشاها فجأة وكان قد ضرب لجوزفين موعداً توافيه فيه اليها . فخفت اليه واجتمعا في قصر لاكن الذي هيء لاستقبالها على غاية التأنق . وهنالك فاه نابوليون عن عقيلة ستال بالكلام الآتي بمناسبة رواية كورين التي وضعتها هذه المرأة : « اني لأحب النساء المترجلات ولا الرجال المتخنثين فيجب على كل انسان في هذا العالم أن يمثل الدور المخصص له. فما هذا الشرود فى الافكار ؟ وماذا يبقى منه ؟ لاشيء وكل هذا يعتبر مما لايدرك في العواطف ومن اختلال الفكر . فانا لا أطيق هذه المرأة لاني لا أشاء أن تتصدى لي النساء والله يعلم مابذلته لي من التملق . »

ولا يخفى ان ماكان نابوليون يشعر بهُ دائماً من النفور من عقيلة ستال التي أصبحت عدوة لدودة له لانها نالت من جراء ذلك الامر شهرة واسعة كما يستفاد من رواية نابوليون نفسه فى مفكراته يجمل ذلك الرجل العظيم مفتريا على النساء بوجه الاجمال وهو لم يكن يشكو الا من واحدة منهن على أن حكمه الصائب والعادل ضل عن المرمى هذه المرة لما كان يشعر به من القلق ولما كان قد اقتبسه من العادات حتى أنه لم يرعو عن هذا الحكم وهو في جزيرة القديسـة هيلانة وظل يجاهر بأن المرأة لا تصلح الا لوضع الاولاد. وكان يقول أمام عقيلة برتران وعقيلة منطولون : « أتدعون المساواة ؟ ان هذا ضرب من الحماقة ! فالمرأة ملك لنا ولسنا ملكا لها . »

ولم تطل مدة اقامة العاهل في قصر لاكن فبرحه متوجهاً الى اكس لاشابل



نابوليون فى ملابسه الامبراطورية

القضاء ردح من الدهر فيه وقد شاقه الى المكث فيه ميل سري الى عاصمة وضريح الفاتح المشترع الذي شاء نابوليون بعد الف سنة أن يرمم ما تداعى من صرح سلطنته وكان نظيره مفوضا اليه من الحق سبحانه وتعالى أن ينشر ألوية الحضارة في أوربا بما أوتيه من الدهاء والبأس

ويمم نابوليون مايانس مجتازاً كولونيا وكبلنتز عند عودته من مدينة شارلمان التي كان يبتغي نقل شاراتها الى باريس نخف للقائه أمراء الامبراطورية فاغتنم الفرصة مما شاهده فيهم من الحماسة لوضع أس محالفة الرين التي كان يفكر في اقامتها سداً لفرنسا في وجه الدول الشمالية العظمى

الا ان ما كان هؤلاء الامراء يبدونه له من مجالي الاكرام سواء كانت صادقة أو كاذبة واقتراع الشعب لم يكن لينقع غلة معيد سلطنة شارلمان : فان بطل القرون الوسطى كرس سلطته موطدا دعائمها على أساس الدين. أما نابوليون فمع ما كان مشهورا عنه من قلة الاكتراث للتفريق بين عصر وآخر شاء أن يجعل عرشه محفوفا بكل ما كان عرش شارلمان محفوفا به من الاركان . وأنفذ لهذا الغرض من ماياانس الى رومية كافارلي سفيرا يدعو البابا بيوس السابع الى المجيء لمسح نابوليون عاهلا على فرنسا في باريس . وفي أثناء المفاوضات أصدر نابوليون وهو على ضفاف الرين أوامره بتسيير أسطولين أحدهما من رشفور والآخر من طولون بقيادة أميري البحر مسياسي وفلنوف

وكان شديد الاهتمام بهاتين البعثتين البحريتين . وبعد غياب ثلاثة أشهر عاد الى عاصمته فوصل الى سان كلود في أواسط شهر أكتوبر



الفصل الثاني

دعوة المجلس الاشتراعي الى الاجتماع — تمحيص الاقتراع الشعبي — وصول البابابيوس السابع الى فرنسا — تتويج الامبراطور

ودنا الموعد المعين للتتويج فأخبر كافارلي المنفذ الى رومية للغرض الذي مر بنا ذكره في الفصل السابق انه بلغ متوخاه من مهمته : وعليه أوشك نابوليون ان يجلس على العرش الذي كان يجلس عليه خلفاء القديس لويس أبناء الكنيسة البكر برضى زعيم الكنيسة الاكبر وتحت رعايته . وكانت الحال تقضي بأن تصحب أبهة التمثيل السياسي فخامة الاحتفالات الدينية . ومعلوم ان مجلس الشيوخ ومجلس النواب ومجلس الشورى كانت معتبرة مجالس دائمة الانعقاد وكان المجلس الاشتراعي من دون سواه محتاجاً الى دعوة أعضائه الى الالتئام قبل الأجل المضروب لاجتماعهم بمدة من الزمان فدعي بموجب أمر عال صدر في ١٧ أكتوبر .

وأقسم أعضاء مجلس الشيوخ فرداً فرداً على رعاية عهد الامانة للامبراطور وخطب فرنسوى دي نوشاتو زعيم المجلس خطابا في حضرة العاهل نقتطف منه الفقرة الآتية :

« ياذا الجلالة في المستقبل البعيد حين يأتي أولاد أولادنا في مثل هذه الحفلة ليبايعوا الخلافة عاهلا من حفدتك أو حفدة أخوتك ويؤيدوا له يمين الامانة لحسبهم لاظهار عواطف الشعب وأمانيه وحاجاته ولرسم خطة الواجبات المقضي عليه المسير بموجبها ان يقولوا له هذه الكلمة : اسمك بونابرت وأنت رجل فرنسا فاذكر أيها العاهل اسم نابوليون الكبير . »

ولما جمعت أصوات الشعب للاقتراع على قرار مجلس الشيوخ الصادر في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة وتحقق مفوض الاحصاء الخاص الذي كان رودرير لسان حاله ان ثلاثة ملايين وخمس مئة واثنين وسبعين ألفاً وثلاث مئة وتسعة وعشرين وطنياً أبدوا رغبتهم في أن تكون وراثة العرش الامبراطوري في الذرية المتحدرة رأساً من نابوليون بونابرت بوجه طبيعي أو شرعي أو بشكل التبني وفي الذرية المتحدرة بصورة طبيعية أو شرعية من يوسف بونابرت ولويس بونابرت

فوض أيضاً الى فرنسوى نوشاتو نفسه ان يهنيء نابوليون بما باح له به الشعب الفرنسوي من أسرار الثقة ومعرفة الجميل . وفي تضاعيف عبارات الاطراء والتملق المزوق المركب منها الخطاب الرسمي الذي خطبه زعيم مجلس الشيوخ والذي كان معذوراً عليه لتوجهه الى مثل نابوليون تمكن الخطيب من التمييز بين الحكومة الامبراطورية والحكومة الملكية القديمة وتلك الميزة هي الميزة نفسها التي بين الثورة عينها وشكل الحكومة القديم ولولا ذلك لأبهم ايضاح معنى الاقتراع الحديث الذي أجراه الشعب الفرنسوي . وهذا ما قاله فرنسوي دي نوشاتو الآنف الذكر : « ان لقب الامبراطور لا يذكرنا بتلك الحكومة الملكية التي تذل لها الرعية وتتطامن لديها بل يدير على نهانا ذكر الفكر العظيم الحر الجائل في ذهن الحاكم الاكبر المتولي الاحكام باسم الشريعة وتتشرف الرعية بأن تخضع لمثل هذا الفكر السامي . »

وهذا جواب نابوليون :

« ارتقي الى العرش وقد دعتني اليه بالصوت الحي أماني مجلس الشيوخ والشعب والجيش وفؤادي مفعم بالشعور بالحظ الاكبر الذي أصابه هذا الشعب وقد كنت وأنا في ميدان الحرب أول من أطلق عليه اسم « عظيم » فمنذ حداثتي وقفت عليه جميع أفكاري ولا ندحة لي عن القول الآن بأن أفراحي وأتراحي ليست سوى صدى أفراح شعبي وأتراحه .

« وسيحفظ أعقابي زماناً طويلاً هذا العرش المعدود في مقدمة عروش الدنيا وسيكونون في ميادين القتال في مقدمة الجنود ويبذلون نفوسهم في سبيل الدفاع عن بلادهم .

« وبصفة كونهم حكاماً لا يذهلون أبداً عن ان احتقار الشرائع وتضعضع النظام الاجتماعي ليسا سوى ضعف العمال وترددهم .

« وأنتم يا أعضاء مجلس الشيوخ يا من لم تضنوا علي بمشوراتكم ومكاتفتكم لي في الاحوال العصيبة المحفوفة بالمصاعب ستنتقل روحكم الى خلفائكم فكونوا أعضاداً ومستشارين لهذا العرش الذي لا غنى عنه لسعادة هذه السلطنة الواسعة . »

وكانوا قد وصلوا الى اليوم السابق لليوم المعينة فيه حفلة التتويج وكان البابا بيوس السابع قد خرج من رومية في مفتتح شهر نوفمبر فانتهى الى فنتنبلو

في ٢٥ منه . وكان نابوليون قد دبر حفلة صيد ليتسنى له ان يخفف على تلك الصورة للقاء الحبر الاعظم فالتقى به على طريق نيمور وحالما وقعت عينه عليه ترجل لهذا البابا حذوه . وبعد ما تصافحا ركبا مركبة واحدة وسارا الى قصر فنتنبلو الامبراطوري المزدان بالرياش الفاخر الجديد . ودارت بين الامبراطور والبابا مفاوضات متوالية في ذلك المقام الفخم وبرحاه في ٢٨ نوفمبر ودخلا في اليوم عينه مدينة باريس .

وكان موعد حفلة التتويج قد ضرب في اليوم الثاني من شهر دسمبر ففي ريق الامر ترددوا في اختيار المكان الملائم للحفلة فبعضهم كان يرتئي ان يختار ميدان مارس والبعض الآخر ان تنتقى كنيسة الانفاليد أما نابوليون فانه آثر كنيسة نوتردام على سواها : فقد كان ميدان مارس ممتلئاً من ذكرى الفتنة الكبرى وهذا لم يكن يجعله ملائماً لحفلة تنسى فيه الثورة ما كان في فاتحتها من الحوادث المشؤومة وما كان يثور في صدر القوم من البغضاء للملوك وخدام الدين وتؤول الى تحقيق تغيير شكل الحكومة الملكية واقناع أوربا بأنها تستطيع التوفيق بينها وبين وحدة السلطة ومزاولة فروض الدين ونوافله

وقد كان من الخطأ أن يكرر في سنة ١٨٠٤ ماجرى في سنة ١٧٩٠ ولكن اذا كان بيوس السابع قد شعر بوجوب المحافظة على كرامته وانه من الغض لها أن يفعل مادبره تاليران فان نابوليون كان ذا ذوق سليم بحيث انه كان يحاذر أن يطلب من البابا فعل مثل ذلك الامر وقد قال: « ارتأى بعضهم أن تقام الحفلة في ميدان مارس تيمناً بذكرى التعاضد ولكن الازمنة تغيرت . . . وبعضهم ذهب الى اقامة الحفلة في كنيسة الانفاليد استنادا الى ذكرى الحرب المتعلقة بها اما أنا فعندي أن اقامة الحفلة في كنيسة نوتردام أفضل منها في سواها : فهذه الكنيسة واسعة ولها أيضا ذكرى تناجي الفكر أكثر من غيرها وسيكون من جراء ذلك أبهة تصيبها الحفلة بشكل باهر . . . »

ولما كان اليوم المعين ذهب بيوس السابع الى نوتردام ووراءه عدد غفير من رجال الدين وأمامه بغل جريا على العادة الرومانية وقد ضحك الباريسيون كثيرا من ذلك الامر مما ذهب برصانة الحفلة في بداءتها. وجاء الامبراطور بعد البابا. ولم يسبق أن نظر موكب عليه من مجالي العظمة والفخامة ما كان على ذلك

الموكب الحاف بالامبراطور فقد احتشد فيه جميع مشاهير الرجال على اختلاف طبقات الشعب. وقد امتزج فيه بهاء المجد الشخصي ببهاء المقامات والمناصب فان بهرجة الشارات والبزات وفخامة المركبات والخيول المطهمة وزخرفة الملابس وتوارد المتفرجين القادمين من جميع انحاء السلطنة الفرنسوية كانت جميعها تأول الى تصيير الحفلة مشهداً من المشاهد التي لم تسمع الاذن أنه جرى نظيرها في العظمة والبهاء فقد كان يمثل الامة في نوتردام رؤساء الولايات ورؤساء دوائر الانتخاب ومندوبو الادارات المختلفة في الجيش والمجلس الاشتراعي وغيره من المجالس. فاقام البابا صلاة الحفلة اما الامبراطور فانه عند دنوه من المذبح لم ينتظر أن يضع البابا التاج على رأسه بل تناوله من يد البابا ووضعه على رأسه ثم توج الامبراطورة.

وفي غد اليوم الذي أقيمت فيه الحفلة الباهرة عرض الجيش في ميدان مارس وتلا العرض توزيع الرايات الامبراطورية على جميع الفيالق وقد تولى الامبراطور بذاته توزيع الرايات وهو جالس على عرش نصب له على مقربة من المدرسة الحربية وعند اعطاء اشارة متفق عليها تحركت الجنود ودنت فخاطبهم بما يلي:

« أيها الجنود اليكم راياتكم التي تكون دائمة علامة لكم على الاجتماع وستكونون في كل مكان يراه امبراطوركم ضروريا للدفاع عن عرشه وعن شعبه

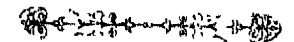
« فهل تحلفون على بذل حياتكم للذود عنها والمحافظة على استمرار بقائها بما أوتيتموه من الشجاعة سائرة على طريق الشرف والنصر ؟ »

فارتفعت أصوات الجنود مطبقة الفضاء: « نعم نحلف »

وقد شاء مجلس الشيوخ ومدينة باريس اقامة الاحتفالات اكراما لتتويج الامبراطور والامبراطورة فرفع مجلس البلدية في العاصمة في تلك الفرصة خطابا للامبراطور هنأه به. وهذه صورة جواب الامبراطور عليه:

« ياحضرات أعضاء المجلس البلدي لقد جئت اليكم لامنح مدينتي باريس الفخمة تأكيد حمايتي الخاصة لها ففي جميع الاحوال أسر وأرى من الواجب علي بأن أبدي لها براهين خاصة عن عطفي اذ أني اريد أن تعلموا اني وأنا في أثناء المعارك وفي المخاطر الشديدة وعلى متون البحار وفي أجواز القفار لم يكن يبرح مخيلتي رأي هذه العاصمة الاوربية الكبرى عقيب اقتراح الاجيال الآتية العزيز لدى قلبي. »

وبقي بيوس السابع في باريس في خلال تلك الحفلات جميعها ولم يكن قد جاء الى فرنسا طامعا بالاقتصار على استعمال ذلك التنازل لمصلحة الدين فقط بل لمصلحة سلطته الزمنية أيضاً وعليه كان من الطبيعي ان يطيل مدة مكثه عند نابوليون ليتسنى له تحقيق الاماني التي كان يعلل النفس بنيلها وسنرى فيما بعد هل كانت آماله مبنية على أساس متين وهل كان الامبراطور مع ما بذله للحبر الروماني من علامات الاحترام وعرفان الجميل للمسحة المقدسة التي منحه اياها يخطر له أن يضحي في جنب الاقرار بالمعروف بمبادىء السياسة الفرنسوية في ايطاليا ومصالحها ؟



الفصل الثالث

جلسات المجلس الاشتراعي — ازاحة الستار عن تمثال نابوليون — كتاب الامبراطور الى ملك بريطانيا العظمى — جواب اللورد ملغراف — اعلام مجلس الشيوخ

وبعد حفلة التتويج بخمسة وعشرين يوما ترأس الامبراطور افتتاح جلسات المجلس الاشتراعي وقد فاه في تلك الحفلة بما يأتي: « أيها الامراء والحكام والجنود والوطنيون ليس لنا في الخطة التي ننتهجها سوى غاية واحدة وهي مصلحة الوطن فاذا كان هذا العرش الذي انتدبتني العناية وارادة الامة للجلوس عليه يعتبر عزيزا في عيني فما ذلك الا لانه يستطيع من دون سواه أن يدافع عن اعز مصالح الشعب الفرنسوي المقدسة ويحفظها .

« ان ضعف السلطة السامية أكبر بلية تصاب بها الشعوب . وحين كنت جنديا ثم صرت قنصلا أول لم يكن يجول في خاطري سوى فكر واحد وحين صرت عاهلا لم يبرح ذلك الفكر مخيلتي وهو سعادة فرنسا وقد أسعدني الحظ بأن أجعله مشتهرا بالانتصارات لكي أعززه بالمعاهدات واجعله بمعزل عن الخصومات الاهلية وهيأت له نهضة الاخلاق والهيئة الاجتماعية والدين. واذا لم تفاجئني المنية في ابان مزاولة هذه الاعمال فانا أؤمل أن أخلف الى الاجيال الاتية تذكارا يكون الى ماشاء الله مثالا لخلفائي ينسجون على منواله أو منذرا لهم. وسيبسط لديكم وزير داخليتي حالة الامبراطورية » .

ونهض المسيو دي شامباني باعباء هذه المهمة الوعرة المرتقى فاسهب في بيان السكينة السائدة في فرنسا وعظمة هذه البلاد ويسرها بعد النكبات المتوالية التي حلت عليها وذكر أن الكهنة وخدام الدين على اختلاف نحلهم ومذاهبهم أجمعوا كلمتهم على حب الوطن والاعجاب بنابوليون . وان الناس يعتبرون الاحكام الجديدة في كل مكان نعمة سامية وان مدارس الحقوق موشكة أن تفتح أبوابها وان مدرسة العلوم والفنون ملأت المسالح والمرافئ والمعامل من الاشخاص

المفيدين المتخرجين فيها وان مدرسة الفنون والهندسة في كومبيانيه تتدرج يوما فيوما في مراقي التقدم وان فرقة المهندسين الفرنسويين انتدبت لانشاء الطرف في جميع فروع العلوم والآداب والفنون وتخصيص جوائز عشرية وان ادارة الجسورة والطرقات تواصل بعلاء الثقة الاعمال التي باشرتها وتفكر في مزاولة أعمال جديدة انشئت في الفنده (مدينة نابوليون فنده) لتصير مجمعاً للنور ونقطة لدائرة المراقبة الشديدة الثابتة واعيدت حركة التجارة الى ضفة الرين اليسرى بأوامر الامبراطور ومنحت ماياتس وكولونيا جميع امتيازات المستودعات الحقيقية من دون أن تتعرض لخطر الاحتيال والتهريب الى داخل فرنسا وبلغت المعامل درجة الكمال ومدت صناعتنا وشائجها في أرضنا فذهبت فيها كل مذهب وحلت محل الصناعة البريطانية مبعدة اياها عن تخومنا بعدما تمكنت من مضاهاتها في ما كان سبباً لاشتهارها ورقيها وداعيا الى انتشارها وهو اتقان أدواتها واتسعت دائرة الزراعة وصاروا يزاولونها بشكل معقول وقصارى القول غزرت موارد الرزق الحقيقية في جميع انحاء السلطنة الفرنسوية ».

وذيل وزير الداخلية هذا البيان بايراده بياناً آخر أفصح فيه عن عدد الفقراء في العاصمة فكان أن عددهم نقص ٣٢ الفاً عما كان عليه في سنة ١٧٩١ و ٢٥ الفا عما كان عليه في السنة العاشرة .

أما حالة الطوارىء الفرنسوية فانهـا لم تكن مرضية من جراء الحروب البحرية وكانت علاقات الحكومة الفرنسوية مع دول القارة الاوربية حبية في الظاهر ولكن لابد لنا من القول بان هذا السلام كان كاذبا يستر تحته الحرب الموشكة نيرانها أن تستعر

وجوابا على هذا البيان توجه أعضاء المجلس الاشتراعي أنفسهم بالبزات الرسمية في ٢ يناير سنة ١٩٠٥ ومثلوا في حضرة الامبراطور رافعين اليه خطابا دس فيه المسيو دي فنتان رئيس المجلس كلمة « رعيتك الشديدة الامانة » مع ما كان من تذمر الاكثرية بين زملائه . وبعد أيام نصب في المكان الذي يجتمع فيه مجلس النواب التمثال الذي حفره شوده لنابوليون . والقى المسيو دي فبلان قيم المجلس خطابا في حضرة الامبراطور والامبراطورة وعظماء رجال الامبراطورية استهله بالكلام التالي :



حفلة تتويج الامبراطور نابوليون والامبراطورة جوزفين فى سنة ١٨٠٤

« أيها السادة . لقد اعلنتم نجاز القانون المدني بما أثار في الافئدة سا كنات التعجب وعرفان الجميل.وقد أقمتم تمثالا للعاهل الكبير الذي أنجز بارادته القوية الثابتة هذا الاثر العظيم وكان ذهنه الواسع ينشر في الوقت عينه النور الساطع على هذا القسم الشريف المتضمن المنشئات الانسانية وقد بدا هذا الرجل في هيكل الشرائع حين كان قنصلا أول كما يبدو الآن وهو امبراطور الفرنسويين رأسا يزينه الاكليل المقرون بالظفر والموضوع بيد النصر على مفرقه مرات كثيرة كفأل للبسه يوما ما اكليل الملوك ...

« واذا كان المدح مفسداً للنفوس الضعيفة فانه مقو للنفوس الكبيرة ...

« وأي رجل يستحق أكثر من نابوليون أن يؤدي له معاصروه والاجيال الآتية الاكرام السامي الذي تختصونه به اليوم ؟ ..»

وتلاه المسيو دي فنتان فلم يقصر عنه في الاطراء والثناء على العاهل نابوليون ومما قاله : « ان المجد يصيب اليوم أعدل مكافأة والسلطة تنال أيضا أنبل التعليات . فهذا التمثال لم ينصب للقائد المقدام ولقاهر الشعوب المتعددة فالمجلس الاشتراعي يقيمه لمرمم صرح الشرائع . فلا يرتجف الارقاء ولا تتذلل الامم المقيدة عند قدمي هذا التمثال وانما نصب لكي ترى الامة الكريمة بابتهاج هيئة مخلصها فيه

« فلتتحطم التماثيل المنصوبة لتكريم الكبرياء والتدليس ولكن فلتكرم معرفة الجميل تكريما خالدا التماثيل المنصوبة مكافأة للبسالة واقرارا بالاحسان »

وبعد قليل من الحين ختم المجلس الاشتراعي جلساته فاقفله المسيو دي سيغور مستشار الامبراطورية وبعد ما أورد بصورة جديدة خلاصة أقوال لاسيبيد وفرنسوى دي نوشاتو وفبلان وفنتان وغيرهم عن المعجزات التي أتاها الامبراطور ردد على مسامع النواب مافاه به نابوليون نفسه لما افتتح المجلس وهو :«أيها الامراء والحكام والجنود والوطنيون ليس لنا في الخطة التي ننتهجها سوى غاية واحدة وهي خدمة مصلحة الوطن »

وكان نابوليون يعلم ان هذه الخدمة تقتضي قبل كل شيء صلحاً متين الاركان طويل العهد يكون أوربياً حقيقياً من دون ان تستثنى منه بريطانيا العظمى تنسي ما أصابه من الفشل مكتوبه للملك جورج الثالث أيام كان هو

قنصلا أول وعالج بعد ارتقائه الى عرش الامبراطورية استئناف المساعي السلمية لدى هذا الملك فكتب اليه في ٢ يناير سنة ١٨٠٥: « حضرة أخي حيث انتدبت من لدن العناية وباقتراع مجلس الشيوخ والشعب والجيش للجلوس على العرش فأول عاطفة تهزني هي رغبتي في السلم فبريطانيا العظمى وفرنسا تستنزفان موارد قوتهما وهما تستطيعان ان تتحاربا قروناً طويلة ولكن هل تكون حكومتاهما والحالة هذه متممتين لاقدس ما يجب عليهما ؟ أولا يوبخهما ضميرهما من جراء غدران الدماء المسفوكة على غير طائل ومن دون غاية يرمى اليها ؟ فلا أعتبر مبادأتي بالكتابة من باب التذلل والتصاغر ولا يذهب عني اني كثيراً ما برهنت للملأ طرّا على أني لا أخشى البتة أهواء الحرب وفضلا عن ذلك ليس ثمة ما يستوجب خوفي . فالسلام منية فؤادي والحرب لم تكن قط مماكسة لجدي . الخ . الخ »

ولم يرد الى نابوليون جواب شخصي على رسالته فان ملك بريطانيا العظمى اكتفى بأن يفوض الى اللورد ملغراف ان يمضي كتاباً مبهماً الى المسيو تاليران فطرح العاهل لدى مجلس الشيوخ هذا الكتاب مع نسخة من الكتاب الذي أنفذه هو الى جورج الثالث . وهذه خلاصة مكتوب اللورد ملغراف :

« انتهى الى جلالة الملك الكتاب الذي بعث به اليه رئيس الحكومة الفرنسوية فليس أشهى على قلب جلالته من اغتنام أول فرصة يظهر فيها لرعيته فوائد سلم مبنية على قواعد غير منافية للامن الدائم والمصالح الجوهرية في بلاده ويعتقد جلالته ان هذا الخير لا يدرك إلا باتفاق يكون من ورائه توطيد دعائم السكينة في مستطرف الحين في أوربا وتلافي تجديد المتالف والنكبات التي ألفت نفسها مضطرة الى تلقيها . وان جلالته يشعر بموجب هذه العواطف بأنه يتعذر عليه ان يقابل بالمثل ما بودىء به ريثما يتسنى له ان يفاوض في هذا الشأن دول القارة الاوربية المرتبط هو معها بعهود ومواثيق سرية ولا سيما قيصر روسيا الذي برهن بصورة واضحة عن حكمته وسمو عواطفه وشدة اهتمامه بأمن أوربا واستقلالها . »

ومع ما بذله ذلك السياسي البريطاني من المجهود لاخفاء حقيقة مقاصد حكومته نحو فرنسا لم يتمكن في المكتوب الذي نشرنا خلاصته من التمويه على

العقول فيما يتعلق بميل هذه الحكومة الى الحرب وابتعادها عن السلم . فما هو معنى انكارها على نابوليون لقب امبراطور وقد اعترف له به الشعب الفرنسوي وكرسه البابا ولم تنكره عليه غيرها من الدول الاوربية وماذا كانت تلك التدابير التي زعمت بريطانيا انه لا مندوحة عنها للامن الاوربي في مستقبل الايام والتي اعتقدت انها من دون سواها تستطيع ان تتلافى تجديد النكبات الماضية ؟ وتلك العلاقات السرية مع دول القارة الاوربية ولا سيما مع قصر روسيا فما هي الغاية المقصودة بها وضد من أنشئت فكل شيء في تلك الرسالة مع كونه في الظاهر معتدلا ومهما كان يدل على مقاصد الحكومة البريطانية المبنية على العناد وعلى روح برك وبت والمبدإ المتخذ لمحاربة فرنسا بطريقة جهارية أو منهاج خفي ما دامت فرنسا لا تبذل ضمانا على اعادة السكينة الى اوربا القديمة بنبذها مبادئها الجديدة . وهدم ما بنته من صروح الانظمة الحديثة وعودتها الى الطريقة القديمة . وقد شعر نابوليون بذلك الامر وشاء أن تنشر رسالة الوزير البريطاني في جميع أنحاء فرنسا تأييداً لعزمه على تهيئة عدد الحرب مما يجعل الملأ طرا يعتقد أن من كانوا يحاربون الامبراطور لم يكونوا يحاربون سوى الثورة الفرنسوية الكبرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

المناداة بنابوليون ملكا على ايطاليا -- الانطلاق من باريس — الاقامة في طورينو — نصب مارنغو — دخول ميلانو - ضم جنوى الى فرنسا — التتويج الجديد — الرحلة الى ايطاليا — العودة الى فرنسا .

وكان مابسطه تاليران باسم الامبراطور لمجلس الشيوخ قد ايقظ فرنسا من رقدتها فاصبح من ذلك الحين الرأي العام مواليا لنابوليون وحبست ألسنة القائلين انه كان ميالا الى مواصلة الحرب البحرية أو الى اثارة نقع الحرب البرية .

وكان بيوس السابع لا يزال مقيما في باريس فشاهد مندوبي الدوائر الانتخابية والمجالس المؤلفة في الجمهورية الايطالية يقدمون الى باريس ويلقون عند قدمي العاهل أماني أمتهم وينادون بنابوليون ملكا على ايطاليا . وكان ملزي نائب رئيس الجمهورية لسان حال ذلك الوفد فمثل في ١٧ مايو سنة ١٨٠٥ في الحفلة الكبرى أمام العاهل والقى أمامه وأمام مجلس الشيوخ خطابا ختمه بهذه العبارة :

« ياذا الجلالة اردت أن تكون جمهورية ايطاليا فكانت فأرد ان تكون مملكة ايطاليا فتكن . »

فأجابه نابوليون :

« ان ارادتنا الاولى مع كونها لا تزال ملطخة بالدم ومغشاة بالغبار في المعارك كانت ترمي الى اعادة تنظيم البلاد الايطالية

« لقد دار في خلدكم ان مصالحكم تقتضي أن نتولى رئاسة حكومتكم والآن مع بقائكم محافظين على هذا الفكر تريدون أن نكون أول ملك عليكم فان فصل تاج فرنسا عن تاج ايطاليا مع نفعه لضمانة استقلال ذراريكم يكون في هذا الاوان شؤما على كيانكم وراحتكم . فأنا أحتفظ بهذا التاج ما دامت مصالحكم تقتضي ذلك ويسرني أن أنظر وصول الوقت الذي أستطيع فيه أن أضعه على رأس فتى أصغر سنا مني تهب في صدره نسمات روحي فيستأنف عملي ويكون دائما مستعدا لبذل ذاته ومصالحه في سبيل امن وسعادة الشعب الذي تدعوه العناية ودستور المملكة وارادتي لتولي شؤونه » .

ولم يكن البابا خالياً من القلق السري العميق عند رؤيته انشاء مملكة ايطاليا الجديدة وامتداد سلطة نابوليون رأساً حتى أبواب رومية فان رحلته الى فرنسا المقررة بنوع خاص باعتبارات زمنية كان يراد منها غير ذلك الجوار الهائل فكتم بيوس السابع استياءه مغمضاً جفنه على القذى وطاوياً كشحه على الاذى في الامور الخارجيـة وقد رضي بان يزاول مهنته الحبرية مرة أخرى للعترة المالكة في فرنسا .

وكان قد ولد للويس بونابرت غلام ثان فوضع العاهل نابوليون في خزانة مجلس الشيوخ صك ولادة الامير الحدث المدعو بموجب انظمة الامبراطورية بطريق العرض الى الجلوس على العرش وأطلق على الطفل اسم نابوليون لويس وكان الامبراطور عرابه وقد عمده البابا في ٢٤ مارس سنة ١٨٠٥ بقصر سان كلود

وفي مفتتح شهر ابريل برح الامبراطور باريس ميمماً ميلانو وقد صحبته الامبراطورة فمكث ثلاثة أسابيع في طورينو حيث نزل في قصر ستوبينيسي الملقب بسان كلود ملوك سردينيا ولما عاد البابا الى رومية ذهب لزيارة العاهل نابوليون فدارت بينهما محاورات كثيرة لم يكن نابوليون في خلالها يجمل بيوس السابع يعلل نفسـه بأمل الحصول على أراض جديدة في مقابل الزيت المقدس الذي مسحه به . وفي ٨ مايو أراد نابوليون وهو متوجه الى ميلانو أن يتفقد المكان الذي جرت فيه معركة مارنغو فحشدوا فيه جميع الجنود الفرنسويين الذين كانوا في ذلك الصقع . فعرضهم الامبراطور وهو لابس الثوب نفسه والقبعـة نفسها اللذين كان يلبسهما في اليوم الذي نشبت فيه هذه المعركة العظيمة . وقد قال بوريان : « ولاحظ القوم ان الأرضة التي لا يقل فتكهـا بثياب الرجال العظام عن فتكها بجسومهم كانت قد قرضت ثوب العاهل ومع ذلك لم يحل هذا الامر دون ارتدائه به » .

ولم يستأنف نابوليون المسير الا بعد ما وضع الحجر الاول من النصب الذي أمر باقامته للشجعان الذين وردوا حياض المنيـة في ذلك الموضع وفي اليوم عينه دخل ميلانو .

على أن المؤرخين المعتبرين من أشد الناس عداوة لنابوليون اعترفوا بأنه

هذه العاصمة احتفت به احتفاء باهراً لا يقل عن الاحتفاء الذي جرى له في فرنسا بعد معركتي ليوبن ومارنغو فقد بلغ حماس الايطاليين غاية ما وراءها من مزيد .

ونزل نابوليون في قصر مبزا فاقبل عليه دوراتزو آخر حاكم من حكام جنوى وطلب اليه ان يضم الجمهورية الليغورية الى السلطنة الفرنسوية .

فاجابه نابوليون بما يلي

« ياحضرة الحاكم وياحضرات مندوبي مجلس الشيوخ وشعب جنوى

« تستطيع الافكار الحرة دون سواها أن تعيد الى حكومتكم ماكانت عليه من الفخامة منذ قرون طويلة بيد اني ماكمكثت ان اعتقدت ما كنتم عليه من العجز عن اتيان مايليق بآبائكم

« كل شيء قد تغير: المبادئ الجديدة الموضوعة لشريعة البحار والجاري على منهاجها البريطانيون لاجبار معظم أوربا على الاعتراف بها وحق الحصار المستطاع مده على الاماكن غير المحصورة والمراد به الحق بابادة تجارة الشعوب على هواهم والدمار المتزايد الناجم عن البربر فجميع هذه الاحوال جعلتكم معتزلين في استقلالكم وستدخر لي الاجيال الآتية هذه المنة وهي سعيي وراء تحرير البحار واضطرار البربر الى العدول عن محاربة السفن الضعيفة . ولم يكن يجري في وهمي سوى تعزيز مصلحة البشر والمحافظة على كرامتهم . وعند عقد وثيقة اميان أبت بريطانيا العظمى ممالأتي على هذه الافكار الحرة . .

« وحيث لايكون استقلال بحري لشعب يزاول التجارة تنشأ الحاجة الى الانضواء تحت لواء قوي فانا سأتم أمانيكم وأضمكم الى شعبي العظيم . »

وقد تم هذا الضم في الحال وأصبح حاكم جنوى عضوا في مجلس الشيوخ الفرنسوي .

وفي ٢٦ مايو اقيمت في كاتدرائية ميلانو حفلة تتويج نابوليون ملكا على ايطاليا . وكان مترأس الحفلة الكردينال كبرارا رئيس اساقفة المدينة فسلم العاهل التاج الحديدي القديم فأعاد نابوليون العمل نفسه الذي أجراه في حفلة التتويج بباريس أي انه تناول التاج بيده ووضعه على رأسه وقال بصوت عال:

« الله أعطانيه فحذار أن يمسه أحد ! »

وكان حسد الحكومة النمساوية يفوق حسد الكرسي الرسولي من جراء توطيد أركان السيادة الفرنسوية في ايطاليا فقد كان هذا الامر حادثا جديدا أضيف الى الحوادث الكثيرة التي كانت الممالك الاوربية القديمة تعتبرها مستوجبة لمقاومة الثورة الفرنسوية الكبرى والحكومة المنبثقة منها . وكان نابوليون يتوقع دائما انفجار بركان القلى والاستياء في افئدة اعداء الثورة الفرنسوية الاقدمين مما كانوا يشاهدونه من سمو مكانته وازدهار الامبراطورية الفرنسوية في عهده وقد جعل نصب عينيه اذكاء مواقد الاخلاص والحماس عند الشعوب الخاضعة لسلطته فطاف مملكة ايطاليا تصحبه جوزفين فكان القوم يبالغون في الاحتفاء بهما في جميع الامكنة التي يمران بها وقد امتازت عن سواها الحفلات التي احتفل بها اكراما لهما في جنوى . وقبل ان يفصل نابوليون عن ميلانو انجز ماوعد الايطاليين به فاختار لهم أوجين بوهرنه حاكما عليهم ثم أنه أنشأ نشان التاج الحديدي ونظم شؤون جامعة طورينو .

ثم أن نابوليون وجوزفين عادا الى فرنسا فوصلا في ١١ يوليو الى فنتنبلو وشخصا منها الى باريس وسانكلود الا أن الاحوال لم تمكن الامبراطور من التمتع بمجده وقد قدر له أن تسخر راحته لعظمته .

الفصل الخامس

انطلاق نابوليون الى معسكر بولون — حشد الجنود الفرنسوية على حدود النمسا — عودة الامبراطور الى باريس — اعادة التقويم الغريغوري — اعلان الحرب على النمسا وتقرير مجلس الشيوخ تعبئة ثمانين الف مقاتل — توجه الامبراطور الى الجيش — معركة استرلتز

ودنا الزمان الذي كان نابوليون ينتظره وأوشكت العداوة المضمرة أن تتحول الى حرب ظاهرة : فبرح الامبراطور عاصمته مرة أخرى في مفتتح شهر أوغسطس ميمما معسكر بولون لتفقد أحوال الجيش المنتشر على السواحل .

ولم تتجاوز هذه الرحلة شهراً من الزمان وقد اصدر العاهل في أثنائه أوامره بتعبئة ثمانين الف مقاتل عند حدود النمسا .

ولما عاد نابوليون الى باريس عني وهو مهتم بشؤون الحرب باعادة التقويم الغريغوري وكان ذلك العمل نتيجة من نتائج طريقة الحكم الذي انتقى شكله واللقب الجديد الذي اتخذه فان العصر الجمهوري لم يبق ملائما لمجموع الانظمة الملكية التي كان نابوليون يتوخى ادخالها الى الاماكن المنتشرة فيها سطوته . على أن التوقيت أو قسمة السنة على ما قرره الكنفنسيون الوطني مبني على حسابات علمية وكيفما كان الامر فالعلم ايضا هو الذي بين ضرورة العودة الى استعمال التقويم الغريغوري وقد فوض الى العلامة لابلاس اعادة ذلك الامر . ولا بد من القول بان هذا العالم النحرير المنتظم في سلك مجلس الشيوخ جعل الناس يشهدون له بسعة الصدر في العلوم والمعارف واقنع القوم بانه لا سبيل الى الخوف على المبادئ الجمهورية من اعادة الحساب القديم . ومما يجدر بنا أن نحفظه ونكرره هو كلام رينيو دي سان جان دنجلي خطيب الحكومة الذي بذل غاية المجهود لاقناع الامة بان ما تنوي الحكومة اجراءه لم يكن سوى انتقال بسيط . واليكم طرفا مما قاله في هذا الصدد : « سيأتي ولا ريب يوم حين تسكن الاحوال في أوربا ويعود السلام الى نصابه في ربوعها وتتمزز فيها الافكار المفيدة وتتسع دوائر العلوم



جونو دوق ابرنتس (١٧٧١—١٨١٣)

يشعر فيه القوم بالحاجة الى اتقان الانظمة الاجتماعية والتقريب بين الشعوب بمجمل هذه الانظمة مشتركة بينها وتنتهي الى عصر مشهور بشكل عام وأتم لاجل قياس الوقت .

« فحينئذ يمكن ولا جرم انشاء تقويم جديد لجميع اوربا ولجميع العالم السياسي والتجاري يؤخذ من بقايا التقويم الذي أعرضت عنه فرنسا الآن لئلا تنفرد في أوربا . »

وكانت أوربا مصرة على عزل فرنسا مع ما كان قد أعيد اليها من الانظمة الملغاة مما هو معمول به في الدول العريقة في القدم فانها كانت ترى بكل وضوح ان مضادات الثورة المعمول بها في الهيئة الاجتماعية الفرنسوية لم تكن سوى ستر سياسي زائل القي على الثورة الاجتماعية تاركا لها كل قوتها الحقيقية ومعناها الديمقراطي . وبعد انقضاء عشرة أيام على صدور قرار المجلس القاضي بأن يستبدل بتقويم الجمهورية الجديد تقويم الملكية القديم رأى نابوليون ان يبسط لمجلس الشيوخ أعمال النمسا وروسيا العدائية ويشعره بقرب انطلاقه الى الجيش واليك ما فاه به أمام المجلس : «ياحضرة أعضاء مجلس الشيوخ أراني في الاحوال الاوربية الحاضرة مكرها على الوجود بين ظهرانيكم وعلى اظهار عواطفي أمامكم واني مصمم على مغادرة عاصمتي للزحف في مقدمة الجيش والاسراع لنجدة حلفائي والدفاع عن أعز مصالح رعيتي .

« لقد أدرك أعداء القارة الاوربية الابديون قصوى أمانيهم فانفتحت أبواب الحرب في وسط ألمانيا وقد اتحدت النمسا وروسيا مع بريطانيا العظمى فلم يجد جيلنا بداً من دخول معترك الحرب ومكابدة ويلاتها : وقد كنت من أيام مؤملا ان تظل حياض السلم صافية إلا ان الجيش النمساوي اجتاز الانَ وغزا مونيخ وطرد أمير بافاريا من عاصمته فانفصمت جميع عرى آمالي .

« لقد أصبح الآن شر أعداء القارة ظاهراً كالشمس في رائعة النهار فهم يحاذرون ما أبديته من الميل الشديد الى السلم وهم يخشون ان تعود النمسا الى الشعور بعواطف العدالة والاعتدال عند رؤيتها الوهدة العميقة التي حفروها عند قدميها فدفعوها الى التورط في الحرب . يعز علي وايم الحق ان أرى الدماء

تهرق في أوربا ولكن سيكسى الاسم الفرنسوي من وراء هذا الامر حلة جديدة من الفخر والسناء .

« يا أعضاء مجلس الشيوخ حين وافقتكم على أمانيكم واجبت نداء الشعب الفرنسوي جميعه ولبست التاج الامبراطوري عاهدتموني أنتم وجميع الرعية على المحافظة على بقائه نقياً من كل وصمة . وقد برهن لي شعبي في جميع الاحوال عن ثقته بي ومحبته لي ولذلك لا أمتري أبداً في انه سيخف الى الانتظام تحت ألوية أمبراطوره وفي سلك جيشه اللذين يجتازان الحدود بعد أيام .

« إن جميع الحكام والجنود والرعية يبتغون بقاء الوطن بعيداً عن تفوق بريطانيا فهذه اذا سادت كلمتنا لم تمنحنا سوى سلم ممزوجة بالهوان والصغار ويكون من أهم شروطها احراق أساطيلنا وهدم ثغورنا واتلاف صناعتنا

« اني أنجزت المواعيد التي وعدت بها الشعب الفرنسوي وهذا الشعب قد أنجز في نوبته كل ما آلى على نفسه ان ينهض باعبائه نحوي فبناء عليه لا يحجم أبداً في هذه الاحوال الضرورية لمجده ولمجدي عن بقائه جديراً باسم « الشعب العظيم » الذي أطلقته عليه في ميادين القتال .

« أيها الفرنسويون ان أمبراطوركم سيقضي ما يجب عليه وجنودي سيقومون بما يسند اليهم وأنتم ستضطلعون بما يعول عليكم فيه . »

فأجاب مجلس الشيوخ نداء الامبراطور بتقريره تعبئة جيش مؤلف من ثمانين ألف جندي وتنظيم الحرس الوطني . وقد شاء المجلس أيضاً ان ينم بأسرار غيرته واخلاصه فبادر الى رفعه عند قوائم العرش ترجمة عواطف استيائه من روسيا والنمسا العدائية . واعتبرت حكومة العاصمة انه لا يليق بها ان تظل صامتة في مثل هذه الاحوال الخطيرة فجاء فروشو حاكم مقاطعة السين مترئساً المجلس البلدي وقدم للامبراطور مفاتيح مدينة باريس وهي عادة قديمة تدل على خضوع المدينة واخلاصها . واليك خلاصة الكلام الذي فاه به في حضرة الامبراطور :

« اذا كان ما يذيعونه صحيحاً عن طموحهم الى الايقاع بشخصك والتطال الى العبث باستقلال الامة وبحريتنا وبنظامنا فر بأن يكون دفاعنا على قدر المصلحة المعلقة بهذا الامر واذا قضت الحال بالزحف فكن على ثقة بأن

الجميع مستعدون للحاق بك وخدمتك والانتقام لك . »

ومهما شاء بعضهم ان يعزو الى التظاهرات المكرهة عليها المجالس وما ينطوي من الظنون تحت الخطب الرسمية فمن المحقق ان الخطباء الذين أوردنا حتى الآن أقوالهم رددوا بصور مختلفة تعبير العواطف الوطنية . ولما وثق نابوليون من معاضدة فرنسا له انطلق من باريس في ٢٤ سبتمبر وجعل محل أركان حربه في ستراسبورغ وفي ٢٩ منه أذاع المنشور الآتي الموجه الى الجيش:

« أيها الجنود :

« لقد ابتدأت حرب المحالفة الثالثة وقد عبر الجيش النمساوي نهر الان ونقض المواثيق وأغار على حليفنا وطرده من عاصمته . . . وأنتم اضطررتم الى الاسراع للدفاع عن حدودنا . فقد اجتزتم نهر الرين ونحن لا نتوقف عن الزحف الا حين يتسنى لنا ضمان استقلال الوحدة الجرمانية ومناصرة حلفائنا وكبت البغاة المتغطرسين الجائرين ولا نعقد من الآن فصاعداً صلحاً بلا ضمان ونحاذر أن ندع كرم أخلاقنا يخدع سياستنا .

« أيها الجنود :

« ان امبراطوركم بين ظهرانيكم وأنتم لستم الا طلائع الشعب العظيم واذا مست الحاجة نهض هذا الشعب برمته ملبياً ندائي ليحبط ويفكك أجزاء التحالف الجديد الذي نسجت بردته على منوال قلى بريطانيا العظمى وماله .

« ولكن أمامنا أيها الجنود زحف عنيف ومصاعب شتى يقضى علينا تذليلها وموانع كثيرة تتصدى لنا ولكن كيفما كان نوع الشدائد التي تقف في وجهنا سنتغلب عليها ولا يقر لنا قرار الا حين ننصب أعلامنا في ربوع أعدائنا .

نابوليون »

وفي أول اكتوبر عبر الامبراطور نهر الرين عند كهل وبات ليلته في اتلنجن فوافاه اليها حاكم بادن الاكبر وأمراؤها ثم أنه انتجع لويزبورغ ونزل في قصر حاكم ورتمبرج .

وفي ٦ منه دخل الجيش الفرنسوي أرض بافاريا بعد ما تحاشى الايغال في الجبال السوداء وخط الأنهر المحاذية لها والجاري ماؤها في وادي الدانوب . على أن النمساويين الذين صمموا بعد غزوتهم الديار البافارية في أثناء السلم على

التقدم الى منافذ الغاب الاسود ليصدوا الجيش الفرنسوي عن المرور به كانوا خائفين على مؤخرتهم التي كانت المتالف تهددها .

وفي اليوم عينه وجه الامبراطور الى الجنود البافاريين نشرة هذا مآلها :

« لقد زحفت في مقدمة جيشي إرادة إنقاذ وطنكم من الطغاة الظالمين . . . ولما كنت حليفاً لحاكمكم أبهجني ما أبديتموه له من علائم الحب في مثل هذه الاحوال المصيبة . فأنا أعرف بسالتكم وأعلل النفس بأني سأستطيع بعد المعركة الاولى أن أقول لمولاكم ولشعبي أنكم جديرون بأن تقاتلوا في صفوف الجيش المظيم » .

ولما كان من الغد جرت الموقعة الاولى فاستولى مئتا فارس من فرسان مورات على جسر لوخ الذي دافع عنه الاعداء دفاعاً عنيفاً على غير طائل . وكان الكولونل واطيه قد هجم عليه في مقدمة أولئك الشجعان .

وفي ٨ منه زحف المارشال سولت الى أوغسبورغ بعد ما افتتح هذه الحرب باحتلاله دونا ورث .

وكان مورات ومعه ثلاث كوكبات من الفرسان يعمل لقطع الصلات بين ألم وأغسبورغ ولما التقى بالعدو عند ورتنجن حمل عليه حملة صادقة وكان يعضده المارشال لان الذي قدم لنجدته بفرقة أودينو . وبعد قتال شديد دام ساعتين اضطر الى الاستسلام جيش النمساويين المؤلف من اثنتي عشرة فصيلة من رماة القنابل . وقد شاء الامبراطور أن يبلغ هذا الانتصار الباهر الى حكام مدينة باريس بارساله اليهم رايات ومدفعين غنمهما من الاعداء لتوضع في دار البلدية . وكان الكتاب الذي خطه اليهم مؤرخاً في ١٠ دسمبر وصادراً عن المعسكر العام في أوغسبورغ . وكان المارشال سولت قد دخل تلك المدينة في اليوم السابق ومعه فرق فندام وسان هيلار وليغران .

ولما عرض الامبراطور الدراغون في قرية زومرسهوزن أمر بالجندي مارنت الذي أنقذ حياة قائده من غائلة الردى عند عبوره نهر ليخ — وكان هذا القائد قبل ذلك الحين ببضعة أيام قد عاقبه بانزاله اياه عن رتبته — أن يمثل لديه ومنحه نشان جوقة الشرف فقال له الجندي : « لم أفعل الا ما هو مقضي علي

عمله فقائدي أنزلني عن رتبتي عقاباً لي على هفوات ارتكبتها ولكنه يدري أني جندي من أفضل جنوده » .

ولم يكن تصرف الدارغون في معركة ورتنجن يقل في الجرأة عن تصرفهم في جسر ليخ فأمر الامبراطور بأن يمثل لديه جندي من كل فرقة ومنحه نشان جوقة الشرف ولما جاء اكسلمان حاجب مورات بالاعلام التي غنمها من النمساويين وكان قد قتل تحته جوادان في يوم واحد قال له نابوليون : « أنا أدري أنه لا يمكن الانسان أن يكون أشجع منك وعليه أمنحك نشان جوقة الشرف من رتبة ضابط » .

وبعد انقضاء أربع وعشرين ساعة على معركة ورتنجن استولت الفصيلة التاسعة والخمسون من فرقة ماهه وهي احدى الفرق في فيلق المارشال ناي على جسر غنزبورغ برؤوس الحراب وكان الارشيدوق فرديناند يدافع بذاته عن ذلك الجسر . وسقط الكولونل قتيلا في ساحة القتال وهو يقاتل في مقدمة تلك الفصيلة .

وكانت الجيوش النمساوية تنسحب في كل الجهات والجيش الفرنسوي يتعقبها ويجري من الحركات الحربية ما يدهش الالباب حتى أنه قطع بين الجيوش النمساوية جميع أسباب المواصلات . وهذا ما جاء في النشرة الخامسة :

« انا نتوقع حدوث وقعة فاصلة فالجيش النمساوي هو الآن في الموقف نفسه الذي كان فيه جيش ميلاس في مارنغو

« وكان الامبراطور على جسر ليخ حين مر فيلق الجنرال مرمون فأمر بان يتألف من كل فصيلة دائرة وألقى عليها كلاما عن موقف العدو وعن خطورة معركة عظيمة وعما له من الثقة برجاله . وكان القاء هذا الخطاب في وقت هائل فكان الثلج يتساقط بغزارة والوحل يغمر أرجل الجنود حتى ركبهم والبرد يقرس بشدة . الا أن كلام الامبراطور كان بمثابة نار فقد كان الجند عند سماعه اياه ينسى المشاق التي يكابدها وشظف المعيشة الذي يقاسيه وينتظر وقد عيل صبره الحين الذي تذكى فيه مواقد الهيجاء

وأنقذت عاصمة بافاريا في اليوم الرابع عشر من شهر اكتوبر فدخلها

المارشال برنادوت في الساعة السادسة صباحا بعدما طرد منها البرنس فرديناند الذي ترك في حيازة الظافر ثماني مئة أسير .

وكانت فرقة فرنسوية بقيادة الجنرال دوبون وقوامها ستة آلاف رجل تواقم حامية ألم وتظفر بها في الوقت عينه وعدد الحامية خمسة وعشرون الفا وقد غنمت منها في معركة ألبك الفا وخمس مئة أسير

وجاء العاهل بذاته في ١٣ أكتوبر الى المعسكر أمام ألم وأمر باحتلال الجسر وموقع الشنجن ليسهل عليه تطويق جيش العدو .

واجتاز المارشال ناي هذا الجسر في ١٤ منه عند تبلج الفجر واستولى على مواقع الشنجن غير مبال بما كان أمامه من المقاومة الشديدة .

وعاد الامبراطور في الغد الى ألم . وكان مورات ولان وناي مصطفين للقتال ومباشرة الهجوم . وأما سولت فكان محتلا بيبراخ وبرنادوت مواصلا حركاته الحربية ماوراء مونيخ وقد فرغ من كسر الجنرال كيانماير شر كسرة . وكان الجنود في معسكر ألم غائصين في الوحل حتى ركبهم . وقد مضى على الامبراطور ثمانية أيام لم يخلع في أثنائها حذاءه من رجله

واستسلم ماك في ١٧ منه وبقيت جميع الحامية في أوهاق الأسر . وكان نابوليون يعتبر معركة الشنجن من أهم الاعمال الحربية الخطيرة التي تذكر .

وكتب نابوليون في ١٨ منه من المعسكر العام الى مجلس الشيوخ ينبئه أن الجيش الفرنسوي غنم أربعين راية في المعارك التي تلت معركة ورتنجن . وهذا ملخص ما كتبه : « منذ دخولي ساحة الحرب بددت شمل جيش مؤلف من مئة الف محارب وقد أسرت نحو نصفه والنصف الآخر بات قتيلا أو جريحا أو طريدا أو أصبح والذعر ملء أهابه .... وقد أدركت غاية الحرب الاولى : فحاكم بافاريا أعيد الى عرشه والصواعق انقضت على رؤوس الطغاة البغاة . وأؤمل أن أنتصر بمعونة الله على أعدائي الآخرين بمدة قصيرة »

ووجه الى أساقفة الامبراطورية في اليوم عينه نشرة دعاهم بها الى اقامة صلاة الشكر . واليك بعض ماجاء في هذه النشرة :

« ان النصر المبين الذي أصابته جيوشنا على المحالفة الطاغية التي ألفتها ضدنا بغضاء بريطانيا العظمى واموالها تقتضي مني ومن شعبي أن نرفع الشكر لرب

الجنود ونتوسل اليه بأن يظل دائماً معنا . »

وتم تسليم ألم في ٢٠ منه فأن سبعة وعشرين الفاً من الجنود النمساويين ومعهم ستون مدفعاً وثمانية عشر قائداً مروا أمام الامبراطور وهو واقف على مرتفعات دير الشنجن المشرفة على الدانوب الطاغي في ذلك الحين طغيانا لم يسبق له مثيل منذ مئة سنة . ولما كان الجيش المأسور يمر أمام نابوليون قال هذا للقواد النمساويين وكان قد أمر بهم أن يمثلوا لديه : « ياحضرة السادة : أن مولاكم بغى باعلانه الحرب علي وانا أقول لكم بكل صراحة اني لا أدري السبب الذي من أجله نتقاتل ولا أعلم ماذا يبتغون مني » فاجابه ماك قائلا : أن امبراطور ألمانيا لم يكن يشاء اعلان الحرب ولكن روسيا اضطرته الى اعلانها . فقال له نابوليون : « بناء عليه لستم دولة »

وأذيعت على الجيش نشرة جديدة صادرة عن محل أركان الحرب العام في الشنجن رقم ٢١ اكتوبر وهذه خلاصتها :

« ياجنود الجيش العظيم :

« في خلال خمسة عشر يوماً أضرمنا لظى المعركة وقد أنجزنا ما كنا نتوخاه فطردنا الجيوش النمساوية من بافاريا وأرجعنا حليفنا الى عرش بلاده . وذلك الجيش الذي أتى وخيم على حدودنا مدفوعا بعوامل التبجح والجهل أصبح أثراً بعد عين . ولكن ماذا يهم بريطانيا العظمى هذا الامر فقد نالت مبتغاها وتقلص ظلنا من بولونيا . وقد تمكنت من ادراك الظفر عينه من دون أن تمد الى المتألف يدها . ومما لا يستطاع فهمه في تاريخ الامم هو أن مثل هذه النتيجة العظيمة لا تضعفنا من جراء خسارتنا الفاً وخمس مئة رجل .

« أيها الجنود : أن الفضل في هذا الظفر يرجع الى ثقتكم غير المحدودة بعاهلكم وصبركم على المكاره والشدائد وبسالتكم النادرة .

« على اننا لا نقف عند هذا الحد فقد انفتقت بنائق صبركم لمباشرة حرب أخرى وسنجعل الجيش الروسي الذي أهابت به أموال بريطانيا العظمى الى المجيء من أقاصي العالم يصاب بما أصيب به أعداؤنا

« وعلى هذه المعركة معلق شرف مشاة الجند وستقرر فيها للمرة الثانية المسألة التي تقررت في سويسرا وهولندا وهي هل يعتبر لمشاة الجيش الفرنسوي المحل

الاول أو المحل الثاني في أوربا ؟ وليس ثمة قواد أطمع بسـاماتهم . فكل همي مصروف الى نيل الغلبة مع الاقلال من سفك الدم : لجنودي أولادي »

وتلا هذه اللشرة مرسوم امبراطوري مآله أن الشهر المنقضي من ٣٠ سبتمبر حتى ٢٤ اكتوبر دارت فيه حرب اشترك فيها الجيش برمته . ثم أن الامبراطور برح دير الشنجن ميمما مونيخ فدخلها في ٢٤ اكتوبر

وكان الجيش النمساوي قد أوشك أن تدرس آثاره على أن الذين نجوا منه وتعقبهم الفرنسويون بشدة لم ينجوا في جميع الأمكنة من ثقل وطأة الفرنسويين الأشداء . وبعد مسير مقرون بالنصر المتواصل في معارك ماريتزال ومرهنباخ ولمباخ ولوفرس وامستتن انتهى الجيش العظيم الى فينا ومن اليوم العاشر من شهر نوفمبر نقل الامبراطور مركز أركان حربه الى ملك وأقام في الدير وهو من اجمل الديورة في أوربا . وموقعه منيع يشرف على الدانوب . وكان الرومانيون قد جعلوه من أهم مواقعهم الحربية وأطلقوا عليه أسم « البيت الحديدي » وهو من الابنية التي شيدها كوموديوس

وقبل دخول الجيش الفرنسوي عاصمة النمسا أراد أن يضيف الى انتصاراته الكثيرة انتصـاراً جديداً باهراً . ففي ١١ نوفمبر أدركت ست فرق مؤلفة من أربعة آلاف رجل بقيادة المارشال مورتيه معظم الجيش الروسي في قرية درنستين ولم يكن الفرنسويون يتوقعون أن يعثروا ثمة الا على مؤخرة ذلك الجيش ومع ذلك لم تكن قلة عددهم لتخمد نيران بسالتهم . فمن السـاعة السادسة صباحا الى الساعة الرابعة بعد الظهر جاهد الابطال الفرنسويون الاربعة الآلاف جهاداً عنيفاً محاربين الجيش الروسي كله فاوردوه موارد لا صدر لها وقتلوا وجرحوا منه أربعة الاف رجل وأسروا منه نحو الف وثلاث مئة مقاتل

وبعد هذه المعركة الشهيرة بيومين دخل الجيش العظيم عاصمة النمسا وكان المارشال لان والجنرال برتران في مقدمة المارين على الجسر ولم يتمكن الاعداء من احراقه

ولم يشأ الامبراطور قط دخول فينا فجعل مركز أركان حربه في قصر شنبرن الذي كانت قد شيدته ماري تيريز . ولما أبصر في الردهة التي اختارها لمزاولة العمل فيها تمثالا من الرخام يمثل هذه الملكة قال :



المرشال غوفيون سان سير (١٧٦٤—١٨٣٠)

لو كانت هذه الملكة العظيمة باقية في قيد الحياة لما تركت القوزاق والروس يعيثون فساداً في بلادها بانتقائها مستشارة لها امرأة نظير عقيلة كولوريدو ونديماً يحاكي كوبنتزل وكاتبا يشبه كولنباخ وصاحب دسائس يماثل لمبرتي وقائد جيش يضارع ماك . »

وكان البلاط النمساوي قد هجر العاصمة مقتفيا آثار بقايا الجيش . وأما رجال الحكومة الباقون في فينا بزعامة المسيو دي بيندافانهم مضوا الى شنبرن ليرفعوا اكرام هذه المدينة العظيمة الى الامبراطور . فأكرم نابوليون وفادتهم وأذاع نشرة أوصى فيها جنوده بأن يحافظوا كل المحافظة على النظام ويحترموا كل الاحترام الاشخاص والاموال

ولم يحل احتلال فينا دون مواصلة مجرى الحوادث والحركات الحربية فان مورات ولان شدا وراء الجيش النمساوي الروسي المنسحب الى مورافيا وأدركاه وظفرا به في أثناء يومين متواليين أي في ١٥ و ١٦ نوفمبر في هولابرن وجنترسدرف وقد اشترك معهما المارشال سولت في المعركة الاخيرة .

وفي خلال ذلك الحين كان المارشال ناي الموكول اليه أمر غزوة التيرول قد نهض باعباء مهمته بالذكاء والبسالة المعهودين به على ما جاء في النشرة الخامسة والعشرين فبعد استيلائه على حصون شارنتز ونوسطارك دخل انسبروك في ١٦ نوفمبر فوجد فيها ستة عشر الف بندقية ومقداراً وافراً من البارود . وكان بين فصائل الشجعان في جيشه الفصيلة السادسة والسبعون فانها فقدت رايتين في الحرب الاخيرة وشعرت من جراء ذلك الامر بكآبة شديدة . وكانت تانك الرايتان في مسلحة أنسبروك فعرفهما ضابط فرنسوي . ولما ردهما المارشال ناي باحتفال الى الجيش انتثرت عقود المدامع من عيون جميع الجنود القدماء واما الجنود الشبان فكانوا يتباهون بجرأتهم التي مكنتهم من استعادة تينك الرايتين اللتين كان لفقدهما رنة أسف في قلوب جميع العساكر . ولما انتهى الى العاهل خبر الرايتين المذكورتين أمر بأن يخلد ذكرها بصورة يرسمها أحد مشاهير المصورين .

وفي غد اليوم الذي نشبت فيه معركة جنترسدرف نقل العاهل مركز أركان حربه الى زنايم ومنها الى برلنز فبرون . وكان الروس في أثناء انسحابهم يصابون كل يوم بانكسارات متواصلة . وفي آخر الامر انخدعوا بحركة تقهقرية أجراها

نابوليون ليوهمهم انه يعتبر موقفه محفوفا بالمخاطر وجيشه مهدداً بالمهالك . فتوقفوا واتخذوا خطة الهجوم غير دارين بأن قائد الجيش الفرنسوي لم يكن يتوخى سوى جرهم الى المكان الذي اختاره لمحاربتهم . ولما رأى نابوليون انهم نشبوا في الحبالة التي نصبها لهم لم يعمل إلا لابقائه اياهم في مهامه الغرور هائمين وتمكن من التجلد وقمع حدته ليسمع ما اقترحه عليه مندوب مفوض من قبل أعدائه من الامور التي لا يمكنه الموافقة عليها وفي أول دسمبر وقف الجيشان الواحد منهما بأزاء الآخر ولما صار الفوز في المعركة التي دبرها في حكم المضمون جمع قواده وصاح بهم وهو يدلهم على صفوف الاعداء : «هذا الجيش لي . » وبعد ذلك قال في نشرة أصدرها عن معسكر استرلتز :

« أيها الجنود ان الجيش الروسي قدم للانتقام للجيش النمساوي الذي انكسر في ألم . فهذه هي الجحافل نفسها التي ظفرتم بها في هولابرون والتي مافتئتم تشدون وراءها حتى هذا المكان .

« ان المواقع التي حللناها في غاية المنعة وبينما هم يسيرون للاحاطة بميمنتي يبرزون لي كشحهم .

« أيها الجنود اني سأتولى بذاتي تدريب جحافلكم وأقف في مكان لا تصل اليه نيران الاعداء ان أنتم تمكنتم ببسالتكم المعهودة من ضعضعة أحوالهم والقاء الاضطراب في صفوفهم ولكن اذا تردد النصر في الميل الينا حيناً من الزمان أبصرتم عاهلكم مستهدفاً للضربات الأولى فلا ينبغي للنصر ان يتردد في أمر موالاتنا في هذا اليوم المعلق عليه شرف الجيش الفرنسوي المعتبر شرفا للامة جمعاء .

« ويجب على جنودنا ان يتجنبوا بلبلة النظام في الصفوف بحجة نقل الجرحى مثلا ولا مندوحة لكل فرد منهم عن الافتكار بأنه من المقضيّ عليه ان يقهر هؤلاء الجنود المأجورين لبريطانيا العظمى والمشربين البغضاء لأمتنا .

« وسيكون الانتصار خاتمة للحرب وحينئذ نستطيع ان نعود الى مراكزنا الشتوية حيث توافينا الفيالق الجديدة التي تتألف في فرنسا ويكون الصلح الذي أعقده جديراً بشعبي وبكم وبي . »

وكان ذلك اليوم واقعاً قبل اليوم الموافق لتذكار حفلة التتويج ففي

المساء أقيمت الزينات في المعسكر إجلالا لذلك اليوم العظيم .

ولما كان من الغد تحققت أماني نابوليون وآماله فانه بما أوتيه من الدهاء والاقدام في الحروب وبمناصرة قواده القساور وبشجاعة جنوده الاشداء الجريئين أصاب في استرلتز انتصاراً فاصلا يندر أن يروي التاريخ مثله عن مشاهير القواد ودهاتهم ويكثر حدوثه على يد نابوليون الكبير واليك تفصيل هذه المعركة المشهورة على ماوصفت به في النشرة الثلاثين :

معركة استرلتز

«في ٦ فريمار لما انتهى الى نابليون التفويض المطلق المسند الى ستاديون وجيولي اقترح هدنة رغبة منه في حقن الدماء بشرط ان يكونوا في الحقيقة راغبين في تسوية الخلاف وفض المشكل فضا نهائيا

« وقد سهل على الامبراطور أن يعلم أنهم كانوا يضمرون مقاصد أخرى وحيث أن الامل بالنجاح لم يكن مجيئه ممكنا الى العدو الا من جهة الجيش الروسي جال في وهمه ان الجيشين الثاني والثالث وصلا أو أوشكا أن يصلا الى ألمتز وان المفاوضات لم تكن سوى خدعة حربية يراد بها ترصد غفلة منه

«وفي الساعة التاسعة من صباح ٧ منه قدمت عصابات من القوزاق يعضدها فرسان الروس فاضطرت طلائع البرنس مورات الى التقهقر وأحاطت بفيشو واسرت خمسين رجلا من كوكبة الدراغون السادسة . وفي نحر النهار جاء عاهل الروس الى فيشو فتحصن جميع الجيش الروسي وراء هذه المدينة

«وارسل الامبراطور الجنرال سافاري حاجبه ليرحب بعاهل روسيا القادم حديثا حين انتهى اليه ان ذلك العاهل وافى جيشه .

« وعاد الجنرال سافاري حين كان الامبراطور يستعرف مواقع النيران في معرسات العدو في فيشو وأ كثر من الامتداح من حسن الاستقبال الذي لقيه ومن لطف عاهل روسيا وعواطفه الشخصية الكريمة وأثنى ثناء طيبا على الغرندوق قسطنطين الذي أعلن له كثيرا من العطف والرعاية ولكن سهل عليه أن يفهم من الاحاديث التي جاذب أطرافها في خلال ثلاثة أيام ثلاثين رجلا من الاغرار المتآلفة منهم بطانة قيصر الروس ان الدعوى والجهالة والخفة كانت سائدة في قرارات

المجلس الحربي كما كانت سائدة في قرارت المجلس السياسي

« على أن مثل هذا الجيش المدارة شؤونه على تلك الصورة لم يكن يأمن من ركوب مركب الخطأ ومن ذلك الحين أصبحت خطة الامبراطور مبنية على انتظاره وتوقع الحين الملائم للاستفادة من ذلك الانتظار . فعلى الفور اصدر اوامره لجيشه بالانسحاب وانسحب هو ليلا كأنه مكسور واتخذ موقعاً منيعاً يبعد عن ذلك الموضع نحو ثلاثة فراسخ وعمل بهمة عالية على تحصينه ووضع البطاريات فيه

واقترح على قيصر الروس أن يفاوضه فأرسل اليه دلغوروكي حاجبه وقد لاحظ هذا الاخير أن الجيش الفرنسوي تبدو عليه علائم التحفظ والجبن فاقام الخفراء في مراكزهم وتوهم المندوب الروسي عند رؤيته التحصينات التي باشروها على عجل أن ذلك الجيش انكسر بعض الانكسار

« على أن الامبراطور خالف عادته من جهة استقباله بغير تحفظ في مركز أركان حربه المندوبين المفوضين وتوجه الى الموضع النازلة فيه طلائع جيشه . وبعد التحية عمد المندوب الروسي الى مباحثته في الشؤون السياسية فكان يبت في كل شيء بوقاحة يصعب تصديقها وكان يجهل جهلا تاما مصالح أوربا وموقف دول القارة ويمكن القول عنه انه نفير يردد صدى مقاصد بريطانيا العظمى فكان يخاطب الامبراطور كأنه يخاطب الضباط الروس فاستشاط الامبراطور غضباً من غطرسته وسوء تصرفه وبذاءته الا أنه كظم غيظه متجلداً . وعاد ذلك الشاب الذي كان متسلطاً على القيصر الاسكندر وهو معتقد كل الاعتقاد ان الجيش الفرنسوي على شفا الهلاك . ويمكن المرء أن يعلم مقدار استياء الامبراطور عند سماعه المندوب الروسي يختم مقاله باقتراحه عليه التخلي عن البلجيك ووضع التاج الحديدي على مفرق ألد أعداء فرنسا ولم تكن تلك المساعي بدون نتيجة فان الشبان الذين كانوا قابضين بأيديهم على أزمة الشؤون في روسيا اندفعوا بلا تحذر منقادين الى دعواهم الباطلة الطبيعية . وأصبحوا غير مهتمين بالظفر بالجيش الفرنسوي بل جعلوا يفكرون بالاحاطة به وأسره وزعموا أنه لم يأت ما أتاه من الاعمال الحربية الخطيرة الا لما أظهره النمساويون من الجبانة

ويحققون أن كثيرين من الجنود النمساويين الذين قاتلوا الامبراطور في معارك كثيرة لم يصيبوا أدنى انتصار وكانت جميع اعمال مؤخرة الجيش الروسي الاول مؤاتية للجيش الفرنسوي وكان فتيان الروس المتهوسون يمارضون ذلك بثمانين الف روسي وبما كان حضور امبراطورهم يثيره من الحماسة في افئدة الجنود بين ظهرانيهم ونخبة الحرس الروسي الامبراطوري وما يترجح انهم لم يكونوا يجسرون على المجاهرة به وهي أهليتهم التي كانت تجعلهم يدهشون من رؤيتهم النمساويين ينكرون عليهم قوتها .

« وفي ١٠ منه أبصر الامبراطور من المكان النازل فيه والجذل يفيض من فؤاده الجيش الروسي يباشر على مسافة ضعف مرمى المدافع من طلائعه حركة كشحية للالتفاف حول ميمنة الفرنسويين وحينئذ شاهد مقدار الدعوى وجهل فن الحرب اللذين ضللا رأي ذلك الجيش اللجب وقال غير مرة : « قبل مساء الغد يصير هذا الجيش في قبضتي . »

« الا ان عواطف العدو كانت تختلف عن عواطفنا فدنا من طلائعنا حتى صار على قيد مرمى غدارة منها وجعل يسير سيرا كشحيا على خط طوله اربعة فراسخ محاذيا للجيش الفرنسوي وهذا كان يظهر انه لا يجرؤ على مزايلة مركزه ولم يكن يحاذر غير شيء واحد وهو إفلات الجيش الفرنسوي من يده . وبذل المجهود لابقاء العدو ثابتاً في هذا الوهم فقدم البرنس مورات كوكبة من الفرسان في السهل ولكنه اظهر فجأة الدهش من وفرة عدد العدو وانقلب راجعاً بسرعة وعلى هذه الصورة كان كل شيء يأول الى تثبيت القائد الروسي في اجراء العمل الذي قرره ومن دون أن يحسن تقدير النتيجة التي يصيبها . وتم الامبراطور منطوق النشرة المذاعة في اول دسمبر . ولما دخل الليل أراد ان يزور متنكرا وهو ماش جميع الامكنة النازل فيها الجيش ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى عرفوه ويتعذر على المرء وصف حماس الجنود عند مشاهدتهم اياه . فرفعت في الحال مشاعل من العصافة على رؤوس الاوتاد وتقدم ثمانون الف مقاتل من الامبراطور وحيوه مطبقين الفضاء باصوات الهتاف : فكان بعضهم يهنئه بتذكار تتويجه والبعض الآخر يقول ان الجيش سيقدم في الغد باقته الى الامبراطور .

« ودنا من العاهل فارس من اقدم الفرسان وخاطبه قائلا :

« مولاي ، لست بحاجة الى تعريض حياتك للعطب فانا اعدك باسم فرسان الجيش بانك لا تقاتل الا بعينك وسنأتيك غدا باعلام الجيش الروسي ومدافعه لنحتفل بتذكار تتويجك . »

وقال الامبراطور وهو داخل المحل المعد لنزوله وهو كوخ مصنوع من العصافة لا سقف له

« هذه اجمل ليلة في حياتي ولكنني أتنغص حينما افتكر باني سأفقد عددا كبيرا من هؤلاء الابطال ويؤلمني اعتباري اياهم اولاداً لي والحق يقال اني في بعض الاحيان أنحي على نفسي باللائمة من جراء هـذا الشعور مخافة أن أفقـد خبرتي في شؤون الحرب .

« ولو قدر للعـدو أن يبصر ذلك المشهد لطارت نفسه شـعاعا ولـكنه استطرد تلك الحركة وظل جارياً بسرعة وراء حتفه . وهيأ الامبراطور في الحال جميـع معدات الحرب وسير المارشال دافو بكل سرعة الى دير رايجرن وفوض اليه ان يشغل ميسرة العدو باحدى فرقه وبفرقة من فرق الدراغون بحيث تصبح هذه الميسرة محاطة من كل جهـة عند الحين الملائم . وأصار الى المارشال لان قيادة الميسرة والى المارشال سولت قيادة الميمنة والى المارشال برنادوت قيادة الوسط والى البرنس مورات قيادة جميـع الفرسان الذين حشدهم في مكان واحد وكانت ميسرة المارشال لان مستندة الى السانطون وهو موقع منيع حصنه الامبراطور ونصب فيه ثمانية عشر مدفعاً . وكان منذ اليوم السابق قد عهـد بادارة هـذا الموقع الحصين الى فرقة المشاة السابعة عشرة ولم يكن افضل منها لحراسته . وكانت فرقة الجنرال سوشه تؤلف ميسرة المارشال لان وفرقة الجنرال كافارلي تؤلف ميمنته المستندة الى فرسان البرنس مورات . وكان أمام هؤلاء الفرسان رجال الجنرال كلرمان ورجال ولتر وبومون . وكان جنود الجـنرال ننسوتي والجنرال دوتبول يؤلفون الجند الاحتياطي ومعهم اربعة وعشرون مدفعاً خفيفاً .

« وكان الى يسار المارشال برنادوت المتولي قيادة الوسط فرقة الجـنرال ريفو المستندة الى ميمنة البرنس مورات والى ميمنته فرقة الجنرال دروه .

وكان الى يسار فرقة المارشال سولت قائد ميمنة الجيش فرقة الجنرال فندام وفي الوسط فرقة الجنرال سان هيلار والى الميمنة فرقة الجنرال لغران الباسل .

« وقد انفصل المارشال دافو عن ميمنة الجنرال لغران المرابط على مداخل المستنقعات وقريتي سوكولنتز وسلنتز . وكان معه فرقة فريان وفرسان فرقة الجنرال بورسيه . وكان مقضيا على فرقة غودان أن تزحف عند تباشير الصباح من نيكلسبورغ لتقف في وجه العدو الذي كان يستطيع ان يغشى الميمنة .

« وكان الامبراطور ومعه رفيقه الامين المارشال برتيه وحاجبه الاول الجنرال جونو وجميع أركان حربه مقيما للاحتياط مع عشر فرق من حرسه وعشر فرق من جنود الجنرال اودينو وكان الجنرال دوروك يقود قسما منهم .

« وكان هذا الجيش الاحتياطي مصطفاً صفين فرقاً فرقاً على طول المكان المنتشرة فيه العساكر وبين الصفين أربعون مدفعاً يتولى ادارتها مدفعيو الحرس وكان الامبراطور ينوي أن يخف بهذا الجيش الاحتياطي الى حيث تدعوه الحاجة . ويمكن القول أن الجنود الاحتياطيين كانوا يعادلون فيلقاً كاملا .

« وفي الساعة الواحدة صباحا امتطى الامبراطور صهوة جواده وخرج يريد تفقد المواقع واستعراف النيران المشبوبة في الاماكن النازل فيها العدو ويستطلع من الخفراء طلع ماسمعوه عن حركات الروس فعلم أنهم أحيوا ليلهم في السكر والضوضاء وأن فيلقا من مشاة الروس دنا من قرية سوكولنتز المحتلة فيها فصيلة من فرقة الجنرال لغران الذي تلقى أمراً بنجدتها .

« وبدا أخيراً صبح اليوم الحادي عشر من شهر فريمار فطلعت الشمس ساطعة على أن هذا اليوم الموافق لتذكار تتويج الامبراطور والمنتظر أن يقع فيه حادث من أهم الحوادث الحربية في ذلك العصر كان يوما من أجمل أيام الخريف .

« وهذه المعركة التي يصر الجنود على تسميتها بيوم للامبراطورين الثلاثة والتي يدعوها غيرهم بيوم تذكار التتويج والتي يطلق عليها الامبراطور اسم يوم استرلتز ستظل الى ماشاء الله مشهورة في تاريخ الامة العظيمة .

« وكان الامبراطور واقفا بين جميع المارشالية ينتظر اتشاح الافق بحلة النور

لاصدار الاوامر الاخيرة . ولما بدأ قرن الغزالة يذر أصدرت الاوامر فانضم كل مارشال الى فيلقه موافيا اياه على جناح السرعة .

« وقال الامبراطور وهو مار أمام الكتائب المصطفة للقتال : » « أيها الجنود ينبغي لنا أن نختم هذه الحرب بصاعقة لا تبقي ولا تذر من غطرسة اعدائنا. » وفي الحال رفعت قبعات الجنود على رؤوس الحراب وعلا صياحهم قائلين : « ليحيى الامبراطور » وبعد قليل من الحين سمع قصف المدافع عند طرف الميمنة التي كانت طلائع العدو قد هاجمتها الا أن صدمة المارشال دافو غير المنتظرة وقفت سدا في وجه العدو وحينئذ دار القتال .

وتحرك المارشال سولت في ذلك الحين عينه ميمما مرتفعات قرية برنجن بفرقتي القائدين فندام وسان هيلار وقطعت ميمنة العدو وقد أصبحت حركاته مبهمة . على أن ذلك العدو المفاجأ على كشحه وهو يهرب رأى نفسه مهاجماً بعد ما كان يظن نفسه مهاجماً وأوشك أن ينكسر .

« وتحرك أيضا البرنس مورات بفرسانه وسارت الميسرة المتولي لان قيادتها الفرقة تلو الاخرى كأنها تتمرن . وأطلقت المدافع اطلاقاً هائلا على طول الخط فكان ينبعث ضجيج هائل عن مئتي مدفع ونحو مئتي الف رجل ويمكن القول ان هذه الحرب كانت في الحقيقة حرب جبارة . ولم يكن قد مضى على ابتداء الحرب ساعة من الزمان حتى تقطعت ميسرة العدو بجملتها وكانت ميمنته قد وصلت الى استرلتز موضع أركان الحرب العام للامبراطورين اللذين اضطرا أن يسيرا في الحال حرس أمبراطور روسيا لاعادة المواصلة بين الوسط والميسرة . فحدث أن فرقة فرنسوية هجم عليها الحرس الامبراطوري الروسي ومزق شملها الا أن الامبراطور لم يكن بعيداً عنها فبصر بتلك الحركة وأمر المارشال بسيار بان يخف لنجدة ميمنته بابطاله المجربين فما عتم الحرسان أن اشتبكا في القتال .

« ولم يبق أحد مرتابا في الجهة التي يجنح اليها النصر فانهزم الحرس الروسي في مدة قصيرة ووقع الكولونل والمدفعية والاعلام في قبضة الفرنسويين وانكسرت فرقة الغرندوق قسطنطين شر كسرة وهو ذاته لم ينج الا بفضل سرعة فرسه .



المرشال فكتور دوق بلون (١٧٦٦—١٨٤١)

« وكان الامبراطوران ينظران من مرتفعات استرلتز انهزام الحرس الروسي وتقدم في الوقت عينه وسط الجيش الفرنسوي يقوده المارشال برنادوت وكانت ثلاث فرق من فرقه تصادم فرسان الروس الهاجين وهجمت الميسرة ثلاث مرات بقيادة المارشال لان فأصابت الانتصار في جميع هجماتها وقد امتازت في هذه المعركة فرقة الجنرال كافارلي واستولت فرق المدرعين على بطاريات العدو . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر تم الانتصار ولم يكن قد سبق أن ارتاب أحد في النصر دقيقة واحدة من دون أن يحتاج الى جندي واحد من الجنود الاحتياطيين . ولم يبق صوت المدافع مسموعاً الا عند ميمنة الفرنسويين وصار جيش العدو المطوق والمنهزم من جميع المرتفعات في منخفض من الارض ووراءه بحيرة . فطارده الامبراطور ومعه عشرون مدفعاً ولم يزل ذلك الجيش ينهزم من موقع الى موقع وقد بدا للانظار في ذلك المكان مشهد يحكي المشهد الذي شاهدته الابصار في أبي قير فان عشرين ألفاً قذفوا بأنفسهم الى الماء فغرقوا فيه .

« واستسلم فيلقان من الروس مؤلفان من ثمانية آلاف مقاتل وأخذ الفرنسويون المكان المنصوبة فيه مدفعية الاعداء وذخائرهم ومؤنهم . وكانت نتيجة ذلك اليوم اغتنام الفرنسويين لأربعين راية روسية وبينها أعلام الحرس الامبراطوري وأسرهم عدداً كبيراً من المقاتلة بحيث ان أركان الحرب لم يكونوا يعرفونهم جميعهم . وكانت الجداول تدل على أن هذا العدد لا يقل عن عشرين ألفاً وقبض على ١٢ قائداً أو ١٥ قائداً وبطش بخمسة عشر ألف روسي على الاقل . على انه وان لم يكن لدينا تقارير صحيحة فيمكننا من أول وهلة أن نقدر خسارتنا بثماني مئة رجل من القتلى وألف وخمس مئة أو ألف وست مئة من الجرحى . وهذا الامر لا يقضي العجب منه المقاتلون الذين يعلمون أن الرجال لا تفقد الا عند الانكسار ولم يتقطع نظام فيلق من فيالقنا الا الفيلق الرابع . وكان بين الجرحى الجنرال سان هيلار فانه جرح في أول المعركة وبقي سحابة ذلك النهار يجاهد في ساحة القتال وقد تجلبب بمطارف الفخار القواد كلرمان وولتر وفالهوبر وطيابو وسباستياني وكمبان وراب حاجب الامبراطور وهذا الاخير هو الذي هجم في مقدمة فرسان الحرس وأسر البرنس ربنان قائد

فرسان الحرس الامبراطوري الروسي . أما الرجال الذين امتازوا عن غيرهم فلا يمكن حصر عددهم لان كل الجيش اتشح بأردية المجد فكانوا يهجمون وهم يصيحون « ليحيي الامبراطور ! » وكان تصورهم بأنهم يحتفلون في ذلك اليوم بتذكار تتويج امبراطورهم ينعش قواهم ويقيل عثارهم .

« على أن الجيش الفرنسوي وان يكن وافر المدد ومستكمل المدد كان أقل عدداً من جيش العدو المؤلف من مئة وخمسة آلاف مقاتل منها ثمانون ألفاً من الروس وخمسة وعشرون ألفاً من النمساويين . وقد قتل نصف هذا الجيش وتمزق الباقي منه كل ممزق على أن معظمه استسلم .

« وسيجعل هذا اليوم القوم في بطرسبرج يبكون دماً فيا ليته يجعلهم ينبذون نبذ النواة ذهب بريطانيا العظمى ! ويا ليت هذا العاهل الشاب الذي تقتدي به فضائله السامية الى أن يكون أباً لرعيته يتملص من سيطرة أولئك المأجورين الثلاثين الذين تستخدمهم بريطانيا العظمى بدهائها والذين تشوه وقاحتهم وجوه مقاصده وتفقده محبة جنوده وتطوح به في الاعمال المتناهية في الخطأ . فالطبيعة حين جادت عليه بهذه المزايا الكريمة دعته الى أن يكون معزياً لأوربا الا أن المستشارين المداجين الذين زينوا له مناصرة بريطانيا العظمى وضعوه في التاريخ في صف الاشخاص الذين مع جعلهم الحرب دائمة الاستعمار في القارة يوطدون دعائم المظالم البريطانية في البحار ويسوقون الى جيلنا البلايا والدمار .

« واذا لم تكن فرنسا تستطيع أن تنال السلم الا بالشروط التي اقترحها على الامبراطور دلفوروكي حاجب القيصر والتي فوض الى المسيو دي نوفوزيلزوف بسطها لديه فان روسيا لا تصيب تلك الشروط ولو نزل جيشها على مرتفعات مونمارتر .

« وفي رواية أخرى عن هذه المعركة أكثر اسهاباً سيبين أركان الحرب ما فعله كل فيلق وكل ضابط وكل قائد لشهرة الاسم الفرنسوي ومجاهرتهم بمحبتهم للامبراطور .

« وفي ١٢ منه عند انبثاق الفجر جاء البرنس جان دي ليختنستين قائد الجيش النمساوي الى الامبراطور في مركز أركان حربه في أحد الاهراء وطالت مدة اجتماعه به . الا أن الفرنسويين استأنفوا تقدمهم وارتد عدوهم الى الطريق الممتد

من استرلتز الى غودن وكان في ارتداده ممرضا كشحه لهم. واقتفى الجيش الفرنسوي أثره محكما السيف في أقفيته

« ولم يسبق أن كان ميدان حرب أفظع منظراً من هذا الميـدان فكانوا من أواسط البحـيرات الكبيرة يسمعون صراخ ألوف من الرجال المستحيل خلاصهم . وكان نقل جميع جرحى الاعداء الى برن يستغرق ثلاثة أيام . فـكان القلب يقطر دماً من ذلك المشهد . فياليت تلك الدماء الغزيرة المسفوكة ويا ليت تلك الويلات الكثيرة تسقط على سكان الجزائر الذين كانوا سبباً لجلبها ويا ليتهم يجنون ثمار هذه البلايا المتعددة ! »



الفصل السادس

نتيجة معركة استرلتز — معركة طرف الغار البحرية — صلح برسبورغ
خلع البربون عن عرش نابولي — ترفيع بافاريا الى درجة مملكة
ارسال رايات استرلتز الى باريس — عودة نابوليون الى فرنسا

وكان بعد ذلك أن الملكية والارسطقراطيــة الاوربيتين المذللتين بشخصي عاهلي ألمانيا وروسيا تولاهما الذعر لما انتهى اليهما أن المحالفة الجديدة لقيت في استرلتز الشعب عينه الذي لقيته في زوريخ ومارنغو . فكأن العنــاية المدبرة التقريب في الازمنة عينت هي عينها في موعد تذكار الاحتفال بتتويج الامبراطور نابوليون الانتصار الاول الفاصل الذي أحرزه هذا العاهل العظيم لتظهر للملأ طراً أن جنود الامبراطورية كانوا يستأنفون بجدارة عمل الكتائب الجمهورية ولم تكن أبهة الملك قد غيرت شيئاً من عزائم الشعب والجيش كما انها لم تكن أيضاً قد غيرت شيئاً من دهاء الزعيم الأكبر وكانت الثورة الشديدة التي لا يفل حدها باقية صاحبة السيادة في فرنسا

على أن هذه النكبة الشديدة التي لم تحــل رأساً الا على النمسا وروسيا مع ما كان لصداها من الرجع العنيف في برلين ولندرة لم تؤدب مثيري نقع الحرب الضروس وتجعلهم يرعوون عن غيهم . فانهم لم يحركوا أقوى الدول الاوربيــة منة وأشدهن حولا وطولا للبروز الى ميادين الوغى رغبة في التنازل عن أرض من الاراضي أو طمعاً بنيل مصلحة من المصالح المادية أو انتقاماً لمظلمة وقعت عمداً أو عرضاً . فلم يكن نصب أعينهم سوى مسألة المبــادىء وهي لعمر الحق مسألة ينجم عنها سبب دائم لابقاء مواقد الهيجاء مستمرة وان تــكن في ظاهر الحال مسألة غير محسوسة كالمسائل العقارية أو المالية وهذا ما كان يجعل نابوليون ينخدع مغــتراً ويخاطب الضباط النمساويين الناشبين في حبائل الأسر بقوله لهم « إني لا أدري وايم الحق السبب الذي من أجله أقاتل ولا أعلم ماذا يبتغون مني »

وثابرت الحكومة البريطانية على نهج المنهاج الذي نهجته في معاداتها لفرنسا

غير مبالية بما لقيه حلفاؤها من الفشل التام فقد استعاضت عن ذلك الانكسار بالنصر الذي نالته في معركة طرف الغار البحرية على يد نلسن أمير البحر البريطاني الذي دمر الاسطولين الفرنسوي والاسباني المتحدين عند سواحل اسبانيا الجنوبية وقتل هو نفسه في هذه المعركة الشهيرة التي أولت بريطانيا العظمى السيادة البحرية . وقد انتهت أنباء هذه الكسرة الى نابوليون وهو يجر ذلاذل النصر الباهر على الجيوش النمساوية الروسية المتحالفة فقال في هذا الصدد ما معناه . « في أكثر المعارك التي انتصر فيها البريطانيون كنا اما أقل عدداً منهم واما متحدين مع سفائن اسبانية غير منظمة التنظيم الكافي فكانت تضعف خطوطنا بدلا من أن تقويها . أو أن قوادها القابضين بأيديهم على أزمة الشؤون والميالين الى تسعير لظى الحرب والزحف الى العدو كانوا يترددون في حركاتهم ويرتدون لاسباب شتى وعلى هذه الحال كانوا يعرضون لنبال الردى أجرأ جنودنا وأشدهم اقداماً »

وقال في موضع آخر : « قضيت معظم وقتي في البحث عن الرجل الملائم للبحرية من دون أن أوفق الى وجدانه ففي هذه الخطة خاصة وقفت جميع أفكاري حائمة حولها وحائرة دونها ... فلو أسعدني الحظ بالعثور على شخص يشايعني على مقاصدي من هذه الجهة لكنت قد أدركت غاية ماوراءها من مزيد ولكن لم ينشأ في أيام ملكي رجل في البحرية تمكن من الخروج عن الدائرة المرسومة لتلك الخطة ووفق الى الاستنباط فيها »

وكان تحطم الاسطول الفرنسوي باعثاً على اكتئاب الامبراطور واغتمامه فابصر بعين الفكر من ذلك الحين أن السيادة البحرية أصبحت في قبضة البريطانيين مدة طويلة فوطن النفس على أن يصليهم حرباً عواناً في القارة الاوربية بمقاتلته حلفاءهم الميالين اليهم وبمصادرته تجارة طوارهم التي كانوا قد احتكروها .

على أن الحزب الملكي الذي كانت نشرة الجيش الكبير الاولى قد هدمت صرح قواه انتعش في لندرة وظهر بمظهر البذاءة والاستعلاء وكان بت زعيمه الأكبر قد دنا من شفير الحفير وأوشك أن يقضي نحبه بين مجالي الانتصار كما فعل نلسن من قبله . وكانت بريطانيا العظمى من نحو شهر قد ثملت بخمرة الابتهاج من جراء الفوز غير المنتظر الذي أصابه أسطولها . وقد جرأها ذلك الامر وحملها صوت مدفع طرف الغار على مواصلة الحرب التي مع تهيئتها سقوط

ا بوليون سهلت مدة عشر سنوات توسيع دارة المبادىء الثورية في أوربا .
فلندع الآن حكومة بريطانيا العظمى في وسط الحفلات العـامة التي احتفلت بها ولنسرع في العودة الى استرلتز وقدشوهت في وقت وجيز وجوه الاحتفالات التي دبرها الحزب الملكي وافراح بت الاخيرة

وفي غد اليوم الذي دارت فيه رحى تلك المعركة العظيمة جاء عند الفجر البرنس دي ليختنستين قائد الجيش النمساوي في مورافيا قاصداً المـكان المعد لأركان حرب الامبراطور نابوليون وهو موفد بمهمة خطيرة غايتها الالتماس من الامبراطور الاجتماع بمولاه المحتاج الى اعتدال الظافر وكرم اخلاقه لحفظ تاجه وبلاده وتخليصهما من الحقوق المخولة للفاتح فمنحه نابوليون سؤله وتمت المواجهة التي التمسها الامبراطور المغلوب في اليوم عينه في المـكان النازل فيه البطل الغالب .

وقال نابوليون للامبراطور فرنسـوى : « اني استقبلك في القصر الذي اتخذته لسكناي من شهرين » فقال له الامبراطور فرنسوى بابتسامة مكره عليها « انك تستفيد من مقامك هذا لأنه يسرك » وتقررت الهدنة وشروط الصلح الخطيرة في بضع ساعات . وكان امبراطور المانيا يداري الاحوال ويقول مجاريا نابوليون في استيائه من البريطانيين بقوله :

« إنهم تجار يضرمون النار في القارة الاوربية ليستأثروا بالتجارة في العالم طراً » وتكلم أيضاً بالنيابة عن امبراطور روسيا قائلا أنه نبذ محالفة البريطانيين وعمد الى عقد الصلح منفرداً عنهم وختم مقاله بهذه العبارة : « لاامتري البتـة في أن فرنسا مصيبة كبد الصواب في مقاتلتها لبريطانيـا العظمى » أولم يكن ذلك الأمر غريباً في بابه وهو أن نرى العاهلين اللذين جيشا الكتائب الرجراجة لمواقعة فرنسا يفتحان أعينهما لرؤية حقوق أعدائهما وخطأ محالفيهما ؟ أو ليس ذلك الامر مما يرثى له وهو أن يكون انفتاح أعينهما الفجـائي قد جرى بعد عشرين وقعة وبعد معركة جرى فيها الدم البشري غدراناً ؟

ولم يبطر نابوليون ما ناله من التفوق في المعركة الاخيرة فوعد بأن يوقف زحف جحافله وأن يدع الجيش الروسي يعبر على شريطة أن يواثقه القيصر الاسكندر على الانقلاب عائدا الى بلاده والجلاء عن بولونيا النمساوية والبروسيانية فوعده الامبراطور فرنسوى بالنيابة عن العاهـل الاسكندر بأن يفعل ذلك

الامر على ما يبتغي ويريد ثم انه انصرف يصحبه البرنس دي ليختنستين والبرنس دي شوارتزنبرغ فرافقه نابوليون حتى أوصله الى مركبته ثم عاد الى استرلتز وقضى فيها ليلته ولما ودعه وعاد قال : « لقد جعلني هذا الرجل أرتكب هفوة فقد كنت مستطيعاً استطراد انتصاري والاستيلاء على الجيشين النمساوي والروسي بجملتهما ولكنني بفعلي هذا حقنت جداول من العبرات عن السيلان »

وكان نابوليون قد خاطب جنوده قبل المعركة ليوقد نيران البسالة في قلوبهم ويجعلهم يعتقدون أن النصر ميال اليهم . فلم يذهل عن مخاطبتهم أيضاً بعد المعركة ليهنئهم بما فعلوه لتحقيق اعتقاده فيهم وهذا ما قاله لهم :

« أيها الجنود أنا راض عنكم لقد حققتم في يوم استرلتز كل ما كنت آمله من جرأتكم وقد وسمتم راياتكم بفخر يلازمها أبد الدهر . . . وحين يتم ما هو ضروري لضمان سعادة وطننا ونجاحه أعود بكم الى فرنسا حيث تصبحون موضوعا لعنايتي الشديدة . وسيشاهدكم شعبي بكل ابتهاج وحسب الواحد منكم أن يقول : « كنت في معركة استرلتز » حتى يقال عنه : « هذا شجاع »

وكان حاجب من حجاب نابوليون يقال له الجنرال سافاري قد صحب امبراطور المانيا ليتحقق رضى القيصر الاسكندر بما عاهد عليه باسمه . فبادر القيصر الى الموافقة على ذلك العهد ثم انه قال للمندوب الفرنسوي : « كنتم أدنى مني ومع ذلك كنتم أعلى في جميع الجهات التي نشب فيها القتال . » فاجابه سافاري : « يامولاي هو فن الحرب وهو نتيجة خمس عشرة سنة قضيناها في ساحة الفخار وهي المعركة الاربعون من معارك الامبراطور » فقال الاسكندر: « أجل ان الامر لكما تقول فهو ولا جرم جندي عظيم أما أنا فهذه اول مرة أرى فيها نار الحرب ولم تخطر لي الدعوى قط بمطاولته في القتال. فها أنذا منصرف الى عاصمتي وكنت قد قدمت لنجدة امبراطور المانيا وهو أخبرني انه راض ولذلك انا راض أيضا »

على أن الهدنة التي تقررت في ٣ دسمبر بين الامبراطور نابوليون وامبراطور المانيا أخذت شكلا رسميا في ٦ منه على أثر توقيع المارشال برتيه والبرنس دي ليختنسين عليها .

وتلا توقيف رحى القتال مرسومان امبراطوريان أحدهما يمنح به رواتب لأيامى

ويتامى الجنود المقتولين في استرلتز على اختلاف رتبهم والآخر يقضي بصب المدافع الروسية والنمساوية التي غنموها في تلك المعركة وبصنع عمود منها ينصب في ساحة فندوم لتخليد مجد الجيش الفرنسوي . وأصدر نابوليون مرسوماً امبراطورياً ثالثاً تبنى بموجبه جميع أولاد القواد والضباط والجنود الفرنسويين الذين سقطوا قتلى في معركة استرلتز وهذه خلاصته :

١ — تربيتهم على نفقة الحكومة ٢ — اضافة اسم نابوليون الى اسمائهم الاصلية .

وعاد أركان الحرب من استرلتز الى برن فاستقبل نابوليون البرنس ربنان كولونل فرسان الحرس وقال له انه لا يشاء أن يحرم امبراطور روسيا مثل هذا الجندي الباسل وانه يمكنه أن يجمع جميع الحرس الامبراطوري الروسي الاسرى ويعود بهم الى بلاده

وفي ١٣ دسمبر عاد نابوليون الى شنبرن فاستقبل وفد محافظي باريس فخطب بالنيابة عنهم محافظ الحي السابع من المدينة وأخبرهم الامبراطور ان عقد الصلح قريب وفوض اليهم أن يحملوا الى باريس الرايات المأخوذة من الاعداء في استرلتز والمعدة للوضع في كنيسة نوتردام . وارسل معهم كتابا الى الكردينال رئيس أساقفة باريس يكل اليه به حراسة تلك الوديعة الثمينة ويفصح له فيه عن نيته بان تقام في كل سنة في تلك الكنيسة الكبرى صلاة حافلة تذكاراً للابطال الذين قضوا في سبيل الوطن في ذلك اليوم العظيم .

وفي أثناء اقامة نابوليون في شنبرن عرض جيشه ولما وصل الى الفصيلة الاولى من الفرقة الرابعة التي تمزق شملها في استرلتز وفقدت رايتها خاطبها الامبراطور بهذا الكلام : « ايها الجنود ماذا فعلتم بالراية التي سلمتكم اياها ؟ لقد حلفتم على أنها تكون علامة لضم متفرق شملكم وانكم تبذلون نفوسكم في سبيل الذود عنها فكيف قمتم بعهودكم ؟

فاجاب القائد أن حامل الراية قتل في المعممة فلم يبصره أحد بسبب الدخان الكثيف ولم تقصر الفصيلة في تتميم ما يجب عليها فانها مزقت شمل فرقتين من الروس وغنمت منهم رايتين قدمتهما لجلالتك : وبعد ما تردد نابوليون هنيهة من الزمان طلب من الضابط والجنود أن يقسموا على أنهم لم يبصروا حامل رايتهم مجندلا



المرشال لان دوق منتبلو (١٧٦٩—١٨٠٩)



فبادروا جميعهم الى الحلف فحينئذ لطف الامبراطور لهجته وقال لهم مبتسما :
« بناء عليه أعيد اليكم رايتكم »
وكانت مفاوضات الصلح جارية في مجراها بصورة جدية فأدت الى عقد وثيقة برسبورغ التي تم التوقيع عليها في ٢٦ دسمبر والتي تم بموجبها ضم ولايات البندقية الى مملكة ايطاليا ورفع مقام حاكمي بافاريا وورتمبرج الى مقام الملوك. ثم ان نابوليون ذاته بشر بهذا النبأ السعيد جيشه بنشرة أصدرها في ٢٧ منه قال لهم فيها انهم بعد ماشاهدوا امبراطورهم يشاطرهم المخاطر والمشاق شاهدوه محاطا بالعظمة والابهة وهما من خصائص ولي الامر والنهي في الشعب المحرز المقام الاول في المعمورة وختم مقالته بهذا الكلام :
« سأقيم في أوائل شهر مايو في باريس حفلة شائقة لتشهدونها جميعكم وبعد ذلك نمضي الى حيث تدعونا سعادة وطننا ومصالح مجدنا . أيها الجنود ان تصوروي بأني سأراكم جميعكم قبل ستة أشهر محتشدين حول قصري يجعلني أفتر ثغراً وأشعر قبل ذلك الحين بتأثر شديد . وسنحتفل بذكرى من صرعتهم المنية في هاتين المعركتين . وسيشاهدنا العالم طراً مستعدين للنسج على منوالهم واتيان فوق ما أتيناه اذا اقتضى الامر ذلك لمواثبة من يريدون التهجم على أحسانا أو ينخدعون بالذهب الوهاج الذي يرشوهم به أعداء القارة الاوربية الابديون »

ان مثل هذه اللهجة السحرية الشديدة الوقع على أفكار الجنود ومثل الاحاديث الفردية التي كان يفوه بها في أثناء عرضه الجيش ومثل الكلام الذي كان يلقيه على رجاله وأعوانه في الحين الملائم جعلت الناس يزعمون أنها كانت السبب الذي يجعل عساكره تميل اليه متعلقة بأهداب محبته وتستميت في سبيل اعلاء مجده وخدمة مقاصده ونياته وبعضهم يزعم أن نابوليون كان من أكبر الفشارين الذين كانوا يحسنون تزويق الكلام والتمويه على العقول . الا أن مثل هؤلاء المتحاملين عليه فاتهم أنه لو كان مثل هذا الزعم يصح أن يطلق على ماأوتيه من البراعة التي تم بأسرارها هذا الداهية ليتمكن من جعله أمة او جيشاً قادرين على الاتيان بالمعجزات والغرائب لما عقل أن هذا الداهية انحط الى درجة يدعوها رعاع الناس وطغامهم نوعاً من الفشار وضرباً من الهذر بل بعكس ذلك نرى أن مايسمونه فشاراً وهذراً رفعه الى درجة تساوي درجة حب الوطن

السامي والدهاء السياسي النادر الذي ما وراءه زيادة لمستزيد فليتدبروا التاريخ اذا شاؤوا فيبدو لهم ولا ريب أنه لم يكن بين نصراء الانسانية أو أحلاف الحضارة سواء كان في الشرع أو في الدين أو في الفتوح من أحجم عن التذرع بالذرائع التي توخى نابوليون ركوب مركبها إرادة التسلط على البشر والسير بهم الى غاية المجد السامية البعيدة المنال وإذا كانت الاسباب التي تسببوا بها بتفوقهم لاجل سعادة الشعوب ومجدهم يصح أن يطلق عليها أسم فشار كما كانوا يطلقون أسم سحر على السلطة التي كانت لزوجة المارشال دانكر على ماري المديشية فلا ينبغي لنا في هذا العصر والحالة هذه أن نعد النطع لمثل اولئك الفشارين بل يجب علينا أن نصيح بملء أفواهنا على رؤوس الاشهاد : « ليفتخر بفشارهم ! »

ولم يكن وداع نابوليون لعاصمة النمسا يقل أهمية في التاريخ عن نشرته الاخيرة لجيشه واليك ماقاله في هذا الصدد :

« ياسكان فينا اني لم اكثر من مخالطتكم والظهور بين ظهرانيكم ولم افعل ذلك استصغاراً مني لامركم أو استعلاء مني عليكم ولكنني لم اشأ ان أحول فيكم أدنى عاطفة من العواطف المقضي عليكم ابداؤها للعاهل الذي كنت موطنا النفس على عقد صلح معجل معه . فأغادركم تاركا لكم مسلحتكم سالمة كم تفصح عن احترامي لكم مع أن قوانين الحرب صيرتها ملكا لي فلا تنفكوا عن استخدامها في سبيل المحافظة على النظام فانسبوا النكبات التي قاسيتموها الى الويلات التي تصحب الحرب وتكون غير منفصلة عنها واعلموا ان المجاملة التي لقيتموها من جيشي ناجمة عن الاحترام الذي استوجبتموه »

ولم يكد التوقيع على النشرة يتم والصلح يذاع على سكان فينا والجيش الفرنسوي حتى أذاع نابوليون على الملأ طراً في نشرة جديدة بالتاريخ عينه أي في ٢٧ دسمبر خيانة حكومة نابولي التي فتحت أبواب ثغورها في وجه البريطانيين غير محترمة منطوق الوثيقة المعقودة من شهرين بينها وبين الحكومة الفرنسوية ولم يسبق ان كان لكلام نابوليون من العظمة والشدة والتهديد ما كان في هذه النشرة فان أفراداً من أسرة البربون كانوا يعدون أيدي المساعدة للبريطانيين ويخونون فرنسا وكان هذا الامر يكفي لاثارة نقع أهواء الامة الفرنسوية وبغضائها ونفورها والتعبير عنها بلسان زعيمها الاكبر . وفي هذا المقام تتكلم

الحكومة الامبراطورية كما كان يجب على حكومة الكنفنسيون ان تتكلم فقد كانت الحال تقضي بان يعامل الحزب الملكي بقساوة شديدة عقابا له على نقضه العهد وأن يخلع عن العرش آل البربون في نابولي ويستذلوا ويمتهنوا أمام البريطانيين أنفسهم . فتمم نابوليون هذا الامر بطريقة عجيبة ولم يسمق له قط ان يمثل عثل مامثل به هـذه المرة الثورة وفرنسا وهـذه صورة النشرة التي وجهها الى الجيش العظيم :

« عن المعسكر الامبراطوري بشنبرن في ٢٦ دسمبر سنة ١٨٠٥

«أيها الجنود

« لقد فعلت كل شيء من عشر سنوات لنجاة ملك نابولي وهو فعل كل شيء لبواره

« فلم يكن في وسعه بعد معارك داغو ومندوفي ولودي أن يبدي لي الا مقاومة ضعيفة وقد ركنت الى كلام هذا الملك وعاملته بما يقتضيه كرم الاخلاق

« ولما انحلت عرى المحالفة الثانية في مارنغو ظل ملك نابولي وحيدا وبغير مدافعة بعد ما كان أول من باشر حرب الافتراء هذه وبعد ما خذله حلفاؤه في لونافيل فاستغاث بي فصفحت عنه مرة أخرى

«وقد كنتم عند أبواب نابولي من أشهر وكان لدي اسباب شرعية تدعوني الى الظنة بان ثمة خيانة تدبر والى الانتقام من الاهانات الموجهة الي ومع ذلك أبديت نحوه من كرم الاخلاق ما أبديت فاعترفت بحياد نابولي وأمرتكم بالجلاء عن هذه المملكة . وكان من وراء عملي هذا توطيد أركان الاسرة المالكة في نابولي وخلاصها للمرة الثالثة

«فهل نغضي أيضاً الطرف مرة رابعة ؟ وهل نركن مرة رابعة الى بلاط خال من الذمام والشرف والعقل ؟ كلا كلا . لقد قضي الأمر على العترة النابولية المالكة وتقلص ظل ولائها فكيانها لا يأتلف مع الراحة في أوربا وشرف تاجي

« أيها الجنود سيروا واقذفوا الى اللجج كتائب الطغاة البحريين الضعيفة اذا وجدتموهم مقيمين على حبل انتظاركم واظهروا للعالم طريقة معاقبتنا لناقضي اليمين ولا تتلكأوا عن اخباري بان اجمل صقع في الارض تحرر من نير أشد الناس غدرا وبان قداسة المواثيق انتقم لها وبان أرواح جنودي القساور المقتولين

في ثغور صقلية عند عودتهم من مصر بعد افلاتهم من اوهاق المتالف براو بحرا وبعد نجاتهم من مئة وقمة سكنت أخيرا . »

على أن جيش ايطاليا الذي ساقته انتصارات ماسينا الى حدود النمسا والذي أصبح على تلك الصورة الفيلق الثامن في المانيا انجز طبقا للمبتغى نابوليون ما كان العاهل يتوخى عمله بفتحه مملكة نابولي بسرعة غريبة . واليكم النشرة السابعة والثلاثين التي وجهها نابوليون الى الجيش العظيم منبئاً اياه بها مما أصابه من الفتح القريب :

« ان الجنرال سان سير يوسع الخطى ميمما نابولي لينزل العقوبة بالملكة الخائنة ويخلع عن العرش المرأة المجرمة التي داست بوقاحتها كل ما هو مقدس بين البشر . » وقد شاؤوا التوسط لها لدى الامبراطور فاجاب :

« وهب قضي الامر بتجدد العداء واضطرت الامة الى اضطرام لظى الحرب ثلاثين سنة فلا يمكن السكوت عن مثل هذا الغدر الفاضح فلملكة نابولي انقضى حكمها وهذه الجريمة الاخيرة اتمت حظها . فلتذهب الى اندرة فيزدد بها عدد أصحاب الدسائس ولتتآمر مع دراك وسبنسر سميث وتايلر ووكهام . وهي تستطيع ان تدعو اليها اذا مارأت ذلك ملائما البارون درمفلد والمسيو دي فرسن والمسيو دنتريغ والراهب موروس . »

وقبل مافصل نابوليون عن فينا أبدى رغبته في المفاوضة بكل صراحة مع مندوب أوفده ملك بروسيا لتلك الغاية وهو المسيو دوغويتز وهذا لم يكن قدجاء الى ساحة الحرب الا ليراقب الحركات والحظوظ ويكون قريبا الاعلان محالفة مولاه لحكومتي النمسا وروسيا عند أول فشل يصاب به الجيش الفرنسوي وكانت معركة استرلتز قد أرجأت ولامراء ذلك الاعلان ولم يبق من وجه للمندوب البروسياني المهتم بعقد وثيقة جديدة مع المسيو دي تاليران للتفكير بتعليماته الاولى ولما مثل في حضرة الامبراطور قال له هذا بكلام جاف وباستعلاء :

« وهل بنى مولاك تصرفه على قاعدة المروءة ؟ فلأن يشهر علي الحرب جهاراً وان لم يكن ثمة من سبب موجب أشرف وأجل له . . . وعندي أن الاعداء الصادقين أفضل من الاصدقاء الخاتلين . فما معنى هذا الامر ؟ فهل تزعمون انكم حلفائي وتطيقون ان يكون في هانوفر فيلق روسي قوامه ثلاثون

الف مقاتل يتولى المواصلات مع الجيش الروسي العظيم عن طريق بلادكم . فلا شيء يمكنه أن يبرئكم من تبعة هذا التصرف فهو عمل عدائي صريح . واذا لم تكن مفوضا تفويضا واسعا لمعالجة جميع هذه المسائل فلازم خطة اللياقة . وانا سأزحف الى اعدائي ايان كانوا . »

ولم يكن المسيو دوغويتز يستطيع انكار صحة التعنيف الموجه اليه بحق . ولكي يجعلهم يصرفون النظر عن موقفه المبهم أبدى ارتياحا الى الاتفاق مع فرنسا على الاصول التي يقترحها المسيو دي تاليران ووقع وثيقة رسمية تبودلت بموجبها الهانوفر بولايتي بايرت وأنسباخ . وكان المسيو دي هردنبرغ يدبر في الوقت نفسه في برلين عقد وثيقة مع حكومة لندرة بأمر ملك بروسيا وتحت نظره . وسنرى فيما بعد نتيجة هذه السياسة المبنية على الخادعة

ولما عاد نابوليون الى باريس مرّ بمونيخ وقضى فيها ردحا من الزمان ليشهد حفلة قران ربيبه البرنس اوجين دي بوهرنه بكريمة ملك بافاريا . وكتب من تلك العاصمة بتاريخ ٦ يناير سنة ١٨٠٦ الى مجلس الشيوخ المحافظ ينبئه بأن وثيقة برسبورغ ستبسط له بعد قليل من الحين وانه مقضي عليه بان يذيعها بمثابة قانون من قوانين الامبراطورية . وكان من جملة ما كتبه ما يأتي :

« كنت أبتغي أن أجملكم بذاتي تطلعون في جلسة رسمية على الشروط ولكنني لما كنت من حين طويل قد قررت مع ملك بافاريا زواج ابني البرنس أوجين بالاميرة أوغسطا كريمته وكنت في مونيخ في الحين المضروبة فيه حفلة القران لم أستطع أن أنبذ السرور الذي يخامرني بعقد زواج هذين العروسين اللذين يصح أن نسميهما مثال الزوجين ... ولذلك سيرجأ وصولي الى ما بين شعبي أياماً وستكون هذه الايام طويلة عندي الا اني بعدما شغلت بدون انقطاع بما تقضي به علي الجندية أشعر بابتهاج شديد باهتمامي بتدبير ما يجب على رب العائلة ولكنني لما لم أكن أشاء تأخير نشر وثيقة الصلح امرت بان تبلغ اليكم بلا تريث ولا ابطاء . »

وتلت هذه الرسالة رسالة أخرى أشعر بها الامبراطور مجلس الشيوخ بانه

تبنى أوجين دي بوهرنه وأعده للتملك بعده على الايطاليين اذا لم يرزق أولادا طبيعيين أو شرعيين

وتمت حفلة قران هذا الامير الشاب في ١٥ يناير من سنة ١٨٠٦ في مدينة مونيخ وقد شهدها نابوليون وجوزفين فزاد بحضورهما بهاء الاحتفالات التي أقامهـا بلاط بافاريا اكراماً لذلك القران . وكان اوجين في بدء الامر قد نفر من المفاوضات الاولى التي أوعز اليه نابوليون بأن يتولاها في ذلك الشأن فانه كان يأنف من أن يكون زواجه سياسياً . ولكنه لما وقعت عينه على الاميرة الفتاة المعدة له واستطاع أن يقدرها حق قدرها بادر بكل لهفة الى اجابة طلب نابوليون

وفي أثناء إطالة نابوليون مدة مكثه في بافاريا كانت تستعد دوائر الحكومة الفرنسوية والشعب الباريزي استعداداً عظيما للاحتفاء باستقبال بطل استرلتز

وكان المجلس الاعلى قد باشر ذلك الامر فاقترح في جلسة ٣٠ دسمبر ١٨٠٥ أمرا مآله اظهار دلالات الاعجاب والمحبة وعرفان الجميل للبطل الذي تعتري اللسان حبسة عند ارادة التكلم عما أتاه من المعجزات العظيمة لبقاء تلك الدلالات الكثيرة خالدة كمجده

وفي أول يناير من سنة ١٨٠٦ نقل المجلس الاعلى الى اللكسمبور الرايات الاربع والخمسين التي بعث بها الامبراطور هدية الى مجلس الشيوخ وكان يسير في الموكب وراء أعضاء المجلس أصحاب المناصب والموسيقى العسكرية وفريق من حامية باريس . وقد شهد الحفلة مستشار الامبراطورية الاكبر وجميع الوزراء فاعلن مجلس الشيوخ وعلى رأسه الناخب الاكبر وصول الهدية الفاخرة المعدة لتزيين دار المجلس وأصدر باسم الشعب الفرنسوي القرار الآتي :

١ ــ تشييد نصب عظيم لنابوليون الكبير

٢ ــ ذهاب هيئة مجلس الشيوخ بذاتها للقاء جلالته الامبراطورية والملكية لتقديم ما يجب على الشعب الفرنسوي من الشكر والمحبة له

٣ ــ حفر كتاب الامبراطور المرسل الى مجلس الشيوخ من الشنبجن في ٢٦ فندميار من السنة الرابعة عشرة على ألواح من الرخام توضع في الردهات التي تعقد فيها جلسات مجلس الشيوخ

٤ ـ تذييل هذا الكتاب بما يلي :

«ان الرايات الاربعين والرايات الأخر الاربع عشرة المنضمة اليها بأمر جلالته جاء بها المجلس الاعلى بذاته الى مجلس الشيوخ ووضعها في هذه الردهة في يوم الاربعاء في أول يناير سنة ١٨٠٦ »

ونالت كاتدرائية باريس نصيبها من توزيع غنائم تلك الحرب الخالدة الذكر . وقد رأينا أن الرايات المعدة لهـا سلمت الى بلدية باريس في المعسكر الامبراطوري بشنبرن . فجاء ا كليروس العاصمة في ١٩ يناير لاستقبالها باحتفال عظيم عنـد باب الكنيسة فعلقت في سقفها

الفصل السابع

اعتراف الحكومة العثمانية بنابوليون امبراطوراً — اعادة مزاولة العبادة الكاثوليكية في البنطيون — ترميم سان دنيس — افتتاح المجلس الاشتراعي — الاشغال العامة — قانون المرافعات الحقوقية - الكلية الامبراطورية — مصرف فرنسا - أنظمة امبراطورية — إقامة يوسف بونابرت ملكا على نابولي — ترفيع مورات الى درجة غرندوق برغ - إقامة لويس بونابرت ملكا على هولندا - انشاء محالفة الرين - التئام محكمة اليهود العليا في باريس - عقد معاهدة مع الباب العالي - مفاوضات في سبيل عقد السلم العامة - وفاة فوكس

وعاد نابوليون وجوزفين الى باريس في ٢٦ يناير من سنة ١٨٠٦ فكان لحضورهما في العاصمة رنة طرب وهزة ابتهاج عمت جميع طبقات الامة الفرنسوية وقد أعرب مجلس الشيوخ والمجلس الاعلى عن الحماس الشديد فوقف فرنسوى دي نوشاتو رئيس مجلس الشيوخ في الجلسة الاحتفالية التي عقدت لهما في قصر التويلري في اليوم الثامن والعشرين من ذلك الشهر وخطب الخطاب التالي

« يا ذا الجلالة انه وان يكن تواضع جلالتكم يجعلكم تتكلمون ببساطة عن المعجزات الحربية المتوالية التي فاق بها دهاؤكم نفسه بعد تفوقه على جميع الابطال فلا يثقلن عليكم أن نضع موضع الاجراء قرار مجلس الشيوخ باطلاقنا على مخلص فرنسا لقب « كبير » وهو اللقب الذي يقضي علينا صوت الشعب المعتبر هنا صوت الله بأن نخصصه لكم »

فأجاب الامبراطور بأنه شاكر لمجلس الشيوخ ماأبداه رئيسه من العواطف له وانه يجعل وكده بأن يكون فخره الوحيد في تحديده حظ فرنسا بحيث تعترف



المرشال دافو أمير اكمهل (١٧٧٠—١٨٢٣)



العصور المتأخرة باطلاق اسم « عظيم » على الشعب الفرنسوي وتلت التهانئ الرسمية احتفالات عامة

وكان هم نابوليـون أن يجعل جميع الحكومات في أوربا تعترف له بلقب « امبراطور » وقد اتحفتـه به الامة الفرنسوية . وكان يعتبر أن كرامة الشعب العظيم النـائل هو حقوقه منه متعلقة بهذا الاعتراف وما عدا ذلك كانت أنفته الشخصية وعزة نفسه وخيلاؤه تجعله يعلق أهمية أعظم على ذلك الامر فقد غاظه الاسكندر قيصر الروس بارساله اليه كتاباً تحت هذا العنوان البسيط : « رئيس الحـكومة الفرنسوية » على مثال ملك بريطانيا العظمى الذي لم يكن يكتب الى حكومة فرنسا الا بواسطة وزرائه . وكان لنابوليون بمثابة تعويض ما اتصل اليه من أن سليم الثالث السلطان العثماني يعترف به رسميا امبراطورا على الفرنسويين .

على أن الغاية التي كان نابوليون يتقصدها وهي رغبته في مؤاخاة الملوك والعيال كانت شؤماً عليه فانها دفعته الى ركوب مركب سياسة جديدة تخالف السيـاسة التي كان يجري على منهاجها في علاقاته الخارجية وفي ادارته الداخلية فأظهر في استرلتز من مكارم الاخلاق ماعده عليه بعضهم ضربا من السياسة الخرقاء مع خصوم أشداء لا يرجى تحسين العلاقات معهم مع أنه كان يمكنه طمس رسومهم. وهو نفسه عرف خطأه على أثر هذا العمل. وبعدما رجع من تلك المعركة المشهورة أمر بان تعـاد مزاولة فروض الديانة الـكاثوليكية ونوافلها في البنطيون وأمر أيضا بترميم مدافن الملوك في سان دنيس غير محاذر أن يجرح العواطف الفلسفية والديمقراطية عند الشعب مصدر قوته الوحيدة وعظمته الفريدة . وأصدر في ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٦ مرسوماً امبراطوريا بوجوب اجراء هذين الامرين وقد دفعه اليهما المسيو دي شامباني وزير الداخلية وكانت أعماله تجعل المرء يبرز حكمه على حقيقة أميال الحـكومة في ذلك العهد وهذا ماقاله الوزير في هذا الصدد :

« يامولاي ان كنيسة القديسة جنفياف وهي من اجمل المعابد في العاصمة وقد شيدت على قمة الجبل المخصص لعبادة كانت تزين بنوع فخم مجموع الطرف المزدانة بها هـذه العاصمة وتشعر الاجانب عن بعد بسيادة الديانة السامية على هذا الشعب الغفير وقد نزعت من أماني القوم التقوية في الحين الذي أوشكوا

فيه أن يستمتعوا بها وخصصت فيما بعد لغاية أخرى ثم انها تركت وشأنها لينعق فيها البوم من دون أن تستعمل ومن دون أن تتخذ لغاية من الغايات . فهي نفسها تقضي العجب الآن من الاهمال التي صارت اليه فالفضولي الذي يزورها يتعجب من رؤيته وحشة الخراب في هذا المعهد الذي لم يكد بناؤه يتم . على أن دهاة الفنون الذين استنزفوا في سبيلها جميع موارد تصوراتهم يسؤهم أن يروها بلا سمة وبلا روح وبلا حياة . فالديانة عند رؤيتها اخفاق أمانيها حولت انظارها عن أثر لاتوسم جلالته بسمة الكرامة الا بعبادة العلي ويرتفع على مثال الاكرام العادل الذي يؤديه دهاء البشر الى الحق سبحانه وتعالى .

ويفتخر سان دنيس بأثر آخر يرقى الى عهد نشأة الامة وقد خصصه داغوبير لحامي فرنسا ورفعه الاب سوجه وهو يحتوي في وسطه على تاريخ هذه السلطنة بجملته . وترقد فيه ثلاث أسر تولت الحكم في فرنسا وهو لعمر الحق مشهد يقضي على الملوك والامم بالتأمل العميق ويذكر في وقت واحد بعظمة الاشياء البشرية وبقائها الزائل وهو أثر قدسته الديانة والعصور ونعش واسع مملؤ برفات الملوك وموضوع في مكان منفرد بعيداً عن ضوضاء العاصمة كأن ذلك جرى بحركة الرعب والاحترام ...

يا مولاي ان فكرك وحده أحيا وبعث هذين الأثرين وهو سيعيد اليهما كرامتهما الاولى »

ولم يكن ممكناً التعبير بأفضل من هذا الكلام عن الرجوع الى الافكار الدينية والملكية واذا كان الامبراطور يريد أن يبيض صحيفته في الخارج وفي فرنسا عينها عند رجال الدين وأنصار الحكومة القديمة فان وزيره خدم افكاره بهذا الكلام خدمة جليلة وان يكن مابذله من الجهد ليكذب على أصله ويخفي طبيعته الحقيقية قد ذهب على غير جدوى بعد كل شيء لدى اوربا القديمة وفرنسا القديمة والكهنوت القديم وقد كان يقدر نابوليون بونابرت حق قدره اكثر مما كان هو يقدر نفسه في ذلك العهد مع الاصرار على رؤيته فيه ربيب الفلسفة والحامي عنها وسليل الديمقراطية وعضدها والعدو الألد للماضي وليس المرمم الصادق له وموضوع الاحترام والاسف . وكانوا يبرئون ساحة الامبراطور باستنجادهم بطريقته التي رمى بها الى المسالمة العامة والتوفيق بين الاحزاب

المتنافرة . ولو لم يكن ثمة الا اعمال من شأنها ان تعيد الى فرنسا مزاولة الدين بحرية بعد ما كان الاضطهاد قد قطع مجراه وصرم حبله في عهد حكومتي الكفنسنيون والديركتوار لكان العذر مقبولا في هذا الشأن . ولما كان القنصل الاول يفتح المعابد الكاثوليكية في بلاد ينتحل السواد الاعظم من سكانها المذهب الكاثوليكي ويزاولون فروضه ونوافله ولو على سبيل العادة اذا لم يكن ذلك من باب الورع والعبادة كان بونابرت في ذلك العهد يتصرف تصرف السياسي العاقل والحصيف الداهية وكان يراعي مقتضيات الاحوال والمبادئ معا على أن اماني الشعب والدين والفلسفة الصحيحة كانت قد ادركت غاية مبتغاها : لان هذا الامر لم يكن سوى تساهل وحرية لا ينافيان الحماية حين لا تكون معاكسة للمصالح والاعتقادات الاخر . ولكن حين لا يكتفي الامبراطور بارجاعه الى رجال الدين كنائسهم المهجورة ووضعه الكاهن الكاثوليكي تحت كنف حماية الشريعة والخزينة العامة بل ينبذ من معابده الفلسفة ليقيم في مكانها الديانة الكاثوليكية وحين يغض الطرف عن سماعه كلام الاحتقار الموجه الى المنشئات الوطنية ليستبدل بها بصورة رسمية المنشئات الاكليريكية وحين يرضى بان يفوهوا بكلام التحقير على الضريح الفخم الذي خصصه الوطن المعترف بالجميل بدفن رجاله العظام ويصغي فيما بعد بارتياح الى عبارات فخمة يفوهون بها تعظيما لرفات الملوك وتكريس داغوبير لقبورهم في سان دنيس وكل ذلك رغبة في نسخ التعظيم الفلسفي وحصر ذكرى الرجال العظام واسمهم في مدافن البنطيون ودوس الكهنة بأقدامهم رفات فلتير وروسو وضمان حفظ رفات الامبراطورين على أيدي الكهنة في سان دنيس مع رفات الملوك فليس والحالة هذه في تصرف الامبراطور هذا شيء من التساهل والحرية أو الحماية لمذهب الكاثوليك بل تهجم موجه رأسا الى المبادئ التي خصصت البنطيون بدفن مشاهير الرجال ودهاتهم وثمة أيضا شجب للحاضر وترميم لصرح الماضي ومناوأة للثورة . وليس هنالك شيء مما يشبه عملا من الاعمال السياسية أو مما هو من ضرورياتها : والمستقبل يدلي بحجته على ذلك .

وبعد صدور المرسوم الامبراطوري المؤرخ في ٢٠ فبراير بأيام افتتحت جلسات المجلس الاشتراعي ولم يفكر أحد من نواب فرنسا باقامة النكير على ترك ذلك الهيكل الوطني لرجال الدين الكاثوليك . وفضلا عن ذلك كان كل احتجاج

في هذا الصدد من شأنه أن يظل عقيما ومن ذلك الحين نبذت فرنسا القيام بأعمالها الثورية في أوربا بواسطة الخطابة أو الصحافة .

وخطب نابوليون بذاته خطاب افتتاح المجلس فلام نفسه على ما أبداه من كرم الاخلاق مما لمناه عليه فيما سبق وتشاءم بقرب وقوع الحوادث التي دبرها تغفله فقال : « ان روسيا لولا تساهلي معها بتسليم جنودها لما عادت الى بلادها بقايا جيشها الممزق وقد كان بوسعي أن أدك عرش الامبراطورية النمساوية ولكنني وطدت أسسه فهل يجمل تصرف حكومة فينا الناس في الاجيال الآتية يحيلون علي باللائمة من جراء تقصيري في النظر في عواقب الأمور ؟ »

وقدم الوزراء بيانا عن حالة الامبراطورية التي كانت سائرة بقدم السرعة في جادة النجاح : فالطرق والترع والجسورة والآثار المختلفة الانواع والمباني المفيدة والجميلة شرع بها أو أنجزت في جميع أنحاء المملكة الواسعة وكانت تتألف في ذلك العهد من مئة وعشر ولايات ماعدا هولندا وولايات البندقية ومملكة ايطاليا .

وقال وزير الداخلية : ان الحكومة انتهت الى عدة طرق جديدة للمواصلات مما يرغب فيه الشعب فالطريق بين فالونيه ولاهوغ تمت أشغالها والطريق من كان الى هونفلور أوشكت أن تنجز والطريق بين أجا كسيو وبستيا تم انشاء نصفها والطريق بين الاسكندرية وسافون خططت وصدر الامر بانشاء طريق من باريس الى ماينس مارة بهمبورغ وطريق أخرى بين اكس لاشابل ومنجوى. وهبت نيران المباراة في أفئدة الناس في جميع الجهات لاصلاح الطرق المؤدية الى القرى .

وأعيد بناء الجسورة على نهر الرين في كهل وبرساك وعلى نهر الموز في جيفه وعلى نهر الشير في تور وعلى نهر اللوار في نفر وروان وعلى السون في أكسون الخ . وأجبر على المرور تحت الجسورة نهرا الدورانس والايزر اللذان كانت مياههما تأبى الخضوع والانقياد .

وبوشر احتفار ست ترع عظيمة وهي ترعة سان كنتان أوترعة نابوليون الواصلة الرين بالرون وترعة برغونيه وترعتا بلافه وإل ورانس وترعة ارل وفروع ترعة البلجيك .

وشرع بتخطيط ترع أخرى وانشائها كترع سان فالري وبوكير وايغ
ورت وسدان ونيورت الى روشل ونانت الى برست وتقرر انشاء غيرها كترع
سنسه وشارلروى وايبر وبريار .

ويجد الناظر الى الثغور الفرنسوية أنهم يهتمون على البحرين بتصيير المرافىء مما
يسهل الدنو منها وتتوفر فيها الراحة والامن . »

ثم أن المسيو دي شامباني تطرق الى الكلام عن المباني العظيمة وتحسينات
باريس فقال : « ان أنظاركم عند عودتكم الى العاصمة تعجبت من رؤيتكم أياها
قد تحسنت في بحر سنة انقضت بالحرب أكثر مما تحسنت قبلا بمدة نصف قرن
انقضى في السلم . فالارصفة الجديدة مدت على ضفاف السين وبني جسران في
السنين الماضية وأوشك أن يتم الجسر الثالث وهو أهمها من جهة سعته ورسم
في جواره حي جديد تتم به زينته . وقد أطلقت على شوارع هذا الحي أسماء
المجاهدين الذين لقوا موتاً شريفاً في أثناء الحرب وأطلق اسم استرلتز على
الجسر عينه .

واذا ماابتعد المرء عن ضفاف السين ألفى قوس نصر منصوباً عند مدخل
الاسواق وسيصبح أثراً جديداً لهذه الحوادث التي يجب أن يدوم ذكرها أكثر
مما يمكننا أن نفعله لاجل تخليدها . وستشهد هذه الاعمال للاجيال الآتية
بأننا كنا عادلين بقدر ماستكون هي عادلة وان معرفتنا للجميل كانت
معادلة لاعجابنا . »

وأجاب المجلس الاشتراعي على هذه الفقرات من التقرير المتقدم ذكره وعلى
الخطاب الذي خطبه الامبراطور لما افتتح هذا المجلس بخطاب أعاد فيه جميع
مجالي الحماسة والاخلاص المبسوطة بفخامة في جميع ماخطبته دوائر الحكومة
من الخطب السابقة . ولا بأس من اعادة مافاه به المسيو دي فنتان في هذا الشأن:
«ان السنين المنقضية في عهدك كثرت فيها الحوادث الخطيرة كثرت تفوق ماوقع
من الحوادث الجيدة في مدة قرون كثيرة في عهد غيرك .

ان العالم يظن أنه عاد الى تلك الازمنة التي كان فيها على رواية أعظم الكتاب
المعالجين للموضوعات العامة وأبعدهم مدارك يسير الظافر سيراً سريعاً جداً بحيث
كان العالم جائزة للسابق أكثر مما كان جائزة للمنتصر . »

على أن مثل هـذا الـكلام لم يكن من جراء خروجه من فم متملق سوى تعبير التاريخ بلهجة بسيطة وقد كان صفة عجيبة تمتاز بها حياة نابوليون بحيث أن التملق المتوفرة فيه عبارات الغلو لم يكن من المستطاع أن يعبر به عن ذهنه ومجده من دون أن يظل محصوراً في دائرة الحقيقة وان يكن في الظاهر مفعما من المبالغة .

وقرر المجلس الاشتراعي في هذه الجلسة الاعتماد على قانون المحاكمات الحقوقية الموضوع حديثاً فقرظه وزير الداخلية بهذا الـكلام :

« ان هذا الـكتاب لم يبلغ غاية الـكمال ولـكنه سيكون أفضل مما تقدمه من الـكتب في هذا الباب . »

وينتمي انشاء الجامعة الامبراطورية الى هذا العهد وقد بسط أسباب ذلك الانشاء الخطير فركروى المشهور الذي كان علمه الواسع وحبه الشديد للوطن يبعثان على القاء مقاليد الرئاسة اليه الا أن نابوليون أخطأ بتفضيله عليه المسيو دي فنتان وهذا كان في غابر أيامه منتظماً في سلك خدام الدين .

وأنشىء مصرف فرنسا بناء على تقرير رينيو دي سان جان دنجلي مستشار الدولة ووافق عليه المجلس الاشتراعي

ولفتت الانظار الى الفقرات الآتية في خطاب ختام الجلسات الذي خطبه في ١٢ مايو سنة ١٨٠٦ المسيو جوبير أحد المستشارين

« ان جلالته أرسل نظرة بعيدة على الفروع المتعددة المتفرعة على الطريقة المالية

« وقد تعمق في البحث عن طبيعة التربه ودقق في احصاء الموارد والوسائل التي تؤديها حركة التجارة الخارجية للزارع والتاجر

« وسمع جلالته أيضا الشكوى العامة من وضع الضرائب المحافظة على الطرقات

« وقال جلالته :

« فليخفف عبء الضرائب

« فلتنسخ الحدود

« فلتضمن الاموال اللازمة للادارة ضرائب ملائمة لحالة فرنسا .

وكان ذلك الامر بمثابة اعلان للحقوق المجتمعة وقد أوشكت السياسة الملكية في الامبراطورية ان تظهر في طريقتها الماليـة فـكان نابوليون يرمي الى استمالة

اصحاب الاملاك الواسعة اليه والى التعويل على الارسطقراطية العقارية ولذلك وعدهم بتخفيف اعباء الضرائب عنهم غير مكترث لاثقال مناكب المعوزين بها. واذا كان نابوليون مع جنوحه عن الجادة التي يسير عليها الشعب قد وجد الامة مقيمة على عهد الامانة له وميالة الى خدمة أفكاره فان انحرافه عن الصراط المستقيم في سياسته الداخلية وان يكن ماأصابه من النصر في الخارج قد جعل الامة تذهل عن تلك السياسة كاد يخمد نيران الحماسة في قلوب مريديه والمعجبين به . وحين جاءت أيام البؤس وناوأت العناية الامبراطورية قالبة لها ظهر المجن وجرت الشعب الى الاستسلام اليها ناقشوه الحساب عن الغاء الحقوق المجتمعة .

وكان في رأس نابوليون عقل جهنمي لم يكن يسعه الا اظهاره في اعماله وخططه وعوده الى الجري على الطريقة الملكية وما كان قد فعله لذاته كزعيم دولة كرره لذوي قرباه وكبار موظفيه . فبسطت قوانين امبراطورية جديدة لمجلس الشيوخ في الجلسة المنعقدة في ٣١ مارس سنة ١٨٠٦ لتقرير حالة الامراء والاميرات من العترة الامبراطورية . ورفع الى درجة دوقيات واقطاعات متوارثة دلماسيا وإستريا وغيرها وأجلس شقيقه يوسف نابوليون بونابرت على عرش نابولي والقى بمقاليد السلطة في دوقيتي برغ وكليف الى مورات صهره ومنح الاميرة بولين امارة غوستالا وبرتيه امارة نوشاتل الخ

وان ماقلناه عن الوراثة السياسية فيما يتعلق بالابهة الامبراطورية التي اتحف نابوليون بطرفها يمكن اطلاقه على مايتعلق بانشاء الاقطاعات الكبيرة الموروثة ويكفينا مؤونة تكرير الافكار التي جالت في خواطرنا عن سعي الامبراطور لاعادة تلك الامور الى مجاريها وعن تكذيبه لذلك أمام الجمعية الدستورية . وسنرى فيما بعد ان العمل الخطير الذي تم في ٣١ مارس سنة ١٨٠٦ ألغي في ٣١ مارس سنة ١٨١٤ أما النتائج العظيمة المتسلسلة عن ليلة ٤ أوغسطس سنة ١٧٨٩ فانها ستظل خالدة الى ما شاء الله . وعلاوة على ذلك لاينبغي لنا أن نذهل كما قد نبهنا الافكار اليه عن أن النبلاء والملوك في عصر الامبراطورية المأخوذين من سوقة الشعب والمحافظين في أثناء جميع تقلبات الاحوال على جوهرهم الثوري قربوا النبلاء والملوك من أنظار الشعب وعملوا على اضعاف أو نسخ الابهة التي كانت تعضدها هاتين الطبقتين العظيمتين في خلال شيخوختها

وكان من جملة الانشاءات والترقيات التي سبق لنا ذكرها أمر كان له نتائج ملائمة لنشر الافكار الفرنسوية واعداد أسباب الفتنة الاوربية وهو ترقية يوسف بونابرت الى عرش نابولي بدلا من أسرة البربون المخلوعة عن سرير الملك والمبعدة الى صقلية . فان يدا تزعم أنها ملكية ألقت وهي لا تدري ولا تريد بذار الفتن الحرة عند سفح جبل يزوف فما عتم هذا البذار أن أفرخ ونما وأثمر ووضع تاج آخر على رأس لويس بونابرت أحد اشقاء العاهل نابوليون في خلال السنة عينها فان مندوبي الشعب الباتافي طلبوا من الامبراطور بلسان الاميرال فرهويل أن يملك عليهم البرنس لويس نابوليون مانحاً إياه لقب ملك هولندا . فبادر نابوليون الى إجابة سؤلهم ونادى بأخيه ملكا عليهم في حفلة كبيرة أقيمت اكراماً لهم في قصر التويلري في ٥ يونيو سنة ١٨٠٦ وخاطب أخاه قائلا له :

« أيها الملك تول شؤون هذا الشعب فآباؤهم لم يحرزوا استقلالهم الا بما منت به عليهم فرنسا من المساعدة المستمرة . ولما حالفت هولندا بريطانيا العظمى دوخها الغزاة وعاثوا في ارضها مفسدين : ولفرنسا فضل عليها ببقاء كيانها . فأعطها ملوكا يذودون عن حريتها وشرائعها وديانتها ولكن حذار أن تنبذ جنسيتك الفرنسوية »

وفي هذه الكلمات الاخيرة خلاصة السياسة التي كان نابوليون يتعمدها في استيلائه على العروش المجاورة فان غايته في وضعه التيجان على رؤوس اخوته لم تكن مقتصرة على منحه أسرته مكانة رفيعة جديرة بمكانته وهو الذي كان يريد قبل كل شيء أن تكون الممالك المجاورة الخاضعة لشرائعه ولايات من جملة الولايات الفرنسوية ولكي يكون اندغامها بالامبراطورية شديداً ومضموناً وضعها تحت سلطة ملوك من لحمه ودمه .

واذا كان صحيحاً أنه حيث ترسخ سلطة فرنسا ترسخ أسس الحضارة الاوربية فلا بد من الاقرار بالمعروف لنابوليون ولو لم تكن غايته من وراء عمله هذا الا توسيع دائرة سلطته الشخصية بسعيه لادخال جميع الشعوب التي تمكن من سلخها عن مبادىء أوربا القديمة في وحدة فرنسا الجديدة العظمى

وكان الامبراطور يؤم غايته موسعاً الخطى وهو لا يقتصر على وضع اخوته على عروش الاسر المالكة العريقة في القدم فقط بل على انشائه محالفات قوية



المرشال ليفيفر دوق دنتزيك (١٧٥٠— ١٨٢٠)

يرأسها بلقب محام أو وسيط . فانه بعدما رقى حاكمي بافاريا وورتمبرج الى درجة الملك أراد أن يوثق عرى علائق تينك المملكتين بالامبراطورية الفرنسوية بمعاهدة رسمية كان من غايتها انشاء محالفة الرين ومن نتيجتها تصيير أجمل بلدان ألمانيا فرنسوية الميل

وكان نابوليون وهو يسعى لتجديد العتر المالكة حول فرنسا يهتم اهتماماً جديا بتنظيم مجلس شورى الدولة تنظيما نهائياً وتأليف فرع لعلم الاقتصادالبري في مدرسة ألفور وانشاء محلات لتوليد الخيل وتربيتها وإقفال المقامر في جميع أنحاء الامبراطورية الخ . وقد شمل بعنايته أيضاً اليهود وأصدر أمراً بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٠٦ يدعو به جميع رعاياه الذين على المذهب الموسوي الى إرسال نواب عنهم الى باريس . وقد وضع ذلك الامر موضع الاجراء وعقدت محكمة اليهود العليا أول جلسة من جلساتها في ٢٦ يوليو من السنة عينها

ولم تكن فرنسا في ذلك الحين تحارب الا روسيا وبريطانيا العظمى وكانت بفضل قوة عارضة الجنرال سباستياني سفيرها في القسطنطينية ومقدرته السياسية وتفننه في أساليب الدهاء قد عقدت مع الباب العالي وثيقة درت عليها المرافق والفوائد . وقد استقبل نابوليون في قصر التويلري السفير الموفد فوق العادة من لدن الحكومة العثمانية واسمه موحد أفندي في اليوم عينه المعين لاستقبال وفود هولندا والصادر فيه المرسوم الامبراطوري السامي بمنح تاليران لقب أمير بنيفان وبرنادوت لقب أمير بنتي كرفو

على أنه ولو كانت العداوة باقية مشتدة كل الاشتداد بين الحكومة الفرنسوية وحكومتي لندرة وبطرسبرج لم يكن ذلك لينزع من القلوب الامل بعقد الصلح ورفع أعلام السلم فأسندت رئاسة الوزارة الى فكس بعد وفاة بت في شهر يناير سنة ١٨٠٦ فكان ذلك الحادث وحده كافياً لجعل الناس يعتقدون انه سيحدث تغيير في السياسة البريطانية نحو فرنسا . وقد سبق لنا القول ان كلا من فكس ونابوليون كان يحترم الآخر ويقدره حق قدره . وكان قد قدم الى ذلك السياسي البريطاني الداهية في خلال وزارته الاخيرة مهاجر من المهاجرين الفرنسويين الاوغاد وعرض عليه الايقاع بالامبراطور فأمر الوزير بذلك المهاجر السفاح أن يلقى القبض عليه . ثم انه كتب الى وزارة خارجية فرنسا يشعرها

بالامر ويخبرها ان الشرائع البريطانية لا تمكن من ابقاء الاجنبي الذي لم يرتكب أدنى جناح مدة طويلة في السجن وانه آلى على نفسه بألا يطلق سراح ذلك الشقي الا حين يرقى خبره الى نابوليون ويتمكن هذا من اتخاذ جميع التدابير للوقاية من شره ٠

وقد كان من المستطاع تقليم أظفار العداوة القديمة الراسخة أركانها بين فرنسا وبريطانيا العظمى وتصفية آثارها والعودة الى حالة سلم طويلة العمر على يد مثل هذا الوزير الخطير . وكان نابوليون يعتقد إمكان حدوث هذا الامر وقد صرح به أيام كان في جزيرة القديسة هيلانة الا أن الفتنة الكبرى لم تكن حتى ذلك الحين قد ضربت أطنابها الا في عاصمة واحدة من عواصم أوربا وكان الناس يتوقعون زيارتها لهم في غير هذه العاصمة . وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٨٠٦ حضرت الوفاة فكس في أثناء المفاوضات بينه وبين فرنسا فأعاد شبح بث عواطف النفور في الوزارة البريطانية الجديدة من الحكومة الفرنسوية

———•✕•———

الفصل الثامن

حرب بروسيا ـ معركة ايانا ـ نابوليون في بتسدام

وعقدت في باريس وثيقة الصلح بين حكومة فرنسا وسفير روسيا في ٢٠ يوليوسنة ١٨٠٦ بمساعي الوزارة البريطانية السلمية ونفوذها الاأن مصرع فكس هدم صرح هذه المساعي ونسخ تأثير تلك الكلمة المسموعة فأبى الاسكندر الموافقة على عمل سفيره وتولى المفاوضات مع الوزارة البريطانية الجديدة وحكومة برلين لاستئناف اشعال نيران القتال في القارة الاوربية . وكان قيصر روسيا وملك بروسيا وزوجته قد عقدوا من نحو سنة من الزمان وثيقة بتسدام المشهورة وأقسموا على ضريح فريدريك الكبير بان يبذلوا كل ماعندهم من الجهد لمناهضة فرنسا ومناصبتها

ولما انتهى الى نابوليون ماكانت الحكومات الشمالية تهيئه من المكايد أشعر بالامر حلفاءه المتألفة منهم محالفة الرين . وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠٦ كتب الى ملك بافاريا يخبره عن تسلح بروسيا ويطلب منه تقديم الجنود الذين وعده بهم في وثيقة ١٢ يوليو

وبرح سان كلود بعد ثلاثة أيام منطلقا الى المانيا ومعه جوزفين وبلغ ماياس في ٢٨ منه وهناك افترق عن الامبراطورة . وبلغه في ٣٠ منه ان حاكم ورتزبورغ انضم الى محالفة الرين فعبر النهر في أول اكتوبر وجعل مركز أركان حربه في بمبرغ في ٦ منه ووجه منها نشرة الى جيشه يخبره بها عن العدو المقضي عليه بأن يواثبه . وهذه خلاصة ماتضمنته تلك النشرة :

« أيها الجنود لقد علت اصوات الحرب في برلين ولا يزال القوم فيها من شهرين عاملين على استنزالنا

« ومعلوم ان العصابة عينها التي اغتنمت الفرصة من الاختلافات الداخلية التي كانت تعبث بنا وكانت تجذب بروح الطيش من أربع عشرة سنة جنود البروسيانين الى سهول الشمبانيا لا تزال صاحبة الكلمة المسموعة في مجالسهم وقد أصابوا في الشمبانيا ما أصابوه من الانكسار والموت والعار . . .

« فهلموا بنا نزحف اليهم . . وليصب الجيش البروسياني الحظ عينه الذي أصابه من اربع عشرة سنة . وليعلموا انه اذا كان يسهل الحصول على توسيع نطاق البلدان وتعزيز السطوة بنيل مصادقة الشعب العظيم فان معاداته (التي لاتمكن المجاهرة بها الا بنبذ روح الحكمة والتعقل) أشد رعباً من عواصف الاوقيانوس وأنوائه . »

ويسهل على المرء أن يرى أن الامبراطور كان وهو يمثل هذا الدور بالحرية والحماسة في إظهاره التقاليد الثورية المودعة بين يديه أفضل منه حين يذكر القوم في فرنسا بتذكارات القديسة جنفياف وسان دنيس الدينية والملكية .

وكان نابوليون قد باشر الحرب وهم بشن الغارة الشعواء على أعدائه من دون أن يعرف أكثر مما كان يعرفه في الحرب الاخيرة السبب الذي من أجله كان يقاتل والغاية التي كانوا يبتغونها منه في محاربتهم اياه . وهذا ماجعله يكتب في ١٧ اكتوبر من بمبرغ الى مجلس الشيوخ المحافظ مايلي :

« إنا في الحرب التي لم نتقلد فيها السلاح الا للدفاع عن احسابنا والتي لم نستثرها بعمل من الاعمال أو دعوى من الدعاوى والتي يتعذر علينا أن نبين سببها الحقيقي نتكل كل الاتكال على مضافرة الشرائع ومساندة الشعوب التي تدعوها الاحوال الى تقديم براهين جديدة لنا عن اخلاصها وشجاعتها . »

وقد أشرنا الى هذا السبب الحقيقي عند نشوب الحروب السابقة فان نابوليون الذي صار يحاذر من صيرورته امبراطوراً أن يعترف بأن الملوك يمكنهم أن يشهروا عليه حرب مبادئ يجعل الناس يفكرون بهذا الامر في النشرة التي أذاعها على الجيش حين يشكو من العصابات وروح الطيش الهاب في صدرها مما كان قد ساق سنة ١٧٩٢ برنسويك الى الشامبانيا وهو يخشى أن تكون تلك العصابات مع الروح المذكور سائدة في مجالس المملكة البروسيانية كما كانت سائدة فيها في ماغبر من الدهر .

وقد جاءه رسول من تاليران نزيل مايانس في اليوم الذي سير فيه رسالته الى مجلس الشيوخ يحمل اليه كتاباً من ملك بروسيا يكرر فيه هذا الملك اكثر من عشرين مرة شكواه مما كان أعداء الثورة يأتونه من خمس عشرة سنة على صور شتى لمواقعة فرنسا فلم يستطع الامبراطور انجاز تلاوة ذلك الكتاب

والتفت الى جلسائه وقال لهم :

« اني أرثي لاخي ملك بروسيا فانه لايفهم اللغة الفرنسوية وهو ولامراء لم يقرأ هـذه اللمحة . »

وكان مع كتاب الملك مذكرة المسيو دي كنوبلسدرف المشهورة فقال الامبراطور لبرتيه : « ياحضرة المارشال يضربون لنا موعد الاجتماع في ٨ منه ولم يسبق لفرنسوي قط أن يتخلف عن مثل هذا الموعد ولـكن يقولون ان هنالك ملـكة حسناء تريد أن تشهد القتال فلنسرف في اللطف ولنزحف الى الساكس من دون أن نذوق طعم الرقاد »

وكان نابوليون يلمح بهذاالـكلام الى ملـكة بروسياالتي كانت تصحب الجيش لابسة لباس الفرسان الذي يلبسه رجال فرقتها وكانت تـكتب عشرين كتابا في كل يوم تحرض بها الجيش البروسياني على اضرام لهيب الحرب في كل ناحية .

وبر الامبراطور بوعده فانه في ٨ ا كتوبر فصل عن بمبرغ في الســاعة الثالثةصباحا واجتاز غابة فرنـكونيا في النهار وشهدفي٩ منه في شلتز فاتحة الحرب الجارية على مايشتهي ويريد . واستولى المارشال رنادوت على هذه القرية بعد ما كسر في هذه الوقعة عشرة آلاف من البروسيانيين وأسر قسما كبيراً منهم . واشترك مورات بهذه المعركة هاجماً في المقدمة وقد شهر السيف بيده .

ونال الفرنسويون انتصاراً جديداً في ١٠ منه في سالفلد وقد باشرت ميسرة الجيش الفرنسوي بقيادة المارشال لان القتال هذه المرة وكان من نتيجة ذلك انـكسار طليعة البرنس دي هوهنلوه انـكساراً تاماً وكان يقودها البرنس لويس البروسياني الذي لقي حمامه في وسط المعمعة . وكان هذا الامير الشاب المتعلق الجند باهداب حبه يذوب حنينا لاعادة مجد ذلك الجيش القديم فـكانت شجاعته مجلبة لحتفه وقد أظهر أنه من أشـد الناس في بلاده رغبـة في تسعير لظى الوغى وكان قد أبدى رأيه في المجالس البروسـيانية بوجوب مباشرة هجوم شديد وساءه أن يترك الموقع الموكولةاليه المدافعة عنه فباشر سقاتلةقوات تفوق قواته كثيرا وتفضلها في الموقف بعد مقاومة عنيفة وزلزلت اقدام جيشه وانقطع نظامهم .

وبينما هو يستنزف مجهود اليائس لضم ماتفرق من شمل رجاله فاجأه من فرسان أعدائه فارس يدعى غنيده وسامه تسليم سيفه اليه فأبى الأمير اجابة طلب الفارس الفرنسوي وحمل عليه يقاتله قتالا أحب معه الموت ويدافع عن نفسه مدافعة الاسود فأهوى عليه الفرنسوي بسيفه وضربه ضربة كانت القاضية وهذا هو معنى الفقرة المذكورة في بيان تلك الموقعة والمقول فيها :

« ان أول الضربات في تلك الحرب أودت بمن كان مدبرها . »

ومنذ اليوم الثاني عشر من شهر اكتوبر كانت طلائع الجيش الفرنسوي عند ابواب لبسيك وأركان حرب الامبراطور في جيرا

ولم يكن نابوليون مرتابا في نتيجة الحرب ولكنه حيث كان يهمه أن يتنصل من مسؤولية الحرب ويبين للقوم في فرنسا خصوصا وأوربا عموما انه لم يدخر وسعا في سبيل المحافظة على السلم عني في جيرا بتسطير جواب لكتاب ملك بروسيا مامكث أن أذاعه على رؤوس الاشهاد وهذا أهم ماجاء في هذا الجواب :

« حضرة أخي ان كتاب جلالتكم المؤرخ في ٢٥ سبتمبر لم يلتني الي الا في ١٧ اكتوبر ويسوءني وايم الحق ان أرى أنهم حملوكم على التوقيع على مثل هذه الرسالة المشحونة قدحا . ولم أكن لاجاوب عليها الا لأقيم النكير على ذلك مبينا لكم اني لاأنسب اليكم شيئا مما هو وارد فيها ومما هو مخالف لاخلاقكم ولشرفنا كلينا . فانا أرثي لحالة مسطري الرسالة واحتقرهم . وقد انتهت الي بعد وصول رقيمكم بوقت قصير مذكرة وزيركم المؤرخة في أول اكتوبر والضاربة لي موعد اللقاء في ٨ منه . وقد قمت بوعدي كرجل يحافظ على كلامه وهاءنذا الآن في وسط الساكس فصدقني بان لدي من القوات مالا تستطيع قوة أن تصادمها وتظل مدة طويلة مترددة في الجهة الجانح النصر اليها . ولكن لماذا يسفك مثل هذا الدم الغزير ؟ وما هي الغاية من ذلك ؟ وأنا أخاطب جلالتكم بالكلام عينه الذي خاطبت به الامبراطور الاسكندر قبل معركة استرلتز بيومين فلماذا نقتل رعايانا فالنصرة التي اشتريها بحياة عدد كبير من أولادي لاأعتبرها شيئا مذكورا . فلو كنت في بدء حياتي الحربية وكنت أخشى أهواء القتال لكان مثل كلامي هذا مخطئا موقع الصواب

ياصاحب الجلالة انكم ستنكسرون وتعرضون للخطر راحتكم وحياة رعاياكم من دون أن يكون لكم في ذلك أدنى عذر . فبردة جلالتكم لا تزال نظيفة حتى الآن من كل وصمة ويمكنكم أن تعقدوا معي صلحاً يضمن كرامة مقامكم ويمكنكم أن تتعاطوا معي هذا الامر قبل انقضاء شهر ولكن في موقف يختلف عن الموقف الحاضر . . . وقد أكون أثرت بهذا الكتاب كامن عواطفكم الا أن الاحوال لاتقتضي أدنى مداراة . فليصدر أمر جلالتكم لعصابة المقربين منكم الذين دغلت صدورهم وطاشت أحلامهم بأن يصمتوا لدى عرشكم مراعين في ذلك الاحترام الواجب عليهم ولتعيدوا السكينة اليكم والى بلادكم . . . »

ولم يكن الامبراطور مخطئاً في قوله بأن كتابه سيهيج كامنات عواطف ملك بروسيا ويوقظ ضغنه من رقدته وكان أيضاً كأنه يقرأ في كتاب المستقبل حين أنبأ هذا الملك بجرأة عظيمة بأنه سينكسر . وكان في واقع الحال أن الجيش البروسياني تمزق كل ممزق بعد يومين في سهول ايانا . وصدرت النشرة الخامسة للجيش العظيم عن ساحة الحرب في ايانا في ١٥ اكتوبر وهذا نصها :

معركة ايانا

« ان معركة ايانا محت عار روزباخ وقررت في سبعة أيام قتالا سكن الهياج الحربي الذي كانت عواصفه قد هبت في صدور البروسيانيين . . .

« وقد شاء ملك بروسيا أن يفتتح باب المحاربة في ٩ اكتوبر بتسييره ميمنته على فرنكفور ووسطه على ورتزبورغ وميسرته على بمبرغ . وكانت جميع فرق جيشه مستعدة للقيام بهذه الخطة الا أن الجيش الفرنسوي دار على طرف الميسرة ووصل في أيام قليلة الى سالبورغ ولوبنستين وشلتز وجيراونومبورغ . وقضى الجيش البروسياني المطوق أيام ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ اكتوبر في لم متفرق شعثه . وتقدم للقتال في ١٣ منه بين كابلسدرف وأرستاد وعدده يقدر بزهاء مئة وخمسين ألف مقاتل .

ووصل الامبراطور الى ايانا في ١٣ منه في الساعة الثانية بعد الظهر وشاهد وهو واقف على الهضاب النازلة فيها طلائع جيشه العدو يهيء العدة لمهاجمة

الفرنسويين في الغد واغتصاب منافذ نهر السال وأخذها عنوة . وكان البروسيانيون ينمون باسرار قوة عظيمة وهم في موقفهم المنيع للدفاع عن الطريق المؤدي من ايانا الى ويمار وكأنهم اعتقدوا أن الفرنسويين لا يستطيعون البلوغ الى السهل من دون أن يغتصبوا المعبر ويستولوا عليه . وكأنه لم يكن ممكناً في واقع الحال أن تصعد المدفعية الى الهضاب الضيقة الفسحة بحيث لا تكاد تسع أربع فرق . واشتغل الفرنسويون الليل بطوله في اختراق طريق بين الصخور تمكنوا من تسيير المدفعية عليه حتى انتهوا به الى أعلى الهضاب المذكورة .

« وتلقى المارشال دافو الامر بالزحف من جهة نومبورغ للدفاع عن مضايق كوزن اذا ما كان البروسيانيون يبتغون مهاجمة نومبورغ أو بالزحف الى ابولدا لمهاجمة البروسيانيين من الوراء اذا بقي هؤلاء في مراكزهم .

« وأمر فيلق المارشال البرنس دي بنتي كرفو بالسير من دورنبورغ للوقوع على البروسيانيين من الوراء سواء زحفت قواتهم لمهاجمة نومبورغ أو لمهاجمة ايانا .

« أما معظم الفرسان الذين لم يكونوا بعد قد انضموا الى الجيش فلم يكونوا يستطيعون الانضمام اليه الا عند الظهر . ولم تكن المسافة بين فرسان الحرس الامبراطوري وبينهم أقل من مسيرة ست وثلاثين ساعة مهما كانوا قد حدوا في السير بعد انطلاقهم من باريس . ولكن يحدث في الحرب في غالب الاحيان أنه لا يستطيع أدنى اعتبار من الاعتبارات أن يجعل المرء يتردد في إنذار عدوه ومباشرة مهاجمته . وصف الامبراطور على الهضاب النازلة فيها طلائعه ــ وقد أهملها العدو واتخذ موقفه بازائها ــ فيلق المارشال لان برمته جاعلا كل فرقة منه تؤلف جناحاً . وصف المارشال ليفيفر عند المرتفعات الحرس الامبراطوري على شكل مربع ونزل الامبراطور بين أبطاله . وكان الليل يمثل منظراً رهيباً جديراً بالاعتبار وهو مشهد الجيشين اللذين كان أحدهما ينشر مقدمته على مسافة ستة فراسخ ويرفع نيرانه في الفضاء وكان الآخر كأن نيرانه محصورة في نقطة صغيرة وكان في كلا الجيشين حركة ونشاط . وكانت نيران الجيشين مشبوبة على قيد نصف مرمى المدفع وكاد الخفراء يتماسون بحيث لم تكن تدور حركة من الحركات عند أحد الجيشين من دون أن يسمعها الآخر .

« وقضى فيلقا المارشال ناي والمارشال سولت الليل في السرى وهب جميع



نابوليون يوزع الرايات على الجيش (سنة ١٨٠٤)



الجيش لحمل السلاح عند تباشير الصباح واصطفت فرقة غازان ثلاثة صفوف الى يسار الهضاب وألفت فرقة سوشه الميمنة واحتل الحرس الامبراطوري قمة الاكمة وكان لكل فرقة من تلك الفرق مدافع منصوبة بين الفسحات وفاصلة الواحدة منهن عن الاخرى . وفتحت من المدينة ومن الاودية المجاورة منافذ تسهل الانتشار للجيوش التي لم يتسن لها احتلال الهضاب . ومن المرجح أن هذه هي المرة الاولى التي قضي فيها على جيش أن يمر بمثل ذلك المنفذ الصغير

« وكان ضباب كثيف يلبس النهار حلة من الحلك فمر الامبراطور أمام عدة صفوف وأوصى الجنود بان يتحذروا من الفرسان البروسيانيين الذين كان الناس يتصورونهم هائلين . وذكرهم بانهم منذ سنة من الزمان استولوا في مثل ذلك الحين على ألم وان الجيش البروسياني هو اليوم مطوق على مثال ماكان عليه الجيش النمساوي في السنة المنقضية . وانه أضاع خط حركاته وفقد ذخائره وانه لم يكن يقاتل في هذا الحين في سبيل المجد ولكن سعياً وراء الانسحاب وان الفيالق التي تبحث عن منافذ في جهات مختلفة وتدع ذلك الجيش يمر تفقد شرفها وسمعتها . ولما سمع الجنود هذا الخطاب الحماسي صاحوا : « سيروا بنا ! » وباشر الرماة المعركة . وما مكث اطلاق المدافع والبنادق أن أصبح شديداً . على أن العدو أزيح من المواقع الحصينة النازل فيها وتمكن الجيش الفرنسوي المندفع الى السهل من استعادة نظام الحرب .

« أما معظم الجيش الذي لم يكن مصمماً على الهجوم الا حين ينقشع الضباب فانه باشر القتال وكان فيلق من الميسرة قوامه خمسون الف مقاتل قد غشي مضايق نومبورغ ناويا الاستيلاء على مخارج كوزن الا أن المارشال دافوكان قد اطلع على حركته وتقدم فيلقان آخران يتألفان من أربعين الف محارب أمام الجيش الفرنسوي المندفع الى هضاب ايانا . وظل الضباب مخيماً فوق الجيشين ساعتين ولكنه مالبث أن انقشع أمام شمس الخريف الساطعة ولمح كل من الجيشين الآخر على مسافة لاتزيد على مرمى المدفع . وكان المارشال أوجرو يقود ميسرة الجيش الفرنسوي المستندة الى أحدى القرى والى الاحراج . وكان الحرس الامبراطوري يفصلها عن الوسط المتولي قيادته المارشال لان . وكان فيلق

المارشال سولت يؤلف الميمنة ولم يكن مع المارشال ناي سوى ثلاثة آلاف جندي وهم الجنود الذين كانوا قد وصلوا اليه من فيلقه .

« وكان جيش العدو كثير العدد وفيه فرسان شجعان . وقد تمت الحركات بتدقيق وسرعة وكان الامبراطور راغباً في تأخير القتال ساعتين ليتسنى له أن ينتظر في الموقع الذي غنمه بعد معركة الصباح الجنود الذين كان ينتظر موافاتهم له ولاسيما الفرسان الا أن الحدة الفرنسوية تغلبت على رغبته . واشتبكت في القتال عدة فرق في قرية هلستد وتحرك العدو ليزيحها عنه فاصدر الامبراطور أمره في الحال الى المارشال لان بان يزحف بصفوفه الواحد منها قدام الآخر لعضد تلك القرية وشن المارشال سولت الغارة على حرجة الى الجهة اليمنى . ولما تحركت ميمنة العدو لتهاجم ميسرتنا أمر المارشال أوجرو برد حركتها وعم القتال في أقل من ساعة . فكان مئتان وخمسون الف أو ثلاث مئة الف مقاتل وسبع مئة أو ثماني مئة مدفع تنشر الموت في كل جهة وتبدي للانظار مشهدا يندر حدوث مثله في التاريخ

« وكانوا من كلا الجانبين يقومون بحركات متوالية تحاكي حركات عرض الجند ولم يكن بين جنودنا أدنى اضطراب ولم يتردد النصر دقيقة واحدة عن الميل الينا . وكان الى جانب الامبراطور ما عدا الحرس الامبراطوري عدد كبير من الجند الاحتياطي ليتمكن أن يسد به ثلمة الحوادث غير المنتظرة .

« ولما استولى المارشال سولت على الحرجة التي كان يهاجمها من ساعتين قام بحركة الى الامام . فاشعر الامبراطور في ذلك الحين بأن فرقة الفرسان الفرنسويين الاحتياطية ابتدأت تصطف في ساحة القتال وان فرقتين من فيلق المارشال ناي اصطفتا وراءها . وحينئذ قدموا في الصف الاول جميع الجنود الاحتياطيين المعضودين فضعضعوا أركان العدو باسرع من لمح الطرف وفلواحده فانسحب انسحاباً منتظماً في الساعة الاولى الا أن ذلك الانسحاب لم يبطىء أن أصبح فشلا هائلا حالما تمكن من الاشتراك في الحرب فرق دراغوننا ومدرعينا المتولي قيادتها الغرندوق دي برغ . فقد ساء هؤلاء الفرسان الشجعان أن يروا النصر يتم بدونهم فاندفعوا الى كل مكان أبصروا فيه الاعداء ولم يستطع فرسان ومشاة البروسيانيين مقاومة حملتهم . وكان المربع الذي ألفه العدو قد ذهب على غير

طائل فان خمس فرق من فرقهم خرقت ومزق شمل المدفعيين والفرسان والمشاة وسقطوا أسرى في أيدي الفرنسويين ووصل هؤلاء الى ويمار في الحين عينه الذي وصل فيه اليها العدو الذي كنا نتعقبه مسافة ستة فراسخ .

« وكان فيلق المارشال دافو يجري المعجزات عند ميمنتنا فلم يكتف بأن يوقف على مسافة تزيد على ثلاثة فراسخ معظم جيش الاعداء المقضي عليه بالخروج من جهة كوزن بل أعمل فيه الطعن والضرب . . . وهذه نتيجة المعركة : ثلاثون الى أربعين ألف أسير ويصل الينا أسرى جدد في كل دقيقة وخمس وعشرون الى ثلاثين راية وثلاث مئة مدفع ومخازن كبيرة مملوءة مؤناً . وكان بين الاسرى أكثر من عشرين جنرالا بينهم عدة نواب جنرالية وفيهم شميتو نائب القائد الاكبر . وكان عدد القتلى كثيرا في الجيش البروسياني ويقدرون القتلى والجرحى بأكثر من عشرين ألفاً وجرح الفلد مارشال مولندرف وقتل دوق برنسويك والجنرال بلوخر وجرح البرنس هنري البروسياني جرحاً بالغاً ويؤخذ من رواية الفارين والاسرى والمندوبين للمفاوضة أن الاضطراب والفشل بلغا مبلغهما في فلول جيش العدو .

« وانسدت جميع طرق الانسحاب في وجه الجيش البروسياني في هذه المعركة وضاعت جميع خطوط حركاته . وكانت ميسرته الجاد المارشال دافو في اثرها قد انسحبت الى ويمار حين كانت ميمنته ووسطها ينسحبان من ويمار الى نومبورغ . وكان الرعب قد سكن جوانحهم والخشية قد ملأت صدورهم فزلزلت أقدامهم واضطر الملك الى الانسحاب في وسط الحقول بكوكبة فرسانه

« وتقدر خسارتنا بألف قتيل الى ألف ومئتي قتيل وثلاثة آلاف جريح وأحاط الغرندوق دي برغ في ذلك الحين بموقع ارفورت حيث كان فيلق من العدو بقيادة المارشال دي مولندرف والبرنس دورانج . واذا كان هذا الامر مما يضيف شيئاً من الاشياء الى الصفات التي يستوجبها الجيش من احترام الامة واكرامها فلا شيء في وسعه أن يضيف شيئاً الى عاطفة الحنان التي شعر بها أولئك الذين شاهدوا الحماسة والمحبة اللتين كانت الامة تعالن بهما الامبراطور عند اشتداد وطيس الهيجاء . وهب كان زمن وقع فيه تردد فان كلمة : « ليحيى الامبراطور ! » كانت وحدها كافية لاقالة عثار البسالة الهاوية ولتقوية جميع

النفوس الواهية . ولما لمح الامبراطور في أثناء اشتداد المعركة ان فرسان العدو تهدد أعلامه اندفع بجواده لتدبير حركات رجاله وتغيير اتجاه مقدمة صفوف المربع . وكان يدوي في صماخ أذنه أنى سار « ليحيى الامبراطور ! » وكان مشاة الحرس الامبراطوري ينظرون باستياء لا يتمكنون من كتمانه الجيوش تتقاتل وتتطاحن وهم وقوف بلا عمل . وسمع كثيرون يصيحون قائلين : « الى الامام » فقال الامبراطور : « ما هذا ان صاحب هذا الصوت ولا جرم فتى لم ينبت عذاره بعد وهو يبتغي أن يجري في ضميره ما يجب علي أن أفعله فلينتظر ريثما يتولى القيادة في ثلاثين معركة منظمة وحينئذ يتمكن من الدعوى بأن يعدني بآرائه » . وكانوا في واقع الحال من المتطوعين الذين كانت حماستهم تجعل مصطبرهم يعيل لاظهار مكنونات شجاعتهم .

« وفي مثل هذه الموقعة الهائلة التي فقد فيها العدو جميع قواده على التقريب لا نلقى مندوحة عن اسداء الشكر للعناية الالهية التي حفظت جيشنا فلم يقتل أو يجرح منه أحد من أصحاب المكانة العالية فيه . أما المارشال لان فانه لمست صدره قذيفة بندقية من دون أن تجرحه ونزعت قبعة المارشال دافو عن رأسه وأصابت ملابسه رصاصات عديدة من العدو . . »

وكان بين الاسرى في ذلك اليوم ستة آلاف سكسوني وأكثر من ثلاثمئة ضابط . وكان نابوليون خبيراً في الوسائل التي يمكنه الاستفادة منها لفصل الامة السكسونيـة عن الشعب البروسياني ولاستمالة حليف له على نهر الالب لمناجزة حكومة برلين ومقارعتهـا فأمر بأولئك الاسرى أن يعرضوا أمامه ووعدهم بأن يعيدهم الى مواطنهم انهم عاهدوه على عدم العودة الى منازلة فرنسا فيما بعد . وكان يقول لهم : « ان محل السكسونيين مفرز في محالفة الرين وان فرنسا هي الحامية الطبيعية للساكس من مظالم بروسيا ولا بد من وضع حد لهذه المظالم . فالقارة الاوربية محتاجة الى السلام وهـذا السلام لا ندحة عن وجوده في كل حال « ولو قضي بسقوط عدة عروش في سبيله » .

وأدرك السكسونيون مرمى ذلك الكلام فوافقوه على تقديم الضمان المطلوب منهم وعادوا جميعهم الى منازلهم مصحوبين بنشرة وجهها الامبراطور الى وطنييهم .

وتلا معركة ايانا على الاثر الاستيلاء على أرفورت فهذه سلمت في ١٦ منه وأسر فيها البرنس دورانج والفلد مارشال مولندرف .

وطلب ملك بروسيا هدنة في اليوم عينه فنبذ نابوليون طلبه بيد ان الجنرال كالكروث الذي ضايقه المارشال سولت دخل عليه الخوف من السقوط في أيدي أعدائه مع عشرة آلاف مقاتل كان يقودهم وكان معهم ملك بروسيا ذاته فطلب توقيف رحى القتال وربما كان الامبراطور قد منحه سؤله إلا أن المارشال سولت لم يشأ ان يوافقه على طلبه وقال له انه من المحال ان يأتي نابوليون مثل هذا الخطأ وانه لايصدق وقوع مثل هـذه الهدنة إلا حين تبلغه بطريقة رسمية فدنا حينئذ القائد البروسياني من طلائع الفرنسويين ليفاوض المارشال عن كثب مستسلماً الى كرم أخلاقه وبعبارة أخرى الى شفقة الظافر

فأجاب الجندي الفرنسوي : « ياحضرة الجنرال انهم يتصرفون في مدة طويلة معنا على هذا الوجه وحين يغلبون على أمرهم يلتجئون الى مكارم أخلاقنا ثم انهم لايلبثون ان يذهلوا عن ذلك بعد المروءة التي تعودنا اظهارها . فبعد معركة استرلتز منح الامبراطور الجيش الروسي هدنة تخلصت هذه الهدنة ذلك الجيش فانظروا كيف يتصرف الروس الآن بأعمال لاتليق بهم . . . اطرحوا السلاح وحينئذ انتظر أوامر الامبراطور فاعمل بموجبها : »

وعاد الجنرال البروسياني بالخزي واستأنف المارشال سولت مطاردة العدو بشدة أياماً فوصل في ٢٢ منه الى أسوار مغدبورغ . ولم يكن البروسيانيون يدركون شيئاً من الغاية المقصودة بذلك السير السريع والعجلة في الحركات التي كانت تجعل شملهم يتمزق في أثناء إدبارهم وهذا ما جعل الامبراطور نابوليون يقول في نشرته الرابعة عشرة :

«ان هؤلاء القوم كانوا ولا ريب متعودين الحركات الحربية التي كانوا يأتونها في حرب السنوات السبع وكانوا يريدون ان يطلبوا مهلة ثلاثة أيام لدفن موتاهم أجاب الامبراطور : افتكروا بالاحياء ودعونا نحن نهتم بدفن الأموات وهذا ولأمر لايلزمه مهلة . »

وبينما المارشال سولت يطارد العدو في ناحية مغدبورغ ويحمله خسائر متواصلة في هذه المطاردة كان برناذوت يبطش في هال بجيش الاحتياط البروسياني السائر

تحت راية أمير ورتمبرجي . واجتاز الامبراطور ساحة القتال في روزباخ بعد هذا الانتصار فأمر بأن ينقل الى باريس العمود المنصوب فيها .

وحدثت موقعة هال في ١٧ منه واستولى المارشال دافو على ليبزيك في ١٨ منه وكانت طريق مغدبورغ مسدودة في وجه البروسيانيين بفيلقي سولت ومورات في ٢١ منه فلم يبق حينئذ لمن بقي من جيش البروسيانيين إلا اللياذ بالفرار . وقدم الى الامبراطور نابوليون برنسويك المشهور عدو فرنسا القديم وصاحب النشرة التي أذيعت سنة ١٧٩٢ فوضع بلاده تحت حمايته . وهو حظ غريب لقائد الارسطقراطية الاوربية الاول المناهض للفتنة الفرنسوية الكبرى . فأصبح الآن معفراً الجبين أمام ذلك الشعب وقد كان يهدده من أربع عشرة سنة بوقاحة وفظاظة . وكان يخاف على قصوره ولا سيما على مسكنه الخاص من الحديد والنار اللذين استنجد بقوتهما المتلفة لتدمير عاصمة فرنسا وسائر المدن والبلدان الفرنسوية . وخاف برنسويك ان يقابل بما أتاه من الشر بمثله فالتمس بتذلل معاملة الجندي الفرنسوي له بالحسنى بعد ما كان قد علل النفس بأن يصيب انتصاراً هيناً عليه فجاء وهو حامل نشرته بيده وجرؤ ان يطلب من ذلك البطل وارث جمهوريي سنة ١٧٩٢ وممثلهم ان يعامله بالرفق وان يمد فوقه لواء حمايته ويصونه ممن يتعمد ايقاع الأذى به . ما أجمل ذلك الحين للفتنة المنتصرة فان العناية ذاتها ساقت اليها ذليلا ومتوسلا أقدم أعدائها وأصلبهم عوداً وأشدهم صريمة وأكثرهم عناداً . وقد تمكنت الفتنة من معاقبة المتعجرفين واظهار تفوقها بتساهلها وصفحها لأن من يتكلم ويفعل باسمها كان نابوليون بونابرت .

وقال الامبراطور لسفير الدوق : « لو كنت أهدم مدينة برنسويك ولا أبقي فيها حجراً على حجر ماذا كان يقول أميركم ؟ أولا تخولني شريعة العين بالعين والسن بالسن أن أفعل ببرنسويك ما كان يبتغي فعله بعاصمتي ان التبجح بقصد تدمير المدن يدل على الحماقة وأما إرادة نزع الشرف من جيش كامل من الشجعان والاقتراح عليه أن يغادر ألمانيا مبتعداً عنها مراحل عديدة بناء على اخطار الجيش البروسياني فانه يشق على الأجيال الآتية تصديقه . فلم يكن ينبغي لدوق برنسويك أن يوجه الينا مثل هذه الاهانة . وحين تشيب ناصية الانسان

تحت السلاح يلزمه أن يحترم الشرف العسكري . وفضلا عن ذلك ان هذا القائد لم يتيسر له أن يحرز في سهول الشمبانيا الحق بأن يعامل الاعلام الفرنسوية بمثل هذا الاحتقار

وكرر نابوليون بحدة عظيمة مرات متوالية هذا الكلام : « ان هدم مساكن الشعب الآمن وتدميرها جريمة يمكن تعويضها بالمال مع كرور الزمان ولكن إلحاق العار بالجيش والرغبة في هربه من ألمانيا أمام الراية البروسيانية ذل يستطيع أن يركب مركبه من يشير به دون سواه »

على أن بلاد دوق برنسويك بقيت تحت حماية حقوق الامم ووصل الامبراطور الى بتسدام في ٢٤ منه وتفقد قصر صان سوسي في مساء اليوم عينه فوجد موقعه وترتيبه بالغين غاية الجمال . ولبث هنيهة من الزمان وهو مغرق الفكر في غرفة فريدريك الكبير المفروشة بنفس الرياش الذي كانت مفروشة به عند وفاته .

ولما كان من الغد زار نابوليون ضريح فريدريك بعد ما عرض مشاة الحرس الامبراطوري المتولي قيادتهم المارشال ليفيفر . ويذكر في النشرة الثامنة عشر أن رفات ذلك الرجل العظيم يضمه نعش من الخشب مغشى بالنحاس وموضوع في ضريح خال من الزينة والاعلام ومن كل ميزة تدير على النهي ذكر أعمال ذلك الداهية الخطيرة .

وأهدى الامبراطور الى قصر الانفاليد بباريس سيف فريدريك ونشان النسر الأسود الذي كان يتقلده ومنطقته والأعلام التي كان حرسه يحملونها في حرب السنوات السبع . ومن المحقق أن عجزة جيش هانوفر الطاعنين في السن سيتلقون بالاحترام الممزوج بالخشوع كل ما كان يخص ذلك القائد الكبير المعتبر من أشهر القواد الذين يحفظ التاريخ ذكرهم . ولما رأى نابوليون أن الحكومة البروسيانية لم تكن قد افتكرت بأن تضع تلك الذخائر الثمينة في مكان حصين لاتصل اليه أيدي الغزاة الفاتحين صاح بصوت جهوري وهو يشير بيده الى حسام ذلك القائد العظيم : « اني أفضل هذا على عشرين مليونا من الفرنكات »

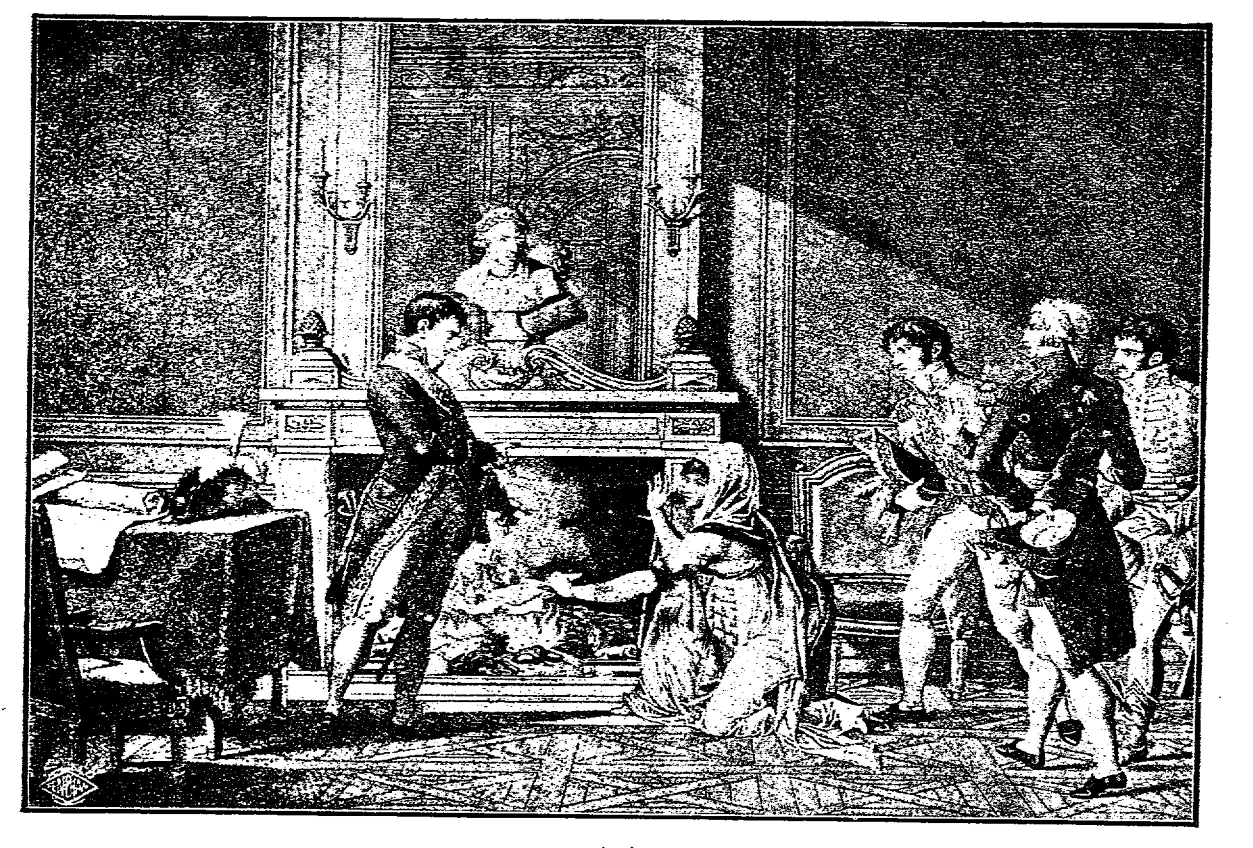
الفصل التاسع

دخول نابوليون برلين — اقامته في هذه العاصمة — حصار القارة الاوربية — توقيف رحى القتال — رسالة الى مجلس الشيوخ — تجنيد ثمانين الف مقاتل — نشرة بوزن — نصب المدلين

ودخل نابوليون باحتفال عظيم مدينة برلين من باب شارلوتنبرغ الفخم في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٦ بعد سقوط فينسا باقل من سنة وكان يحيط به المارشالية برتيه ودافو وأوجرو ودوروك مارشال قصره الاكبر وكولانكور كبير حجابه . وكان يسير بين فرسان الحرس على طريق اصطف على كل جانب من جانبيه رجال فرقة نانسوتي كأنهم في الحرب . وافتتح السير المارشال ليفيفر في مقدمة مشاة الحرس . وخف سكان مدينة برلين زرافات زرافات الى لقاء الظافر فاستقبلوه بجميع مجالي الاعجاب وضروب الاحترام وقدمت البلدية مفاتيح العاصمة الى الامبراطور على يد الجنرال هولن قائد الموقع

وكان أول أمر اهتم به الامبراطور تأليف مجلس بلدي من ستين عضواً فوض انتخابهم الى ألفي شخص من أغنى سكان المدينة . وعاد المجلس البلدي الى المثول في حضرته يتقدمه الأمير دتزفلد وقد قبل هذا تولي شؤون الحكومة في برلين باسم الفرنسويين وظل يتولى المفاوضات سراً مع ملك بروسيا ليوقفه على جميع حركات الجيش المظفر . فقال نابوليون لهذا الامير : «اغرب عن وجهي فلست محتاجا اليك واعتزل في أراضيك . » وبعد قليل من الحين القي القبض على الامير دتزفلد وفوض أمره الى مجلس حربي

ولما علمت زوجته بما جرى وكانت ابنة المسيودي شولنبورغ تولاها يأس شديد فأوحى اليها عقلها وناجتها حوباؤها بأن تلتجىء الى مرحمة نابوليون . وقد شجعها دوروك على هذا الامر وسهل لها سبيل الوصول الى الامبراطور . فجاءت الى القصر وانطرحت على قدمي نابوليون وتوسلت اليه بأن يعفو عن



مرحمة نابوليون

البرنسيس دانزفلد تحرق رسالة زوجها لكى لايبقى شئ يشجبه وقد فعلت ذلك بأشارة من نابوليون وبرضاه



زوجها قائلة انها تزعم أنهم لم يكونوا يتعقبونه الا نكاية بالوزير شولنبورغ أحد مدبري تلك الحرب . فأزال نابوليون غرورها بقوله لها ان المسيو دتزفلد كان يراسل ملك بروسيا وانه لم يكن قد خطب مودة الفرنسويين ومنحهم الثقة به الا ليخونهم . فولولت عقيلة دتزفلد زاعمة أن زوجها بريء مما نسب اليه وأصرت على الدعوى بأنه موشى به . فقال لها الامبراطور : «أولا تعرفين خط زوجك فهاءنذا أطلعك عليه واترك لك الحكم في ذلك . » وفي الحال أمر باحضار الرسالة التي وقعت في أيديهم وناولها الى الاميرة وكانت هي في الشهر الثامن من حملها بحيث أن التأثر الذي كانت تشعر به عند قراءتها كل كلمة من الرسالة المثبتة جريمة بعلها كان يسبب لها اغماء متواصلا لاتفيق منه الا لتنتحب انتحاباً شديداً . فتأثر نابوليون من رؤيته اغتمام الاميرة وقال لها : « ان هذه الرسالة في قبضتك فاطرحيها في النار واذا أتلفت هذه الورقة لم يبق عندي من دليل استند اليه في استصدار الحكم على زوجك . » وكان هذا المشهد قد جرى أمام موقد تتأجج فيه النار فبادرت الاميرة دتزفلد الى انقاذ بعلها بالقاء رسالته في اللهيب فتلقى المارشال برتيه على الاثر أمراً باخلاء سبيل الامير دتزفلد .

وقد أساء الامبراطور الى ملكة بروسيا في احدى نشراته بقوله :

« ان البروسيانيين يشكون من الامبراطور الاسكندر ناسبين اليه جميع مصائبهم فان ماطرأ من التغير من ذلك الحين في فكر الملكة وقد كانت امرأة ذات حياء وخفر تعنى بأمور بيتها الداخلية فأصبحت ميالة الى الضوضاء والقتال أثار حركة فجائية فيها فأرادت أن يكون لها فرقة وأن تشهد المجلس الحربي وقد دبرت شؤون المملكة تدبيراً جعلها في أيام قليلة تسوقها الى شفير الهاوية »

ولما قرأت الامبراطورة جوزفين هذه النشرة المتضمنة كلاما جارحا بحق ملكة حسناء في عنفوان العمر تأثرت تأثراً شديداً وأرسلت الى قرينها كتاباً أودعته ملاحظاتها بكل حرية في هذا الصدد وألحت عليه بالملاءمة لأنه كان يسر بأن يغلظ في الكلام للنساء فأجابها نابوليون بما يأتي :

« انتهى اليّ كتابك الذي تعنفينني فيه على اساءتي بالقول الى النساء أجل اني أكره فوق كل شيء النساء صاحبات الدسائس لتعودي رؤية بعض النساء لفاضلات اللطيفات المؤاتيات : فهؤلاء هن اللواتي أحبهن . وان كن هن اللواتي

أفسدن علي أمري فلست أنا مخطئاً وانما أنت هي المخطئة في ذلك . وعلاوة على هــذا ترين اني بالغت في اللطف نحو سيدة وهي عقيلة دتزفلد التي باحت بما انطوت عليه من رقة الاخلاق وجودة الطباع . فحين أريتها كتاب قرينها قالت لي وهي تنتحب بتأثر وسذاجة : «هذا هو خطه بعينه .» فـكان كلامها يخترق أعماق النفس وقد أثر بي تأثيراً شديداً فحينئذ قلت لها :

« حسناً قلت ياحضرة السيدة فاطرحي هذا المـكتوب في النار فلا تعود لي مقدرة على استصدار الحـكم على بعلك . » فأحرقت المـكتوب وأبرقت أسارير جبينها وقدأصبح زوجها ناعم البال من ذلك الحين ولوتأخرت ساعتين عن المجيء الي لـكان قد قضي عليه . فترين والحالة هذه اني أحب النساء الفاضلات البسيطات القلب المشهورات باللطف وما ذلك إلا لانهن على صورتك ومثالك . »

وفي غد اليوم الذي دخل فيه نابوليون مدينة برلين استقبل سفراء بافاريا وأسبانيا والبرتوغال والباب العالي واستقبل أيضاً في اليوم عينه رجال الدين المملثين للشيع البروتسطانطية المختلفة ومجالس العدلية وقد قدمها له المستشار . وفاوض عدة قضاة في أمور شتى تتعلق بتنظيم العدلية .

وأصــدر نابوليون في أثناء اقامته في برلين الامر المشهور القاضي باقامة الحصار على الجزر البريطانية ومنع الشعوب المتألفة منها الامبراطورية الفرنسوية وحلفاؤها عن تعاطي التجارة ومزاولة العلاقات مع تلك الجزر وقد كان هــذا العمل الذي اعتبره بعضهم مخالفاً للمعقول ولم ينسبوا صــدوره بوجه الاجمال الا للبغضاء التي كانت قد أعمت بصيرة العاهل الفرنسوي ناشئاً عن اصرار الحـكومة البريطانية على تحريش دول القارة الاوربية تحريشاً متواصلا على فرنسا وكان نتيجة الدسائس والغدر والمـكايد والعداوة والاعتداء الى غير ذلك من الامور المختلفة التي كانت الارسطقراطية البريطانية تأتيها لمناصبة الديمقراطية الفرنسوية من سنة ١٧٩٢ وكان ذلك الامر جواب الثورة الظافرة للسخط الملكي الذي استهدفت لنباله وهي في المهد حين كانوا يستثيرون عليهــا جميع أوربا وحين كان رجال الحـكومة البريطانية يزعمون أنها أحدثت فراغاً فيها . ولما كان برك وبت اللذان شاءا عزل فرنسا عن العالم المتمدن لا يزالان مسموعي الـكلمة بواسطة مريديهما وتلامذتهما في مجالس لندرة وكانا يجملان افكارهما

سائدة فيها أهملت فرنسا مقابلة عملهما هذا بالمثل واقتصرت على عزل بريطانيا العظمى بقدر الامكان في وسط البحار وقد كان من المقضي أن يحصر الحصار الذي هددوا به الروح الثوري بالتضييق عليه مدة خمس عشرة سنة في نوبته ما يضاد الثورة في الاوقيانوس . وهل يصح ان لا يكون هذا الحصار اذا نظر اليه من جهة المصالح المادية سببا لغير المضرة عند شعوب القارة الاوربية وأن يكون له بوجه الاجمال في أوربا جميع النتائج الوخيمة المنسوبة اليه وقد كان سببا ولا مراء لانقلابات شتى في وجوه التجارة البحرية واخضع للتقتير الموقت شعوبا لم يكن في وسع التهريب أن يقدم لها حاجاتها أو كان ارتفاع الاسعار الباهظ يجعلها تعرض عن شراء الحاصلات المجلوبة من الطوارىء ولكن ماخلا كون هذه الحالة وقتيا وكون الحصار وان لم يكن مشدداً لم يكن له من التأثير الادبي ماكان الامبراطور يتوقعه منه ولم تكن الصناعة الاوربية ولا مشاحة متأثرة منه قط وكانت فرنسا مثلا مدينة للمرسوم السامي الصادر عن برلين بايجاد صناعة جديدة عظيمة الاهمية وهي صناعة السكر الوطني على أن هذه النتيجة الكبيرة للمستقبل ولو لم يكن ثمة من نتيجة غيرها كان من حقها أن تكفي لكي تصير الاجيال الآتية متساهلة نحو نابوليون من جراء العذابات الوقتية التي جعلت طريقته الجيل المعاصر يحتملها وهذا ما قاله نابوليون في هذا الصدد : « كنت منفرداً برأيي في القارة وقد قضت علي الحال في الوقت الحاضر بأن ألجأ الى العنف في كل مكان فصار القوم يفهموني في آخر الامر فالشجرة أخرجت أثمارها والزمان يكفينا مؤونة الباقي .

« ولو لم أهو عن متن العرش لكنت قد غيرت وجه التجارة وطريق الصناعة وجعلت السكر والنيل يتبدلان عندنا . ولكنت أيضاً قد بدلت القطن وكثيراً من الاشياء الاخرى ولكانوا قد أبصروني أنقل الطوارىء انهم ظلوا مصرين على الضن علينا بقسم منها . »

وبينما الامبراطور يهتم في برلين بمصادرة مسببي الحرب ويتهيأ لاخراج بريطانيا العظمى من صف الحق العام ليقاتلها مقاتلة الاكفاء ويعاقبها على خرقها لحقوق الامم خرقاً متواصلا لم يكن نواب نابوليون يتركون العدو يقر له قرار وكانوا يتعقبون فلول الجيش البروسياني في كل ناحية فاستولى مورات على

برنتزلو في ٢٨ اكتوبر وأجبر البرنس دي هوهنلوه على الاستسلام مع جيشه وسقط في الغد حصن ستتين في قبضة الجنرال لاسال قائد ميمنة الغرندوق دي برغ أما الجنرال ميلهو قائد الميسرة فانه أكره ستة آلاف جندي من الاعداء على طرح السلاح والاستسلام .

وألقت كوستران مقاليدها الى المارشال دافو في ٢ نوفمبر وفتح مرتيه في في ذلك الحين ولايات هس وهمبورغ ونزع شعار البرنس دورانج وشعار الدوق في فولد وبرنسويك وجاء في النشرة الرابعة والعشرين مايلي :

« ان هذين الاميرين لن يملكا أبداً فهما أصل هذه المحالفة الجديدة . »

وكان الفوز الباهر ينتظر الفرنسويين أمام أسوار لوبك وفي شوارعها والتقى مورات وسولت وبرنادوت في ٦ نوفمبر أمام تلك المدينة بعد ما أجروه من البراعة في حركاتهم المتفق عليها وكان بلوخر المشهور قد حشد فيها ثمالة آمال المملكة البروسيانية وهجم الفرنسويون على المدينة فدخلها برنادوت من باب لاترافا وسولت من باب مولن

وكانت المقاومة عنيفة جداً وقد استمر القتال مدة طويلة في الشوارع الا أن بلوخر وأمير برنسويك ألس قصدا في صباح اليوم السابع منه الظافرين بهم ومعهم عشرة من قوادالبروسيانيين وخمس مئة وثمانية عشر ضابطاً من ضباطهم وأكثر من عشرين ألف مقاتل منهم وطلبوا الاستسلام اليهم فمروا في الحال أمام الجيش الفرنسوي :

وأصاب المواقع الحربية الأخر في أيام قليلة ما أصاب هذا الموقع ففتحت مغدبورغ أبوابها في ٨ منه فلقي الفرنسويون فيهـا ثماني مئة مدفع وحامية مؤلفة من ستة عشر ألفاً من المقاتلة . ووجه الامبراطور أيضا فيلقا الى الفستول لتعقب ملك بروسيا الفار بعشرة آلاف أو اثني عشر ألف رجل كانوا قد بقوا معه ولازموه ملازمة ظله له .

ودخل المارشال دافو بوزن في ١٠ منه وكان أهلها بولونيين أكثر منهم بروسيانيين فأكرموا وفادة الفرنسويين وأجلوا مثواهم وجاء في النشرة الثانية والثلاثين الصادرة في ١٦ منه انه بعـد سقوط مغدبورغ وحادثة لوبك انتهت

بتة الحرب مع بروسيا وتم في شارلوتنبورغ في هـذا اليوم عينه التوقيع على توقيف رحى القتال .

وحينئـذ اهتم الامبراطور بالمرسوم السامي الذي أصـدره عن حصار الجزر البريطانية على ما سبق لنا بيانه .

ان بروسيا التي ضربت بسرعة تحاكي سرعـة انقضاض الصاعقة لم تبق من ذلك الحين معتبرة دولة سياسية أما بريطانيا العظمى التي دفعتها الى هذه الحرب فانها ظلت سليمة . وقد رمى نابوليون الى إيصال الاذى اليها وعزلها عن أوربا وكانت هي تغريها وتستغويها بالتناوب باحتكارها التجـارة ونصب الحبائل السياسية . أجل ان الطريقة التي قصـد اليها نابوليون تجرح مبادىء التمدن الحديث وقد شعر هو بذلك وأعلنه على رؤوس الاشهاد الا أنه أورد الشريعة وحق التبادل شاهدين على براءته من تبعة هذا الامر الوخيمة .

ولما طلب الامبراطور من مجلس الشيوخ تقرير تجنيـد قوة جديدة بسط له التـدابير العظيمة منوها بالمبادىء التي اتخذها دستوراً عاماً للعمل فقال :

« ان اعتدالنا الشديد بعـد كل حرب من الحروب الثلاث الاولى كان سبباً للحرب التي تلتها ولذلك اضطررنا الى مناصبة محالفة رابعة بعـد تمزق شمل المحالفة الثالثة بتسعة أشهر وبعد الانتصارات الباهرة التي منت علينا بها العناية وكان يجب أن تضمن الراحة مدة طويلة في القارة . . . وقد اتخذنا في هذا الموقف قاعدة ثابتة للعمل احتلال برلين وفرسوفيا والولايات التي ألقتها قوة السلاح بين ايدينا قبل إبرام أسباب الصلح العام وقبل إرجاع الطوارىء الاسبانيولية والهولندية والفرنسوية الينا وقبل توطيد أركـان الدولة العثمانية وتعزيز الاستقلال المطلق لهـذه السلطنة الواسعة وهو عندي من أهم مصالح شعبنا المقدسة بلا تردد . وقد وضعنا الحصار على الجزر البريطانية وأمرنا بأن تعامل معاملة تخالف ميل فؤادنا ولـكننا اضطررنا حباً بخير حلفائنا الى مناصبة العدو العام بالسلاح نفسه الذي كان يقاتلنا به .

« ونحن الآن في زمان خطير يقرر فيـه حظ الشعوب وسيظهر الشعب الفرنسوي انه جدير بالحظ الذي يتوقعه فان قرار مجلس الشيوخ الصادر أمرنا ببسطه

لكم والواضع تحت أمركم في الايام الاولى من السنة القرعة العسكرية لسنة ١٨٠٧ ولم يكن يجب في الازمنة العادية أن توضع موضع الاجراء الا في شهر سبتمبر سيبادر الى العمل بموجبه الآباء والابناء على السواء . فهل لنا أفضل من هذا الوقت لدعوة الفرنسويين الشبان الى حمل السلاح وهؤلاء مقضي عليهم بأن يجتازوا للوصول الى راياتهم عواصم أعدائنا وميادين القتال المشتهرة بانتصارات من تقدموهم » .

وقد حقق هذا الطلب تقدم الروس وكان نابوليون يريد أن يخف الى لقائهم ليباشر حرباً جديدة حالما تفسح له حالة الجو في ذلك . وفصل عن برلين في ٢٥ منه فانتهى في ٢٨ منه الى بوزن . وقد خففت من حدة الجنود رداءة الاحوال الجوية والمتاعب وشظف المعيشة . وأزيح أعداء فرنسا بعد معارك وانتصارات متواليـة الى ما وراء الفستول وكأن زمن الوقوف قد دنا بدلا من التقدم لاشعال مواقد معارك جديدة فان مجلس الشيوخ نفسه المتعود كثرة المجاملة أظهر فكرة الاعتدال في رسالة سيرها الى الامبراطور فانتهت اليه وهو في برلين الا أن مجلس الشيوخ ومجلس النواب والشعب لم يكونوا يدركون خطورة الاحوال واصرار أوربا القديمة ومقتضيات الطريقة المقضي على نابوليون انتهاجها لكي يصير أعـداء فرنسا الحديثة الالداء غير قادرين على تأليف محالفة جديدة لمناوأتها . وكان الجميع يتمنون السلم ولم يكن هذا الامر يغرب عن علم الامبراطور وكان هـذا غاية مبتغاه الا أنه كان يعرف أكثر من غيره المـكان الذي تكون فيه الحرب أجدى نفعاً له والشروط التي يكون فيها الصلح مرغوباً فيه وممكنا . وهذا هو السبب الذي من أجله انقاد الى مداركه العالية ولم يكترث للأراجيف البعيدة أو القريبة الممكن استثارتها ضـده فسار تواً الى بولونيا ليسحق الروس قبل أن يتركهم يغشون بروسيا ويجمعوا شتات حلفائهم المغلوبين ويقيلوا عثار آمالهم الواهية . وكان ولامرية يستهدف بهذا العمل لنبال الشكوى منه بأنه هو الذي أثار دفين الحرب كما عرض ذاته لنفور الناس منه بوضـعه الحصار على القارة الاوربية وان لم تكن له من غاية سوى تحريش البريطانيين على وزرائهم المصرين على إذكاء لظى الحرب بالقائه على عواتقهم اعباء التبعـة الناجمة عن تلك التدابير الشديدة وكان نابوليون قد قال من زمان طويل ان

الاحوال التي بلغت به الى ذروة السلطة تقتضي الاسراع في قبضه على أزمة هذه السلطة . وكان من طبيعته كرجل داهية كما كان من طبيعته كحاكم أن يظل مستأثراً برأيه وأن ينحو غايته بجرأة غير مبال باستهجان الشعوب التي أخضعها الحق سبحانه وتعالى لذراعــه القوية وأن يصمم النية كما قال ميرابو « على توقع عدالة ثابتة من الزمان والاجيال الآتية دون سواهما » .

واذا أنس من الجيش ميلا الى التوقف حين يكون ذلك الظافر وقد هادنه النصر في معارك متوالية يرى أنه من الملائم التقدم فهل يظن ان هذا الداهية يذعن لجأة لمن ينبغي لهم أن يطيعوا أوامره ؟ كلا فانه تكون له بعكس ذلك فرصة جديدة لاظهار تفوقه السائد وغير الممكنة مقاومته . واذا كان بين الجيش افراد لا نقول عنهم أنهم غير راضين عن الحالة الحاضرة بل ميالون الى الراحة فانه ينعش قواهم الواهنة بكلمة واحدة ويصيرهم عديمي الصبر أكثر مما كانوا عليه من قبل للعودة الى مقاتلة أعداء الاسم الفرنسوي مقاتلة هائلة . والى القراء النشرة الآتية :

« عن المعسكر العام في بوزن في ٢ دسمبر

« أيها الجنود في مثل هــذا اليوم من السنة الماضية وفي مثل هذه الساعة كنتم في ميدان الحرب في استرلتز وقد كانت الفرق الروسية المقذوف الذعر على أفئدتها تهرب مقطعة النظام لاتلوي على شيء أو كانت تستسلم الى جنودنا المظفرة المحيطة بها . وقد خرجت كلمات الصلح من أفواههم في الغد ولــكنها كانت كلمات خداعة غرارة ولم يكادوا ينجون بفضل مكارم أخلاقنا المقام عليها النكير من نكبات المحالفة الثلاثية حتى أنشــأوا محالفة رابعة الا أن حليفهم الذي علقوا آمالهم المهمة بخطته الحربية لم يبق له من وجود فان مواقعه الحصينة وعواصمه ومخازنه ومسالحه ومئتين وثمانين راية من راياته وسبع مئة مدفع من مدافعه وخمسة مواقع حربية منيعة سقطت في حيازتنا ولم يقو نهر الاودر والورتا وصحاري بولونيا ورداءة الاحوال الجوية على تثبيط هممكم دقيقة من الزمان فقد اقتحمتم كل شيء وتغلبتم على كل شيء وفر كل شيء من وجهكم وقد عالج الروس على غير طائل الدفاع عن عاصمة بولونيا القديمة المشهورة فالنسر الفرنسوي يحوم

فوق الفستول ويتوهم البولوني الباسل المنكود الحظ عند رؤيته ايا كم أنه يرى فيالق سوبيسكي عائدة من حملتها الشهيرة .

« أيها الجنود نحن لا نطرح السلاح الا حين نرى السلام العام قد عزز موقف حلفائنا وضمنه ورد الى تجارتنا سلامتها وطوارها . فقد دوخنا ضفاف الالب والاودر وبنديشيري وممتلكاتنا في الهند ورأس الرجاء الصالح والطوارئ الاسبانيولية . فمن يخول الروس الحق بمساماة الحظ ولا يخولهم الحق بهدم ما بنيناه من صروح المقاصد الشامخة أولسنا نحن وهم جنود استرلتز ؟ »

وكان لهذه النشرة تأثير شديد فانه لم يقتصر على جيش الفستول بل عم جميع أنحاء المانيا ويؤكد بوريان نفسه هذا الامر . واذا كان روح التمرد قد تلصص في ذلك الحين الى بعض الافراد في الجيش العظيم وكان الميل الى المعارضة قد ساور بعض أعضاء مجلس الشيوخ فكل ذلك لا يعد أمراً مذكوراً لان نابوليون كان بما أوتيه من شدة الصريمة وقوة العارضة يحبط مساعي خصومه المذيعين عنه أمورا لا غبار عليها من الصحة وأراد الامبراطور قبل استئناف خوض غمار الحرب أن يقيم نصبا يخلد به معجزات الحربين الاخيرتين فاضاف الى النشرة الصادرة في ٢ دسمبر مرسوما يحتوي ما يلي :

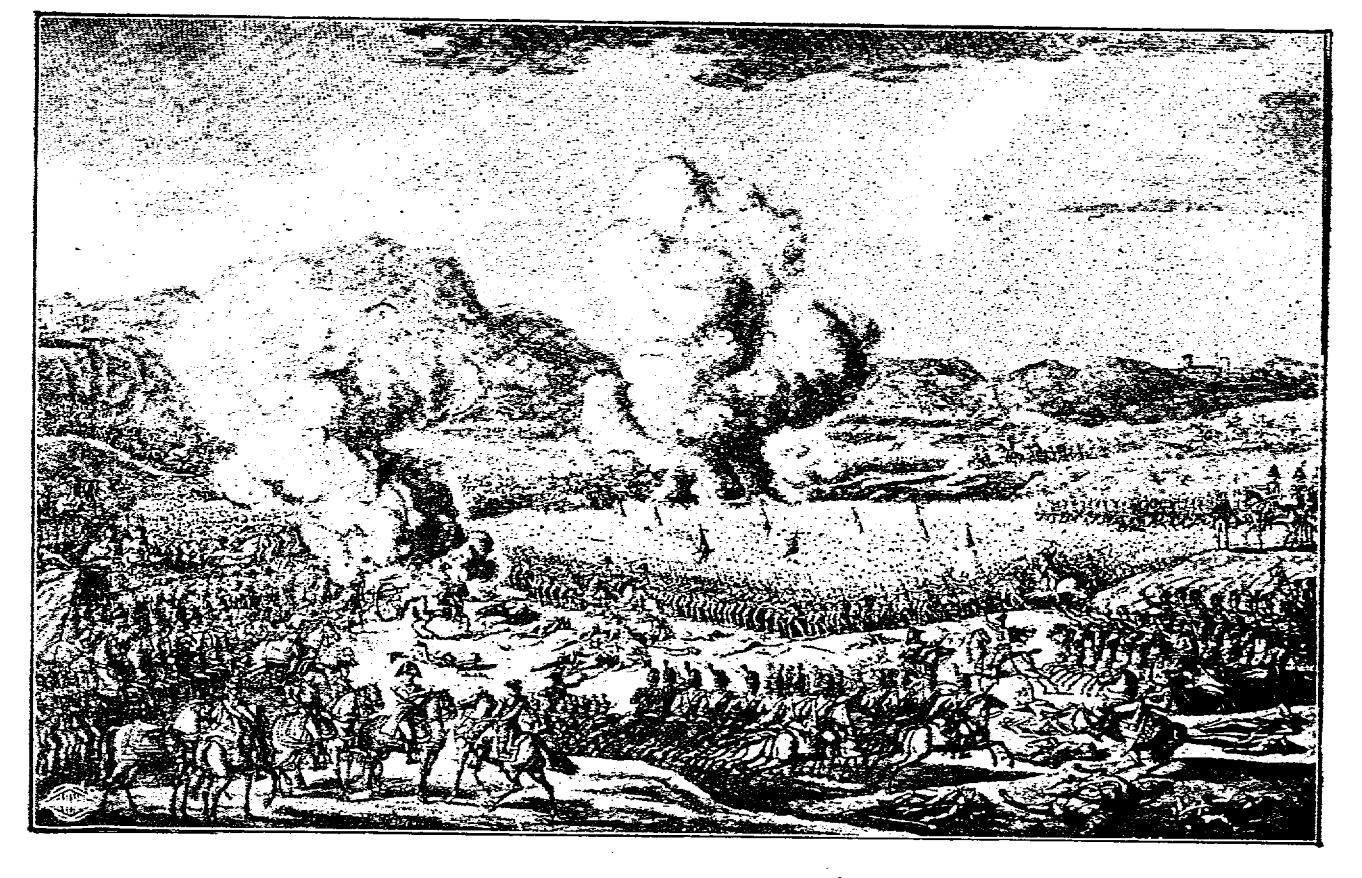
« المادة الاولى — ينصب في محلة المدلين بمدينتنا باريس الفخمة وعلى نفقة الخزينة ونفقتنا الخاصة نصب يخصص للجيش العظيم ويحفر على صدده ما يأتي :

« من الامبراطور نابوليون الى جنود الجيش العظيم »

« المادة الثانية — تحفر في داخل النصب على ألواح من الرخام أسماء جميع الرجال من كل فيلق ومن كل فرقة الذين شهدوا معارك ألم واسترلتز وايانا وعلى ألواح من الذهب الخالص اسماء الذين صرعتهم المنية في ميادين القتال وعلى ألواح من الفضة أسماء الجنود الذين قدمتهم كل مقاطعة على حدة

« المادة الثالثة — تحفر حول الردهة نقوش ناتئة تمثل قواد جميع الفرق في الجيش العظيم وأسماءهم الخ . الخ . »

وذكر في المواد الاخر المؤلف منها ذلك المرسوم أنه يجب أن توضع في داخل النصب الاسلاب المأخوذة من العدو في المعركتين الاخيرتين وأن يحتفل في كل سنة بذكرى معركتي استرلتز وايانا .



معركة أسترلتز (٢ دسمبر سنة ١٨٠٥)



الفصل العاشر

حرب بولونيا — صلح تلست

ومكث الامبراطور في بوزن حتى اليوم السادس عشر من شهر دقمبر فاستقبل وفد فرسوفيا المؤلف من غوتا كوفسكي كبير حكام ليطوانيا ومن كبراء النبلاء البولونيين .

وكان الجيش الفرنسوي يوالي التقدم وبعد مادحر الروس في وقعة أولى عند لويز واحتل فرسوفيا وأجبر سكان طورغو على التسليم عبر نهر الفستول ووصل في ٦ منه الى طورن حيث لقي المارشال ناي بعض البروسيانيين ففرقهم طرائق ومزقهم حزائق ويذكرنا عبور هذا النهر بحادث مشهور وهو أن المركب الذي كان يقل طلائع الجيش الفرنسوي نشب في الجمد واضطر الى الوقوف في وسط النهر فخف لنجدته فريق من النوتية البولونيين وعالجوا تخليصه من أوهاق الجمد غير مبالين بنيران العدو الحامية المنصبة عليهم . ولما رأى البروسيانيون ان قذائفهم لم تمكن لتحول دون تقدم البولونيين لانقاذ الفرنسويين سيروا من لدنهم نوتية لاحباط مساعي البولونيين فاشتبك قتال عنيف كان النوتية من الجانبين يتلاحمون فيه وكانت نتيجته قذف البروسيانيين الى الماء ووصول طلائع الفرنسويين بالسلامة الى الضفة الفستول اليمنى بفضل مناصرة البولونيين الاشداء لهم .

ووصل الجيش كله بعد أيام الى تلك الضفة وظفر المارشال دافو بفيلق روسي في ١١ منه بعد ما اجتاز نهر بوغ وعقدت وثيقة مع الساكس في هذا اليوم فدخل حاكم هذه البلاد في محالفة الرين ومنح لقب ملك وكانت استمالة بلاده الى الدولة الفرنسوية امرا من الامور الخطيرة فان قدمها رسخت من جراء ذلك على مقربة من أبواب برلين .

ودخل الامبراطور مدينة فرسوفيا في ١٨ منه فالتف عليه حزب ألح عليه باعادة مملكة بولونيا فخشي أن يتقيد باسباب الوعد الصريح وأجابهم أجوبة مبهمة تبقي له ملء الحرية وتمام الارادة في المستقبل . وهذا ماقاله لراب في هذا الصدد :

« اني احب البولونيين وتعجبني حماستهم واتمنى أن اصير هذا الشعب مستقلا ولكن ذلك ليس بالامر السهل فان أناسا كثيرين اقتسموا فيما بينهم هذه الغنيمة وهم النمساويون والروس والبروسيانيون . ومتى اشعلت الذبالة لا يستطيع أحد أن يعين الحد الذي يقف عنده الحريق فأول أمر يجب علي القيام باعبائه هو خدمة فرنسا ولا ينبغي لي أن أضحيها في سبيل بولونيا لئلا يبلغ بنا ذلك الى مدى بعيد ثم انه يلزمنا أن نركن الى مدبر كل شيء أعني به الوقت فهو يعلمنا ما يجب علينا أن نفعله » .

وكان الجنرال كامنسكي الذي ساءه تقهقر قواد الروس الآخرين يتقدم في خلال ذلك الحين بسرعة للقاء الجحافل الفرنسوية . فضم اليه بننغزن وبكسهودن واعتبر هـذا الانضمام ضميناً للنصر فاحتفل به احتفالا شائقاً في قصر سياروك باقامته زينات باهرة كان الفرنسويون يبصرونها من أعلى أبراج فرسوفيا .

وبرح الامبراطور عاصمة بولونيا القديمة في ٢٣ دسمبر فاجتاز نهر بوغ على جسر مده فوقه بمدة ساعتين وسير فيلق دافو على الروس فظهر عليهم في كزارنوفو في معركة ظلت نيرانها مشبوبة حتى جن الظلام . واستولى الجنرال بتي على حصون الجسر في ضوء القمر . وتم انكسار العدو في الساعة الثانية صباحا ولم تقم له قائمة بعد ذلك

على أن هذا الانكسار الأول الذي نال كامنسكي لم يكن سوى مقدمة لانكسارات جديدة نالته في ٢٤ و٢٥ و٢٦ منه في نازيلسك وكرسومب ولوباكزين وغوليمين وبولتسك وقد انهزم الجيش الروسي على أثرها انهزاماً ضعضع أركانه وأباح ذماره بعد ما فقد ثمانين مدفعاً وألفاً ومئتي مركبة وعشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل . وعلى هذه الصورة تحققت آمال القائد الروسي بعدما تباهى بها بعجب وخيلاء في الاحتفالات المقامة في قصر سياروك

وسلمت مدينة برسلو في ٥ يناير سنة ١٨٠٧ وأحرق المحاصرون الدساكر في ضواحيها فهلك فيها خلق كثير من النساء والاولاد وباتوا فريسة للهيب . وقد امتاز جيروم بونابرت في هذه الفاجعة بمده يد المساعدة لضحايا الحريق وفضل الفرنسويون التنازل عن الحق العنيف الذي تخولهم اياه شرائع الحرب على دوس

شرائع الانسانية . فاستقبلوا الفارين وعاملوهم بسخاء بدلا من نبذهم ايام في الموضع المحصور الذي تعلوه النار المضطرمة في مساكنهم

وعاد الامبراطور الى فرسوفيا في ٢ يناير فاستقبل أصحاب المناصب في المدينة والسفراء الاجانب ووفداً من لدن مملكة إيطاليا وعمد الى اثارة التنافس بين جنود محالفة الرين بمكافأته فيلق الورتمبرجيين الذي استولى على غلوغو بارساله الى ملك ورتمبرج قسما من الرايات المأخوذة في ذلك الموقع وعشرة نياشين من جوقة الشرف لتوزع على أشجع جنود الفيلق

ووقفت رحى الحرب عشرين يوماً ولكن برنادوت عاد في ٢٥ ينساير الى تحريكها في موهرنجن فهزم الكونت باهلن والكونت غاليتزن وأسر ثلاثمئة من رجالها وجرح وقتل منهم ألفاً ومئتي رجل

وانتهى الى الامبراطور أنه وقعت في القسطنطينية حوادث خطيرة فالروس واليونان طردوا منها وهدر دم ابسيلنتي وأعلن السلطان الجهاد على روسيا . فرأى نابوليون أن عمل الباب العالي هذا لم يكن نتيجة المفاوضات السياسية فقط بل نتيجة تأثير ما ناله من الانتصارات السريعة على دول الاقاليم الشمالية ونال أمنيته في مفاوضاته لحكومة العجم لايجاد مشكلات جديدة لروسيا عند حدودها الآسوية . وكان نابوليون يدل بالهائه الروس على تلك الصورة وقد بين خطورة الامر برسالة وجهها الى مجلس الشيوخ وألح فيها بوجوب ضمان استقلال السلطنة العثمانية وحفظ كيانها كسد طبيعي في وجه الدولة الروسية الغازية . وقال نابوليون : « من يستطيع أن يحدد مدة الحرب وعدد المعارك التي تقتضي مباشرتها يوماً ما لتلافي النكبات الناجمة عن خسارة سلطنة القسطنطينية اذا تفوق حب الراحة الدنيئة وملاذ تلك المدينة العظيمة على مشورات الحكماء البعيدي النظر . وسنبقي الى أحفادنا ميراثاً طويلا من الحروب والمصائب فان التاج الاغريقي اذا استعاد بهاءه وسؤدده من بحر البلطيك الى البحر المتوسط جعلنا نبصر في أيامنا هذه عصابات من البربر المتعصبين تشن الغارة على بلادنا ابتغاء اجتياحها واكتساحها واذا انقرضت أوربا المتمدنة في هذه الحرب المتأخرة هاج اهمالنا الموسوم بسمة الجريمة الاجيال الآتية علينا فتذمرت منا ويحق لها التذمر وكان ذلك العمل عارا يسجله التاريخ علينا . » وكانت هذه الرسالة

تدل بصراحة أكثر مما كانت نشرة بوزن تدل على وجوب تدخل مجلس الشيوخ في أمر السلم بحيث كان نابوليون يعتبر ذلك العمل في غير حينه

ومما يبعث على إطالة الروية هو أن الميل عينه الذي أبداه أمبراطور الفرنسويين لحفظ كيان الدولة العثمانية أبداه عند توجه الحملة الفرنسوية الى مصر بتّ الشهير رئيس الوزارة البريطانية حين لفظ طمعاً بتعزيز المصلحة البريطانية كلاماً مشابهاً لكلام نابوليون الموجه الى مجلس الشيوخ طمعاً بتعزيز المصلحة الاوربية وطمعاً بخدمة الحضارة العامة

ورفعت الى الامبراطور في أثناء إقامته بفرسوفيا العريضة التالية :

« مولاي

« ان شهادة معموديتي ترتقي الى سنة ١٦٩٠ فبناء عليه يكون لي من العمر الآن مئة وسبع عشرة سنة ولا أزال أذكر معركة فيينا وعهد جان سوبيسكي .

« وكنت أتوهم أن ذلك الامر لا يتكرر أبداً ولكني والحق يقال لم أكن أنتظر قط أن أشاهد عصر الاسكندر

« ان شيخوختي استمطرت علي ديم العواطف من جميع الملوك الذين دانت لهم هذه البلاد وأنا الآن استندي كف نابوليون العظيم فأنا طاعن في السن وغير قادر على مزاولة العمل .

« فعش يامولاي عمراً طويلا نظير عمري أجل ان مجدك في غنى عن ذلك ولكن سعادة الجنس البشري تقتضي هذا الامر . ناروكي »

وكان ان الامبراطور لما رفع اليه ذلك الشيخ عريضته بادر الى اجابة سؤله فاجرى عليه رزقا سنوياً قدره مئة دينار ودفع له سلفة عن سنة واحدة .

وزادت أنباء القسطنطينية حنق الامبراطور الاسكندر من دون أن تجعله يميل الى توقيف رحى القتال على ضفاف الفستول ليوجه قواه الى الدانوب . فاستغنم الفرصة من وصول النجدات المستقدمة من ملدافيا وعلل النفس باخراج الفرنسويين من مراكزهم الشتوية والهجوم عليهم والتنكيل بهم .

وسر نابوليون بمشاهدته ماكان القيصر ينوي اجراءه فأمر برنادوت بان يسهل له ذلك الامر بانسحابه أمام الجيش الروسي رجاء أن يجذبه الى اسفل نهر

الفستول . ثم انه برح فرسوفيا ووافي مورات في فيلنبرغ في مساء اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير .

ولما كان من الغد خف الجيش الفرنسوي الى لقاء الروس فادركهم في باسنهيم فاسرعوا الى الانسحاب للاعتصام بمواقع في سكتدرف .

ولما رأى نابوليون انهم مصممون على الاقامة فيها نزل بين الباسارج والآل ومعه حرسه والفرسان والفيلقان الثالث والسابع وأصار الى المارشال سولت أن يستولي على جسر برغفريد ليهجم على ميسرة العدو .

على أن بنغزن لما عرف ما لذلك الموقع من الخطورة عهد بالمحافظة على جسر برغفريد الى اثني عشرة فرقة من افضل جنوده ولكن جرأتهم خشعت أمام إقدام الفرنسويين وشدة بأسهم وحماستهم فأخذوا الجسر عنوة وهرب الروس بعد ما تركوا في ساحة القتال أربعة مدافع وعدداً كبيرا من القتلى والجرحى .

وقد دبر نابوليون حركات جميع فيالقه رغبة في ضرب العدو ضربة قاضية الا ان الصدفة أوقعت الخلل في قسم من خطته فان الضابط حامل أوامره الى برنادوت سقط في يد العدو فاغتنم بنغزن الفرصة من ذلك الامر وتجنب الفخ الذي كان زعيم الجيش الفرنسوي قد نصبه له بدهائه وخبرته وسعى الهجره اليه لينشب فيه ويصبح في قبضته .

على أن موقعة برغفريد التي دارت في ٣ فبراير لم تكن مع مواقع وتردرف وديابن وهوف وبروسيك ايلو التي نشبت في ٤ و٥ و٦ فبراير سوى تمهيد لمعركة تعد في تاريخ فرنسا الحربي من اعظم المعارك الهائلة التي جرت فيها الدماء جداول وأنهارا فلم تسقط كنيسة ايلو وجبانتها وكان الروس يدافعون عنهما مدافعة الاسود الا في ٦ منه في الساعة العاشرة مساء بعد قتال عنيف من كلا الجانبين وباشر بنغزن الهجوم في ٧ منه عند أفراط الصباح باطلاقه المدافع اطلاقا متواصلا على مدينة ايلو ولم يلبث القتال أن عم على طول الخط فألحقت المدفعية الفرنسوية في مفتتح الامر اضرارا جسيمة بالعدو الذي كان دافو قد دهمه من الوراء حين كان أوجرو موشكا أن ينقض على وسطه الا ان الثلج الكثيف الذي سقط وجعل الجيشين في ظلام دامس خلص الروس من انكسار تام فضل أوجرو متحيراً بين ميمنة العدو ووسطه ولولا شدة صريمة الامبراطور ومرعة خاطره

وخفة حركة مورات وقوة بأسه لما كان اوجرو قد نجا من الورطة التي نشب فيها . فدار الفرسان المصفودون بالحرس حول فرقة سان هيلار وسقطوا فجأة على العدو جارفين في طريقهم كل من تصدى لهم أو قام عقبة في وجههم فاجتازوا مرات متوالية الجيش الروسي قاذفين امامهم الذعر والردى . وكان المارشال دافو والمارشال ناي في ذلك الحين يتقدمان أحدهما من مؤخرة الروس والآخر من ميسرتهم. ولما شاهد بننغزن مؤخرته في خطر عمد في الساعة الثامنـة مساء الى استرجاع قرية شنادتن لـكي يتخذها موقعا يلجأ اليه عند انسحابه الا أن الفرسان الروس المفوضة اليهم تلك المهمة المحفوفة بالمتالف أخفقوا في مسعاهم كل الاخفاق وانهزموا شر هزيمة وانسحب الجيش الروسي في الغد الى ماوراء نهر بريجل والفرسان يتعقبونه بشدة تاركا في ساحة الحرب ستة عشر مدفعا وكثيراً من الجرحى .

وكانت في يوم ايلو مجزرة هائلة وقد جاء في النشرة الثامنة والخمسين ان عدد القتلى بلغ ١٩٠٠ وعدد الجرحى ٥٧٠٠ من الفرنسويين . أما الروس فان عدد قتلاهم بلغ ٧٠٠٠ الا أن بعض المؤرخين يزعم ان هـذا العدد ليس مضبوطا ويقول ان عدد القتلى بلغ ٦٠٠٠ وعدد الجرحى ٢٠٠٠٠ من الروس . أما الفرنسويون فان قتلاهم بلغ عددهم ٣٠٠٠ وجرحاهم ١٥٠٠٠

وكيفما كان الامر فقد كانت تلك المعركة هائلة جداً لان الامبراطور ذكر في الرسائل الثلاث التي وجهها الى الامبراطورة جوزفين في خـلال شهر فبراير أسفه الشديد على ماوقع في تلك المعركة ومن جملة ماقاله :

« نشبت أمس معركة كبيرة انتصرت فيها ولـكنني فقدت فيها خلقا كثيرا أما خسارة العدو فمهما عظمت لاتعزيني ... »

وقال في كتاب آخر : « ان هذه البلاد مغطاة بالقتلى والجرحى وليس هو القسم الجميل في الحرب فالمرء يتعذب والنفس تضيق عند رؤية هـذه الضحايا الـكثيرة . . . »

ولما لم يكن أعداء فرنسا ينحدرون انحدارا هيناً أو ينكسرون انكساراتاما كانوا يتعودون أن يتبجحوا بانهم منتصرون . وقد كان من الطبيعي والحالة هذه بان معركة ايلو التي كانت خسارة الفرنسويين لاتقل فيها عن خسارة أعدائهم

لاتكون فاصلة بحيث تنتهي معها الحرب وتدعو الى وضع شروط للصلح ولذلك لم تمض ثمانية أيام حتى عادت نيران الوغى الى الاستعار فزحف الجنرال اسن بخمسة وعشرين الف مقاتل في ١٦ فبراير الى أسترولنكا فظفر به الفيلق الخامس الفرنسوي المتولي قيادته الجنرال سافاري والمعضود في هذا الانتصار بالقواد اودينو وسوشه وغازان . وقتل في هذه الموقعة نجل سوفاروف المشهور .

وأذاع الامبراطور في اليوم عينه وكان باقياً في بروسيك ايلو نشرة ختمت بهذه الكلمات : « لما كانت جميع مساعي العدو قد حبطت بسببنا أوشكنا أن ندنو من الفستول ونعود الى مراكزنا . فمن يستجرىء على اقلاق راحتنا يعض أنامله ندماً وسواء كنا ما وراء الفستول أو وراء الدنوب في أبان زمهرير الشتاء أو في مبتدإ فصل الخريف نظل دائماً جنودا فرنسويين وجنودا فرنسويين من الجيش العظيم »

ولم يكن يفوت نابوليون قط أن يعنى بذاته باكرام ذكرى الشجعان فامر بالمدافع المأخوذة في ايلو أن تصب ويصنع منها تمثال للجنرال دوتبول قائد المدرعين وقد نزلت به صرعة الموت على أثر الجراح التي أصابته في ذلك اليوم العصيب .

وأظهر نابوليون ارتياحه الى تصرف الجنرال سافاري في أسترولنكا فدعاه اليه وقربه منه . وفوضت قيادة الفيلق الخامس الى ماسينا

وجعل محل أركان حرب الامبراطور في فنكستن في ٢٥ ابريل بعد معارك عنيفة جرت الشهرة البعيدة لبعض قرى حقيرة كانت مجهولة حتى ذلك العهد وهي بتروالد وغستاد وليفنو الخ من دون أن تأتي بادنى نتيجة خطيرة للحرب وأصدر عنه نابوليون مرسوماً يتعلق بملاعب التمثيل في باريس فقسمها الى قسمين الملاعب الكبرى وملاعب الدرجة الثانية

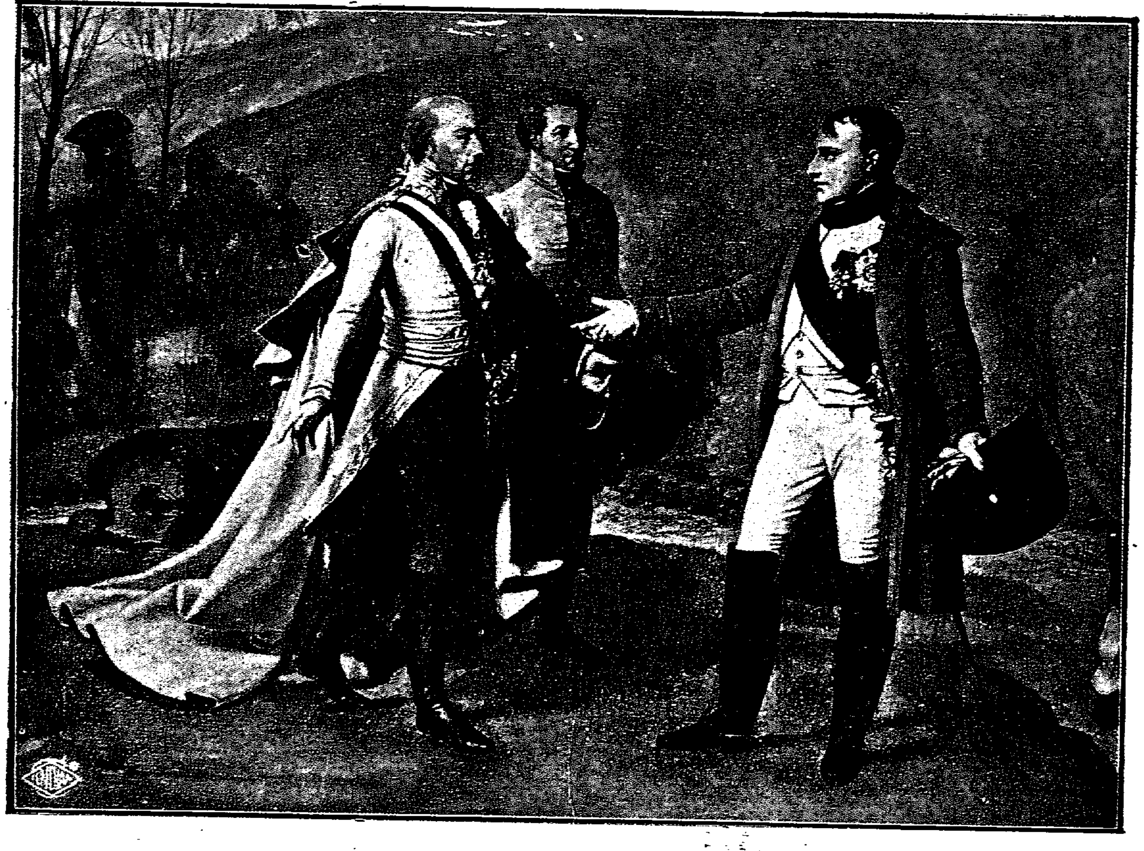
الا أن الجيش الفرنسوي كان من فرط ما أصابه من النصر والفتح قد ضعف من جراء توالي المعارك الشديدة عليه واتساع البلدان التي غزاها ودوخها وعدد المواقع التي فتحها واحتلها فاقتضت الحال تجهيز جنود جدد فطلب الامبراطور هذا الامر وهذا ما جعل الناس يقولون ان اعلان الفوز العظيم لم يكن سوى خدعة لتجهيز جيش جديد على أن سياقة الحوادث كانت تجعل هذا الطلب أمراً لا مندوحة عنه .

ولما كانت الدول المعاديات مصرات مع ما أصابهن من الفشل المتوالي على مواصلة القتال ورفض الصلح بالشروط الوحيدة التي تراها فرنسا حافظة لكرامتها لم يكن على الظافر والحالة هذه أن ينبذ بدناءة ثمرة معارك كثيرة ويضع حداً للحرب بتضحيته بمصالحه ومجده وكان نابوليون يمنحهم جميع أنواع التساهل المعقول فبعد ما نصب علمه المظفر في برلين وفرسوفيا اقترح وهو على ضفاف الفستول الشروط نفسها التي اقترحها قبل استيرائه زناد الحرب . واليكم شيئاً مما كتبه في الرسالة التي أمضاها عن أسترود الى مجلس الشيوخ بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧

« نحن مستعدون لعقد الصلح مع روسيا بالشروط عينها التي وقعها مندوبها والتي كانت بريطانيا العظمى بدسائسها وسيطرتها قد حملتها على نبذها ونحن مستعدون لاعادة الراحة ونضارة العيش الى الثمانية الملايين من الاقوام الذين استولت جنودنا على بلادهم والى ملك بروسيا عاصمته . ولكن اذا كانت هذه الدلائل المتعددة عن اعتدالنا والمتجددة غير مرة لاتقوى على معاكسة الاوهام التي تثيرها الاهواء والمطامع في فؤاد بريطانيا العظمى واذا كانت هذه الدولة لاتلقى السلام الا بتخفيض مقام فرنسا والغض من كرامتها فلا يبقى لنا الا الشكوى من ويلات الحرب والتظلم من غوائلها والقاء تبعتها الوخيمة على هذه الامة التي تغذو احتكارها بدم القارة »

وكان قائماً في وجدان الامبراطور أن اقتراحاته السلمية لاتحل محل القبول الا حين ينزع من أيدي الروسيانيين مدينة دنتزيك وهي آخر ملجأ لهم وينال على الروسيين انتصاراً فاصلا نظير انتصاره في ايانا . وجعل وكده من ذلك الحين الرمي الى هذه الغاية المزدوجة

وأقام الحصار على دنتزيك من أوائل شهر مارس ولكن دخلتها من جهة البحر عدة فصائل من الجيوش الروسية وقد تولى الجنرال كلكروث قيادة الحامية في ذلك الموقع والقيت مقاليد قيادة الجيش المحاصر الى المارشال ليفيفر . وبعد خروج الحامية للقتال على غير جدوى عدة مرات جاء حين خيل لها فيه أنها موشكة أن تنقذ . وجاء الجنرال كامنسكي نجل الفلد مارشال كامنسكي في ١٥ مايو لنجدة المدينة فحمل على الجيش الفرنسوي حملة صادقة ولكن الامبراطور وقف على مقاصده في الحين الملائم وسير لتعزيز قوة المارشال ليفيفر المارشال



نابوليون وامبراطور النمسا بعد معركة استرلتز



لان والجنرال أودينو فاندحر الروس اندحارا فاضحا في معركة ويشلمند. ولما ألجئوا الى الالتجاء الى حصون ذلك الموقع أسرعوا الى نقل جرحاهم في السفن التي قلتهم وأرسلوهم الى كنسبرغ على مرأى من المحصورين الذين كانوا يشاهدون من أعلى الاسوار المخربة فرار مخلصيهم المقرون بالعار

فتشجع الحاصرون بهذا الظفر وزادوا جرأة على مواصلة أعمالهم ونسفوا في ١٧ مايو بالالغام مرابط في موقع على الطريق المغطى ونزلوا في ١٩ منه في الساعة السابعة مساء في الخنادق وعبروها وأصدر المارشال ليفيفر الامر بالهجوم في ٢١ منه فابتدأ الجنود يتسلقون الاسوار واذا بالجنرال كلكروث يطلب التسليم على الشروط التي كان فيما مضى قد منحها هو ذاته في مايانس فقبلت شروطه .

وكان نابوليون يعلق أهمية كبرى على أخذ دنتزيك بحيث أنه لما وصل اليه أول خبر بذلك الصدد وهو في مركز أركان حربه في فنكنستن بادر الى اصدار الاوامر باقامة الصلوات العامة شكرا لله على ذلك واعطاء برهان واضح عن ارتياحه الى عمل المارشال ليفيفر . وقال في رسالة انفذها الى مجلس الشيوخ :

« من المعلوم ان شعور الانسان بانه تم مايجب عليه والخيرات المعلقة باحترامنا تكفي ولا جرم لان تجعل الفرنسوي الحقيقي مثابراً على ملازمة خطة الشرف ولكن نظام الفتنا الاجتماعية مبني على انه مع الامتيازات الظاهرة والحظ الكبير معلق احترام وبهاء نريد أن نزدان بحليتهما أفراد رعيتنا المعتبرون كباراً بمواهبهم وخدمهم واخلاقهم وهي خلال نعدها أول منحة للانسان .

«ان الذي فاق غيره في مساعدتنا في أول يوم من ملكنا والذي بعدما أدى خدما جليلة في أثناء خطته الجندية على اختلاف أحوالها واشتهر في حصار تم فيه بما كمن فيه من أسرار المزايا السامية والشجاعة الباهرة يستوجب منا امتيازا عظيما. وقد أردنا أيضا أن نخصص زمانا مكرما لجيوشنا فبالمرسوم الامبراطوري الذي فوضنا فيه الى نسيبنا كبير مستشاري امبراطوريتنا ان يبلغكم اياه قدمنحنا نسيبنا المارشال ليفيفر عضو مجلس الشيوخ لقب دوق دنتزيك . وليكن هذا اللقب الذي سيحمله أبناؤه وحفدته بعده دليلا لهم على فضائل ابيهم وهم أنفسهم يعدون ذواتهم غير أحقاء به ان هم آثروا راحة دنيئة وبطالة المدينة العظمى على الاهوال وعثير المعسكرات الشريف . فياليت كلا منهم لا يتمم خدمته

من دون أن يسفك دمه في سبيل بلادنا فرنسا الجميلة ونخرها ويااليتهم لايلقون أدنى ميزة في الاسم الذي يحملونه ولكن مايجب عليهم نحونا ونحو رعايانا . »

ولولم يكن الامبراطور يريد أن يعظم بالالقاب أولئك الذين كانوا عظماء بمواهبهم وخدمهم وأخلاقهم لما كانت الفلسفة السليمة تقيم النكير على ارتفاع الرجال الشخصي وهم الذين استحقوا كثيرا من وطنهم وقد يكون ان الميزة الباهرة التي أجمعت الآراء على أنهم يستوجبونها مثلت الميزات القديمة أو استهزأت بها وهي ميزات الغاها روح العصر من زمان طويل لتنافرها مع عصر المساواة ولتعلق ذكرى الكبرياء الارسطقراطية والامتيازات بها .

الا أن نابوليون لايقتصر هنا على البحث في الشعار الذي كان من عهد قريب مدعاة للسخرية عن السناء والاحترام اللذين كان يبتغي أن يجعل عظماء الاشخاص المحدقين بعرشه يلتحفون بمطارفهما بل كان يروم ان يجعل ذينك السناء والاحترام موروثين وان يواري ابطال الديمقراطية وذراريهم وراء أبهة الاباطيل الطريفة التي كانت الديمقراطية تتباهى بملاشاتها .

ولما كان هو نفسه عارفا بغرابة مثل هذا الزعم وانفصام عراه بادر الى ايجاد ملطف له بالغائه بصورة أدبية مايمكن الانتفاع به من جهة الوراثة حين يفقد نسل ذلك الشجاع المنعم عليه بلقب الشرف وتضيع في استرخاء المدن وبطالتها ذكرى البسالة التي كانت منبعا لذلك الشرف : ولم يكن من وكد نابوليون أن يعنى بنتائج التناقض الذي يمكن حدوثه بين الحق والعمل تاركا على هذا الوجه الى الاجيال المستقبلة العناية بالحكم على اعقاب النبلاء والعودة بمشقة الى شجب الاسر المتلصص اليها الفساد . وكان علاوة على ذلك يطلب من ورثة الوطني العظيم المنتظم في سلك الجندية أن يسفكوا جميعهم حتى آخر فرد منهم دمهم في الحرب ليتسنى لهم أن يظلوا جديرين بميراثهم الارسطقراطي وهو كأنه يشير بذلك الى أن مهنة القتال ستظل في المستقبل كما كانت في الماضي شريفة دون سواها وهو ينكر بذلك الفتنة الكبرى الجارية أمام أعيننا والمميزة الهيئة الاجتماعية الجديدة عن الهيئة الاجتماعية التي كانت في القرون المتوسطة وذلك بان يستبدل بالتفوق الحربي الذي كان في عهد أصحاب الاقطاعات التفوق السلمي الذي عزز شأنه في العالمين العقلي والصناعي .

الا أنه كان لنابوليون مهمة خاصة تقضي الاحوال عليه بقضائها وهي ايجاده بقوة السلاح علاقة دائمة بين أوربا والثورة الفرنسوية سواء رضيت أوربا أولم ترض . فانه وان يكن يعظم الجندي باي طريقة كانت لايزال سائرا على الخطة التي رسمها لنفسه لان الجندي هو الاداة الدالة على البسالة وعلى هبة العناية المعطاة له لتتميم عمله العظيم . ثم اننا لايمكننا ان نكثر من تكرار هذا الامر وهو أنه أوجد نبلاء ليكافئ على الخدم المؤداة للثورة التي كانت ضربة قاضية على النبلاء من دون أمل العودة الى ترميم صرح مجدهم وسيادتهم على أن عدم الانتظام هذا لا يبعث ولكن يجهز على ذلك النظام القديم .

ولما سقط آخر موئل للمملكة البروسيانية في دنتزيك فتحت أبواب المفاوضات لعقد الصلح بين الروس والفرنسويين ولكن الحكومة البريطانية كانت تبتغي تمديد أجل الحرب ولم يكن يهمها كثيرا نفاد قوة حلفائها بحيث تستطيع بذلك أن تمل فرنسا وتستنزف موارد قوتها . وفضلا عن ذلك كان يسهل دفع الامبراطور الاسكندر الى الاشتباك في القتال فلم يكن حتى ذلك العهد قد أصابته نكبة من تلك النكبات التي كان نابوليون قد تعود أن يختم بها حروبه وابتدأ الجيش الروسي يتحرك في ٥ يونيو وفي الحال ابتدأت الحركات العدائية.

وافتتح الروس الحرب بهجومهم على جسر سبندن فعالجت اثنتا عشرة فرقة أخذه فدحروا عنه بعنف ولكنهم أعادوا الكرة عليه سبع مرات فخذلوا في المرات السبع وقد صدتهم فرقة واحدة من الدراغون وهي الفرقة السابعة عشرة من فيلق برنادوت عند هجمتهم السابعة فتزلزلت أقدامهم وتضعضع نظامهم وأركنوا الى الفرار . وقد جرى مثل هذا الأمر عند جسر لومتن فكانت له نتيجة مماثلة لهذه النتيجة وقتل القائد الروسي وكان المارشال سولت يدبر الحركات الحربية في تلك الناحية .

ولم يكن الحرس الامبراطوري الروسي المعضود بثلاث فرق والمتولي قيادته القائد العام المصحوب بالغرندوق قسطنطين أسعد حظا في هجومه على المواقع التي كان المارشال ناي يشغلها في ألتكركن . وخسر الروس في موقعة ديبن التي نشبت في الغد الفي قتيل وثلاثة آلاف جريح وجاء في التقرير الرسمي ان الفضل في انتصار الجيش الفرنسوي كان الى حركات المارشال ناي الحربية والى الجرأة التي

أبداها وابلغ صداها الى جنوده والى ما أبداه الجنرال مرشان من الدهاء

وكان الجيشان يتهيآن في خلال ثمانية أيام بمناوشات افرادية لاضرام سعير معركة عامة والتقيا في آخر الامر عند فردلاند في ١٤ حزيران وسمعت أصوات المدافع في الساعة الثالثة صباحا فقال نابوليون : « ان هـذا اليوم يوم هناء وغبطة فهو تذكار معركة مارنغو »

وابتـدأ المارشال لان والمارشال مرتيه القتال بمناصرة فرسان غروشي ومدرعي ننسوتي ولم يأت تصادم الجيشين بنتيجة فاصلة في مقتبل الامر . وفي الساعة الخامسة مساء حين عرف نابوليون مواقف الفريقين قرر الاستيلاء في الحال على مدينـة فردلاند بتغييره فجأة موقف المقدمة فامر بالهجوم من طرف الميمنة .

وأعطت علامة الهجوم بطارية مؤلفة من عشرين مدفعا في الساعة ٣٠ : ٥ فتحرك المارشال ناي وزحف الجنرال مرشان في الوقت عينه في مقدمة فرقته والحسام مصلت في يده الى العدو ويمم كنيسة القرية . وكان الهجوم الصادر عن جرأة والمعضود بالمدفعية المنزلة خسارة جسيمة بالروس فاتحة للظفر الذي أصابوه في ذلك اليوم . الا ان العدو جعل فرسان الحرس الامبراطوري وشاته يقيمون في كمين ولما أبصر فيلق المارشال ناي يسير الى غايته بجرأة عظيمة مجتازاً المواقع الكثيرة المتصدية له في طريقه أمر ذلك الحرس الهائل بالهجوم على ميسرة المارشال . وكانت الصدمة شـديدة الا أن الجنرال دوبون وافى بفرقته وظل النصر ميالا ميلا نهائياً الى الفرنسويين . وتقدم الروس على غير طائل بجميع ماعندهم من القوة فلم يغن ذلك شيئا عن سقوط فردلاند بمذبحة استرخصت فيها الارواح . وترك الروس في ساحة القتال عشرين الفاً منهم خمسة عشر الف قتيل وخمسة آلاف جريح وبينهم ثلاثون قائداً . وكتب نابوليون لجوزفين قائلا : « ان أولادي احتفلوا بتذكار معركة مارنغو احتفالا شائقا وان معركة فردلاند ستماثلها لدى شعبي في الشهرة والفخر . . . وهي شقيقة كريمة لمارنغو واسترلتز وايانا »

وحالما بلغت أنباء هذا الانتصار الى كنسبرغ أسرع الروس والبروسيانيون الى هجر هذا الموقع فدخله المارشال سولت في ١٦ يونيو وعثر فيه على كنوز

وفيرة ومؤن من الحبوب واكثر من عشرين الف جريح وذخائر من جميع الانواع ومن جملتها مئة وستون الف بندقية وصلت اليها حديثاً من بريطانيا العظمى وكانت باقية في السفن ونقل الامبراطور مركز اركان حربه الى تلست في ١٩ منه . على أن الحادث الذي كان الامبراطور الاسكندر ينتظره ليفتكر بالصلح بنوع جدي تم أخيرا : فقد كان للجيش الروسي يوم شؤم وانهزام تام وانكسار نهائي فعقد القيصر وملك بروسيا هدنة مع الامبراطور في ٢١ يونيو وأذاع نابوليون النشرة الآتية على جيشه في ٢٢ منه :

« أيها الجنود ،

« أغار علينا الجيش الروسي في معسكرنا في ٥ يونيو وقد فات العدو سبب بقائنا بغير عمل ولكنه علم فيما بعد ان راحتنا كانت تشبه راحة الاسد : فندم لذهوله عن هذا الامر .

« وقد وصلنا بسرعة النسر من ضفاف الفستول الى ضفاف النيمن ففي استرلتز احتفلتم بتذكار التتويج واحتفلتم في هذه السنة بتذكار معركة مارنغو التي كانت بها نهاية المحالفة الثانية .

« أيها الفرنسويون لقد كنتم أحقاء بانفسكم وبي وستعودون الى فرنسا حاملين غار النصر بعد حصولكم على صلح مجيد يضمن بقاءه . »

وقرر الملوك الثلاثة قواعد الصلح في اجتماع عقدوه في النيمن .

وركب نابوليون مركبا في ٢٥ يونيو في الساعة الواحدة بعد الظهر ومعه مورات وبرتيه ودوروك وكولنكور وسار في نهر النيمن حيث كانوا قد القوا الارماث ونصبوا الاعلام لاستقبال العاهلين وملك بروسيا . وركب النهر في الوقت عينه من الضفة الاخرى الاسكندر ومعه الغرندوق قسطنطين والجنرال بننغزن والجنرال اوفاروف والبرنس لابانوف والكنت دي ليافن .

ووصل المركبان في وقت واحد ولما انحدر الاسكندر ونابوليون الى الرمث بادرا لاعطاء الجيشين الضاربين على ضفتي النهر علامة [illegible] المصالحة فانطرح كل منهما على عنق الآخر ثم قضيا معا عدة ساعات .

ولما فرغا من التباحث عاد كل من العاهلين الى مركبه وانثنى راجعاً الى معسكره وعقد اجتماع ثان في الغد في ٢٦ منه في مضرب على ضفة النيمن شهده ملك بروسيا . وكان الملوك الثلاثة في خلال عدة أيام يجتمعون مرات كثيرة ويقيمون الاحتفالات الشائقة محتفين بعضهم ببعض . فكأن أصفى المودة حلت بغتة محل العداوة الشديدة التي أجرت الدماء غدراناً . وشرب نابوليون في احدى الولائم نخب ملكة بروسيا التي كان قد أغلظ في الكلام عنها في نشراته .

ووصلت تلك الملكة الى تلست عند ظهر اليوم السادس من شهر يوليو وبعد ساعتين زارها نابوليون . ويقال أنها ألحت لتخفيف وطأة شروط الصلح على مملكتها ولكن جميع ما جادت به الطبيعة والتهذيب عليها من قوة الاغواء لم يستطع أن يغير شيئاً من المقاصد المدبرة قبل وصولها ووقعت وثيقة الصلح في ٨ منه فجعلهم نابوليون يعترفون بالحصار البحري وانشاء مملكة الساكس ومملكة هولندا ومملكة وستفاليا (أنشئت هذه الاخيرة لأجل جيروم وتألفت من قسم من بروسيا وقسم من هانوفر وقسم من هيس) وغرندوقية فرسوفيا التي انتظمت في سلك محالفة الرين وألقت دول الشمال العظمى المنشأة تلك المحالفة خصيصاً لأجل مناهضتهن مقاليد حمايتها الى نابوليون .

وقبل مغادرة نابوليون لتلست أمر بأشجع جندي من جنود الحرس الامبراطوري الروسي أن يمثل بين يديه فأنعم عليه بنشان جوقة الشرف الذهبي اعترافاً منه بالاحترام لأولئك الجنود . وأهدى بلاتوف زعيم القوزاق صورته وجاء بعض الموسيقيين الموفدين من لدن القيصر وأقاموا لنابوليون حفلة موسيقية بحسب عادة بلادهم .

وتوجه نابوليون في ٩ يوليو في الساعة الحادية عشرة صباحاً الى عاهل الروس وقد علق على صدره نشان القديس اندراوس الكبير فلقيه في مقدمة حرسه وقد علق على صدره نشان جوقة الشرف الكبير . وبعد ما قضيا معاً ثلاث ساعات ركبا فرسيهما وبلغا ضفة نهر النيمن وهناك ركب الاسكندر مركباً وظل نابوليون مرافقاً اياه بعينيه حتى انتهى الى الضفة الاخرى دليلاً على مودته له . وبعد قليل من الحين جاء ملك بروسيا لزيارة امبراطور الفرنسويين فرد له نابوليون زيارته على الأثر ثم شخص الى كنسبرغ .

الفصل الحادي عشر

عودة نابوليون الى باريس — جلسات المجلس الاشتراعي
إلغاء المجلس الاعلى — رحلة الامبراطور الى ايطاليا
احتلال البرتوغال — عودة نابوليون
بيان نجاح العلوم والفنون من سنة ١٧٨٩

ولم يطل الامبراطور مدة مكثه في عاصمة بروسيا القديمة فغادرها في ١٣ يوليو ووصل في ١٧ منه الى درسد يصحبه ملك الساكس وكان قد خف الى لقائه في بوتزن عند حدود بلاده وعاد نابوليون الى سان كلود في ٢٧ منه

وبادر مجلس الشيوخ والمجلس الاعلى والمجلس الاشتراعي ومحكمة التمييز ورجال الدين والمجلس البلدي وجميع أصحاب المقامات الملكية والعسكرية والدينية الى القاء تهانئهم عند قدمي العاهل المظفر . وأراد العاهل أن يجعل عودته مقرونة بمنحه بعض الترقيات والمكافآت فعين في مجلس الشيوخ القائدين كلاين وبومون وعضوي المجلس الاعلى كوره وفار ورئيس أساقفة طورينو والمسيو دوبون أحد محافظي باريس . وسمى تاليران برنس دي بنيفان نائباً للناخب الاكبر وبرتيه برنس دي نوشاتل نائباً للقائد العام .

وتوجه بابهة عظيمة في ١٥ أوغسطس وهو عيده الى كنيسة نوتردام ليشهد صلاة الشكر لله على صلح تلست .

وقدم وفد من مملكة ايطاليا ليضم تهانئه الى تهانىء أصحاب المقامات في الامبراطورية فأبدى نابوليون ارتياحه الى ذلك الامر وقال لرجال الوفد : « اني سررت سروراً خاصاً في أثناء الحرب الاخيرة من تصرف جنودي الايطاليين الممتاز . فهذه هي المرة الاولى التي ظهر فيها الايطاليون من قرون عديدة بمظهر النبل على ملعب العالم العظيم . وأنا آمل ان هذه البداية السعيدة تثير حب التنافس في أفئدة الامة بحيث ان النساء أنفسهن يبعدن عنهن أولئك

الشبان البطالين الذين يقضون معظم أوقاتهم في مخادعهن أو على الاقل لا يقبلهم عندهن الا حين يعودون من الحرب وقد غشتهم الندوب الشريفة . وفضلا عن ذلك لي الامل بالذهاب قبل الشتاء لتعهد بلادي الايطالية » .

وافتتح المجلس الاشتراعي في ١٦ أوغسطس فتولى الامبراطور افتتاحه بذاته وفاه بالكلمات التالية الخالدة مختصرا بها جميع ما كانت فرنسا قد أصابته من العظمة والسؤدد : « أتباهى بكوني الأول بينكم » ولكن لسوء الحظ جعل نابوليون الى جنب هذه العبارة النبيلة الدالة على عظمة سامية وشرعية عبارات مخالفة للرأي العام أراد بها تمهيد العذر لصوابية منحه الألقاب الامبراطورية التي أنشأها لتكون واسطة للافتخار على مثال ما كانوا يفتخرون به في ما مضى من الزمان وهو يزعم أنه أراد بهذه الالقاب أن يحول دون رجوع الالقاب الاقطاعية المنافية لمنشآته كأن إعادة الألقاب التي كانت في عهد أصحاب الاقطاعات والتي ورثت عنهم يمكن أن ينظر اليها بعقلة الجد كحائل دون عودتها لأنهم لم يكونوا يجرؤون أن يضيفوا اليهم امتيازات لم يكن ممكناً التساهل بها ولاسيما حين تبعث من مدفنها مع ما كانوا ينفرون منه نفوراً عظيماً في القرن الثامن عشر وفي الثورة الفرنسوية أي مع مبدأ الوراثة

بقي أن انشاء أسر شريفة تتوارث ألقابها خلفاً عن سلف لم يكن سوى نتيجة لانشاء أسرة مالكة وبعد ما أعلن نابوليون على رؤوس الأشهاد أنه مرسل من السماء لترميم صرح السلطة الهاوي الى وهدة العار والصغارة عاد فانقاد الى تلك الحركة الرجعية التي أوعز بوجوب تعزيزها اعلاء لشأن روح النظام والدستور . ولما كان معتقداً أنه انما يعمل في ضمن حدود موضوعة لاستدراك مشروع يضاد المبالغة في عضد مبدإ الحرية كان يبالغ غير مختار بتعزيز مبدإ السلطة كأنه يتباهى بأنه لا يعزز الا الارسطقراطية الاهليه بانشائه رجالا عظاماً بولادتهم ويستنفد الوسع لتوطيد أركان سلطنته الجديدة باسناده اياها الى الدعائم المنخورة التي كانت من نصف قرن تقرقع قرقعة شديدة تحت أثقال مملكة شارلمان .

وقال الامبراطور في الخطاب الذي خطبه عند افتتاح المجلس أنه سيدخل بعض التغيير على الشرائع الدستورية وقد كان الانسان يستطيع أن يعلم أنه



معركة ايانا (١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٦)

سيكون من وراء تأملاته توسيع دائرة تصوره بالحكم المطلق وانه أوشك أن يقلل أو يلاشي ما كان ينشئ تمثيلا وهمياً ماخلا التمثيل الحقيقي المطلق الذي كان يحصره في ذاته . وألغى المجلس الأعلى مع ما بذله من العناية بالمباداهة بابداءآ رائه الملكية وكان اسمه وحده يكفي لان يكون شؤماً عليه : فان هيئة يذكر أصلها بالطريقة الجمهورية في كل حين لم يكن ممكناً اغضاء الطرف عنها في جوار الدوقات والامراء الذين بعثهم السناء الامبراطوري باعجوبة حول عرشه فتقمصوا باشخاص أشهر محقري الشعار القديم وأشد خصومه سطوة وبأسا. وعلاوة على ذلك أظهر أعضاء المجلس الأعلى اذعانا يضرب به المثل وقد زادوا اسرافا في التزلف بشكرهم ومباركتهم لليد التي ضربتهم وكأنهم أرادوا بذلك الامر أن يتمحلوا عذراً للامبراطور باعلانهم لفرنسا أن الغاء مجلسهم لم يكن من شأنه أن يثير أدنى خوف على حرية الامة وان ليس لذلك الالغاء سوى الغاء خلل في دستور الحكومة

وأدخل الامبراطور أيضا شيئا من التغيير على تنظيم المجلس الاشتراعي وطريقة مباحثاته وكان من جملة الشروط أن يكون عضو هذا المجلس بالغا الاربعين من العمر . وظلت أعمال المجلس السياسية محصورة في ثلاثة مفوضات يقضي عليها أن تفاوض مفوضات مجلس شورى الدولة عند كل مشروع شريعة يراد وضعه ويكون الشروع بوضعه محفوظا للحكومة . وقرر في الجلسة التي عقدت وضع قانون التجارة

وظلت الحرب مشتعلة في الشمال بين فرنسا وأسوج فاستولى الفرنسويون على مدينة سترسلند في ١٧ أوغسطس وسلمت جزيرة روجن في ٣ سبتمبر فتم بذلك فتح بوميرانيا الاسوجية ومع ذلك لم ينفصل ملك أسوج عن محالفته للبريطانيين .

وكان يشق على نابوليون أن ينظر بحر البلطيك مفتوحا في وجه السفن البريطانية وإعراض حكومة أسوج عن ممالئة فرنسا على الحصار البحري ولكن كان ثمة مملكة أخرى تناقض علاقاتها المتواصلة ببريطانيا العظمى المبادىء الفرنسوية كل المناقضة . وهي مملكة البرتغال فان أسرة براغانس المرتبطة كل الارتباط بمصالحها التجارية والسياسية بالحكومة البريطانية كانت تنقاد بجملتها الى رغائب هذه الحكومة غير مبالية بالنشرة الصادرة عن برلين وان تكن أعلنت

رسميا أنها معادية لبريطانيا العظمى ارادة أن تخدع نابوليون مموهةعليه الحقيقة فهذه الخيانة المضمرة للمحالفة الفرنسوية أعلنهـا الامبراطور لاوربا بتسييره الى البرتوغال فيلقا بقيادة جونو بعد مفاوضته لحكومة مدريد بشـأن مرور الجنود الامبراطورية بأرض أسبانيا

وبينا جونو يسير ناحيا نهر التاج كان نابوليون يعد أهبةالرحيل الىضفاف ألبو والادرياتيك لتفقد شؤونها واستقبل قبل انطلاقه استقبالا رسميـا سفير العجم الذي قدم الى باريس حاملا هدايا ثمينة للامبراطور ومن جملتهـا سيفا تيمورلنك وطاماس خولي خان

وفصل نابوليون عن باريس في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٠٧ فانتهى الى ميلانو في ٢١ منه . وبعد أيام قليلة دخل عاصمة فرنسـا دخولا باهراً رجال الحرس الامبراطوري وهم يجرون مطارف الفخر الذي أصابوه في استرلتز واياناوفردلاند وكان وصولهم مدعاة لاقامة الاحتفـالات العظيمة فارادت حكومة باريس أن تستقبلهم في قصر المجلس البلدي وشـاء مجلس الشيوخ أن يستقبلهم في قصره عينه

ولم يمكث الامبراطور زماناً طويلا في ميلانو فقـد كان ميالا الى التعرف برعاياه الجدد الذين ادخلتهم وثيقة برسبورغ تحت ولايته . فوصل الى البندقية في ٢٩ نوفمبر وهو اليوم نفسه الذي استولى فيـه جونو على مدينة ابرنتس بعد اجتيازه أسبانيا وهي المدينة الاولى التي وصل اليها في البرتوغال ودخل الجيش الفرنسوي مدينة ليشبونة في الغـد وكانت العترة المالـكة قد غادرتها بمرأى من الشعب الداخل عليه الذعر وركبت متن الاسطول البريطاني شاخصة الى البرازيل.

وبعدما طاف نابوليون ولايات البندقيـة ولمبرديا والتقى في مانطو باخيه لوسيان الذي كان يبتغي أن يزف ابنته الى أمير الاستوريين عاد الى عاصمة مملكته الايطالية . فاصدر مراسيم امبراطورية منح بموجبها النائب الملـكي أوجين دي بوهرنه لقب أمير البندقية وكريمته جوزفين لقب أميرة بولونيا وأنعم بلقب دوق دي لودي على ملزي الرئيس السابق للجمهورية الالبية وبعد ما أمر الامبراطور بقراءة هـذه المراسيم على المجلس الاشـتراعي الايطالي ألقى على الحضور الـكلام الآتي :

« ياحضرة الملاكة والعلماء والتجار يسرني أن أراكم ملتفين حول عرشي ويبهجني عند عودتي بعد غياب ثلاث سنوات أن اشاهد ما أصابه رعاياي من التقدم ولكن ما أكثر الاشياء الباقية لنسخ الهفوات التي أتاها آباؤنا وتصييركم احقاء بالمنزلة التي أعدها لكم . ان اختلافات أسلافنا الداخلية وأنانية كل مدينة ساقت الى فقدان جميع حقوقنا. فقد نزعت من الوطن منزلته وكرامته وهو الذي كان في القرون السالفة قد بلغ مدى بعيداً ببأس جيوشه وبسناء فضائله . وستكون الغاية التي يرمي اليها مجدي استعادة ذلك السناء وتلك الفضائل . »

وكان لهذا الكلام وقع حسن على النواب الايطاليين الذين كان انقسامهم الى ملاكة وعلماء وتجار بفضل تنظيم المجلس الاشتراعي الفرنسوي المنقسم بحسب أنواع المصالح المختلفة والاهلية مما تحقق افضليته في الهيئة الاجتماعية ويستدعي التمثيل في السياسة . إلا أن الفرق في الطريقة الدستورية عند الشعبين الخاضعين لسلطة واحدة والمنحنيين لصولجان واحد يفسر بكون نابوليون رجل الثورة قد انتزع السلطة في ايطاليا من يد الحكومة القديمة أما في فرنسا فانه خلع عن منصة الحكم أبناء الثورة . ولا يخفى أن أعداء نابوليون الطبيعيين في ميلانو وفي بولونيا وفي البندقية وفي غيرها من أوربا كانوا أبناء الارسطقراطية ورجال الدين الذين شيد قوة فرنسا على انقاض مجدهم وسيادتهم . وكان الوطنيون الخارجون من الطبقات المتوسطة وهي طبقات المتعلمين والعملة أنصاره الذين يعول عليهم وبهم يعتضد . وكان في باريس بعكس ذلك يذكر دائماً أنه أصاب العرش في سان كلود بمناهضته للجمهوريين وأنصار الفلسفة الحديثة وهذا ما كان يجعله يسيء الظن بأصحاب الاحلام الراجحة المتكلمين عن الحرية في كتاباتهم والمشتغلين بالنظريات السياسية مطلقاً عليهم لقب «وهميين» فابعد عقيلة دي ستال وأعرض بوجهه عن بنيامين كنستان وحقر طراسي وفلني وكبنيس الخ وألغى المجلس الاعلى وقسما مهماً من الندوة العلمية ولم يكن علماء مملكة ايطاليا إلا من المشتغلين بالفكريات وكان لنابوليون دوران يمثلهما الاول حين يكون في الخارج والثاني حين يكون في فرنسا أي دور الاصلاح حين يقضي عليه تنظيم البلدان المفتتحة ودور المحافظة حين لا يرى بداً من النظر في الشؤون الداخلية في سلطنته . وكان موقفه المختلف في بلاده عنه في الخارج يدفعه الى ركوب مركب التناقض مما جعل

شاتوبريان يقول عنه : « أنه يخطو تارة خطوة مع العصر ويتقهقر تارة الى الماضي » .

ولم يكن القيصر الاسكندر ينفك منذ عقد الصلح في تلست عن ايجاد التقرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى إلا آن هذه الاخيرة ازدادت اصراراً وميلا الى مناهضة حكومة نابوليون. وقد هاج هاجها لموافقة دول الشمال العظمى موافقة رسمية على الحصار البحري فنبذت تدخل القيصر نبذ النواة ووجهت سبعاً وعشرين سفينة حربية وعشرين الف مقاتل الى بحر البلطيك بقيادة اللورد كتكارت لاجبار ملك الدانمرك على تسليم أسطوله ضماناً فابى هذا الملك اجابة طلب البريطانيين فاطلق الاميرال البريطاني قنابله على كوبنهاغن عاصمة بلاد الدانمرك . فاستسلمت للحال هذه المدينة وحطم الاسطول الدانمركي. ولما انتهت الى نابوليون الانباء الدالة على هضم حقوق الامم والصادرة عن البريطانيين في كل ناحية وبكل شكل ضد الحياد الضعيف صمم على اتمام طريقة الائتار التي توخاها بعد معركة ايانا. وجاء المرسوم الامبراطوري الصادر عن ميلانو معززاً المرسوم الامبراطوري الصادر عن برلين بحسب مقتضيات الاحوال. وأعلن الامبراطور فيه أن كل سفينة يجب ان تخضع للتدابير المنيفة التي اتخذها ملك بريطانيا العظمى بحق ثغور فرنسا وثغور حلفائها ووضعها تحت الحصار وأمر بتفتيش كل سفينة أوربية يعثر عليها الاسطول البريطاني في عرض البحر تعتبر غير منتمية لدولة من الدول

وعقدت أيضاً اتفاقات جديدة في أثناء إقامة الامبراطور في ايطاليا فكانت تسكانيا وبعض الولايات الخاضعة للكرسي الرسولي في حكم البلدان الخاضعة للسلطنة الفرنسوية . فبعد ماهيأ كل شيء لهذا الانضمام قفل عائداً الى فرنسا وعاج على شمبيري وهو مجتاز جبال الالب . وكان ثمة شاب ينتظره ليلتمس منه الامر باعادة والدته من المنفى وكان هذا الشاب يدعى المسيو دي ستال فاكرم نابوليون وفادته ولكنه ظل مصراً على عدم العفو عن ابنة نكر وعن نكر ذاته وقال له : « ان أمك مسرورة باقامتها في فينا وستتعلم فيها اللغة الالمانية . . . أنا لا أقول أنها امرأة شريرة . . . فهي ذات عقل ثاقب وقد تكون ذات عقل كبير ولكنه عقل لا شكيمة له وغير مروض . وقد تربت في عهد مملكة متداعية وفي عهد الثورة وهي تخلط جميع ذلك بعضه ببعض وقد يصير جميعه خطراً . فانها

تستطيع بما في رأسها من الهوس أن تستميل اليها الدخلاء ولا بد لي من التيقظ لذلك فهي لا تحبني واني حباً لمصلحة الذين تعرضهم للخطر لاينبغي لي أن أدعها تعود الى باريس . . . فهي بمثابة علم يؤمه الناس في ناحية سان جرمان . . . وهي تصنع هرجاً : ولا تعلق أهمية على ذلك الامر ولكنني اعلق عليه أهمية عظمى . فليست حكومتي هرجا وأنا انظر الى كل شيء بعين الجد فيجب أن يعلم الملأ طراً ذلك وقل هذا الامر لجميع الناس . » فزعم دي ستال الشاب أن والدته لم تكن تتعمد السوء للحكومة الامبراطورية وأنها لم تكن تجتمع إلا ببعض نفر من الاصدقاء الذين لا يحاذر أن يقدم للامبراطور جدولا باسمائهم. ثم أنه قال: «ان بعضهم قال لي أن المؤلف الاخير الذي صنفه جدي هو الذي جعلك مستاء من والدتي فاقسم لجلالتك على أنها ليس لها أدنى علاقة بذلك .» فاجابه الامبراطور « أجل أن هذا المؤلف هو سبب استيائي فجدك يعد من الفكريين وهو احمق وقد جعلت الشيخوخة به مساً . أو هل يحلم وهو في الستين أن يهدم صرح الدستور الذي شيدته وأن يتوخى وضع رسوم جديدة لدستور آخر. ولعمري ان الحكومات لا تحسن ادارتها اذا تولاها أشخاص من أصحاب الطرائق ومن المشتغلين بالنظريات والمصدرين أحكامهم على البشر في الكتب وعلى العالم في المصورات . . . وعندي أن علماء الاقتصاد يعتبرون من الوهميين الذين يحلمون بطرق مالية وهم مع ذلك يعجزون عن تولي جباية الضرائب في أحقر قرية في سلطنتي . فكتاب جدك عبارة عن نتاج فكرة شيخ تملك به العناد وقد قضى نحبه وهو يطيل لسانه المؤثرة على حكومات الدول » فأثر هذا الكلام في حفيدنكر فقطع على الامبراطور حديثه زاعماً ان جلالته علم ما في الكتاب من أشخاص نغلت نياتهم وسقمت دخائلهم . وانه لم يقرأه بذاته فان جده أنصف نابوليون منوها بما أوتيه من الدهاء . فقال له نابوليون بحدة : « لقد ساء وهمك فانا قرأته بذاتي من أوله الى آخره .... أجل انه ينصفني وهو يدعوني الرجل الضروري ونرى بموجب كتابه أن أول شيء يجب عمله هو قطع عنق هذا الرجل الضروري فانا كنت ضروريا لايستغنى عني لاصلاح ما كان من حماقة جدك ونسخ ماجره من الاذى على فرنسا ... فهو مضرم سعير الثورة ... فقد انقضى عهد حكم الفتن وأنا أبتغي الخضوع . فاحترموا السلطة فهي من الله ... أنت

شاب ولو كان لك مالي من الاختبـار الطويل لكنت تحسن حكمك على الاشياء بحرية ضميرك تسرني بدلا من أن تسؤني ويروقني أن أرى الابن يدافـع عن أمه ... ومع ذلك لا أشاء أن أعللك بآمال فارغة ولا أكتم عنك انك لا تصيب غرضك في هذا الموضوع . » فخرج المسيو دي ستـال من حضرة الامبراطور وهو يتعثر بذلاذل الخيبة . والتفت نابوليون الى دوروك وقال له : « أو لم أكن جافياً مع هذا الشاب ؟ ... أظن اني كنت كذلك ومع هذا كله أنا مسرور من هذا الامر . فغيره لا يعيد علي الكرة من هذا القبيل فهؤلاء القوم يعيبون علي عملي وهم لا يفهموني . »

ووصل نابوليون الى باريس في أول يناير سنة ١٨٠٨ وزار بعد ثلاثة أيام هو والامبراطورة جوزفين المصور المشهور داود في محله ليشـاهدا صورة التتويج

ووضع نابوليون قوانين مقررة لمصرف فرنسا في غضون هذا الشهر وضم فلسنغ وملحقاتها الى سلطنته ولم يكن حظ البرتوغال قد تقرر بعد فانهـا وان تكن قد ذلت للجيوش الفرنسوية لم يشأ نابوليون أن يعمل عملا معجلا في هذه المملكة بل اكتفى بأن ينشيء فيها حكومة وقتية جعل جونو رئيساً عليها وأطلق عليه لقب حاكم بموجب مرسوم امبراطوري صدر في أول فبراير ومنح في الغد مثل هذا اللقب ختنه البرنس برغيزي حاكم الولايات التي الى ما وراء الالب

وأتم المنتدى العلمي الوطني في ذلك الحين عملا في منتهى الاهمية أصار اليه الامبراطور أمر النظر فيه في زمن يهتم فيه دهاء الانسـان المملص من قيود الاهواء بمصالح الحضارة العامة قبل سواها من الامور فرفع كل فرع من الفروع الثلاثة المؤلف منها ذلك المنتدى المشهور تقريراً عن تقدم الفرع العلمي الموكول اليه أمر درسه والتدقيق فيه من جميع أطرافه. على أن الجدول التاريخي المشتمل عليه مجموع تلك التقارير يتناول العلوم والفنون والاداب من سنة ١٧٨٩ وكان شنيه مقدم الفرع الممثل الندوة العلمية الفرنسوية الـكبرى وبسط ديلامبير وكوفيه حالة تقدم العلوم الطبيعية والرياضية وتكلم داسيه باسم قسم الندوة المؤلفة منها اليوم ندوة علم الادب وقدم لبرتون تقرير قسم الفنون الجميلة . على أن عمل الندوة العلمية سيظل شاهداً ناطقا بعظمة الشعب الذي كان في أثناء

مشكلات الحروب المدنية والقلق الدائم الناجم عن الحرب الخارجية يشتغل اشتغالا مثمراً في الامور الفكرية ويرتفع في الخطة المثلثة للعالم والاديب والصانع في حين كانت أوربا والعالم يظنانه فيه مقتصراً على جلائل الاعمال الحربية وستكون هذه الحالة جواباً فصيحاً لهادمي صرح الثورة وبالتالي تبرئة غير موجهة رأسا لجميع الذين على مثال نكر ممن أساء الامبراطور معاملتهم قد عملوا بنظرياتهم الاقتصادية وطرقهم المالية على انفجار بركان تلك المعضلة العظمى لانه مهما قاله نابوليون عنهم فان المفكرين نهضوا باعباء مهمتهم نهوض الفاتحين وقد أفضى الامر بهؤلاء واولئك الى الجنوح عن قصد السبيل بعدما كانوا ردحا من الدهر أعلام عصرهم ونبراسا يستضاء به فتتخذ الهيئة الاجتماعية في غالب الاحيان في سيرها السريع هداة جدداً ولكن لا ينبغي لها أن تحتقر الذين خلفتهم وراءها لانهم لم يقيض لهم أن يتمكنوا من اللحاق بها دائما: فان نكر الذي كان نابوليون ممثل فرنسا سنة ١٨٠٨ يعتبره مستوجبا للاستهزاء به كان ممن يشار اليهم بالبنان في فرنسا في سنة ١٧٨٩ .

——— (* * *) ———

الفصل الثانى عشر

مسـائل اسبانيا

وكان قد انقضى زمان طويل لم تقاتل فيــه الثورة الفرنسوية الا في أنحاء أوربا الشمالية وأما أنحاؤها الجنوبية فانها لم تتخذ مختارة مبادئها دستوراً لها بل أجبرت على الاعتراف بها . على أن نفور الناس منها في ريق أمرها عند جميع الحـكومات التي اضطرت الى السكوت عنها مكرهة على ذلك بقوة السـلاح لم تزل وشائجه ذاهبــة فى القلوب كل مذهب . فسواء كان في مدريد أو في ليشبونة وفي برلين أو في فينا أو في بطرسـبرج كان روح الفلسفة جاراً يخشى شره وعدواً ألد خصوصاً لديوان التفتيش ولم يخف ذلك الامر على نابوليون فقد كان عالماً أن الحـكومة الاسبانيولية كانت كالحـكومة النمساوية مستعدة للمجاهرة بمحالفة بروسيا وروسيا وبريطانيا العظمى الا أن معركة ايانا أحبطت مساعي المحالفة المنوية وكشف النقاب عن حقيقة أميال الحـكومة الاسبانيولية لما أذيعت نشرة دبجتها يراعة أمير السلام (غودوي المشهور) . فـكانت هـذه النشرة الصادرة قبل أوانها باعثاً على زعزعة أركان الحـكومة التي كان يرأسـها الملك كارلوس الرابع . فقضت عليه الاحوال بقبول مقترحات نابوليون جميعها رجاء أن يصيب الصفح منه عن جميع التظاهرات التي أوقعت حكومته تحت طائلة الظنة . وكان من نتيجـة ذلك الامر ارسال فيلق اسبانيولي الى ألمانيا بقيادة لارومانا والسماح للجنود الفرنسوية باجتياز الارض الاسبانيولية لغزو البرتوغال ووضعت على طول جبال البرنات فيالق للمراقبة أطلقت عليها أسماء مختلفة وأشيع أن غايتها تعزيز حملة البرتوغال ولم يكن الامبراطور مقتصراً على معاقبة الحكومة الاسبانيولية على ارادتها المتزعزعة وكلام العـداء الذي فاهت به في سنة ١٨٠٦ بل كان يبتغي التوقي في المستقبل من محاولة دول الجنوب مهاجمة بلاده اذا ما حدث خلاف شديد بينه وبين ممالك الشمال . وكان شديد الاهتمام بوضعه نشرات برلين وميلانو موضع الاجراء بصورة عنيفة . ووجهت شدته من هذا القبيل بنوع طبيعي وبنوع خاص الى البلدان البحرية كشبه جزيرة اسبانيا والبرتوغال



نابوليون يزور ضريح فريدريك الثانى الكبير

وكان قد اتخذ جميع التدابير اللازمة في نابولي وليشبونة وروميه كما سيجيء بيانه . وكان وكده أن يخضع للطريقة الفرنسوية بلاد اسبانيا المتكسرة على شواطئها أمواج بحرين والجالس على عرشها ملك من الاسرة البربونية والمتهمة باطالة اللسان بالكلام البذيء بحق فرنسا فيما مضى من الزمان فعقد عروة عزمه على احتلال الولايات والمواقع الشمالية من تلك المملكة احتلالا عسكرياً

وتلقت فيالق المراقبة في الجيرند والبرنات الاوامر بالزحف الى الامام فتوغل المارشال منسي في الولايات البسكية واحتل دوبون والادوليد ودوهيم وأوغل متقدما في كاتالونيا . ولم يكن عدد الفرنسويين في اسبانيا يقل عن سبعين الفاً ماعدا جيش جونو . واستقبل جنود الفرنسويين بلا مقاومة في المواقع المحصنة .

ولو لم يكن الامبراطور مبتغياً الا ضماناً قوياً على اخلاص حكومة مدريد للمحالفة الفرنسوية لكان يكفيه احتلال الاماكن الحصينة في اسبانيا ولكن موقف هذه البلاد الداخلي والحوادث البيتية التي حدثت في قصر الاسكوريال غيرت خطته الاولى ومهدت لاطماعه ودهائه سبيلا لتصيير الامة الاسبانيولية مرتبطة بالشعب الفرنسوي ليس فقط بغزوة متواصلة ولكن باحداث ثورة في تلك البلاد .

وكان الجالس على عرش مملكة شارل الخامس (شارلكان) رجلا من أولئك الرجال الذين يسلطهم الله على الممالك التي يسمح بسقوطها ليجدد مجدها وكانت العترة المالكة موسومة بسمة الانحطاط وقد فسد الدم المتصل اليها من لويس الرابع عشر الملك الكبير : فان وقاحة الدخيل وبذاءة الوغد نالتا اكراماً من اصحاب الانفة الكستليانية . وكان تحقير السلطة المؤذن بهبوطها قد بلغ حده : فكان غودوي عشيق الملكة نديما للملك وطاغية لبلاد اسبانيا وأصبح فيها صاحب الامر والنهي وقد جر المهانة الى أسرة نبيلة وساق الدمار الى عترة قلبت لها الاقدار ظهر المجن . وقال كاتب من الكتبة المعتصمين بحبل البوربون : « ان تسلطه على الاسرة المالكة لم يكن له حد يقف عنده فكانت سلطته مطلقة تحاكي سلطة صاحب السلطان الاكبر وقد أطلقت يده في كنوز أميركا فكان

ينفقها عن سعة في سبيل الاستغواء الذميم وقد صير بلاط مدريد مكاناً يأوي اليه الفسق والدعارة وتنفر منه الفضيلة والكرامة . »

وكانت تلك الحال مما يشار اليها بما يدعونه : « علامة الازمنة » فكأن الحماية الالهية أشاحت بوجهها عن مملكة بيلاج كما كانت قد أعرضت من قرن من الزمان عن عرش كلوفيس : فقد كان لمملكة اسبانيا أيضا كفيل ، ولم يكن ختم الانحطاط يدع آثار الزيت المقدس منظورة على جباه ارزحها ثقل تاج علاه صدأ الصغارة والنقيصة . ولكن لم يعبث الهرم بالملكية وحدها فان قوة القرون المتوسطة نضبت مواردها من جميع طبقات الهيئة الاجتماعية في تلك البلاد : فالنبلاء ورجال الدين وهم العضد الطبيعي والمعين القوي للسلطة الملكية في ابان عظمتها شاطروها الشقاء والضعف في أيام شيخوختها . وقد دنت الساعة الاخيرة لطريقة الحكم القديمة في ماوراء جبال البرنات فشعر نابوليون بانه مدعو لان يعطي العلامة عن ذلك وأن يقرع ناقوس الحزن للاحتفال بمناحتها

فلم يكن يتهمم في بدء الامر إلا أن يتأكد بطريقة عسكرية أمانة حليف مشكوك بصدقه ولكنه لما رأى أن الاسرة المالكة هاوية الى وهدة الدمار بما أتته من الشكوك والاختلافات وأن الشعب تتنازعه عوامل الاضطراب الصادر عن القصر الملكي وشاهد كلا من كارلوس الرابع وفرديناند يتزلفان اليه ممرغين وجهيهما عند أعتابه وملتمسين منه حماية فرنسا وكل منهما يستمد مناصرته على الآخر وعلم أن الملك والملكة يشكوان من ابنهما وان الابن يسعى لخلعهما عن العرش مجرعا اياهما كؤوس المهانة استبان له أنه يقدر ان يفعل في اسبانيا غير احتلال الحصون وان الحين دنا لتغيير وجه تلك البلاد الشريفة الجميلة بتوثيق عرى ضمها الى سلطنته وجعله المبادىء الفرنسوية سائدة فيها سواء كان باسم كارلوس الرابع او فرديناند او غيرهما ممن يدعون الحق بالعرش ويكون هو ميالا الى اختيارهم لذلك المنصب الرفيع . ووجه المارشال بسيار لهذه الغاية بخمسة وعشرين الف مقاتل الى الولايات البسكية لتعزيز ما عند منسي ودوبون من القوة والقى بمقاليد القيادة العامة لهذه الحملة الى مورات فاتخذ هذا برغوس محلا لاقامة اركان حربه ونزل فيها في اوائل شهر مارس

وحالما ذاع في مدريد نبأ قدوم الفرنسويين صاح القوم : ياللخيانة ! وفر البلاط هارباً الى ارانجويز . وأما غودوبي الذي علل نفسه حيناً قصيرا بانه قادر على خداع نابوليون واستمالته اليه فانه مالبث أن عرف انه المنخدع فأشار على كارلوس الرابع بان يسلك مسلك آل براغانس ويشخص الى الطوارئ الاسبانيولية في أميركا . فلم يكن يسع الملك الا العمل بمشورة نديمه فصمم لساعته على الظعن الى اشبيلية الا أن إعداد أهبة الرحيل هاجت كبرياء الكستيليين فلقيت الظنون الموجهة الى أمير السلام مجالا فسيحاً بلغت فيه مدى بعيدا . وفي ١٦ مارس انفجر بركان الحنق الوطني فهجم الشعب الهائج على قصر ارانجويز طالباً الفتك بغودوبي . واغتصبت دار النديم عنوة ونهبت ولم ينج هو ذاته من موت محتوم الا باختبائه في أحد الاهراء . وعالج الملك كارلوس الرابع تسكين هياج الشعب باعلانه على رؤوس الاشهاد ان أمير السلام رضي بان يستقيل من منصبه ولكن لم يغن عنه ذلك شيئاً فاضطر هو في نوبته أن ينحدر عن العرش وأذاع نشرة رسمية يستقيل بها من الملك ويعين خلفاً له أمير الاستوريين فبادر هذا الى اتخاذ اسم فرديناند السابع وافتتح ملكه بضبط أموال غودوبي الملقى في السجن ريثما يصدر عليه ما يستوجبه من الحكم .

ولم تكد أنباء هذه الحوادث تصل الى برغوس حتى أسرع مورات الى الزحف الى مدريد فدخلها في ٢٣ مارس بستين الفاً من الحرس ومن جنود دوبون ومنسي بين شعب مدهوش وقليل الثقة بيد انه غير مذعور .

وبرح فرديناند السابع ارانجويز في الغد ميمما عاصمة اسبانيا فتحول السكون المقرون بالانقباض الذي استقبل به الفرنسويون في أمس ذلك اليوم الى حماسة شديدة عند اقتراب الملك الجديد . نخف السكان برمتهم الى استقباله وقد عيل مصطبرهم لتحية الملك الذي أنقذهم من نير غودوبي الجالب عليهم العار والذل . ووافق وكلاء الدول موافقة رسمية على حوادث ارانجويز ولم يأنفوا من الاعتراف بالملك الصاعد الى العرش على سلم الفتنة . وبقي سفير فرنسا ومورات متمنعين عن الاشتراك معهم بذلك الاعتراف . على ان القائد الاكبر الفرنسوي انفذ رسولا الى كارلوس الرابع يضمن له حمايته ويعرض عليه مساعدته فلم يفكر

الملك الشيخ في مفتتح الامر الا بانقاذ نديمه وارجاعه اليه . فكان يقول : « لا ذنب له الا تعلقه بي مدة حياتي فوت صديقي التمس يجاب موتي » فارجع اليه غودوي ثم ان كارلوس الرابع أقام النكير على تنازله عن العرش المكره عليه بهياج الشعب وبسط للامبراطور ما لقيه من العنف بكتاب خطه بيده وعهد الى مورات بارساله اليه . وبادر أمير الاستوريين من جهته الى الكتابة لنابوليون أيضا وكان يخشى تدخله في الخلاف الناشيء بينه وبين أبيه والانتصار لهذا الاخير مبينا صواب عمله الذي رفعه الى العرش قبل الاجل المسمى وواضعا سلطته الحديثة النشأة تحت حماية الدولة الفرنسوية . ولما انتهى الكتابان الى نابوليون عرف ان الشخصين المتنازعين عرش اسبانيا يضمان كلاهما العرس عند قدميا لعجزها عن النهوض باعباء المملكة . الا ان أخلاق الشعب الاسبانيولي كانت تجعله يوجس خيفة وتلقيه في وهدة الشك . فكتب في ٢٩ مارس الى مورات قائلا له : « لا يدورن في خلدك انه يكفيك أن يكون عندك جنود لتخضع اسبانيا بهم عند رؤيتها اياهم ففتنة ٢٠ مارس تدل على ان للاسبانيولين سطوة وشدة بأس . . . فلابناء الارسطقراطية ولرجال الدين السيادة في اسبانيا . فان هم خافوا على امتيازاتهم وعلى كيانهم قاموا علينا قومة واحدة . . .

« وعند الاسبانيولين أكثر من مئة الف جندي تحت السلاح وهذا أكثر مما يحتاجون اليه لشهر حرب داخلية تكون عاقبتها نصرا لهم . وحيث انهم منقسمون في عدة أماكن يمكنهم أن يكونوا مثيرين لحركة عامة في جميع أنحاء المملكة . . . فانا ابسط لك مجموع المصاعب التي لا يمكن تجنبها وهنالك مصاعب أخر تشعر بها انت . ولا يخفى عليك أن بريطانيا العظمى لا تدع هذه الفرصة تفوتها فانها تبتغي تكثير العقبات في وجوهنا . . . وحيث ان العترة المالكة لم تهجر بعد اسبانيا شاخصة الى الهند للاقامة فيها فلم يبق والحالة هذه لتغيير وجه الاحوال في هذه البلاد إلا الثورة . ويترجح عندي انها البلاد الاوربية الاقل استعدادا لقبولها . . . فأنا خدمة لمصلحة سلطنتي يمكنني أن أصنع خيرا جما لاسبانيا . فما هي أفضل الوسائل التي يحسن اتخاذها لادراك هذه الغاية ؟

« أأمضي الى مدريد ؟ . . . ولكنني أرى أن إعادة كارلوس الرابع الى

العرش من المصاعب التي يعز تذليلها فالشعب نافر كل النفور من حكومته ومن نديمه بحيث أنهما لا يستطيعان أن يبقيا قابضين على أزمة الحكم ثلاثة أشهر .

« أما فرديناند فهو عدو ألد لفرنسا وهذا هو السبب الذي من أجله جعلوه ملكا فابقاؤه على العرش خدمة للاحزاب التي ترمي من خمس وعشرين سنة الى تقويض أركان فرنسا . . . وعندي انه لا ينبغي لنا أن نعجل في مجرى الحوادث وانه من الموافق أن نجعل الحوادث الآتية هادياً لنا . . . وقد أمرت سافاري بالتوجه الى الملك الجديد والوقوف على ما يقع عنده من الحوادث فهو سيفاوض سموك الامبراطوري . . . وحذار أن تدع الاسبانيوليين يسيئون الظن بالخطة التي سأنتهجها . وهذا الامر لا يصعب عليك فأنا هنا لا أدري شيئاً من ذلك . . . فقل لهم ان الامبراطور راغب في إحكام الانظمة السياسية في اسبانيا رجاء أن يجعلها مرتبطة بحالة التمدن في أوربا . . . فما أشد حاجة اسبانيا الى تجديد اداة الحكم فيها والى شرائع تعصم الوطنيين من الاستبداد واختلاس أصحاب الاقطاعات والى أنظمة تحيي موات الصناعة والزراعة والفنون. وصف لهم حالة الراحة واليسر التي تتمتع بها فرنسا مع ما هي مشتبكة فيه من الحروب واشرح لهم عن بهاء الدين العائد تعزيز مكانته الى الوثيقة التي عقدتها مع البابا . وبين لهم الفوائد المستطاع اجتناء ثمارها من الاصلاح السياسي : كالنظام والسلام في الداخل والاحترام والقوة في الخارج . فهذا الروح يجب أن يتخلل جميع أقوالك وجميع كتاباتك . . . وإياك والعجلة في مساعيك فعندي ان الانتظار في بايون وعبور جبال البرنات سيان . . . وسأفتكر في مصالحك الخاصة فلا تفتكر بها أنت . . . وقد تسرعت في الاخبار التي أعطيتها في ١٤ . . . فاذا اشتعلت الحرب أضعنا كل شيء . فحظ اسبانيا معلق بالسياسة والمفاوضات . »

وقبل ما جزم نابوليون بشيء من الاشياء أراد أن يشاهد عن كثب حالتها ويقتنع بذاته بمقتضيات ذلك الموقف وما يمكن أن يتعلق به فغادر باريس في ٢ بريل وبلغ بوردو في ٤ منه فأقام فيها ينتظر الامبراطورة جوزفين فوافته في ١٠ منه ، فسارا معاً الى بايون ودخلاها في ١٥ منه فنزلا في قصر مارك المعد لان

يشهد حادثا من أهم الحوادث السياسية في ذلك العهد ومكثا فيه عدة أشهر .

وبادر الامبراطور في غد اليوم الذي وصل فيه الى بايون الى مجاوبة أمير الاستوريين وأرجأ ابراز حكمه على تنازل كارلوس الرابع عن العرش ولم يطلق على ابنه إلا لقب السمو الملكي مبيناً له الخطر الذي يتوقعه الملوك الذين يعودون شعوبهم الانتصاف لنفسها ولافتاً نظره الى الانتحار السياسي الذي أقدم عليه والعار الذي يكلل جبينه ان هو انقاد الى عواطفه بالغض من كرامة والدته باقامته على النديم دعوى تتسلسل عنها الشكوك . وأبدى الامبراطور في ختام الكتاب رغبته بكلمتين في مشافهة الامير وكان يعتقد انه من الضروري أن يشاهد عن قرب الذين يبتغي التعمق في معرفتهم . ولو كان سفر العترة المالكة الى المكسيك قد تم لكانت المسألة قد أصبحت متناهية في البساطة ولكان الموقف أقل تعقداً ولاصبح عمل الاصلاح في اسبانيا أسهل وأيسر ولكن هذا الرحيل لم يتم ففازت الفتنة وصار في البلاد ملكان بدلا من ملك واحد وكانت الحال تقتضي الاسراع في تقرير حظهما . وكان الجزم في الأمور متعلقاً بما يجول في الوهم عن الأشخاص الذين لم يكن نابوليون يشاء ابراز الحكم عليهم إلا بعد النظر اليهم بعينه النقادة وسبر غور نهاهم بمرجاس دهائه .

فتردد أمير الاستوريين في ريق الأمر في إجابة طلب نابوليون وكان فريق مستشاريه يقول له إن المشافهة التي اقترحها الامبراطور هي ولا مراء فخ نصبه له وكان المستشارون الآخرون يزينون له وجوب المسارعة الى مفاوضة الامبراطور واستمالته اليه قبل اجتماع أبيه به فان التأثيرات الأولى المنطبعة في الذهن يصعب محوها . فانقاد فرديناند الى المشورة الاخيرة وخرج من مدريد على غير رضى الشعب الاسبانيولي منطلقاً الى حدود فرنسا وعوامل الشك والقلق تتجاذبه . ولما بلغ فتوريا صمم على انتظار الامبراطور فيها ولكن الامبراطوار لم يأت اليها . على ان الاعتبارات نفسها التي حملت ذلك الأمير الشاب على المجيء الى الالافا حدته على المضي الى بايون .

وذهب هو والدون كارلوس أخوه في ٢٠ ابريل الى قصر ماراك حيث كان نابوليون نازلا . وكان كارلوس الرابع يسير عن كثب وراء أمير الاستوريين فانه لما خاف ان ينفسح له المجال في بايون خف اليها مع الملكة والنديم للاستظلال

تحت لواء الامبراطور فأبصر حينئذ ذلك الجندي الدخيل ومنتخب الشعب وربيب الثورة الفرنسوية الكبرى اعقاب القديس لويس وورثة بيلاج وحفظة سيف السيد عند قدميه يضعون تحت تصرفه حظ المملكة القديمة الواسعة بعد ما كان امتلاكها قد جعل فيليب الثاني يقول بعجب وخيلاء : « ان الشمس لاتغيب عن أرضه . » ما أعظم الأمثولة لاوربا القديمة في هذا المشهد ! فأمام جبال البرنات التي عالج أحد ملوك البوربون على غير جدوى تمهيدها بتسوية عائلية كانت القرون المتوسطة العابث بها الفساد والملتحفة بثوب الصغارة والنازل بها العجز والضعف تنجر بشقاء بين الشفقة والاحتقار العامين لتلتمس عند رتاج قصر مارك عيشة بضع ساعات أو لتلقي فيه قبل انقضاء أجلها اسمال عظمتها الماضية وسناءها الخامد ومجدها الذابل عند قدمي الممثل الاعظم لمجد العصر الحديث وعظمته .

وكان أمير الاستوريين يرغب في التقرب من أبيه رغبة في الاتفاق معه من دون أن يكون لتدخل الوسيط المرهوب الجانب الذي اختاراه تأثير فيهما فأراد ذات يوم أن يدرك هذه الغاية فدخل وراء كارلوس الرابع الى مخدعه إلا أن هـذا الملك الشيخ قال له بحدة : « قف أيها الامير أولا يكفيك ما أهنت به شيخوختي ؟ » قال هذا ودفعه الى خارج غرفته وأرسل اليه في الغد كتاباً ضمنه تعنيفاً مراً على تصرفه ولم يكن نابوليون يجهل ما انطوى عليه ذلك الكتاب المختتم بالعبارات الآتية تلميحاً عن فتنة أرانجويز . « كل شيء يتم للشعب وليس بواسطته فمن يذهل عن هذا المبدإ يقترف جميع الجرائم المتسلسلة عن هـذا الذهول . »

وكان نابوليون قد عرف في أيام قليلة ذينك الشخصين بعد مادرس أخلاقهما وقدرها حق قدرها . فانه عرفهما حق المعرفة من أول مرة اجتمع بهما واليك ما قاله في هذا الصدد « لما شاهدتهما عند قدمي وتمكنت بذاتي من الحكم على ضعفهما أدركتني رقة على حظ ذلك الشعب العظيم فاغتنمت في الحال الفرصة الوحيدة التي أوجدها لي الجد لانهاض أسبانيا من عثارها وانتزاعها من بين مخالب بريطانيا العظمى وضمها الى طريقتنا ضما وثيقاً وكان يجول في خاطري ان بذلك الأمر وضع أساس الراحة والامن في أوربا ولكنني لم ألجأ لنيل هذا

الامر الى اتخاذ طرق دنيئة وضعيفة كما زعم بعضهم واذا كنت قد أخطأت فالامر بعكس ذلك أي إني سرت على خطة حرية الافكار الجريئة وتطرفت في اظهار الشدة . فلم أنصب فخاً في بايون ولكن وقع فيها حادث سياسي عظيم يخلب الألباب . . . فقد كنت أترفع عن انتهاج الطرق المعوجة العادية وكنت أراني نازلا في مكانة عالية تجعلني ذا جرأة في العمل . وقد أردت أن أقتدي بالعناية في عملها فهي تعالج مصائب البشر بذرائع تراها ملائمة لمشيئتها وتكون في غالب الأحيان عنيفة من دون ان تعبأ بما يبرزه البشر عليها من الاحكام .

وقد أبرز نابوليون الحكم على ذاته بطريقة عجيبة في الكلمات الأخيرة المار ذكرها فوصف بحرية سامية وحقيقة تامة ما كان ينويه لاسبانيا فان ما كان يتعمده عمل سياسي عظيم يخلب الالباب .

وقد اقتدى بالعناية التي كثيرا ماتنزل ضرباتها بالألى تميل الى خلاصهم من دون أن تعبأ بما يبرزه البشر عليها من الاحكام . وهل يمكنه أن يفعل شيئاغير الاقتداء بها فما هو سوى الرجل الذي تخيرته للقيام بعمل الاصلاح العظيم في اسبانيا وكان خاضعا لتأثير الالهام الاعلى وفوق مايهيئه الناس العاديون من التدابير ولذلك اندفع الى هذا المشروع مع ما كان يحف به من المصاعب التي كان يراها بعين بصيرته وقد ذكرها في كتاب أرسله الى مورات ورأى فيها خاتمة السناء الذي كان يجعله يفترض ان غاية مبادئه الادبية في أوربا لاتبارى كما كان هو يعبر عن ذلك : فهل كانت نهاية قدرته مرتبطة بنهاية أسرته ؟ ولكن ماذا يهم العناية وماذا يهم الانسانية ختام جميع هذه الاشياء اذا كانت غاية العناية قد تمت واذا كان العقل البشري يحفظ سيادته ويوسعها كلما فقد أحد الملوك سيادته ؟

أجل ان نابوليون كان يستطيع أن يقول يوما ما : « ان حرب اسبانيا كانت سببا لهلاكه وأن جميع الظروف المرافقة لنكباته تقترن بهذه العقدة المشؤومة . » ولكن تداعي صرح حظه العجيب وحبوط الآمال التي كان يبنيها على بقاء عترته ستتقدمهما حرب تدوم ست سنوات يلتقي في اثنائها في أرض اسبانيا الشعبان المتفوقان في الحضارة في جميع أوربا وهما الفرنسويون والبريطانيون فيحمل اليها الاولون الاخلاق الديمقراطية



معركة فريدلند (١٤ يونيو سنة ١٨٠٧)



والاخيرون الافكار الدستورية السائدة في بلادهم . وأنه وان تكن نتيجة هذه الحرب وبيلة على الجيوش الفرنسوية فتكون الفلسفة الحديثة قد مكثت مدة طويلة في الديار الاسبانيولية مستميلة القوم اليها ومزاحمة ديوان التفتيش باستظلالها في مضارب حلفاء اسبانيا كاستظلالها في كنف غزاتها : فافكار لوك وبنتام رافقت ولنتن الى ساحة القتال حين كانت مبادئ كنديلياك ومنتسكيو تطوف ضفاف الايبر ومنسانارس والتاج سائرة وراء نابوليون . وحين تضطر الجيوش الامبراطورية الى التقهقر قاطعة جبال البرنات وتاركة البلاد التي فتحتها تجد طريقة الحكم القديمة أيان مرت في أثناء عودتها جراثيم المبادئ الحرة والبغض لديوان التفتيش وللملكية والحب للحرية . وتكون حينئذ تلك الطريقة عنيفة بمقدار ما كانت ذليلة فتغمس يديها بدم أشهر منقذيها لكونهم نظروا نظرة جدية الى الدستور الضامن استقلالهم . الا أن كل ما أبدوه من الهمجية في نكرانهم الجميل لم يتمكن من الاستعباد بل أكثر من الشهداء. وليس من العبث أن يكون في قادس المضاهية للندرة منبر عام وطني للخطابة يدوم ست سنوات وأن تصبح مدريد وعبلونة وبرشلونة مدناً فرنسوية وأن تقتدي لاسي ببورليه وامباسينادو بعينا ثم يأتي كيروغا ورياغو واذا كان الحكم المطلق قد لقي في هذه المرة سنداً في فرنسا فسيكون لهذه المحالفة غير المنتظرة ماسيكون من النتائج للمحالفة البريطانية وان ما بدأ به رجال نابوليون الذين شابت نواصيهم في ميادين القتال انجزه رجال لويس الثامن عشر الفتيان فهؤلاء يثابرون بمجاهرتهم بعما كسة دستور قادس على جر الشعب الاسبانيولي بمخالطته اياهم الى اقتباس العادات والآراء الدستورية بحيث أن مثير نقع الفتنة في ارانجويز بعد ما كافأ بالسجن أو بالنطع الاحرار الاسبانيوليين الذين تمكنوا ببسالتهم من استعادة العرش الذي هجره هو نفسه بذل لقي ذاته مضطراً وهو على سرير الموت الى وضع صولجان كستيليا وهو ميراث أولاده تحت حماية روح الاصلاح الذي اضطهد أنصاره الكرام اضطهاداً شديداً. واذا لم يكن قد بقي شيء من سلطة نابوليون الشخصية والمستقبل الذي أعده لعترته فلا بأس من ذلك فان هذا الأمر لا يحول دون رفع اعلام المدنية في اسبانيا وسينشأ شعب اسبانيولي جديد في وسط الشدائد الحالة بالاجيال المعاصرة وقد تبقى مدة طويلة وهذه كانت الغاية التي رمى اليها نابوليون . وقد

ذكر ذلك الامر باسهاب ووضوح في كتابه للفرندوق دي برغ وكرره في جزيرة القديسة هيلانة قائلا : « في المعضلة العابثة بفرنسا وفي عراك الأفكار الجديدة وفي الدعوى العظيمة التي أقامها العصر على أوربا جمعاء لم يكن يسعنا ان ندع اسبانيا متقهقرة »

وسيؤول كل شيء الى تصيير مقاصد نابوليون أسرع وأثبت . فحدث هياج في مدريد على أنه وإن يكن قد سكن ذلك الهياج . باجراء غدران من الدم فانه ترك عاصمة اسبانيا في حالة اضطراب مالبث شيئاً فشيئاً ان بلغ المقاطعات . فلم يبق من وجه للتردد فبدا عجز البوربون عن تولي شؤون الشعب الاسبانيولي بغير رضى أصحاب الفتنة المعادين للتفوق الفرنسوي وتنازل كارلوس الرابع عن الملك لنابوليون في ٥ مايو ووافق على هذا التنازل أمير الاستوريين والأمراء دون كارلوس ودون انطونيو ودون فرنسيسكو بعد خمسة ايام وتخلوا عن كل حق لهم بعرش اسبانيا واعتزل الملك الشيخ والملكة في كمبيانيه ومعهما غودوي الملازم لهما ملازمة ظلها . وذهب الامراء الى فالنساي للاقامة فيها .

وكان لترك كارلوس الرابع وأولاده تاج الملك استياء شديد عند الامة الاسبانيولية فعمت الفتنة جميع البلاد وتألفت في كل ناحية مجالس لتنظيم الدفاع عن الوطن من غزوات الاجنبي . وكان مركز المجلس الرئيسي في اشبيلية . وتصرف الاسبانيوليون جميعهم كما يقول نابوليون تصرف انسان تهب نسمات لمروءة في صدره .

وكان ذلك الموقف الخطير محققا لظنون الامبراطور ولكنه لما كان قد خطا في تلك السبيل لم يكن مستطاعاً له الاحجام وفضلا عن ذلك كان دائم الاتكال على تفوق حظه وقوة جيوشه . فعين من جهته مجلساً أصار اليه تولي الحكم في اسبانيا وأقام ختنه مورات رئيسا عليه . ولم يكد يستتب الأمر لهذا المجلس حتى قرر طلب يوسف نابوليون شقيق الامبراطور وملك نابولي ملكا على اسبانيا .

وشرع نابوليون يذيع على الاسبانيوليين حوادث بايون بنشرة ضمنها ماكان يسعى لعمله في سبيل مصلحتهم لما قبل تنازل الملك وابنائه عن حقوقهم بالعرش في ٥ مايو . وهذا بعض ماجاء في تلك النشرة :

« ان أمتكم كادت تهلك بعد نزاع طويل فقد أبصرت مصائبكم وصرت ميالا الى معالجتها . . . وقد شاخت مملكتكم ووكل الي تجديد شبابها فسأحسن جميع أنظمتكم وأجعلكم تتمتعون ان أنتم عضدتموني بخيرات اصلاح لا تخالطه معارضة ولا اضطراب ولا ارتعاش .

« أيها الاسبانيوليون عقدت مجلساً عاماً من وفود الولايات والمدن وأبتغي أن أتحقق بذاتي رغائبكم وحاجاتكم .

« فأنا أطرح جميع حقوقي واضع تاجكم المجيد على رأس شخص آخر يماثلني ضامناً لكم دستوراً يوفق بين سلطة الملك المقدسة الملائمة لكم وحرية الشعب وامتيازاته .

« فكونوا شديدي الامل وثابتي الثقة بالأحوال الحاضرة لجل أمنيتي أن يحفظ أحفادكم ذكري ويقولوا : هذا مجدد شباب وطننا . »

وأذيعت هذه النشرة في بايون في ٢٥ مايو وصدر مرسوم امبراطوري عن تلك المدينة في ٦ يونيو يدعو يوسف نابوليون الى الجلوس على عرش البلاد الاسبانيولية وبلاد الهند . ولم يلبث الملك الجديد أن جاء وقضى مدة من الزمان عند الامبراطور قبل توجهه الى مدريد واستقبل في بايون الوفود المنتدبين مورات لتوجيهها اليه من جميع الولايات الخاضعة للفرنسويين والتأم المجلس العام الذي استدعاه نابوليون اليه في هذه المدينة في ٧ يوليو وبسط للمجلس دستور بنيت قواعده على دستور السنة الثامنة فبادر الى تقرير وضعه موضع الاجراء .

ولم يكن هذا المجلس سوى تمثيل وهمي للشعب الاسبانيولي وقد علق عليه القواد الفرنسويون أهمية عظمى وظنوه كافياً لاخضاع اسبانيا أو على الأقل لتصيير الهيجان العام الطارىء في جميع أنحاء شبه الجزيرة تمرداً بسيطاً يسهل قمعه . وكان ضلال الافكار من هذه الجهة شؤماً على قائد من اولئك القواد .. فان الجنرال دوبون الذي امتاز في معركة فردلاند انفصل عن الفيالق الفرنسوية وزحف الى اندوجار متوغلا في الاندلس المتسعة فيها دائرة الفتنة اتساعاً هائلا . وكان لهذه الحركة المبنية على الطيش عواقب وخيمة . ولم يكد بسيار ينتصر في معركة ريوسيكو ومنسي يستولي على بلنسية حتى اندحر الفرنسويون

في بايلن واستسلموا لاعدائهم فكسفوا بذلك العمل بهاء شمس الراية الفرنسوية وعلمت أوربا أن جيوش نابوليون ممكن قهرها . وأحاط كستانوس بدوبون فألقى هذا سلاحه مستسلماً ومعه فيلقه المؤلف من ١٨ ألفاً الى ٢٠ ألف مقاتل فأخذهم الاسبانيوليون أسرى حرب . واستفحلت الفتنة في جميع ولايات المملكة الاسبانيولية على اثر استفاضة هذا الخبر . ورأى الملك يوسف أن الحكمة تقضي باصدار الاوامر الى الجيش الفرنسوي بالانسحاب الى ماوراء الايبر .

وفصل نابوليون عن بايون في ٢٢ يوليو فانتهت اليه وهو في بوردو أنباء انكسار دوبون واستسلامه فاستشاط غضبا وقال لاحد وزرائه : « ان انكسار الجيش لايعتبر شيئا مذكوراً عندي فالحرب تكون يوماً على الانسان ويوماً له ويمكن التعويض عن الانكسار ولكن استسلام الجيش استسلاماً تصحبه الخسيفة والصغارة يعد وصمة تلصق بالاسم الفرنسوي وبفخر جنديته . فجرح الشرف لايندمل أبداً وتأثيره الادبي هائل . فكيف يمكن والحالة هذه أن يبلغ الانحطاط بالفرنسوي الى خلع ثوبه الرسمي الفرنسوي واستبدال ثوب رسمي من ثياب العدو به ! وكيف أطاقوا الذل بترك العدو يفتش حقائبهم كأنهم لصوص ! أومثل هذا كنت أنتظره من الجنرال دوبون بعد ماعنيت بأمره ورقيته في درجات المناصب العسكرية وكنت أنوي أن أجعله مارشالا ! . . أو يزعمون أنهم لم يكن أمامهم من وسيلة أخرى لانقاذ الجيش وتخليص الجنود من طائلة الردى ؟ فلقد كان الاشبه بهم أن يهلكوا على بكرة أبيهم وسلاحهم بأيديهم وألا يكون قد عاد أحد منهم سالما . فموتهم على مثل هذه الحالة يجر اليهم المجد ويدعونا الى الانتقام لهم . ولا يخفى ان الجنود يمكن وجدان غيرهم ولكن الشرف لاسبيل الى الاستعاضة عنه . »

وأسلم الجنرال دوبون الى المجلس الامبراطوري الاعلى فكتب نابوليون بذاته في المونيطور بتاريخ ١٠ أوغسطوس السطور الآتية :

« في التاريخ امثلة قليلة لهذا العمل المخالف لجميع مبادىء الحرب فبعد مابدا ضعف الجنرال دوبون في قيادة جيشه اظهر في المفاوضات قليلا من الشجاعة الادبية والحنكة . فهو كسابينوس طيطوريوس جره روح الخفة الى حتفه وقد انخدع بمخادعة واغواء من كانوا على امثال امبيوريكس إلا ان الجنود الرومانيين

كانوا اسعد حظا فقد ماتوا والسلاح بايديهم . »

واذا كان العار الناجم عن استسلام بايلن لا يمحى فالخسارة المادية المسببة عن هذه النكبة لم يكن يسهل التعويض عنها . وبعدما حقر نابوليون هذا القائد صرف همامة النفس الى احياء آمال الجندي الفرنسوي وانهاض همته في اسبانيا فامر بتجنيد فيالق وارسال نجدات ولكي يظهر ثقته بنتيجة الحرب الفاصلة ويبين ان قصده بتوثيق عرى الاتحاد بين الامة الاسبانيولية والسلطة الفرنسوية لم يكن شيء من الاشياء يزعزعه امر بمرسوم امبراطوري رقم ١٣ اوغسطوس يقضي بفتح طريق سلطانية بين مدريد وباريس .

الفصل الثالث عشر

عودة الامبراطور الى سان كلود ـ مفاوضات سياسية ـ ارسال الجنود الى اسبانيا ـ مفاوضة ارفورت ـ العودة الى باريس ـ زيارة المتحف ـ انعقاد المجلس الاشتراعي ـ رحلة الامبراطور الى بايون ـ غزوة جديدة لاسبانيا ـ الاستيلاء على مدريد ـ الغاء ديوان التفتيش ـ دلائل العداوة مع النمسا — مغادرة نابوليون الفجائية لجيش اسبانيا ـ العودة الى باريس والانطلاق الى المانيا

وعاد الامبراطور الى سان كلود في يوم عيده فاستقبل استقبالا رسميا الكنت دي تلستوي سفير روسيا فقدم له هذا الهدايا الثمينة المرسلة معه من القيصر الاسكندر فامر نابوليون بها ان تعرض للانظار في قصر التويلري .

وكان من وكد الامبراطور ان يمحو آثار الاختلافات الداخلية في فرنسا ليسهل عليه تحقيق مبدإ الاتحاد الذي كان يحلم به . فاصدر الاوامر بتشييد منشئات عامة كثيرة مختلفة الانواع في الولايات التي كانت ميدانا للحرب الاهلية .

وانتهت الى باريس في خلال ذلك الحين انباء معركة فيميرو الناشبة بين

اللورد ولنتن وجونو وفيها ان الفرنسويين انكسروا انكساراً تاماً واضطروا الى التسليم واذعنوا الى الخروج من البرتوغال والعودة الى فرنسا على متون السفن البريطانية . على ان هذا الفشل الثاني الذي اصابه الفرنسويون في ما وراء جبال البرنات مع ما يصحبه من التحقير لشرف الاسم الفرنسوي لم يكن من شأنه ان يجعل عزائم نابوليون ترتخي لانه كان قد قرر افكاره على ماينبغي له ان يفعله في شبه الجزيرة الايبيرية وقال في هذا الشأن برسالة وجهها الى مجلس الشيوخ بتاريخ ٤ سبتمبر ما يأتي : « اني مصمم على البلوغ الى النهاية في الحوادث الاسبانيولية بهمة ما وراءها من مزيد وعلى إبادة الجيوش التي انزلتها بريطانيا العظمى في تلك البلاد.. ولي ملء الثقة بان رعيتي لا تتردد طرفة عين في تقديم ما احتاجه في هذه الحرب فتتوفر عليهم ضحايا أخر اعظم . » ويلحق هذه الرسالة تقرير من اوضاع الوزير شامباني عن حوادث اسبانيا وألمت الرسالة المومأ اليها الى اسف الامبراطور على فقد السلطان سليم الثالث حليفه وقد كان يدعوه افضل سلطان من السلاطين العثمانيين فان اولاد اخي هذا السلطان ثاروا عليه وفتكوا به . وكان نابوليون يعلل نفسه بالاستعاضة عن هذه الفاجعة بتوثيق عرى المحالفة مع القيصر الاسكندر . وهذا ما قاله في هذا الصدد :

« ان تلك المحالفة لم تكن تترك لبريطانيا العظمي ادنى امل بقضاء لبانتها من تكديرها حياض السلم في القارة . » وأجاب مجلس الشيوخ على رسالة الامبراطور اليه بتقريره تجنيد ثمانين الف محارب وخاطبه بلسان لاسيبيد رئيسه بما يلي:

« يا مولاي ان ارادة الشعب الفرنسوي هي ارادة جلالتك عينها لحرب اسبانيا سياسية وهي عادلة وضرورية . »

وهناك حالة لا يحسن السكوت عنها وهي ان ذلك الخطيب جاهر في كلامه بأن مجلس الشيوخ وافق بالصوت الحي على تلبية رغائب الامبراطور . إلا أنهم كانوا يشعرون يوماً بعد يوم بالحاجة الى ارسال مدد جديد الى اسبانيا وكان أصحاب الهيجان سائدين ومنتصرين في العاصمة وفي أهم ولايات تلك البلاد وعليه لم تكن النجدات المقرر ارسالها حديثاً تكفي لاستمالة النصر الى الاعلام الفرنسوية فوجه الامبراطور حينئذ نظره الى كتائبه القديمة التي تعودت خوض غمار الحرب والظفر بالاعداء في استرلتز وايانا وفردلاند وعرضت الجنود أمامه

في ١١ سبتمبر في التويلري فأعلن لجنود الجيش العظيم انه سيزحف عن قريب بهم الى اسبانيا حيث كان الشعب العظيم قد أهين إهانة تقتضي انتقاماً وهذا ما خاطبهم به :

« أيها الجنود انكم بعد ما جررتم أذيال النصر على ضفاف الدانوب والفستول عدتم فعبرتم ألمانيا على جناح السرعة والآن أجعلكم تجتازون فرنسا من دون أن أمنحكم دقيقة واحدة تأخذون بها قسطكم من الراحة .

« أيها الجنود أنا محتاج اليكم فوجود الفهد القبيح في اسبانيا والبرتوغال ينجس تربتهما . فليفر هارباً مذعوراً عند رؤيته إياكم : وهلم بنا نبلغ برايتنا المظفرة أعمدة هرقل ! وهناك أيضاً يكون أمامنا مجال فسيح للاثئار من الاهانات التي أرادوا أن يجرعونا كؤوسها .

« أيها الجنود لقد فقتم بشهرتكم الجيوش الحديثة ولكن مجدكم ضاهى مجد جيوش رومية التي أصابت الانتصار في وقت واحد على ضفاف الرين والفرات وايليريا والتاج .

« وستنالون جزاء على أعمالكم سلاماً طويل الأجل ويسراً مقيما وعندي ان الفرنسوي الحقيقي لا يمكنه ولا ينبغي له ان يذوق طعم الراحة قبلما تفتح البحار في وجهه وتصبح حرة .

« أيها الجنود ان كل مافعلتموه وكل ما تفعلونه في سبيل سعادة الشعب الفرنسوي ومجدي سيدخر في قلبي الى ما شاء الله . »

وزاد هذا الكلام الحماسة في جنود جيش الشمال فقد كانوا يتشوقون بعد حروب كثيرة أصلوا حلفاء بريطانيا العظمى نارها الحامية وبعد انتصارات باهرة نالوها ان يلتقوا وجهاً لوجه بجنود الدولة الممدودة سيدة البحار والمصورة لهم دائماً بأنها وحدها عدوة القارة الابدية .

وانطلق الفيلق الاول المؤلف من الكتائب الهائلة بقيادة المارشال فكتور في ٢٣ سبتمبر فاستقبله على الحدود حاكم ولاية السين وهيئة المجلس البلدي في اثناء مروره بالعاصمة . الا ان نابوليون قبل ان يسير في مقدمة الجنود الموجهين الى اسبانيا اراد ان يتحقق صحة وثيقة الصلح المنعقدة في تلست بتوثيقه في اجتماع يعقده مع القيصر عرى الصداقة المتينة بينهما . ولم يكن يرى ندحة عن الاجتماع بذلك العاهل المعتبر بعده اقوى سلطان فى القارة ومفاوضته في جميع المسائل الحالية

المتعلقة بالسياسة الاوربية ولا سيما بمسائل اسبانيا . فاختيرت ارفورت محلا للاجتماع وانتهى اليها العاهلان في اوائل شهر اكتوبر : وجاءها ايضا الملوك والامراء المنتظمون في سلك المحالفة الرينية كأنهم يبتغون بذلك الامر ان يؤلفوا حول محاميهم الاكبر حاشية من العظماء اصحاب التيجان . ولكي يوجد نابوليون جميع اسباب اللهو والسرور لصديقه عاهل الروس في ابان اقامته في ارفورت أمر بأن يصحبه اليها رجال الملعب الفرنسوي وأظهر الاسكندر في خلال تمثيل احدى الروايات ارتياحه الى بيت من الشعر جاء في سياقة الرواية وهذا تعريبه :

فصداقة الرجل المعظم نعمة   من فضل آلهة السماء على البشر

ودامت الاحتفالات ثمانية أيام ولم تنس فيها السياسة فكانت المفاوضات الخاصة تتلو الولائم والتمثيل . وأبدى قيصر الروس رغبته في جر بريطانيا العظمى الى عقد الصلح مع فرنسا ووقع مع نابوليون على كتاب يتضمن الالحاح لادراك هذه الغاية ولكن المستقبل دل على مبلغ صدقه في عمله هذا . ثم انه وافق على حرب أسبانيا لاعتقاده أنها تلهي الفرنسويين عن دول الشمال وتكون سبباً لضعف البلادين اللتين كانت روسيا تخاف من معاداتهما أعني بهما فرنسا وبريطانيا العظمى

وافترق العاهلان في ١٤ اكتوبر وكل منهما راض كل الرضى من الآخر . وكان نابوليون معتقداً أن الاسكندر صديقه الحميم ولم يفتكر قط بانه سيأتي يوم وهو غير بعيد يقول فيه عنه « أنه أغريقي من أغارقة السلطنة السفلى »

وعاد الامبراطور الى سان كلود في ١٨ اكتوبر وذهب مع الامبراطورة بعد أربعة أيام لزيارة المتحف وحادث مدة طويلة الصناع والمتفننين الذين وفدوا لتقديم اتاوة احترامهم لذلك الرجل العظيم الناشر لواء حمايته على الفنون

واحتفلوا بافتتاح المجلس الاشتراعي في ٢٥ منه ولما كان الامبراطور معتقدا أنه آمن من جهة روسيا تكلم بثقة عن مقاصده وآماله فيما يتعلق باسبانيا فقال « انها نعمة خاصة من العناية التي لم تفتر عن حفظ جيوشنا فقد أعمت الاهواء بصائر المجالس البريطانية وجعلت تلك الامة تعرض عن حماية البحار وترسل جيوشها الى القارة . فسأنطلق بعد أيام قليلة في مقدمة جيشي وسأتوج بمعونته تعالى ملك اسبانيا في مدريد وسأرفع أعلامي فوق حصون ليشبونة . فقد



اجتماع الملوك الثلاثة ملك بروسيا وقيصر روسيا ونابوليون على النيمن فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٠٧



اجتمعت بقيصر الروس في أرفورت واتفقنا على أن نكون يداً واحدة في السلم والحرب . »

وغادر الامبراطور باريس في ٢٩ اكتوبر فوصل الى قصر ماراك في ٣ نوفمبر وجعل مقر أركان حربه في فتوريا في ٥ منه وفي برغوس في ٩ منه بعد انتصار المارشال سولت على جيش الاستريمادور . وظفر المارشال فكتور في اليوم عينه بجيش غاليس في اسبينوزا دي لوس منتيروس

وكانت خطة نابوليون فصل ذينك الجيشين الواحد منهما عن الآخر ليتسنى له تمزيق كل منهما على حدة : فوجه فكتور لمقاتلة بلاك وناي ومنسي لمحاربة كستانوس قائد جيش الاندلس وبقي هو وسولت في الوسط وعهد الى بسيار بقيادة جيش احتياطي من الفرسان . وقد نجح كل النجاح بتوزيع قواه على مأمر بيانه فتضعضعت أركان جيش الاستريمادور وتبدد جيش غاليس . ولما أراد الفارون من معركة اسبينوزا لم شعثهم في رينوزا اضطرهم دنو المارشال سولت منهم الى ترك مؤونتهم وذخائرهم والتوغل بلا انتظام في جبال لاون . وكانت ميمنة الجيش الفرنسوي قد تملصت كل التملص من اعدائها ولكن بقي على ميسرتها بالافوكس القائد في الاراغون وكستانوس المنتصر في بايلن . وبينما سولت يطوف في ولاية سانطاندر ويعيث فيها فساداً أوعز الامبراطور الى المارشال لان أن يتعقب جيشي الاراغون والاندلس وفصل المارشال ناي ووجهه الى سريا وطارازون ليتوسط بين كستانوس ومدريد ويقطع على هذا القائد طريق العاصمة اذا ما انحدر ويدفعه الى بلنسية

واضطرت حركات لان القادة الاسبانيول الى الانسحاب بين طوديلا وكسكنت وهناك استندوا الى الايبر ولم يكن عندهم أقل من خمسة وأربعين الف مقاتل فظنوا أنهم يقدرون على مباشرة القتال ولكنهم اغتروا بالاعتداد بموقفهم وعدد جنودهم وشجاعتهم . فكسرهم الجنرال لان وفرقهم شذر مذر وأخذ بالثأر من كستانوس ذاته منتقماً للشرف الفرنسوي المثلم حده في بايلن . وخسر الاسبانيول في معركة طوديلا سبعة آلاف رجل وثلاثين مدفعاً وسبع رايات . وتقهقر بالافوكس الى سرغوسه وكستانوس الى بلنسية . ولما رقيت تلك الانباء الى نابوليون عقد عروة عزمه على الزحف تواً الى مدريد مخلياً سولت الى الميمنة

لمراقبة حركات الولايات الغربية ولان الى الميسرة للاجهاز على من بقوا من جيش الاراغون وظل ناي مراقباً جيش الاندلس

الا أن الوطنية الاسبانيولية لم يفل حدها فتألف فى الاستريمادور جيش جديد قوامه عشرون ألف مقاتل وأسرع مبتغيا قطع الطريق على الامبراطور وسد مضيق صومو سيار فى وجهه . وفي واقع الحال تمكنت بطاريات هـذا الجيش المنصوبة عند مدخل هذا المضيق الضيق من توقيف الكتائب الفرنسوية الاولى حينا من الزمان وقد اقتضى الامر حضور نابوليون ذاته وحملات فرسان الحرس التي لا تقاوم للتغلب على الاسبانيول الاشداء ولكن لما بدت طلعة الامبراطور وأعطيت علامة الهجوم شن فرسان البولونيين الغارة وبأسرع من لمح البصر تمهدت في وجوههم جميع العقبات فر الجيش الفرنسوي على اشلاء الاعداء وبطش بالمدفعيين على مدافعهم ووصل الى أبواب مدريد من د ن أن يلقى من الجيش الاسبانيولي أدنى مقاومة بعد ما كان ذلك الجيش يبتغي صد الفرنسويين عن عبور مضيق صومو سيارا . ووقع هذا الحادث الحربي الخطير في ٢٩ نوفمبر بعد معركة طوديلا بسبعة أيام . وجعل الامبراطور مركز أركان حربه في سان أوغسطينو بجوار العاصمة في أول دسمبر وقد سلمت في ٤ منه في غد اليوم الذي فتح فيه المارشال ليفيفر سيغوفيا

وكانت مدريد في فاتحة الامر تنوي الدفاع فكان فيها أربعون ألفاً من الفلاحين المسلحين وثمانية آلاف جندي نظامي ما عدا العساكر غير المنظمة ومعهم مئة مدفع . وأقيمت المتاريس بسرعة : وكان كل شيء يدل على تصميم العاصمة على المقاومة مقاومة عنيفة بحيث ان الاخطارين اللذين أنفذهما اليها الامبراطور داعياً اياها بهما الى التسليم قوبلا بالاحتقار والحنق . فحينئذ ابتدأ الفرنسويون باطلاق المدافع على قصر بوين ريتيرو المشرف على المدينة وحالما سقط هذا الموقع الحصين بعد هجوم المارشال فكتور عليه هددوا المدينة بالتدمير المعجل فلقي التهديد صدى في جميع انحاء المدينة فخرج الجيش الاسبانيولي من مدريد وتقطع نظام الجنود غير المنظمة ووقعت الحكومة على شروط التسليم وأعلن نابوليون هذا الفتح بعمل عظيم منعه تهيج الشعب الاسبانيولي عن التنويه

به كما كان يفعل في غير هذه الحال . ففي اليوم الذي تم فيه التسليم ألغي ديوان التفتيش ونقص كثيراً عدد الديورة ثم أن نابوليون وجه الى الاسبانيوليين النشرة الآتية :

« لقد ضللكم أشخاص غدارون وورطوكم في حرب مقرونة بالحماقة . . . ولم تمض عليكم أشهر قليلة حتى عبثت بكم أيدي أصحاب الاحزاب . ولم يكن انهزام جيوشكم الا نتيجة سير جنودنا سيراً بسيطاً فقد دخلت مدريد وان حقوق الحرب تخولني أن أمثل تمثيلا عظيما راحضاً بالدم الاهانات الموجهة الي والى أمتي ولكنني لم أصغ الا الى صوت الشفقة . . . لقد قلت لكم في النشرة التي أذعتها عليكم في ٢ يونيو اني ابتغي أن أكون محيي مجدكم وأنتم أردتم أن أضيف حقوق الفتح الى الحقوق التي تنازل لي عنها أمراء عترتكم المالكة الاخيرة ولكن ذلك لايغير شيئا مما صحت عليه عزيمتي . ويسرني أيضا أن أثني على ما بذلتموه من مكارم الاخلاق وأن أعلن على رؤوس الاشهاد أنهم كتموا عي مصالحكم الحقيقية . . . ايها الاسبانيوليون ان حظكم في قبضة ايديكم فانبذوا السم الزعاف الذي حاول البريطانيون ان ينفثوه بينكم فقد نقضت كل ما يعاكس راحتكم وعظمتكم وقد حطمت القيود المثقلة بها شعوبكم وسيمنحكم الدستور الحر ملكية مقيدة بدلا من الملكية المطلقة وبكم وحدكم تتعلق صيرورة هذا الدستور قانوناً لكم .

« ولكن اذا ذهب سدى ما ابذله من الجهد واذا لم تلق ثقتي صدى في أودية قلوبكم فلا يبقى لي أن أعاملكم الا معاملة البلدان المفتتحة وأن أجلس أخي على عرش غير عرشكم فاضع حينئذ تاج اسبانيا على رأسي وأعلم كيف أذود عن حياضه من الاشرار فالله منحني القوة والارادة اللازمتين لتذليل جميع المصاعب . »

وأعار الاسبانيوليون آذانا صماء لهذا الكلام فلم يؤثر بهم وعد الامبراطور ولا وعيده الا أن كلمة دستوركم لم تلفظ سدى فان احلاف الاستقلال الكستيلياني تمسكوا بها وألفى زعماء الفتنة ذواتهم منقادين بدواعي الاحوال الى منح اسبانيا دستورا عليه مسحة الديمقراطية أكثر مما كان على الدستور الممنوح في بايون:

وقدم وفد من مدينة مدريد يرأسه حاكم تلك المدينة فالقوا عند قدمي

الفاتح عواطف الشعب التي لم تكن صادرة عن القلوب بل كان احتلال المدينة العسكري قد ألجأهم الى المجاهرة بها . فخاطبهم الامبراطور بما يلي :

« يحزنني ما أصاب مدريد من النكبات ولكن يسرني من جهة أخرى أن أتمكن من تخليصي إياها ودفعي عنها شدائد أعظم .

«وقد بادرت الى اتخاذ تدابير من شأنها تسكين خواطر جميع طبقات الشعب لعلمي ما للتردد من ثقل الوطأة على جميع الشعوب وعلى جميع الناس .

« وقد حافظت على جميع الرهبنات مع حصر عدد الرهبان وليس من انسان فيه ذرة من العقل الا ويرى أن عددهم كثير . ومن نوافل خيرات الاديار سددت حاجات الخوارنة وهم طبقة تفوق منفعتها منفعة سواها من رجال الدين وقد ألغيت الديوان الذي كان العصر وأوربا يطلبان الغاءه . أجل ان من واجبات الكهنة ارشاد الضمائر ولكنهم لاينبغي لهم أن يزاولوا أدنى سلطة على الشعب سواء كانت خارجية أو بدنية

«وقد ألغيت أيضاً حقوق أصحاب الاقطاعات فصار كل انسان يستطيع أن يبني مطاعم وأفرانا ومطاحن وأماكن للصيد وأن يتصرف بصناعته على هواه . . . فالانانية والغنى واليسر المحصورة بعدد قليل من الناس كانت تضر زراعتكم أكثر مما كانت تضرها ريح السموم

« وحيث أنه ليس سوى اله واحد فيجب ألا يكون سوى عدالة واحدة: فجميع أنواع العدالة الافرادية مختلسة ومناقضة لحقوق الامم ولذلك اتلفتها .

« وقد جعلت كلا من الناس يعلم ما يجب عليه أن يوجس منه خيفة وما يمكنه أن يأمله . . .

وليس من مانع يقوى على ارجاء اجراء ارادتي وقتاً طويلا . . فالبوربون اصبحوا عاجزين عن تولي الملك في أوربا . .

« ان آراء هذا الجيل يمكنها ان تتضارب وتتباين من جراء ماينتجاذبها من الاميال الكثيرة ولكن أحفادكم سيباركونني كمجدد لشباب وطنكم وسيعدون من جملة الايام المشهورة الايام التي قضيتها بين ظهرانيكم . »

وفي أثناء اقامة نابوليون القصيرة المدة في عاصمة اسبانيا عني بتفتيش انتظام جنوده والمحافظة على الحالة الروحية بينهم فعرض في برادو فيلق المارشال

ليفيفر في ٩ دسمبر وكتائب الحالقة الرينية في ١٠ منه والفرسان في ١١ منه وكان بينهم الرماحة البولونيون . واستلم كولونل هؤلاء الاخيرين من يد الامبراطور في هذا العرض نشان جوقة الشرف من درجة كوماندور .

وأرسل نابوليون من مدريد الى المونيطور رسالة كذب بها جوابا وجهته الامبراطورة الى وفد من المجلس الاشتراعي وقالت فيه ان هـذا المجلس الحق بأن يكون في مقدمة جميع المأمورين السياسيين وانه هو الممثل للأمة .

فأعلن الامبراطور في الجريدة الرسمية « بأن الامبراطور هو ممثـل الامة الاول » .

وكان ذلك الزعم مدعاة للقيل والقال بيد انه كان موافقاً للنظام الشرعي في ذلك العصر ومبنياً قبل كل شيء على مجرى الحوادث وما يصحبها من القوة .

فالشعب الذي دعا نابوليون الى الجلوس على العرش وأيد دعوته بالاقتراع القانوني كان يرى أن ذلك الشخص هو ممثله الحقيقي وليس المجلس الذي لم يكن له يد في تسميته .

وعلاوة على ذلك هل كان المجلس الاشتراعي قادراً على إدارة شؤون فرنسا والقيام بمقتضيات موقفها في الاحوال التي صارت اليها أوربا كما كان نابوليون قادراً على ذلك لا جرم ان هـذا الامر يستحيل حدوثه فان ممثلها الحقيقي كان ذلك القابض بيـديه الجيـدتين القويتين على الحظ الحاضر والمستقبل لأمته وليس ذلك المجلس الخالي من الفائدة الصادر عن السلطة الامبراطورية بالطريقة التي تجري فيهـا الانتخابات فلم يكن يحسن عمل ما تعمله ذراع الحاكم المطلق القوية وما يفعله دهاء ذلك الرجل العظيم .

وبينا الامبراطور يهتم وهو في مدريد بتنظيم شؤون اسبانيا من دون أن يمنعـه شيء عن مراقبة أقوال وأعمال ممثليه في باريس كانت الحركات الحربية جارية في مجراها في الولايات الاسبانيوليـة حيث كانت نيران الفتنة المطبونة تحت الرماد تشب فيها من حين الى آخر .

وترك البريطانيون بلاد البرتوغال مسرعين لنجدة عاصمة المملـكة لاسبانيولية الا أن الجنرال مور لما قنط من الوصول الى غايته في الاجـل

الملائم غير في الحال خطته الحربية وأزمع الزحف الى فالادوليد رجاء أن يقطع الصلات بين الجيوش الفرنسوية وقد كان هذا العمل وخيم التبعة عليه . فهجموا عليه من الجهة الواحدة وقطعوا عليه خط الرجوع من الجهة الاخرى فاضطر أن ينسحب في بلنسية انسحاباً جر اليه المصائب ويهرب أمام المارشال سولت حتى وصل الى الكورونيا وقد جرح جرحاً مميتاً بعد ما خسر عشرة آلاف رجل وكثيراً من الخيل والمدافع والذخائر على اختلاف أنواعها . وتمكنت فلول جيشه من الوصول بمشقة عظمى الى البحر فتركوا الكورونيا المارشال بعد ما عالجوا على غير جدوى الدفاع عنها ثلاثة أيام . ومزق سولت شمل فيلق الرومانا الاسبانيولي اللاجيء الى جبال استوريا .

وحالما انتهى الى الامبراطور أن البريطانيين يتهيأون للزحف الى مدريد خف الى ملاقاتهم فبدأت الحركات في غاليس بأمره وبحضوره ونقل مركز أركان حربه في الايام الاولى من شهر يناير الى ستورغا فبنافنتي وقد جمله أيضاً في هذه الحملة في طوردزيلاس في البناء الخارجي من دير القديسة كلارا المتوفاة فيه حنة الملموسة والدة شارلكان (شارل الخامس) وقد بني هذا الدير على أنقاض قصر قديم من قصور المغاربة الباقي منه حمام وردهتان لم تعبث بها يد الدمار . ومثلت الرئيسة البالغة من العمر خمسا وسبعين سنة أمام الامبراطور فأكرم وفادتها ومنحها نعماً شتى .

وأصاب الفرنسويون نصراً مبيناً في كاتالونيا فدخل غوفيون سان سير مدينة برشلونة بعد ما استولى على الروز ونقم المجلس على المركيز دي فيفس المكسور في كرداد .

وعليه يكون قد تغير وجه كل شيء بعد وصول الامبراطور الى اسبانيا وعاد النصر الى الاعلام الفرنسوية مخادناً اياها كما كان عليه في ألمانيا وإيطاليا . وأصبح الجيش البريطاني أثراً بعد عين في أقل من شهرين وهلك جيش الرومانا واسترجعت العاصمة واحتلت الولايات المهمة وأصلح ما كان دوبون وجونو قد أفسداه . واذا ظل الاسبانيوليون على بغضهم للسلطة الفرنسوية خشيت الحكومة البريطانية من أن تراهم مدحورين اندحاراً نهائياً وخاضعين للفرنسويين على انه وان كان خضوعهم وقتياً فان شرعيته تسقط في هذه الحرب وهي أول

حرب رأت فيها شيئاً من الظفر بالثورة الكبرى ومبادئها . وكانت الحال تقتضي حمل ذلك الداهية الذي لا يشق له غبار على مغادرة اسبانيا وكان قد غشيها لدك حصون الآمال الكبيرة التي شيدها الاسبانيول بعد استسلام الفرنسويين في بايلن وسنترا . ودبرت السياسة البريطانية المفضي به الى الشمال واضطرارها اياه الى تقسيم قواته . ولم تكن آلة الحكومة البريطانية هذه المرة بروسيا التي لم تكن بعد قد ثابت اليها قوتها بعد معركة ايانا ولا روسيا التي لم تكن بعد قد اندملت الجروح التي أصابتها في فردلاند والتي لم تكن تجرؤ أن تظهر بمظهر الرياء بعد عهود الصداقة التي قطعتها في ارفورت بل كانت النمسا التي عادت الى الشعور بما دهاها من النكبات في استرلتز وقد جرؤت على استنزال قاهرها الكريم بعد ما جعله التغفل يبقي عليها . فقد كفتها ثلاثة أعوام قضتها بالسلم والراحة أن تعيد تنظيم جيوشها وقد شعرت بأنها قادرة على مجاذبة فرنسا . وهب أصابت السياسة القديمة فوزاً فانها جاهرت بعدم رضاها بالتقيد في برلين وبطرسبرج بوثيقة تلست لاعتقادها انها لم تكن مرتبطة في فينا بوثيقة برسبورغ وكيف كان الامر فان النمساويين كانوا متحققين انهم يلقون لهم ملجأ في كرم أخلاق الظافر واذا حل بهم الفشل عادوا الى عقد وثيقة جديدة . فحسبهم أن يتنازلوا لقاهرهم عن بعض الاراضي بحيث يبقى عرشهم سليما فتخلص الملكية القديمة في اسبانيا بجر خصمها الهائل الى أقصى البلاد الجرمانية .

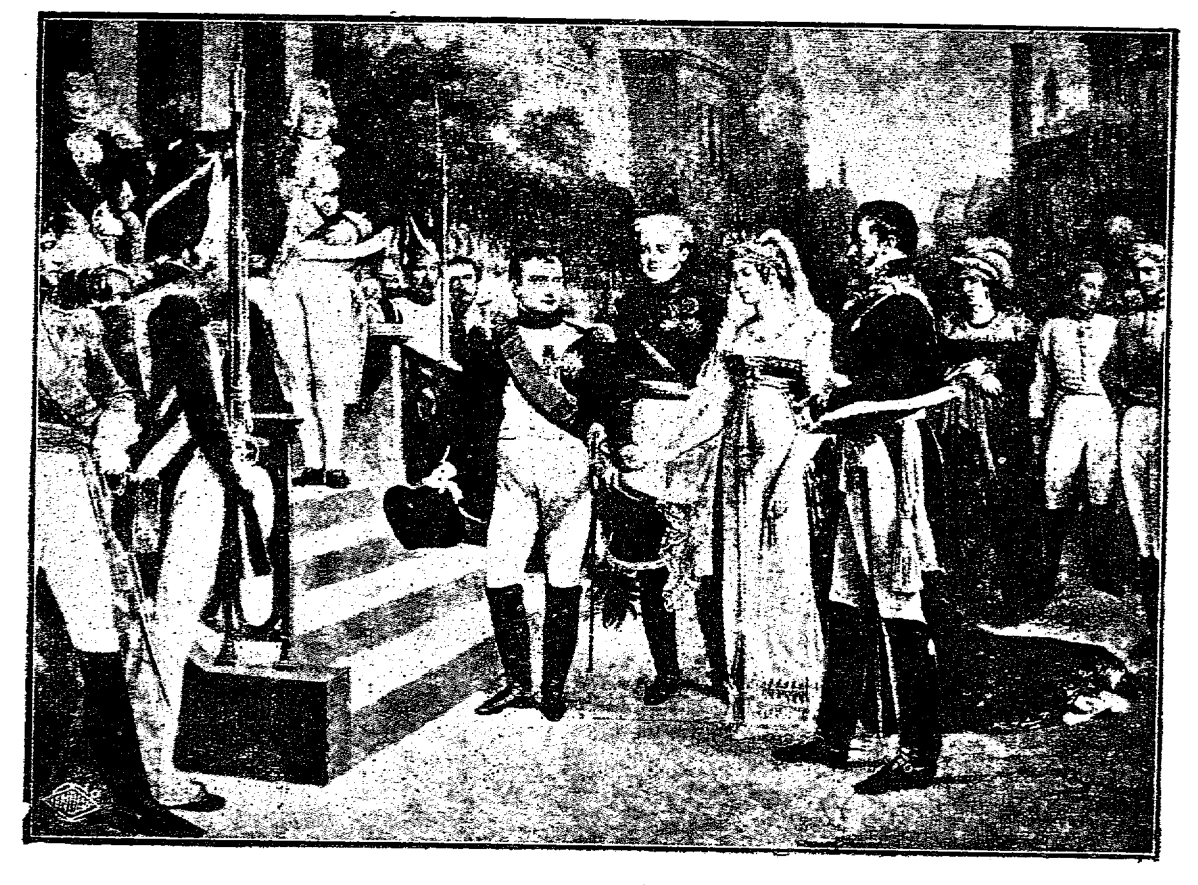
وكان نابوليون نازلا في فالادوليد حين بلغه مجاهرة النمسا بالعداوة واستعدادها لمحاربته . وبعد ما استقبل في هذه المدينة وفودا كثيرة قادمة من مدريد وأمر بالغاء دير من أديار الدومينيكيين لقتلهم جنديا فرنسويا فيه وأظهر عطفا على البندكتيين (رهبان القديس مبارك) الذين لم يكونوا يهتمون الا بالشؤون الروحية ومزاولة العلوم والذين أنقذوا حياة فرنسويين كثيرين بادر الى مزايلة الديار الاسبانيولية والعودة الى باريس فوصل اليها في ٢٣ يناير سنة ١٨٠٩ .

الفصل الرابع عشر

حرب سنة ١٨٠٩ مع النمسا

ولما عاد نابوليون من بايون في شهر أوغسطس سنة ١٨٠٨ علم أن النمسا التي كان موقفها مبهما في أثناء حربه مع بروسيا ابتدأت تظهر استياءها من فرنسا وماتنويه من الشر لها . وباحث الامبراطور في هذا الموضوع المسيو دي مترنيخ سفير النمسا حين جاء هذا الى سان كلود مع سفراء الدول لتهنئة جلالته الامبراطورية والملوكية بعيده فقال السفير ان دولته لم تكن تميل الا الى السلم وأن التسلح المتصل خبره بالحكومة الفرنسوية لم يكن يراد به الا الدفاع . فقال له نابوليون ان هذا الكلام من الهراء لانه لم يكن ثمة من وجه للقلق ومن علامة لتهجم أحد عليها ثم قال له : يقع في نفسي أن امبراطوركم لا يشاء الحرب وأنا واثق بالكلام الذي خاطبني به في اجتماعنا الاخير فهو غير حانق علي وقد احتللت عاصمته والقسم الاعظم من ولاياته ولكنني أرجعت اليه كل شيء على التقريب ... فهل تظن أن قاهر الجيوش الفرنسوية اذا تسنى له دخول باريس عنوة يتصرف باعتدال كما تصرفت أنا ؟ .... (ان المسيو دي مترنيخ وجميع أركان المؤامرة جاوبوا على هذا السؤال في سنة ١٨١٤) فهنالك دسائس خاصة تجركم على رغم من معاطسكم الى حيث لا تبتغون الذهاب ... وان البريطانيين وأحلافهم يبثون جميع هذه التدابير الكاذبة وقد ابتدأوا يتهللون مؤملين أنهم سيشاهدون نار الحرب تتلظى في أوربا . » وأصر المسيو دي مترنيخ على انكاره مقاصد حكومته العدائية .

ولما انثنى نابوليون قافلا من مدريد بعد ما تحقق قرب انقطاع العلاقات مع حكومة النمسا في أول مارس سنة ١٨٠٩ استجرأ السفير النمساوي على مخاطبة المسيو شامباني وزير خارجية فرنسا بما يأتي : « اذا كان الامبراطور يشعر بقلق من جهة التسلح المزعوم فلماذا يأنف من البحث معي في هذا الموضوع مؤثراً السكوت عنه واستدعاء جيوش الحلفاء للاستعداد للقتال ؟ فربما أدى بنا البحث الى التفاهم . » فاجابه الوزير الفرنسوي بهذا الكلام : « ماهي الفائدة من ذلك



نابوليون يستقبل الملكة لويز البروسيانية فى تلست



وما هي المنفعة من المساعي الحاكية لها التي عالجناها من خمسة أشهر ؟ فلا يرضى الامبراطور بمخاطبتك ياسيدي لئلا يكون حديثه معك عقيما فقد فقدت عنده بمواعيدك الخداعة الثقة الممنوحة للسفراء . . وفضلا عن ذلك لا يطلب الامبراطور الحرب ولا يبتغي منكم الا أن تدعوه يتمتع بالسلام ولكنه يحاربكم ان أنتم أكرهتموه على ذلك . فهو لم يفتح أدنى سبيل لهذا الأمر . . . ولا أدري الى اين تبلغ بكم مساعيكم ولكن اذا وقعت الحرب فما ذلك الا لكونكم اردتموها فغادره المسيو دي مترنيخ مضطربا شاكيا من الاهانة اللاحقة به في دوائر البلاط . فقال له المسيو شامباني : ان بلاط فينا أهان كرامة نفسه بنقضه عهود سفيره وبسط هذا الوزير في جلسة ١٤ ابريل لمجلس الشيوخ الحديثين اللذين دارا بين الامبراطور وسفير النمسا وبينه وبين ذلك السفير وبسط له ايضا استعدادات الحكومة النمساوية للحرب ولما فرغ من تقريره قدم أحد مستشاري الحكومة صورة قرار لمجلس الشيوخ بتجهيز أربعين الف جندي ووضعهم تحت أمر وزير الحرب . فرضي المجلس بذلك القرار وأضاف اليه خطابا مشتملا على كلمات شهيرة ذكرها نابوليون في كتاب انفذه الى عاهل النمسا : « فليكن في مساعي جلالتك ثقة تلقى صداها وان أفضل سياسة في هذه الايام هي سياسة الصدق والاخلاص . فبح لي بمخاوفك حين تنتابك المخاوف فابادر الى ازالتها . »

وكان فرنسوى الثاني قد استودع لندرة مخاوفه ولما قرر مجلس الشيوخ الفرنسوي تجهيز الجنود وتهيئة عدة الحرب كانت أبواب القتال قد انفتحت فكانت النمسا قد نشرت خطتها وغزت بلدان المحالفة الرينية . وكان نابوليون يقول كما قال وزيره أنه لم يعط أدنى سبيل لقطع العلاقات بحكومة فينا وكان يقول أيضاً كما كان يقول في معركتي استرلتز وايانا انه لم يكن يعلم ماذا كانوا يبتغون منه ولا لماذا كان يقاتل . بيد أن الوزارة النمساوية أزاحت عن العقول غشاء الشك باشعارها الناس بأن هذه الحرب لم تكن ناشئة عن أسباب خاصة بل عن أسباب عامة لقضية أوربية وهي القضية التي أوجدت جميع المحالفات السابقة فان الوثيقة المبرمة في أسترلتز والمعززة في برسبورغ أوشكت أن تنحل وكانت تلك الخطة صورة عن خطط أوربا القديمة من عهد خطة برنسويك وبعبارة أخرى كانت حربا دينية جديدة أثارتها الحكومة النمساوية على العدو العام أي

على فرنسا وعلى العصر وعلى المبادىء الجديدة التي لم يكن نابوليون سوى لسان حالها

وأعلنت النمسا الحرب في ٩ اريل واشتبكت جيوشها في القتال في ١٠ منه ونقل البرق الى الامبراطور في ١٢ منه أن العدو اجتاز الانّ فانطلق لساعته من باريس ووصل الى ديلنجن في ١٦ منه فوعد ملك بافاريا بأن يرده في خمسة عشر يوماً الى عاصمته وكان البرنس شارل قد طرده منها وبلغ دوناورت في ١٧ منه فخاطب جنوده بالكلام التالي :

« أيها الجنود ان أرض المحالفة خرقت حرمتها وان القائد النمساوي يريد أن نفر هاربين من وجه جيوشه وان نعرض عن مناصرة حلفائنا ولكنني قدمت بسرعة البرق .

« أيها الجنود لقد كنتم تحفون بي حين جاء عاهل النمسا الي في مورافيا وقد سمعتموه يلتمس شفقتي ويقسم لي على أن يحفظ لي صداقة ثابتة . ولما كنا قد ظفرنا بالنمسا في ثلاث حروب فلنا الفضل عليها في كل شيء وهي نقضت عهدها ثلاث مرات متوالية على أن ما أصبناه من النصر في الماضي يضمن لنا ما يتوقعنا من النصر في المستقبل . سيروا بنا وليعلم العدو حالما تقع عينه علينا اننا نحن المنتصرون عليه . »

وقد جرأ النمسا على الاقدام على مواقعة الفرنسويين غياب نابوليون وحرسه وابتعاد كتائب مارنغو واسترلتز التي شابت نواصي رجالها في ميادين القتال . وكانت النمسا عالمة أنه لم يبق من الفرنسويين في ألمانيا سوى ثمانين الف مقاتل متشتتين في جميع انحائها وان جيشها المنقسم الى تسعة فيالق بقيادة الارشيدوق شارل لا يقل عدده عن خمس مئة الف مقاتل . وكانت حركاتهم الاولى تبشرهم بالظفر فهرب ملك بافاريا من مونيخ من وجه الارشيدوق الزاحف بسرعة من الانّ الى الايزر . وكان الجيش الفرنسوي منتشراً على خط طوله ستون فرسخا انتشاراً يجعله معرضاً لقطع خط الرجوع عليه وانكسار فرقه الواحدة منها بعد الاخرى . وأدرك القائد النمساوي حقيقة موقف الفرنسويين فضاعف نشاطه وأمله الا أن قدوم نابوليون غير وجه تلك الحال فانكسرت شوكة البرنس شارل ووهت عزائم جيشه واشتد بطش الجيوش الفرنسوية وأصلح

في الحال ما كانوا قد ارتكبوه من الخطأ . واستأنف الامبراطور المسير على خطته العجيبة في الحركات الحربية وأنجز وعده لملك بافاريا فارجعه باحتفال عظيم الى عاصمته قبل انقضاء عشرة أيام على اليوم المضروب له وعاد هذا الملك الى مونيخ في ٢٥ ابريل ونال نابوليون ستة انتصارات على الجيش النمساوي في ستة أيام . ولم يتمكن الفرنسويون من ادراك العدو الا في ١٩ منه وقد امتاز ذلك اليوم بانتصار مزدوج أصابوه في موقعة نفافنهوفن ومعركة طان . وفي موقعة بيسنغ وعملت الكتيبة السابعة والخمسون التي يقودها الكولونل شاريار الشجاع أعمالا تعجز عنها الاسود فهجمت وحدها على الكتائب النمساوية ومزقتها أيدي سبا . والتقى الفريقان في ٢٠ منه في ابنسبرغ فدارت رحى معركة جديدة انتصر فيها الفرنسويون أيضاً . ولم يستطع النمساويون المقاومة أكثر من ساعة من الزمان فانهزموا تاركين في حيازة خصومهم ثمانية أعلام واثني عشر مدفعاً وثمانية عشر الف أسير . وأنجز الفرنسويون في ٢١ منه في موقعة لاندشت ما كانوا قد بدأوا به في أمس ذلك اليوم من التنكيل باعدائهم وهجم الجنرال موطون في هذا اليوم في مقدمة رجاله بين اللهيب المندلع لسانه على جسر ممتد فوق الايزر وصاح بهم بصوت كالرعد القاصف : « تقدموا ولا تطلقوا بنادقكم . » ودخل المدينة بعد قليل من الحين وكانت قد أصبحت ميدانا لحرب طاحنة فلم يتمكن النمساويون من المقاومة مدة طويلة بل خلوا المدينة ونجوا بأرواحهم . وفاجأ الارشيدوق شارل برجاله البوهيميين فصيلة مؤلفة من الف جندي وكل اليها أمر الدفاع عن جسر راتسبن فحصرها وأسرها لانها لم تكن قد تلقت الامر بالانسحاب . ولما انتهى الى الامبراطور نبأ هذه الحادثة آلى على نفسه بأنه سيجري جداول من الدم النمساوي في أربع وعشرين ساعة في راتسبن انتقاماً للاهانة التي لحقت بجيشه وزحف الى تلك المدينة في ٢٢ منه والتقى بالعدو البالغ عدده مئة وعشرة آلاف مقاتل كانوا متحصنين في اكمهل . وكان ذلك فرصة للامبراطور لينتصر فيها انتصاراً باهراً وهجموا من كل جهة في مدة قصيرة على الجيش الكثير العدد فازاحوه من جميع مراكزه وكسروه شر كسرة فانهزم لا يلوي على شيء تاركا قسما كبيرا من مدافعه وخمس عشرة راية وعشرين الف أسير . وكان لسرعة جواد الارشيدوق شارل فضل عليه بنجاته من مخالب المنية

وجاء الجيش الظافر في ٢٣ منه الى راتسبن وأقام الحصار عليها فلم يكن الفرسان النمساويون المنهزمون من وجه لان قادرين على الدفاع عنها الا أن الفصائل الست التي أبقاها الارشيدوق في ذلك الموقع عالجت المدافعة عنه فجاء الامبراطور بذاته وامر بالهجوم فأصابته رصاصة في رجله اليمنى . فانتشر الخبر بأسرع من لمح البصر في الجيش فهرول الجنود وقد توزعهم القلق ولكنهم لم يكادوا يصلون الى حيث كانوا يضمدون جرح الامبراطور بسرعة حتى أبصروه ممتطياً صهوة جواده فطبقوا الفضاء بالتكبير والتهليل . وما عتموا أن تسنموا الاسوار وأخذوا المدينة وكل من قاومهم بطشوا به واستسلم اليهم ثمانية آلاف رجل

وظل المارشال بسيار يتعقب الفارين من الفيالق النمساوية المكسورة في ابنسبرغ ولاندشت فادركهم في ٢٤ منه في نومارك حين ضموا متفرق شملهم وانضموا الى فيلق احتياطي كان قد وصل الى الان فظفر بهم وأسر منهم الفاً وخمس مئة رجل

وأذاع الامبراطور النشرة الآتية في اليوم عينه في راتسبن :

« أيها الجنود لقد حققتم آمالي فيكم وقد استعضتم بشجاعتكم عن وفرة العدد وميزتم بشكل مجيد الفرق بين جنود قيصر وجنود زركسيس .

« وانتصرنا في أيام قليلة في معارك طان وابنسبرغ واكمهل ومواقع بيسنغ ولاندشت وراتسبن . وكان من نتيجة سرعة حركاتكم وشجاعتكم انا غنمنا مئة مدفع وأربعين راية وأسرنا خمسين الف رجل وأخذنا ثلاثة آلاف مركبة موقرة أمتعة وجميع صناديق الجيش .

« وان العدو السكران بسلافة مواعيد حكومة ناقضة للعهود لم يبق حافظاً أدنى ذكر لكم فقد كانت نهضته سريعة ولكنكم ظهرتم له أشد هولا مما كنتم عليه من قبل . ففي غابر الايام اجتاز الان وغزا بلاد حلفائنا وفي ماضي الحين كان يحلم بمحاربتنا في وطننا وأما الآن فانه انكسر وقذف عليه الذعر وتبدد حزائق وتمزق طرائق وقد عبرت طلائعنا نهر الان وستصل الى فينا قبل شهر »

وستتم هذه النبوءة التي أوحتها اليه الجرأة كما تمت نبوءته من قبل لملك بافاريا وكان نابوليون يتهيأ للزحف الى عاصمة النمسا ونقل مركز أركان حربه الى برغهوسن

في ٣٠ ابريل فجاءته كونتة ارمنسبرغ وتوسلت اليه بأن يعيد اليها زوجها وكان النمساويون قد ساقوه أسيراً لاتهامهم إياه بالميل الى فرنسا وأذيعت هناك على الجيش الكبير النشرة الثـالثة التي أغلظ فيهـا نابوليون في القول بحق شخص العاهل فرنسوى الثاني فقد كان ذهن نابوليون ممتلئاً من ذكرى اجتماع استرلتز وقد نسي أن ملوك الجنس القديم لا يرعون عهداً ولا ذماماً للحكومات الناشئة عن الفتنة الكبرى فقال : « برح عاهل النمسا فينا وقبل مزايلته لهـا وقع على نشرة نسجت بردتها براعة غنتز فجاءت آية في الركاكة والحماقة . وانتجع شاردن وهو مكان اختاره لئلا يكون في غيره أي لئلا يكون في عاصمته فيحكم بلاده أو في ساحة القتـال فيكون معرقلا لحركات جيشه . ولعمر الحق أنه يندر أن يكون ملك متنـاه في الضعف والافك نظيره . » فلو كان نابوليون مصمماً على خلع العاهل الذي أهانه جهاراً بذلك الـكلام لـكان كلامه مقتصراً على الاهانة دون سواها ولكن اذا كان يريد أن تبقى بينهمـا علاقات متبادلة وكان يبتغي أن يبقيه جالسا على عرش تلك البلاد العظيمة فان لهجته هذه تنافي السيـاسة المبنية على الحـكمة لانها تلقي في نفس العاهل المهـان ضغينة شديدة تجعل فيما بعد الصلح والمحالفة مع بلاط فينا محفوفين بالريبة والخطر .

ونقل مركز اركان الحرب الى رياد في اول مايو فبلغه الامبراطور في الليل ولجأ في ٣ منه الى ابرسبرغ فيلق قوامه ثلاثون الف جندي تألفوا من افلال الجيوش المقهورة في لاندشت فهاجمهم رماة البحر والرماة الـكرسيكيون ونكلوا بهم تنكيلا وانضم بسيار واودينو الى ماسينا وزحفوا معا الى ابرسبرغ مهددين الجيش النمساوي بتطويقه والفتك به وكان الجنرال كلاباريد يسير في مقدمة فرقته وعددها لا يزيد عن سبعة آلاف وحالما برزوا لانظار عدوهم وكان محتلا مواقع ملائمة له لم يشأ ذلك العدو ان ينتظر باقي الفيالق الفرنسوية الآتية وراء فرقة كلاباريد فهجم على هذه الفرقة بعد ما اضرم النار في المدينة المبنية مساكنها من الخشب والتهم لسان اللهب في حين قصير كل ما لقيه في طريقه حتى انتهى الى الجسر . فاوقفت النار بسيار عن التقدم وكان مصمما على عبور الجسر لنجدة كلاباريد فأكره هذا الاخير على الدفاع وحده ثلاث ساعات مقاتلا بسبعة آلاف مقاتل

ثلاثين الفا ولكن فتح ممر بين اللهيب فعبر الجنرالان ليغران ودورونل من جهتين مختلفتين . وابدى الجندي الفرنسوي من البسالة والشجاعة في هذه الوقعة ما يشيب الاطفال . واخذ الفرنسويون القصر واحرقوه بالنار وتراجع عدوهم باضطراب الى انس فاحرق الجسر ليضمن هربه الى جهة فينا . وخسر النمساويون في موقعة ابرسبرغ اثني عشر الفاً من المقاتلة بينهم سبعة آلاف وخمس مئة جريح . وذكرت النشرة الخامسة تفصيل موقعة ذلك اليوم بالكلام التالي :

« ان فرقة كلاباريد وهي جزء من فيلق اودينو جرت مطارف الفخر فقتل منها ثلاث مئة رجل وجرح ست مئة رجل وقد لفتت جرأة فصائل رماة البو والرماة الكرسيكيين انظار الجيش برمته . وسيظل الجسر والمدينة وموقع ابرسبرغ آثاراً خالدة ناطقة بشجاعتهم : فالمار بذلك الموضع سيقف ويقول : في هـذا المكان وفي هذا الموقف المنيع وعلى هذا الجسر الطويل وفي هذا القصر الحصين الموقع اندحر جيش نمساوي مؤلف من خمسة وثلاثين الف محارب امام سبعة آلاف فرنسوي . »

واستقبل الامبراطور في معسكره بابرسبرغ وفدا من ولايات النمسا العليا وقضى ليلة ٤ مايو في ايمس بقصر الكنت دوسبرغ ودخل دير مولك الشهير في ٦ منه وكان قد عرج عليه في اثناء حرب سنة ١٨٠٥ فوجد فيه هذه المرة عدة ملايين من قناني الخمر فشرب منها الجيش مقدارا كبيراً ولما مر الامبراطور امام انقاض قصر ديارنستين على رابية الى ما وراء مولك وفي جهة فينا قال للمارشال لان وكان الى جانبه : « هنا سجن ريكاردوس قلب الاسد وهو ايضا ذهب كما ذهبنا الى سورية وفلسطين فقلب الاسد لم يكن يا لان الشجاع اشجع منك ولـكنه كان اسعد جدا مني في عكاء . وقد باعه امير نمساوي لامبراطور المانيا فسجنه في هذا المكان . وكان عصره عصر الهمجية فما اعظم الفرق بينه وبين عصر حضارتنا وقد شاهد الناس معاملتي لامبراطور النمسا وقد كنت قادرا على القائه في السجن ومع ذلك سأعامله ايضاً بالرفق كما عاملته قبلا . وليست هـذه مشيئتي ولـكن هي مشيئة العصر . » وكان نابوليون مصيباً في قوله هـذا : فالعصر يجعله كريما وعظيما وجوادا وعالي الهمة بعد الانتصار والعصر يحركه حين يدل بتصرفه مع الملوك المقهورين على ما كان يميز التمدن الفرنسوي عن الهمجية

ولكنه اذا ظهر بمظهر رجل التمدن تجاه الملكية القديمة فان هذه الملكية تظل في نوبتها جديرة باصلها وتبين انها حارسة امينة لضلال الهمجية . فدهاء القرن التاسع عشر نزل ضيفاً خفيف الظل شديد المؤانسة في معسكر استرلتز ودهاء القرون المتوسطة صار فيما بعد سجانا غليظ الكبد في جزيرة القديسة هيلانة .

ونقل مركز اركان حرب الامبراطور في ٨ منه من مولك الى سان بلطن ووصل نابوليون بعد يومين الى فينا في الساعة التاسعة صباحاً .

وكان الارشيدوق مكسيمليان شقيق الامبراطورة متوليا القيادة في العاصمة فعالج الدفاع عنها ببسالة شديدة وجرأة عظيمة ورفض باستعلاء اول إنذار أرسل اليه ليدعوه الى الاستسلام . وقد دفع الجهل هذا الامير الشاب الى الاحتفاء بزعيم عصابة كان قد خرق حرمة الحقوق الدولية بإساءته الى حاجب المارشال لان الموفد لاجل المفاوضة فأمر بأن يطاف بحفلة باهرة بذلك المتهوس في جميع أسواق فينا وشوارعها وهو راكب على جواد الضابط الفرنسوي عينه بعد ما هجموا عليه بدناءة وأثخنوه جراحاً .

واستولى الامبراطور على ضواحي المدينة المأهولة بنحو ثلثي سكان العاصمة فأنشأ في ذلك المكان حرساً وطنياً ومجالس بلدية أرسلت الى الارشيدوق وفداً يتوسل اليه بأن يدفع الاذى عن مساكنهم . فلم يكن من وراء مسعاهم أدنى تأثير في الارشيدوق وظلت نار الحرب مستعرة استعاراً فلم يلق الامبراطور حينئذ بداً من اطلاق المدافع على المدينة اطلاقاً هائلا فنصبت على مسافة مئتي متر على التقريب من الاسوار بطارية مؤلفة من عشرين مدفعاً من المدافع ذات القنابل المنفجرة وبدأت باطلاق النار على المدينة في الساعة التاسعة من مساء اليوم الحادي عشر منه وقذفت من تلك المدافع ألف وثماني مئة قنبلة في أقل من أربع ساعات ولم يكن يرى في المدينة سوى نيران مضطرمة يخوض السكان عبابها والاضطراب بالغ منهم مبلغه وبعد مساع عقيمة لاحباط أعمال الحاصرين علم الارشيدوق أن الفرنسويين عبروا فرعاً من نهر الدانوب وخشي من أن يقطعوا عليه خط الرجعة فخرج بسرعة من المدينة تحت جنح الدجى تاركا للجنرال أوريلي الاهتمام بأمر التسليم وأذاع هذا الجنرال عند تباشير الصباح أن اطلاق القنابل سينقطع عن

قريب عن المدينة وأرسل الى نابوليون بعد قليل من الحين وفد كان من جملة أعضائه رئيس أساقفة فيينا فاستقبل الوفد في حديقة شنبرن .

وأخذ ماسينا ليوبولدستاد عنوة في اليوم عينه ووقع على شروط استسلام فيينا في المساء واستولى أودينو ورجاله على موقع العاصمة في الساعة السادسة من صباح ١٣ منه وأذيعت النشرة التالية في الحال :

« أيها الجنود :

« بعد عبور العدو نهر الان بشهر من الزمان دخلنا فيينا في اليوم نفسه وفي الساعة عينها ولم يقو على احتمال أنظاركم نخبة قواده وجنوده والحصون التي شيدها عمال سلالة اللورين المملوءة أفئدتهم بغضاً لكم وحنقا عليكم .

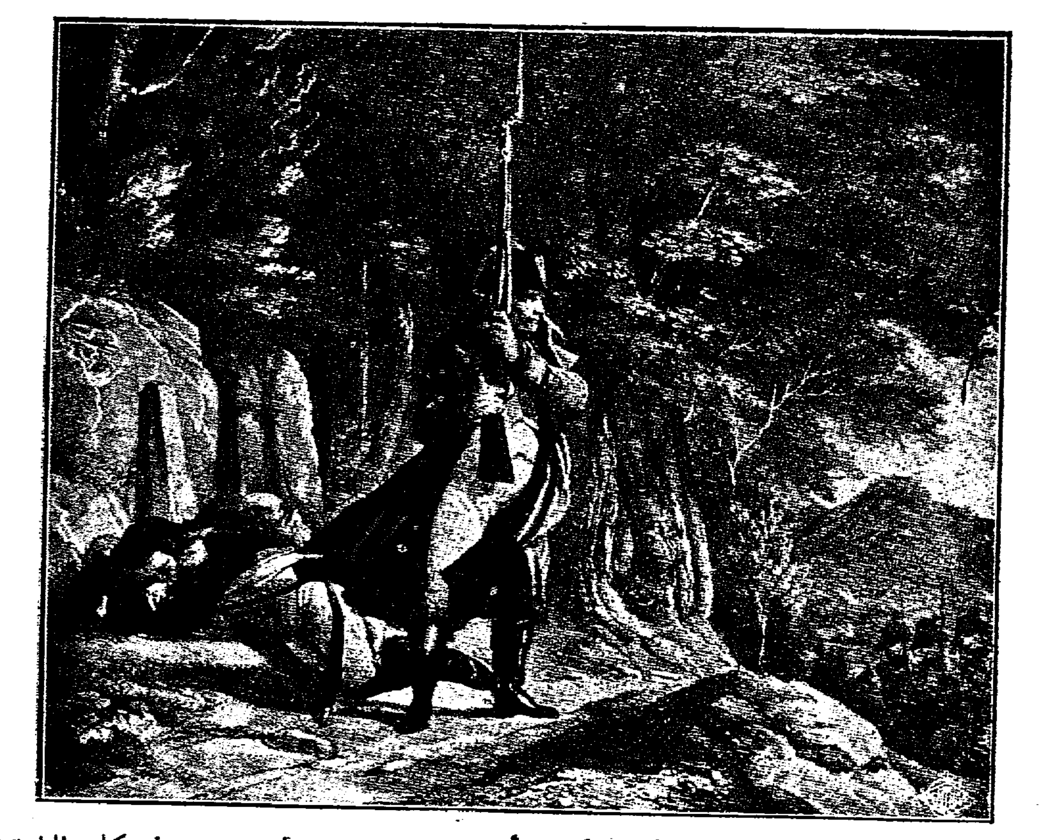
« ان أمراء هذه الفترة لم يهجروا عاصمتهم كجنود شرفاء يذعنون لمقتضيات الاحوال ونكبات الحرب وويلاتها بل هجروها كناقضي اليمين غير مبالين بوخز الضمير الذي يصحبهم اينما ساروا ولما فروا من فيينا كان وداعهم لسكانها بالاسراف في القتل والحريق وقد تصيروا ميده بنحوهم أولادهم بأيديهم .

« ان شعب فيينا الذي وصفه منـدوبو ضواحيها بكونه مهجوراً ومهملا ومنبوذاً يجب عليكم أن تحترموه فقد اتخذت سكان هـذه المدينة تحت حمايتي الخاصة . أما ذوو الدسائس وأحلاف الشر والفساد فاني سأجعلهم عبرة رادعـة وعظة زاجرة .

« أيها الجنود احسنوا التصرف مع الفلاحين المساكين ومع الشعب التاعس المستوجب احترامنا . فلا نفتخر بانتصارنا بل فلنعتبره برهاناً عن العدالة الالهية التي تعاقب جاحد النعمة وناقض العهد .   نابوليون »

ولم يترك الجيش النمساوي الحرب عند خروجه من عاصمة الامبراطورية بل استند الى الدانوب بعد ما هدم جسورته في فيينا وما جاورها وجعل يترصـد فرصة ملائمة للتوثب على الفرنسويين والانتقام منهم وكان جسر لنتز أول موقع باشر الهجوم عليه الا أن فندام قاومه مقاومة عنيفة وجاء برنادوت لنجدته فهزم النمساويين ومزق شملهم تمزيقاً .

وكان نابوليون قد عيل مصطبره لاجتياز النهر عنوة وانجاز هذه الحرب الجيدة فعني عناية خاصة باعادة بناء الجسر . وكان ماسينا قد بنى عدة جسورة



كان نابوليون يتفقد الجيش ليلا فوجد خفيراً نائما فى مركزه فأخذ نابوليون بندقية الخفير ووقف فى مكانه ولما استيقظ الخفير ووجد الامبراطور فى ذلك الموقف طارت نفسه شعاعا ولكن نابوليون سكن مخاوفه وأوصاه بألا يهمل مايجب عليه فى المستقبل



على فروع الدانوب عند جزيرة لوبو . فصمم نابوليون على الاستفادة منها لاجل عبور الجيش برمته واتخذت فيالق لان وبسيار وماسينا مراكز لها في تلك الجزيرة في خلال ثلاثة أيام . وكانت المواصلات مع الميمنة تتم بجسر مصنوع من المراكب طوله نحو الف متر يغطي ثلاثة فروع من النهر . وبني جسر آخر طوله نحو من مئة وعشرين مترا قصد به ضم الجزيرة الى الضفة اليسرى واستسهل المرور عليه خمسة وثلاثون الف مقاتل في اليوم الحادي والعشرين من شهر مايو لمباشرة القتال من اسبرن واسلنغ وجاء الارشيدوق شارل في الساعة الرابعة مساء وقد جمع بقايا الفيالق النمساوية المنكسرة في بافاريا وألف منها ومن جنوده الاحتياطيين جيشاً قوامه مئة الف محارب وانقض على فيالق ماسينا وبسيار ولان وهي الفيالق الوحيدة بين الجيش الفرنسوي التي عبرت ضفة الدانوب اليسرى وكان ماسينا أول من هوجم في اسبرن فأبدى مع قلة عدد رجاله معجزات من البسالة والاقدام ولم تقل اعمال لان في اسلنغ عن أعمال ماسينا . أما بسيار فانه كان يهجم بفرسانه هجمات صادقة على العدو الضارب بين تينك القريتين

وانقطع اطلاق النار عند دخول الليل ولم يتمكن جنود الارشيدوق شارل المئة الفاً من إزاحة الخمسة وثلاثين الف فرنسوي المتولي قيادتهم ماسينا ولان وبسيار شبرا واحداً عن مواقفهم . وقدمت نجدات لمعاونة الفرنسويين فكان الغد يوم شؤم على الارشيدوق وعبرت الجسورة في اثناء الليل رجال اودينو وفرقة سان هيلار وكوكبتان من الفرسان وفصيلة من المدفعيين وانضموا الى الفيالق الفرنسوية الثلاثة الآنفة الذكر . وكان نابوليون قد هيأ كل شيء رجاء ان ينتصر انتصاراً باهراً وبدأ النمساويون بالهجوم على اسبرن في الساعة الرابعة صباحاً فكان ماسينا هناك مستعدا للدفاع عنها . فهذا القائد الهصور الهمام الذي لم تكن بسالته ورباطه جأشه ومواهبه الحربية تظهر الا في المواطن المحفوفة بالمشاق لم يكتف برد هجمات النمساويين بل عمد الى اتخاذ خطة الهجوم عليهم وبدد شمل الفيالق التي كانت تحاربه وكان لان قد هجم في الوقت عينه بشبان الحرس على وسط الجيش النمساوي ارادة قطع المواصلات بين جناحيه وكان كل شيء يخشع امام هذا المارشال الشجاع وصار النصر في حكم المقرر للفرنسويين وقد جاؤوا في الساعة السابعة صباحاً واخبروا الامبراطور ان الدانوب طغى فجأة جارّاً في

مجراه اشجارا وارماثا واشياء اخرى مختلفة وهدم الجسر الكبير الواصل جزيرة لوبو بالضفة اليمنى والمؤلف الطريق الوحيد للاتصال بين الفيالق المتوغلة في الضفة اليسرى وباقي الجيش الفرنسوي . ولما انتهى ذلك النبأ الى نابوليون ولم يكن معه سوى خمسين الف جندي لمحاربة مئة الف نمساوي امر بتوقيف الحركات الامامية واوعز الى المارشالية بان يكتفوا بالمحافظة على مراكزهم ليتسنى لهم التراجع بانتظام الى جزيرة لوبو . ففعلوا ما امرهم به ودافع القواد والجنود عن شرف الراية الفرنسوية دفاع الابطال . ولما علم النمساويون ما كان من امر تهدم الجسورة وتوقف معظم الجيش الفرنسوي عن العبور وتعذر ارسال القنابل والقذائف الى الذين اجتازوا منهم النهر تجرأوا على الهجوم على الفرنسويين في جميع الجهات . وهجموا ايضاً ثلاث مرات متوالية على اسبرن واسلنغ وكانوا يندحرون في المرات الثلاث وقد امتاز في هذه المعركة الجنرال موطون ورجاله رماة الحرس ونهض المارشال لان الذي فوض اليه الامبراطور المحافظة على ساحة القتال باعباء مهمته خير نهوض . وكانت له اليد الطولى في انقاذ ذلك القسم من الجيش بعد ما كان قد اصبح على قاب قوسين من الهلاك . وكان هذا العمل الخطير آخر عمل اتاه هذا الجندي الجريء في سبيل خدمة وطنه وخدمة القائد الاكبر صديقه الحميم وسيده العظيم . فان قذيفة اصابته في اخر النهار ذهبت بفخذيه فعملت له عملية القطع في الحال بنجاح جعلهم يعللون النفس بنجاته من طائلة المنية الا ان بارقة الامل ما مكثت ان اضمحلت فوضع المارشال على محمل وجيء به الى الامبراطور فلم يستطع هذا حبس عبراته عن الانحدار عند رؤيته رفيقه الامين وخله الوفي مجروحاً جرحا مميتاً . فالتفت الى المحيطين به وقال لهم :

« لقد قضي على قلبي في هذا النهار بان يطعن هذه الطعنة النجلاء وهذا ما يجعله يهتم بشؤون غير شؤون جيشي » اما لان فانه بعد ما كان قد أغمي عليه ثاب اليه الروع في حضرة نابوليون فعانقه وقال له : « ستفقد بعد ساعة شخصاً يموت مفتخرا باعتقاده انه كان ولا يزال خير خلانك وأصفيائك » .

وظل المارشال حيا عشرة ايام حتى أنهم أملوا حينا من الزمان بانه سينجو من مخالب الحمام الا أن الحمى الخبيثة اشتدت وطأتها عليه فصرمت حبال حياته في ٣١ مايو بمدينة فينا . وقال نابوليون : « ان الانسان حين يقترب من فقد

الحياة يعتصم باهدابها بجميع قواه فلان وهو أشجع جميع البشر لم يكن بعد مافقد نخذيه يشاء أن يموت . . . فكان ذلك العاثر الجد يطلب كل دقيقة أن يشاهد الامبراطور . وكان يتعلق بي بكل ما بقي له من الحياة . ولم يكن يريد غيري ولم يفتكر الا بي . فهي وأيم الحق غريزة تنشأ في الانسان منذ وجوده أجل أنه كان يحب زوجته وأولاده أ كثر مني ولكنه لم يكن يذكرهم وما ذلك الا لانه لم يكن يتوقع منهم شيئا فقد كان سنداً لهم وعتادا وأما أنا فاني كنت سنده وعتاده. فكنت في نظره شيئا مبهما سامياً وكنت عنايته : فكان يتوسل اليها . . وكان يتعذر وجود شخص أشجع من مورات ولان فورات بقي شجاعا وهو حي يرزق وروح لان عظمت حتى صارت مساوية لشجاعته وقد أصبح جباراً . . . ولو بقي حيا الى هذا الزمن الاخير لما كان على ماأعتقد يقصر في الشرف والواجب عليه : فقد كان من عـداد الاشخاص الذين يغيرون وجـه الاحوال بذاتهم وتفوقهم الشخصي . »

وأصيب الامبراطور بضربة أخرى في معركة اسلنغ فانه فقد فيها قائداً آخر من أشجع قادة جيشـه وأمهرهم وهو الجنرال سان هيلار وقد جاء في مفكرات نابوليون ماياتي : «في هذا اليوم قتل الجنرالان الدوق دي منتبلو وسانهيلار وهما بطلان مشهوران وصديقان حميان لنابوليون فذرف عليهما الدموع ولم يكن يعوزهما الثبات على ولاء الامبراطور عند نزول النوازل به ولم يخونا مجد الشعب الفرنسوي . » وكانت هاتان الضربتان الشديدتان ثقيلتي الوطأة على الامبراطور فجعلتاه يتأمل في بطلان الاشياء العالمية وسرعة زوالها وكتب الى جوزفين في ١٣ مايو يبثها حزنه على موت لان الذي صرعته المنية في صباح هذا اليوم وكان من جملة ما كتبه في رسالته هـذه الكلمات : « وعلى هذه الصورة يزول كل شيء . » وقد ذهل في تلك الدقيقة عن عظمة العمل الذي باشره واتساع نطاق مجده الذي كان يعلل النفس بتصييره خالدا ونسي أيضا ما كان يأمله من ابداء الاجيال المستقبلة آراءها فيه .

على أن يوم اسلنغ الذي جر المجد على الجيوش الفرنسوية لم يكن ليضع حدا فاصلا لتلك الحرب فبقي النصر مترددا بين الفريقين : وكان كل منهما يزعم أن النصر بجانبه . وكانت تلك الحرب في انظار الملأ الاوربي فشلا لنابوليون

وقد كان متعوداً سحق اعدائه وتمزيقهم أيدي سبا ولكنه لم يتمكن في هذه المرة من ازاحة النمساويين عن مواقفهم وقد اضطره حادث غير منتظر وقلة عدد رجاله الى المحافظة على موقفه . وأدرك الامبراطور أن وقفته هذه سيكون لها تأثير أدبي سيء في فرنسا وفي الخارج ولذلك كان يحاذر أن يزيد موقفه حرجا بأقل حركة تقهقرية فعزم على البقاء في جزيرة لوبو ولم تكن في بدء الامر سوى مستودع لعبور الدانوب وقد أجبره طغيان النهر وانهدام الجسورة على البقاء فيها محصورا مع قسم من جيشه .

أما الارشيدوق شارل القلق البال من جراء حركات داوو الذي كان يطلق مدافعه على برسبورغ فانه لم يجرؤ على الهجوم فصمم على تعزيز موقفه بين اسبرن وأنزرسدرف

وكان نابوليون يعيد بأسرع ما يمكن بناء الجسورة المهدمة فما لبثت المواصلات أن أعيدت بين الجزيرة وضفة النهر اليمنى . وجاءت أخبار تنبيء أن جيش ايطاليا المتولي قيادته البرنس اوجين ظفر في سان ميشال بفيلق يالاشيش النمساوي بعد معركة اسلنغ بثلاثة أيام وهزمه شر هزيمة وان جيش ايطاليا الفرنسوي التحم بجيش ألمانيا عند مرتفعات سمرنغ فبادر حينئذ نابوليون الى اذاعة النشرة الآتية على جنوده

« ياجنود جيش ايطاليا

« لقد أدركت بفخر الغاية التي عينتها لكم وكان سمرنغ شاهدا على التحامكم بالجيش العظيم

« أهلا وسهلا بكم فانا مسرور بكم لقد فاجأ كم عدو غدار قبل انتظام شمل كتائبكم فلم تلقوا بدا من التقهقر حتى نهر الاديج ولكنكم حين بلغكم الامر بالتقدم كنتم في البقعة التي جرت فيها معركة اركول الشهيرة فسمتم هناك بارواح ابطالنا على أن تنالوا النصر . فبررتم بايمانكم في معركة بيافا ومواقع سان دانيال وطرفيس وغوريس ... على انكم قد احطتم في سان ميشال بفيلق يالاشيش الذي دخل مدينة مونيخ قبل سواه وأشار بالمذابح في الطيرول وأعملتم فيه نصالكم . وقد أسرعتم بالاقتصاص من تلك البقايا الناجية من سخط الجيش الاكبر

« أيها الجنود ان هذا الجيش النمساوي في إيطاليا دنس بلادي بحضوره فيها زاعماً انه يبتغي تحطيم تاجي الحديدي فكسرتموه ومزقتم شمله وأهلكتموه وسيكون عملكم مؤيداً لهذه الآية . الله أعطانيه فحذار ان يمسه أحد ! »

وتلا الالتحام الآنف الذكر انتصار جديد اصابه البرنس أوجين على الأرشيدوق جان والارشيدوق البالاتيني في رعب في ١٤ يونيو وهو تذكار معركتي مارنغو وفردلاند وبعدما انتصر مرمون في عدة أماكن في دلماسيا انضم في نوبته الى الجيش العظيم مؤتمراً بأوامر الأمبراطور فرأى نابوليون ان الحين دنا ليضرب الضربة القاضية التي كان يستعد لها من أكثر من شهر فقد كان يلزمه بعد الدم المسفوك بفخر على غير جدوى في ايلو ان تشتعل نيران معركة فردلاند ولم يكن بد بعد اسلنغ من نشوب معركة وغرام واليك سرد أخبار هذه المعركة على ما جاء في النشرة الخامسة والعشرين المذكور فيها عبور نهر الدانوب في ٤ يوليو في الساعة العاشرة مساء وحريق انزرسدرف وعدة انتصارات جرت في اليوم الخامس منه .

معركة وغرام

« وكان الخوف الشديد قد دخل على العدو من انتصارات الجيش الفرنسوي والنتائج العظيمة التي أصابها بلا عناء على التقريب فأمر الامبراطور جميع جنوده بالسير وفي الساعة السادسة مساء احتل مواقعه . فجعل ميمنته من ستادلو الى جيراسدرف ووسطه من جيراسدرف الى وغرام وميسرته من وغرام الى نوسيدل . وكانت ميسرة الجيش الفرنسوي في غرس أسبرن ووسطه في راشدرف وميمنته في غلنزندرف . وكان يظهر في ذلك الموقف ان النهار كاد ينتهي وكان ينتظر وقوع معركة عظيمة في الغد . ولكن تمكن الفرنسويون من تجنبها وقطعوا موقع العدو حائلين دون تدبيره خطة من الخطط الحربية اذا ما كان الفرنسويون يستولون ليلا على قرية وغرام . وحينئذ يؤخذ خطه المتسع على غرة بمقتضى أحوال الحرب فيتقطع نظام فيالق الجيش وتضل عن غايتها ويتمكن منها دون

نشوب مواقع جدية ووقعت موقعة وغرام فاستحوذت جنودنا على هذه القرية إلا أن كتيبة من السكسونيين وكتيبة من الفرنسويين توهمت كل واحدة منهما وهما تحت جنح الدجى ان الأخرى كانت من الأعداء ومن جراء ذلك حبط ما كانوا ينوون تدبيره .

« وهيأوا العدة حينئذ لمعركة وغرام . وكانت خطة كل من القائدين الفرنسوي والنمساوي مخالفة لخطة الآخر فقضى الامبراطور ليلته في حشد قواه في الوسط حيث كان موقفه على مرمى قنبلة من وغرام . وحشد الدوق دي ريفولي قواه عند يسار أدركلا تاركا فرقة واحدة عند اسبرن بعد ما أمرها بالتراجع عند الحاجة الى جزيرة لوبو . وتلقى الدوق دورستادت أمراً بتجاوز قرية غرسهوفن ليدنو من الوسط أما القائد النمساوي فانه جرى على ما يخالف هذه الخطة أي انه أضعف الوسط وعزز الطرفين بتمديده اياهما .

« واحتل البرنس دي بنتي كرفو الميسرة في ٦ منه عند تباشير الصباح ووراءه الدوق دي ريفولي . وكان البرنس أوجين كصلة بينهما في الوسط حيث كان فيلق الكنت أودينو وفيلق الدوق دي راغوزا والحرس الامبراطوري وفرق المدرعين وهي تؤلف سبعة خطوط أو ثمانية خطوط .

« وزحف الدوق دورستادت من الميمنة الى الوسط أما العدو فانه سير بعكس ذلك فيلق بلغارد على ستادلو وكانت فيالق كولوراث ولختنستين وهيلر صلة بين هذه الميمنة وموقع وغرام حيث كان البرنس دي هوهنزولرن وطرف الميسرة عند نوزيدل حيث يبتدىء فيلق روزنبرغ لكي يهجم على الدوق دورستادت . ولما كان فيلقا روزنبرغ والدوق دورستادت يقومان بحركتين مختلفتين التقيا عند طلوع الشمس وباشرا القتال . ففي الحال خف الامبراطور الى ذلك المكان وعزز الدوق دورستادت بفرقة مدرعي الدوق دي بادو وهجم على فيلق روزنبرغ من كشحه ببطارية مؤلفة من اثني عشر مدفعاً من فرقة الجنرال الكنت ننسوتي . وفي أقل من ثلاثة أرباع الساعة ظفر فيلق الدوق دورستادت بفيلق روزنبرغ وبدده ودحره الى ماوراء نوزيدل بعد ما نكل به تنكيلا .

« وأصبح اطلاق المدافع على الخط بطوله في خلال ذلك الحين وصار

موقف العدو يتقوى شيئاً فشيئاً فكانت المدافع منصوبة على ميسرته كلها وكان الناظر الى هذه الحركات يتوهم ان القائد النمساوي لم يكن يقاتل طمعاً باصابة النصر بل وكان واضعاً نصب عينيه ادراك الوسيلة التي تمكنه من بلوغ غايته . وكان يظهر ان الجهل حمل العدو على تدبير موقفه بحيث ان الامبراطور خشي من أن يكونوا قد نصبوا له أحبولة فتردد حيناً من الزمان قبل اصداره الامر باتخاذ التدابير لاحباط تدابير العدو وتصييرها شؤماً عليه . فأمر الدوق دي ريفولي بالهجوم على القرية النازل فيها العدو وكان هـذا يضايق طرف وسط الجيش قليلا وأمر الدوق دورستادت بأن يدور حول موقع نوزيدل ويزحف الى وغرام وأوعز الى رجال الدوق دي راغوزا والجنرال مكدونالد بأن يهجموا على وغرام عند هجوم الدوق دورستادت عليها .

« وذاع في أثناء ذلك الحين ان العدو هجم هجوماً شديداً على القرية المستولي عليها الدوق دي ريفولي وان ميسرة الجيش الفرنسوي أحاط بها النمساويون على مسافة ستة آلاف متر على التقريب وان اطلاق المدافع بشدة كان صوته مسموعاً في غرس أسبرن وانه كان بين غرس اسبرن ووغرام خط طويل من المدفعية . فلم يبق من وجه للشك بأن العدو كان قد ارتكب خطأ فاضحاً ولم يكن لهم الا الاستفادة منه . وأمر الامبراطور في الحال الجنرال مكدونالد بأن يهجم بفرقتي بروصيه ولامارك وأن يعززهما بفرقة الجنرال ننسوتي وفرسان الحرس وبطارية مؤلفة من ستين مدفعاً من مدافع الحرس وأربعين مدفعاً من مدافع الفيالق الاخرى . وجرى الجنرال الكنت دي لوريستون خبباً ومعه المدافع المئة يؤم العدو من دون أن يطلق مدفعاً واحداً منها حتى صار على نصف مرمى تلك المدافع فباشر حينئذ اطلاق القنابل اطلاقا عجيباً أسكت صوت مدافع العدو وقذف الموت على صفوفه . ثم أن الجنرال مكدونالد حمل حملة صادقة وعضده الجنرال ريل ورماة الحرس . وكان الحرس قد غيروا موقف مقدمتهم إرادة أن يجعلوا الحملة مضمونة النتيجة . وتقهقر وسط العدو فرسخاً الى الوراء في أقل من لمح البصر وذعرت ميمنته عند شعورها بخطر موقفها وأسرعت الى التقهقر فصدمها الدوق دي ريفولي صدمة قوية . ولما كان انكسار الوسط يسوق الرعب ويضطر ميمنة العدو الى الانسحاب كان الدوق دورستادت

يهجم على الميسرة بعد ما استولى على نوزيدل وزحف الى وغرام متسنما تلك الهضاب وقد التحفت فرقتا بروصيه وغودان بمطارف المجد والفخار .

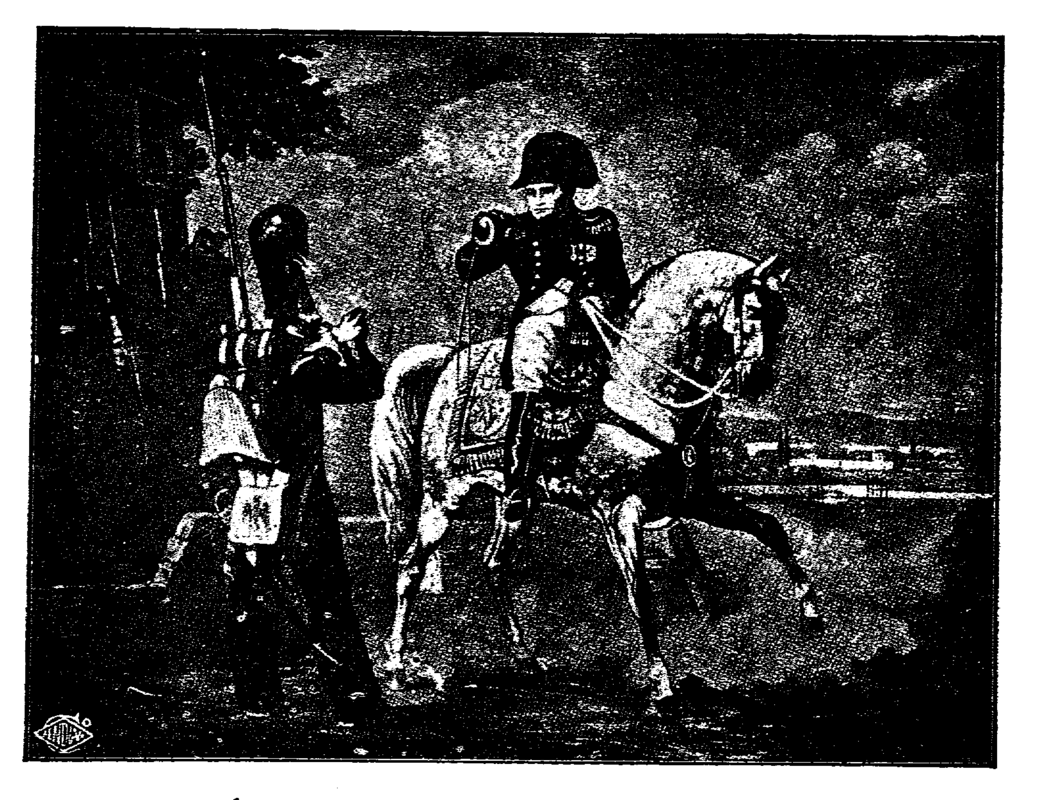
« وكانت الساعة العاشرة صباحاً ومع ذلك كان الاشخاص الذين لم يؤتوا دهاء عظيما يعلمون أن النصر كان مقرراً لنا .

« وزحف الكنت أودينو عند الظهر الى وغرام ليقوم بنصر الدوق دورستادت فنال بغيته واستولى على ذلك الموقع المنيع ومن الساعة العاشرة لم يكن العدو يقاتل الا ليضمن تراجعه وقد تقرر هذا التراجع منذ الظهر وتم باضطراب . وقبل دخول الليل بمدة طويلة توارى العدو عن الانظار . وكانت ميسرتنا في ياتلزه وابرسدرف ووسطنا على اوبرسدرف وفرسان ميمنتنا في مواقع ممتدة حتى سنكرخن .

« وتحرك الجيش زاحفاً الى كورنوبورغ في ٧ منه عند تبلج الفجر وولكرسدرف واتخذ له مراكز على نيكولسبورغ . وأصبح العدو المنفصل عن المجر ومورافيا محصوراً في جهة بوهيميا .

« هذه أنباء معركة وغرام الشهيرة المعدودة حداً فاصلا والمشتبك فيها ثلاث مئة ألف الى أربع مئة ألف مقاتل ومعهم ألف ومئتا مدفع الى ألف وخمس مئة مدفع من كلا الجانبين في حرب أوقدت نيرانها لاجل مصالح خطيرة في ميدان دبره وهيأه وحصنه العدو من عدة أشهر . وغنم الفرنسويون في هذه المعركة عشر رايات وأربعين مدفعاً وأسروا عشرين ألف محارب بينهم ثلاث مئة ضابط الى أربع مئة ضابط وعدد كبير من القواد . وقد غطت جثث القتلى ساحة القتال وكان من جملتهم عدة قواد وبينهم قائد يدعى نورمان فرنسوي الاصل خان وطنه ووقف قواه العقلية على مناوأته . »

هذه المرة الثالثة التي ألقي فيها بين يدي نابوليون حظ أسرة لورين وقد كان يتهمها بنقض اليمين ونكران الجميل أمام أوربا وأمام التاريخ وهذه المرة الثالثة التي بادر فيها ذلك الظافر العنيف في تهديده والشديد اللهجة في تعنيفه الى القبول بما اقترحه عليه مثيرو نار الحرب من عقد الصلح بعد ما هدم يوم وغرام جميع ما شيدوه في أذهانهم من صروح الآمال واستنفد كل ما كان عندهم من الموارد . ولما طلب عاهل النمسا توقيف رحى القتال منحه نابوليون



كان نابوليون كأب للجنود فعطش ذات مرة وتناول الابريق من أحد الجنود وشرب فقال له الجندى : انى أشرب بعدكَ يامولاى



سؤله فتم التوقيع على ذلك في ١٠ يوليو في زنايم ففتحت أبواب المفاوضات في الحال وظلت مفتوحة ثلاثة أشهر أقام نابوليون في أثنائها في قصر شنبرن .

وانتهى اليه في خلال اقامته في هذا القصر نبأ نزول ثمانية عشر الف بريطاني في جزيرة وخرين وتسليم فلسنغ ومحاولة البريطانيين فتح انفرس . فانفذ لساعته برنادوت والوزير دارو للدفاع عن المدينة الاخيرة فاضطر البريطانيون الى مغادرتها وركوب البحر للعودة الى بريطانيا العظمى بعد ما فتكت الامراض بنحو ثلاثة أرباع هذه البعثة .

وأمر الامبراطور بالجنرال مونه أن يحاكم على تقصيره في الدفاع عن فلسنغ . ولا يخفى أن ما كان نابوليون يبديه من العنف نحو الذين لم يكونوا يفعلون كل ما كان في استطاعتهم أن يفعلوه للذود عن حياض الشرف الفرنسوي كان يبدي ما يعاكسه من الارتياح الى التنويه بأهلية الاشخاص المعدودين من أصحاب الدهاء والبسالة وكانوا يساعدونه مساعدة فعالة في المجالس وفي ميادين الوغى وكان يسر بأن يكافئهم على أعمالهم النبيلة ومآثرهم الجليلة . ولذلك رقى بعد معركة وغرام أودينو ومكدونالد ومرمون الى رتبة المارشالية

وكان الجيش الفرنسوي قد احتل جميع المواقع الحصينة في المانيا من الدانوب الى الالب ومن الرين الى الاودر . ولما كان هذا الاحتلال محقراً للاهلين وشديد الوطأة عليهم اصاخوا الى ما كان العمال البريطانيون والنمساويون والبروسيانيون يحرشونهم به على فرنسا وزعيمها الاكبر وكان القوم في المانيا يجهلون مدار المفاوضات على الصلح ولذلك لم يمكنهم أن يقفوا على مخادعة حكومتهم ويكشفوا دخائلها ومكتومات ضمائرها . وكل ما كانوا يعلمونه هو أن الحرب ضربة شديدة عليهم فكانوا يلقون تبعتها على غازي بلادهم زاعمين ان مطامعه لم تكن ترتوي من الفتوح . وكان ذلك بدء النفور الوطني من نابوليون وقد صارت جرائيمه تختمر من ذلك الحين في ألمانيا وأوجدت اعداء جدداً وذوي بأس بين الشعوب لممثل المبدإ الشعبي وهو لم يكن يلقى حتى ذلك الحين الا أعداء عاجزين بين الملوك .

وقد ظهرت الدلائل الاولى على تلك العواطف التي نشأت في شنبرن وظهرت كالشمس في رائعة النهار فقد جاء من ارفرت الى فينا شاب مهوس يريد الايقاع

بنابوليون ففاجأوه وهو يوشك ان يضع مقصده موضع الاجراء فبقي ساكناً وغير متأثر ولم يبد ندامة ما بل تأسف على عدم تمكنه من الفتك بالامبراطور وقد شاء نابوليون ان يستنطقه بذاته عن بلاده واسرته وعلاقاته وعاداته فاجابه بان اسمه ستابس من ارفرت وانه ابن قس من اتباع لوثيروس ولم تتسن له معرفة شيل وشنيدر ولم ينتظم في سلك جمعية الماسون أو غيرها من الجمعيات السرية فسأله الامبراطور لماذا لم يقتله في ارفرت حين كان نازلا فيها . فاجابه لانك تركت بلادي في ذلك الحين تتنفس الصعداء وقد كنت معتقداً ان السلام مضمون لها ولم يكن هذا الشاب يبتغي البطش بنابوليون الا لاعتقاده ان العاهل كان سبباً للحرب وفاتحاً لا يعتريه سأم ولا ملل ومكدراً لحياض السلم في أوربا . ولو كان الشعب الالماني عارفا حق المعرفة أسرار تلك الاحوال ومحركي الحرب الحقيقيين لكان ولا مراء قد وجه سهام سخطه على حكومته ورفع عليها يده . وادرك نابوليون من حديث الشاب مقدار الهوس الذي كانت سياسة اعدائه الكاذبة قد القت بذاره في رؤوس الملأ الالماني . وقيل انه كان يبتغي الصفح عن ستابس لتأثره من حرية افكاره وجرأته ولرؤيته فيه آلة عمياء تحركها الاهواء التي أثارها اصحاب الطريقة القديمة في الاحكام ولكن أوامره تأخرت عن الوصول في الحين الملائم . وقد استقبل الشاب الالماني منيته برباطة جأش وهو يصيح بملء فيه : « فلتحي السلم ! فلتحي الحرية ! فلتحي المانيا ! »

على أن الصلح الذي كان له انصار ومريدون في الديار الجرمانية عقد في فينا في ١٤ اكتوبر سنة ١٨٠٩ وقد تنازل امبراطور النمسا بموجب هذه الوثيقة عن اراض جديدة لفرنسا وسكسونيا وغيرها . وان القيصر ذاته الذي لم يكن قلبه يميل الى فرنسا في اثناء الحرب ولم يكن يتمنى لها النصر اصاب حصته من اسلاب حلفائه السريين : فان نابوليون لاعتقاده صحة ما أظهره قيصر الروس من التودد اليه ايام كان في ارفرت اعطاه القسم الشرقي من غاليسيا البالغ عدد سكانه اربع مئة الف نسمة . ولما تم التوقيع على وثيقة الصلح برح نابوليون قصر شنبرن عائداً الى فرنسا فوصل في ٢٦ اكتوبر الى فنتنبلو .

الفصل الخامس عشر

الخلاف مع البابا — ضم الولايات الرومانية الى فرنسا

وكان الملوك في جميع جهات القارة الاوربية قد احجموا عن مواقعة نابوليون والتحرس به لاعتقادهم ان طالعه كان ميمونا وان سعده مسعد له وقد ذلت له كبرياء الاسر القديمة الملكية والاسطقراطية وتحاقرت أمام المجد الشعبي المجلل العرش الامبراطوري أو لجأت الى ما وراء البحار لتخبيء صغارتها وخزيها . ففي الجنوب فرت اسرة براغانس الى البرازيل لاتلوي على شيء ويممت الاسرة المالكة في نابولي جزيرة صقلية عند رؤيتها الاعلام الفرنسوية المنصورة واما بوربون اسبانيا فانهم تسابقوا الى بايون لالتماس مناصرة نابوليون والقاء تاجهم بين يديه . ولم تنج العتر المتعجرفة في الشمال من تجرع كؤوس الذل والخسيفة فان عترتي اللورين وبرندبورغ اللتين كانتا فيما مضى على جانب عظيم من الغطرسة والبغضاء أكرهتا على التصاغر والتماس محالفة قاهرها . وأما ذلك العاهل العظيم زعيم اسرة رومانوف فانه تظاهر بنبذه المهمة السامية المراد بها الدفاع عن الحق الالهي وأعلن في كل ناد انه من اصدقاء نابوليون الداهية ومن المعجبين بمن جعله المبدأ الثوري ولي الامر والنهي في فرنسا وكان يكثر من ارسال الهدايا وايفاد السفراء الى بلاطه . وقد جرى صغار الامراء وحكام الجمهوريات بحكم الضرورة على سبيل الاقيال والعهال وكبار الملوك ونموا لذلك الفرد الممتاز باسرار خضوعهم له وانقيادهم الى مشيئته . فاستذرى أصحاب السمو في المانيا بكنف الفاتح الذي لايبارى بمضمار . والجمهوريون الهولنديون طلبوا منه أن يقيم عليهم ملكا من اسرته وقدم له الجمهوريون الايطاليون التاج الحديدي ورضيت الجمهورية السويسرية بتوسطه الهائل .

الا انه مع ذلك الخضوع العام الناشيء عنه الاعجاب عند البعض والخوف عند البعض الآخر وفي ذلك المشهد الواسع المرسوم فيه اذعان الملكية والجمهورية معاً بقي نقصان لم يكن بد من اتمامه . ففي احدى زوايا اوربا وفي اقصى ايطاليا جرؤ اضعف شخص من اصحاب السلطان السياسي على معارضة صاحب السلطان

العـام الاكبر ولم يرعه بما ابداه من المماكسة والملامة والتهديد ان يكدر صفو المدائح والتملق التي كانت اصواتها يردد صداها من طرف القارة الى طرفها الآخر . فهذا الملك العنيد وتلك الاداة الاخيرة المقاومة الماضي لمطالب رجل العصر كان البابا الذي جاء بذاته تاركا قصر الكويرينال ليتوج نابوليون في باريس .

فهل كان البابا وهو ليس بشديد الحول والطول كصاحب سلطان زمني يستطيع الاتكال على تاثير صواعقه الروحية ؟ وهل كانت العصور المتوسطة الهاوية المهدمة من كل جهة باقية في رومية مملوءة قوة وحياة ؟ وهل اصاب الانظمة والاعتقادات الدينية المتسلسلة عنها سيادة البابوية وبهاؤها ضربات ذلك العصر القاضية اقل مما اصاب الانظمة والاعتقادات السياسية المبنية عليها صروح سيادة الملكية والارسطقراطية ؟

ان التاريخ يذكر لنا خلاف هذا الوهم فمن اكثر من مئتي سنة كتبوا من فرنسا الى الكرسي الرسولي ان نشراته كانت تتجمد عند مرورها بجبال الالب . ومن ثلاثة قرون كان الروح الفلسفي والنظريات الحرة والبحث المطلق قد سلخت جميع الانحاء الشمالية الاوربية على التقريب عن السلطة البابوية وقد ابتدأ العقل البشري يعالج اعماله عن طريق المسائل الدينية في المانيا بتمرده على السلطات الباقية من القرون المتوسطة وانكاره سيادتها وقد جلبت الثورة في الكنيسة الثورة على الحكومة في بريطانيا العظمى اجل ان البدعة والانشقاق في فرنسا احترما عرش القديس لويس او انهما لم يتمكنا من الاستواء عليه الا ان الايمان الروماني لم يستفد شيئاً من المحافظة الرسمية في هذه المملكة المسيحية فبقطع النظر عن الضربات الموجهة الى تقاليد الفاتيكان بظهور الغاليكانية المبتغية اخضاع دهاء هلدبراند لدهاء بوصويه تسرب الى جميع طبقات الهيئة الاجتماعية الفرنسوية روح ثوري اشد جرأة من البدعة والانشقاق واقوى منهما وهو روح الفلسفة فان هذا الروح لم يتعمد معارضة مذهب بمذهب بل تعمد زعزعة اركان جميع الاديان بنشره لواء الشك فوق جميع العقائد وقد قضى لبانته من هذا السعي المقرون بالجرأة فقد كان منتانيه وديكارت وفلتير وروسو اشد عداوة للكرسي الرسولي من لوثيروس وكلفينوس .

ولم يكن البابا بيوس السابع يستطيع نكران الحقيقة التي اعلنها بعده خلفاؤه

اعلاناً صريحاً يدمي الفؤاد بيد انه كان مستودع سلطة دانت لها الملوك وانقادت اليها ضمائر الشعوب لان الكهنوت الحافظ الوحيد للعلوم والاداب والحارس للمدنية كان ايضا المحامي الوحيد للشعوب من تطرف اصحاب الاقطاعات في الهمجية وعليه لم يكن الحبر الروماني مع تباهيه بهذه الذكرى واستناده في الوقت عينه الى الايمان الذي كان يدله على مصدر سلطته في السماء يعتبر التراخي في الاعتقادات سوى اضطراب عرضي يعبث بالفكر البشري ولا يلبث ان يزول وقد حدته الانفة والفروض على رفضه الاعتراف بان سقوط منزلة مذهبه غير مبدأ سلطته السامية والمجاهرة بها .

الا ان هذه الدعوى من البابا لم تكن سوى وهم شريف أجل ان السلطة الروحية التي هذبت العالم الاقطاعي لم تسقط الى الدركات التي سقط اليها اصحاب الاقطاعات انفسهم وقد كان من الطبيعي ان الافكار الدينية التي خولت رجال الدين تفوقا على النبلاء أيام كانوا أصحاب الشدة والبأس والقوة والمراس صيرت وقتياً انهدام الثقة الاكليريكية أقل كمالا وأقل عمقاً من عدم الثقة بصاحب السلطة العليا الدينية فان زوال الارسطقراطية لم يترك أدنى فراغ في الحكومة ولا يكون الامر على هذه الوتيرة عند فقدان السلطة الدينية لانه اذا سهل على الفلسفة الهادمة النظام السياسي ان تجعل نظاماً جديداً يحل محله وان تنشيء جمهورية أو ملكية وتضع دستوراً وتنظم حكومة وتسن نظاما وتلقى اشخاصاً وتوجد شرائع لتستنقذ وقتيا وبشكل يتفاوت في الراحة والهناء الاشياء المادية للمجتمع الانساني في خلال الاضطراب الادبي الملم بأدوار الانتقال فليس شيء من ذلك ممكنا في النظام الديني . فليس ثمة من نظام معجل يرجى سنه أو اقتراع على العقائد أو ترقية أشخاص الى مناصب قد يرقون اليها بطريقة استبدادية . فتبقى حينئذ المعتقدات القديمة مع ضعفها كانقاض مكرمة يلجأ اليها كل راغب في الصلاة والايمان وكل من يعيش على سبيل العادة عند فقد الايمان .

هذه هي المثابرة العادية التي يباشرها جمهور المؤمنين . وهي كافية لان تجذب الى المعابد فريقاً من الناس وان تخبيء عدم اكتراث النفوس الباطني تحت ظواهر ممارسة باطلة للدين . فالمثابرة على الدين في اثناء فساد المذاهب والمعتقدات تستطيع وحدها مخادعة السلطة الروحية في موقفها الحقيقي وجرها الى الظن

بأنها لاتزال قادرة على مخاطبة الملوك والعمال باللهجة العاتية التي كان يخاطبهم بها راهب كلوني

واراد بيوس السابع من سنة ١٨٠٥ أي بعد تتويج الامبراطور بقليل من الحين ان يحقق الاماني التي حملته على عبور الالب والشخوص الى باريس لتقديس الثورة الفرنسوية بشخص نابوليون بونابرت . ولم يكن البـابا يني عن طلب ارجاع ولايتي بولونه وفراري اليه وتوسيع دائرة املاكه الا ان نابوليون لم يكن ميالا الى اجابة سؤله في ما يتعلق بايطاليا فـكان ينبذه كلما طلب منه . فنـدم الحبر الاعظم على معاضدته عملا يخلع عن عرش مملـكة فرنسا « ابناء الـكنيسة الابكار . » ولم يخف تأسفه واستياؤه في اقواله وكتاباته وافعاله . فأبى الموافقة على تثبيت الايساقفة الذين سماهم الامبراطور بموجب الوثيقة المعقودة بينه وبين الكرسي الرسولي وأصر علي فتح ثغوره في وجه البريطانيين

فاستاء نابوليون من هذا العمل وكتب الى البابا في ١٣ فبراير سنة ١٨٠٦ مايلي :

« ان الانسان يضحي بالنفوس في سبيل المصالح العالمية ...

« ان قداستك ملك لرومية وانا عاهـل لها ويجب على جميع أعدائي أن يكونوا اعداء لها . »

فاجابه بيوس السابع بلهجة كان يفوه بمثلها بونيفاسيوس وغريغوريوس في غابر الحين

« أن الحبر الاعظم لايعترف ابداً ولم يعترف قط بسلطة تفوق سلطته ... فامبراطور رومية هو كالعنقاء . . . . وان نائب اله السلام مقضي عليه بان يحفظ السلام مع الجميع من غير ما تمييز بين الـكاثوليك والمنشقين . »

ومعلوم ان مثل هذا الجواب الذي املاه الاستعلاء والتيه لم يكن ليسكن هائج الامبراطور فأصر على مطالبه ولـكن على غير طائل . وكان بيوس السابع يزعم ان في نص الوثيقة عدم تحديد مدة التثبيت القانوني فلم يشأ أن يترك ما كان يدعوه واسطة للعمل بيد الكرسي الرسولي نحو الحـكومات ونحو الشعوب . ثم أن ادخال البريطانيين الى ثغور بلاده كانت تدعو اليه حاجة رعاياه ومبادؤه السلمية ومحبته العامة

وعالج مندوب نابوليون ان يفهم الحبر الاعظم ان مثل هذه اللهجة وهذا التعليل لم يبق لهما محل من الاعراب وانهما يجلبان الويل على رومية فلم يفلح في مسعاه وظل البابا مصراً على عناده وقال للمعتمد الفرنسوي : « وهب نزعت مني الحياة فاني القى في ضريحي شرفا اثيلا واصبح نقي الجيب في عينيه تعالى وعند البشر . . . وهب أجرى العاهل تهديده وابى ان يعترف بي كملك فلا اعترف به كامبراطور : وان اصابني شر فهو لا يلقى خيراً . » وكان بيوس السابع معتقداً أن اللعنة الخارجة من فيه تصبح شؤماً على نابوليون وان للكرسي الرسولي جر مغنم من قطع العلاقات بينه وبين الحكومة الفرنسوية على تلك الصورة فكان يقول: « ان الاضطهاد ينشىء الانشقاق وهو الذريعة الوحيدة لاستنقاذ الكنيسة »

على ان جميع هذا الكلام المقرون بالانفة والعناد نقله الى العاهل مندوبه فدهش منه واغتمّ واشتد سخطه وكتب في أول مايو سنة ١٨٠٧ من ضفاف الفستول الى البرنس اوجين نائبه في ايطاليا ما يأتي : « ان البابا لا يشاء ان يكون لي أساقفة في ايطاليا فاذا كان هو يعتبر هذا الامر خدمة للدين فكيف والحالة هذه يجب على المقضي عليهم فقدانه أن يتصرفوا ؟ »

ولم تزعزع نتائج حروب بروسيا وبولونيا عزائم بيوس السابع . وكان أن البابا تأثر قليلا بعد تلست من خضوع ملوك الشمال لمقاصد نابوليون فأصر على معارضة قاهر أعدائه في فردلاند بسيادة الكرسي الرسولي على جميع دول الارض . ولما كان نابوليون على الطريق في أثناء عودته الى باريس ازمع أن يبعث من درسد الى معتمده لدى الكرسي الرسولي برسالة طويلة أبرز فيها بلهجة جافية حكمه على مزاعم البابا وقال انه سيتوجه الى رومية بذاته اذا قضت الاحوال عليه بمجاوبة البابا شفاهاً واليك بعض ما جاء في الرسالة :

« هل يعتقد قداسته أن حقوق البابا وية مفضلة على حقوق عرش الامبراطورية؟ فالملوك كانوا قبل الباباوات . . . أيقولون أنهم سيتظلمون مني الى جماعة المسيحيين ؟ . . . فالآن يوجد فرق في التاريخ قدره ألف سنة . . . وقد رقي الى علمي أن بلاط رومية يدعو الناس سراً من سنتين الى شق عصا طاعتي فأنا احتمل هذا الامر من البابا الحالي ولكنني لا أحتمله من غيره من الباباوات !

فماذا يقصد بتظلمه مني الى جماعة المسيحيين ؟ أيريد أن يرشقني ويرشق عرشي بسهام الحرم ؟ أيدور في خلده ان جنودي يلقون السلاح من أيديهم ؟ أيقع في نفسه أنه يضع المدى في أيدي الشعوب لتقتلني ؟ لقد قام باباوات مهوردون وجاهروا بهذا المبدأ الممقوت ولكن يشق علي أن أعتقد أن بيوس السابع مصمم على النسج على منوالهم . فلم يبق لدي الا قص شعري والاعتزال في أحد الأديار . . ان هنالك حماقة عظمى تجعلني أرثي لروح الطيش الهابة نسماته في صدر كردينالين أو ثلاثة كرادلة يديرون شؤون رومية . لقد عانى البابا الحالي مشقة المجيء الى باريس لتتويجي وعرفت فيه رجلا من البررة ولكنه يبتغي مني أن أتنازل له عن ولايتي بولونه وفراري فأنا لا استطيع ولا أشاء التنازل عنهما . فالبابا شديد القدرة . . . والبابا يتوعد بأن يستنجد بالشعب فهل هو عازم على الاستنجاد بشعبي ؟ فماذا يقولون ؟ انهم يقولون كما أقول أنا أي أنهم يريدون الديانة ولكنهم لا يريدون أن يضعوا على مناكبهم نير سلطة أجنبية . فأنا استلمت تاجي من الله ومن ارادة الشعب وسأكون دائما في نظر بلاط رومية كشارلمان وليس كلويس الحليم . فاذا كان كهنة رومية يعتقدون انهم يستطيعون بدسائسهم وحيلهم ان يصيبوا توسيعاً لدائرة سلطتهم الزمنية فانهم في مهامه الضلال هائمون وأنا لا أعطي الولايتين المار ذكرهما ثمناً لتسوية المسألة . »

ان الموقف الثابت الذي ظهر فيه حبر أعزل امام فاتح يرتجف كل شيء أمامه في أوربا ويخضع له متطامناً كان ولا مراء مشهداً جميلا شريفاً إلا ان مزاعم البابا وتهديده كان فيها كما قال نابوليون خطأ تاريخي قدره الف سنة فقد ذهب عمل رومية سدى لأن القوة الأدبية وأخلاق أسقفها المطبوعة على الحزم وشدة الصريمة لم تكن لتستطيع ان ترد اليها سطوتها القديمة وتفوقها الزائل ولم تكن سوى واسطة لاظهار صفات فرد عظيمة ومجيدة . فان لعنة المدينة المقدسة أو بركتها أصبحتا من ذلك الحين سيين . ولم يكن أدنى ملك يحتفل بهما لانه لم يكن شعب من الشعوب يتوقع من رومية علامة الخضوع أو العصيان والاخلاص والنفور لرؤسائها وهي قد شاءت هذا الامر . فانها بعد ما تسلطت على الملوك حبا لمصلحة الشعوب باسم التمدن المسيحي في هاتيك



الامبراطور يزور مستشفى الانفاليد متفقداً أحوال المرضى وكان بهذه العاطفة يستميل اليه القلوب



العصور حالفت الملوك على الشعوب تحت راية الاوهام وتجاوز حدود السلطة وقت ما عمد التمدن في أدوار تحوله المتواصل والمتقدم الى خلع ثوب الكاهن والالتحاف برداء الفيلسوف فنشر في العالم أفكاراً جديدة جريئة يستطاع تطبيقها على تعاليم الانجيل أكثر مما يستطاع تطبيقها على عادات الكهنوت المقبولة عند السلطة الزمنية لقسمة الامتيازات السياسية وملاذ الحياة العالمية .

ولم تبق حينئذ لعنات الفاتيكان الرهيبة موجهة على مظالم وافراط الطاغية الاقطاعي بل على العقل غير سلس المقادة وعلى رغبة الشعوب المظلومة في التحرر: فتم التحالف بين تاج الملكية وتاج البابوية من غير ما تمييز بين المعتقدات الدينية فعوملت في رومية الملكية المعتصمة باهداب البدعة او الجارية على طريق الانشقاق افضل مما عوملت به فيها الحرية الارثوذكسية . وانقضت الصاعقة في وقت واحد على دور الاساقفة وقصور الملوك فتصالحت القوات التي كانت متمادية في القرون المتوسطة وتقربت الواحدة منها من الاخرى تحت صدمات هذه العاصفة فكانت قد تجاوزت الحد معاً في عظمتها وهذا هو السبب الذي من اجله أصيبت معا بالانحطاط . ولما كان تهكم الفيلسوف وكلام المحامي الروماني اللاذع يلطخان بردة الملك او يمزقانها نظرت ايضا طمول لا تزول وفتوق لا ترتق في الحلة الرومانية وشعر الكرسي الرسولي بتزعزع عنيف من جراء الصدمة التي قلبت العروش ودكتها دكا

على انه وان كان بيوس السابع يتقاضى ما كان لاسلافه من السيادة العامة مع عدم تمييزه فرق الازمنة فان هذا التقاضي السامي والجريء لم يكن معتبراً سوى خطأ تاريخي لا نتيجة له. وكان يتسنم على غير جدوى ذروة العظمة التقليدية التي للفاتيكان ويهدد من الكورينال برشق صواعقه الخامدة نيرانها على العاهل العارف بطلان هذا التهديد . وكان هذا العاهل الكبير عالماً انه لم تكن تنتصب لمناهضته تلك البابوية الهائلة التي كانت في القرون المتوسطة تهز المعمورة وانما كان المنبري لمواقعته شبحها الضعيف وانه لم يكن يلزمه جرأة عظيمة للازدراء بالحرم بين شعب كان سالكا مسلكه بعدم اعتقاده ببعث الماضي ولم يكن صوت زعيم المسيحيين الاكبر يحرك سوى نفوس بعض المعتزلين في الاديار والمعابد والمناسك . الا ان بيوس السابع مع هزه الحسام المثلوم الحد الذي كان يهزه

غريغوريوس السابع وسكستوس الخامس اظهر استعداده لأن يستقبل في قصره العدو الهائل الذي ارسل فانبأه بزيارته القريبة له وقد قال في هذا الصدد : «اذا تحقق هذا الامر فاننا لا نترك لاحد غيرنا شرف استقبال مثل هذا الضيف العظيم فان قصر الفاتيكان الذي سنهيئه سيعد لاستقبال جلالتكم وحاشيتكم . »

ولكن الامبراطور لم يتمكن من القيام بهذه الرحلة فان حوادث البرتغال واسبانيا كانت تضطره الى البقاء في باريس وكانت تجعله اشد ميلا الى الزحف الى انحاء البرنات منه الى اجتياز الالب . ومع ذلك ظلت المفاوضات مع الكرسي الرسولي دائرة على ايدي مندوبين فوضت اليهم خصيصاً من دون ان ينتهوا الى غاية محمودة : فكان البابا يشتد تصلباً وعناداً لنبذ مطالب نابوليون وهذا يصر في نوبته على نبذ الموافقة على رغائب الحبر الاعظم وعليه اصبح قطع العلاقات امراً محتوما . وكتب نابوليون الى معتمده بتاريخ ٩ يناير سنة ١٨٠٨ : « اقطع اسباب المفاوضات فهذه هي مشيئة البابا ولا تدع بين بلاده وبلادنا ادنى علاقة سلمية . » وكان ذلك الامر بمثابة اعلان احتلال الجيوش الفرنسوية القريب للولايات الرومانية ولم يكن بيوس السابع لينخدع بذلك فقال للمعتمد الفرنسوي عند مثوله لديه في غاية الشهر عينه « انا لانقاوم مقاومة عسكرية فانا ساعتزل في قصر سانطانج ونحن لا نطلق عيارا ناريا واحدا فليحطم قائدكم ابوابنا فيبصرني عند مدخل القلعة وتضطر الجنود الى العبور على جثتي وسيدري العالم طراً ان الامبراطور داس برجليه من توجه . وعلى الله انجاز مايبقى . »

أجل ان كل شيء في هذه اللهجة كان سامياً فالحبر الاعظم أظهر انه نبيل في إذعانه كما كان نبيلا في آماله . الا ان ذلك الثبات وتلك الثقة لم يكونا مبنيين الا على الايمان المجرد الذي كان هذا الكاهن الاعظم يشعر به وكانا زينة أخلاقه فكأن الله أعرض عن الاهتمام بالباباوية ولم يكن العالم لقلة استعداده للتأثر من أجلها يشعر بالمخاطر المحدقة بها وبتظلمها المر .

وقد صمم نابوليون كما توهم بيوس السابع على الاحتلال الحربي لاملاك الكرسي الرسولي وأصدر أوامره بذلك . وكان يكفي ارسال بعض فرق من الجيوش الفرنسوية لفتح مدينة نالت السيادة على العالم والوعد بالسيادة الخالدة . وكانت مقاومة كل قوة عسكرية تذهب سدى فان ملكة الشعوب

توارت ولم يبق دهاء العصور القديمة ذا سؤدد وتفوق في الـكابيتول ولفظ دهاء القرون الوسطى أنفاسه المعدودة في الفاتيكان وان العلامة التي أولت قسطنطين النصر انحنت بلا مقاومة أمام أعلام نابوليون وقد استطاع جنوده ان يقولوا عند استيلائهم بغير مشقة على العاصمة العظيمة أن المدينة الخالدة لم تكن من ذلك الحين سوى ضريح فخم غيب فيه رفات الاحبار العظام والقياصرة الـكبار .

ولم يكن هذا الحادث السياسي الخطير يقل في الاهمية عن حادث بايون وقد كان من مكملات الثورة الفرنسوية ففي اثناء المفاوضات الدائرة بين بيوس السابع ونابوليون بونابرت عزز الدهاء الحديث سلطته وحدد نهاية العظمة الرومانية برفعه شاراته فوق قباب معهد الماضي الشامخ من دون ان يلقى معارضة ومن دون ان يستثير احتجاج الشعوب والملوك المسيحيين ومن دون ان يقرع في العالم الـكاثوليكي جرس الحزن استنهاضاً للهمم لشهر حرب دينية جديدة .

ومع ذلك لم يكن غزو أملاك البابا ليذلل مصاعب عناده فان بيوس السابع رشق بسهام الحرم كما كان قد هدد بها سابقاً الامبراطور حين رأى ان هذا الاخير لم يكن اقل تصلباً منه في عزائمه وان احتلال رومية العسكري تطول مدته الى اجل غير محدود . وهذا ما فاه به الاب الاقدس في هذا الشأن . « نعلن بسلطة الآب الـكلي القدرة والرسولين بطرس وبولس وسلطتنا على رؤوس الاشهاد انكم انتم وكل من لف لفكم استوجبتم الحرم من جراء الاعتداء الذي اقدمتم عليه ، الخ . الخ . »

وكان نابوليون في فينا وقد تكلل باكاليل النصر حين انتهى اليه نبأ هذا الحرم . فعقد في الحال عروة العزم على الطلب من البابا أن تضم أملاك الكرسي الرسولي الى السلطنة الفرنسوية واذا ما رفض طلبه اضطرته الاحوال الى سبي قداسته وقد فوضت هذه المهمة الشاقة الى الجنرال راده فجاء هذا الى قصر الكويرينال لتلك الغاية في ليل ٥ و٦ يوليو سنة ١٨٠٩ وطالح الضغط على بيوس السابع ليرضى بتسليم املاكه الزمنية تفاديا من التدابير العنيفة التي تعرضه لها مقاومته الباطلة فاجابه الحبر الاعظم : « لا استطيع ذلك ولا يحسن بي أن افعل هذا الامر وانا لا اريده . فقد واثقته تعالى على ان احفظ للكنيسة المقدسة جميع املاكها وعليه

لاانقض ابداً هذا العهد . » فقال له الجنرال : « أيها الاب الاقدس يسؤني نبذ قداستك لهذا الطلب فانت باقدامك على هذا الامر تجلب عليك مصائب جديدة» فقال البابا : « قد قلت ولا شيء على الارض يستطيع ان يجعلني اغير شيئا من قولي فانا مستعد لسفك دمي حتى آخر قطرة منه وان فقد الحياة في الحال ولا احنث في العهد الذي عاهدت الله عليه . » فقال الجنرال : « قد يجر عليك العزم الذي عزمته مصائب شديدة . » فقال البابا : « لقد عزمت على ذلك ولا شيء يقوى على زعزعة عزمي » فقال الجنرال : « وحيث أن هذا العزم هو عزمك فانه ليسوءني ماتلقيته من الاوامر من مولاي الامبراطور والمهمة الموكول الي قضاؤها . » فقال البابا : « ان هذه المهمة لاتجلب عليكم يا ابني بركات السماء . » فقال الجنرال : « يجب علي أيها الأب الاقدس أن أنطلق بقداستك . » فقال البابا : « أهذا هو عرفان الجميل المدخر لي على كل ما فعلته لأجل أمبراطوركم ؟ أهذه هي المكافأة لي على تسامحي معه ومع الكنيسة الغاليكانية ؟ ولكن ربما كنت من هذه الجهة مخطئا نحوه تعالى ولذلك يريد معاقبتي وأنا أذعن متصاغراً . » فقال الجنرال : « هذه هي مهمتي ويسؤني أن أتمها فأنا من الكاثوليك أبنائك . »

وطلب حينئذ الكردينال باكا أن يباح للاب الاقدس باستصحاب الاشخاص الذين يعينهم فأجاب الجنرال نيافته قائلا له : « انه بحسب أوامر الامبراطور يستطيع هو دون سواه أن يصحب البابا . » فقال له الكردينال : « وكم من الوقت تمنحنا لتهيئة أهبة السفر ؟ » فأجابه الجنرال : « نصف ساعة . » فعند ذلك نهض الحبر الأعظم ولم يفه بغير هذه الكلمات : « هيوا بنا فلتكن مشيئته تعالى ! »

وكانت مركبة عند باب من أبواب القصر تنتظر البابا فصعد اليها بيوس السابع والكردينال باكا وسار امامهما الجنرال راده في مركبته وكانت عند « باب الشعب » مركبة أخرى تنتظرهم فاغتنم الجنرال الفرنسوي الفرصة عند انتقال البابا والكردينال الى المركبة الثانية وكرر الحاحه على البابا بقوله له « لايزال لقداستك وقت كاف للتخلي عن املاك الكنيسة » فاجابه البابا بشوفة « لا » وفي الحال أطبق عليه باب المركبة . وبعد دقائق خرج من رومية على

طريق فلورنسة . ويزعم بعض المؤرخين ان الجنرال راده أوصى فيما بعد المصور بنفنوتي أن يصنع صورة تمثل خروج البابا من منتي كافالو مع جميع الذين حضروا وداعه .

وقال المسيو دي بوريان : ان الحبر الاعظم التاسع الجد كان تائهاً من مدينة الى أخرى ولم يكن أحد من الناس يجرؤ على استقباله عنده . فارسله اليزا من فلورنسة الى طورينو وأرسله البرنس برغيزي من طورينو الى داخلية فرنسا وكانت فرقة من الجند تخفره في رحلته . وأرسله نابوليون أخيراً الى صافون في بلاد البرنس برغيزي وقد قصد بهذا الامر ولا مراء أن يذكر ختنه بانه قبلما صار من ذوي قرابته بالمصاهرة نال شرف مقامه من البابا بولس الخامس . وعلى كل حال لم يستنزل هذا الحادث المحزن مع ما استوجبه فاعله من الملامة صواعق السماء عليه حالا انتقاما لرئيس الكنيسة المقدسة الاكبر لانه في غد اليوم الذي أجبر فيه البابا على الخروج من عاصمته اصابت الجيوش الفرنسوية انتصارا باهرا في وغرام .

وكان ان نابوليون وهو في قصر شنبرن في أثناء المفاوضات مع النمسا بشأن عقد الصلح أرسل الى الجنرال ميولي قائد الجيوش الفرنسوية في رومية أمراً باجراء المرسوم الامبراطوري القاضي بضم أملاك الكرسي الرسولي الى السلطنة الفرنسوية . واشعر الامبراطور المجلس الاشتراعي بذلك الامر عند افتتاح جلساته لسنة ١٨٠٩ على أثر عقد وثيقة الصلح في فينا بانفاذه اليه الرسالة الآتية :

« ان التاريخ رسم لي الخطة المقضي علي انتهاجها مع رومية فالباباوات الذين تولوا السيادة على قسم من ايطاليا أظهروا في كل حين العداوة لكل دولة تسود في شبه الجزيرة واستخدموا سؤددهم الروحي لاقامة العقبات في وجهها والقاء الجنادل في طريقها . وقد ثبت لي أن التفوق الروحي الذي يستخدمه في بلادي ملك أجنبي يعاكس مصلحة استقلال فرنسا وكرامة عرشي وضمانه . على اني لما كنت أعترف بضرورة التفوق الروحي لخلفاء زعيم الرسل لم أتمكن من التوفيق

بن هذه المصالح العظيمة الا بالغاء هبات العمال الفرنسويين « أسلافي » وبضم الولايات الرومانية الى فرنسا . »

وكان بيوس السابع منتظرا وقوع مثل ديتك الاغتصاب والاضطهاد وعليه لم يكن شيء من الاشياء يوهي نفسه الكبيرة . ولما تم ما كان يتوقعه ازداد ثباتا في عزمه وفي أواخر سنة ١٨١٠ أبى تثبيت اسقف كان نابوليون قد اقامه في أبرشية فلورنسة ونهى أيضا عن قبول مدبر لها . فطلب الامبراطور من مجلس شورى الدولة اصدار تقرير عن هذه الامور وأمر بطبعه مع البراءة البابابوية الصادرة بهذا الشأن . وقد ذهبت على غير طائل مساعي المبينين له عدم موافقة اعلان مثل هذه الامور . فقال : « أرغب أن تعرف أوربا جمعاء طول اناتي واستنزال البابا لي وأسباب التدابير التي سأتخذها لمنع وتلافي حدوث مثل هذه الحوادث من الآن فصاعدا فرئيس الكنيسة يرتكب جريمة بمواقعته عاهلا يحترم عقائد الدين . ومن المقتضي علي أن أدفع عن تاجي ورعيتي والعالم طرّا مثل هذه الاعمال الجريئة التي طالما أذلت الملوك وأقلقت راحة الانسانية . . . فالبابا الموحي التمرد الى الرعية لا يكون رئيساً لكنيسة الله بل يكون بابا الشيطان .

« وقد دنت الساعة لوضع حد لمثل هذه الجرأة الشديدة والاختلاس والاضطراب . وعندي ان العناية انتدبتني لاحصر في ضمن دائرة العدل ما انتحله البابوات من السلطة المؤذية وان اصون منها الجيل الحاضر واخلص منها الاجيال الآتية الى ماشاءالله. فلتتخذ في فرنسا على الاقل لمناوأة هذه السلطة الدائمة الازدياد والمطردة الامتداد التحفظات نفسها المتخذة عند غيرها من الدول الاوربية . وسيبسط من الان حتى ثمانية أيام لمجلس الشيوخ مشروع عمل يراد به إعادة ما كان للعمال من الحقوق أي تثبيت تسمية البابوات ويجب على البابا قبل أن يرسخ قدمه في عرش البابابوية أن يقسم أمام امبراطور الفرنسويين على أنه يخضع لمنطوق المواد الاربع المذكورة في الوثيقة الموضوعة لرجال الدين في سنة ١٦٨٢ . فاذا كانت هذه المواد أرثوذكسية فلماذا ينبذها البابوات واذا لم تكن موافقة لمعتقد البابوات أو ليس البابوات والفرنسيون يدينون بدين واحد ؟ »

ان الفرنسويين اصبحوا والحق يقال من عهد طويل لا يدينون بالدين عينه الذي يدين به البابوات بصرف النظر عن المظاهر الخارجية لاستعمالهم الطقس المشترك نفسه ولولا ذلك لما كان العاهل المحروم لاعتدائه على ميراث القديس بطرس وسجنه خليفته قد استطاع أن يسوق تحت لوائه أمة مملوءة اخلاصا وحماساً حين كان أسيره العظيم يرى انتحابه وتذمره وتظلمه تسقط في وهدة لاقرار ولا صدى لها اعني بذلك عدم الاكتراث .

الفصل السادس عشر

طلاق الامبراطور — تزوجه بارشيدوقة نمساوية

ولما عاد نابوليون من المانيا عرج على قصر فنتنبلو فاقام فيه ردحا من الزمان وأصدر عنه عدة مراسيم ونشرات تتعلق بادارة شؤون الامبراطورية ولما وصل الى عاصمته قدم اليه الملوك الذين أنشأ لهم ممالك وأجلسهم على عروشها ليهنئوه بانتصاراته وعقده الصلح وعوده بالسلامة . وأرسلت ميلانو وفلورنسة ورومية وفوداً لتلك الغاية وأنفذ السينودوس الاغريقي وفداً استقبله الامبراطور في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٩ في حفلة شائقة . وكان قد قرب موعد الاحتفال بذكرى التتويج وبتذكار معركة استرلتز فلم يدخر شيئا لتصيير هذا الاحتفال فائقا في البهاء جميع ماتقدمه من الاحتفالات . وزادوا على هذا الاحتفال السنوي صلاة شكر على عقد الصلح ولم يقتصر في هذه المرة على حضور مجلس الشيوخ والمجالس الأخر الاحتفال في كنيسة نوتردام بل حضر أصحاب الجلالة وأصحاب السمو الذين كانوا يؤلفون في ذلك العهد بلاط الامبراطور وموكبه كملك الساكس وملك هولندا وملك وستفاليا وملك نابولي وملك ورتمبرج وقدم بعد أيام نائب الملك في ايطاليا وملك بافاريا وملكتها فازداد بهم عدد أصحاب الرؤوس المتوجة .

وكان نابوليون يستطيع الزعم أنه احتل اسمى ذروة من ذرى العظمة والمجد وحيث لم يتسن له نصب اعلامه فوق برج لندرة لم يبق له شيء آخر يفعله في أوربا مما يزيد قوته وفخره ومع ذلك لم تكن مهمته قد تمت بعد. أجل ان الثورة رسخته

قدمها بواسطته وعلى يده في نابولي ومدريد ورومية وميلانو وفينا ومونيخ وستتغارت وكاسل ومايانس ودرسد وهمبورغ وبرلين وفرسوفيا الا ان الثورة المقضي عليها أن تبدو متنكرة بشكل الوشاح الامبراطوري لم تكن قادرة على استمالة الشعوب اليها بطريقة سريعة تضمن لها الانتشار بجرأة وقد كان يهمها أن تقيم مدة طويلة في الخارج لتتمكن من بث أفكارها وأخلاقها بثا بطيئا خفيا فترسخ في الاذهان وتختمر فيها .

وكان نابوليون من أشد الناس غيرة عليها واحرصهم على خدمتها فمال بجملته الى انشاء اسرة والحصول له ولذريته على شرف مؤاخاة الملوك والعهال والاقيال اصحاب السلطان في الدول العظمى في القارة الاوربية وشاء بعد انتصاراته الباهرة خطب مودة الملوك المغلوبين وعقد المحالفات معهم . وكانت ارفرت قد بلغته ما شاء من القيصر الاسكندر فاذا تمكن من توثيق عرى التحالف بينه وبين النمسا فلا تقدم روسيا وحدها على مناوأته ؛ ويتقلص حينئذ ظل التفوق البريطاني من الشمال ولا تبقى وثائق الصلح اسبابا للهـدن وطرح السلاح ، واذا كان في عرف بعض الناس انه من باب الوهم ان يأمل نابوليون ان يلقي السلام الدائم في اوربا ويستميل اليه الاسرتين المالـكتين العريقتين في الشرف في بطرسبرج وفينا فتميلا اليه ميلا مطبوعاً بطابع الصدق والاخلاص فلا بأس من ذلك اذا لم يقو دهاء هذا الرجل العظيم على دفع الضعف عنه لان ما بذله نابوليون من المساعي لتعزيز السلم ستكون له نتيجـة حسنة اي انه سيرجئ الى حين آخر ثوران بركان الحرب ويمكن الجندي الفرنسوي من غشيان الاقاليم الالمانية وقسم من بولونيا سنين اخرى واظهاره لشعوب تلك الاقطار بالملاقات اليومية والحياة المشتركة ما كان للثورة من الآداب والعادات الديمقراطية

ان رغبة نابوليون في انشاء اسرة مالكة وانتظامه في سلك اسر الاقيال والملوك والعهال جعلته يسعى لالقاء السلام في أوربا . الا انه كان وهو يبحث عن اصدقاء وحلفاء لاسرته عند الحـكومات الاجنبية يفكر في أن يجعل لها في فرنسا قاعدة جديدة . فظن أنه يستطيع ادراك هـذه الغاية المزدوجة باقتراحه الطلاق على جوزفين وعقده زواجاً جديدا يأمل أن يكون له منه ورثة من صلبه وعقد محالفات مبنية على القرابة ولم يكن تبنيه للبرنس اوجين ناقصاً لغلته . أجل



مقتل لان (٢٩ مايو ١٨٠٩)



انه كان والحق يقال جديرا بأن يكون خليفـة له لا يحول شيء من الاشياء دون قبضه على أزمة الحكم وتوليه بذاته الا انه لم يكن قد تربى ليجلس على العرش وكان ينقصه في عيني نابوليون شرف المحتد مع ان نابوليون كان قد استغنى عن ذلك وصار من ذلك الحين يفكر في أن القاء الامبراطورية في مهد ولد ينشأ اميرا امبراطوريا أفضل من القائه اياها الى شخص ذي خلق كريم واستحقاق مؤكد ومقدرة معروفة قد نضج دماغه بتمرسه به . وبناء عليـه اصبح طلاق جوزفين امراً مجزوماً به . وكانت هي تنتظر ذلك مع انها كما يقول نابوليون ذاته في مفكرات القديسة هيلانة كانت تمهد في وجهـه سبيل الهناء وتمالئه صداقة شديدة . بيد ان الاعتبارات المتعلقة بالدولة تغلبت في الامبراطور على عواطفـه الشخصية فقد كان قبل كل شيء موصوفا بكونه رجلا سياسياً . وكانت جوزفين منذ حقبة من الزمن تقرأ على جبين زوجها العظيم الحظ المقيض لها عند رؤيتها اياه يبتعد عنها شيئاً فشيئاً كلما ارتقى في سلم العظمة والعلى وحدث أخيراً ما كانت تتوقعه فان السر المشؤوم الذي استشفته في اعماق نفس نابوليون وكان شعورها به يمزق نفسها تمزيقاً باح لها به قرينها في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٩ ففي هـذا اليوم تغدى الامبراطور والامبراطورة على مائدة واحدة وكان نابوليون كاسف البال باسر الوجه وكانت جوزفين مكتئبة واجمة . فبعد الغداء صرف جميع الحضور . وقالت جوزفين فيما بعد اني كنت أقرأ على جبينه ما كان يدور في باطنه من العراك الادبي وكنت أيضاً أرى أن ساعتي دنت فكان يرتجف منتفضاً انتفـاض عصفور بلله القطر وكنت أشعر بقشعريرة تتمشى في جميع مفاصلي . فدنا مني وتناول يدي ووضعها على قلبـه وحدق في بباصرتيه هنيهة من الزمان من دون أن ينبس ببنت شفة ثم انه لفظ هذه الكلمات المشؤومة « ياجوزفين ياجوزفين الفاضلة أنت تعلمين مقدار حبي لك ... فانت وحـدك سبب هنائي في هـذه الدنيا ياجوزفين ان حظي أقوى من ارادتي ولا تلقى أعز عواطفي مندوحة عن الصمت بازاء مصالح فرنسا ... »

فلم تشأ جوزفين أن تسمع اكثر من هذا الكلام فقاطعته الامبراطور بشدة وقالت له : « حسبك ماقلته فقد كنت متوقعة هـذا الامر وقد فهمت مغزى كلامك وأدركت مرماه ... » وكانت حسراتهـا تخنقها في نوبتها . ولم يبق في

وسمها النطق بكلمة ما ووهنت حواسها فنقلت الى غرفتها . ولما ثاب اليها الحس ابصرت حولها ابنتها هورتنس وكرفيزار ونابوليون .

الا ان هذه الصدمة العنيفة الاولى التي كان الامبراطور ينتظرها حل محلها حزن مقرون بالسكينة والتأثر فأظهرت جوزفين التجلد ورضيت بكل ما يطلبونه منها من تتميم المعاملات القانونية . فمثلت المأساة الرسمية في التويلري في ١٥ دسمبر مساء في سنة ١٨٠٩ في اجتماع عائلي حضره كمباساريس المستشار الاكبر الامبراطوري ومستشار الدولة . وكان نابوليون قد أعد كل شيء لابراز مقاصده الى حيز العمل فقال :

«ان سياسة سلطنتي ومصلحة رعيتي وحاجاتها وقد كانت دائما مرشداً لي في جميع أعمالي تقتضي مني أن أخلف بعدي الى أولادي وارثي محبتي لرعيتي هذا العرش الذي أجلستني عليه العناية ومع ذلك فقدت من عدة سنوات الامل بالحصول على أولاد من اقتراني بزوجتي الحبيبة الامبراطورة جوزفين : وهذا ما يجعلني أضحي بأعذب عواطف قلبي وأصم أذني عن سماع صوت غير صوت مصلحة بلادي وأرضى بنقض أسباب زواجنا... وحيث اني الآن في الاربعين من العمر فلا أزال أعلل النفس بأن أعيش زماناً أتمكن فيه من أن أربي بحسب فكري وعقلي الاولاد الذين تشاء العناية أن ترزقنيهم . والله يعلم مقدار ما تجشمته من الالم من جراء هذا الامر ولكن لا تعز علي التضحية بشيء حين يستبين لي أن هذا الشيء يأول الى خير فرنسا . وأضيف على قولي هذا اني بدلا من أن أتذمر من زوجتي المحبوبة لا يسعني الا الثناء عليها لما أبدته لي من التعلق والحنان فقد كانت زينة حياتي مدة خمس عشرة سنة وستظل ذكراها مرسومة على صفحات قلبي الى الابد . لقد توجتها بيدي وأريد أن تظل حافظة رتبة ولقب امبراطورة وأريد بنوع خاص ألا ترتاب البتة بصدق عواطفي نحوها وأن تعتبرني دائما أفضل وأعز صديق لها » .

فتجلدت جوزفين وتغلبت على تأثرها ولعبت بعزة نفس الدور المؤلم المعد لها تمثيله وفاهت بالكلمات الرسمية التي كان المستشار الاكبر ينتظرها منها لينقلها الى مجلس الشيوخ وهذا ما قالته :

« اني أستأذن من زوجي العزيز العظيم أن اصرح علانية بأني إذ لم يبق لي

أمل بالحصول على أولاد يسدون حاجة سياسته ومصلحة فرنسا أسر بأن أقدم له أكبر برهان على التعلق والاخلاص الموجودين على الارض . فكل مالي هو من كرمه واحسانه : فيده توجتني ولم أحصل من ذروة هذا العرش الا على علامات الود والحب من الشعب الفرنسوي. ولست بجاهلة عاطفة من هذه العواطف واني لأرضى بحل عقد الزواج وقد أصبح حائلا دون خير فرنسا وحارماً اياها أن يتولى شؤونها يوماً من الايام أعقاب رجل عظيم أوجدته العناية ليزيل ما أحدثته الثورة الهائلة من المفاسد والشرور ويرمم ما تداعى من صرح الدين والملك والنظام الاجتماعي . على أن فسخ زواجنا لا يغير شيئاً من عواطف قلبي وسيلقى الامبراطور فيّ أفضل صديقة له . ولا يخفى علي مقدار ما يلم بقلبه من التأثر من جراء هذا الامر الداعية اليه السياسة والمصالح الخطيرة وكلانا يفتخر وايم الحق بما نضحي به في سبيل مصلحة الوطن » .

وقد ضم هذا الاجتماع عدداً كبيراً من الناس فتأثر جميع الحضور من المشهد وذرفوا العبرات . ولما كان من الغد رفع المستشار الاكبر الى مجلس الشيوخ خلاصة ما جرى فبادر المجلس الى اصدار قرار يقضي بطلاق نابوليون لجوزفين ولما تم هذا العمل العظيم صرف الامبراطور همامة النفس الى انتقاء زوجة جديدة فجعله الاسكندر عني النفس بالاقتران بالغرندوقة حنة احدى شقيقاته . ففتحت أبواب المفاوضات بهذا الشأن مع روسيا ولكن نابوليون ما لبث أن عرف من المسيو دي نربون سفيره في فينا ان عترة لورين تطمع بمصاهرته وانها تسر برؤيتها اياه يقترن بأميرة نمساوية وهي الارشيدوقة ماري لويز . أفيمكن التصديق ان التهافت على مصاهرة نابوليون كان يدل على نبذ الملوك الاجانب معارضة مبادىء الحكومة وهي لم تكن في عرفهم سوى وارثة الفتنة الفرنسوية الكبرى وممثلتها وميلهم الى سياسة الملاينة والاعتدال معها ؟ فالانكسارات المتوالية سنة بعد سنة غيرت ولا جرم عواطف عطفهم على نكبات الملوك الشرعيين . وقد ظهر بعد معارك استرلتز وايانا وفردلاند ووغرام ان ملوك الشمال ابتدأوا يتبرمون من الاستمرار على الحرب واستنزاف مواردهم المالية وري نصف أوربا بدماء نخبة رجالهم دفاعاً عن عترة ساقطة ولا سيما ونابوليون لم يكن يألو جهداً عن إقناعهم بأن الخطر العام الذي هددتهم به الجمهورية لم يكن

له من أثر وان هـذا التبرم لم يكن ليجلب قط مسالمة حقيقية . فـكان تنكر الاقدار على نابوليون يكفي لأن يثير مع شدة ارتباطه بصلة الرحم الحقد الـكامن والبغضاء القديمة اللذين كان الملأ الاوربي يشعر بهما نحو الثورة ونحوه . وقد جاءت الحوادث مصداقاً لهذا الامر من جهة النمسا ولم تكن مسألة الزواج لتجعل روسيا أشد ميلا من النمسا الى مصادقة نابوليون . أو لا نرى أن صلات الرحم لا تأتي في السياسة الا بعد المصالح الدولية ؟ ومن الممكن أن ابن الحم الجالس على عرش القياصرة لا يفضـل حماً جالساً على عرش ماري تريزا في المحافظة على سلامة السلطنة الفرنسوية والاسرة النابوليونية . وفي كلتا الحالتين يكون هذا الرجل العظيم كما يقول هو عن نفسه قد وضع قدمه على وهدة مغطاة بالازهار .

ولا يخفى ان تهافت العتر المالكة الشديدة الاباء والواسعة الحول والطول في أوربا على مصاهرة نابوليون سيظل في التاريخ أكبر شاهـد على ما وصلت اليه فرنسا من العظمة وما أصابه زعيمها وما ناله المجد التليد من التفوق الباهر على المجد الطارف . فما أعظم انتصار الديمقراطية الفرنسوية ! فلم يكن يكفي أن تفضي مؤامراتهم الطويلة المقرونة بالعناد للاشاة روح الفتنة الى تتويج الثورة ومنحها أجمـل اكليل بدلا من القبعة الحمراء : فقد كان ينقص كبرياء أصحاب الاسر اهانة أخيرة وكان مدخرا لاصحاب أوهام النسب ضربة قاضية على أن الاوهام التي صحبها احتقار الفيلسوف وقذفها الشعب بلعنة أخنى عليها في فرنسا النبلاء أنفسهم ولـكن ليـلة ٤ أغسطس المشهورة في سنة ١٧٨٩ لم تكن لاوربا الملـكية سوى افراط مشروع جر الى اعتراض الحكومات الاجنبية عليه كاذاعة برنسويك واعلان بلنتز . وكان تمام انتصار مبدإ المساواة يقتضي أن يضاف الى انكار المنمرنسيين الجهاري على منبر المجلس الدستوري التضحية بمزاعم الجنس ونبذ طريقة الزواج الخالي من التكافؤ وتدنيس العبادة النسـبية من لدن العتر المالـكة أنفسها وقد أجرى موقعو اعلان بلنتز هذا التدنيس وذلك الانكار وتلك التضحية : فان اعقاب طرس الاكبر المتشامخين وورثة شـارل الخامس (شارلكان) المتعظمين أوفدوا من قبلهم سفراء قرعوا أبواب التويلري ليعرضوا أخت العهال وابنتهم على قائد المدفعية الذي دك في طولون الملـكية القديمة باسم قاتلي ملـكهم . ولقد قضي على كرامة الشرف الموروث ولم يبق للمبدأ الثوري

ان يزيد شيئا على انتصار حقوق الدهاء والجدارة الشخصية على أوهام النسب حين شاهدت أسرة لورين المتحدة بشخص ماري انطوانت باسرة البوربون زعيمها الاكبر يقود ابنته باحتفال شائق فوق ضريح الدوق دنغان الى مضجع الجندي الذي قضى بالغاء الملكية في ١٨ فركتيدور وبدك صرحها في ١٣ فنديميار.

وكان لنابوليون الخيار في انتقاء أميرة من بين الاميرات الكثيرات المتحدرات من الاصول الشريفة الا أنه بعد ماوقف على أراء أعوانه وأنصاره قرر فكره على الارشيدوقة ماري لويز كريمة امبراطور النمسا وفوض الى المارشال برتيه أمر الانطلاق الى فينا ليطلب بصفة رسمية يد الارشيدوقة لمولاه الامبراطور فوصل الى العاصمة النمسوية في أوائل شهر مارس سنة ١٨١٠ وبعد ماقدم صورة نابوليون استقبله امبراطور النمسا في حفلة شائقة أقامها اكراما له وأجاب سؤله فيها.

فخطب المارشال برتيه في هذه الحفلة الخطاب الآتي :

« مولاي ، ان مولاي الامبراطور أوفدني لاطلب له من جلالتك يد الارشيدوقة ماري لويز كريمتك النبيلة

« فالصفات الكريمة المزدانة بها هذه الاميرة أعدتها للجلوس على عرش عظيم وستجر الهناء الى شعب كبير ورجل خطير

«وان سياسة مولاي العاهل جاءت موافقة لاميال فؤاده

« يامولاي ان اتحاد عترتين شديدتي الحول والطول سيولي أمتين كريمتين ضمانا جديداً للراحة وللهناء .»

فاجابه امبراطور النمسا بما يلي :

« اني اعتبر طلب الاقتران بابنتي ضمانا لعواطف امبراطور الفرنسويين الذي أقدره حق قدره

« ولا يسعني التعبير باكثر جلاء عن تمنياتي لسعادة العروسين فان هذه السعادة ستكون صدى لسعادتي

« وسألقى في صداقة العاهل الذي تمثله أسبابا ثمينة لسلواني عن فراق ابنتي العزيزة وسترى شعوبنا في هذا الامر ضمانا مؤكدا لهنائها المتبادل

« وبناء عليه أمنح يد كريمتي لامبراطور الفرنسويين . »

ثم ان المارشال برتيه خاطب الارشيدوقة ماري لويز بما يأتي :

« يا سيدتي ان والديك العظيمين وافقا على أماني مولاي الامبراطور وقد يكون ثمة اعتبارات سياسية أثرت بما قرره العاهلان الا أن اول أمر يجب علينا النظر اليه هو هناؤك : فمولاي العاهل يبتغي بنوع خاص الحصول على قلبك

« ويجمل أن نرى على عرش عظيم اقتران دهاء القوة بمحاسن اللطف والجمال وسيعد مولاي العاهل هذا اليوم سعيدا ان كنت ياصاحبة السمو الامبراطوري تأمرينني بأن أقول له انك تشاطرين آماله وتمنيات قلبه وعواطفه . »

فجاوبته الاميرة على الأثر بالكلام الذي لقنوها اياه :

« ان ارادتي مشتقة من ارادة أبي وسيظل هنائي صورة عن هنائه وان جلالة الامبراطور نابوليون يمكنه أن يجد في هذه المبادئ ضمانا ثابتا للعواطف التي سأقفها على زوجي وسأكون سعيدة ان أنا قدرت على جلب الهناء اليه والى شعبه العظيم واني باذن أبي أصرح برضاي بالاقتران بالعاهل نابوليون . »

ووجه خطاب ثالث الى الامبراطورة فاجابت عليه مظهرة على التقريب الاماني عينها التي أظهرها زوجها النبيل . ثم ان السفير الفرنسوي أنبأ البرنس شارل بأن الامبراطور نابوليون يرغب من سموه بان يرضى بوكالته لاجراء حفلة الزواج فاجاب الارشيدوق بهذا الكلام : « اقبل بارتياح اقتراح عاهل الفرنسويين الذي بلغتني اياها وافتخر باختياره اياي كما اني ارتاح الى تعليلي النفس بان هذا القران سينسخ جميع الاختلافات السياسية ويصلح ما أفسدته الحرب ويهيئ مستقبلا سعيداً لامتين وجدتا لتبادل الاحترام ولا نتصاف الواحدة منهما من الاخرى واني اعتبر من أهم ساعات حياتي الساعة التي سأندفع فيها بعاطفة تقرب حر وشريف الى تقديم يدي الى مولاتي الارشيدوقة ماري لويز باسم العاهل العظيم الذي أوفدك . وأرجو منك ياحضرة الامير (كان المارشال برتيه قد نال لقب أمير نوشاتل ووغرام) أن تكون مترجما لفرنسا برمتها عن أماني الحارة لرؤية فضائل مولاتي الارشيدوقة صلة لصداقة عاهلينا ومدعاة لسعادة شعوبهما . »

وتمت حفلة القران في فينا في ١٤ مارس سنة ١٨١٠ وفي ١٥ منه شخصت امبراطورة الفرنسويين الجديدة الى فرنسا فانتهت في ٢٧ منه الى كومبيانيه حيث

كان نابوليون قد خف الى لقائها . واعدت حفلة شائقة للمواجهة الاولى الا ان نابوليون لما لم يعد في قوس صبره منزع تجاوز حدود القانون الذي كان هو نفسه قد وضعه . فخرج سرا من كومبيانيه يصحبه ملك نا بولي تحت هطل الامطار وأقام ينتظر عروسه الامبراطورة في رواق كنيسة صغيرة في احدى القرى . وحالما وصلت ماري لويز بادر الى الصعود الى مركبتها وعادا معاً في الحال الى قصر كومبيانيه . ثم ان العروسين مضيا الى سان كلود وجرت حفلة الزواج المدني في أول ابريل وفي الغد دخلا العاصمة . وتمت حفلة الزواج الديني في اليوم عينه بمشهد من جميع أهل البلاط بابهة الطقس الكاثوليكي في معبد من معابد اللوفر لبس جميع ضروب الزينة لتلك الحفلة . واقتبل الامبراطور والامبراطورة بركة الزواج من يد الكردينال فش المرشد الاكبر بحضور جميع افراد العترة الامبراطورية والكرادلة ورؤساء الاساقفة والاساقفة وكبار رجال الامبراطورية ووفود من قبل جميع مجالس الحكومة . وكانت الحفلة شعبية بكل معنى الكلمة فاقامت مدينة باريس حفلات باهرة أديرت فيها كؤوس المسرات ولم تقتصر الاحتفالات على جميع انحاء فرنسا بل اتصلت الى جميع شعوب القارة الإوربية المعتقدة بأن زواج نابوليون بارشيدوقة نمساوية سيكون أفضل ضامن لبقاء السلام مخيما بين ظهرانيها .

وجاء مجلس شيوخ فرنسا ومجلس شيوخ ايطاليا ومجلس شورى الدولة والمجلس الاشتراعي والوزراء والكرادلة ومجلس النقض والابرام الخ في ١٣ ابريل لتقديم التهانئ للامبراطور وعروسه فاستقبلاهم وهما جالسان على العرش يحف بهما الموكب الباهر المؤلف من بلاطي الامبراطورية الفرنسوية والمملكة الايطاليانية وتوجه نابوليون وماري تريز بعد يومين الى كومبيانيه فمكثا فيها حتى اليوم السابع والعشرين من ذلك الشهر . ثم انهما انطلقا لتفقد الشؤون في بلجيكا والولايات الشمالية من دنكرك الى الهافر وروان . وعاد العاهلان في أول يونيو الى العاصمة ولم تخمد نار الحماسة التي اضطرمت في افئدة الشعب الفرنسوي عند اقامة حفلات الزواج فاقامت مدينة باريس حفلة شائقة لنابوليون وماري لويز وقد شهدا المأدبة والمرقص المقامين لهما في قصر البلدية

وأراد رجال الحرس الامبراطوري أن يحتفلوا أيضاً بقران زعيمهم الاكبر

بابنة الامبراطور الذي قهروه وأذلوه غير مرة فاقيمت الحفلة في شان دي مارس (ساحة اله الحرب) اكراماً لنابوليون وماري لويز بالنيابة عن جميع الجيش :

وكان السفير النمساوي في وسط الافراح العامة والاحتفالات الباهرة يريد في نوبته ان يظهر فرحه وابهته السياسية فاختار اليوم الاول من شهر يوليو لاقامة حفلة شائقة الا أن هذه الحفلة وسمت بسمة حادث فاجع فان النار التهبت في ردهة الرقص وتوفيت في السعير زوجة الوزير النمساوي وغيرها من المدعوين فلم يدع نابوليون لغيره من الناس أمر انقاذ زوجته فحملها بذاته واخرجها من المكان المشتعل . ويذكر المؤرخون انه في أثناء الحفلة المقامة عند اقتران الملك لويس السادس عشر بالارشيدوقة ماري انطوانت وقع حادث محزن اضطربت له الافكار والتاعت له القلوب .



معركة وغرام (٦ يوليو سنة ١٨٠٩)



الفصل السابع عشر

انتداب برنادوت للجلوس على عرش اسوج ـ ضم هولندا الى فرنسا

وبعد انقضاء قليل من الحين على اقامة الاحتفالات اكراماً لاقتران نابوليون بماري لويز وقع حادث من الحوادث الخطيرة في انحاء اوربا الشمالية فان برنادوت انتخب ولياً لعهد مملكة اسوج وانتدب ليخلف شارل الثالث عشر محافظة على مبدأ حرمان عترة واصا حق الملك كما أذيع ذلك عند جلوس دوق سودرماني على العرش .

وظن مندوبو الامة الاسوجية انهم يسرون ولا مراء نابوليون بهذا الانتخاب ويخدمون مصالح سياسته . وربما كانوا قد سبروا غور مقاصد الامبراطور من هذه الجهة وان يكن بعض الكتبة قد زعم أن ذلك الانتخاب كان اختياريا وان السفير الفرنسوي في استوكهلم عمل على معاكسته . وقال نابوليون : « انتخب برنادوت لان قرينته كانت شقيقة قرينة أخي يوسف ملك اسبانيا في ذلك العهد. ولما كان برنادوت شديد التعلق بي جاء الي يطلب مني ابداء ارادتي بذلك زاعما انه لا يقبل المنصب الجديد المقدم له الا اذا كان هذا الامر يرضيني .

« ولما كنت ملكا بانتخاب الشعب اجبته انه لا يسعني بوجه من الوجوه الاعتراض على انتخاب الشعوب الاخرى. هذا ماقلته لبرنادوت وقد كانت هيئته تنم بالقلق الناشيء عن انتظار جوابي له . وعقبت على ذلك بقولي له انه يجب عليه أن يغتنم الفرصة من ميل الشعب الاسوجي اليه واني كنت أود لو لم يكن لي أدنى ضلع في انتخابه ومع ذلك كنت راضيا عنه ومتمنياً تحقيق هذا الامر على انني كنت أشعر بعاطفة داخلية تجعل هذا الانتخاب مكروها عندي »

ولا يخفى ان هذه العاطفة كانت طبيعية في الامبراطور فانه لم يكن يستطيع أن ينسى ما كان بينه وبين برنادوت من الحزازات المضمرة ولم يكن أحد منهما يميل الى الاخر ميلا صادقا . بيد أنه كان جنديا فرنسويا من ابناء الثورة وقد أصاب المناصب العالية في عهد الامبراطورية وكان رابطا وثيق العرى يفوق في متانته النفور الشخصي كان يربط بحظ فرنسا الجديدة هـذا الجندي العظيم

المدعو للجلوس يوما ما على عرش أسوج . ولم يقف نابوليون عند حدس ضميره الذي كان يسترشد به دهاؤه الشخصي فاذن لبرنادوت بأن يجيب سؤل الاسوجيين ويقبل رغائبهم وان كان قد تغلب على أمياله الخصوصية فذلك سبب للاعتراف بان المتسلط العام كانت متسلطة عليه قوة تفوق قوته . وكان مكتوبا انه في وسط الحركة الواسعة الموجهة الى النهضة الاوربية سينهض أحد أبناء الثورة بعد ماكان آخر سليل من عترة واصا من أشد الناس معارضة لها في القارة الاوربية ويجلس على عرشهم ويصير عاصمتهم مدينة فرنسوية . واذا كان الملك الجديد قد نسي اصله فيما بعد وانضم الى أوربا القديمة فان عمله هذا أصبح ضاراً بمجده القديم وشؤماً وبيلا على حظ نابوليون الا ان اسوج ما عتمت أن صارت من جملة البلدان التي فتحتها أوربا الحديثة وجعلتها تعتصم بمبادىء العصر الجديد . ولا يعتبر عبثاً وضعها الفلسفة والديمقراطية جنبا الى جنب في قصورها ورؤيتها نسمة الحرية وروح الحضارة الفرنسوية تحلان عليها من سماء الادارة وجوار العرش .

وحين كان احد قواده المشهورين موشكا أن يلبس تاج الملك ويجلس على العرش في استوكهلم كان احد اخوته يلقي التاج عن رأسه في امستردام : ولا يخفى ان لويس بونابرت كان رجلا عاقلا ذا مقاصد نبيلة ونيات حسنة الا ان صولجان هولندا كان يفوق قوته من جراء الحصار البحري فاضطر الى القائه من يده .

وكان الامبراطور ينحي عليه باللائمة من عهد طويل لما كان يبديه من الوهن الشديد في اجراء أوامره الصادرة عن برلين وميلانو . وذكرت صحيفة المونيطور شيئاً عما كانت هولندا تأتيه في كل يوم من المخالفات للمبدأ النابوليوني واتفق ان الملك لويس تذمر من هذه الحالة فأجابه الامبراطور وهو في شنبرن : « لفرنسا دون سواها الحق بأن تشكو من الروح الشريرة السائدة بين ظهرانيكم وان شئت سهل علي أن اذكر لك أسماء جميع المحلات الهولندية التي صارت نفيراً توصل به صوت بريطانيا العظمى فقوانين المكس عندكم لا تجري بغاية الدقة ومن جراء ذلك صبح بريد بريطانيا العظمى يصل الى القارة الاوربية بطريق هولندا . فهولندا معتبرة عندي ولاية بريطانية . »

ولبثت هذه الشكاوي عقيمة فان الملك لويس أثرت به مصائب هولندا الحالية اكثر مما أثرت به النتائج البعيدة التي كان الحصار البحري يعني نابوليون بنيل وطره منها . وكان اجراء طريقة الامبراطور يقتضي وجود أشخاص ذوي صريمة شديدة يشاكلونه في صدق العزيمة . وكان اخوته أول العمال الذين انتقاهم حين عقد عروة العزم على انشاء أسرة مالكة فكان من وكده أن يقربهم الى أفكاره وأمانيه بتقريبه اياهم منه في درجة المراتب السياسية واعطائه اياهم مناصب تماثل المنصب المتربع هو في منصته ووضعه التيجان على مفارقهم الا انه كما قال هو عن أخيه لويس لم يصنع الا « ملوكا ولاة » اتصفوا بجميع الصفات اللازمة المؤهلتهم الى حلول المقام الثاني في عصر غير العصر الحالي ولم يحرزوا صفة من الصفات التي تقتضيها الاحوال الحاضرة .

واذا كان قد سهل على الامبراطور أن يجد وليجة من أصحاب التيجان فلم يسهل عليه وجدان معاونين أذكياء يشاطرونه حمل اعباء المهمة الخطيرة الملقاة على منكبه . أجل ان العرش نصب بين حاشية محفوفة بالعظمة الا أن دهاءه بقي وحيداً .

ولم ينهج لويس بونابرت المنهاج الذي رسمه له أخوه ولم يسع لتصيير هولندا بلاداً فرنسوية مع ما كان يلقى في ذلك الامر من المعاكسات الوقتية بل ترك مملكته مستظلة بكنف المصالح التجارية البريطانية . فاستاء نابوليون من تصرف أخيه وتساهله وعدم انقياده الى آرائه وأنفذ اليه رسالة أخرى تكفي لان تثبت في التاريخ ان الامبراطور من جراء اندماجه كل الاندماج بالشعب المستسلم اليه لم يكن يعيش الا لفرنسا واليكم فقرات من هذه الرسالة المشهورة :

« ان جلالتك عند ارتقائك الى عرش هولندا ذهلت عن كونك فرنسوياً وأرهفت حسام عقلك وأبرمت أسباب ضميرك معتقداً انك صرت هولندياً فالهولنديون الجانحون الى خطب موالاة فرنسا أهمل أمرهم وأعرض عنهم وأذيقوا مر الاضطهاد والهولنديون المعتصمون بحبل بريطانيا العظمى منحوا الأثرة عليهم . والفرنسويون من الضباط حتى آخر جندي طردوا من هولندا وجرعوا كؤوس الذل والصغارة . ويؤلمني أن أشاهد في هولندا في عهد ملك متحدر من الدم المتحدر أنا منه الاسم الفرنسوي مستهدفاً لنبال العار والخزاية

على اني أحمل في قلبي وأستطيع أن أرفع على رؤوس حراب جنودي احترام الاسم الفرنسوي وكرامته بحيث لا تستطيع هولندا ولا سواها التحرش به من دون أن تنالها طائلة العقاب ... فمن يقدر على تزكية ما أتته جلالتك من العمل المحقر للأمة والمهين لي ؟ ويجب عليك أن تعلم اني لا أجنح عن جادة أسلافي واني من عهد كلوفيس حتى عهد لجنة الامن العام أظل ضامنا كل شيء . . وأنا أدري أن بعض الناس تعودوا أن يسهبوا في اطرائي وينتقدوا فرنسا بألسنة حداد على أن الذين لا يحبون فرنسا لا يمكنهم أن يحبوني والذين يطلقون ألسنتهم في قول السوء عن رعيتي أعتبرهم من أعدائي الكاشحين . وفي الخطاب الذي خطبته في المجلس الاشتراعي بحث لهم بأسرار استيائي فأنا لا أخفي عليك اني مصمم على ضم هولندا الى فرنسا كتتمة لأراضيها وكضربة قاضية على بريطانيا العظمى تكفيني مؤونة الاهانات المتواصلة التي لا يني زعماء حكومتك عن ابدائها لي فينبغي أن يكون لي مصب نهر الرين ومصب نهر الموز وأن يعتبر القوم في فرنسا مبدأ أساسياً منحدر الماء الى الرين حداً لبلادهم . . . ويمكنني والحالة هذه أن أترك لهولندا ضفة نهر الرين اليمنى وأن ألغي ما قضيت به من المنع على دوائر المكس كلما رأيت ان الوثائق المبرمة والمجددة توضع موضع الاجراء وهذه هي مقاصدي :

١ — منع كل تجارة وكل علاقة مع بريطانيا العظمى .

٢ — انشاء اسطول مؤلف من أربع عشرة سفينة حربية كبيرة وسبعة مراكب وسبع سفن حربية صغيرة مسلحة ومجهزة .

٣ — تجهيز جيش بري قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل .

٤ — الغاء منصب المارشالية .

٥ — الغاء جميع امتيازات النبلاء المخالفة للدستور الذي منحته والذي اضمنه

وتستطيع جلالتك أن تفاوض بموجب الشروط المار ذكرها دوق كادور بواسطة وزيره ولكن تأكد اني عند دخول أول سفينة الى هولندا أعيد المنع الموضوع على المكس وعند أول اهانة توجه الى رايتي القي القبض بالقوة على القائد الهولندي المتجاسر على اهانة علمي واعلقه على السارية الكبرى ... »

ولم يؤثر في ملك هولندا هذا الكلام الصادر عن صاحب السلطان الاكبر

فقد كانت افكاره منصرفة بجملتها الى حاجة الصناعة الهولندية الحالية ومصالحها وكان معتقداً انه من المقضي عليه أن يحافظ على مصالح الشعب الهولندي وانه يجنح عن الجادة المثلى ان هو سار على غير الخطة المرسومة له لتعزيز شؤون البلاد المفوض اليه أمر ادارتها . وحيث لم يكن يرى نصب عينيه سوى هولندا وخيرها نسي انه لم يجلس على عرشها الا للعمل لتعزيز مبدإ أعم يأول لخدمة السلطنة الفرنسوية وسلامتها واعلاء منارها

وكان لويس يأنف من هـذا الامر من ذات طبعه فقد كان من عداد الأُلى ينظرون الى السياسة بعقلة الأحسر كما يقول دي ميستر . وان وساوسه التي كانت من بعض الوجوه محمودة لم تكن تجعله يرى أن الحصار البحري لم يكن للامبراطور الا ما كانت الحكومة الثورية للجمهورية أي ضرورة محزنة وهائلة

وفضلا عن ذلك لم يكن لويس بونابرت يعتقد أن الحصار المقرر وضعه لمناوأة بريطانيا العظمى تكون له النتائج المشؤومة على المصالح البريطانية كما كان الامبراطور يزعم ذلك .

وكتب لويس الى نابوليون ما يأتي : « ان تدمير هولندا بدلا من أن يكون واسطة لخسارة بريطانيا العظمى يكون واسطة لكسبها ونجاحها بجميع الصنائع والاموال التي يلجأ اصحابها الى الربوع البريطانيـة . فليس لك سوى ثلاث وسائل تضرب بهـا بريطانيا العظمى ضربة قاضية : اما بسلخ ارلندا عنها واما بانتزاع الهند الشرقية من يدها واما بغشيان ارضها . على أن الوسيلتين الاخيرتين لا يمكن وضعهما موضع الاجراء بدون اسطول وإن كانتا أشد تأثيرا من غيرهما وانا اقضي العجب من العدول عن الوسيلة الاولى . »

ولم تؤثر كثيراً شكاوي لويس بالامبراطور العارف حق المعرفة انه لا يستطيع القضاء على هولندا بتحميله اياها اثقال الخسارة المادية وغير المعتقد ان الصناعة البريطانية تستفيد من المعضلة الملمـة بالصناعة في القارة الاوربية . ولما زار نابوليون بلجيكا وجه الى أخيه رسالة عن استند ضمنها كثيراً من العتاب والملامة واليكم بعض ما جاء فيها .

« اذا كانت هولندا الخاضعة لأخي لا تلقى فيه صورتي ومثالي فقد فقدت

انت كل ثقة عند ادارة حكومتي وقد حطمت صولجانك بيدك . لحب فرنسا وحب مجدي : هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع ملك هولندا أن يخدمني بها .

« فلو فعلت مايجب عليك أن تفعله لكانت هولندا المعتبرة جزءاً من سلطنتي عزيزة جداً لدي ولا سيما وقد اعطيتها ملكا كنت اعتبره ابناً لي . ولما اجلستك على عرش هولندا اعتقدت اني وضعت عليه وطنياً فرنسويا ولكنك سرت على منهاج يخالف كل المخالفة الطريق الواجب عليك المسير عليه... فارجع الى الصراط المستقيم وكن فرنسويا قلباً وقالباً والا اضطرت رعيتك الى طردك من بين ظهرانيها . . . . ولا يخفى عليك أن الانسان يتولى الحكم في الدولة بالعقل والسياسة . »

وافضى الامر بملك هولندا المصر على بقائه هولنديا اجابة لنداء الحالة الحاضرة وحاجات الشعب الهولندي وليس مجاراة لمقاصد وآراء الامبراطور البعيدة الى التبرم من مناهضة شقيقه مناهضة لم يكن له قبل بها فهجر بلاده ميمما المانيا بعد ما ارسل الى باريس كتابا ضمنه استقالته . فساء عمله هذا نابوليون كثيرا واصدر الامبراطور مرسوماً بتاريخ ٩ يوليو سنة ١٨١٠ بناء على تقرير رفعه اليه وزير خارجيته ضم بموجبه هولندا الى السلطنة الفرنسوية فاحتل المارشال اودينو مدينة أمستردام في الحال .

ولم يستطع الامبراطور كتمان ما شعر به من الاستياء من جراء تصرف أخيه ولما كان هذا الاخير قد قصد بتنازله عن العرش وفراره ان يشكو من أخيه الى أوربا والاجيال الآتية بأنه صير التاج على رأسه ثقيلا جدا بما كان يطلبه منه من الاعمال الباهظة لم يسع نابوليون البقاء صامتاً . ولما كان كل شيء عند هذا الرجل الداهية ممتازا وفائقاً سواه وجد طريقة لايستطيع غيره أن يتصورها وقد أراد بها أن يبالغ في ضرب لويس المنكود الطالع ضربة مؤلمة وأن يذيع عمله المنكر اذاعة باهرة فانه باظهار حنانه الشديد نحو الابن ضرب الاب ضربة شديدة فالكلمة الواحدة ينجم عنها حياة الواحد وموت الآخر في العالم السياسي والشعب الذي يقيس حبه وبغضه على حب بطله وبغضه نسي في شدة تملقه بالاسرة الامبراطورية الاخ المتعمد الافتراق عن الامبراطور وصرف اهتمامه الى الغلام

وقد أعلن عمه انه سيكون له أبا وعتادا . ودعا اليه نابوليون في ٢٠ يوليو في حفلة شائقة بقصر سان كلود البرنس نابوليون لويس نجل أخيه وقال له بلهفة:

« تعال يا ابني فانا سأكون لك أبا وانت لاتفقد شيئا بذلك . ان تصرف والدك يحزن فؤادي ولكن مرضه يوضح سر عمله . وحين تكبر تؤدي لي ما يحق لي عليه وعليك . ولا تنس في أي مركز ساقتك اليه السياسة ومصلحة سلطنتي ان اول واجب عليك هو لي ثم لفرنسا وجميع مايجب عليك في ماسوى ذلك يكون للشعوب التي سأكل اليك أمر تدبيرها وستجعل لها المحل الثاني . »

فلو كان ملك عادي جالس على غير عرش فرنسا يفوه بمثل هذا الكلام لكانوا ينحون عليه باللائمة بحق لتطرفه في التكبر بوضعه نفسه قبل الوطن وتطرفه في الانانية الوطنية بتضحيته في سبيل سياسته بمصالح الشعوب المحالفة والمقهورة ولكن نابوليون لم يكن يعتبر ما يجب على الناس له قبل ما يجب عليهم لفرنسا الا لاعتباره ذاته رأس فرنسا وقلبها . ولم يكن يعتبر ما يجب على الملوك عماله للشعوب الموكول اليهم أمر تدبيرها بعد مايجب عليهم لفرنسا الا لاعتباره فرنسا رأس وقلب أوربا والعالم المتمدن .

وتلا ضم فاله الى السلطنة الفرنسوية ضم هولندا اليها . وابلغ الامبراطور مجلس الشيوخ ذينك الامرين الخطيرين برسالة واحدة قرئت في جلسة ١٠ دسمبر سنة ١٨١٠ وهذه خلاصتها :

« ان القرارات التي نشرها المجلس البريطاني في سنة ١٨٠٦ وسنة ١٨٠٧ مزقت الحق العام في اوربا فصار نظام جديد يدبر العالم . ولما رأيتني محتاجا الى ضمان جديد بدا لي ان اهم ضمان هو ضم الامكنة الدافعة فيها انهار الاسكو والموز والرين والامس والوزر والالب مياهها في البحر الى السلطنة الفرنسوية وانشاء ملاحة داخلية تتصل ببحر البلطيك

« وقد وضعت رسم قناة يتم عملها بعد خمس سنوات فتصل البلطيك بالسين على ان ضم الفاله هو نتيجة مستدركة للاعمال العظيمة التي اجريتها من عشر سنين في تلك الناحية من جبال الالب . وحين تدخلت في امر الخلاف الطارىء في تلك الجهة فصلت الفاله عن جمهورية سويسرا مفكراً من ذلك الحين باتخاذ تدابير مفيدة لفرنسا وايطاليا .

فلم يبد مدير الشحنة مقاومة لاوامر ذينك السجينين المقضي عليه التشديد في المراقبة عليهما .

ولم يعترض ناظر الشحنة على القاء القبض عليه وعلى كل ما أخبره اياه غيدال ولاهوري من تلفيقات مالاي ففاجأاه في سريره وأطاعهما بذهابه الى سجن الفرس حيث حل محلهما هو ومدير الشحنة .

وأظهر فروشو مدير السين الثقة نفسها والانقياد نفسه وظن أن المنية تخرمت العاهل فأعد الردهة لاقامة الحكومة الجديدة .

ولم يصب مالاي من الانقياد عند حاكم باريس ما أصابه عند غيره فان هولان بدلا من أن يدعهم يلقون القبض عليه بدون استيضاح طلب أن يرى الاوامر التي يريدون بموجبها ايقافه ودخل غرفة عمله. وسار مالاي وراءه ولما التفت الحاكم وكرر طلبه ابراز الاوراق المستندين اليها في أمر القبض عليه أطلق عليه المؤامر الجريء غدارته فجرحه في وجهه وصرعه على الارض من دون أن يقتله. وكان ضابط من ضباط الفرقة العاشرة حاضراً فلم يسيء الظن بشيء عند رؤيته هيئة الحاكم ولم ينتبه الى انخداعه هو وفرقته على أثر تصديق السكولونل تلك الفرية .

وبعد ماجرح مالاي هولان وصرعه مضى الى دوسه النائب العام فلقي عنده مفتشاً من مفتشي الشحنة فعرفه هذا وانتهره بشدة وفي الحال أصدر الامر بالقاء القبض عليه . ولما رأى مالاي انه لم يبق له أمل بالنجاة عالج الفرار من الورطة الناشب فيها بالتجائه الى غدارة ثانية مخبوءة في جيبه . ولكنه لم يظفر بحاجته من غدارته فانهم انتزعوها في الحال من يده وهجم عليه الحاضرون فاوثقوه . ولم تمض دقائق حتى عاد المتآمرون الى السجن بعد ساعتين قضوها في الامر والنهي في العاصمة الغارقة في لجة السكرى . وكان ناظر الشحنة الذي عينه مالاي مهتماً في بيته بتفصيل بزة تلائمه حين جاؤوا والقوا القبض عليه

وهكذا انتهت المؤامرة المبنية على الطيش والحماقة وكانت كأضغاث أحلام أو كشهد من مشاهد الروايات أو كحادث من حوادث الجولان في النوم لبعض



الاستيلاء على فينا (١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٩)

الفصل الثامن عشر

قانون المطبوعات — تعيين المسيو دي شاتوبريان خلفا لشنيه في الندوة العلمية — ولادة ملك رومية وعماده — احتفالات عامة في العاصمة والسلطنة — مجمع الاساقفة الوطني — البابا في فنتنبلو .

ولم يكن من جملة اسباب الملامة الموجهة الى نابوليون سبب اشد واقوى من رغبته في خنق الحرية في مباحثات المجالس وصحف الاخبار السيارة . فلو كان قد اقتصر على وضع المراقبة على المطبوعات وكم افواه الخطباء على المنابر وفي المنتديات لـكفى بعض غلاة السياسيين ان يستندوا الى ذلك ويسودوا صحيفة حياته ويطلقوا عليه لقب « الجائر » . ومعاذ الله ان نضيع الوقت في بيان منافع الصحافة فانه من باب تحصيل الحاصل وقد اصبح كالشمس في رائعة النهار . فنحن اول من يعلن على رؤوس الاشهاد ان الصحافة تعتبر في مقدمة القوى الممهدة سبل العمران وافضل مؤثر في القرون الحديثة وانفع وسيلة استخدمتها العناية لتحرير الشعوب من ربقة العبودية والاستبداد وممهدة الطريق للقنصل بونابرت لابرام اسباب الثورة واتمامها والدفاع عنها والوارثة الوحيدة لتفوق الامبراطور نابوليون ونيله السؤدد امام الرأي العام في فرنسا وفي جميع البلدان المنتشرة في ربوعها الوية الحضارة .

ولما قبض نابوليون على عنان السلطة كانت الصحافة قد بدأت تميل الى الانحطاط والسآمة بعد عراك عنيف دام نحواً من عشر سنوات . ولما كانت قد اصبحت آلة بيد الاحزاب المختلفة المزقة الامة كل ممزق لم تصبح خادمة الا للفوضى ونفرت الناس من الفتنة فأنفوا منها بعدما كانوا يصبون اليها ويكرمونها . فقد كانت محتاجة الى الراحة لتتقوى كما كانت الثورة محتاجة الى محام جديد يحسن المدافعة عنها من اعدائها الشديدي العداوة واصدقائها الهائمين على وجوههم في مجاهل الضلال . وكانت قد ازفت الساعة لوجود حاكم مطلق : فظهر نابوليون . فنبذت الديمقراطية اقوال خطبائها في المنتديات والمجالس والصحف تلك الاقوال السامية في غالب الاحيان والشديدة الفعل في ابان المتالف النازلة بفرنسا وقد افضت بهـا الاحوال الى ان تصير سبباً دائماً للتفريق والاضطراب في البلاد

وواسطة لاضعاف السلطة وتحقيرها . وابتدأ عصر الصمت او بعبارة اخرى تلت عواصف الساحات العامة مناجاة عجيبة لم تكن فرنسا فيها اصغر مما كانت عليه في عنفوان مجدها البرلماني . فان ميراث المشاهير من خطباء الجمعية الدستورية والكنفنسيون اغتصبه خلفاء جهلة وغير جديرين به . وارتفعت الوف من الاصوات المختلفة تريد ان تأول على هواها حاجات البلاد وامانيها بيد انه لم يكن من وراء هذا العمل سوى زيادة التفريق واستفحال امر المهالك والعذابات وظهر في اثناء هذه الجلبة انسان جروء على ان يقول في نوبته : « انا فرنسا وانا اكثر علما من معبري عواطفها الادعياء بما تحتاجه وبما ترغب فيه . » ولما كان هذا الرجل يفوه بكلام الحق صدقته فرنسا ورضيت بان يكون لسان حالها.

وخفتت من ذلك الحين الاصوات المختلطة الداعية الى الاختلاف والتفرق ولم يسمع فيما بعد سوى صوت ممثل فرنسا الاعظم : وكان هذا شرطا محتوماً للخطة التي توخى انتهاجها بحيث تصبح الثورة ساكنة في الداخل ومرهوبة الجانب في الخارج . ومع ذلك لم تخنق حرية الصحافة بل ألقي فوقها ستار وعزلت حتى زال الارتجاع المحتوم المقضي عليها به وقضت الاحوال باعادتها الى ما كانت عليه قبلا وتسلطها على الافكار . وادركت الصحافة ولا مراء انه حان الوقت لها للانزواء لتدع المجال مفتوحاً في وجه الحاكم المطلق الداهية ليعمل ويقول لانها وجدت الصمت خيرا لها وابقى فيتسنى لها ان تجعل الناس ينسون تطرفها وتستجمع قواها لتتمكن من الظهور يوماً ما بمظهر يفوق سواه بالنشاط والتفوق واذا كانت حرية الكتابة والصحافة ضرورية في ذلك العصر فلم يكن احد ليخرق حريتها من دون ان تناله طائلة العقاب واذا كانت الصحافة التي عصت فيما بعد اوامر الملك شارل العاشر قد انقادت خاضعة لاوامر نابوليون فما ذلك الا لان العواطف وحاجات القوم لم تكن في سنة ١٨١٠ مماثلة للعواطف والحاجات في سنة ١٨٣٠ وكانت الصحافة تسير بموجب الروح الوطني وتخدم روح العصر سواء كان ذلك حين تحاذر ان تعصي اوامر ممثل الثورة او حين اوعزت الى الناس بوجوب التمرد على ممثل الملكية القديمة .

ولم يكد نابوليون يصدر مرسوماً جديدا قاضيا باتخاذ تدابير رادعة متعلقة بالصحافة وغير مرخصة بنشر اكثر من صحيفة واحدة في كل مقاطعة حتى طرأ

حادث غير منتظر جعله مثارا كل المثابرة على الخطة القاضية عليه الاحوال بالمسير على منهاجها وهي ان يراقب كل مجاهرة عامة للافكار والآراء السياسية .

وكان المسيو دي شاتوبريان قد جعل خلفا لشنيه في الندوة العلمية وكانت العادة الجارية تقضي بان يخطب المنتخب الجديد خطابا يضمنه الثناء على سلفه . فاراد المسيو دي شاتوبريان ان يخلع عنه نير التقليد ولم يخش ان ينتحل لنفسه دورا ثوريا في وسط المجمع العلمي نفسه ليتسنى له ان يسهب في الكلام منتقدا الثورة الفرنسوية ومنحيا باللوم المر على الشاعر الوطني الذي نظم لبلاده عقد النشيد المشهور الذي عنوانه : « نشيد الرحيل » . الا ان خطابه عرض على مفوض خاص لم يوافق على القائه فلم يلق قط . وكان فريق من اعضاء المفوض يذهبون خلاف مذهب صاحب الخطاب ومن جملتهم رجل من الرجال المقربين من نابوليون الذين لم يكن يهمهم سوى نيل الحظوة لديه . ولما نما الخبر الى الامبراطور أمر بأن يأتوه بخطاب المسيو دي شاتوبريان ليقرأه ولما رأى فيه لهجة الاستعلاء والشدة وما كان يرمي اليه من تحقير الحاضر والاطراء على الماضي فار فائره وانتهر عضو المجمع العلمي الجديد بالكلام التالي :

« أأنت ياحضرة السيد نسجت بردة هذا القدح ؟ فمتى صارت الندوة العلمية جمعية سياسية ؟ فلتنظم هذه الجمعية عقد الشعر ما شاءت نظمه ولتصلح أغلاط اللغة ما وجدت لهذا الاصلاح سبيلا ولكن فلتحاذر كل المحاذرة الخروج من دائرة علم الادب وتخطي حدوده والا اضطررت الى إرجاعها اليها . واذا كان المسيو دي شاتوبريان مختل الشعور أو ناغل الدخيلة فلدينا معقلات (بيمارستانات) نزجه فيها أو عقوبات ننزلها به ومن المحتمل أن يكون هذا الرأي رأيها فلا ينبغي لها ان تضحي به في سبيل سياستي التي تجهلها هي كما تتجاهلها أنت مع معرفتك إياها حق المعرفة وقد تكون هي معذورة ولكنك أنت لا وجه لتنصلك من الملامة مع اقامتك على مقربة مني ومعرفتك ما أعمله وما أريده . يا حضرة السيد اني أعتبرك مجرماً وجانياً وأنت لا ترمي الا الى إلقاء بذور الشقاق والشغب والفوضى والتحريض على القتل . . . فهل نحن في نظرك سفاحون أو لست عندك سوى مختلس ؟ اني لم أخلع أحداً عن العرش ياحضرة السيد فأنا وجدت التاج ملقى في التيار فالتقطته ووضعه الشعب على

رأسي : فلتحترم أعماله .

« ان تحليل الامور جهارا او بسطها للبحث والمداولة في حوادث قريبة العهد في مثل الاحوال الحاضرة مدعاة الى اثارة اضطرابات جديدة ومجاهرة بمناوأة الراحة العامة وان ترميم صرح الملكية المتداعي سر ولا ندحة عن بقائه سرا وفضلا عن ذلك ما هذه التدابير العنيفة الجديدة المزعوم اتخاذها بحق اعضاء الكنفنسيون والمتهمين بقتل الملك ؟ وكيف تستجرىء على بعث مثل هذه المسائل الدقيقة من رمسها ؟ فلندع لله الحكم في ما لم يبق جائزا للبشر الحكم فيه . فهل انت اشد تمسكا برأيك من الامبراطورة برأيها ؟ فلها مصالح خطيرة خاصة تحافظ عليها كما تحافظ انت على مصالحك ويحسن بك ان تقتدي باعتدالها وعزة نفسها فهي لم تشأ ان تعلم او ان تعرف شيئاً .

« ما هذه الحال ؟ أأفقد موضوع عنايتي وثمرة جميع ما أنفقته من الجهد ؟ أعني اني اذا ما فقدتموني غداً عمدتم الى التقاتل والتطاحن ؟ ما أشقاك يافرنسا ! فانك ستظلين مدة طويلة مفتقرة الى وصي . »

وكان الكلام الاخير الذي فاه به الامبراطور معبراً عن الفكر السياسي لدارة أعماله على رحاه منذ جلوسه وكان لا يزال متسلطاً على كل حركة من حركاته في أثناء ملكه . فكان يزعم انه ألقيت اليه مقاليد الوصاية على فرنسا وفوض اليه أمر حفظها من عودة الاحزاب الى العبث بها وأصير اليه أن يحول دون استنزاف موارد قواها باختلافات لا طائل تحتها أو بمخاصمات تجر الى سفك الدم على ان روح الحزبية كان يرشده الى اتيان اعماله وقد دفعته اليها عوامل الطمع المفرط والكبرياء الممقوتة وان ما كان خصومه المتعمدون الغض من كرامته يعدونه ضرباً من الظلم كان هو يدعوه « وصاية سامية » . ولما كان الشعب قاضيه الاكبر المعصوم من الخطأ لا يرى في حكومته إلا القوة والعظمة مع السير على الجادة المرسومة له بدهاء هذا الرجل العظيم كان بعض معارضيه وهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين وقد اعتزلوا عن معاشر البشر يرون في حكومته آثار العسف والاستبداد . وكان يدنو الحين الموشك فيه الحظ ان يمن على نابوليون باسمى وآخر نعمة كان يتوقعها منه . فشعرت الامبراطورة ماري لويز في ١٩ مارس سنة ١٨١١ باعراض المخاض الاولى نخافوا في بدء الامر أن تكون

ولادتها متعسرة وكان دوبوى المشهور قد استدرك تلك الحالة وسأل عما يجب عليه ان يعمله لو قضي عليه بعمل عملية جراحية وخير بين سلامة الام وسلامة الطفل : فقال له نابوليون بلهفة : « ابذل جهدك لانقاذ الام » . فان عواطفه كرجل انتصرت في هذه الدقيقة الرهيبة على جميع المصالح التي كان يتوخاها كامبراطور ويعلل النفس باصابتها وفي الساعة التاسعة صباحاً من ٢٠ مارس زالت جميع مخاوفه وتمت جميع رغائبه فان ماري لويز وضعت غلاماً فتناوله نابوليون في الحال بيديه وبادر الى عرضه على أنظار عظماء بلاطه وهو يصيح بملء فيه وقد ثمل بخمرة الفرح : « هذا ملك رومية ! »

وما عتم صوت المدفع ان بشر العاصمة بنبأ الحادث السار المتمم رغائب رئيس الحكومة الامبراطورية الاكبر . فكانت الاحتفالات والمسرات العامة تنبئ عن مشاطرة الشعب رئيسه ذلك الهناء الشديد . وسلكت مسلك باريس نابولي وميلانو وجميع المدن المرفوعة فوقها الراية الفرنسوية وقدمت جميع مجالس الحكومة وسفراء الدول الاجنبية تهانئها لوالد ملك رومية السعيد الجد . وقد ناب عن ملك بروسيا في تقديم التهانئ البرنس دتزفلد وهو الذي صفح عنه نابوليون في برلين اكراماً لزوجته المذرفة الدموع أمامه

واحتفل في كنيسة نوتردام في ٩ يونيو بعمودية ملك رومية فخرجت جميع باريس لمشاهدة الحفلة الشائقة وكان الشعب يريد أن يقرأ على جبين نابوليون ما كان يخامر فؤاده من سرور الملك وغبطة الاب وكان يريد أيضاً أن يبدي له ما كان يساوره من الابتهاج . على أن ابتسامة نابوليون وان تكن نادرة ولا تكاد تظهر على ثغره حتى تتوارى كان الناس يرونها في هذه المرة واضحة كل الوضوح على وجهه بحيث انها كانت تنعكس على جميع وجوه المحيطين به . وكان ذلك المشهد حافلا وقد شاطرت السماء فيه الارض فكانت الشمس ساطعة والجو صافياً بحيث أن الشعراء تغزلوا بذلك المشهد وقالوا : « ان السماء تظل واقية له . »

واقتبل الامير الطفل سر العماد من يد الكردينال فش خال والده وكان عرابه جده امبراطور النمسا وأطلق عليه اسم نابوليون فرنسوى شارل جوزف . وكانت معموديته واسطة لاقامة الاحتفالات الشائقة في جميع الاقاليم الخاضعة

لسلطة والده وأكرم والي السين ومجلس بلدية باريس وقادة جميع حكام مدن السلطنة الفرنسوية والمملكة الايطالية . وكان المسيو دي بوريان المشنع بحق نابوليون أكثر من غيره قد اضطر الى الاعتراف بأن ولادة ملك رومية استقبلت بحماسة عامة وانه لم يلد طفل بين مجالي العظمة والمجد نظير هذا الطفل .

وكان نابوليون يرى في خلال ذينك الابتهاج والحماسة العامين الروح الاكليريكي يدبر سراً حركة ترمي الى تقويض عرش الامبراطورية فان بيوس السابع ظل مصراً على رفضه تثبيت الاساقفة الذين سماهم الامبراطور وبعبارة أخرى لم يكن يرضى بعمل أدنى تسوية قبل أن ترجع اليه عاصمته وبلاده . وقد ذهبت على غير جدوى تسمية نابوليون رئيساً لاساقفة باريس زعيم حزب اليمين في المجلس الدستوري فان الحبر الاعظم لم يرض بتسميته مع ما كان للاب موري المشهور المنتدب لهذا المنصب الديني السامي من المكانة العالية لدى الخاص والعام فقد كان هذا الاب يجاهر على رؤوس الاشهاد بأنه لم ينضم الى الامبراطورية الجديدة الا لرؤيته فيها تكريس مبدإ الملكية وقد كان هو من أشد المناضلين عنه . وأصدر البابا حرماً على هذا الاب الفاضل المدافع بكل قواه عن الملكية والكرسي الرسولي إلا أن هذا الحرم بقي سرياً . ولما علم نابوليون ان مأموراً من كبار مأموري الامبراطورية وهو برتاليس مدير المكتبة علم ما كان من أمر الحرم السري ولم يعارضه انتهره بلهجة عنيفة في إحدى جلسات مجلس شورى الدولة وهذا ما خاطبه به الامبراطور : « ماالداعي الى عملك هذا ؟ أهو مبدأك الديني ؟ فاذا كان هو الداعي الى ذلك فلماذا أنت باق في هذا المكان ؟ أنا لا أضغط على ضمير أحد فهل جعلتك بالعنف مستشاراً لي ؟ ان هذه نعمة كبرى التمست أنت إصابتها وأنت في هذا المجلس أحدثهم سناً وقد تكون الوحيد بينهم الخالي من الالقاب الشخصية وأنا لم أنظر إلا إلى خدم أبيك لأكافئك عليها . . . فعلى مستشار الدولة واجبات كثيرة نحوي : وأنت دستها برجليك وعليه فصلتك من هذا المنصب فاخرج واغرب عن عيني . . . وانه وايم الحق يؤلمني هذا الامر كثيراً لان فضائل والدك وخدمه لا تزال ممثلة في ذهني . »

فخرج المستشار الشاب من المجلس وعاد الامبراطور فقال :

« أؤمل أن مثل هذا المشهد لا يتكرر أبداً فقد جلب علي غماً شديداً . »

ولم يقتصر نابوليون على إبعاد الأشخاص المعتصمين بحبل البابا ويّة بل أراد المجاهرة بعما كسة ما كان يضمره فريق كبير من رجال الدين لسوق الأذى اليه وصمم على بسط مزاعم الحبر الأعظم للأساقفة الفرنسويين المستمسكين بغرز المبادىء الغاليكانية . فأمر بعقد مجمع أساقفة وطني وجعل الكردينال فش رئيساً له وصرف جل عنايتــه الى إدخال الأساقفة الايطاليين فيه وكان يظنهم ممالئين له على مقاصده . وهذه صورة الدعوة التي وجهها إلى الأساقفة :

« إن الكنائس الفائقة سواها في الشهرة وكثرة الرعيــة في سلطنتنا خلت من رؤسائها وان أحد الفريقين العاقدين الوثيقة (الكنكردا) تجاهل هــذه الحالة . على ان المسلك الذي سلكوه في المانيا من عشر سنوات كاد يقضي على الأسقفية في تلك البــلاد المسيحية : فلم يبق فيها اليوم سوى ثمانية أساقفة والقسم الأكبر من الأبرشيات يتولى نواب رسوليون تدبير شؤونه فكان من وراء ذلك إدخال الاضطراب على المجامع الدينية بتمرسهم بما لها من الحق لتولي إدارة شؤون الأبرشيات عنــد فراغها من رؤسائها وسعوا سعياً خفياً لالقاء الشغب والفتن بين الرعيــة فلم تر هذه المجامع مندوحة عن نبذ البراءات المخالفة لحقوقها وللقوانين المقدسة .

« ومع ذلك تمر الاعوام وتفرغ الابرشيات عندنا من رؤسائها في كل يوم فاذا لم يبادر الى النظر في أمرها في القريب العاجــل قضي على الأسقفيات في فرنسا وإيطاليا وأصابها ما أصاب الاسقفيات في المانيا . ولمــا كنا نرمي الى تلافي الامور المخالفــة لخير ديانتنا ومبادىء الكنيسة الغاليكانية ومصالح الدولة فقد صحت عزيمتنا على أن نجمع في ٩ يونيو القادم في كنيســة نوتردام بباريس جميع أساقفة فرنسا وإيطاليا لعقد مجمع وطني .

«وعليه نرغب منكم أن تبادروا فور وصول رسالتنا هذه اليــكم الى اخذ طريقــكم الينا لتصلوا الى باريس في الاسبوع الاول من شهر يونيو .

« وليس لنا غاية غير الغاية المبينة في هذه الرسالة فنسأله تعالى أن يكلأكم بعين عنايته المقدسة . »

ولم يتمكن الاساقفة من عقد الجلسة الاولى لجمعهم إلا في ٢٠ يونيو على

أن الامبراطور وان يكن قد عني باختيار رئيس المجمع من أسرته فلم يجده منقاداً كل الانقياد الى رغائبه كما كان يبتغي فان الكردينال فش كان أول من جنح عن الجادة التي كان نابوليون يريد أن يرسمها له فأظهر في المجمع انه خاضع للكنيسة الرومانية أكثر مما كان خاضعاً للامبراطورية الفرنسوية . ولم يسع الأساقفة أن ينهجوا غير المنهاج الذي تخير الكردينال فش نهجه لأن عهد الغاليكانية كان قد انقضى . وكان القرن الثامن عشر والثورة الفرنسوية الكبرى اللذان جاءا بعد بوصويه قد زعزعا مذهب هذا الرجل العظيم وسلطته من أساسهما عند رجال الدين في فرنسا : فان هؤلاء الرجال استاؤوا من تهكم فلتير على الدين والاضطهاد السياسي لهم فأجمعت كلمتهم على وجوب توثيق عرى ارتباطهم بالكرسي الرسولي ومناصرة زعيم الكنيسة الاكبر المحصور فيه مبدأ الكثلكة الحيوي. وكان الاساقفة يخشون من ان يجهزوا على الكنيسة الرومانية في فرنسا فيكونون كالباحث عن حتفه بظلفه بعدما كشتهم لمزاعم الحبر الروماني وسعيهم وراء الذرائع الآيلة الى اضعاف علاقاتهم بالسلطة الروحية المستمدين قوتهم منها . فبعد ما ركبوا مركب الغرور وذهبوا كل مذهب في الجدالات الدينية وأعلنوا حرية الكنيسة الغاليكانية في عهد الملك لويس الرابع عشر ردهم الى تقاليد الجبليين المتطرفين ما جرى من الحوادث في السنين الاخيرة لملك لويس السادس عشر . وكلما كانوا يشعرون بخطر يهددهم من جراء روح الازمنة الجديدة كانوا يسعون للالتجاء الى دهاء العصور القديمة والعودة الى مصدر قوتهم وحياتهم . على انه اذا كان مجموع الاساقفة يحتمي بحكم الضرورة الى الماضي فان زعماء الكنيسة اذا أخذ كل منهم على حدة كانوا عصريين وغير ميالين الى مناهضة موزع النعم الزمنية الشديد الحول والطول . فانحل المجمع وتمكن الامبراطور من الحصول من كل أسقف فرنسوي وإيطالياني على تصريح شخصي ملائم كل الملاءمة لمقاصده .

وكان البابا في ذلك الحين في سافون وهو لا يزعزع عزمه شيء من الاشياء ففاجأت نابوليون النفس أن البابا قريب من رومية أو أن البريطانيين قد يختطفونه فأمر به أن يقدم الى فنتنبلو . على أن نابوليون مع معاملته البابا بيوس السابع بهذه المعاملة العنيفة لم يذهل قط عما يجب عليه ان يبديه من الاحترام والاكرام



نابوليون يجرح فى راتسبن

لاسيره المظيم . وقد شاء أن يخفف عنه وطأة المنفى فامر أن يكون ملازما له العالم دينون وهذا خفف والحق يقال بلطف أحاديثه وعنايته المشهورة اثقـال الهموم عن الاب الاقدس فتعلق به بيوس السابع كل التعلق وكان في أحاديثـه معه يسأله في غالب الاحيان عن بعثة مصر ورغب في الاطلاع على المؤلف الذي صنفه هذا العالم في عاديات تلك البلاد . بيد أن المسيو دينون لعلمه أن كتابه يتضمن بضع صفحات لاتنطبق على الكتاب المقدس في ما يتعلق باصـل العالم خاف في بدء الامر أن يجرح عواطف قداسة الحبر الاعظم بتلك الشروح والمزاعم المخالفة لما جاء في سفر التكوين الا ان البابا لم يقف عند هذه الامور المبينة الاختلاف بين المباحث العلمية وقضايا الوحي وحين شعر بان دينون يجهد بكتمانها عنه سكن خاطره بقوله له : « لا بأس من ذلك يا ابني فان جميع هذه الامور في غاية الغرابة واني والحق يقال لم أكن أعلم هذا الامر . »

واخبر العالم الفرنسوي حينئذ قداسة الحبر الاعظم ان الكتاب الذي قرظه رشق هو ومؤلفه بسهام الحرم من قداسته . فقال له البابا : « هل انت محروم يا ابني وهل انا حرمتك ؟ فاني وايم الحق مستاء جدا من هذا الامر واؤكد لك اني كنت جاهلا ذلك كل الجهل . »

الفصل التاسع عشر

نظرة عامة في مجرى الحوادث الحربية في اسبانيا والبرتوغال

من سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨١٢

وكانت تنشئة الشعب الاسبانيولي على الطريقة الفرنسوية تجري في أثناء تلك الحروب الهائلة ومن خروج الامبراطور من شبه الجزيرة الايبرية لم يكن نوابه يرون بدا من اطاقة المناوشات ومحاربة الجنود المنظمة المؤلفة من البريطانيين والاسبانيول الا انه من جراء نتائج تلك المصادمات اليومية الدموية وبعد معارك هائلة وحصارات طويلة رسخت أركان سلطة الملك يوسف في جميع انحاء المملكة الاسبانيولية . ومن اوائل سنة ١٨٠٩ وبعد عودة نابوليون الى فرنسا عهـد بالافوكس الذي غشي سرغوسة على أثر انكسار تودلا الى الدفاع عن عاصمـة

الاراغون بجرأة الكنتبريين القدماء . ولبث الفرنسويون شهورا كثيرة أمام اسوار سرغوسة ولما تمكن الجنود ببسالتهم والقواد بمعارفهم وبما أصابوه من فن الحرب ورجال المدفعية والمهندسون بما استخدموه من الذرائع التي رأوها ملائمة من هدم الاعمال المشيدة في ظاهر الموقع واسوار المدينة قضت عليهم الاحوال بمواصلة القتال الهائل في الشوارع ومحاصرة بيوت المدينة بيتاً بيتاً وفي آخر الامر ذل العناد الاسبانيولي للبسالة الفرنسوية

واستسلمت المدينة للمارشال لان في ٢١ فبراير سنة ١٨٠٩ وحلف ماريانو دومنغز رئيس المجلس البلدي يمين الامانة للملك يوسف فقال للمارشال .

« لقد نهضنا باعباء واجباتنا في محاربتكم مستنفدين مجهودنا في هذا الامر واننا سنحافظ من الآن على عهودنا الجديدة بالثبات نفسه الذي أظهرناه فيما مضى . »

ويصعب علينا أن نستوفي وصف حالة الفظاعة والدمار التي صارت اليها عاصمة الاراغون : فقد انتشر وباء هائل زاد ويلات الحرب شقاء وقيل ان المستشفيات غصت بالمرضى والجرحى ولم تكن الجبانات تسع الجثث فصاروا يضعونها في اكياس ويلقون مئات منها عند ابواب الكنائس .

وسقطت مدينتا جاكا وموزون في أيدي الفرنسويين بعد سرغوسة ومع ذلك لم تكن جميع هذه النكبات لتوهي عزائم الاسبانيول الثائرين . وعبر قسم من الجيش الفرنسوي في الاراغون الى قسطيلة ليتخذ له مركزا فيها بعد ما ترك للفيلق الثالث أمر المحافظة على الفتح الذي كلفهم ثمانية آلاف قتيل . ولما انتهى الى الجنرال بلاك النازل في كيلونيه ان قاهري بالافوكس انقسموا وان الفيلق الخامس ابتعد عن الايبر متوجها الى ناحية نهر التاج برح طرطوز باربعين الف مقاتل وتوغل في الاراغون عازماً على استرجاع سرغوسة

واصاب الجنرال بلاك في بدء الامر فوزا يسيرا في الكنتز الا أن الفيلق الثالث كان يتولى قيادته الجنرال سوشه المشهور ببسالته وشدة صريمته وهذا الرجل ارتقى الى منصبه بما اتاه من الاعمال العظيمة في حروب ايطاليا والمانيا وهو الذي قال عنه نابوليون ذات مرة : « لوكان عندي مارشالان نظيره في اسبانيا لكانت جميع هذه البلاد قد فتحت ولكنا قد بقينا حتى الآن مستولين

عليها . » فقد كان سوشه ذا نهيـة ثاقبة ورأي صائب وادارة حسنة وشجاعة نادرة وقد نال نصراً مبيناً بصفاته العالية هذه فاستدعي سوشه للقيام مقام جونو في الاراغون فما مكث أن رحض وصمة العار اللاصقة بالجيش الفرنسوي واستمال النصر الى الاعلام الفرنسوية . وكانت معارك ماريا وبلشيت هادمة لآمال بلاك فاضطرته الى العودة الى كتلونيه . ولقي الجنرال سوشه مناصرة في أركان حربه الجنرال هارسب وقائد المدفعية فاله وقد أهلته اعماله الحربية فيما بعد الى الارتقاء الى درجة المارشالية .

ولما تمزق شمل الجيش الاسبانيولي على ما مر بنا بيانه عاد قائد الفيلق الثالث الى سرغوسة وعني بتضميد الكلوم وتسكين هائج الشعب فلم يذهب سعيه عبثا لم يمض غير قليل من الحين حتى استعادت سرغوسة في اثناء الدمار الملم بها اعيادها واحتفالاتها الدينية فاقيمت الحفلة الكبرى منها في كنيسة بيلار تحت حماية القائد الفرنسوي وقد رأى هذا من باب اللياقة والمجاملة أن يشاطرهم الاحتفال قارنا الابهة الجندية بفخامة الدين

فبمثل هذه الاعمال وبالحكمة والمعاملة الحسنة وبالمحافظة الشديدة على النظام الجندي أصبحت المدينة الفائقة سواها في مناوأة السيادة الفرنسوية بين جميع المدن الاسبانيولية خاضعة على غير شعور منها لنير تلك السيادة بعد اصرارها الشديد على خلعه

وكانت السكينة قد أوشكت أن تنتشر في جميع انحاء الاراغون واذا بزعيم جديد لعصابات العصاة الثائرين يقال له مينا قد ظهر فيها فهذا الشاب أثار في ذلك الاقليم ساكن الفتنة الا ان الجـنرال سوشه لم يمهل النار أن يندلع لسانها فتلتهم كل ما تعثر عليه . فشد وراء مينا ومزق شمل عصاباته وأسره

ولم يصب الجيش الفرنسوي في كتلونيه مثل ما أصابه من النصر في الاراغون فان قواده لم يكونوا يفترون عن مقاتلة جيوش كثيرة العدد من العصابات الكثيرة العـدد المؤلفة من الشعب الـكتلاني أو الجيوش المنظمـة المتولي قيادتها كارو وبلاك وأودونل . على أن نيل الجيوش الفرنسوية مثل ما نالته من التفوق في الاراغون كان يقتضي تعزيز قوة سوشه وانحداره من جبال سرغوسة الى سهول طرغونة وبلنسية .

وقبل أن يقوم قائد الفيلق الثالث بهذه الحركة عني بضمان طاعة الولاية التي أزمع مغادرتها باستيلائه على الحصون المعتبرة حداً بين الاراغون وكتلونيه من الشمال الى الجنوب وكان هذا العمل يقتضي أشهراً ودوخ بالاغويرفي ٤ ابريل سنة ١٨١٠ وسقطت في حيازته ليدا ومكننزا ومورلا في ١٣ يونيو من السنة عينها فانفتح في وجهه طريقان احدهما يؤدي الى بلنسية والاخر الى طرطوز فسار على طريق طرطوز

وكان الجنرال كارو الاسبانيولي قد وطن النفس في بدء الامر على تعرضه لمحاصرة هذا الموقع ولكنه غير عزمه عند اقتراب سوشه واسرع في التراجع فانتظر سوشه قبل مهاجمة طرطوز وصول النجدات المنتظر ارسالها اليه من الفيلق السابع . فوصلت اليه النجدات في خلال شهر دسمبر سنة ١٨١٠ وصارت الراية الفرنسوية تخفق فوق الموقع المذكور في أول يناير سنة ١٨١١

ولما أخضع سوشه طرطوز لم يشأ أن يتوغل في كتلونيه قبل تطهيره الاراغون من العصابات التي عالجت دخولها بقيادة فيلاكمبا والامبيسينادو وميناالكبير وشغل سوشه شهوراً باخراج الزعماء الثلاثة من بلاد الاراغون : فتراجع فيلاكمبا والامبيسينادو الى ولاية كوانسا واعتصم مينا بجبال نافار فعاد سوشه الى كتلونيه أمام اسوار طرغونة

وكانت هذه المدينة مركزاً للفتنة في شمال شبه الجزيرة فالتجأت اليها حامية مؤلفة من ثمانية آلاف مقاتل كانت تعلل النفس بالحصول على مدد من جهة البحر فحاصر الجنرال سوشه المدينة بأربعين الف محارب وفتحها عنوة بعد شهرين في ٢١ يونيو سنة ١٨١١

وأفعم الفتح الجديد الخطير قلب الامبراطور بهجة لانه كان يعلق أهمية كبرى على انتصارات جيوشه في أسبانيا فقد كانت أندر من انتصارات جيوشه الاخرى في سائر البلدان الاوربية فما كان قائماً في وجدانه من تقدير الجنرال سوشه حق قدره جعله يبادر الى ترقيته الى درجة المارشالية .

وتلا احتلال مون سرا فتح طرغونة فان الجيوش الفرنسوية المظفرة استعادت ما كان لها من التفوق على أعدائها في حروب المانيا وايطاليا . وخاف الاسبانيول أن يصيب بلنسية ما أصاب المواقع المحصنة في كتلونيه فبادروا الى

إلقاء مقاليد قيادة عشرة آلاف جندي الى الجنرال بلاك ليتصدى لسوشه الظافر . فحصنت قلعتا أورزا وصاغنت لكنهما لم تستطيعا الوقوف في وجه الفرنسويين الجريئين ففتحت قلعة أورزا بسهولة وأما قلعة صاغنت فانها وان يك الجنرال بلاك قد أنجدها بخمسة وعشرين الف جندي أكرهت على التسليم في ٢٦ اكتوبر سنة ١٨١١ بعد هجمات صادقة ومعركة هائلة فقد فيها الجنرال الاسبانيولي خمسة آلاف رجل بعد ما تقطع نظام رجاله

ولم يبق شيء من الاشياء يحول دون مهاجمة الفرنسويين لبلنسية فعالج الامبيسينادو ومينا الانضمام الى بلاك في جبال الاراغون ليحفظوا ذلك الموقع من السقوط أو ليؤخروا سقوطه ؟ وكان هذان الرجلان في مقدمة أبطال الاستقلال الوطني . فلما درى المارشال سوشه ما كانوا مصممين على عمله سعى لتوقي خطر قد ينشأ من تلك الجهة فطلب مددا ولما جاءه المدد المطلوب عبر نهر الوادي الكبير وهزم قسما من الجيش الاسبانيولي الى مملكة مرسية وحصر القسم الآخر في بلنسية . وكانت هذه المدينة تسمعهم بدون خوف يلفظون اسم ملقي السلام في سرغوسة ولكن راعها توقع وقوع مصائب فيها ومحاصرة الاعداء اياها وفتحها عنوة فطلب سكان المدينة الاستسلام حالما نجم بعض الدمار عن قنابل المدافع فأسرت الحامية وعددها ثمانية عشر الف رجل ومعها قائدها الجنرال بلاك .

وفتحت مدينة بلنسية أبوابها في وجه الجيش الفرنسوي في ١٠ يناير سنة ١٨١٢ وأصدر الامبراطور مرسوماً ساميا في ٢٤ منه أنشأ بموجبه في مملكة بلنسية رأسمال قدره مئتا مليون فرنك أرصده للتوزيع على قواد جيش الاراغون وضباطه وجنوده وانعم بموجب هذا المرسوم على المارشال سوشه بلقب دوق البوفيرا وترك له الريع المخصص لهذه الدوقية فقد كان الامبراطور يكافىء دائما من يأتون أعمالا خطيرة .

وفي خلال السنوات الثلاث التي انقضت بين فتح سرغوسة وفتح بلنسية وتخللها حوادث يومية كان من نتيجتها توطيد أركان السيادة الفرنسوية في الولايات

التي في الشمال الشرقي من تلك البلاد أصاب الفرنسويون انتصارات متوالية على أيدي القواد المفوض اليهم الامبراطور قيادة كتائبه في الولايات الجنوبيه الاسبانيولية والبرتوغالية . على أن الحظ لم يخدم الملك يوسف في الغرب والجنوب كما خدم جنود الامبراطور في الانحاء التي مر ذكرها .

وبعد فتح الكورونيا في شهر يناير سنة ١٨٠٩ غزا المارشال سولت مملكة البرتوغال وواصل المارشال ناي فتح غاليسة واستوريا واعاد الامن اليهما وكسر المارشال فكتور في مدلين جيش الاستريمادور المتولي قيادته الجنرال كوستا.

وأصاب المارشال سولت نصراً مبينافي البرتوغال في وقت قصير ولكن لم يستمر هذا النصر مدة طويلة. وظفر بالرومانا في ٦ مارس على ضفاف نهر الطاميغا واستولى على شافيس فبراغا فغيمارانس فأوبرتو . وهـذه المدينة الاخيرة التي لها المقام الثاني في البرتوغال دافعت على غير جدوى دفاعا شديدا ولكنها سلمت بعد ما هجموا عليها في ٢٩ مارس سنة ١٨٠٩ وهو غد اليوم الذي جرت فيه معركة مدلين وبعد معركة سيودال ريال بيومين . وانتصر الجنرال سباستياني على الدوق دنفنتادو في هذه المعركة الاخيرة وبدد رجاله أيدي سبا .

على ان الانتصارات التي أصابها الفرنسويون في وقت واحد على التقريب ظلت عقيمة وبدلا من أن يكون من ورائها الارهاب للسكان كان من نتيجتها تنفيرهم من الغزاة . فهبت في الاستريمادور عاصفة فتنة عامة ورفض المجلس البلدي في باداجوز رفضا عنيفا دعوة الظافر في مدلين سكان المدينة الى الخضوع له . وزحف ولنتن في اثناء ذلك الحين بثلاثين الف مقاتل من ليشبونة الى اوبرتو لينتزعها من يد المارشال سولت وكانت فتنة الاستريمادور قد حالت دون انضمام المارشال فكتور اليه وكان الجنرال سلفيرا البرتوغالي المنتظر المدد من برسفورد يهدده من جهة نهر الطاميغا. وأوشك الجيش الفرنسوي في ذلك الموقف المحفوف بالمخاطر أن يصاب بمثل ما أصيب به في بايلن وسنترا ولكنه كان يتولى قيادته في ذلك الحين قائد من أشهر قواد الـ..ـر وقد قال مؤلف كتاب « حروب الثورة » : « ان سولت خلصه بما أوتيه من الدهاء والاقدام . فلم يحجم عن إتلاف كل ما كان عنده من الذخائر والمؤن وعدد الحرب واسرع في التوجه الى غيمارانس ثم انه ترك براغا الى يساره وكان ولنتن عازما على سبقه اليها وتوغل في الجبال

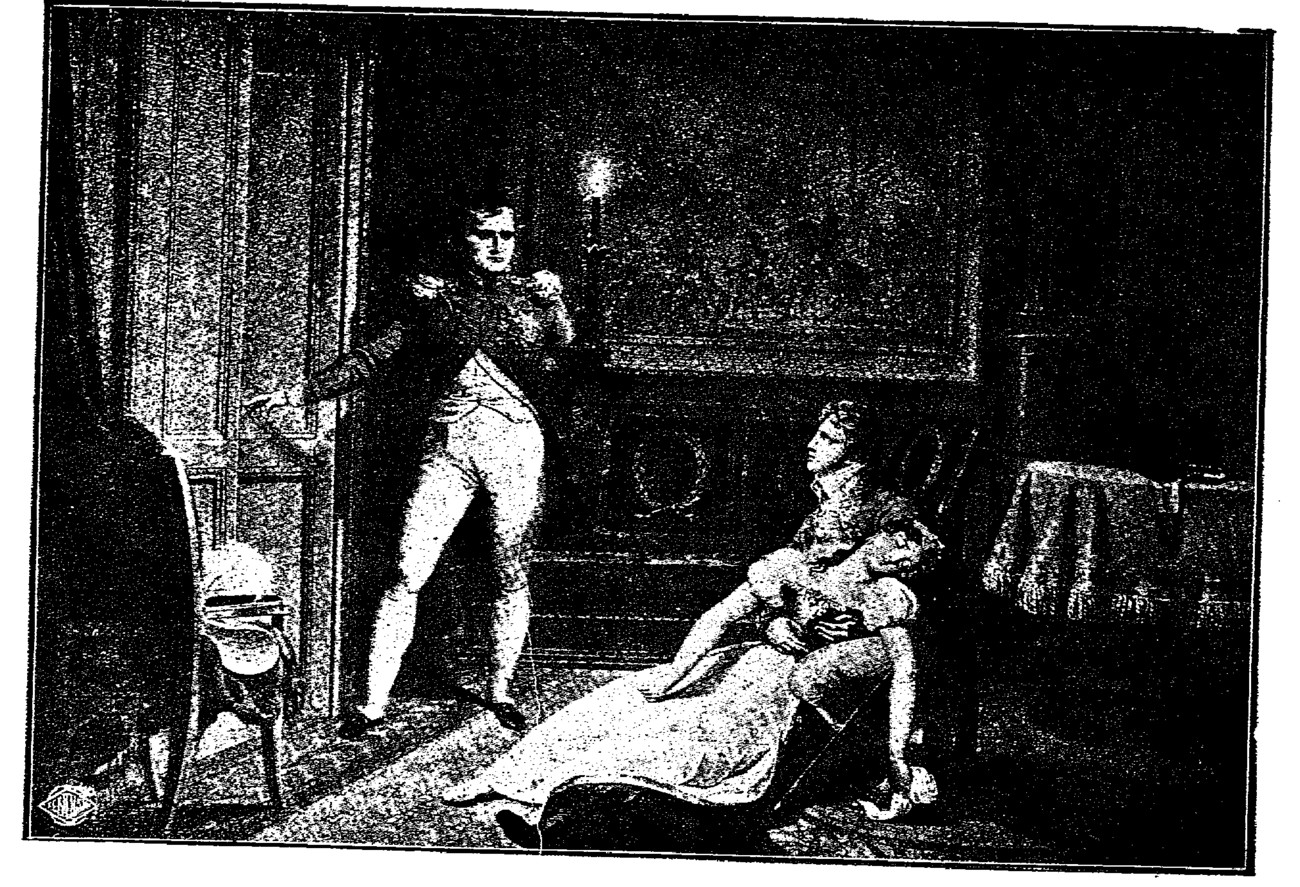
المنحدر منها نهر الكافادو . وبعد يومين بلغ رويفانس المتشعب منها طريق يؤدي الى شافيس النازل فيها سلفيرا والمتصل بها مضيق عميق ينتهي عند متناليغر بعد امتداده عند عقيق النهر . وسار الجيش برمته في طرقات ضيقة لم يكن يسهل على رجلين معا المسير عليها جنبا الى جنب . وكان نهر الكافادو يجري عند سفح المضيق وقد طغى على أثر سقوط الامطار الغزيرة المتجمعة فيه . وكان عند اعلى المضيق صخور كبيرة استذرى بها العدو وقذف الفرنسويين بنيران بنادقه . وكانت جداول المياه الكثيرة تثبطهم عن التقدم في طريقهم الوعر بيدأن سولت تغلب على جميع المصاعب وتمكن من كتمان سيره عن قائدي أعدائه ووصل الى الحدود ومنها انتهى الى أورنز . ولم يفقد سوى النزر من رجاله عند دخوله مضيق الكافادو فحافظ الفرسان على جيادهم والمشاة على سلاحهم . ويعد هذا التراجع المخالف لتراجع مور فخراً للمارشال سولت فانه لما الفى ذاته نظيره محصورا بين جيشين يفوقان جيشه في العدد تمكن من تجنب التمرس بهما ومر سالما بين شعب ثائر . وقد استطاع أن يجعل جنوده واثقين بأنفسهم بحيث انهم احتملوا بصبر عجيب شظف المعيشة والعواصف ومشاق السير على طريق تمطر عليهم فيه أمطار النيران من دون ان يتيسر لهم مقابلة قاذفيها بالمثل . »

ونجا المارشال سولت باعجوبة من ولنتن وبرسفرد وسلفيرا المعللين نفوسهم بحصره في مضايق البرتوغال وظهر بغتة في اسبانيا فأغار على الرومانا واضطره الى رفع الحصار عن لوغو . وانضم ناي الى سولت بعد ما أصاب في أستوريا ما اصابه سوشه في الاراغون واتفق معه على ضرب فيلق الرومانا ضربة قاضية وإخضاع ثائري غاليسة بيد ان ما كان يدبره العدو من الحركات الحربية في وسط شبه الجزيرة الايبرية اضطرت ذينك المارشالين الى تغيير خطتهما وما كانا قد عقدا عليه عروة العزم .

ولما أخفقت مساعي ولنتن في بعثته ضد سولت انثنى راجعا الى الاسترمادور وهو يؤمل أن يمزق فيلق المارشال فكتور تمزيقا . ولما برح معسكره في ابرنتس بأربعة وعشرين الف مقاتل كانت ميمنته مستندة الى جيش كواستا الاسبانيولي المؤلف من ستة وثلاثين الف محارب وميسرته الى جنود روبرت ولسن البالغ عددهم أربعة آلاف وفضلا عن ذلك كان يمكنه التعويل على مناصرة فيلق قوامه

اثنان وعشرون الفا بقيادة فنغاس كان موشكا أن يغشى سهول المانش . وكان الدوق دل بارك في أثناء ذلك الحين يقوم بحركات حربية في الشمال بالاتفاق مع بقايا جيش الرومانا . وكان برسفرد يقاتل عند حدد الاستريمادور بفيلق مؤلف من خمسة عشر الف برتوغالي من الاحتياطيين . وكانت جميع الجيوش البريطانية والاسبانيولية والبرتوغالية تتهيأ للهجوم على المارشال فكتور وغزو العاصمة وتخليصها من الملك يوسف .

وأدرك هذا الاخير ما كان يهدده من الخطر فأمر بحشد الفيالق الفرنسوية على نهر التاج عند تالافيرا رينا . وقبل أن يعطي سولت ومرتيه مهلة للانضمام آثر رأي فيكتور على رأي جوردان ولم ينتظر وصول سباسيتاني القادم من طليطلة بل باشر القتال . وكان عمله هذا واقيا لجيش أعدائه من كسرة عظيمة فان البريطانيين والاسبانيوليين دافعوا عن موقفهم دفاع الابطال وحافظوا عليه ، وبلغت خسارتهم نحو ثمانية آلاف رجل بين قتيل وجريح ولم تقل خسارة الفرنسويين عن هذا العدد . وعد البريطانيون والاسبانيوليون يوم تالافيرا يوم انتصار لهم فاحتفلوا بالاعياد الباهرة في اسبانيا وبريطانيا العظمى وجميع البلدان الاوربية المضمرة الحسد والقلى لفرنسا . الا ان سولت ما عتم أن جاء واقلق راحة أعدائه فاحتل بلاسنسيا وكان ولنتن المسندة اليه القيادة العامة للجيوش البريطانية والاسبانيولية والبرتوغالية على أثر معركة تالافيرا يعتقد أن سولت لا يزال في ضواحي بنافنتي . وانضم سولت الى مرتيه ثم الى فكتور في أوروبزا وأغار على جيش الاعداء في ٨ أغسطس سنة ١٨٠٩ عند جسر الارزوبسبو ولم يظل النصر في هذه المرة متردداً بين الفريقين وكان المارشال سولت في أثناء اشتداد وطيس الهيجاء قد ارتاب هنيهة من الزمان في نتيجه القتال فارتفع قسطل الحرب ومنعه عن تمييز الفيالق المتحاربة وحيث لم يكن يبصر كتائب الفرسان التي وجهها لمقاتلة مشاة البريطانيين والاسبانيوليين وظن أنها هلكت بهجوم الدوق دلبوكرك المنتظم تحت لوائه رجال يفوقون أولئك الفرسان في العدد خطر له أن يطلق المدافع على ذلك القسطل لاعتقاده ان فرسان الاعداء المظفرة محجوبة وراءه ولكن ما عتم أن زال غروره فان الاسبانيوليين كانوا قد انكسروا وكانت النار قد اضطرمت في حقول الحنطة وبلغت



مشهد الطلاق



الاحراج فانهزم من وجهها جيش ولنتن وهرب لا يلوي على شيء

وكان من نتيجة موقعة الارزوبسبو انهزام كواستا الى جبال المانش والاستريمادور واضطرار الجنرال البريطاني الى الاسراع في التراجع الى باداجوز. وعاد المارشال ناي الى غاليسة فقهر عند مضيق بانوس فصيلة ولسن بعد ثلاثة أيام مضت على موقعة الالموناسيد التي نشبت في غد اليوم الذي احتدمت فيه نيران موقعة الارزوبسبو واتلف فيها الجنرال سباستياني فيلق فنغاس بعد ما لجأ الذين نجوا منه الى مضايق سيارا مورينا .

الا ان عناد الاسبانيوليين جعلهم يواظبون على محاربة الفرنسويين مع ما أصابوه من الفشل وظهر رجل يقال له بالستروس التف حوله رجال كثيرون في استوريا فجاء بهم الى دوق دل بارك وكان هذا قد استولى على سالامنك بعد نيله انتصاراً يسيراً على فصيلة من فيلق المارشال ناي وكان الامبراطور قد دعا اليه هذا المارشال الى المانيا وأقام الجنرال مرشان خلفاً له في قيادة جيش غاليسة

وسكر الاسبانيوليون بسلافة الفوز اليسير الذي أصابوه وكانوا يلتون شعثهم بعد كل موقعة ينكسرون فيها فأرادوا الاغارة على اقليم المانش ومعالجة فتح مدريد . فزحف اريزاغا بستين الف مقاتل من دسبنا بروس الى العاصمة سائراً الى ناحية طليطلة وارانجوز وكان دوق دل بارك يزحف الى طريق برغوس في أثناء ذلك الحين .

وكان المارشال سولت متولياً القيادة العامة للجيش الفرنسوي خلفاً للمارشال جوردان فدعا اليه فكتور ومرتيه وسباستياني وسار بهم تواً للقاء العدو فهزمه حتى بلغ اوقانا وانكسر الجيش الاسبانيولي انكساراً هائلا في ١٨ نوفمبر ١٨٠٩ وقيل ان اريزاغا ترك قيادة جيشه في خلال هذه المعركة المشهورة واختبأ في قبة احدى الكنائس ليشهد كمتفرج بسيط تقطع نظام جنوده وتزلزل اقدام رجاله ففقد مدفعيته وعدده وأعلامه وترك ثلاثين الف أسير في حيازة أعدائه المنتصرين .

وكان من نتيجة انكسار اريزاغا تراجع دوق البوكرك النازل في الاستريمادور لمضد ميسرته وهربه الى تروكسيلو. وأثر فشل الاسبانيوليين في أوقانا بدوق دل بارك فتراجع الى سيوداد رودريغو ولم يتمكن من الوصول

اليها الا بعد انكساره عند جسر البا وفقدانه ثلاثة آلاف رجل ومدافعه وعدده .

وكان قد آن الاوان لضرب الثورة الاسبانيولية والتدخل البريطاني ضربة قاضية فكان ذلك الامر ميسوراً للامبراطور لان انتصاراته في المانيا وعقد الصلح مع دول الشمال كانت تمكنه من سوق جيوشه المظفرة الى شبه جزيرة ايبيريا .

وعليه بلغ عدد الجنود الفرنسوية في اسبانيا في الاشهر الاولى من سنة ١٨١٠ ثلاث مئة الف مقاتل وكانت القيادة الاسمية لهذه الجيوش ملقاة الى الملك يوسف والقيادة الفعلية الى المارشال سولت .

وكانت غاية الحركات الحربية الاولى مهاجمة سياراامورينا المبثوثة الالغام في مضايقها فأخذوها عنوة في يوم واحد (٢٠ يناير سنة ١٨١٠) مع ما أبداه الاسبانيوليون من المقاومة العنيفة ومن ذلك الحين أصبحت الجهات الجنوبية من شبه الجزيرة مفتوحة جميعها في وجه الجيش الفرنسوي فسقطت الواحدة بعد الاخرى : غرناطة فاشبيلية فلقا فرسية فاوليفنزا فباداجوز في أيدي الفرنسويين الا أن قادس ظلت مقاومة وكانت هذه المدينة مركزاً لتلك الجمعية المشهورة التي وضعت دستوراً ديمقراطياً واثارت حرباً اهلية تحت قصف مدافع فرنسا الثورية باسم ملك لم يكن مبدأه سوى مبدإ الارسطقراطية والملكية . وحوصر برا هذا الموقع الاخير المعتصم به الاستقلال الاسبانيولي ولكن بقي باب البحر مفتوحاً له لجلب المؤن والذخائر الحربية والرجال والتدابير .

وبينا سولت يجوب الأندلس ظافراً ويتعقب بقايا الجيش الأسبانيولي ويحاصر المدن ويفتحها جاء ماسينا الى اسبانيا وهو يرفل بذلاذل النصر الذي أصابه في اسلنغ فغزا البرتوغال زاحفاً الى ليشبونة . وكان متكلا على مناصرة جيش الأندلس له ولكن تخلف ذلك الجيش عن مناصرته لاضطرار سولت الى البقاء مكانه لمقاتلة الجيش البريطاني الاسبانيولي في الجزيرة وجبل طارق وقد كان هذا الجيش يهدد دائماً الاندلس والاقاليم الممتدة على شاطئ البحر الشرقي . ولما وجد ماسينا انه لا يستطيع مقاومة ولئن لتأخر النجدات عن الوصول اليه اضطر الى العودة الى أسبانيا . وكان تراجعه اليها مقروناً بالانكسار فان

ولنتن طارد الجيش الفرنسوي حتى انتهى الى أرض أسبانيا ففتح أوليفنزا وحاصر باداجوز . فأنعش حضوره موات الآمال في قلوب الاسبانيوليين ورمم ما كان متداعياً من صروح شجاعة مريدي الثورة وأنصارها . فخف سولت الى محاربة برسفرد في البويرة ووصل الى سفح الجبال وأقام ينتظر المدد ليتسنى له تخليص باداجوز الا أن حركات بلاك وبالستروس أجبرته على الرجوع الى اشبيلية ووجه منها حملة لاخضاع ثائري سيارا دي رندا وبعثة عقيمة الى طريف

ولما خلا لولنتن الجو عند ابتعاد سولت عنه شدد في محاصرة باداجوز فاستولى عليها في ٦ ابريل سنة ١٨١٢ . وأسرع سولت مرة ثانية الى نجدة المدينة فلم يصل اليها الا في غد اليوم الذي تم فيه استسلامها ولم يشأ الظافر أن يتعرض لفقدان غنيمته الجديدة فأبى محاربة القائد الفرنسوي .

وقفل سولت راجعاً الى اشبيلية وعمل على إعادة الامن والسكينة الى بلاد الاندلس ومعاقبة أنصار الرندا وسان روك ولكن البريطانيين والاسبانيوليين استأنفوا حركاتهم الحربية فانتصروا انتصارات متوالية وزحفوا من الاستريمادور الى المانش وكسروا جيش الوسط واحتلوا مدريد وألجأوا الملك يوسف الى التراجع الى بلنسية ليحتمي بظل جيش سوشه . وأصبح من ذلك الحين احتلال الاندلس متعذراً فرفع الحصار عن قادس وتراجع المارشال سولت بطريق غرناطة ومرسية وانضم الى سوشه عند اليكانت ثم انضم الى جيش الوسط ليزحف الى مدريد ويسترجعها

الفصل العشرون

انقطاع العلاقات مع روسيا

وكان الاسكندر قد غير من عهد بعيد اعتقاده بأن صداقة الرجل العظيم نعمة منه تعالى . ولم يبق في نفسه من المودة العلنية التي تم بأسرارها في تلست وذكرى ارفرت المبنية على الولاء سوى الاستياء والضغينة الناشئين عن مودة خامدة وأمل خائب .

فانه لما رأى دول القارة الاوربيـة قادرات على مناهضة الثورة الفرنسوية المجسمة بشخص نابوليون بونابرت أعار الحكومة البريطانية اذناً سميعة وتهافت على الدخول في المحالفات المؤلفة لمواقعة فرنسا في سنتي ١٨٠٥و١٨٠٦ فكان يسير تارة وراء النمسا وتارة وراء روسـيا . الا أن معركتي استرلتز وفردلاند جعلتاه ينبذ ما كان قد عقد عليه عروة العزم لمناوأة الفتنة الفرنسوية الـكبري . ولما علم الاسكندر أن الاشـياء المستاءة منها أوربا القـديمة كان وجودها ضرورياً طبقاً لمشيئة العناية أعرض موقتاً عن الماضي وانفصل في مفاوضة النيمن عن المحالفة البريطانية وسار على منهاج سـياسة الرجل الجديد المعلن الحصار البحري على الديار البريطانية . ولو لم يكن مقضياً على نجم فرنسا بالأفول ولو كان حظ نابوليون بونابرت قد بقي ثابتاً وسامياً لوجب الاتحاد معه لاجل اقتسام السـيادة الاوربيـة فذلك أفضل من الاصرار على مواقعته والتعرض للانحدار أمام كتائبه التي لا تجارى بمضمار . وجعلت هذه الافـكار الاسكندر سلس المقادة في تلست ومغالياً في صداقتـه في ارفرت من دون أن ينبذ بتاتاً اغتنام الفرص للاستفادة من انقلاب سـياسي وإمكان الرجوع الى الاعتصام بحبل الطريقة الاوربية القديمة .

على أن نابوليون مع اعتقاده صدق العواطف التي كان يظهرها الاسكندر له والتي كان هو ذاته يشـعر بها ثابر على إتمام مقاصده والانتفاع من الحوادث

رغبة في تعزيز السيادة الفرنسوية من دون أن يعبأ بما كان عاهل الروس يشعر به من الاستياء من جراء اتساع دائرة تفوق الدولة الفرنسوية . وكان من نتيجة اعتداء النمسا في سنة ١٨٠٩ الناجم عنه تعريض العاهل فرنسوى لانكسارات جديدة تجزئة سلطنته وتقريب حدود السلطنة الفرنسوية من حدود السلطنة الروسية وهذا الجوار لم يجزىء عنه إعطاء قيصر الروس جزءاً من غاليسيا على ما تقرر في مادة من مواد وثيقة فينا . وأما ما كان يعاكس مقاصد القيصر ويجرح عواطفه فوق كل شيء فهو إنشاء غرندوقية فرسوفيا بعد ما عجز عن عرقلة إنشائها في تلست وقد كان يرى في إنشائها تمهيداً لاعادة مملكة بولونيا وبعثها من رمسها . وكان يوالي المفاوضات مع الحكومة الفرنسوية رغبة منه في الحصول من نابوليون على وعد صريح بأنه لا يسعى أبداً الى إرجاع القومية البولونية . وقد كان حين اعتقد فيه ان هذه الأماني تمت : ففي ٥ يناير سنة ١٨١٠ وقع كولنكور دوق فيسنس وسفير فرنسا في بطرسبرج على وثيقة تتضمن ما يأتي :

١ — تعذر إعادة مملكة بولونيا

٢ — نسخ اسم بولونيا والبولونيين من المعاملات الرسمية

٣ — عدم توسيع نطاق دوقية فرسوفيا باضافة أراض اليها من مملكة بولونيا القديمة

٤ — إعلان هذه الوثيقة بصورة عامة .

ولم يكن كولنكور من خريجي المدرسة السياسية التي قال أستاذها : « لم نمنح الانسان الكلام الا ليستعين به على كتمان فكره . » فان مقدرته على العمل ومهارته في المفاوضات كانتا مقرونتين فيه الى أخلاق عالية كريمة وكانت هيبته الثاقبة خاضعة لجودة قلبه . فتذكر انه لما دار البحث على اقتران العاهل نابوليون بالغرندوقة حنة فوض اليه أن يعد باذاعة تماثل الاذاعة التي كان يطلبها الاسكندر الآن وقد رضي بأن يوقع على صورة الاتفاق المقدمة اليه من دون أن يفتكر بالتغيير الناجم عن انقطاع أسباب الاتفاق العائلي ومجرى الحوادث في مقاصد عاهل الفرنسويين وآرائه . ولا بد من القول أيضاً ان دوق فيسنس انخدع بنيله الحظوة لدى القيصر وبما أوتيه من كرم الاخلاق وحسن التصرف

بعض الانخداع في نوبته في علاقته الودية بالاسكندر

وأبى نابوليون الموافقة على ما وافق عليه سفيره فانه لاستيائه من الاسكندر لتهاونه في أمر الحصار البحري ولفقدان أسباب التضحية بمبدأ من أقدم وأعز المبادىء المعتصم هو بها من جهة السياسة الاوربية ظل متمسكا كل التمسك بالرأي الذي كان قد أبداه من مدة طويلة والذي لم يكن يني عن الاستمساك به وهو : « ان جميع دول الغرب يرغبن في إعادة مملكة بولونيا وانه ما دامت هذه المملكة غير موجودة تظل أوربا بغير حدود من جهة آسيا . » وألح القيصر بوضع طلبه هذا موضع الاجراء وأنفذ سفيراً لهذا الغرض فأصر العاهل نابوليون على نبذ طلبه فحينئذ ذهب البرنس كوراكين بناء على ماتلقاه من الاوامر من بطرسبرج وقال لامبراطور الفرنسويين : ان رفضه يعد مساعدة لبولونيا على بلاده فاستاء نابوليون من هذا الكلام أكثر مما خاف منه وقال له بلهجة عنيفة: « ماذا تقصد روسيا بمثل هذه اللهجة ؟ فهل تريد الحرب ؟ . . . ولو كنت أريد إعادة مملكة بولونيا لكنت قد فعلت ذلك ولما كنت قد سحبت جنودي من المانيا . . . لكنني لا أريد أن اركب مركب العار باذاعتي ان مملكة [بولونيا لا تعاد أبدا فان تكلمي بلغة الآلهة يجعل الناس يهزأون بي ويوسم اسمي بسمة العار ان انا عززت سياسة الغدر هذه فاعلان منع اعادة مملكة بولونيا يكون اكثر من الاعتراف بتقسيمها . وانا لا أستطيع المعاهدة على محاربتي أناساً أحسنوا خدمتي وأظهروا لي ارادة حسنة ثابتة واخلاصاً عظيما . . . فلا أقول للفرنسويين : يجب ان تسفكوا دمكم لتخضعوا بولونيا لنير روسيا . فان انا وقعت على صك يقضي بعدم اعادة مملكة بولونيا فأكون قد قصدت اعادتها وان عار مثل هذه الاذاعة يمحوه الفعل الذي يكذبه . »

ولم يكن الوقت قد دنا للاسكندر ليتخذ خطة عدائية ولما لم يبق للإسكندر ان ينتظر شيئاً من المحالفة الفرنسوية لان نابوليون كان من الجهة الواحدة يأبى أن يجاهر بعدم اعادة مملكة بولونيا ومن الجهة الاخرى يتقرب من السياسة النمساوية في المسألة الشرقية بحصره الامتيازات المعطاة في ارفرت لامتلاك ملدافيا وفلاخيا واستثناء ضفة الدانوب اليمنى ومصابه لم يكن القيصر مع اغضاء الطرف حتى ذلك الحين عن التهريب في الحصار البحري يخاف من مخالفته جهاراً

الحصار بأعماله عينها وأصدر مرسوماً عالياً في ١٥ يناير سنة ١٨١١ يقضي بمنع جلب البضاعة الفرنسوية كأدوات الزينة والخمور وجلب الغلال من الطواري البريطانيـة بتخفيض الرسوم الموضوعة عليها . واذا خالفوا القوانين حرقت البضاعة الفرنسوية وأما الغلال المذكورة فيكتفى بضبطها

ولما اطلع العاهل نابوليون على هـذا الامر استشاط غضباً وقال للسـفير الروسي : « ان الحقد وحده أملى المرسوم الصادر في ١٥ يناير أو هل يظن الناس انا لا نبالي بالشرف فالامة الفرنسوية أمة حادة الطباع وهي تعتبر ذاتها محتقرة حين تعلم ان حاصلاتها ستحرق في الثغور الروسـية وان الحاصلات البريطانية يقتصر على ضبطها . ولا أكتم عنك ياحضرة السفير اني أفضل صفع خدي على رؤيتي مصنوعات رعيتي تحرق عنـدكم . وأي مضرة أعظم من هـذه تستطيع روسيا ان تسوقها الى فرنسا ؟ فانها لتعذر غزو أرضنا عليها عمدت الى مناهضة تجارتنا وصناعتنا . »

ولم يكتف العاهل نابوليون باظهار استيائه بهذه العبارات الشديدة اللهجة بل أصدر أمره الى دوق فيسنس بأن يطلب استرجاع المرسوم وإلغاءه الا أن الاسكندر لم يقدم على هذا العمل الجريء ليتقنع بالعار برجوعه عنه بجبانة عند أول احتجاج من فرنسا عليه ولم يتخذ هـذا التدبير الخطير الا بعد ان درسه درساً مدققاً مدة طويلة وعلمت الحـكومة الروسية قبل إعلانه ما سيكون له من التأثير والنتائج في الحـكومة الفرنسوية . ولم يكن في جوابها ما يدعو الى الريبة فان القوم في روسيا عادوا الى الاعتصام بحبل السياسة البريطانية لمـا رفضت فرنسا بلسان العاهل نابوليون القضاء المبرم على بولونيا وتمكين الاطماع الروسية من اجتياز الدانوب والوصول الى القسطنطينية . وان إيثار نابوليون الأسرة النمساوية في انتقاء زوجة له كان له علاقة بفصل الاسكندر عن محالفة نابوليون السياسية .

ولمـا لم يبق الاسكندر قادراً على مشاطرته السـيادة على القارة الاوربيـة ووضع السياسة الروسية تحت ضمان فرنسا الهائل من جراء قضيتي تركيا و بولونيا لم يبق لديه من وجه لبقائه ناهجاً منهج بطل الديمقراطيـة وتضحيته في سبيله بأمياله ومبادئه الحقيقية . ولما صار معتقداً كل الاعتقاد انه لم يكن يكسب

شيئاً من رجل الثورة جاد بالطبع الى المبادئ المعاكسة لها التي جرت فيما مضى سوفاروف حتى أوصلته الى حدود فرنسا وجرت الاسكندر ذاته الى استرلتز وفردلاند . وقد سهلت على الاسكندر العودة الى محالفة البريطانيين فانها لم تكن مقصورة على إرضاء الآراء السياسية عند الطبقة العليا من الشعب الروسي بل كانت مؤاتية لمصالح رعيته المادية وللتجارة والصناعة في جميع أنحاء السلطنة الروسية .

وقد ظل والحالة هذه المرسوم القيصري على ما كان عليه واستؤنف إعداد عدة الحرب وكان نابوليون في نوبته يتهيأ للقتال فعززت حامية دنتزيك واجتازت الارض الالمانية فيالق كثيرة من الفرنسويين . فحينئذ طلب الاسكندر الايضاح عن هذه الحركة فأجابوه انهم انما لجأوا الى إعداد عدة الحرب اتقاء للمقاصد العدائية التي استشفوها من وراء استعداده للحرب فاقام النكير على ذلك بقوله ان مقاصده سلمية وكان يكرر دائماً شكواه بخصوص بولونيا واعادة دوقية ألدنبورغ اليه وكان نابوليون قد احتلها لزعمه انها أصبحت مثابة للتهريب في أوربا مما كان يخالف قواعد الحصار البحري

ويمكن القول ان انقطاع الملاقات بدأ في الحقيقة في سنة ١٨١١ في ذهن العاهلين فلم يكن مستطاعاً اتفاقهما على أهم الاغراض في سياستيهما الخاصتين وكانت الحال تقضي باشتباكهما في الحرب عاجلا أو آجلا . بيد أن نابوليون الساعي دائماً لالقاء تبعة الحرب على خصومه والمظهر اضطراره الى النزول الى ميدان النزال على رغم منه مع ان الحرب كانت تزيد في مجده لم يشأ محاربة صديق ربطته به عرى المصافاة في ارفرت وحاذر مقاطعته قبل ان يسعى لايجاد طريقة للتسوية بينهما تتحلق بها راحة أوربا . فكتب اليه مرات متوالية في هذا الموضوع وهذه خلاصة ما تضمنته احدى رسائله :

« ان هذا الامر تكرار لما شاهدته في بروسيا في سنة ١٨٠٦ وفي فينا في سنة ١٨٠٩ . وسأظل صديقاً صدوقاً لشخص جلالتكم ولو قضت الأقدار المتسلطة على أوربا بوضع السلاح يوماً ما في أيدي أمتينا . وأنا أقيس أعمالي على أعمال جلالتكم فلا أبدأ أبداً بالهجوم ولا تباشر جيوشي الزحف إلا حين تمزق جلالتكم وثيقة تلست . وأكون أول من يلقي السلاح ان كنتم جلالتكم



شارل الرابع وفردينان السابع ملكا اسبانيا فى بايون

تعودون الى ماضي ثقتكم بي . وهل ندمتم على ما أظهرتموه من الثقة بي ؟ »

فظن الاسكندر لما قرأ في رسالة نابوليون لهجته المعتدلة انه يخشى انقطاع العلاقات بينهما وانه غير مستعد للقتال . وقد زاد اعتقاده رسوخاً ما كان يصل الى المسيو دي رومانزوف من التقارير من باريس مما يمثل عاهل الفرنسويين مستعداً للتضحية بكل ما عز وهان في سبيل اجتناب حرب جديدة في القارة الاوربية فقال السياسي الروسي : « ان هذه الفرصة ملائمة فينبغي لنا ان نغتنمها ويكفي أن نبرز ونتكلم بلهجة جازمة فترد الينا دوقية ألدنبورغ ونصيب دنتزيك وحينئذ تنال روسيا مكانة عالية في أوربا . »

فأثر هذا الاغراء وهذه المشورات العدائية بالقيصر لموافقتها لأمياله الشخصية ومن جراء ذلك الامر لقيت صداها في فؤاده . واعتقد بسهولة ان نابوليون لم يكن ميالا الى الحرب وانه لم يكن يأمل نيل النصر من مباشرتها فوجه والحالة هذه فيالق جديدة الى الفستول وأردفها بمذكرة عهد الى سفيره في باريس في تقديمها الى عاهل الفرنسويين وقد أضاف فيها الى مطالبه القديمة ترك دنتزيك وإخلاء دوقية فرسوفيا .

وقال نابوليون : « ظننت ان الحرب أعلنت لاني لم أكن متعوداً من عهد طويل سماع مثل هذه اللهجة . ولم يكن من عادتي ان أدعهم ينبهونني الى مثل ذلك فقد كنت قادراً على الزحف الى روسيا في مقدمة جيوش جميع بلدان القارة الاوربية فالمشروع كان الشعب ميالا اليه والمسألة أوربية وقد كان هذا الامر آخر جهد تستطيع فرنسا بذله لان حظها وحظ الطريقة الاوربية الجديدة معلقان بنهاية الحرب . »

أجل ان الارتجاع المقرون بالعناية الذي كانت تزاوله فرنسا الجديدة بقوة جنودها في مقاتلتها أوربا القديمة أوشك أن ينتهي الى غايته لكن فرنسا قبل انحصارها في ضمن حدودها وتركها زرع الحرية يثمر بفضل السلم وهو الزرع الذي بذرته الحرب في أوربا جمعاء أتمت عملها ونالت مجدها . ولم يكن يكفيها ان تعاقب في فينا وبرلين الموقعين على وثيقة بلنتز وان تمزج جنود الثورة بالفتح بشعوب بروسيا والنمسا المستعبدة فقد كان ينقص شيء ما وهو تعليم الشعوب بواسطة الامة العظيمة : فالمخاوف التي ساقها ذات يوم سوفاروف الى حدود

فرنسا قضي عليها بأن تساق الى قلب السلطنة الروسـية الى مدينـة القياصرة القديمة الى موسكو نفسها المدينـة المقدسة وقد قيل ان التمدن الفرنسوي الذي استنزلته المحالفات التي أنشأها احلاف الماضي المتعظمون سيسير بانتصار لابساً البزة العسكرية وراء دهاء الفتح لزيارة الهمجية في وسط قفارها ويجعل القوم المنحنية رقابهم تحت نير العبودية يغبطون حظه ويعجبون بأشمة الذكاء والانفة اللامعة فوق جبين أبناء فرنسا النبلاء . وسيتم ما هومقدر : فتأتي الثورة وتحل في الديار المأهولة بفلاحي الروس . وكما يخلف آثاراً أولئك الاشخاص السريون المنسوبة لحضورهم قوة مضمرة لا تظهرها الا الايام تبقي الثورة آثاراً في كل مكان تمر به وتكون في بدء الامر غير منظورة من دون أن يستطيع البرد القارس أن يمحوها وتظهرها الحوادث عاجلا أو آجلا . فلتتم المقادير ... « فان نابوليون موشك أن يزحف الى روسيا في مقدمة أوربا جمعاء . »

وقد عينت الآلهة قصر الكرملين غاية فتوحه وقد دعاه الاسكندر اليها بمذكراته التي استنزلته الى القتال وبمخالفته مخالفة صريحة للحصار البحري وبزاعمه ان له حقوقاً بدنتزيك وبولونيا .



الفصل الحادي والعشرون

حرب روسيا سنة ١٨١٢

وقبل ماغادر نابوليون باريس وأذاع رسمياً في فرنسا ان أقسام ارفرت لم تكن سوى الاعيب ملوك وان الاسكندر يضطره الى العودة الى الحرب في شمال أوربا واستئناف القتال المنفتحة أبوابه من عشرين سنة بين المذهبين السياسيين القديم والجديد حمل المجالس العالية في سلطنته على اتخاذ تدابير شتى لاشعار رعاياه بالحملة العظيمة التي دبرها والحرب البعيدة الموشكة أن يحتدم سعيرها .

وصدر قرار من مجلس الشيوخ في ٢٣ دسمبر سنة ١٨١١ يفوض به الى وزير الحرب تجنيد مئة وعشرين الف مقاتل يؤخذون من قرعة سنة ١٨١٢ .

وصدر قرار آخر من المجلس المشار اليه في ١٣ مارس من تلك السنة لتنظيم الحرس الوطني وقسمته الى ثلاثة أقسام .

وتقرر بعد ايام قليلة في ١٧ منه أن يخصص ستون ألفاً من القرعة الاولى لتأليف جيش داخلي يوكل اليه الدفاع عن الوطن وتقرر ماعدا ذلك سحب القرعة العسكرية بحسب العادات المرعية .

ولما لم يكتف نابوليون باعداد كل شيء لاجل الحرب في قلب السلطنة وكان يبتغي الزحف الى روسيا بأوربا جمعاء عني بتأليف محالفات قوية في الخارج : فعقد لهذه الغاية وثيقة مع بروسيا في ٢٤ فبراير سنة ١٨١٢ . ووثيقة أخرى مع النمسا في ١٤ مارس من السنة عينها . وأبدت حكومتا هاتين الدولتين عواطف ودية نحو العاهل المنصور الذي لم تكد الأقدار قد جافته بعد وقلبت له ظهر المجن .

فمن وسط فرنسا التي صيرها نابوليون قلعة منيعة وفي وسط المانيا التي جاءت ملوكها تعفر جباهها عند قدميه يمم العاهل حدود السلطنة الروسية ليتولى قيادة أعظم جيش سيق الى ساحة القتال

وانطلق من باريس ومعه الامبراطورة ماري لويز في ٩ مايو سنة ١٨١٢ فاجتاز بسرعة متز ومايانس وفرنكفور ووصل الى درسد في ١٧ منه . وكانت عاصمة الساكس مثابة لاصحاب التيجان فكأن أصحاب السمو وأصحاب الجلالة عينوا ذلك المكان مجتمعاً يتسابقون فيه للمبالغة في إكرام زعيم السلطنة الفرنسوية الاكبر والتزلف اليه . وقد ذلت له على السواء كبرياء الأسر القديمة وعجب الاسر الحديثة . وكل من رأى تسابق العظماء القادمين من جميع الانحاء والمنحدرين من أعالي عروشهم ليشتركوا في تعفير وجوههم أمام أعتاب الامبراطور الكبير كان يرى لاول وهلة انهم يعتقدون ان فيه قوة لا تتزعزع وان سلطته مقرونة بالخلود المعد لمقارنة اسمه .

واليكم ما فاه به المسيو دي برادت من الكلام في هذا الصدد :

« ياأيها الذين أردتم أن تدركوا كنه السيادة العليا التي كانت للعاهل نابوليون بونابرت في أوربا انتقلوا بأفكاركم الى درسد وتمالوا وتأملوا في هذا العاهل في عنفوان مجده .

« فقد كان نابوليون نازلا في رده القصر الكبرى ومعه شطر كبير من حاشيته وقد احتشد عنده الضيوف العظام الذين ضمهم قصر ملك الساكس .

«وكان نابوليون ينهض عادة من الرقاد في الساعة التاسعة فكان يجب عليكم حينئذ أن تنتظروا تزاحم جمهور أصحاب التيجان على إبداء التزلف اليه (وكان من جملتهم امبراطور النمسا وملك بروسيا ومعهما وزيراهما مترنيخ وهردنبرغ وهم مختلطون بأهل البلاط ومنتظرون إشراق شمس طلعته عليهم

« ولاجرم ان نابليون كان ملك الملوك وقد تحولت اليه جميع الانظار وكنت ترى ثمة إقبال الاجانب ورجال الحرب ورجال البلاط وذهاب السعاة وايابهم وتهافت القوم على أبواب القصر عند أقل حركة من حركات الامبراطور فيتسارعون الى النظر اليه بدهش وتعجب وكأنهم جميعهم ينتظرون الحوادث ... على أن مجموع هذه المشاهد يمثل صورة كبيرة وأثراً عظيما لا يمكن انشاء أفضل منهما للاطراء على عظمة نابوليون . »

وفي حديث دار في درسد بين أصحاب التيجان المار ذكرهم أراد امبراطور النمسا أن يتملق صهره فقال له ان أسرة بونابرت كانت حاكمة في

تريفيز وأراد أن يخبر ابنتــه ماري لويز ذلك الامر لاعتقاده أنه يسرها . وقال البارون فان : ان امبراطور النمسا لم يستطع كتمان عواطفه فعانق صهره وكرر له أنه يمكنه الاتكال على النمسا لاجل انتصار المبدأ العام. وحذا ملك بروسيا حذوه في تأكيده الامر عينه فكرر شفاها لنابوليون تأكيد تعلقه بالمبدأ الذي يمسه.

ولم يطل نابوليون مدة اقامته في درسد بل فضل عنها وأسرع في الوصول الى ضفاف النيمن ماراً ببراغ وهناك افترق عن ماري لويز . وقبــل مباشرته القتال زار كنكسبرغ ودنتزيك وكان قائد هذا الموقع الاخير الجنرال راب وهو قائد من القواد الذين كان نابوليون يقدر شجاعتهم وحرية أفكارهم حق قدرها. وكان مورات وبرتيه يصحبان الامبراطور وعلامات الاكتئاب بادية على وجه ملك نابولي . فلفت نابوليون نظر راب الى هذا الامر قائلا له : « أو لا ترى في مورات شيئاً غريباً ؟ فاني أراه متغيراً هل هو مريض ؟ » فاجاب حاكم دنتزيك : « ليس مورات مريضاً انه كئيب » فقال الامبراطور بحدة : « ولماذا هو كئيب ؟ أفلا يسره أن يكون ملــكا ؟ فقال راب : » يامولاي يقول مورات انه غير مسرور بكونه ملــكا » . فقال نابوليون : « انه هو المخطىء لمــاذا صار نابوليتانياً ولم يبق فرنسوياً ؟ . . . وحين يكون في مملــكته لا يزال يأتي أموراً منكرة فهو يساعد الاتجار مع البريطانيين مع معرفته اني لا أشاء هذا الامر » .

وأمر الامبراطور راب وبرتيه ومورات في غد اليوم الذي جرت فيه تلك المحاورة بان يتناولوا العشاء معه وخيل له عند رؤيته تحفظ ضيوفه أنهم يحاذرون أن يبدوا آراءهم في الحرب التي كان موشكا أن يباشرها : وقد كان هذا التحفظ بمثابة احتجاج مضمر عليها . فقال لهم نابوليون : « أرى ياحضرة السادة أنه لم يبق فيكم ميل الى القتال فملك نابولي يريد البقاء في مملــكته الجيدة الهواء وبرتيه يميــل الى الصيد والقنص في أرض غروبوى التي تخصه وراب نفد صبره للتمتع بالسكنى في قصره بباريس » . وكان نابوليون مصيباً في وهمه هذا إلا أن برتيه ومورات لم يجسرا على المجاهرة بما كان يجول في خاطرها وقد تجرأ راب وحده على البوح بمــا كان يهجس في ضميره . ولم يكن الامبراطور يلقي الا على نفسه تبعة ماطرأ من التغير على بعض قواده : ففي نخفخة البلاط وتهييج حب الملاذ

بالتحكك برجال وسيدات الملكية والتمتع بالعظمة والجنوح الى الراحة لم يبق ملك نابولي وبرنس نوشاتل حافظين تلك الصفات الجندية والحماسة التي لم يكن حدها يفل وعدم المبالاة المقرون بالجرأة مما امتاز به مورات وبرتيه الجنديين في جيش ايطاليا بمعارك منتنوت ولودي

إلا أن المخاوف التي لم يكن هذان الجنديان القديمان يستطيعان نبذها عند دنوحرب كانت نتيجتها تغيب عن كل استدراك بشري لم تكن تمنعهما عن إظهار تحفزهما لمواصلة المسير على الخطة التي سارا عليها على أثر الرجل العظيم الذي كان في حين واحد رفيقهما ومرشدهما وسيدهما . فقالا : « نحن نأسف على السلم بيد أن الحرب اليوم أفضل من سلم غير ثابتة في الغد لاضطرارنا حينئذ الى العودة الى إضرام سعير الهيجاء » . ونهض راب وقال : « يامولاي ان راب لا يزال يحسن قيادة جواده وإصلات حسامه ولذلك لا يحسن به أن يظل مقيما في هذا المكان لكن اقعدته الضرورة عن القتال حين تنطلق جلالتك الى الروع : فائذن لي أن أعود الى ما كنت عليه عند جلالتك أي معاونا »

وكان راب في أثناء توليه القيادة في دنتزيك قد استمال اليه محبة البروسيانيين واحترامهم بما أبداه من التساهل فيما يتعلق بالحصار البحري فان مقتضيات الاحوال السياسية كانت متنافرة مع عادات هذا الجندي الحر وأخلاقه وان نابوليون الذي كان يقدره حق قدره لم ينح عليه باللائمة على تصرفه . ولما دخل نابوليون الردهة وأبصر تمثال ملكة بروسيا اكتفى بان يقول له مبتسما «ياراب أنذرك باني سأكتب الى ماري لويز وأخبرها عن خيانتك»

وبرح العاهل نابوليون دنتزيك في ١١ يونيو آخذاً طريق كنكسبرغ فانتهى اليها في ١٢ منه بعدما عرض في أثناء مسيره فيلق دافو . وقد كان يهتم بنوع خاص براحة الجيش وحسن ترتيبه . وكان يسرف في التوصية واصدار الاوامر بهذا الشأن وكتبه تشهد على ذلك . وكان يقضي النهار باملاء تعليماته في هذا الصدد وكان في الليل ينهض لهذا الغرض . ويقال ان قائداً واحداً وصل اليه منه في يوم واحد ست رسائل تتضمن جميعها الحض على العناية بالجنود

على أن نابوليون أراد قبل الشروع بالحركات العدائية أن يباشر مع الاسكندر مفاوضات ترمي الى السلم ففوض الى لورستون حاجبه أن يسعى لبلوغ

مقر القيصر ذاته لينم اليه برغبته الشـديدة في تجنب قطع العلاقات مع صديقه القديم الذي خطب مودته في تلست وارفرت . ولـكن لم يتسن للورستون الدنو من القيصر أو من وزرائه . ولمـا انتهى الى عاهل الفرنسويين نبأ من بريفو مستشار السفارة في بطرسبرج ان مندوبه لم تحسن وفادته أصدر أمره في الحال بالزحف وعبور نهر النيمن فقال بلهجة الظـافر : « ان الاقدار متسلطة على المغلوبين فلتتم الاقدار ! »

ثم انه ماعتم أن أصدرالنشرة الآتية عن المعسكر العام في ولكووسكي :

« أيها الجنود

« لقـد عادت حرب بولونيا الثانيـة الى النشوب فالحرب الاولى انتهت في فردلاند وتلست ففي تلست أقسمت روسيا على أن تظل حليفة لفرنسا الى الابد وحرباً لبريطانيا العظمى وهي الآن تنقض ما أبرمته من الاقسام ولا تشاء أن تفصح عن تصرفها الغريب قبـل أن تعبر الاعـلام الفرنسوية نهر الرين تاركة حلفاءنا تحت رحمتها

« ان الاقدار جرت روسـيا الى هذا المأزق وعليه كان حدوث مثل هذه الامور محتوماً فهل تتوهم أن الفساد تلصص الينا أو لسنا جنوداً أشداء كما كنا عليه في يوم استرلتز ؟ فهي تخيرنا بين العار والنار ومثلنا لا يحتاج الى التردد في الاختيار . هلم بنا الى الامام !

« فلنعبر نهر النيمن ولنقاتلها في أرضها . وستكون حرب بولونيا الثانيـة مؤاتيـة لنا كما كانت لنا الحرب الاولى إلا أن الصلح الذي سنعقده سيصحبه ضمان عليه وسيضع حداً لذلك التفوق الـكبريائي الذي تزاوله روسيا من خمسين سنة في الشؤون الاوربية »

وكان الجيش الفرنسوي المؤلف من ثلاث مئة الف مقاتل مقسوماً الى ثلاثة عشر فيلقا ما عدا الجنود المنتقاة والحرس :

وألقيت مقاليد قيادة الفيلق الاول الى دافو والثاني الى اودينو والثالث الى ناي والرابع الى البرنس اوجين والخامس الى بونياتسكي والسادس الى غوفيون سان سير والسابع الى رينيه والثامن الى جيروم نابوليون ملك وستفالي والتاسع الى فكتور والعاشر الى مكدونال والحادي عشر الى اوجيرو والثاني عشر الى

مورات والثالث عشر الى البرنس شوارتزنبرغ . وكانت فيالق الحرس يتولى شؤونها ثلاثة قواد وهم المارشالية ليفيفر ومرتيه وبسيار .

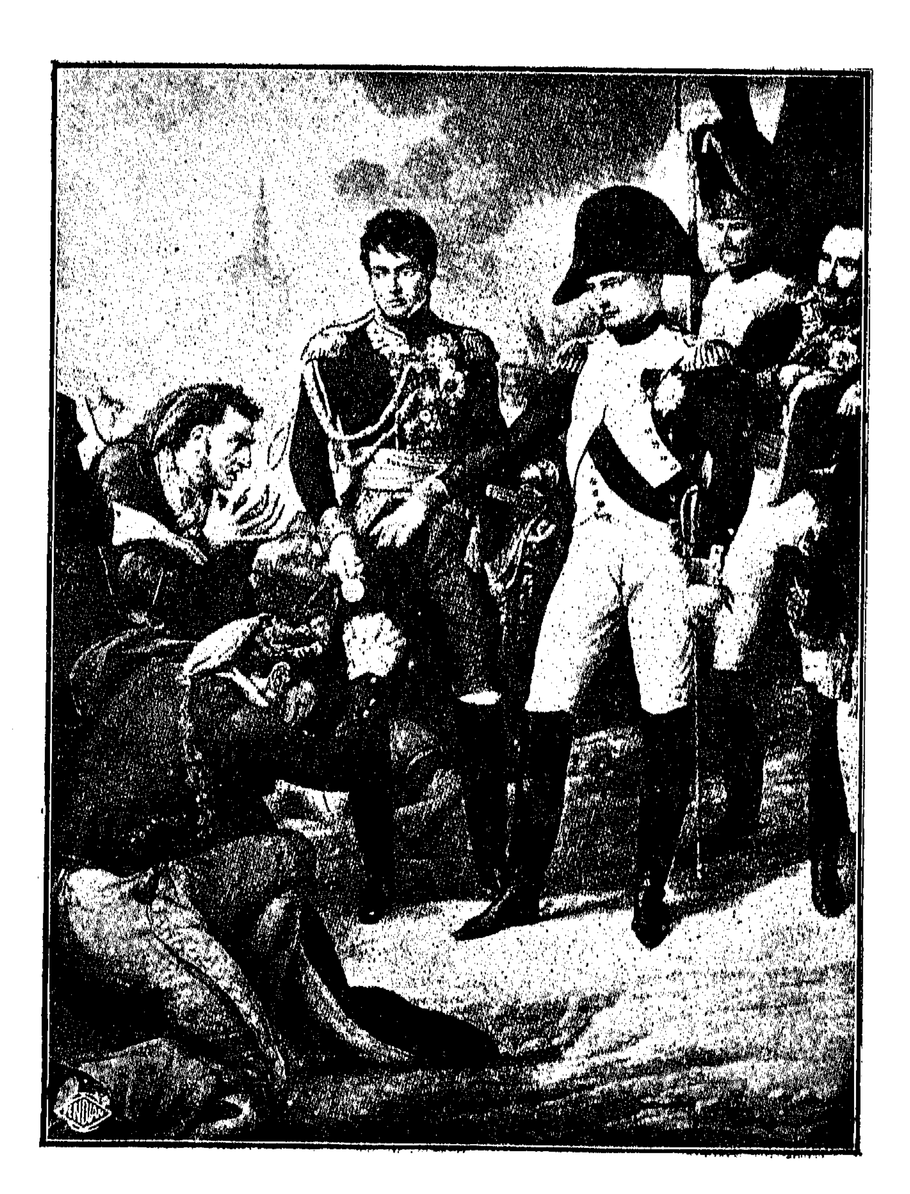
وعند دنو هذا الجيش الهائل جعل الروس يتراجعون الى الوراء تاركين خط النيمن ليعتصموا بالدنيابر والدوينا . وكان نابوليون يتعقبهم عن كثب ووصل في الساعة الثانية من صباح ٢٣ يونيو الى المكان النازلة فيه طلائع الروس في ضواحي كونو ولبس رداء بولونيا من الاردية التي يلبسها فرسانهم . وتمكن وهو متنكر بهذا الزي من ارتياد ضفاف النيمن واكتشاف موضع يفضل سواه لعبور الجنود . وكان الجنرال هكسو يصحبه في هذا الارتياد .

وابصر الامبراطور شكل دائرة مؤلفة من النهر على مقربة من قرية بونيمن فوق كونو فعين هذا الموضع لعبور الجيش الى الضفة الاخرى. وابتدأ الجيش يتحرك في المساء فقضى الجنرال ألبه ساعتين في مد ثلاثة جسورة فوق النهر وقد مر الجيش عليها طول الليل بثلاثة صفوف . وكانت سعة النيمن في هذا الموضع نحو مئتي متر . ولما انبثق الفجر كان الجيش الفرنسوي قد عبر الى ما وراء النهر. فكان مشهد من اعظم المشاهد فان العين كانت تقع من مرتفعات الكسستن على نخبة جيوش اوربا المحتشدة في ذلك المكان والمتهيئة لغزو البلاد الروسية ونابوليون يدلهم عليها باصبعه .

ولما استحوذ الامبراطور على كونو اتخذها مركزا حربياً تستند اليه مؤخرة جيشه فترك فيه حامية ونظم فيه شؤون المستشفيات .

ويصب نهر الفيليا بنهر النيمن عند اسوار هذه المدينة ولما تراجع الروس حرقوا الجسر الممتد فوق النهر الا ان هذا الحاجز لم يتمكن من صد فرسان البولونيين البسل الخفاف الحركة فاندفعوا الى نهر الفيليا واجتازوه سباحة . ولم يكن الروس على التقريب يبدون لهم ادنى مقاومة فكأنهم كانوا يتجنبون الاشتباك مع الجيش الفرنسوي . وكان يظهر في انحاء مختلفة بعض القوزاق ولكنهم لايلبثون ان يتمزق شملهم بسرعة .

ووصل الفرنسويون على تلك الصورة الى امام اسوار فيلنا . وفي الساعة الثانية بعد الظهر في ٢٧ منه وصل الامبراطور الى ذلك المكان وفي الغد عند طلوع الصباح جعل يستعد استعداداً جديا لهجوم كبير وهو غير دار ان العدو



تسليم مدريد

ترك بغير دفاع موقفاً منيعاً يحمي خطا مثلثاً من المخازن . ولم يكن نابوليون عارفاً حقيقة المقاصد الروسية فان الروس بعدما بادلوا الفرنسويين إطلاق المدافع ونسفوا جسر الفيلياواحرقوا مؤنهم وذخائرهم تراجعوا بسرعة عنددنو اعدائهم وكان الاسكندر ذاته المشير بالانسحاب . فقد كان في فيلنا من ردح من الزمان ومعه بلاطه وبينما هو في مرقص في قصر زكرست عند الجنرال بننغزن انتهى اليه نبأ اجتياز الفرنسويين لنهر النيمن وتوغل نابوليون في بولونيا الروسية . فاصبح كالمزول به في خلال تلك الحفلات والمسرات وجعل يفكر في أمر التراجع من ذلك المكان على ان تراجعه منه كان ضربا من الانهزام والفرار . وجعل الفرنسويون الخفاف الحركة يتعقبون الروس ودخل نابوليون في اثناء ذلك الحين في ٢٨ منه عند الظهر مدينة فيلنا محفوفاً بالبولونيين الذين كان يقودهم البرنس ردزيويل بين هتاف شعب كان يعتبره مخلصا له .

وكان اول امر اتاه نابوليون عند احتلاله لعاصمة ليطوانيا تأليفه حكومة وقتية لهذا الاقليم . وأقيم المسيو بينيون معتمدا امبراطوريا لدى تلك الحكومة وعرف من جهة اخرى ان جمعية تألفت في فرسوفياوغرضها انشاء محالفة عامة بزعامة الامير آدم كزارتورسكي لترميم ما تداعى من صرح المملكة البولونية . واوفدت هذه الجمعية مندوبين من قبلها الى العاهل نابوليون ليضعوا تحت حمايته جنسيتهم المبعوثة . فقال لهم العاهل : « لو كنت صاحب السلطان لما قسموا بولونيا اولا وثانيا وثالثا لكنت قدجندت أمتي جمعاء لمناصرتكم والاخذ بيدكم . . . ولو كنتم مجتمعي الكلمة لكنتم تعللون النفس بالظفر باعدائكم واضطراركم اياهم الى الاعتراف بحقوقكم على انكم فى بلادكم الشاسعة المتراخية الاطراف لا تلقون لكم ندحة عن بناء آمالكم بالنجاح على تعاضد وتضافر الشعب المخيم فيها . »

وكان ذانك التعاضد والتضافر موثقي العرى في بولونيا وقدجاء في النشرة السادسة ما كان من الوقع في ليطوانيا لاجتياز الجيش الفرنسوي لنهر النيمن وعبر عنه بالكلمات التالية :

« فيلنا في ١٢ يوليو سنة ١٨١٢

« لقد تحرك شعب بولونيا في كل ناحية ورفع النسر الابيض في كل مكان

فالكهنة والنبلاء والفلاحون والنساء يطلبون جميعهم استقلال امتهم ... »

ووجد الجنود الفرنسويون نصيراً قوياً في ما أظهره من الحماسة الوطنية ذلك الشعب الذي احتلوا بلاده وانتشروا في جميع جهاتها للوصول الى الروس والتمكن من منازلتهم ولكن نابوليون لم يسعه مع تقويته لتلك العواطف الكريمة أن يتمم جميع رغائبهم على ما يشتهون : فان بعثة الشعب البولوني تعرقل مصالح ملكين يعتبرهما حليفين له وهما عاهل النمسا وملك بروسيا ولذلك امتنع عن المجاهرة باعادة مملكة بولونيا .

ولما طلب منه مندوبو الجمعية الفرسوفية إعادة مملكتهم أجابهم انه يجب على البولونيين أن يعولوا على أنفسهم في قضية استقلالهم فبلادهم شاسعة الجوانب متراخية الأطراف وهو لم ينشىء الحكومة الوقتية الا لاقليم ليطوانيا أو بولونيا الروسية وقال أيضاً :

« لا ينبغي لي أن أدع الغيرة تستغويني عن طيش لمناصرة البولونيين فالمصالح الفرنسوية مفضلة على سواها وهي الغاية الرامية اليها سياستي . »

أجل ان هذه السياسة مبنية ولا جرم على أسس التروي والتعقل ولكن نابوليون لم ينظر اليها في غير هذه الأحوال بالمقلة التي ينظر اليها بها في هذا الأوان .

وبقي مركز أركان حرب العاهل نابوليون في فيلنا الا أن الجيش الفرنسوي كان يسير جاراً ذلاذل النصر في كل مكان يمر به . وأصبح الجنرالان بغراسيون وبلاتوف منفصلين عن بركلي وطولي من جراء سرعة حركات العاهل نابوليون وأعمال جيشه الباهرة وصار موقفهما محفوفاً بالمتالف . فدرى الاسكندر بحالة ذينك القائدين وبادر الى إرسال حاجبه الجنرال بالاكوف الى نابوليون مبدياً في الظاهر رغبته بفتح أبواب المفاوضات السلمية ولكن كانت غايته الحقيقية توقيف حركات الفرنسويين وتمكين بغراسيون من الانضمام الى باقي الجيش الروسي . فأكرم نابوليون وفادة سفير الاسكندر وأبدى له أسفه لاضطراره الى قطع حبال علاقات يود من صميم فؤاده توثيق عراها بينه وبين قيصر الروس . فأجابه المندوب الروسي ان مولاه العاهل ميال بجملته الى تعزيز مبدإ

الحصار البحري وانه ممالئ لجلالتـه عليـه على شريطة أن يعود الفرنسويون أدراجهم ويخلوا الارض الروسية مجتازين نهر النيمن .

فقال نابوليون : « وهل يريد مولاك أن أتراجع الى ما وراء النيمن ؟ » ثم انه تجلد وكظم غضبه وجعل يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً موسعاً الخطى وهو يعمل الفكرة لايجاد جواب ملائم ولم يكترث للمسألة الجارحة عواطفه بل عاد الى المسألة الجوهرية وقال : « فلنبت القضية في الحال وفي هذا المكان من دون أن نبقي شيئاً ما وراءنا فالسياسة لا تعلم كيف تنهي شيئاً من الاشياء ان لم تكن الظروف هادية إياها . فلنوقع الوثيقة وحالما يتم التوقيع على الصلح اجتاز نهر النيمن عائداً من حيث أتيت . »

فلو كان القيصر راغباً في الحقيقـة في الصلح لـكان هـذا الاقتراح مؤاتياً لمقاصده ولـكن كان للمسـيو دي بالا كوف مهمة غير المهمة التي قدم في الظاهر لاجلها فلم يتخط مارسمه له مولاه من الحدود وقال ان مهمتـه قبـل كل شيء الالحاح بسرعة مغادرة الفرنسويين للارض الروسية . فصاح به نابوليون قائلا :

« أعلى مثل هذا الـكلام يبنى الصلح ؟ ... أعلى هذه الطريقة يجرون حين يميلون ميلا حقيقياً الى المسالمة ؟ .... وهل تصرفوا مثل هـذا التصرف في تلست ؟ فلست منخدعاً فهؤلاء القوم يبتغون مهلة أيام ليتسـنى لهم تخليص بغراسيون ولا يهمهم دوس ما هو مقدس ومكرس . وعليه فلا نهتم الا بانجاز ما باشرناه ولا بد من أن يكون موقفهـم الحرج قد أجـبر عاهلهم على مباشرة المفاوضة معي . »

وبرح العاهل نابوليون فيلنا في ١٦ يوليو قاصـداً دخول روسـيا القديمة لجعل مركز حركاته بين الدوينا والبورستين . وزحف الى وتبسـك وسمولنسك معرضاً عن تعقب باركلي الفار الى جهة بطرسـبرج وفوض الى دافو وجيروم وشوارتزنبرغ المتولين الحركات الحربية عند ميمنة الجيش الفرنسوي أن يحولوا دون وصول بغراسيون الى معاقل دريسا حيث يقيم الاسكندر على حبل انتظاره وقد تمت هذه الحركة من دون أن يقف أحد غيره على كنهها . وقال المسـيو فان في هذا الصدد :

« ودبر الامبراطور حركات الحرب مصدراً بذاته الاوامر لاجرائها ولم يشعر

أحداً من قواده بغير المهمة الواجب عليه قضاؤها . وبقي مجموع الخطة في ذهنه على أن تدابيره الحربية تشبه الكتابة السرية التي لا تظهر الا بالنار فقد ظلت غير منظورة حتى أظهرتها نار الحرب . »

الا أن جهل أسرار الدهاء فتح سبيلا للقيل والقال فشاء كل أن يحزر ويؤول على هواه مقاصد الامبراطور ، وظهر روح الانتقاد في مركز أركان الحرب كما ظهر فيه في سنة ١٨٠٧ فلم يكترث نابوليون لذلك الامر ولم يهمه انخداع القوم المحيطين به وتخاوفهم وتذمرهم لعلمه أن خطته صحيحة وانها مصيبة المرمى ولتحققه أنه يدعو الى الصمت الألسنة المنتقدة في المعرسات حين يطبق خطته على مقتضيات النصر . فليقتصر قواده على إنجاز مقاصده وإجراء أوامره بالتدقيق فيمحو النصر جميع آثار المخاوف من الاذهان . ولكن لسوء الحظ لم تكن سرعة أعمال قواده مطابقة لسرعة تصوراته . وقد فوض الى البرنس جيروم شقيق الامبراطور تعقب بغراسيون وإعمال السيف في قفاه الا ان بطء حركته مكن القائد الروسي من سبقه مسافة ثلاثة أيام قضاها بغراسيون في نزويغ لاقامة عثار قواه الرازحة تحت اعباء الاعياء . فكتب نابوليون الى أخيه يحرضه بكلمات عنيفة على الاندفاع بجيشه الى الأمام بكل قواه .

وقد بقيت هذه الكتابة عقيمة فان الجنرال الروسي تمكن وهو ناعم البال من إجراء حركاته كأنه لا يتعقبه أحد . وكتب حينئذ نابوليون الى ملك وستفالي كتاباً ضمنه استياءه الشديد من عمله وهذا شيء مما جاء في كتابه :

« يتعذر على المرء إجراء حركات حربية بمثل ما أجريتها من الجهالة فأنت سبب لاعطاء بغراسيون مهلة للتراجع . وستفقدني بعملك هذا ثمرة ما هيأته من التدابير وستجعلني أضيع فرصة من أحسن الفرص العارضة لي في هذه الحرب . »

ولم يكتف الامبراطور بهذا التعنيف لانه كان ينتظر مناصرة قوية من الفيلق الوستفالي . فأمر أخاه جيروم على الاثر بالتقيد بأوامر دافو . فظن جيروم ان لقبه الملكي يمنعه من قبول التقيد بتلك الاوامر فتراجع من الجيش وكتب في هذا الشأن رسالة الى الملكة هذه خلاصتها :

« بعد ما تعقبت بغراسيون وهزمته دفعته الى حيث كان البرنس اكمهل

مرابطاً وقد حملت عليه بطلائع جيشي وأمس انتهت إليّ رسالة من البرنس اكمهل يخبرني بها أن أتقيد بأوامره عند التحام فيلقي بفيلقه ... ولا يخفى عليك اني أري في هذا الامر أمراً من الامبراطور أو على الاقل رغبة منه في تركي قيادة الميمنة وقد فعلت ذلك . »

فدست الملكة هذه الرسالة بين تضاعيف مفكراتها وذيلتها بهذه الكلمات :

« مهما جنح الامبراطور عن محجة العدالة في معاملته للملك فقد كان من المقضي على هذا الاخير أن يذعن لمقتضيات الاحوال : فلا يكسب أحد شيئاً بمعاندة الامبراطور . »

وائتمر الوستفاليون في مفتتح الامر على أثر تراجع جيروم من الجيش بأوامر الجنرال طوروثم بأوامر جونو دوق ابرنتس . ومع ذلك بقي الفيلق الثامن خاضعاً لارادة المارشال دافو . ولم يخطئ العاهل نابوليون موقع الصواب في اتخاذه مثل هذه التدابير . وأدرك دافو بغراسيون على مقربة من موهيلوف وظفر بالروس مع أنه لم يكن معه سوى فرقتين أنضاهما السير الطويل الا أن ابتعاد الفيلق الوستفالي عنه بعد ما هجره قائده لم يمكنه من اجتناء ما يستطيع اجتناءه من ثمار المنافع .

وبينا دافو يملص ميمنة الفرنسويين بدفعه أمامه بغراسيون على سمولنسك تعقب مكدونال وأودينو فيلق وتجنستين وقد فصله بركلي للتحرش بميسرة الفرنسويين وردهم عن بطرسبرج بعد ما اضطر هو والقيصر الاسكندر الى مغادرة مخيم دريسا والسير على طريق وتبسك المؤدية الى الجهة السائر اليها نابوليون .

وأمل بركلي أن ينجو بغراسيون من دافو وينضم اليه فلما لم يلتق به في وتبسك خف الى لقائه في ناحية أرخا بعد ما عهد الى فيلق أسترمان في العناية بالمحافظة على خط تراجع دكتورف قائد المؤخرة وتأخير زحف كتائب الجيش الفرنسوي الاولى

وهذا هو الفيلق المفصول من جيش بركلي وقد لقيه مورات وأوجين في أوسترونو وظهرا عليه في معركتين متواليتين وقعتا في ٢٥و٢٦ يوليو .

وكان الفضل في انتصار الفرنسويين في اليوم الاول لفصيلة دلزون القادمة

لنجدتهم فاكرهت مشاة الروس على التراجع مع موالاة فرسان ملك نابولي الهجوم عليهم على غير جدوى

ولما كان من الغد جعل الروس يتهيئون لاستئناف القتال وقد وصل اليهم المدد ليلا وصار الفرنسويون أوفر عدداً مما كانوا عليه من قبل فان البرنس أوجين وافى مورات منضما اليه .

وكان القائد الروسي خلف أسترمان يشغل موقعاً حصيناً اقتضى اخراجه منه كل ما عرف به الجنود الفرنسويون من البسالة والاقدام : فكان امامه واد عميق والى يساره حرجة كثيفة والى يمينه نهر الدوينا . وعليه ظلت هجمات الفرنسويين الاولى عقيمة . واغتنم الروس الفرصة من افضلية موقفهم ودافعوا عن نفوسهم دفاع الابطال فتوهموا هنيهة من الزمان انهم اوشكوا ان يتخذوا خطة الهجوم ولكن ما عتمت هذه الحركة ان صارت سبباً لانكسارهم . ولما شعر القواد الفرنسويون بالحركة الهجومية علموا انه لم يبق لهم الا ان يبرزوا مكتومات جهد فائق العادة وما اتصفوا به من الجرأة ليتمكنوا من دفع العطب الوبيل عنهم واستمالة النصر الى اعلامهم . وكان مورات واوجين قدوة لغيرهما في الشجاعة وشدة الصريمة فتصبرهما جونو ونانزوتي وغيرهما من القواد وهجموا في مقدمة كتائبهم فكان للجرأة السارية منهم الى جنودهم نتيجة قريبة بحيث ان الروس أزيحوا عن مواقفهم بعد ساعات قليلة وتقهقروا الى الوراء حتى انتهوا الى كومارخي حيث لقوا حرجة اعتصموا بها ونجدة وافتهم من رجال الجنرال طوطشكوف .

وعيل مصطبر الجيش الفرنسوي لاجتياز الفاصل الاخير الحائل دون دخوله وتبسك الا ان قواده لم يشاؤوا التوغل على غير هدى في حرجة واسعة خيل اليهم ان العدو حشد فيها جنوداً جدداً لا يعرفون مقدار عددهم ولا حقيقة قوتهم. وكان مورات واوجين مترددين لما اطلع عليهما نابوليون فلم تكد انوار طلعته تشرق عليهما حتى بدت امارات الثقة والحماسة على وجهيهما ووجوه جميع القواد والجنود . وقال رجل ممن شهدوا هذه المعركة ما يأتي « ظن قواد الجيش الفرنسوي وجنوده حالما وقعت عيونهم عليه انه آت لاجتناء ثمار النصر من ذلك اليوم العظيم فخف على الفور ملك نابولي والبرنس اوجين الى لقائه واوقفاه على كل ما جرى من الحوادث وعلى ما اتخذاه من التدابير . واراد نابوليون ان يقف

بذاته على حقيقة الحالة فاسرع في التقدم الى خطوط جيوشه الامامية ووقف على يفاع من الارض سرح منه باز طرفه على الموضع النازل فيه اعداؤه واستعرف طبيعة الارض وكان دهاءه اخترق معسكر الروس وعرف ماينوون عمله . فاتخذت في الحال تدابير جديدة برباطة جأش وترتيب وسرعة وسار الجيش الى قلب الحرجة فوصل الى مرتفعات وتسبك وقد كاد النهار ينهار . »

واستأنف الجيش المظفر مسيره عنـد تباشير صباح اليوم السابع والعشرين إلا أن الروس المتقهقرين بانتظام وصلوا الى معظم جيش بركلي وانضموا اليه واستعدوا للقتال

وكان نهر لتخيسا يفصل بين الجيشين فابصر نابوليون جسرا صغيراً ممتـداً فوق واد يصلح لعبور جيشه ولـكنه يحتاج الى الاصـلاح . فعهد العاهل الى الجنرال بروصيه في مباشرة الاصلاح المطلوب في أثناء مسيره في المقدمة ليبلغ الى يفاع من الارض كان يؤمه . وأبصر من ذلك الموضع فصيلة مؤلفة من مئتي جندي من الـكتيبة التاسعة انفردت عن سائر الجيش فاحاط بها فرسان الروس من كل جانب فضاعت بينهم ثم انهـا ماعتمت أن بدت لانظاره سالمة من كل عطب وسـاحبة أذيال النصر وقد ظنها العاهل هالكة ولا محالة . فسأل العاهل بشدة قائلا : « من أي فيلق هذه الفصيلة . وأنفذ لساعته أحد الضباط المقيدين بخدمته ليستخبر عنها ويخبرها أن العاهل يمنح كل فرد من أفرادها نشان جوقة الشرف لانهم اسـتحقوه : فاجابه اولئك الجنود : نحن من أبنـاء باريس . . ثم انهم وضعوا قبعاتهم على رؤوس الحراب ورفعوها صائحين بملء أفواههم : ليحي الامبراطور !

إلا أن المعركة التي انتظرها نابوليون بنافد الصبر وصمم الروس على اضرام مواقدها قضت الاحوال بارجائها وعلم بركلي في مساء اليوم السابع والعشرين أن بغراسيون الجيء الى عبور نهر الدنيابر ميمها السوج فجعله ذلك الحادث يغير خطته ففادر معسكره تحت جنح الدجى وأسرع في التراجـع الى ماوراء وتبسك زاحفاً تواً الى البوريستين وهو يأمل أن يلتقي ببغراسيون . ولما طلع النهار قضى الفرنسيون العجب لعدم رؤيتهم جيش أعدائهم في مكانه وقد كان من ساعات يوقد النار على ضفاف نهر لتخيسا فاحتلوا الاماكن التي كان الروس

نازلين فيها ودخلوا مدينة وتبسك من دون أن يلقوا أدنى مقاومة في وجوههم لان بركلي استصحب سكانها معه حين لجأ الى الفرار

ولبث أركان الحرب أياماً في المدينـة وانتهت الى الامبراطور على التوالي أنباء الانتصارات الكثيرة التي أصابها قواده فظفر الجنرال لغران في ٢٠ يوليو بالجنرال كولنياف الروسي في جاكوبوفو وقهر أودينو وتجنستين في أول اوغسطس فيأوبوارزينا فيمعركة ظل النصرفيها مترددا مدة طويلة بينالفريقين وبينا كان نابوليون يزحف في ١٢ منـه الى راساسنا وبينا كانت جنوده تلقى فشلا أمام الجنود البريطانية والبرتوغالية وتفقد مدينة مدريد انكسرالروس في ثلاث معـارك في أماكن مختلفة : فظهر شوارتزنبرغ على طورماسوف في غورودكزنا وغلب ناي بركلي في كراسنوبي وانتصر أودينو انتصارا جـديداً على وتجنستين في ضواحي بولسك

إلا أن السياسة انتصرت للروس في أثناء انكساراتهماليومية المتوالية قبل مانصرهم جو بلادهم فان محمودا سلطان العثمانيين شددت الحـكومة البريطانية الضغط عليه وأكرهته على مسالمة قيصر الروس وعقـد برنادوت الوثائق مع أعداء فرنسا فـكأنه تعمد حرمان نابوليون ما كان يأمل إصابتـه من الفوائد بالهائه أعداءه قبل نشوب الحرب بينه و بينهم . وانتهى الى نابوليون هـذا النبأ السيء وهو في وتبسـك فقال : « سيندم الترك قريباً على خطأهم فهو فظيـع بحيث لا سبيل لي إلى تلافيه » ولما علم أن أسوج أبرمت أسـباب وثيقة مع القيصر الاسـكندر في اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس صاح قائلا : « ٢٤ مارس و٢٩ مايو ! أو لم يرسل الي برنادوت المسيو سينيول ليفاوضني في درسد وإذا أتهمني أحـد بتسعير نار هذه الحرب فليعتبر لاجل تبرئة ساحتي تفاهـة ارتباطي بالترك وما كان بيني وبين أسوج من الامور الداعيـة إلى قلق الخواطر »

وثابر نابوليون مع ماطرأ عليه من المعاكسات السياسية على الرمي إلى غايته وهو يأمل أن يصيب في ساحة القتال تعويضاً عماجرته عليه المفاوضات الوخيمة المغبة من الخسائر الفادحة . وواصل الجيش الفرنسوي الـ ـين نحو ،نبوزيستين والتوغل في قلب البلاد الروسية وخيم أركان حرب الامبراطور في راساسنا



مقابلة الامبراطور الاولى للارشيدوقة مارى لويز النمساوية فى سواسون وهى قادمة من فينا



في ١٤ اوغسطس على مسافة قريبة من سمولنسك النازل فيها بركلي وبغراسيون وكان منتظراً أن تنشب ثمة معركة هائلة ونشبت المعركة في ١٧ أوغسطس أمام مدينة سمولنسك وبلغ عددالمشتبكين فيها مئتي الف رجل من كلا الفريقين بقيادة نابوليون من الجهة الواحدة وبركلي دي طولي وبغراسيون من الجهة الاخرى وكان الروس متحصنين في مقدمة سمولنسك فاستولت فيالق دافو وناي وبنياتسكي على حصونهم وعلى ارباض المدينة ولم تستطع الحصون الداخلية مقاومة عساكر الفرنسويين فان فرق فريان وغودان وموران وقد عضدها سوربيه قائد المدفعيين فتحت ثلمة في الاسوار واضطرت الروس الى اخلاء الابراج المتحصنين فيها بقذف القنابل المنفجرة عليها لمساعدة ما أضرمه الروس أنفسهم من النار في المدينة . وذكر في النشرة الثالثة عشرة ان المشهد المنبسط أمام الفرنسويين في تلك الليلة الجميلة من ليالي شهر أوغسطس يماثل المشهد المنبسط أمام أنظار القوم في نابولي عند هيجان بركان بزوف

ولما علم الروس في الساعة الواحدة بعد نصف الليل أنه لم يبق لهم قبل بالمقاومة أجهزوا على احراق المدينة وعبروا النهر وأحرقوا الجسورة ، ودخل الفرنسويون المدينة في الساعة الثانية فوجدوها خالية من السكان والجنود ولم يترك الروس فيها سوى القتلى والجرحى المحتضرين بين ألسنة اللهيب المندلعة والانقاض . وكان المشهد فظيعا فعني العاهل قبل كل شيء بقطع ألسنة النيران واغاثة الجرحى . وقال الجنرال غورغو : « ان نابوليون فريد بين القواد الاقدمين والحديثين باهتمامه بالجرحى اهتماما ماوراءه من مزيد . ولم تكن سكرة الانتصار تجعله يذهل عما يجب عليه نحوهم بل كان يصرف اليهم فكره قبل كل شيء بعدما تضع الحرب أوزارها »

وبعد ما طاف نابوليون في ظاهر المدينة وتفقد المواقع المحصنة بعد ما أخرجت منها جنوده الشجعان جنود الروس اراد ان يستعرف بنفسه موقف اعدائه الجديد في ما وراء البوريستين . فوقف على قمة برج قديم وأطلق باز بصره وبيده المنظار في الجو الفسيح فوقع على المكان المخيمة فيه رجال بركلي وبغراسيون وابصر ذينك القائدين ينسحبان انسحابا تاما فاخذ الاول منهما طريق بطرسبرج والثاني طريق موسكو . وعلم نابوليون ان انفصالهما الاختياري

بعد ما كانا قد استنفدا الجهود لانضام الواحد منهما الى الآخر لم يكن سوى حركة يراد بها التمويه : فجاء رواده بعد ذلك وانبأوه انه مصيب في ظنه وان بركلي اوقف مسيره نحو الشمال وشخص الى ناحية موسكو يبغي الانضمام الى بغراسيون فاصدر أوامره من ذلك الحين بتعقب اعدائه بشدة رجاء ان يدركوهم ويسحقوهم قبل بلوغهم الى عاصمتهم القديمة . وقد أشار الى المارشال ناي ان يسير في مقدمة الجيش ويباشر القتال فصدع المارشال بالامر وحقق آمال العاهل نابوليون بما ابداه من البسالة والذكاء في يوم فالوتينا العصيب .

وكانت هـذه المعركة من أشد المعارك الدموية هولا فالروس بعد ما أزيحوا أربع مرات عن مواقفهم عادوا اليها وانهزموا أخيراً انهزاماً نهائياً أمام غودان الهمام فهذا حمل على الروس حملة صادقة في مقدمة رجاله بحيث خيل اليهم عند رؤيتهم جرأة الهاجمين واقدامهم انهم واقفون أمام الحرس الامبراطوري الفرنسوي وعضد رازو ولدرو ومرشان بفرقهم المنفصلة عن فيلق المارشال ناي غودان في هجومه وهجم على الجنرال طوشكوف الروسي وهو بين رجاله ضابط من الفرقة الثانية عشرة يقال له اسطفان وأجبره على تسليم سلاحه والاستسلام اليه. وأصيب نابوليون والجيش الفرنسوي في هذا اليوم بخسارة أليمة فان غودان بعد ما أبلى بالروس بلاء حسناً خر صريعاً فنقل الى سمولنسك وما لبث ان فاضت روحه فأمر العاهل نابوليون بدفنه في القلعة .

وكان في الامكان أن تـكون معركة فالوتينا فاصلة لو أجرى جونو بالتدقيق الأوامر الواردة اليه ووصل في الحين الملائم ليفصل بين فيلق بركلي المفترق عن فيلق بغراسيون عند خروجهما من سمولنسك ومسير الأول منهما الى ناحية بطرسبرج ومعالجته فيما بعد الانضمام الى الثاني عن طريق موسكو : إلا ان دوق ابرنتس بعد ما اجتاز البوريستين في الموضع المعين له لبث في مكانه غير مبال بالحاح ملك نابولي ومشورة الجنرال غورغو الذي كان يخاطبه باسم الامبراطور . ولما انتهى الى نابوليون ما كان من تقصير جونو استاء كل الاستياء وقال لبرتيه : « ترى ان جونو لا ينفع شيئاً ولا يسعني ان أبقي قيادة فيلقه بيده فليحل راب محله فهو يتكلم بالالمانية ويحسن والحالة هـذه قيادة الوستفاليين . » ويذكر القراء ان جونو هو ذلك الجندي الذي لفت اليه أنظار

بونابرت قائد المدفعيين في حصار طولون قال اليه لما رآه فيه من رباطة الجأش وجرأة الفؤاد . إلا ان هذا الجندي الجمهوري لما صار في عهد الامبراطورية دوق ابرنتس جعل يشعر بالداء الذي جر اليه منيته وقد دفع عمله هذا انكساراً محتوماً عن الجيش الروسي .

على أن خطأ جونو مع إفعامه قواد نابوليون مرارة لم يثبط العاهل العظيم عن اظهار سروره من الابطال الصناديد الذين كان النصر في معركة فالوتينا على أيديهم فذهب في الحال الى ساحة القتال وعرض فيالق جيشه الممتازة في الهيجاء وقال الجنرال غورغو : لما وصل العاهل الى الفرقة السابعة من المشاة الخفاف الحركة دعا اليه جميع القواد فلبوا دعوته واصطفوا حوله على شكل نصف دائرة فقال لهم : « دلوني على أفضل ضابط في هذه الفرقة . » فاجابوه : انهم جميعهم من الشجعان. فقال لهم : « ليس هذا الجواب مقنعاً فحسبكم أن تقولوا لي ما قاله تمستوكل : انا هو الاول ورفيقي هو الثاني . . . » فحينئذ ذكروا له اسم منسي قائد المئة وكانت جروحه تحول دون حضوره فقال الامبراطور : « وهل هو منسي ذاته الذي كان مقيداً بخدمتي هل هو نجل المارشال منسي؟ سموا لي غيره . فقالوا له: هو أفضل الجميع . فقال : بناء عليه أمنحه النشان . »

ولما دخل نابوليون سمولنسك توالت عليه الافكار المزعجة من جراء إفلات الفرصة من يده وقد كان يستطيع ان يلاشي الجيش الروسي ويقصر أجل الحرب فساوره حينئذ الشك وصار شديد الرغبة في انجاز هذه الحرب البعيدة . على ان كل ما انتهى اليه من أميال الحكومة البروسيانية وبلاد بولونيا وحركات طورمازوف وكل ما أبصره وسمعه في مركز أركان حربه وقد عاد الى الظهور أصحاب الفتن في برن وابرسدرف وبلطسك وايلوجعله يميل الى البقاء في سمولنسك ولكنه ماعتم ان علم مانااله قواده من الانتصار على اعدائه في ١٢ منه على ايدي شوارتزنبرغ ولغران وأودينو وغوفيون سان سير . فزالت مخاوفه أو كادت . وكان الروس يتقهقرون أمام جيش الفرنسويين وهم لايلوون على شيء فرجحت عنده كفة الامل باصابة ظفر فاصل على كفة التردد الذي كانت الحكمة توحيه اليه . ولما وصل نابوليون الى أوجيا قال : « لقد توغلنا فى هذا المكان توغلا يصعب علينا معه التقهقر ولو لم يكن من وكدي إلا الافتخار

بالاعمال الحربية لرجعت الى سمولنسك لنصب أعلامي فيها والاكتفاء بمدي الى اليمين والى اليسار أيدياً تسحق وتجنستين وطرمازوف فمثل هذه الاعمال تدهش العقول وتنجز الحرب على ما نرغب ولكنها لاتقطع أذنابها . . . فالسلم أمامنا ولم يبق بيننا وبينها سوى ثمانية أيام . ووجودنا في جوار الغرض لايبقي لنا سبيلا للمباحثة . للنزحف الى موسكو ! »

فلنزحف الى موسكو ! هذا ما قاله الرجل العظيم . وهذه مشيئته : فان يداً سرية تدفعه نحوها فلا يغني حذر من قدر !

الفصل الثاني والعشرون

الاسكندر في موسكو ـ الحاكم رستبشين ـ القصد النهائي

معركة الموسكوفا

ولما غادر الاسكندر معسكر دريسا تراجع الى موسكو . واغتنم الحاكم رستبشين الفرصة من حضور القيصر لجمع النبلاء والتجار في قصر كرملين طالباً منهم ضحايا جديدة من الرجال والمال وأراهم العدو في قلب البلاد وصور لهم نابوليون داهية حلت بهم لتدمير بلادهم وتصييرها أثراً بعد عين وملاشاة استقلالهم الوطني والقضاء على ديانتهم . وقد كفى ذلك التحريض لاثارة الهمم لمناهضة الفاتح الغازي فحل كلامه محل القبول عند النبلاء والتجار ولم يكتف الحاكم الداهية بهذا الكلام بل عمد الى تحريك ساكنات الوساوس في الصدور . ولكي يبلغ بحماسة سكان موسكو غاية ما وراءها من مزيد أشار على القيصر وهو في الوقت عينه صاحب السلطة الدينية الاكبر بأن يأتي بذاته ويحرض الاهلين بما له من الكلمة المسموعة والمقدرة على الهبوب هبة واحدة . ولما كان قد بلغ الهياج في المجلس الوطني درجة عالية جداً على أثر استنهاض رستبشين لهمته دخل الاسكندر فجأة من باب سري في القصر وخاطب الحضور بحدة داعياً اياهم الى الذود عن حياض الوطن والدين وقد جاء لتكديرها الطاغية الذي لا يروى ظمأ مطامعه . وختم خطابه بقوله لهم : ان مايتوعدكم من النكبات يجب عليكم أن

تعتبروه ذريعة ضرورية تتمكنون بها من القضاء على أعدائكم .

ولما فاه الاسكندر بهذه الكلمات الاخيرة كان في صوته وهيئته ونظراته شيء غريب موحش ولم يستطع في مثل هذا الموقف الحرج ان يظهر بغير هذا المظهر مراعاة لمركزيه الديني والمدني معاً . فاتخذت السياسة حينئذ عند الروس شكلا جديداً عنيفاً واصبحت الحرب عندهم هائلة .

ولم يكن نابوليون في نظرهم عدوا عاديا يكتفى بمحاربته بحسب قواعد الحرب المألوفة بل كان في اعتقادهم الزعيم الأكبر للامة الفرنسوية وقاهر ملوك القارة الاوربية وزعم القيصر أن الملوك يمكنهم أن يحطموا النير الباهظ كواهلهم بتسببهم بغير الاسباب الجائزة في قوانين الحرب فبدلا من الاقتصار على تفويض الدفاع عن سلطنته الى مهارة قواده وبسالتهم وبراعتهم في فن الحرب والى شجاعة جنوده وجرأة مقدميهم وبدلا من توجيه النشرات الى رعاياه مستصرخا بهم لانقاذ الوطن من العطب الوبيل المتوعده اختار من بين رجاله الشديدي الاخلاص له والتعلق به أشخاصاً معروفين بشدة الصريمة وصلابة العود وأوقفهم على دخائله وما انتوى اتيانه من المقاومة الشديدة المدفوع بعامل القنوط الى ركوب مركبها الخشن . وفكر الاسكندر في ان للسلطة العليا شريعة سامية تستعين بها على درء الاغوال عن البلاد اما بالتصدي للغزاة واما بتصيير غزوتهم شؤماً عليهم . واذا لم يدفعه الفكر الى الاكثار من السجانين والجلادين والاسراف في القاء المتهمين في غيابات السجون وإرسال من تلتصق بهم الظنة الى النطع فما ذلك إلا لأن حالة السلطنة الروسية لم تكن تقتضي ذلك الامر : فليس فيها أشخاص مشتبه فيهم أو محكوم عليهم بالموت لأن أمثال هؤلاء لا يكونون إلا حيث يكثر العصاة والخونة والمهاجرون. ولكنهم لم يحجموا عن التضحية بأشياء كثيرة ثمينة جرت الخسائر الفادحة على بعض الولايات العامرة والمدن الزاهرة في البلاد الروسية مما ترامى صداه الى جميع أنحاء المعمورة . فبعد ما أحرق الجيش الروسي كل ما عثر عليه في طريقه من فيلنا الى سمولنسك انتهى باضرام النار في المدينة المقدسة فجاء عمله الفظيع نتيجة الكلمات الاخيرة التي فاه بها القيصر في قصر كرملين. فسيعلم سكان موسكو ان مولاهم استعان بالنار لانقاذ سلطنته .

وصمم نابوليون على الزحف الى موسكو فاستأنف القتال بشدة مملا النفس بأن انتصاره سيلجيء القيصر الى إقفال أبواب الحرب وإبرام أسباب الصلح ولكن الاسكندر لم ينتظره في قصر كرملين ولم يخف لملاقاته في مقدمة جيشه فيمم بطرسبرج وهو لايلوي على شيء وقلد كوتوزوف قيادة جيشه بدلا من بركلي وطولي .

ولما وصل كوتوزوف الى الجيش وجد بركلي مخيما بين فيازما وغجات ومتهيئاً للقتال في الغد . ولم يشأ القائد الجديد ان يدع الجيش يعتقد ان القائد المفصول أصاب في انتقائه ذلك المكان للقتال فأمر جيشه بالتراجع أمام الفرنسويين . ونزل بين الموسكوفا وكالوكزا حيث جرت في ٧ سبتمبر الموقعة الكبرى وكان نابوليون ينتظرها بفارغ الصبر

وكان العاهل نابوليون قبل يوم المعركة وفي صباحه ممتطياً جواده ولابساً رداءه الرمادي المشهور . واستصحب راب وكولانكور سائراً بهما لاستعراف المواقع النازلة فيها طلائع أعدائه وتفقد المواقع المخيمة فيها العساكر الفرنسوية وقد لمعت على محياه بوارق الثقة والامل فجعل يتغنى بهذا البيت :

والنصر ينشد وهو يفتح بابه لا تلبثوا أن تدخلوه بالعجل

وفي خلال ذلك الحين وصل الى المعسكر الكولونل فابفيه حاملا من أقصى اسبانيا نبأ انكسار الفرنسويين فى سلمنكة ووصل أيضاً المسيو دي بوصه قادماً من سان كلود ومعه رسائل الى الامبراطور من ماري لويز وصورة ملك رومية

وأغلظ نابوليون في الكلام للكولونل فابفيه عن المارشال مرمون الذي كان من وراء انكساره تسليم مدينة مدريد لولنتن فدافع فابفيه عن قائده بجرأة وقوة عارضة

واستقبل الامبراطور المسيو دي بوصه استقبالا مؤثراً للغاية فانه ابتهج كل الابتهاج بحصوله على أخبار سارة عن أعز الناس لديه وشعر عند رؤيته صورة ابنه بفرح ماوراءه من مزيد . وبعدما أرى الاشخاص المحدقين به الصورة دفعها الى كاتبه الخاص قائلا له : «خذها واحفظها فقد شاهد منذ نعومة أظفاره ساحة القتال» . على أن الموضع النازل فيه أركان الحرب في ٦ منه أصبح ميداناً للوغى في ٧ منه

معركة الموسكوفا

(ملخصة عن النشرة الثامنة عشرة)

وأحاط المارشالية بالامبراطور في الساعة الثانية من صباح اليوم السابع من شهر سبتمبر في موقع اختاره في اليوم السابق وفي الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين طلعت الشمس وقد خلت السماء من الغيوم وكان المطر قد نزل في اليوم السابق : فقال الامبراطور : « هذه شمس استرلتز » وكان البرد شديداً فانهم وان كانوا في شهر سبتمبر شعروا ببرد يحاكي ماشعروا به من البرد في شهر دسمبر في مورافيا . وتفاءل الجيش بحالة الجو هذه،وقرأوا النشرة التالية :

« أيها الجنود هذه هي الموقعة التي طالما تقتم إلى اقتحام غمارها ! فمن الآن يتعلق النصر بكم فالنصر ضروري لنا وهو يولينا اليسر وأماكن حسنة نقضي فيها فصل الشتاء وسرعة العودة الى الوطن . فتصرفوا كما تصرفتم في استرلتز وفردلاند ووتبسك وسمولنسك ولتذكر الاجيال الآتية بافتخار تصرفكم في هذا اليوم العصيب ولتقل عن كل فرد منكم : لقد شهد المعركة الكبرى أمام أسوار موسكو »

صدر عن المعسكر الامبراطوري في مرتفعات بورودينو في ٧ سبتمبر في الساعة الثانية صباحاً.

فطبق الجيش الفضاء بأصوات التهليل والتكبير وتغطت الارض النازل فيها جيش الفرنسويين بجثث الروس الساقطين قتلى في المعركة الاخيرة

وتحرك البرنس بنياتسكي قائد الميمنة ليدور حول الحرجة المستندة اليها ميسرة الروس وسار البرنس اكمهل برجاله على طول الحرجة وأمامه فرقة كمبان ونصبت في الليل بطاريتان مؤلفتان من مئة وعشرين مدفعاً وجعلتا تقذفان الموت على مواقع الاعداء

وباشر اطلاق النار الجنرال الكنت صربيه في الساعة السادسة وقدعزز البطارية اليمنى بما غنمه من مدافع احتياطي الحرس . وسار الجنرال برني ومعه ثلاثون مدفعاً في مقدمة فرقة كمبان (وهي الفرقة الرابعة من الفيلق الاول) على طول الحرجة ليدورحول مركزالعدو وجرح الجنرال كمبان فيالساعة ٦:٣٠

وقتل جواد البرنس اكهل في الساعة ٧ وحمي وطيس الهيجاء فهجم البرنس أوجين قائد الميسرة على قرية بورودينو وأخذها من دون أن يتمكن العدو من الدفاع عنها لوقوعها على ضفة نهر كولوغا اليسرى وتحرك المارشال دوق الشنجن في الساعة السابعة وسار تحت ظل ستين مدفعاً كان الجنرال فوشه قد نصبها في اليوم السابق لقذف القنابل على وسط العدو وهجم على ذلك الوسط . وقذف الف مدفع من كلا الفريقين الحمام الاحمر على صفوف المقاتلين وأخذت جميع مواقع الروس وحصونهم في الساعة الثامنة فاصبح في مدة ساعتين في أيدي الفرنسويين ما أحرزه الروس من المراكز الحصينة وصار في أيديهم أيضاً ما كان يماكسهم من المواقي في أثناء الهجوم . ولم يكد الروس يشاهدون ابتداء المعركة حتى انكسروا ففقدوا قسما من مدافعهم وسحبوا القسم الآخر الى الوراء فازمعوا العودة الى الكر والقتال والهجوم على المواقع الحصينة بعدما عجزوا عن الدفاع عنها والمحافظة عليها . وكانت ثلاث مئة مدفع نصبها الفرنسويون على المرتفعات تمطر الموت الزؤام على الفيالق الروسية فتجندلهم عند المواقي وقد صرفوا جل عنايتهم الى تشييدها في الايام السابقة ابتغاء التحصن بها

وهجم ملك نابولي بفرسانه هجمات صادقة وجر دوق الشنجن ذيول الفخر مبديا من البسالة مالا يقل عن رباطة الجأش . وأمر الامبراطور بالتقدم وتقديم الميمنة أمام الجيش فاستولى الفرنسويون بتلك الحركة على ثلاثة أرباع ساحة القتال وانتصر البرنس بنياتسكي انتصاراً عظيما في الحرجة

وبقي للروس مالهم من الحصون في الجهة اليمنى فحمل عليها الجنرال الكنت موران وأخذها ولكن هجموا عليه في الساعة التاسعة من كل ناحية فلم يستطع الثبات فيها فاجترأ الروس بهذا الظفر وقدموا جيشهم الاحتياطي وما بقي عندهم من الجنود وباشروا الهجوم لعلهم يصيبون فوزاً وشاطرهم الحرس القيصري هجومهم . فهجموا على وسط الفرنسويين وقد أحاطت به ميمنتهم واوجسوا خيفة من سقوط القرية المحروقة في أيديهم فخفت فرقة فريان الى نجدتها وصب ثمانون مدفعاً من مدافع الفرنسويين النيران على كتائب الروس فبقي هؤلاء ساعتين من الزمان مستذرين لا يجسرون على التقدم ولا يتيسر لهم التقهقر وقد فقدوا كل أمل بنيل الظفر . وهجم ملك نابولي في آخر الامر بالفيلق الرابع من



حفلة زواج الامبراطور نابوليون والارشيدوقة مارى لويز فى ٢ ابريل سنة ١٨١٠



الفرسان فدخل من الثلمة التي فتحتها مدافع الفرنسويين في كتائب الروس وما لبث أن مزقهم أيدي سبا . وهجم الجنرال الكنت كولانكور في مقدمة فصيلة المدرعين الخامسة وهزم كل من لقيه في طريقه ودخل الحصن الايسر ولم يبق حينئذ أدنى ريب في نتيجة المعركة فان النصر مال بجملته الى الفرنسويين وصارت المدافع المئة والعشرون المنصوبة في الحصن ترمي الروس بالهلاك والبوار . على أن الجنرال الكنت كولانكور بعدما امتاز في الهجوم العنيف خر صريعاً وقد ختمت حياته بفخر غبطه عليه كثيرون من رفاقه

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر فتقلص ظل آمال الروس وانتهت المعركة . ومع ذلك بقي اطلاق المدافع متواصلا وظل الروس يقاتلون رغبة بضمان تراجعهم وخلاصهم وليس طمعاً باصابة النصر

وأصيب الروس بخسارة كبيرة تقدر باثني عشر الفاً الى ثلاثة عشر الف قتيل وجدوا مجندلين في ساحة الروع وثمانية آلاف الى تسعة آلاف فرس وستين مدفعاً وخمسة آلاف أسير

وبلغ عدد قتلى الفرنسويين الفين وخمس مئة وجرحاهم نحو ثلاثة أضعاف هذا العدد وتقدر خسارتهم بعشرة آلاف رجل وخسارة الروس بأربعين الفاً الى خمسين الفاً . ولم يسبق لاحد من الناس أن يبصر ميداناً للحرب مثل هذا الميدان : فبين كل ست جثث من القتلى خمس من الروس وواحدة من الفرنسويين وفقد الروس أيضاً أربعين قائداً بين قتيل وجريح وأسير. وكان الجنرال بغراسيون من عداد الجرحى

وفقد الفرنسويون الجنرال الكنت منبرون فقد أصابته قنبلة ذهبت بحياته وخلفه الجنرال الكنت كولانكور فكان حظه كحظ سلفه

وقتل القواد كبير وبلوزون وماريون هوار وجرح نحو ثمانية قواد بجروح خفيفة ولم يصب البرنسيا كهل بأذى. والتحفت عساكر الفرنسويين بمطارف الفخر وظهرت أفضليتهم على الجنود الروس . هذا وصف موجز لمعركة الموسكوفا الناشبة على مسافة فرسخين من موجايسك الى ماوراءها وعلى مسافة خمسة وعشرين فرسخاً من موسكو على مقربة من نهر الموسكوفا. وقد أطلق الفرنسويون ستين الف قذيفة من مدافعهم وجاءهم ذخائر بدلا منها تقلها ثماني مئة مركبة

اجتازت حمولنسك قبل نشوب المعركة . وغطت جثث القتلى وجسوم الجرحى الاحراج والقرى الممتدة من ميدان الحرب الى هذا المكان .ووجد هنا الفا روسي بين قتيل وجريح وأسر عدد كبير من القواد .

ولم يستهدف الماهل قط لنبال العطب ولم يفقد أحد من الحرس الامبراطوري سواء كان من الفرسان أو من المشاة ولم يتردد النصر هنيهة من الزمان قط . على ان الروس المهاجمين في مواقفهم لو لم يشاؤوا استرجاعها لفاقت خسارة الفرنسويين خسارتهم ولكنهم أهلكوا عساكرهم بإبقائهم اياهم من الساعة الثامنة الى الساعة الثانية تحت نيران البطاريات الفرنسوية وباصرارهم على استرداد مافقدوه .وهذا هو السبب الذي من أجله اصابتهم هذه الخسارة الفادحة . . .

ومهما عظم فوز الفرنسويين في هذا اليوم فقد كانوا يستطيعون ان ينالوا أعظم منه لو لم يوقف نابوليون رحى القتال في الساعة الرابعة بعد الظهر ولو دفع الماهل الحرس الى ميدان الوغى وظل يقاتل حتى آخر ذلك النهار لتحول انهزام الروس الى كسرة هائلة . وقد اختلفت الروايات عما دعا نابوليون الى الاكتفاء بما كان من فشل أعدائه : فيروي بعض الكتبة ان أركان حرب الامبراطور تذمروا وقالوا للمارشال ناي :«حيث ان الامبراطور لايحارب بنفسه ولا يتولى القيادة الفعلية بذاته بل يريد أن يكون ماهلا في كل مكان فليرجع الى التويلري وليتركنا نتولى قيادة الجيش عنه . » ويقول المسيو دي سيغور: « يزعم مورات ان أول حلول اعتدال الليل والنهار أثر بمزاج الماهل الضعيف وان انحطاط جسمه الناشيء عن التعب والحمى وداء آخر تزرح تحته القوى العقلية والبدنية أثر بدهائه تأثيراً شديداً . . . » ويقول الواقفون على الحقائق : ان الامبراطور في هاتيك الاقطار السحيقة ومع جيش من الأجانب لا تربطه به إلاأسباب الانتصار رأى انه مقضي عليه بأن يحافظ على نخبة رجاله لعدم استغنائه عنهم .

ولم يصب قواد نابوليون المرمى في انتقاده بأنه يبتغي الظهور بمظهر الماهل في كل مكان وانه لم يكن ميالا الى تولي قيادة جحافله بنفسه ولا سيما في زمن لم يدبر فيه احد غيره معدات هذه المعركة المشهورة . اما رغبته في ابقاء جيش احتياطي غير مثلوم الحد يتألف من جنود مختارين ومخلصين على شاكلة حرسه

فقد قال في هذا الصدد ما يأتي : « وهب نشبت معركة جديدة غداً فبأي شيء أوقد سعيرها ؟ » وحينئذ قال الجنرال غورغو: لو تثلم حد الحرس الامبراطوري في معركة الموسكوفا لـكان الجيش الفرنسوي المؤلف اولئك الحرس اهم جزء منه والذائد عنه عند تراجعه قد تعذر عليه عبور نهر النيمن .

وكيفما كان الامر فان نابوليون بالنظر الى نجاة جيشه من المهالك وجره اذيال الفخر او طمعاً بعقد صلح قريب حبا لمصلحة فرنسا والانسانية جمعاء لم يصير معركة الموسكوفا مجزرة هائلة بتدخل حرسه . واذا خطر لاحد ان يقول ان حب البقاء والمحافظة على الحياة تسلط على نابوليون وانه استسلم الى امياله هذه اجبناه ان نابوليون من طولون الى واترلو كذب مثل هـذا الوهم الفاسد. فثل دهائه المقرون بالجرأة وهو الذي جعله يجهز مثل هذه الحملة العظيمة لم يحمله وايم الحق على التذبذب والتقاعد لئلا يفقد بعمله هذا ما يطمع به من الفوائد الـكبيرة . واذا قيل ان الداء ألم به وأضعفه كما يلم بغيره من بني الطينة ويضعفهم فليس في ذلك شيء من الغرابة او من المستحيل . ومن المرجح ان سرعة خاطره وإبرام اسباب عزائمه وقوة ارادته جعلته يتأثر من هذه الحال فابتدأ يتردد في الجزم باعماله وهو في سمولنسك . واذا كان عند دنوه من غاية سعده ولم يبق له ان يزيد شيئاً على بهاء اسمه وعند رؤيته نفسه مرتقيا الى اعلى درجة من درجات المجد بحيث لم يبق لديه الا الانحدار عنها قد شعر بتلصص التردد والقلق الى نفسه فان هذا الريب الوقتي يجعله بمساعدة حظه له عند دنوه من افول نجم سعده يفقد شيئاً من قوة عارضته وإقدامه على وضع مقاصده موضع الاجراء ومن الجرأة التي كانت فيما مضى كأنها متسلطة على الاقدار من دون ان يطرأ ادنى تغير على نفسه الكبيرة ومن دون ان توحي اليه الانانية روح التحفظ فيقصي عنه ما يشعر به من الاهتمام المتواصل بوطنه فرنسا منذ القاء مقاليد شؤونها بين يديه . وهل يستطيع احد ان يجعل الناس يعتقدون ان جندي اركول ولودي المعروف بجرأة مقدمه وان جنرال اسلنغ المشهور ببسالته وباقتحامه المتالف جعل الجبانة تحل فيه محل الشجاعة ؟ على ان دي بوريان ذاته الباذل جل عنايته للغض من كرامة نابوليون والقابض على اليراعة ليخط تاريخه مصورا اياه بشكل ينفر منه الناس ينكر ما عزي الى نابوليون من الضعف والخوف

عند عودته من موسكو . وهذا ما قاله عنه في هذا الصدد : « أومثله يدخل عليه الخوف أومثله يعد جبانا انكم وايم الحق لا تعرفونه حق معرفة وهو لا يبتسم ثغراً ويثلج صدراً الا في ساحة القتال حين تحف به الهلكات من كل جانب . »
ولا بد لنا من ان نكرر مع الجنرال غورغو والبارون فانوغيرهما ان الامبراطور لم يوفر رجال الحرس في معركة الموسكوفا الا حبا لمصلحة الجيش برمته وتلافيا لما يمكن وقوعه من استئناف القتال أو للتهويل على العدو لاجل عقد صلح معجل. وعلاوة على ذلك مهما ساوره من الضعف لا يتمكن الضعف من الدنو من دهائه او التمرس بهمته فالامبراطور دبر بذاته مقتضيات المعركة الهائلة ومع ذلك نسب الفضل في الانتصار فيها الى قواده انفسهم الذين سلقوه بألسنة حداد . واليكم بعض فقرات مما دونه في هذا الشان فى مفكراته قال :

« سقيا لكم من ابطال صناديد ياموراث وناي وبنياتسكي فرجع الفضل اليكم في إصابة الفخر الذي أصبناه وسيدخر التاريخ ذكر مآثركم العالية ومآتيكم الخطيرة وسيذكر كيف حملتم على الحصون فدككتموها دكا وهجمتم على المدفعيين وهم على مدافعهم ففتكتم بهم فتكا وسيذكر ايضاً جرأة منبرون وكولا نكور اللذين لقيا حمامهما في ميدان القتال واعمال مدفعيينا العجيبة ومشاتنا وقدكانوا عند اشتداد الخطوب عليهم يلتفتون الى قائدهم ويقولون له : قر عيناً وطب نفسا لجميع جنودك آلوا على نفوسهم اليوم واعدين بالانتصار على اعدائهم وسينتصرون »
. فهل تنتقل انباء مثل هذه الافعال الكبيرة الى الاجيال الآتية وتتغلب عليها الوشاية والسعاية والجناية

— (* * *) —

الفصل الثالث والعشرون

الزحف الى موسكو – احتلال الفرنسويين لهذه المدينة .

ولما انكسر كوتوزوف في موسكو مع ما كان عنده من الجيوش الكثيرة ومع ما كان عليه موقفه من المناعة لم يحجم عن الكذب على الشعب الروسي وعلى مولاه القيصر باذاعته في كل جهة وبكتابته للاسكندر ان النصر مال الى اعلامه. على ان تقهقره لم ينطبق على هذه الدعوى فانه بعدما فر بعجلة من ميدان الحرب ناحيا موجايسك وبعد ما تظاهر بتهيئة معدات جديدة للدفاع ترك المدينة للفرنسويين في ٩ سبتمبر وسار مهرولا نحو موسكو وقد ترك في قبضة اعدائه عدداً كبيرا من الجرحى غير مضمدة جراحهم . ونقل جرحى الفرنسويين الى الكنائس والاماكن العامة وجميع جرحى الروس الى بيوت التجار . ولما أخبر نابوليون ان بلاطوف قائد مؤخرة كوتوزوف يستعد للدفاع عن موجايسك قال : « فليفعل ما يشاء فانا نتأخر من جراء ذلك بضع ساعات مع جرحانا . »

وانتهت الى الفرنسويين انباء عن امل كوتوزوف بتخليص موسكو وعن تشييده على بعد عدة فراسخ عن هذه العاصمة استحكامات يدفع بها هجمات الاعداء. وحاول رستبشين في نشرة اصدرها بتاريخ ١١ سبتمبر أن يشعر الشعب الروسي بان هذه الغاية كان يرمي اليها القائد الاكبر وهذه خلاصة نشرته : « انه سيدافع عن موسكو حتى آخر قطرة من دمه وهو مستعد للقتال حتى في شوارع المدينة . لقد أقفلت ابواب المحاكم فلا يقلقنكم هذا الامر ياقوم فيجب علينا ان نضع كل شيء في موضعه . فلسنا محتاجين الى محاكم لمحاكمة السفاح واذا اضطررنا اليه ألفت من شبان المدينة وضواحيها هيئة حاكمة . فبعد يومين أو ثلاثة أيام أعطي العلامة فتسلحوا بالفؤوس والمعاول واذا شئتم تخذوا معكم مذاري ذات ثلاثة رؤوس فليس الفرنسوي بأثقل من حزمة الحنطة . » وقال رستبشين في الغد : « سأنطلق غداً للانضمام الى حضرة صاحب السمو البرنس كوتوزوف لاشاطره اتخاذ التدابير المساعدة لنا على إهلاك اعدائنا . وسنرسل ضيوفنا الى

حيث ... وزهق ارواحهم . وسأعود لتناول الغداء وسنشرع في سحق هؤلاء الخونة . »

فخاطب حاكم موسكو وخطيب الكرملين الشعب الروسي بمثل هذه اللهجة قبل إقدامه على العمل الفظيع الذي انذر به القيصر ذاته . الا أن كوتوزوف لا يسفك دمه حتى آخر قطرة منه للدفاع عن المدينة المقدسة من غزوة الاجنبي والمحافظة عليها فلم يخطر قط ببال ذلك الحاكم الشيخ مثل هذا الفكر وهذا الامر لم يخف على رستبشين نفسه. فعقدوا عرى العزائم على اجراء امر آخر وقد دنت الساعة لمباشرته فترك كوتوزوف في الليل بين ١٣ و١٤ سبتمبر جميع المواقع امام موسكو وتراجع مسرعاً الى جهة الشرق مارا كالسهم في المدينة العظيمة بعدما عزم على الدفاع عنها دفاعاً تسترخص في جنبه النفوس. وها نحن ننشر ما قاله كاتب من كتاب الروس في ذلك العهد : « كان اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر يوم حداد ابدي عند الروس الحقيقيين فان الجيش غادر معسكر فيلي في الساعة الثالثة صباحاً ودخل المدينة من سد دوراغوميلوف واجتازها طولا وخرج من سد كولومنا ... وكان منظر موسكو يثير الاشجان من ربضتها ... فكأن الجيش الروسي كان يسير في جنازة بدلا من السير الى الحرب . . . وكان الضباط والجنود يبكون من فرط الحنق وشدة اليأس .» ولما ابصر الفرنسويون ان الروس برحوا معسكر فيلي على غرة شدوا وراءهم فاندفع امام الجميع مورات الشديد الانتباه لوقوع الخطر والسريع التوثب متعقبا العدو . ووصل الى شوارع موسكو عند الظهر ومعه بعض نفر من الفرسان فلم يثبطه ذلك عن تعقب مؤخرة كوتوزوف . وما عتم ان كثر عدد رفاقه فأنفذ اليه نابوليون غورغو لاسعافه. وكان القوزاق يتباحثون في ذلك الحين وقد اشتد اللجاج بينهم فاحاطوا بالقائد الجريء المقدام وجعلوا يتعجبون من ملابسه الفاخرة وشجاعته النادرة . وقد عرفوه حق معرفة في تلست حين جاد عليهم بهدايا سنية ولما دنوا منه هذا المرة لم يضن عليهم بالعطايا فوهب زعيمهم ساعته وتبرع عليهم ايضا بساعة غورغو وبعض تحف كانت مع الضباط . ولما احرز اولئك البرابرة هذه الهدايا النفيسة بادروا الى مغادرة موسكو واللحاق بالجيش الروسي . وبينما القوزاق يتراجعون وصل الى ابواب المدينة نابوليون وفريق من طلائع حرسه على ان انطلاق كوتوزوف الفجائي

بعد إذاعته على الملأ طرا انه مستعد كل الاستعداد للمقاومة ومغادرته مدينة متير مستودعا لغنى اوربا واسيا وفعله بسمولنسك ما فعله بها وإضرامه النار في اجمل الولايات الروسية بايدي الروس انفسهم جعلت نابوليون كثير التحفظ والتردد فكان يسير على مهل للاستيلاء على فتحه الجديد . فوقف عند الحاجز وامر بتفقد المدينة من الخارج وامر اوجين بان يحيط بها من جهة الشمال وبنياتسكي من جهة الجنوب ودافو من الوسط ثم انه دفع الحرس في المقدمة بقيادة ليفيفر وهذا دخل المدينة بانتصار باهر وحل في قصر الكرملين .

واجتاز نابوليون السد في نوبته وكأن صوتاً داخليا ناجاه محذراً اياه من السقوط في الوهدة الفاغرة فاها تحت قدميه وقائلا له ان في موسكو الغاية التي تقف عندها انتصارات الجيش الفرنسوي والعلامة الاولى لهبوط السلطنة الفرنسوية العظمى . وخاف من توغله في المدينة نخطا فيها خطوات ونزل في فندق حقير ولما كان من الغد لم تظهر ادنى علامة تدعو الى القلق فسكن مخاوفه وركن الى حظه ونصيب فرنسا المتقارنين عنده ومشى بجرأة الى قصر الكرملين ونزل فيه .

فهل أدرك نابوليون الغاية التي كان يرمي اليها في هذه الحرب ؟ وهل يلجيء احتلال موسكو القيصر الاسكندر الى عقد الصلح ؟ هذا هو الرأي السائد في الجيش الفرنسوي وقد علل زعماؤه النفس بادراكه فكانوا عند دخولهم موسكو يصيحون بملء أفواههم : « هذه موسكو المدينة العظيمة وقد نسينا فيها كل ما تمرسنا به من المهالك وكابدناه من العذاب » . فياحبذا لو صحت الاحلام ولم يعقب هذه الحماسة ماعقبها من الغرور المر . وكان الامبراطور يقول : « سنرى مايفعله الروس »

★ ★ ★

الفصل الرابع والعشرون

حريق موسكو — نتائج هذه النكبة — انتظار نابوليون الفارغ اقتراح الصلح — تراجع الفرنسويين — نسف المارشال مرتيه لقصر الكرملين

وماذا يبقى الآن على الثورة الفرنسوية أن تفعله لتنجز ارتجاعها الخارجي وتنقلها بانتصار من قطر الى آخر في القارة الاوربيــة لمعاقبة الارسطقراطية والملـكية القديمة على مناوأتهما لفرنسا الجديدة ؟

واذا كانت فيما مضى قد جعلتهما تكفران عن فشار برنسويك فهي الآن تنتقم من عجرفة سوفاروف . وهي بعدما طافت بممثلها الاكبر في جميع العواصم وأدخلت ابن الشعب العظيم الى جميع القصور الآوية اليها كبرياء العصور الغابرة أنزلته في قصر الـكرملين مقر القياصرة فصار الآن بطرس الاكبر يئن في نوبته لوطء الدخيل كما أن من قبله لوطئه فريدريك الـكبير وشارلـكان

وهل أوشك أن يزول ماقضي على الثورة بأن تعمله تحت كنف الراية الامبراطورية وبذراع الرجل العظيم لتذليل الملوك ونشر مبادىء الديمقراطية بين الشعوب ؟ وهل دنت مهمة نابوليون من النهاية ؟

سنجد الجواب على هذين السؤالين في الحوادث الآتي بيانها :

لايزال نابوليون مجسما للذعر من المبادىء الثورية في أنظار الملوك الاجانب وسيظل الشعب الفرنسوي معتبراً إياه ممثلا لمبدأ المساواة . إلا أن هذا الشعب لا تستغويه أميال زعيمه حين يراه ذاهلا عما للمقدرة والدهاء من الحق الالهي وهو ممثلها الاعظم ولاهياً ببعث سيادات وهميــة تنتقل بالولادة وان الشعوب الاوربيــة المتروكة بعد استرلتز وايانا ووغرام تحت رحمــة حكوماتها القديمة الرازحة تحت أثقال الضيق تنثني بالملام على من كانت تنتظر الخلاص على يده لاحجامه غــير مرة عن وضعه موضع الاجراء مبادىء جعلته قوة الاحوال والدهاء لسان حالها . وما عدا البولونيين الموضوع حظهم تحت رحمة المستقبل



زواج نابوليون الاول ومارى لويز



مجد الروس أنفسهم ينتقدون نابوليون لتهاونه في نشر مبادئه بين ظهرانيهم .
وقال نابوليون فيما بعد في مجلس الشيوخ : « لو أعلنت الحرية للارقاء لتيسر لي أن أهيج السواد الاعظم من الشعب الروسي على نفسه وقد طلبوا مني في كثير من القرى إعلان هذا التحرير بيد أن الحرب المعلنة على الروس سياسية وفضلا عن ذلك جعلتني حالة الانحطاط المقيم عليها هذا الشعب الكثير العدد أوجس خيفة من صيرورة إطلاق عقال اولئك الارقاء وخيم المغبة على كثير من الأسر الكريمة . . . فالملاحظة الاخيرة تكفي لنبذي مثل هذه الاعمال ضد أعدائي » .
وقال روبرت ولسن الكاتب الانكليزي : « لا يمتري أحد في أن اضرام سعير الحرب الاهلية في روسيا أمر هين إلا أن بونابرت نبذ وهو في موسكو ما اقترحوه عليه من إثارة هذه الحرب » .
ومهما كانت حميدة الاسباب التي حدت الماهل نابوليون على القاء مقترحات الارقاء الروس دبر أذنيه فقد أصبح مؤكداً الآن أن سقوط نابوليون لا يجر وراءه سقوط الثورة وتراخي أسباب المبادىء الشعبية . ففي خلقه وموقفه نفور لا بد منه مقضي على التاريخ أن يقدره حق قدره . فقد أصابت الديمقراطية على يده كل ما أملت اصابته وذلك بمخالطة أبنائها الأشداء لجميع الشعوب في الشمال والجنوب من قادس الى موسكو

ولكن اذا كان نابوليون قد أوشك أن يفرغ من تمثيل دوره السياسي واذا كان قد دنا من غايته الثورية فكيف تكون حال دور الفتوح الذي يمثله
ولما كانت العناية حافظة لنابوليون ومعتنية بحظه فانها لم تفعل ذلك الامر رغبة في اصابة الفتوح الكثيرة بل رغبة في تعزيزه أركان الحضارة والعمران وقد صانت في شخصه آلة النهضة الاوروبية اكثر مما صانت فيه منشىء الاسرة المالكة والظافر في عدة معارك . وقد تكون قد أعوزته معونة السماء حين لم يبق عليه أن يفعل شيئاً في سبيل العناية لتحقير الملوك وتهذيب الشعوب. على أن السماء بعد ما صافته ردحاً من الدهر لاجل التحرير العام أزمعت أن تجعله يتخذ خطة الحياد بين الماهل الحاكم بموجب طريقة الحكم الجديدة والملوك أصحاب الطريقة القديمة فألم الوهن بدهاء الرجل العجيب ومرت أيام شؤم على سيادته وآذنت بتغير الاقدار عليه .

وها نحن نذكر مافعله الروس :

قال كاتب ممن شهدوا تلك الحوادث : « توهم نابوليون أنه فعل كل شيء لتلافي نزول النوازل وإلمام الملمات : فكان ينتظر نشوب معارك دموية وطول الاقامة في تلك الديار الشاسعة وشتاء شديد الزمهرير ونكبات شتى . . . وكأن استيلاءه على موسكو وما تركه خلفه من الجنود البالغ عددهم مئتين وستين ألفاً جعلاه يهزأ بما قد يطرأ عليه من المصايب . . . ولكنه لم يكد يستقر به المقام في الكرملين حتى شب حريق هائل : فان مالم يستدركه ومالم يستطع تداركه كان إحراق الروس أنفسهم لمدينة موسكو فحرمه ذلك الامر المضد المستندة اليه جميع تدابيره .

وحدثت فور وصول الفرنسويين حرائق افرادية فنسبت أسبابها الى تغفل الجنود . ولكن هبت الريح بعنف شديد في ١٦ منه فعم الحريق . وكان قسم كبير من المدينة مبنية مساكنه بالخشب وفيه مخازن كثيرة تحتوي خمراً وزيتا ومواد ملتهبة . ولم يكن للمضخات من أثر فعالج الفرنسويون على غير جدوى قطع ألسنة اللهيب .

وارتفعت أعاصير من الدخان على مناكب الريح وكان ابتداء النار في الجهة الشرقية من المدينة فامتدت الى جميع انحائها ناشرة في كل مكان روائح كريهة من الزفت والكبريت . وكان اللهيب يسير وراءها بسرعة متنقلا من بيت الى بيت ويزداد قوة بالتهامه مايعثر عليه ويجري من أقصى المدينة الى أقصاها . وبينا ألسنة النيران تندلع بشكل هائل كانت حرائق أخرى جديدة تحدث فتجري منها جداول من السعير وتقصدها الريح الهابة فتذهب بها الى حيث لم تكن النيران السابقة قد انتهت اليها . فكأن الارض انشقت وأخرجت من أحشائها كل مافيها من النيران . وانتشر الحريق بشدة ماوراءها من مزيد ولم تكن النار تعرف جهة تنحوها اوحدوداً تقف عندها فزأرت وزمجرت كأنها امواج البحر الهائجة في ابان هبوب العواصف وافضت الحال بتلك المدينة الشقية الى الغوص في محيط من اللظى .

ولم يبق في الاماكن المشيدة فيها المنازل والقصور سوى رسوم تدل

جدران الآجر على موقعها وكانت الجدران بمثابة هيكل عظام لجسم مدينة موسكو العابثة بها أيدي النيران .

وشاهد نابوليون من نوافذ قصر الكرملين النكبة الهائلة .. ويروي التاريخ ان سيبيون. لما شاهد النار المضطرمة تلتهم قرطاجة ساوره غم شديد لتصوره انه قد يصيب رومية يوماً من الايام ما أصاب تلك المدينة المحترقة. وكان نابوليون كثير التفكير واجماً ... وبات الجيش كالمذهول به وكانوا يصيحون في قصر الكرملين « انظروا كيف يحاربون فقد ساء ما توهمناه عن حضارة القوم في بطرسبرج فهم لا يزالون من البربر المتسكعين في ظلمات الهمجية . »

وتجلى لنابوليون حينئذ ماصحت عزائم الروس على فعله فانه بدلا من أن يقدم اليه مندوبون يطلبون منه عقد الصلح الفى في موسكو عصابة عهد اليها في احراق المدينة وتطويقها بنطاق من السعير . ويمكنه الآن أن يكرر ما قالته عقيلة ستال وهو : « انه ليس عند أمة من الامم المتمدنة مقدار ماعند الروس من المتوحشين . » وكان عدد الذين فوض اليهم رستبشين إجراء مقاصده نحو تسع مئة موزعين في الأقبية ومأمورين باضرام النار في أوقات معينة . وقد فوجىء بعضهم والمشاعل في أيديهم فاعترفوا بكل شيء مما دل على اشتراك رستبشين في الجريمة الفظيعة بيد أنه لم يقدم على اقترافها الا بايعاز من مولاه القيصر فلا يعقل أن أحداً من الروس يجترىء على تحمل أعباء المسؤولية الكبرى من دون أن يستند في عمله هذا الى أمر سام .

ودنا اللظى من قصر الكرملين فتشقق زجاج النوافذ ولم يرالعاهل نابوليون بدا من النظر في أمر سلامته والفرار من العطب الذي يهدده . فتردد في بدء الامر في التراجع لئلا يكون ذلك شؤما يتطير منه . وقد شعر بذلك ولم يشأ أن يتقهقر أمام تلك الهمجية بعد ماقهرها في أكثر من عشرين معركة وهزمها أمامه مسافة تقرب من مئتي فرسخ وتعقبها مجتازاً أجل الولايات الروسية. ودلوه على غير طائل على اللهيب المتصلة ألسنته بساحة المسلحة وقالوا له على غير جدوى ان المخاطر المحفوف بها شخصه تقذف الذعر على المدفعيين والجيش برمته فلم يجن سوى الخيبة لاريبواسيار وليفيفر وبسيار واوجين من بسط واقع الحال له وتوسلهم اليه بالابتعاد عن مكان أصبح فيه الخطر أدنى من حبل

الوريد منه . وبلغ نابوليون في الكرملين أعلى ذروة من ذرى المجد ووصل اليه بعد ماداس جثث مئة ألف مقاتل من جنود كوتوزوف وأنف من أن يقال عنه أن عصابات من الصعاليك المخربين هزموه وظهروا عليه واضطروه الى الهرب . وهل يصدق أنه بعد مارفعه النصر الى المنزلة العالية يهوي الى الوهدة البعيدة القرار ويتقهقر الى الوراء من دون أن يظفر به الاعداء . فلم يطق صبراً على هذه الحال وابتغى استنزال الهمجية في ابان تحدم مواقدها ومصارعة الاقدار حتى النهاية واظهاره بالبرهان لاعدائه المتوحشين ان في نفسه الكبيرة قوة تفوق مافي مكايدهم الشيطانية من القوة . وظل عدة ساعات في قصر الكرملين وعوامل الافكار تتجاذبه من دون أن يرق جانبه أو تطير نفسه شعاعاً . . . الا أن حياته التي عرضها للمتالف لم تكن ملكا له بل للجيش ولفرنسا فاذا أصر على البقاء في القصر غير مبال بألسنة النار المندلعة استهدفت تلك الحياة لنبال العطب . وقد أفضى الامر به الى الخضوع لاحكام الضرورة والانقياد لمقتضياتها . وجاء برتيه وكان قد تسنم سطحاً من سطوح الكرملين وأخبر العاهل أنه لم يبق له دقيقة واحدة يضيعها سدى لان السعير يحيط بالقصر من جميع جهاته فلم يلق نابوليون مندوحة عن اتمام رغائب المقربين اليه : ففصل عن القصر مارا بين اللظى ويمم قصر بتروسكوفي في ضواحي موسكو على طريق بطرسبرج .

وكان خروج نابوليون من موسكو بعد ظهر اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر ولم يكد يستقر به المقام في مقره الجديد حتى أطلق لافكاره العنان في مجال التأمل بالنكبة الفادحة التي دهته وأفسدت عليه كل ماهيأه من التدابير فكان أول شيء خطر له الزحف الى بطرسبرج رجاء أن يصيب فيها صلحاً لم يتمكن من اصابته في موسكو . وقضى ليلته وهو يخطط على المصور الجغرافي الطريق المقضي عليه انتهاجه ولكنه قبل اقدامه على العمل فكر في سبر أفكار حاشيته واستطلاع طلع آرائهم في الامر فرأى النزر منهم يوافقونه على مبتغاه . ورأى البرنس أوجين وحده رأيه في هذه القضية واستعد للزحف بطلائع الجيش وحدته شجاعته التي لايفل حدها على التهليل لما صمم عليه نابوليون بعزيمة لايدنو منها الوهن . الا أن القواد الآخرين الذين لم تكن عزائمهم أضعف من عزيمة أوجين أصبحوا شديدي التروي في الامور من جراء النوازل الاخيرة

الملمة بهم . فالذين هالتهم في بدء الامر الحرب فى هاتيـك الاقطار السحيقة لم يرقهم تمديد أجلها والتوغل في الاقاليم الشمالية لمكافحة الزمهرير فعاد اليهم ما ساورهم من المخاوف في دنتزيك وعرس بهم من الذعر في سمولنسك . ولو كانوا في غير هـذه الاحوال لما قويت الاهوال على معارضـة اغراض المولى الاكبر ولـكنها تغلبت في بتروسكويي على عزائم نابوليون . وقال المسيو فان في هذا الصدد . « تمكنوا من حمله على الارتياب للمرة الاولى في حياته بتفوق نظراته الصائبة . » وفضلا عن ذلك شعر بثقل أوقار المسؤلية الناجمة عن اضرامه مواقد حرب ثانية هائلة . على انه لم يقنعه القائلون انهم لم يعرضوا عن الزحف الى بطرسبرج الا أملا بعقد الصلح في موسكو فقال لهم : « لا يخطرن على بالـكم ان الذين شبوا النار في موسكو يضطرون الى المجيء اليها بعـد أيام لاجل عقد الصلح . فاذا كان الحزب الذي أقدم على هذا العمل لا يزال ذا سطوة في حكومة الاسكندر كان كل ما تعللون النفس به من الآمال برقا خلبا » ومع بعد نظره في المستقبل وصدقه كما حققته الاحوال جعل ما له من الافضلية المتسلطة على كل شيء تذعن لاراء قواده . وقد قال مؤلف مخطوطات سنة ١٨١٢ : « ياليته لا يسقط من ذاته بعد قبوله الهبوط ومجاراة كبار رجاله على آرائهم فقد خطا الخطوة الاولى وقضي الامر . »

وبقي نابوليون في ضواحي موسكو . ولو كان في شهر أغسطس لظل مصراً على رأيه وسير الجيش على بطرسبرج ولكن كان فصل الصيف قد أوشك أن ينتهي فجملته هذه الملاحظة يجاري رفقاءه الاقدمين فى القتـال على آرائهم .

وخمدت أنفاس النار في موسكو ونجا قصر الـكرملين بعد ما كان الدمار يهدده وعاد اليه الامبراطور فى صباح اليوم الثـامن عشر من شهر سبتمبر . وغصت المدينة بالنهـابين على اختلاف جنسياتهم فاعادت عودة العاهل النظام والسكينة اليها . وبينما هو مار برصيف الموسكوفا ابصر مأوى اللقطاء فقال لترجمانه الخاص : « امض من قبلي وانظر ماذا جرى لاولئك المساكين الصغار . » فاطاع الترجمان الامر ولما وصل الى المأوى علم ان الاولاد الذين فوق الثانية

عشرة من العمر أبعدوا الى نزلي نفغورود وان الذين دون الثانية عشرة تركوا تحت رحمة النيران ولولا عناية الامبراطور حين ارسل اليهم في الليل الذي بين ١٤ و ١٥ من الشهر فصيلة من الجند لهلكوا على بكرة ابيهم . فقال له مدير المأوي : « حماية مولاكم لنا نعمة من السماء فلولا عطفه علينا مع ضعف أملنا بذلك لاصبح مأوانا طعمة للنار وفريسة للنهابين . »

وسار الشيخ الروسي بالترجمان الى الرده وعرف الاولاد به قائلا لهم : « ان الامبراطور أرسل الينا هذا الفرنسوي . » فكان هذا الكلام كافيا لتحريك ساكنات الشكر في أفئدة أولئك الاحداث المنكودي الطالع فتسابقوا الى الوقوع على مندوب نابوليون وعانقوه وهم يصيحون قائلين : « ان امبراطوركم عنايتنا . »

ولما سمع نابوليون من فم مندوبه تفصيل استقبالهم له تحركت أوتار شفقته وامر لساعته بمدير المأوى واسمه طوطلمين أن يمثل لديه . فاستأذن منه المدير بان يبعث الى والدة جلالته برسالة يخبرها بها كيف سلم مأواه من النار . وفي أثناء محادثة العاهل للمدير اندلعت ألسنة اللهيب في ضفة النهر الاخرى فخشي نابوليون ألا تكون النار قد خمدت بتة . فثاب اليه حنقه عند ذلك المشهد فذكر اسم رستبشين وقال: « لحا الله هذا التاعس فانه اجترأ أن يضيف الى ويلات الحرب الفظيعة حريقا هائلا دبره على مهل وأضرمه بيده ! قبح الله هذا البربري فانه لم يكفه أن يهمل أمر الاحداث المساكين الموكول اليه أمر العناية بهم والوصاية عليهم وعشرين ألفا من الجرحى وجميعهم مقضي عليهم بالهلاك بلا رحمة ولا رأفة . وهو مع ذلك يزعم انه يسلك مسلك الرومانيين الاقدمين . فتبا له من وحش ضار بليد ! »

ولما كان من الغد جاء المسيو دي طوطلمين ودفع الى الامبراطور الكتاب الذي استأذن منه أن يكتبه الى حامية القطاء النبيلة . وقد تضمن ذلك الكتاب تمهيداً للصلح وختم بالعبارات التالية : « مولاتي ان العاهل نابوليون يئن لرؤيته عاصمتنا تكاد تدمر برمتها بوسائط ليست على زعمه من الوسائط المستعملة في حرب أصولية . وهو معتقد انه اذا ما تدخل أحد بينه وبين عاهلنا

المظيم الاسكندر عادت صداقتهما القديمة الى ما كانت عليه من قبل وتقلص ظل نكباتنا وشدائدنا . »

ولم يكتف نابوليون بهذه التظاهرات التمهيدية للسلم الموجهة بمعرفته بل كتب هو نفسه الى العاهل الاسكندر في ٢٤ سبتمبر مع المسيو جاكو ليف المنطلق الى بطرسبرج . وفي ١٤ اكتوبر صمم على فتح أبواب المفاوضات السلمية بطريقة رسمية سرية فأرسل حاجبه لوريستون الى محل أركان حرب كوتوزوف . الا ان هـذا أعلن انه لا يستطيع الدخول في المفاوضات ولا السماح للمندوب الفرنسوي بالتقدم الى الامام قبلما ينتهي اليه تفويض بذلك الشأن من مولاه فأرسل البرنس ولـكنسكي الى القيصر لذلك الغرض .

وفي أثناء المفاوضات التمهيدية وتسيير الرسائل الى أماكن بعيدة مما يقتضي وقتا طويلا أوشك أن ينفد ما تمكنوا من تخليصه من النار من المؤن الوفيرة التي كانت عندهم وعمل الجيش الروسي أعمالا كان يتعمد من ورائها حصر الفرنسويين في موسكو ولم ين فرسان القوزاق عن مضايقتهم من كل جهة ودنا دخول فصل الشتاء قبل أن يتيسر لهم فتح أبواب المفاوضات .

وتحقق لنابوليون ما أنبأ به قواده أي أن الذين شبوا النار في موسكو لم يضطروا الى المجيء اليها بعـد أيام لعقد الصلح . على انه أطال مدة اقامته في قصر الكرملين وجعل يعنى بادارة الشؤون الداخلية في موسكو والبلاد المفتتحة ويتدخل في الشؤون العسكرية الطفيفة ويدبر حركات الجيش كبيرها وصغيرها ويتولى بذاته ادارة سلطنته وهو بين تلك المشـاغل المختلفة وفي تلك الاقاليم السحيقة . ومضى شهر من الزمان على دخوله عاصمة القياصرة القديمة من دون أن يصيب نتيجة من كتاب المسيو دي طوطمين والرسالة المفوض الى المسيو دي جاكوليف أمر ابلاغها والرقيم الذي حمله البرنس ولـكنسكي الى القيصر وحضور لوريستون الى معسكر كوتوروف.

وأصم العاهل الاسكندر أذنيه عن سماع المقترحات السلمية وذهل عن كون القسم الافضل من سلطنته قد غزاه الاعداء ودمروه تدميراً وحول أنظاره من قصر الـكرملين الى ندوة سان جيمس بلندرة الواردة اليه منها ترى التهنئات والتشجيعات . وفضلا عن ذلك بنى الاسكندر تصرفه على التعقل : فانه أراد

الحرب واستعد لقبول كل أهوائها وآفاتها رغبة بسيادة الطريقة الاوربية القديمة أعني بها الطريقة البريطانية على سياسة الثورة وزعيمها . ولم ينبذ المسير الى الغاية التي قصدها بسبب ما جرت اليه الحرب من البلايا فان أوربا القديمة التي كان هو لسان حالها لم تطلب منه الا البقاء صامتا بازاء الغزاة المخيمين في أرض موسكو المنبعث منها الدخان ومنتظراً بقلق اقتراح الصلح في وسط ذلك الانتصار . ولم يتردد الاسكندر في الامر فان رفضه تولي المفاوضات مع الفرنسويين بشأن الصلح كان كاسلري قد أوعز اليه به على يد رستبشين.

وكانت حالة الجو تشتد والزمهرير يتعاظم والحكومة الروسية تماطل في ارسال الجواب الى نابوليون عن الصلح وتمادى في معاداته . وغشى الثلج في ١٣ اكتوبر جميع تلك الانحاء فقال نابوليون : « اسرعوا في تهيئة معدات الشتاء فيجب أن نحتل مراكزنا الشتوية في عشرين يوماً » . وفي الغد كتب الى مورات موعزاً اليه باستكشاف طريق موجايسك وأرسل الاسلاب في ١٥ منه بخفارة الجنرال كلاباريد وقت ما كانوا يسيرون المرضى والجرحى الى سمولنسك ولم يكن ثمة بد من اعطاء علامة الرحيل . وقال نابوليون في مفكراته : « لا يسمى هذا الفعل تراجعاً فالجيش كان منتصراً وكان يستطيع الزحف الى بطرسبرج وكالوغا وطولا بعد ما سعى كوتوزوف على غير جدوى أن يصدنا عنهن . . . ولم يعد جيشنا الى سمولنسك لانكساره أمام أعدائه ولكنه نوى أن يقضي فصل الشتاء في بولونيا » .

وكان الجيش الفرنسوي في واقع الحال منتصراً وقد بقي منتصراً حتى آخر دقيقة من احتلاله لموسكو فظفر ملك نابولي بالروس في ونكوفو في ١٧ اكتوبر وفي الوقت عينه دفع غوفيون سان سير هجمات وتجنستين على بولوتسك . ولم يجهل نابوليون انه سيكون لتقهقره وقع سيء في أوربا من جهة سؤدده الادبي ومن جهة التفوق الذي أصابه بفوزه ودهائه حتى ذلك العهد على أصدقائه وأعدائه على السواء وعلى الحكومات والشعوب وقد خذله حلفاؤه في القسطنطينية واستكهلم وان حلفاءه في فينا وفي برلين ما عدا تقاعدهم عن مناصرته سيزداد تخلفهم عن معاضدته حين ينتهي اليهم ان الفرنسويين تركوا فتوحهم في روسيا ليعودوا الى بولونيا . ومع ذلك لم يكن له الخيار في المسألة ولم يبق له أدنى أمل



الامبراطورة مارى لويز

بالصلح . وابتدأ برد الشمال ينذر بحلوله وخرج نابوليون من موسكو في ١٩ اكتوبر سائراً على طريق كالوغا بعد ما وكل الى المارشال مرتيه قائد المؤخرة نسف الكرملين .

وتلقى المارشال من العاهل أوامر أخرى أقل عنفا فان نابوليون قال له . « لا يسعني الا أن أوصيك بمن بقوا عندنا من الجرحى فأركبهم مركبات الحرس الفتيان ومركبات الفرسان وكل ما تجده من المركبات . وقد كان الرومانيون يمنحون أكاليل السلام لمن يخلصون الوطن فأنت ستستوجب مكافأة عظيمة على إنقاذ المنكودي الطالع . فيجب عليكم أن تركبوهم جيادكم عينهـا وجياد جميع الناس الذين عندكم . وهكذا فعلت في عكاء . فابتدئوا بالضباط فعاونيهم وفضلوا الفرنسويين على غيرهم . واجمع القواد والضباط واجعلهم يشعرون بكل ما تقتضيه الانسانية فى مثل هذه الحال » .

على أن هـذا التراجع وان لم يكن يدل على شيء من الشؤم جعـل الجيش الفرنسوي يظهر بمظهر جديد وجعل الناس يتطيرون من مصيره ويعملون الروية فى تقلب الاقدار وتحول وجوه المعالي البشرية . ان نابوليون لا يزال ظافراً ولـكنه يتراجع أمام المغلوبين وقد دخل عليه الاضطراب في سيره بما اضطر الى أخذه معه من المواد وجره معـه مخازنه ومستشفياته على مركبات كثيرة . وقال المسيو فان في هذا الصدد : « كنت ترى خطاً طويلا من المركبات المحتشدة حولها كل فرقة . وقد استخدموا كل ما وجدوه من وسائط النقل في موسكو وضواحيها : فوضع فيها كل واحد منهم حصته من المؤن والملابس ظاناً انه يبقيها لنفسه حتى يصل الى غاية تراجعه . وكانت النساء والاولاد وبعض الفرنسويين والروس أنفسهم والالمان المقيمون في موسكو يفضلون الانطلاق معنا على البقاء في موسكو وانتظار عودة القوزاق اليهـا فأصابوا ملجأ بين أمتعتنا » .

وبرحت موسكو الفصائل الاخيرة من الجيش الفرنسوي في ٢٣ اكتوبر في الساعة الثانية صباحا ونسف قصر الكرملين بعـد ساعة من الزمان وقد فوض أمر إشعال الذبالة المتصلة بالبراميل الى المسيو أوطون زعيم فصيلة من فصائل المدفعية البحرية . وكان من وراء الانفجار الناشيء عن اشتعال تسعين

ألف كيلو غرام من البارود تهدم جميع أبراج القصر والمسلحة والجسر ومستودع البنادق وجميع مواد المدفعية الروسية . وكان الجنرال ونتزنجرود قد أسرع في اليوم السابق في المجيء لعله يدخل موسكو زاعماً على غير طائل انه موفد للبحث في شروط الصلح فلم يصب من اسراعه الا التحرق لمشاهدته وهو أسير دمار مقر القياصرة القديم . على أن هذه المدينة المقدسة لم تنته من مشاهدة الفرنسويين المحتلين يهجرونها حتى سقطت فريسة في أيدي القوزاق والنهابين .

* * * *

الفصل الخامس والعشرون

نتائج تراجع الفرنسويين — نابوليون في سمولنسك

مؤامرة مالاي

وعلل نابوليون نفسه بقضاء فصل الشتاء عند حدود ليطوانيا فكتب الى الدوق دي باصانو الباقي في فيلنا ما يأتي : « حوالي الاسبوعين الاولين من شهر نوفمبر أصل بجيوشي الى المربع الذي بين سمولنسك وموهيلوف ومنسك وويتبسك ... وهذا الموقع الجديد يقربني في وقت واحد من بطرسبرج ومن فيلنا . وسأصير في المعركة القادمة أقرب من الوسائط والغاية التي وصلت اليها الآن بعشرين مرحلة ... وفضلا عن ذلك تختلف في مثل هذه الحوادث الوقائع كثيراً عما كان مقدراً وقوعه »

ولسوء الحظ ستحقق الحوادث في زمان متأخر جداً الحكمة المبني عليها هذا الفكر . ولما انتهى الى كوتوزوف خبر حركات الجيش الفرنسوي غادر بجيشه طاروطينو وخف الى مالوجاروسلاو تز ليسبق اليها الجيش الفرنسوي إلا أن البرنس أوجين كان قد خيم فيها . فأراد القائد الروسي أن يستفيد من تفوقه في العدد على أعدائه وأمر بالهجوم عليهم وكان ذلك في صباح اليوم الرابع والعشرين من

شهر اكتوبر واتفق أن فرقة دلزون كانت أول فرقة من الفرنسويين هجموا عليها فثبتت في موقفها ودافعت دفاع الاسود ولكنها أصيبت بفقد قائدها فبادر غلمينو رئيس أركان حرب الفرقة الى تولي القيادة خلفاً له . وكان الفريقان يتقاتلان تقاتلا شـديداً بحيث أن المدينـة سقطت سبع مرات وكل مرة كانوا يسترجعونها . ووقف العاهل على يفاع من الارض أبصر منـه جميع الحركات الحربية . فوقفت رحى القتال عنـد وصول فرقتي جيرار وكمبان . ولما قنط كوتوزوف من الاستيلاء استيلاء نهائياً على مالوجاروسـلاوتز والنزول فيهـا تراجع ليحمي طريق كالوغا وقد عزم على سدها في وجه الفرنسويين ولو سامه ذلك شهر معركة جديدة

وعاد نابوليون في المساء الى مركز أركان حربه في غوردينا فلم يلق غير كوخ يأوي اليه . ولما انتهى اليه مانوى كوتوزوف عمله وكان هو يهمه المضي الى كالوغا عقد عروة العزم على القتال في الغد والعبور على جثث أعدائه ولكن قواده رأوا غير رأيه فقد كانت معركة اليوم السابق هائلة وخيم أوجين ودافو فوق اكداس من جثث القتلى في الموضع المبنية عليه مالوجاروسلاوتز التي باتت طعمة للنار ولم يبق منها سوى الانقاض . وقضت الحـكمة بالاسراع في الوصول الى المحلات المعينة لقضاء فصل الشتاء وتجنب كل مامن شأنه إضعاف الجيش . فيجب والحالة هـذه المبادرة الى أخـذ طريق سمولنسك المارة بويازما والباقية مفتوحة وترك الجنرال الروسي يستعد على غير طائل لقطع طريق كالوغا وسدها فى وجه الفرنسويين . هذه كانت لهجة المقربين من نابوليون. فاستشاط العاهل غيظا عند سماعه مثل هذا الكلام وصاح قائلا: « انتقهقر أمام كوتوزوف؟ انتقهقر أمام عدو قهرناه وبات وهو لا ينتظر إلا علامة للتقهقر ؟ »

ودلت الاخبار الواردة الى مركز أركان الحرب على أن كوتوزوف يؤثر التصدي للجيش الفرنسوي ومحاربته على ترك مواقعه والطريق الذي نوى سده في وجه الفرنسويين

ولم يقتنع نابوليون بهذه الاخبار فشاء أن يتحقق كل شيء بذاته وامتطى جواده في ٢٥ منه عنـد بزوغ الفجر وسار لتفقد ساحة القتال ومعرفة المكان النازل فيه العـدو وما هيأه فيـه من معدات الحرب . ولما وصل الى جواد

مالوجاروسلاوتز وقف مبهوتاً حين سمع فجأة صياح القوزاق الحربي . ولكنه ماعتم ان ثابت اليه رباطة الجأش وقد هال رجاله خبر قدوم بلاتوف اليهم . وكانت الحال تقضي بان يتخذ العاهل وحاشيته تدابير الدفاع. وكان أمام الجنرال راب في ذلك الموقف فرصة جديدة ينم بها عن أسرار شجاعته فقهر وانهزم وجاء الى نابوليون وقد أثخن جراحا . وقال راب فيما بعد في مفكراته :

« ولما شاهد نابوليون جوادي ملطخاً بالدم سألني هل جرحت فقلت له اني أصبت ببعض رضوض . فحينئذ قهقه ضاحكا مما أصابنا » . وكفى وصول المارشال بسيار ببعض فصائل من فرسان الحرس لاعادة النظام الى عساكر الفرنسويين وتمزيق شمل القوزاق . واستأنف العاهل حينئذ مسيره بكل سكينة فانتهى الى الموضع الذي اشتبك فيه القتال في اليوم السابق . فاستقبله البطل الشاب الذي تعلم منه نيل النصر فتأثر جداً من الخسارة الفادحة النازلة به وكانت ثمناً لانتصاره . فعانقه العاهل وقال له : « يا أوجين ان هذه المعركة تعد من أفضل أعمالك الحربية » .

وجاءت زيارة نابوليون لساحة الحرب مصداقاً للآراء المبسوطة لديه فعمل الروس على تشييد المعاقل وصحت عزائمهم على سد الطريق في وجه الفرنسويين . وعلاوة على ذلك كان دم الجندي الفرنسوي يزداد قيمة يوماً بعد يوم بعدما جرى غدراناً في أرض مالوجاروسلاوتز . وكان عند نابوليون دلائل كثيرة على هذا الامر ولم يجد مندوحة عن الانقياد الى آراء الملحين عليه بالتراجع في القريب العاجل الى سمولنسك بطريق موجايسك وويازما المتفق على سلامتها . إلا أنه لم يقرر فكره على هذا الامر إلا في الغد في ٢٦ منه حين نما اليه ان كوتوزوف تقهقر فلم يخش حينئذ نابوليون من أن ينسب اليه التقهقر من وجه أعدائه وقد صار يستطيع من الآن أن يعدل عن الزحف الى كالوغا من دون أن يعرض شرف جيشه لسهام العذل

وتقهقر من غوردينا الى بوروسك ونزل في فيريا في ٢٧ منه ووصل في الغد مساء الى قصر اوبنسكوبي ووقف في ٢٩ منه على مقربة من دير كولتسكوبي فلقي جرحى لم يتمكنوا من نقلهم لقلة وجود مركبات للنقل مع انه كان قد أصدر في هذا الشأن أوامر معجلة وصريحة فصاح حينئذ بصوت جهوري : « فلتنقل

كل مركبة واحداً من هؤلاء العاثري الجد » . ولم يكتف باصداره الامر بالابتداء بمركبته بل أراد أن يتولى ديب ولرمينيه طبيبه وجراحه الخاصان مشارفة نقل الجرحى بموجب الاصول الصحية

ووصل الى غجات في مساء ذلك اليوم فقضى فيها أربعا وعشرين ساعة ودخل ويازما في ٣١ منه فلقي فيها رسائل واردة اليه من باريس وفيلنا وتقريرين من المارشالين فكتور وسان سير.

على أن نابوليون المعلل النفس بأمل الالتحام بدوق دي بلون في ممولنسك والمعتمد على حركات هذا القائد الحربية على مثال اعتماده على حركات مكدونال وسان سير وشوارتزنبرغ للمحافظة على حرية مؤخرته وجناحيه ودحر وتجنستين في جهة الشمال واضطراره الى المسير نحو بطرسبرج وصد أمير البحر طشيطشاغوف في الجنوب وكان أمير البحر هذا قد خف من ضفاف الدانوب الى الدنيابر بعد عقد الصلح مع الدولة العثمانية علم أن فكتور لم يكن في ممولنسك وان سان سير لم يكن في بولوتسك وأن مكدونال أضطر الى التقهقر الى كورلاند ولم يكن ميسوراً له أن يفاوض الافيلنا وأن شوارتزنبرغ ترك أمير البحر الروسي يمر بينه وبين الجيش الفرنسوي . فنرى والحالة هذه أن الحظ بعد ما عاكس سير الجيش الفرنسوي على أثر حوادث سياسية لايستطاع تداركها عاكس أيضاً تراجعه بحوادث حربية غير منتظرة . فقد راقه أن يفسد على الرجل العظيم تدابيره ويحبط آماله بعد ما كان في غابر الحين يغمره بالائه ونعمائه ولكن لم يدن عناؤه فتيلا فانه ولو تمكن يوما من الايام من نزع السلطة من قبضته فلا يستطيع أبد أن يمس دهاءه ومجده .

وأقام العاهل يومين في ويازما وفصل عنها في ٢ نوفمبر عند الظهر ونقل مركز أركان حربه في ٣ منه الى سلوكوفو وكان أوجين ودافو وناي في ذلك الحين يدفعون في ويازما وعلى طريق مدين هجمات ميلورادتز ورفسكويفي ويحافظون على النظام في الفيالق الاخيرة الفرنسوية المتراجعة . فلو هجم كوتوزوف على الفرنسويين في ويازما لصير موقفهم محفوفا بالعطب الا أن بوطرلين يقول أن تباطؤ الفلد مارشال الروسي ناشيء عن خوفه من حمل الفرنسويين على القتال قتالا عنيفا يدفعهم الى القنوط ويلجئهم الى رد هجماتهم ردا هائلا

وقد سبق لهم أن ردوا مثل هذه الهجمات مرات كثيرة فلقوا في خلالها النصر او الموت .

وكان من نتيجة معركة ويازما للفرنسويين ابطاء حركات الروس الذين كانوا يتعقبونهم فلم تعالج العساكر المنظمة التصدي للجيش الفرنسوي المتقهقر . وظل القوزاق من دون سواهم يزعجون المؤخرة المؤتمرة بأوامر المارشال ناي . وقد اخترعوا طريقة لابعادهم وفت بالغرض المقصود . وقال الجنرال غورغو : لما كنا نفرغ المركبات ونهم بتركها كنا نترك فيها ذبالة طويلة موقدة فيبصر القوزاق الدخان خارجا من الصناديق ولا يجسرون على الدنو منها خوف وصول الاذى اليهم على أثر الانفجار ويضطرون الى التأخر .

وانتهت الى نابوليون وهو في ميكاليوسكا رسالة من الدوق دي بلون يخبره فيها انه بعد التحامه بفيلق غوفيون سان سير انسحب الى جهة صنو ولم يزحف الى وتجنستين لاسترجاع بولوتسك . فكان لهذا النبأ وقع سيء على الامبراطور فكتب الى المارشال فكتور موعزاً اليه بالاسراع في الزحف الى وتجنستين وفتح بولوتسك .

ولم يصب نابوليون غرضه من الاوامر الصادرة منه الى فكتور في هذه المرة أيضاً فظل ماسيره اليه من التعليمات عقيما . وعلق عليها أهمية عظمى وأصر على وضعها موضع الاجراء بكل تدقيق بحيث أنه كررها في الليلة عينها على يد حاجبه الاكبر . الا أن المعين الهائل الذي عول عليه الروس وسخرته الاقدار لتذليل الاعلام الفرنسوية شن في تلك الليلة غارة شعواء على معسكر الفرنسويين فهبت عليهم ريح صرصر ساقت أمامها العذاب والموت الاحمر . ولما طلع النهار وهموا باستئناف المسير وجدوا ألوفا من الخيل ميتة من شدة البرد وأجهز الجمد على من نجوا من زمهرير الليل فضلت مركبة الامبراطور الخاصة عن قصد السبيل في مجاهل تلك الثلوج .

ودنوا من سمولنسك فقال شاهد عياني : « ماأفظع الحالة التي دفعت بها ريح الشمال الجيش نحو تلك المدينة ! فزالت من الثغور ابتسامة المداهنين المتعودين التملق للامبراطور واكفهرت جميع الوجوه ولم تبق على هيئتها الا النفوس الكبيرة التي لم تلتحف بمطارف الرياء ولم تبال بالبرد والأرق . أما نابوليون

فكان من جراء هذه النكبة الشديدة يصارع بنفسه الكبيرة حدثان الدهر وتصاريفه . »

ودخل نابوليون فمولنسك وقد وعد عساكره بان يجعلهم يستريحون فيها فلم يجد فيها فكتور ليعضد انسحاب جيش كان الشتاء القارس يفتك به فتكا ذريعا ولم يبق منه سوى النزر القليل . وكأن الرزايا النازلة بجيشه تحت أنظاره غير كافيـة حتى وافته أخبار من باريس جعلتـه واجف القلب على تزعزع أركان سلطته وأركان أسرته وقد كان يزعم أنه وقاها من كل تهجم ووسمها بسمة الخلود

وكان سجين سياسي محصورا في معقل وهو عضو خامل الذكر من أعضاء جمعية جمهورية تكاد تكون مجهولة وضابط لاشهرة له ولا أنصار ولا وسائط له غير تصوره وجرأته يقال له الجنرال مالاي فصمم باخبار ملفقة وأوامر كاذبة على هدم السلطة الضخمة المرتجف أمامها والخاضع لها كل شيء في أوربا والمتوهمها الناس راسخة الاركان .

وفي ١٩ أكتوبر وهو اليوم الذي خرج فيه نابوليون من قصر الكرملين فر مالاي من المعقل المتولي رجال الشحنة حراسته وانتحل اسم الجنرال لاموط وجاء بعد قليل من الحين الى الكولونل سوليه قائد الفرقة العاشرة من الحرس الوطني ونعى اليه الامبراطور وأخبره أنه تألفت حكومة جديدة وأمره بان يسلمه قيادة فرقته . وكانت الساعة الثانية صباحا والكولونل في سريره يشكو من مرض أصابه . فلما سمع خبر وفاة نابوليون أجهش في البكاء واعتذر عن عدم تمكنه من النهوض من فراشه ولكنه أوعز الى معاونه بجمع الفرقة والقاء مقاليد قيادتها الى الجنرال لاموط فأجرى منطوق أمره في الحال . وحينئذ قرأ مالاي على نور المصباح على مسمع من الجنود قبل أن يثوب اليهم الروع مالفقه من الجرائد والنشرات والاوامر فتبعته تلك الفرقة المؤلفة من الف ومئتي جندي الى حيث مضى بها مؤتمرة باوامره

فتوجه في بدء الامر الى سجن الفرس فأخرج منه شريكيه لاهوري وغيدال وفوض اليهما القاء القبض على سافاري وبسكيه مديري الشحنة .

فلم يبد مدير الشحنة مقاومة لاوامر ذينك السجينين المقضي عليه التشديد في المراقبة عليهما .

ولم يعترض ناظر الشحنة على القاء القبض عليه وعلى كل ما أخبره اياه غيدال ولاهوري من تلفيقات مالاي ففاجأه في سريره وأطاعهما بذهابه الى سجن الفرس حيث حل محلهما هو ومدير الشحنة .

وأظهر فروشو مدير السين الثقة نفسها والانقياد نفسه وظن أن المنية تخرمت العاهل فأعد الردهة لاقامة الحكومة الجديدة .

ولم يصب مالاي من الانقياد عند حاكم باريس ما أصابه عند غيره فان هولان بدلا من أن يدعهم يلقون القبض عليه بدون استيضاح طلب أن يرى الاوامر التي يريدون بموجبها ايقافه ودخل غرفة عمله. وسار مالاي وراءه ولما التفت الحاكم وكرر طلبه ابراز الاوراق المستندين اليها في أمر القبض عليه أطلق عليه المؤامر الجريء غدارته فجرحه في وجهه وصرعه على الارض من دون أن يقتله. وكان ضابط من ضباط الفرقة العاشرة حاضراً فلم يسيء الظن بشيء عند رؤيته هيئة الحاكم ولم ينتبه الى انخداعه هو وفرقته على أثر تصديق الكولونل تلك الفرية .

وبعد ما جرح مالاي هولان وصرعه مضى الى دوسه النائب العام فلقي عنده مفتشاً من مفتشي الشحنة فعرفه هذا وانتهره بشدة وفي الحال أصدر الامر بالقاء القبض عليه . ولما رأى مالاي انه لم يبق له أمل بالنجاة حاول الفرار من الورطة الناشب فيها بالتجائه الى غدارة ثانية مخبوءة في جيبه . ولكنه لم يظفر بحاجته من غدارته فانهم انتزعوها في الحال من يده وهجم عليه الحاضرون فاوثقوه . ولم تمض دقائق حتى عاد المتآمرون الى السجن بعد ساعتين قضوها في الامر والنهي في العاصمة الغارقة في لجة الكرى . وكان ناظر الشحنة الذي عينه مالاي مهتماً في بيته بتفصيل بزة تلاعه حين جاؤوا والقوا القبض عليه

وهكذا انتهت المؤامرة المبنية على الطيش والحماقة وكانت كأضغاث أحلام أو كمشهد من مشاهد الروايات أو كحادث من حوادث الجولان في النوم لبعض



الامبراطور والبابا فى غاب فنتنبلو



كبار الموظفين أما الشعب الباريسي فانه لم يدر شيئاً مما جرى لاستغراقه في النوم . وعند هبوبه من الرقاد وجد السكينة ضاربة أطنابها في المدينة . ولو لم تنشر صحيفة المونيطور أنباء هذا الحادث الليلي لبقي مجهولا عند الجميع . ولم يؤثر بهم إلا إجراء الاحكام المعجلة بحق أربعة عشر شخصاً لهم علاقة بالحادث

ولما قرأ نابوليون الرسالة المبينة حقيقة الحادثة لم يتعجب من جرأة المتآمرين بمقدار تعجبه مما لقوه من التساهل من بعض أصحاب السلطة العليا المنتظر منهم مقاومة شديدة وتكذيباً عنيفاً للاراجيف التي أذاعها المتآمرون وصداً لمحاولتهم التهجم على السلطة السامية . وأطلق العنان لافكاره المؤلمة والمحزنة فقال : « أهذا ما أتوقعه من رسوخ أركان سلطتي فهي سلطة مبنية على الرمل . . . واذا كفى لتعريضها للخطر رجل واحد محصور في السجن فلا يكون تاجي ثابتاً على رأسي إذ يستطيع في عاصمتي عينها ثلاثة من العيارين أن يلقوه عن رأسي . فبعد حكم اثني عشرة سنة وبعد زواجي وبعد ولادة ابني وبعد أقسام مكررة يكون موتي سبباً لاضرام نيران الفتنة . . . ولا يفتكر أحد بنابوليون الثاني »

أجل انه لم يفتكر أحد بنابوليون الثاني ولم يهجس في ضمير أحد ان الكلمة المشهورة التي كانت تقال في عهد الملكية القديمة يمكن أن تقال في عهد الحكومة الامبراطورية أي ان يقال لـمالاي وأنصاره : « مات الامبراطور فليحي الامبراطور »

ومع ذلك ضمن الدستور السلطة السامية ونظام الوراثة ولكن ماهو مبلغ قيمة انظمة دستورية لم يقر عليها روح العصر ولم تتخذ صبغة سامية مقدسة على أن نابوليون يفاخر على غير جدوى بأنه أمهر وأقدر وأعظم مؤسس من مؤسسي الاسر المالكة فقد شعر بأن عمله زائل كالظل . وقد باح بالكلمات التي فاه بها بما تمثل في نفسه من المخاوف . وهل اعتقدوا انهم باذاعتهم نبأ موته يقضون على حكومته وأسرته وان ماشيده من السلطة يهوي معه . انهم وايم الحق لم يخطئوا في اعتقادهم هذا ولم يفتكر أحد بابنه . فهذا النسيان ساءه جداً وكان طعنة أصابت فؤاده . فلا ينبغي له أن يشدد النكير على كبار أصحاب المناصب وعظماء رجال الامبراطورية لذهولهم عن الاعتصام باهداب المبدأ

المبنية عليه عظمة ومستقبل أسرهم عينها . واذا هم لم يفتكروا بنابوليون الثاني فليس الذنب ذنبهم انما هو ذنب العصر المتسلط فيه الدهاء على جميعهم على غير معرفة منهم والمتراخية عرى ارتباطه بالاسر المالكة

والتفت نابوليون الى اشجع قواده وقال وهو يلمع الى حوادث باريس : « ياراب لا يأتي المصاب وحده فهذا تتمة ماهو جار هنا. ولا يمكنني ان اكون حاضراً في وقت واحد في كل مكان ولكنني لا أرى مندوحة عن العودة الى عاصمتي : ولا يمكنني الاستغناء عن وجودي فيها رجاء عودة الرأي العام الى الميل الي . وأنا محتاج الى الرجال والمال . فالظفر العظيم والنصر المبين يصلحان كل شيء » .

وكان لديه أمور كثيرة تحتاج الى الاصلاح فان النكبات كان بعضها آخذاً برقاب بعض وكانت النوازل تتوالى ساعة بعد ساعة . ولا يمكننا ان نسمي ارتجاع عساكر الفرنسويين تراجعاً بل انكساراً فظيعاً . . .



الفصل السادس والعشرون

الانطلاق من سمولنسك — موقف الجيش الهائل

معركة البرسينا — عودة الامبراطور الى باريس

ولم يستطع نابوليون إطالة المكث في سمولنسك فان جميع الجنود الاحتياطيين الذين أقامهم على الطريق لتأمين تراجعه وصيانته غيروا مواقفهم لاسباب لم تكن في الحسبان وان المؤن التي عول عليها نقصته أو نفدت بسرعة أو نهبت في أثناء الاضطراب وحاجة الجيش. وكانت في كل ساعة تنتهي اليه أنباء عما يصيبه من الخسارة الجديدة وعن الحوادث المحزنة: فتارة يخبرونه ان الفصيلة المسيرة على كالوغا دخلت سمولنسك بعد ما تركت في قبضة كوتوزوف قسما كبيراً من رجالها وتارة يقولون له ان أوجين خسر في عبوره نهر الووب ألفاً ومئتي جواد وستين مدفعاً وكل ما كان معه من المؤن والذخائر ودنا طشيطشاغوف منهم في أثناء تلك الملمات ولم يبق بينه وبين الجيش الفرنسوي سوى بضع مراحل. وكان عدوهم الألد أعني البرد قد أنزل الحرارة في المقياس المئوي الى عشرين درجة تحت الصفر.

وقلب كل شيء الآن ظهر المجن لنابوليون كما كان من قبل يفتر ثغر كل شيء له. وبقي لشجاعته الثابتة عضد واحد وهو شجاعة قواده وجنوده الراسخة وأظهر المقاتلون الفرنسويون في جميع المواقع انهم أحقاء بالشعب العظيم الموكل اليه وديعة مجده وجديرون بالرجل العظيم الذي شاطروه بوائقه كما شاطروه انتصاراته. ولم يسبق لهم أن يبدوا في وقت من أوقات الاقبال من الجرأة بمقدار ما أبدوه في هذه الاحوال. فان ولسن البريطاني أطلق اسم « معركة الجبابرة » على وقعة أضرمت نيرانها مؤخرتهم بقيادة المارشال ناي. فبعد هذه المعركة العظيمة تمكن أشجع الشجعان وقد أحاط به مئة ألف روسي من النجاة من الوقوع في أيديهم والانضمام الى الجيش الفرنسوي بعد اجتيازه بلاداً مجهولة وعبوره على الجمد في نهر البوريستين ولما علم نابوليون بوصوله وكان يظن انه

هلك صاح بفرح لا يوصف . « عنـدي في أقبية التويلري مئتا مليون من الفرنـكات وأفضل أن أعطيها فداء عن المارشال ناي » .

الا أن البسالة معينة الدهاء وان تكن قادرة على ابقاء المجد ملازما للاعلام الفرنسوية لم تستطع شيئا لمناوأة القدر المبتعد عنها شيئا فشيئا فقد خانها وبالغ في ارهاقها يوما بعد يوم . اجل أن الفرنسويين أصيبوا بشدائد هائلة تستوجب أن يرثي الناس لمن حلت بهم ولـكنها لم تكن شيئا مذكورا . على أن اسقاط رجل هائل كنابوليون يقتضي صدمة عنيفة عامة تحرش عليه المصالح والعواطف والعناصر ويقتضي أيضا تألب الارض والسماء عليـه تألبا تبدو نتائجه بحادث عظيم . وقد جرى هذا الحادث وسيذكر تفصيله ذلك الذي أصابه الدمار من جرائه . واذا كان العاهل يشعر بضربات الحدثان تسقط عليه وعلى ذويه وعلى فرنسا بنوع خاص فانه لايزال متسلطا على الرزايا بحيث انه يستطيع ان يلاقيها غير وكل ولاهش العود ويتكلم عنها باذعان سـام لاينفي الامل . على أن رقم النشرة المذكورة فيها روايته المحزنة المحفوظة بين تقاليد الشعوب لايكفي للدلالة بكلمة واحدة على عهد وجسامة نكبات الجيش ويدل عن بعد على أول سقوط أصابه ذلك القائد الـكبير :

النشرة التاسعة والعشرون

« وظلت حالة الجو لطيفة حتى اليوم السادس من شهر سبتمبر وتمت حركات الجيش على غاية مايرام . وابتدأ البرد في ٧ منه وصرنا من ذلك الحين نفقد في كل ليلة بضع مئات من الخيل تموت في معرسنا ولما وصلنا الى سمولنسك كنا قد فقدنا عدداً كبير من خيل الفرسان والمدفعية .

وعارض جيش فلهينيا الروسي ميمنتنا فبرحت هذه الميمنة خط الحركات الحربية في منسـك واتخذت خط فرسوفيا محوراً لأعمالها . وفي ٩ منه علم العاهل وهو في سمولنسك ما كان من تغيير خط الاعمال وخمن ما يجريه العدو

ومهما ظهر له من صعوبة التحرك في مثل حالة الجو الشديدة فقد رأى ان الحالة الجديدة تقتضي ذلك . فأمل البلوغ قبل العدو الى منسك أو على الاقل الى البرسينا . فانطلق في ١٣ منه من سمولنسك وبات في ١٦ منه في كراسنوم

على أن البرد الذي ابتـدأ في ٧ منه ازداد فجأة وقد بلغت الحرارة في المقياس المئوي من ١٤ الى ١٦ منه ست عشرة درجة الى ثماني عشرة درجة تحت الصفر . وغشى الجمد الطرقات وهلكت خيل الفرسان المدفعية الوفا الوفا في كل ليلة ولا سيما الخيل الفرنسوية والالمانية : وبلغ ثلاثين ألفاً ونيفاً عدد الخيل التي نفقت في بضعة أيام فأصبح معظم فرساننا مشاة ولم يبق لدينا خيل تكفي لجر مدفعيتنا وأثقالنا : ولم يكن لنا بد حينئذ من ترك أو اتلاف قسم كبير من مدافعنا وذخائرنا الحربية ومؤونتنا .

على أن الجيش الذي كان في ٦ منه جيشاً لجباً أصبح في ١٤ منه متغيراً كل التغير عما كان عليه من قبل فكاد يخلو من الفرسان والمدفعية والاثقال . ولم نستطع بدون فرسان أن نستطلع طلع أعـدائنا على مسافة ربع فرسخ وبدون مدفعية أن نباشر حركة أو نثبت في مواقفنا . ومع ذلك أجبرنا على المسير لئلا نجبر على مباشرة معركة يدعونا نقص الذخائر الى تجنبها . وقضت الحال علينا بأن نحتل مساحة واسعة لئلا يحيط بنا العدو وليس عندنا فرسان تستطلع طلعه وتتولى المواصلات بين فيالقنا . وقد صيرت هذه المصاعب موقفنا شاقا مع البرد القـارس الطارىء فجأة وخشعت أبصار الرجال الذين لم تمنحهم الطبيعة صلابة كافية تجعلهم فوق أهواء الاقدار وزايلتهم بهجتهم وولت سلاسة طباعهم وأصبحوا وهم لا يرون أمامهم الا البلايا والخطوب. أما الذين أوجدتهم الطبيعة اسمى من سواهم فانهم حفظوا بهجتهم وعاداتهم المألوفة ورأوا أمامهم مجداً جديداً في تغلبهم على الشدائد المتوالية عليهم

وكان العدو الناظر الى هذه النوازل الملمة بالجيش الفرنسوي في أثناء سيره يسعى للاستفادة منها فجعل القوزاق يطوقون فيالقنـا ويختطفون على مثـال الاعراب في البادية القطرات والمركبات الجانحة عن قصد السبيل . وأصبح أولئك الفرسان المحتقرون والمقرقعون والعاجزون عن مناهضة رجالنا يقذفون الذعر أمامهم مغتنمين الفرصة من الحال التي صرنا اليها ولكن ندم أولئك الاعداء على تحرشهم بنا لان البرنس أوجين ارتد عليهم وأهلك منهم خلقاً كثيراً .

ونسف الدوق دلشنجن (تاي) اسوار سمولنسك وكان يؤلف المؤخرة بالثلاثة الآلاف رجلا الذين معه فأحاطوا به وجعلوا موقفه مستهدفا لنبال العطب ولكنه تمكن من التخلص من موقفه الحرج بما أوتيه من الجرأة الممتاز هو بها . وبعد ما أكره العدو على البقاء بعيداً عنه سحابة اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر وواظب على دحره قام في الليل بحركة بكشحه الايمن وعبر البوريستين معاكسا تدابير أعدائه . وعبر الجيش البوريستين في ١٩ منه عند أرزا بعد ما رزح الجيش الروسي تحت أعباء التعب وفقد عدداً وفيراً من رجاله فعدل عن التمرس بالفرنسويين .

وزحف جيش فلهيدنيا في اليوم السادس عشر من سبتمبر الى منسك ومنها الى بوريسوف فدافع الجنرال دمبرسكي بثلاثة آلاف رجل عن رأس جسر بوريسوف واضطر في ٢٣ منه الى إخلاء الموقع عنوة فعبر العدو حينئذ البرسينا زاحفاً الى بوبر وفرقة لمبر تؤلف المقدمة . وكان الفيلق الثاني في تشيرين يقوده الدوق دي ريجيو فانتهى اليه أمر بالزحف الى بوريسوف ليضمن للجيش عبور البرسينا . ولقي الدوق دي ريجيو في ٢٤ منه فرقة لمبر على بعد أربعة فراسخ عن بوريسوف فاغار عليها وقهرها واسر منها الفي مقاتل وغنم منها ستة مدافع وخمس مئة مركبة شحن من مركبات جيش فلهيدنيا ورد العدو الى ضفة البرسينا اليمنى . واشتهر في هذه الموقعة الجنرال بركيم بفرقته الرابعة من فرق المدرعين. ولم ينج العدو الا باحراقه الجسر البالغ طوله أكثر من ست مئة متر .

واحتل العدو جميع معابر البرسينا . ويبلغ عرض هذا النهر نحو ثمانين متراً وهو يجرف كثيراً من الجمد . وعلى ضفافه مستنقعات طولها نحو ست مئة متر تصير الدنو من النهر في غاية الصعوبة .

وأقام قائد العدو فرقه الاربع عند منافذ النهر متوهما ان الجيش الفرنسوي يمر بها .

وزحف الامبراطور الى قرية ستدزيانكا في ٢٦ منه عند افراط الصباح بعد ما خادع العدو بحركات مختلفة في اليوم الخامس والعشرين منه . ومد جسرين في الحال على النهر أمام فرقة من العدو لم يكترث لها . فعبر الدوق دي ريجيو وهجم على العدو وظل يتعقبه ساعتين فتقهقر العدو الى رأس جسر بوريزوف

وجرح الجنرال لفران جرحا بالغا بيد انه غير مميت . وهذا الجنرال من المعروفين بقوة البـأس وشدة المراس . وظل الجيش يعبر يومي ٢٦ و ٢٧ بكاملهما .

وصدر الامر الى الدوق دي بلون قائد الفيلق التاسع باتباع حركات الدوق دي ريجيو وتأليفه المؤخرة والوقوف في وجه جيش دوينا الروسي السائر وراءه وكانت فرقة برتونو تؤلف مؤخرة هذا الفيلق ووصل الدوق دي بلون بفرقتين الى جسر ستدزيانكا في ٢٧ منه عند الظهر .

ولما دخل الليل انطلقت فرقة برتونو من بوريزوف وفي الساعة السابعة مساء زحفت فصيلة من الفرقة المؤلفة المؤخرة وقد عهد اليها في احراق الجسورة : فوصلت بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة وجعلت تبحث عن الفصيلة الاولى وعن قائدها وكانا قد ذهبا قبلها بساعتين فلم تبصرها على الطريق فذهب البحث عنهما باطلا فاضطربت الافكار حينئذ من جراء ذلك الامر . وكل ما عرف عنها فيما بعد انها بعد ما انطلقت في الساعة الخامسة ضلت عن الطريق في الساعة السادسة فسارت الى جهة اليمين بدلا من جهة اليسار وقطعت نحو ثلاثة فراسخ في تلك الجهة . وانضمت الى الاعداء في الليل وقد بلغ منها البرد وهي تظنهم من الجيش الفرنسوي : فأسروها بعد ما أحاطوا بها . وفقدنا بهذا الانخداع المؤلم الفي رجل من المشاة وثلاثمئة جواد وثلاث بطاريات . ويقال ان قائد الفرقة لم يكن معها بل كان يسير منفردا عنها .

وعبر جميع الجيش النهر في ٢٨ منه وكان الدوق دي بلون محافظا على رأس الجسر عند الضفة اليسرى وعلى الضفة اليمنى الدوق دي ريجيو وجميع الجيش .

ولما أخليت بوريزوف تم الاتصال بين جيشي الدوينا وفاهينيا فدبرا الهجوم على الفرنسويين وأنبأ الدوق دي ريجيو الامبراطور عند بزوغ فجر ٢٨ منه ان الاعداء يهاجمونه . وهوجم الدوق دي بلون بعد نصف ساعة على الضفة اليسرى فحينئذ تقلد الجيش السلاح . فزحف الدوق دلشنجن وراء الدوق دي ريجيو والدوق دي تريفيز وراء الدوق دلشنجن . وحمي وطيس القتال فاراد العدو أن يحيط بميمنتنا الا ان الجنرال دومرك قائد فرقة المدرعين الخامسة وهو من الفيلق الثاني الباقي على الدوينا أمر فرسان فرقتي المدرعين الرابعة والخامسة

بالهجوم حين كانت فرقة الفستول تتوغل في الاحراج لتخرق وسط العدو المنكسر والمهزوم . وخرق هؤلاء المدرعون والشجعان ستة مربعات من المشاة على التوالي وهزموا فرسان العدو القادمين لنجدة مشاتهم. فسقط في أيدينا ستة آلاف أسير ورايتان وستة مدافع

وهجم الدوق دي بلون على العدو هجوما شديداً فكسره وأسر منه نحو ست مئة مقاتل واضطره الى البقاء بعيداً عن الجسر رمية مدفع وهجم أيضاً الجنرال فورنيه بفرسانه هجمات صادقة

وأصيب جيش فلهينيا بخسارة فادحة في معركة البرسينا. وجرح الدوق دي ريجيو جرحاً غير خطر فان رصاصة أصابته في كشحه

ولما كان من الغد في ٢٩ منه بقينا في ساحة القتال ولم نلق لنا بداً من اختيار طريق من طريقين وهما طريق منسك وطريق فيلنا : فطريق منسك تمر في وسط حرجة ومستنقعات غير مزروعة ويتعذر على الجيش وجود شيء فيها يغتذي به وطريق فيلنا تمر في بلاد جميلة للغاية . وكان الجيش مضطراً الى الوصول الى مخازنه بعد مافقد فرسانه وقلت مؤنه واشتدت عليه وطأة التعب بعد مسير خمسين يوماً وهو يجر وراءه مرضاه وجرحاه .

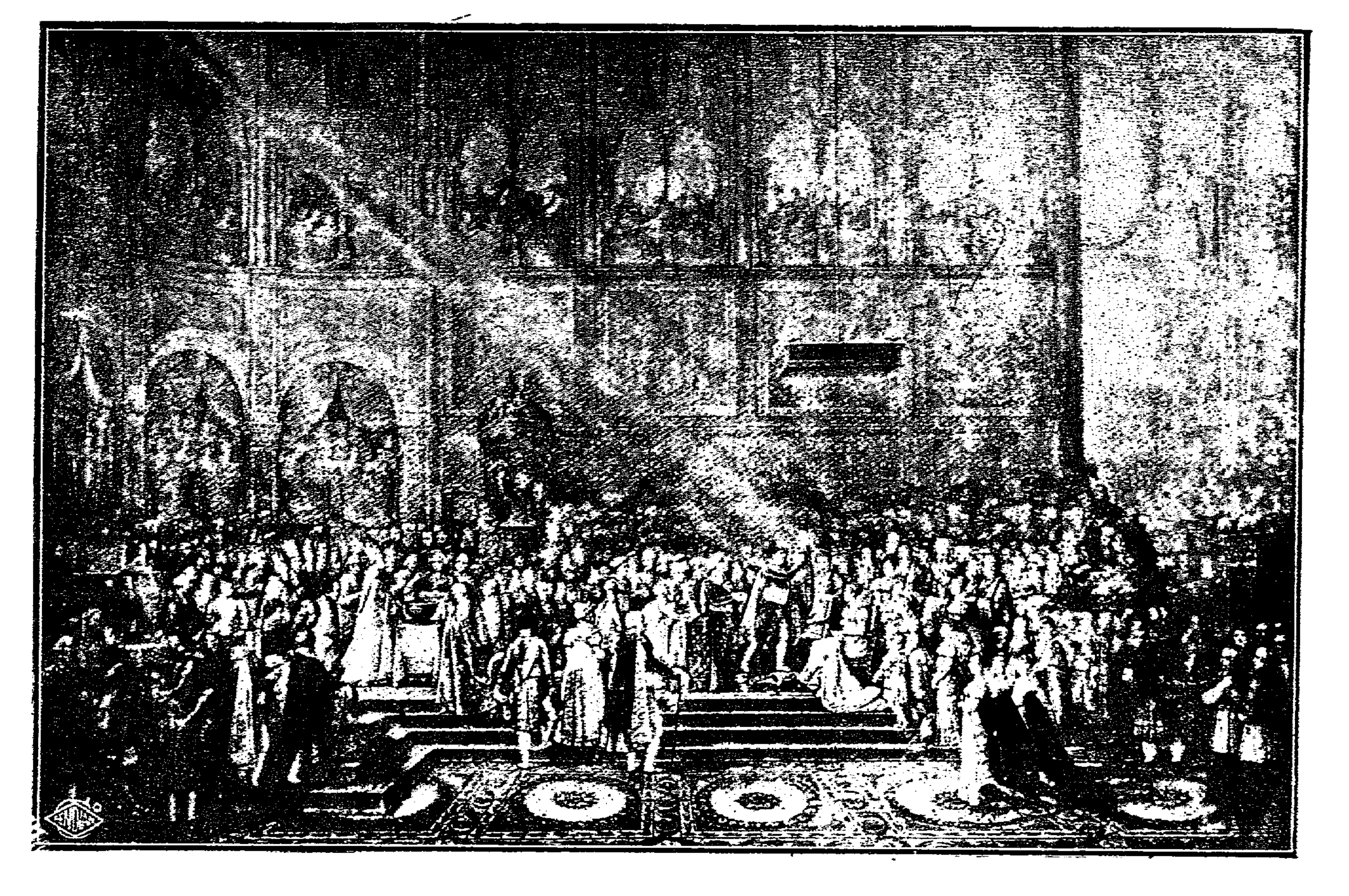
وجعلوا محل أركان الحرب في ٣٠ منه في بلخنتزي وفي سلايكي في أول دسمبر وفي مولود تشينو في ٣ منه حيث وصل الى الجيش الارساليات الاولى الآتية من فيلنا .

ووجه الى فيلنا جميع الضباط والجنود الجرحى وكل ما كان يعوق الحركات كالامتعة وما شاكل ذلك

على ان القول ان الجيش محتاج الى استعادة النظام ولم شعثه وجمع شمل فرسانه واصلاح ماطرأ على مدفعيته وأدواته من الفساد يعتبر نتيجة ماتقدم بسطه . فالراحة كانت أول أمر يحتاج اليه

وكان الامبراطور في أثناء جميع هذه الحركات يسير دائما بين حرسه والمارشال الدوق دستري يقود الفرسان والدوق دي دنتزيك يقود المشاة . . .

وتضعضعت أحوال فرساننا بحيث انهم لم يلقوا لهم بداً من جمع الضباط الباقي للواحد منهم جواد والفوا من هذه الجياد أربع كوكبات في كل منها مئة



حفلة عماد ملك رومية ولى عهد الامبراطورية الفرنسوية

وخمسون فارساً. وكان القواد الكبار يشغلون فيها منصب قواد المئة والكولونلون منصب الضباط فهذه الكوكبات المقدسة المتولي قيادتها الجنرال غروشي بامرة ملك نابولي لم تغفل طرفة عين عن حركات الامبراطور

ولم يسبق لصحة الامبراطور ان تكون على مثل ما كانت عليه من الجودة »

وكان أشخاص معتسفون عن محجة العدل قد جعلوا لسانهم مبرداً على نابوليون لذكره العبارة الاخيرة في النشرة المار بيانها معتبرين ذلك الامر اهانة لاحزان أسر عديدة كانت تلك النشرة تملأها مخاوف وتجعلها نكبات الجيوش الفرنسوية ترتدي بملابس الحداد

فهل ينبغي له أن يذيل النشرة بعبارة تزيد القلق في جميع أنحاء سلطنته ممهداً السبيل في وجه المرجفين لتجديد الاشاعة الخالية من الصحة التي يخشى من ورائها ان يزعزع ثلاثة من العيارين دعائم عرشه ؟ أو لم يخاطب فرنسا بكلام التعزية والامل حين قال لها بعد ما بسط لها بيان خسارته ان الاقدار والبرد مع تألبهما عليه أبقيا على ذلك الرجل العظيم الذي جرت فرنسا على يده مطارف المجد أيام هادنتها الاحداث والذي أصبحت حياته أثمن ودهاؤه أعز لتتمكن من قضاء أيام الشؤم والبؤس

وما السبب الداعي نابوليون الى التخوف من بسطه لفرنسا ولاوربا طرّاً الشدائد الحالة به ؟ ولماذا يشعر بتحاقر من جراء اقراره بما أصابه من الرزايا ؟ فلم يكن لقلبه ورأسه علاقة بشيء من ذلك ولم يخذلاه في أحرج الاحوال . فالاجانب والروس أنفسهم شهدوا له بذلك ولما حصر في ظولوزيا في بقعة من الارض لا تزيد مساحتها على خمسة عشر فرسخاً بين كوتوزوف وتجنستين وطشيطشاغوف وأحاط به ثلاثة فيالق مؤلفة من مئة وخمسين الفاً من المقاتلة ولم يبصر حوله إلا وجوهاً باسرة ولم يسمع إلا تذمراً مقروناً بالجبن مما يدل على يأس النفوس وقد عهدها شديدة الصريمة عند نزول النوازل وإلمام الملمات ظل محافظا على ثبات جنانه ورباطة جأشه وجديراً بالشعب العظيم وبنفسه بحيث أن جنوده قالوا : « انه يستطيع أن يخلصنا من الورطة التي نشبنا فيها » .
وقد اضطر أعداؤه أنفسهم أن ينصفوه فقال بوطرلان : « لم تضعف عزائم القائد العظيم في الموقف الحرج الذي قلما وجد انسان في مثله فانه لم يدع فوادح

الخطب تبلغ منه بل اجترأ على مقايستها بعين دهائه وتمكن من استنباط وسائل يستعين بهـا على النجاة من ذلك المأزق في أحوال لا يستطيع قائد أقل جرأة ومهارة منه أن يتصور امكان استنباطها » .

ولـكن هل للدهاء قبـل بمناهضة العناصر ؟ فان نابوليون لم ينج بفضـل شجاعته وشـدة صريمته من القواد الروس إلا ليشاهد جيشه يخر صريعاً أمام نفحات الزمهرير وقد اشـتدت وطأته بعـد إرساله النشرة التاسعة والعشرين الآنفة الذكر. وقال شاهد عياني انالبد كانت تتجمد على الحديد والدموع تجمد على الخدود . وصارت تلك الـكتائب الرجراجة التي ارتعدت أوصال أوربا منها مدة طويلة الى حال يدمى لهـا الفؤاد . وقال الدكتور لاري . « رزحنا جميعنا تحت أوقارالقنوط والفشل بحيث تعذر على الواحد منا معرفة رفيقه : فـكانوا يسـيرون وكأن على رؤوسهم الطير . . . وقد ضعفت الابصار والقوى العضلية بحيث صعب عليهم استطراد المسير مع المحافظة على الموازنة ... وكان رائدالموت اصفرار الوجوه والبله وصعوبة النطق وضعف البصر »

فهل قضي على نابوليون أن يظل مقيما بين بقايا جيشـه المظيم وأن يعرض لمثل تلك البلايا الذهن والذراع المستندة اليهما فرنسا. ان مثل هذا الامر لم يجسر أحد على افتراضه أو المجاهرة به . وبعـد إرساله النشرة المشؤومة بيومين جمع قواده الـكبار في مركز أركان حربه بمرغوني وأخبرهم انه عازم على مغادرتهم والشخوص بأسرع مايمكن الى عاصمته حيث تقتضي الحوادث الخطيرة وجوده فقال لهم : « أفارقكم ولـكن لاعود اليكم بثلاث مئة الف محارب . ولا بد لنا من اتخاذ التدابير اللازمة لمباشرة حرب ثانية فاننا لم نتمكن من انجاز الحرب الاولى ومع ذلك بأي شيء تتعلق هـذه الحال . . . فانتم لا تخفى عليكم حقيقة مصائبنا وتفاهة مافعله الروس للاضرار بنا . ويمكنهم أن يرددوا ماقاله رجال تمستوكل الاثينيون :

« ولولم نهلك فقدكان مقضيا علينا بالهلاك . » وأما قاهرنا الوحيد فهوالبرد فانشدة وطأته التي أقبلت قبل ميعادها خدعت الاهلين انفسهم وعضدهاتراجع شوارتزنبرغ. وعليه وجدنا أنفسنا في الموضع الذي ابتدأنا فيه أعمالنا على أثر جرأةشخص أضرم النار وشتاء لم يسبق لهمثيل ودسائس مقرونة باللؤم ومطامع

مبنية على الحماقة وبضع هفوات وخيانة على الارجح . وهل سبق لاحد أن رأى مثل هذه المعاكسات غير المنتظرة تفسد التدابير الصائبة؟ على أن حرب روسيا ستكون أعظم وأصعب وأشرف حرب يذكرها التاريخ الحديث .»

وأخذ العاهل طريق باريس في اليوم عينه (٥ دسمبر) ملقياً مقاليد القيادة العامة الى ملك نابولي وسافر في مزلجة باسم الدوق دي فيسنس أحد رفاقه ولما مر بفيلنا حادث الدوق دي باصانو بضع ساعات وحادث الكونت بوطوكي في فرسوفيا وتفقد حصون براغا. ووصل الى درسد في ١٤ دسمبر في جوف الليل . وبعد محاورة طويلة مع ملك الساكس حليفه الامين الجليل استأنف المسير الى باريس فوصل اليها في ١٨ منه .

(* * *)

الفصل السابع والعشرون

تأمل في نتيجة حملة روسيا الجارة المصائب — تهنئة مجالس الحكومة الكبرى لنابوليون — تعبئة جيش قوامه ثلاث مئة وخمسون الفا — خيانة الجنرال ديورك البروسياني — ترك مورات الجيش — افتتاح المجلس الاشتراعي

وخابت آمال نابوليون في موسكو فانه بنصبه أعلامه فوق قصر الكرملين علل النفس باصابته صلحاً مجيداً ثابتاً ونهاية حملاته الحربية وتمكين دعائم سياسته وسطوته. وقد قال فيما بعد :«فعلت ذلك رغبة بتأييد المبدإ العظيم وبلوغ نهاية أهواء الاقدار وبداءة توطيد الامن . وكان ينتظر حدوث أمور جديدة تتعلق بهاسعادة الجميع ورفاهيتهم فان الطريقة الاوربية بنيت على الأسس الموضوعة لها ولم يبق الا تنظيمها . . . ولو كنت راضيا عن هذه الامور العظيمة وناعم البال في كل مكان لعقدت مؤتمرا وأبرمت أسباب محالفة مقدسة : هذه أفكار سرقوها مني. ففي الاجتماع المحتشد فيه جميع الملوك يمكننا أن ندبر شؤوننا

تدبيرا عائليا وتتصرف مع الشعوب تصرف العبد مع مولاه . . . فقد أصبنا مبدأ العصر وتمت الثورة ولم يبق الا التوفيق بينها وبين مالم تكن بعد قد أتلفته . فهذا العمل يخصني وقد هيأته من زمان طويل وربما ضحيت في سبيله بميل الشعب الي. فلا بأس من ذلك فاني صرت تابوت العهد العتيق والعهد الجديد والوسيط الطبيعي بين النظام القديم والنظام الحديث . وسرت بموجب مبادئ الواحد واستملت الي ثقته بي واتحدت بالآخر وخصصت الفريقين وأمكنني أن أكون حصة أحدهما . »

لماذا أبت العناية أن تساعد على اجراء مثل هذه الخطة الجليلة ؟ ولماذا احتفرت وهدة في الموضع الذي عينه نابوليون غاية لجميع مساعيه ولانتصار عصره ولتتميم أعمال الثورة؟ ولماذا كانت النكبة الجسيمة جزاء على الغرض الكبير وفي مقابل النتيجة الكبرى ؟

وقال المسيو دي ميستر : « ان الذين كتبوا التاريخ أوصرفوا اليه جل عنايتهم قضوا العجب العجاب من القوة السرية العابثة بمشورات البشر وآرائهم . »

واذا صح ماقاله نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة من أن المدنية والهمجية ستفرغان في وقت قريب من عراكهما واننا سنسير مع واحدة منهما تنتصر على الاخرى انتصارا تاما تحقق لنا أيضا أن مبدأ العصر لايتسنى له أن يظفر بظفراً كاملا تقديس طريقة متوسطة تجعل كلا من اوربا القديمة والحديثة تعيشان عيشة مختلطة مع محافظتهما على شكل احداهما القديم وأنظمتها الارسطقراطية وأسرها القديمة من بعض الوجوه وبايصالها الى الاخرى أفكارها الجديدة وأميالها الحرة ومبادئها الديمقراطية .

على أن الثورة وطريقة الاحكام القديمة حفظتا اختلافهما الاصلية وتنافرهما المضمر تحت ظواهر الاعتدال بحسب مقتضيات الاحوال. وهب كان تقرب بينهما فان هذا التقرب سطحي ووقتي. ولما عالج نابوليون التوفيق بينهما وقرن الواحدة منهما بالاخرى مع ما بينهما من التنافر المطلق لم يباشر الا أمراً يراد به الانتقال من حالة الى أخرى انتقالا جوهريا وكان سعيه هذا سببا لفقدانه تعلق الناس به فمن الجهة الواحدة حملت الهيئة الاجتماعية القديمة الضغينة والنفور والحذر من الرجل الحاصل على مبادىء الهيئة الاجتماعية الجديدة وثقتها به ومن الجهة الاخرى

ظلت الهيئة الاجتماعية الجديدة مصرة على دعواها وقد حملت على الخوف من عدم تمكن مبادئها من ارسال وشا ئجها كل مذهب في فؤاد الرجل العامل على الاتحاد بالهيئة الاجتماعية القديمة .

ان نابوليون في تمهده دور الانتقال النهائي من النظام القديم الى النظام الجديد وفي سعيه وراء عقد محالفة مقدسة بين الملوك على مثال ما فعله على التقريب اعداؤه فيما بعد على انقاض سطوته وليس وراء عقد محالفة مقدسة بين الشعوب على ما أنشده براجه في اشعاره المبثوثة فيها روح النبوة وفي انبرائه للتوسط بين القرون المتوسطة والقرن التاسع عشر لم يمثل والحق يقال الدور الذي اختصته به العناية وهو دور يراد به نشر المبادىء الحديثة لتعزيز المستقبل وليس دور حكم المحكمين الخالين من التغرض لمداراة الماضي . وانه بهذا التصور الذي سهل عليه أن يستميل به دهاءه وضع هذه الآية : « ماوراءه زيادة لمستزيد » لروح الاصلاح وان لم تكن الاعمال الناشئة عنه قد تمت بعد . وان كلمة الديمقراطية الفرنسوية سواء كانت ميالة الى المصالحة والنظام أو محتاجة الى الدعة والثبات صبحت واقفة في مركزها وقد تبادر الى الذهن أن تصور السياسة الحديثة والغرض الذي توخاه بطل الازمنة المتأخرة يرميان الى حصر التيار الثوري بيد قوية في المجرى الضيق و بين الحواجز المهدومة حيث لم تستطع يد أوربا القديمة الضعيفة أن تحصره على أنه كيف كان الامر من تحسن الغاية المقصودة من وراء هـذا السعي فانها تعتبره نفياجريئا للتحسين اللاحق والاساسي الذي يحق لاوربا الحديثة ان تأمل ادراكه من وراء تنظيم شؤونها السياسية . فقد كان السعي للتوفيق بين الثورة وما لم تتلفه بعد وبقايا الملكية والارسطقراطية الاوربية المهددة عبارة عن توقيف نماء التجديد العام . وكان ذلك ايضا ابقاء الطريقة القديمة على قاعدة تضع حدا نهائياً لليسر الاجتماعي وكما أن العناية وعـدت الشعوب بتحرر حر اوسع وأرصن من التحرر الذي تمن به عليها محالفة الملوك المقدسة دبرت العناية أيضا كل شيء لاجل اتمام مواعيدها .

وألقت العناية الباب العالي بين يدي بريطانيا العظمى وسلطت ارادتها عليه وأغوت برنادوت في مؤتمر ابو ونفخت في صدر البعض روح الـكبرياء وفي صدر البعض الآخر روح الـكسل والحسد وحلت شوارتزنبرغ على التباطؤ

في زحفه وجعلت جونو يشمل بخمرة الظفر في فالوتينا ووضعت المشعل في يد رستبشين وجعلت الاسكندر يصم أذنيه عن سماع المقترحات السلمية واستمالت نابوليون الى اعتبار مخاوف قواده وزعزعت في نفس هذا البطل الداهية ماله من الثقة الراسخة بذاته وحدت فاتح موسكو على المكث في قصر الكرملين ثلاثة ايام واطلقت عليه قبل الاجل المعين عقال الزمهرير في شتاء من أشد فصول الشتاء برداً ووارت في الثلج افضل جيش في العالم واستبدلت بالحماسة والاعجاب فشلا وشكوى ونشرت في كل مكان نسيان ما اتاه ذلك الرجل العظيم من المعجزات وما جاد به من النعم وادخلت نكران الجميل قصور الملوك الخلفاء الذين ذاد عن ذمارهم وقصور الأنسباء الذين وضع التيجان على مفارقهم وهاجت عليه العالمين اللذين زعم انه الوسيط الطبيعي بينهما وأهابت في وقت واحد بالشعوب على العصيان والملوك على الخيانة

وكان ثمة مشهد هائل رسمته العناية بضمها جميع الحوادث وإطلاقها عقال جميع العواطف . ولما لم تعرض لها صدف وكانت قد استدركت كل شيء ودبرته لاجل إتمام اغراضها لم يتمثل لها والحالة هذه ادنى اضطراب لأن يدها القوية اخضعته للقانون والجأته الى العمل لادراك الضالة المنشودة

ان الملوك أوشكوا ان يخونوا والشعوب ان تثور ودونكم ما كتبه بنيامين كنستان في هذا الصدد : « مادامت الايام مهادنة لنابوليون لم تكن بغضاء الشعوب المضمرة معتبرة شيئا مذكوراً ولكن حين تغير عليه الدهر وقلبت له الاقدار ظهر المجن انفجر بركان البغضاء انفجاراً شديداً وكان الشتاء بين سنتي ١٨١٢ و ١٨١٣ ضربة شديدة الوطأة على الجيش الفرنسوي اهلكت السواد الاعظم منه . وقد ابصرت بولونيا وبروسيا وبافاريا والرين نابوليون هارباً يؤم فرنسا وهو لا يلوي على شي . . . وارتفعت اصوات الشعوب المقيمة بين الفستول والرين فاصمت الملوك آذانها حينا من الزمان عن سماع هذه الاصوات الا أن الجيوش المأخوذة أفرادها من الشعب مالات الشعوب على أميالها وأمانيها وجاهرت بطلب تحرير أبناء وطنها فغلب التيار الشعبي مقاومة الملوك واضطرت الرعية مواليها الى استعادة حريتها . »

على أن هذا الكاتب الشهير لم يؤد الشهادة لاولئك الشعوب عن شدة

حرصها على وطنيتها من دون أن يزعم أن ملوكهم حافظوا على موالاتهم لنابوليون بمعارضتهم أميال شعوبهم بيد أن معارضتهم لم تكن جدية وكانت غير منطبقة على أفكارهم الخاصة . ويستنتج من كلامه : « إن حلفاء سيد العالم الاكبر خدموه خدمة صادقة وحين تباهوا بأنهم خانوه كان عملهم هذا نوعاً من التبجح باتيانهم الغدر . »

ولا يعتمد التاريخ على هذا الرأي فان الملوك لم يخدموا نابوليون الا مدفوعين على رغم منهم باحكام الضرورة : فلم يصفحوا عن أصل سلطته ولا عما جره اليهم من الذل وساقه اليهم من المخاطر . ولم تصدر قط محالفتهم له عن صدق واخلاص : ولم يخفت وقتاً صوت بغضهم المكتوم والدائم الا على أثر ما أصابه من السؤدد والبأس . أما الشعوب فانها كانت صادقة في اعجابها بدهاء ذلك الرجل المتسلط على فرنسا ولما عرضت لهم أسباب الشكوى منه لم يعمدوا الى نصب الاشراك السياسية له ولم يخونوه بمفاوضات سرية أو باعمال حربية كاذبة بل قاتلوه جهاراً في ميادين الوغى

لقد قضي الامر وحرشت العناية الشعوب على نابوليون لانه صار من الآن ينظر الى المصالح الشعبية بمقلة زعيم الاسرة المالكة وليس بمقلة الحاكم الاول لبلاد حرة . واسمعوا ماجاوب به وفدي مجلس الشيوخ ومجلس الشورى الموفدين لتهنئته بعوده سالماً من روسيا فانه لم يسترشد بروح العصر لتثبيت دعائم الوراثة في أسرته ولم يستشر روح المستقبل لكبت أصحاب الاحزاب المريدين سوءاً بعرشه بل وجه أنظاره الى الماضي وذكر أعضاء مجلس الشيوخ بالتقاليد السرية المأثورة عن طريقة الحكم القديمة ليجعل للحكومة التي يريد أن يعطي فرنسا اياها صفة فارقة وقال لهم وهو يلمح الى نسيانهم ابنه في أثناء الدسيسة التي دبرها مالاي : « كان آباؤنا ينضمون تحت لواء واحد عند سماعهم هذه الكلمة : مات الملك فليحي الملك ! وهذه الكلمات القليلة تتضمن أفضلية طريقة الحكومة الملكية . » وأسهب في ايضاح فكره لمستشاري حكومته فانتقد طريقة حزب الاحرار مطلقاً عليها اسم طريقة الفكريين وانتقد أيضاً طريقة الباحثين في علم المعقولات الرامين بعملهم الى هدم الانظمة القديمة في فرنسا

واتهمهم بأنهم علة لجميع بلايا بلادهم : واستشهد بالقرن الثامن عشر قائلا لهم : « يجب أن يعزى ماحل من النكبات بفرنسا الى طريقة الفكريين الى طريقة الباحثين في علم المعقولات المبهمة التي يراد مع الاستعانة بها للبحث بحذق عن الاسباب الاولى أن تبنى على قواعدها شرائع الامم بدلا من أن تطبق الشرائع على معرفة القلب البشري ودروس التاريخ . وهذه الاضاليل من شأنها أن تعيد حكم أبناء الاسر القديمة . فمن ياترى أعلن مبدأ الثورة كواجب يقضى عليه القيام به ؟ ومن تملق الشعب با نتدا به اياه لمزاولة سيادة لايقدر على مزاولتها؟.. »

وأطال العاهل بمثل هذا الكلام لسان العتاب على الاعمال التي فعلوها لتحويل ميل الشعب عنه ولا جرم أن هذه الاعمال لا يبقى لها من أثر في التاريخ في جنب السطور القليلة المذكورة فيها هفوات ذلك الرجل العظيم بازاء الصفحات الكثيرة المتضمنة ذكر عجائب ومحاسن ملكه وحياته وستستحق هذه الصفحات من دون سواها أن يقرأها الشعب في الاجيال التالية. الا أن الجيل الحاضر لا يتيسر له أن يبرز أحكامه وهو مستهدف لنبال النكبات . فان تأثيره الحالي يفوق تعلقه به بالامس ولايدعه يفتكر أنه سيعود في الغد الى الاعجاب بذلك الرجل العجيب ويقاسي هذا الجيل من طول مدة الحرب أشكالا وألوانا وهو يسمع الناس من كل ناحية يقولون له ان علة الحرب هو ذلك الفاتح المشيد صرح سيادته والمبتغي توطيد أركانها في أوربا قاطبة على ما يناله من المجد على اكتاف جنوده . وان الشعب الذي لم يكن في سنة ١٨١٣ يعرف سر الوزارات لا يدري ان نابوليون لم يكن متعديا في جميع الحروب التي باشرها ولم يجعلوه يعلم أن الارسطقراطية البريطانية وحزب الملكية في القارة يصران على تذليل ممثل الثورة الفرنسوية الكبرى في شخص العاهل نابوليون . على أن الدول المتألبات عليه سيقلن له بعكس ذلك انهن انما يهاجمنه طمعاً بانقاذ الشعوب من شره وانهن لم يعمدن الا الى كبت الاستبداد الثقيل الوطأة على أوربا وهن سيجاهرن بأنهن معتصمات بحبل الحرية رجاء أن يستملن الشعوب اليهن . أما نابوليون فانه بدلا من أن ينبه الشعب الفرنسوي مشعراً اياه بأن أعداءه يتمرسون به لهدم المبدإ الديمقراطي وملاشاة ميراث الثورة يتهم الملوك في مجلس الشيوخ بنكران الجميل مذكراً اياهم بأنه أنقذهم من تيار الثورة الجارف وأخمد البركان الذي كان يتوعدهم بالحريق .



مارى لويز وملك رومية

الا أن وقت المجاهرة بالعداوة لم يكن قد دنا في القارة للدول العظمى اللواتي جرهن نابوليون معه الى الديار الروسية فالجيش الفرنسوي لايزال مخيما في جميع أنحاء المانيا

ولما عاد نابوليون من روسيا أبدى استياءه من تصرف بعض أرباب الخطط في سلطنته على أثر ما أجراه مالاي من التهجم على سلطته وذكر في جوابه لمجلسي الشيوخ والشورى انه مقضي على الحاكم بان يستمد دائما لبذل مهجته على مثال هارلي ومولاي في سبيل الدفاع عن العاهل والعرش والشريعة

وقال فيما بعد : « عند وصولي جعل كل انسان يخبرني ببساطة وتفصيل كل ما يتعلق به مما يلقيه تحت طائلة التبعة . واعترفوا بانهم فوجئوا وانهم اعتقدوا بموتي... فقلت لهم: أو لم يبق عندكم ملك رومية ؟ فماذا فعلتم بأقسامكم ومبادئكم ومذاهبكم ؟ وانكم والحق يقال تجهلون فرائص ترتعد خوفاً على المستقبل... وأردت حينئذ أن أريهم عبرة أنبه بها الافكار من غفلتها واجعلها تسير على مشكاة الهدى . فكان فروشو حاكم باريس غرضاً أصابته سهام هذه العبرة وهو من المتعلقين بي كل التعلق » .

وبعد ما فصل فروشو من منصبه ووثب كبار رجال الامبراطورية على عملهم وفرغت مجالس الحكومة الكبرى من تأدية اتاوة التهانيء فكر العاهل في اتخاذ التدابير المعجلة الداعية اليها حالة البلاد الحربية : فلم يجد القرعة العسكرية العادية كافيــة فطلب من مجلس الشيوخ ـ وهذا المجلس بادر الى اجابة طلبه ـ تقرير تعبئة ثلاث مئة وخمسين الف مقاتل

وأسرعت بقايا الحملة الروسية في اجتياز بولونيا فانضم عنــد حدود المانيا ما تمزق من شملها وتمكن الفرنسويون مع تبدد جموعهم وانكسارهم وخشوعهم أمام العناصر المنيفة من مقاتلة الروس والانتصار عليهم في معركة نشبت عنــد المؤخرة في كونو بقيادة المارشال ناي ولم يكن بلاتوف ورجاله القوزاق يتجرأون من ذلك الحين على التحكك باولئك الابطال القليلي العــدد المحصور فيهم شرف ومجــد وشجاعة الجيش المظيم . وقد وصلنا الآن الى زمن لم يبق فيــه دهاء الانسان وبأسه مستطيعين ان يتقيا على غير طائل ماتنزله عليــه يد خفية من الضربات الهائلة . وهب لازم النصر الفرنسويين في أثنــاء حلول

المصائب بهم فقد راق الحظ أن يظهر بمظهر المعاكسة لهم متغيراً عليهم . وقد أوجد لهم الحظ حلفاء يرتاب بصدقهم وهو الآن يبعد عنهم اولئك الحلفاء الواحد بعد الآخر ويصيرهم من أشد الناس عداوة لهم : وكان الفيلق البروسياني المساعد أول المجاهرين بالعداوة فان قائده الجنرال يورك فاوض الروس في أمر الصلح ولم يفعل ولا مراء شيئاً من الأشياء من تلقاء نفسه بل عمل بموجب الاوامر الواردة اليه من حكومة برلين . وان الملك فريدريك غليوم الموضوعة بلاده تحت رحمة الفرنسويين أنكر في بدء الامر بطريقة رسمية ما أمر به سراً . ولكنه حقق فيما بعد ما كان من خيانته العظيمة المشهورة ما اتهموه به من العمل خفية .

واستسلم الجنرال يورك الى الجنرال ديابتش في ٣٠ دسمبر سنة ١٨١٢ وأسرع مورات في ٨ يناير سنة ١٨١٣ — وكان نابوليون قد أقامه وكيله الاكبر — الى ترك الجيش الفرنسوي عائداً الى نابولي وتاركا القيادة العامة الى البرنس اوجين . ولما انتهى الى نابوليون خبر انطلاق مورات الفجائي عد عمله فراراً من الجندية تتلوه اثارة الشكوك فكتب الى شقيقته كارولين ما يأتي : « ان زوجك بطل مجرب في ساحة القتال ولكنه أضعف من امرأة حين يصبح ولا عدو أمامه فليس له أدنى شجاعة أدبية » . وكتب الى مورات ذاته مايلي : « أظن انك لست من الألى يعتقدون ان الاسد مات فان أنت اعتقدت ذلك كنت من الخاسرين . وقد سببت لي بعد مزايلتي لفيلنا كل ما يمكنك أن تسببه من الاذى فان لقب ملك جعلك تضل عن طريق الهدى » .

وكان هذا الملام مبنياً على الحقيقة فان مورات لما هجر الموقف الذي تركه فيه الامبراطور جعل اهتمامه بتاجه فوق اهتمامه بمجده وكان من نتيجة ذلك انه فقد الاول من دون أن يتمكن من المحافظة على الثاني . ما أسرع مسير الحوادث ! فان نابوليون لا يزال في مفتتح عهد تنكر الاقدار عليه ومع ذلك استطاع الشعور بما تدخره له من الخيانة والمعاكسة .

وتسرب نكران الجميل الى نفوس المدينين له بكل شيء : بمناصبهم وشهرتهم وثروتهم وذهبت وشائجه في فؤاد أحد أنسبائه الادنين فنمت فيه دوحة الخيانة ؟ وهل يمكنه بعد هذا العمل الفظيع أن ينتظر غير وقوع الرزايا وحلول النكبات

وافتتح المجلس الاشتراعي جلساته في ١٤ فبراير في احوال سيئة جداً . على ان نابوليون مع علمه بما صار اليه المجلس من سقوط المنزلة ظل يرى فيه شبح الديمقراطية التي عمل فيما مضى على كم فمها في سان كلود وقد انتقد في الخطاب الذي خطبه عند افتتاح المجلس المبادىء النظرية للحرية التي لم يعن بمداراتها في خطابه لوفدي مجلس الشيوخ ومجلس الشورى. ولم يتهم الحكومة البريطانية بسيرها على ما رسمه لها بت من الخطة لتحريش الملوك المتحدرين من اسر قديمة على الشعوب المعتقة من نيرهم أو النافد صبرها للتخلص من هـذا النير بل اتهمها بنشرها بين ظهراني الشعوب روح العصيان على ملوكها وكان يعتبر أو يتظاهر بأن يعتبر أن الجوائح النازلة به تمد نوعاً من مداعبة الحظ له مداعبة بسيطة فأغضى طرفه عن خذل حلفائه له وتقاعدهم عن مناصرته رجاء أن يمنعهم عن التمادي في الانحراف عنه والخيانة له بما يبديه لهم من الانتصارات الجديدة الباهرة وقهر أعدائه . وكان شديد الثقة بالمستقبل بحيث أنه لم يحجم عن القول بمباهاة وشدة : «ان الاسرة الفرنسوية تملك وستملك في اسبانيا . »

ولم تكف تعبئة الجيوش لتحقيق الثقة وتمهيد السبيل لنيـل النصر المبين الجديد الذي كان نابوليون يطمع به بل أعوزه ايجاد موارد مالية جديدة فلم يكتم شيئاً من أغراضه وحاجاته عن المجلس الاشتراعي ، فقال له : « اني راغب في السلم وهي ضرورية للعالم ولما خرقت حرمة العهود على أثر عقد وثيقة أميان اقترحت السلم اربع مرات ساعياً وراء ادراك هذه الغاية سعياً حثيثاً بطريقة رسمية . وأحاذر أن أعقد صلحاً لا يكون مكرماً وملائماً لمصالح سلطنتي وعظمتها . »

الفصل الثامن والعشرون

حرب سنة ١٨١٣

ولم يظهر نابوليون في عنفوان حياته العجيبة المستوجبة أن تعد من الاخبار الدائرة عليها رحى الملاحم أكثر مما تعد من الحوادث المدونة في أسفار التاريخ أعظم مما أظهره في العراك العنيف الذي اضطر الى مباشرته في مواقعة الحظ الغليظ الكبد . فما كان أسمى ذلك المشهد وأحزنه ! وقد أحرز نابوليون كل ما يستطاع احرازه من القوة والثبات وعلو الهمة والدهاء ولم يكتف باحرازها بل نمّ باسرارها فان قامة الجبار الادبية كانت تنتصب كلما كان جثمان العاهل ينحني . فهي ولامراء العظمة الانسانية بجميع مجلاها وقوتها وسبيتها العالية تناهض القوى الفائقة الطبيعة المحاولة الغض من منزلتها من دون أن تتمكن من تذليلها .

وبسط العاهل لفرنسا نكباته وارادته وآماله فتحرك الشعب عند سماعه صوته ونسي شكواه وجاد عليه بابنائه : فتألف في أشهر جيش جديد وتهيأ لمباشرة القتال . وأقامت بقايا الجيش العظيم تنتظره على ضفاف نهر الالب .

وقبل أن يبرح نابوليون باريس تذكر عمل مالاي فعمد الى صيانة حكومته من الغوائل الممكن حلولها بها في أبان تغيبه فألقى بمقاليد الحكم الى الامبراطورة ماري لويز وأقام الى جانبها مجلس وكالة وقد شاء أيضاً أن يكون خالي الذرع من جهة الشغب الممكن حدوثه من جراء الخلاف الناشيء بينه وبين الكرسي الرسولي فعالج تسوية المسائل مع بيوس السابع وتمكن من حمل البابا على التوقيع على وثيقة جديدة أذيعت على أثر توقيعها مع رغبة الحبر الاعظم الخاضع على رغم منه لاحكام الضرورة في نقضها .

واعتقد نابوليون في أثناء تهيئة المعدات الهائلة انه عند وصوله الى نهر الالب لا يكون أمامه من الاعداء جيوش القيصر فقط بل يكون أمامه أيضاً خلفاؤه البروسيانيون والنمساويون الذين يضمرون له العداوة ويترصدون الفرصة الملائمة للمجاهرة بها . فبان له ان تعبئة جيش مؤلف من ثلاث مئة

وخمسين ألف محارب لا يكفي للغاية التي يرمي اليها . فأمر بتجنيد جيش جديد يتألف من مئة وثمانين ألف مقاتل . فأذعن الشعب الى مقتضيات الاحوال وان لم يعد يشعر بما كان يشعر به من الحماسة في الزمان القريب من مارنغو واسترلتز . بيد أن أبناء طبقة الموسرين وان كان يهمهم الدفاع عن الوطن أكثر مما يهم سواهم سعوا بواسطة المال للفرار من الخدمة الجندية فخشيت كل أسرة من مصير الجندي الفرنسوي وبذلت ما تيسر عندها من النقود لتخليص أبنائها من الخدمة العسكرية . ولم يجهل نابوليون أن نفور القوم من الجندية كان يزداد مع ازدياد المخاطر والحاجات في سلطنته وقد أصبح وباء يتعذر استئصال جراثيمه من الافئدة ولكنه أمل أن يتمكن من تخفيف وطأته : فاذا دفع أبناء البيوتات المبالغ الطائلة طمعاً بالتملص من المتاعب التي يقاسيها المنتظمون في سلك الجندية استطاع هو حين تدعو سلامة الدولة الى المساعدة أن يحول دون تباطؤ الشبان الاغنياء تباطؤاً تاماً عن اغاثة وطنهم بدفعهم المبالغ الوفيرة من النضار فانهم يضطرون الى انشاء فيلق خاص قوامه عشرة آلاف جندي تتألف منهم أربع فرق لحرس الشرف فلا يتسنى لأحد من أبناء الاسر النبيلة الغنية أن يعفى من الخدمة التي تعينها له الحكومة . وقد صدر في ٣ ابريل سنة ١٨١٣ قرار من مجلس الشيوخ بالموافقة على هذا الاقتراح .

وأيقظت أصوات المدافع في البرسينا زعيم اسرة البوربون المقيم في هرتول وجعلته يعلل النفس بالآمال : فان معارضة الثورة وان يكن قد ناهضها بعنف وشدة أصحاب الجرأة في الشعب والجيش بانت للويس الثامن عشر ممكنة للفوز بالأماني . وانه وان تكن بسالة الجندي الفرنسوي عند الملم الملمات ونزول النوازل لا يعتريها أدنى تغير ظن أن حماسة الامة الوطنية خمدت نيرانها بحيث ان الاجنبي صار يأمل ألا يلقى في فرنسا النهضة العامة التي صيرت جميع المؤامرات السابقة عقيمة . وملأت هذه الافكار دماغ الدعي فأذاع نشرة في بريطانيا العظمى وفي القارة حرك فيها بنوع خاص نفور الناس من الحرب وتبرمهم من طول مدتها ناسبا الى نابوليون الاسباب الباعثة عليها وواعداً الشعب بأن ينيله أشياء كثيرة من جملتها الغاء القرعة العسكرية . فلم يعلق الامبراطور أهمية

كبرى على هذه النشرة ولم يعن بأمر مراقبة أو ابعاد الملكيين الكثيرين الذين أسند اليهم المناصب المختلفة في حكومته فان ما وقع في ألمانيا لفت نظره وعنايته .

وهبت عاصفة الفتنة في المدن المتحالفة فانتظر القوم انفجار بركان الحنق في الارض الالمانيـة انفجاراً هائلا على أيدي جمعيات سرية . وأدت الثورة الشعبية الى الغاء النظام في الفرقة الثانية والثلاثين الحربية (همبورغ) وكان فتيان الجامعات في مقدمة الحركة فأذاعوا أسرار بغضائهم للاسم الفرنسوي واستثقالهم لنير الاجنبي وجاهروا باعتصامهم بأهداب الافكار الحرة المنبثق منها خلاص فرنسا ومجدها . على أن الامراء الذين ناصبوا من عهد بعيد هـذه الافكار شجعوا سراً أو عضدوا علانية ما صاروا يسمونه فيما بعد « دسائس المتحزبين للشعب » .

ما أغرب هذا الموقف ! فان حرب سنة ١٨١٣ لم تكن في نظر الملوك سوى تتمة لحرب سـنة ١٧٩٢ فهي مناهضة الثورة ومع ذلك خالفت لهجتهم كل المخالفة لهجـة بلنتز وكبلنتز . وبدلا من أن يثابروا على استنصارهم الاوهام السياسية والدينية عند الشعوب على الديمقراطية الفرنسوية صاروا يستثيرون الذكاء والعقل الفلسفي ووطنية الشعوب باسم الحرية على استبداد فرنسا . ولم تكتف الحرية بغلبها الملوك بل جعلتهم يظهرون بمظهر الرياء وهدت الامم وحدث هذا التغير العظيم في بروسيا خصيصاً . وأدرك نابوليون فيما بعد ان انتشاراً حراً هيأ له مساعدين أقوياء حين أوجدت له نكباته أعداء شديدي العـداوة فقال متأسفاً : « لقد ارتكبت خطأً عظيما بعدم خلعي ملك بروسيا عن عرشه حين كان يسهل عليّ ذلك وقد كان ينبغي لي بعـد معركة فردلاند أن أسلخ سيليزيا عن بروسيا وألحقها بمملـكة الساكس . فملك بروسيا والبروسيانيون تجرعوا كؤوس المهانة بحيث انهم عملوا على الانتقام لأنفسهم في أول فرصة عرضت لهم . فلو منحتهم دستوراً حراً وحررت الفلاحين من عبودية أصحاب الاقطاعات لسرت الامة بهذا العمل » .

وعليه ادخرت بروسيا العداوة لفرنسا ولم تصدر العداوة عن الامة التي أبقاها نابوليون بتغفله راسفة في قيود العبودية بل عن الملك الذي أبقاه بكرم

أخلاقه جالساً على عرشه . ولم يظل عمل الجنرال يورك المتلقي الاوامر من مولاه باجراء هـذا العمل مموهاً على الناس وقتاً طويلا فكانت حكومة برلين تبدي يوماً فيوماً أعمالا تدل على فساد دخيلتها ومعاداتها لفرنسا . ففي صبر العاهل للانتقام منها على خيانتها ومعاقبتها على رياء تمكنت من القاء الستار عليه مدة شهرين من الزمان . وأعلن نابوليون في الايام الاولى من شهر ابريل حرباً عجـل ملك بروسيا تقريب أجلها من دون أن يتجرأ على اعلانها وتأهب للزحف الى الالب .

وظهر لنابوليون عدو جديد فى دول الشمال : فلم يكتف برنادوت بتولي العلاقات مع الروس بل طمع بمقاتلة الفرنسويين . وفي شهر أغسطس سنة ١٨١٢ قال للاسكندر المصمم كل التصميم على رفض الاقتراحات السلمية فى اجتماع ابو المشهور . « ان ثباتك على عزمك يحرر أوربا » . فأثر في القيصر كلام جندي الجمهورية الفرنسوية ومجاملته له فضمن له الاستيلاء على عرش اسوج وعلله أيضا بلبس تاج فرنسا . وبعـد ما نزل بالفرنسويين من الارزاء في معركة موسكو ظن برنادوت ان الحين أزف للسير الى الغاية التي أثاروا مطامعه لأجل ادراكها فتظاهر بالغيرة على مصالح وطنه الجديد وسعى لارواء غليل الحسد الذي كان يتأكله في ١٨ برومير ولتحقيق الآمال الوهمية التي كان عاهل داهية قد جعله يمني النفس بها . وقال نابوليون في هـذا الصدد : « لو كان ذا حكم صائب وذا نفس عالية تحكي علو مقامه ولو كان اسوجيا حقيقيا كما يزعم لاستطاع أن يعيد الى وطنه الجديد بهاءه وسطوته وأن يسترجع فنلندا أو يستولي على بطرسبرج قبل وصولي الى موسكو . ولـكنه انقاد الى حقد شخصي والى عجب مقرون بالحماقة وعواطف حقيرة وقد استهواه وهو من أبناء الثورة تقرب الملوك العريقين في الشرف منه وعقده المؤتمرات وخطبه صـداقة عاهل الروس وهذا لم يدخر شيئاً من التملق له » .

وقبل أن يصطف برنادوت تحت ألوية أعداء فرنسا أراد أن يتمحل لدى الملأ الاوربي ولدى الاجيال الآتية عذراً له بيسطه للجميع ان الحصار البحري مضر بمصالح اسوج التجارية . فكتب الى نابوليون كتاباً يعتبر مقدمة لتبرئة ساحته من الملامة والعتاب وضمنه الشكوى ممن كان تارة خصمه وتارة

مولاه متهماً اياه بكونه سبباً لاضرام نيران الحروب السابقة ولسفك دماء مليون من البشر في سبيل طريقة تنابذ الحقوق وتتلف تجارة الشعوب . وختم رسالته بهذه الكلمات : « ان نكبات القارة تقتضي السلم فيجب على جلالتك ألا تنبذ هذه السلم » .

ولم ينبذ نابوليون السلم بل نشدها مع مانزل به من المصائب كما كان يطلبها وهو يجر ذلاذل الانتصار أي شاء ان تكون مبنية على قواعد العهود المبرمة في تلست . على ان برنادوت ذاته وقد هنأ الاسكندر بثباته على الحرب علم حق العلم أن إطالة مدة القتال غير مسببة عن حكومة التويلري ولكن عمن لا يكترثون للعهود المقطوعة في تلست والصداقة الموطدة اركانها في ارفرت . .

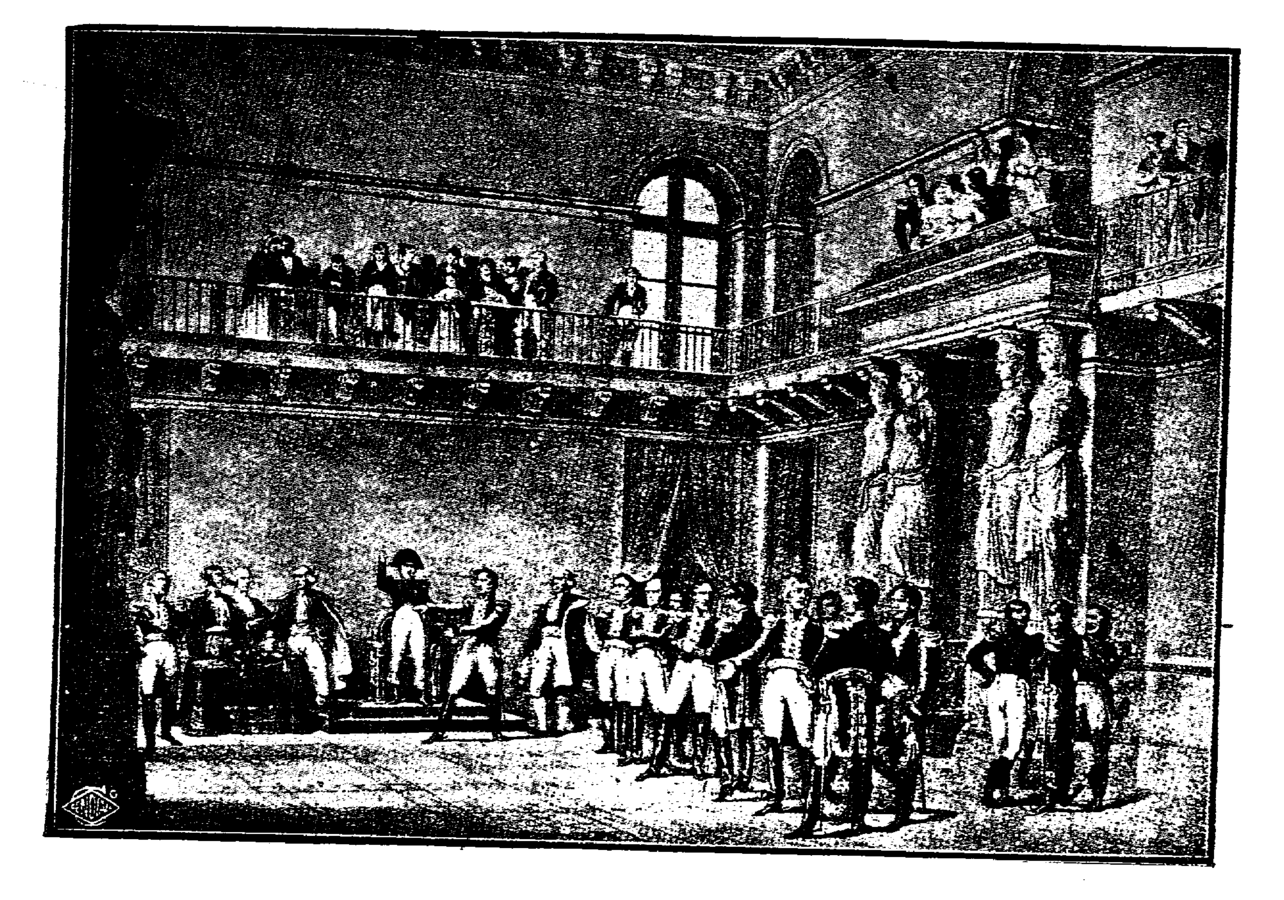
ولم يستطع نابوليون في غير ساحة القتال ان يجاوب على الملام المر والعتاب المقرون بالسفاهة الموجهين اليه من قائد من قواده الاقدمين وقد قال في مفكراته التي املاها في جزيرة القديسة هيلانة ان هذا القائد أوشك ان يسلم اعداء فرنسا مفتاح سياستها وخطة جيوشها الحربية ويدلهم على طريقها وبرح العاهل سان كلود في اواسط شهر ابريل مسرعاً الى الملتقى الجديد الذي عينته له دول الشمال في المانيا .

واضطر الجيش الفرنسوي الى ابقاء حاميات كثيرة في المواقع المحصنة التي تركها وراءه بين دنتزيك ومغدبورغ وخيم هذا الجيش على ضفاف السال بقيادة البرنس أوجين . وكانت درسد وليبزيك قد سقطتا في حيازة البروسيانيين والروس فألجىء ملك الساكس الى الانزعاج عن بلاده والتفتيش عن ملجأ تحت ظل المدافع الفرنسوية . واغتنم أعداء نابوليون في كل جهة الفرصة من تغيبه عن جيشه وتقدموا الى الامام .

وأوشك نابوليون أن يظهر بين جنوده ووصل الى ارفرت في ٢٥ ابريل بعدما استولى المارشال ناي على ويسنفلس بعد معركة قال عنها :

« انه لم ير قط أكثر مما رأى فيها من الحماسة ورباطة الجأش في المشاة . »

وقد افتتح ناي الحرب الجديدة وكان من نتيجة ظفره هذا دحر العدو على ضفة السال اليمنى والتحام الجيش العائد به البرنس أوجين من بولونيا بالجيش القادم به العاهل من فرنسا .



حلف المرشالية



ونقل نابوليون مركز أركان حربه الى ويسنفلس ومد ثلاثة جسورة على نهر السال وانتهى اليه وهو هناك نبأ حادثة من الحوادث الدالة على الشجاعة والجرأة المتصف بها الجندي الفرنسوي والمذكورتين في تاريخ الحروب الفرنسوية وقد تمكن من التحقق بان النكبات لم تغير شيئا من أفضلية الجندي الفرنسوي وشدة صريمته وجرأة مقدمه . وتحرير الخبر أن كولونلا من البروسيانيين أحاط ومعه مئة فارس من فرسانه بخمسة عشر فارساً من فرسان الفصيلة الثالثة عشرة بين سالفلد وايانا وانتهرهم داعيا اياهم الى التسليم . فاجابه جاويش الفصيلة باطلاقه النار عليه وقتله واندفع رفاقه يرمون القذائف على البروسيانيين فقتلوا منهم سبعة واضطروا الباقين الى الفرار .

واستأنف المارشال ناي أعماله في أول مايو مطردا أعماله المتوالية أمام انظار نابوليون وهجم بفرقة سوهام وقد ألف منها أربعة مربعات وهو يصيح بملء فيه : فليحي الامبراطور! فاجتاز مضيق بوزرنا وكان يدافع عنـه ثلاث كوكبات من الفرسان ومعهم ستة مدافع . وجرت وراء ناي فرق جيرار ومرشان وبرنيه وريكار وانهزم في بضع ساعات خمسة عشر الف فارس يقودهم ونتزنجورود أمام خمسة عشر الف مقاتل من المشاة الفرنسويين في السهل المخصب الممتد من مرتفعات ويسنفلس الى الالب . وكان فرسان الحرس بقيادة المارشال بسيار يعضدون المشاة ومع أنهم لم يشتبكوا في المعمعة أصابتهم خسارة شديدة في ذلك اليوم. وقال نابوليون في تقرير ارسله الى الامبراطورة : « ان الاقدار المملوء منها تاريخ الحرب جعلت أول قذيفة تطلق في ذلك اليوم من المدافع تقطع معصم دوق استريا (بسيار) وتخرق صدره وتصرعه على الدقعاء وكان قد تقدم نحو خمس مئة خطوة من جهة الرماة لاستكشاف السهل . وهذا المارشال الذي يصح أن يطلق عليه لقب شجاع وعادل اشتهر باصابة نظره الحربي وبسعة اختباره بشؤون الفرسان كما اشتهر بصفاته الادبية وتعلقه بالامبراطور وحرك موته في ساحة الهيجاء عوامل الاغتباط له في افئدة الناس وكان سريعا بحيث أنه لم يجعله يشعر بأدنى ألم. ويقل وقوع خسارة تؤثر بفؤاد العاهل كما أثرت به هذه الخسارة وسيشاطر الجيش وفرنسا الامبراطور الحزن على فقده .»

وجعل نابوليون مركز أركان حربه في لوتزن في ليل اليوم الاول الى اليوم

الثاني من شهر مايو وقد استولوا عليها بعد معركة اليوم السابق. واحدق رجال الحرس الشبان والكهول بالامبراطور وألفوا ميمنة الجيش. وكان ناي في الوسط فاحتل كايا. وكان البرنس أوجين يقود الميسرة المستندة إلى الالستر .

وتحرك الجيش في ٢منه في الساعة العاشرة صباحا في السهل المشهور بنصرة غستاف أدلف تحت أنظار عاهل روسيا وملك بروسيا القادمين لينمشا بحضورهما همة جنودهما. وهجم عساكر الحلفاء هجمات صادقة على وسط الجيش الفرنسوي وزحفت فيالق هائلة من الروس والبروسيانيين بصفوف متلازة الى كايا فاضطر المارشال ناي الى الوقوف في وجهها بثبات شديد وكان موقف أعداء الفرنسويين وعددهم الكثير يجعلانهم يأملون باصابة النصر فكان عندهم فرسان بسل أما فرسان الفرنسويين فقد دفنوا تحت الجمد والثلج في روسيا وقال العاهل فى ابتداء المعركة لجنوده: « هذه معركة نظير معارك مصر فالمشاة الشجعان يجب عليهم أن يعلموا كيف يسدون حاجاتهم .» وعيل صبر الجنود لتحقيق كلمة قائدهم العظيم فاستولوا على قرية كايا وفقدوها ثم استرجعوها مرات متوالية وبقيت في آخر الامر في حيازة الجنرال جيرار وهذا وان يكن قد أصيب بعدة رصاصات لم يشأ أن يبرح ساحة القتال فقال ان الوقت دنا لكل فرنسوي همام لينتصر أو يموت.

وظل النصر متردداً بين الفريقين مع ما أصابه الفرنسويون من الظفر ومع ما أبدته فرق المارشال ناي الخمس من الجرأة والاقدام : فلم يبلغ الاعياء من الروس ولم يقعدهم عن القتال فكانوا يهجمون هجمات صادقة على وسط الجيش الفرنسوي مؤملين ثلم حده واختراقه . وقد توهموا حيناً من الزمان أن النصر جنح اليهم فان بعض الفرق في الجيش الفرنسوي كثر عليها عدد المهاجمين فتراجعت الى الوراء وكادت أجزاؤها تتفكك . وعادت قرية كايا فسقطت في أيدي الروس ولكن اتفق في تلك الاثناء أن قدم نابوليون فانضم ماتبدد من شمل رجاله وزحفوا إلى الامام وهم يصيحون بملء أفواههم : « فليحي الامبراطور ! »

أجل ان التصدي للروس في هجومهم لم يكن في ذلك الحين بالامر السهل ولكن الفرنسويين لم يكتفوا بذلك بل صحت عزائمهم على نيل الغلبة بطريقة جازمة .

وبينا البرنس أوجين والمارشال مكدونال يهجمان على جناحي الروس وجيشهم

الاحتياطي والجنرال برتران يخف للاصطفاف في ساحة الهيجاء أمر نابوليون المارشال مرتيه بان يهجم بالحرس الفتيان على قرية كايا ويستولي عليها ويبطش بكل من يتصدى له . وفوض الى الجنرال درووحاجبه أن ينصب بطارية مؤلفة من ثمانين مدفعاً في مقدمة الحرس القدماء الموكول اليهم عضد وسط الجيش والاستناد الى فرسانه المصطفين للقتال الى الوراء . فاجريت أوامر العاهل بكل تدقيق وكان أن البطارية التي دبر أمرها الجنرال دولولوى والجنرال درووو والجنرال ديفو قذفت أمامها الذعر والموت على صفوف الاعداء وجاءت نوبة الروس والبروسيانيين للانهزام والتبدد ولكن هذا التبدد لم يكن هذه المرة وقتياً وجزئياً كما كان في بعض فرق الفرنسويين على ماسبق بيانه فانه ماعتم أن أصبح في الجيوش الروسية والبروسيانية عاماً ونهائياً : فأخذ مرتيه كايا بلا قتال ووصل الجنرال برتران في الحين الملائم لاكمال قهر الاعداء وتمزيقهم أيدي سبا .

وملأ هذا الانتصار نفس نابوليون بهجة وسروراً فانه الفى في جنوده الفتيان ما كان يلفيه من البسالة في رفاقه القدماء فقال : « لقد مضى عليّ عشرون سنة وأنا أتولى قيادة الجيوش الفرنسوية ومع ذلك لم أنظر مثل مانظرته في هؤلاء من البسالة وبذل النفس » . فقد انبعث الجيش المظيم ليزول غرور الزاعمين أنه دفن الى الابد في مجاهل الاقاليم الشمالية . وقد علل الامبراطور نفسه بانه سيسهل عليه أن يستعيد بهذا الجيش أبهة اسمه وتفوق منزلته الادبية في أوربا فقال : « لو شهد الملوك والوزراء مدبرو شؤون حكوماتهم هذه الحرب لعدلوا عن سعيهم لجعل نجم فرنسا يأفل » . فان جيشاً مؤلفاً من مئة وخمسين الفاً الى مئتي الف مقاتل انهزم انهزاماً تاماً أمام جيش لا يزيد عدد رجاله عن نصف عددهم . وبلغ عدد قتلى الروس والبروسيانيين وجرحاهم ثلاثين الفاً وبلغت خسارة الفرنسويين عشرة آلاف رجل

وعمد نابوليون في غد اليوم الذي نشبت فيه هذه المعركة المشهورة الى أمر شديد التأثير في رجاله فانه القى عليهم الكلمات التالية التي انتشرت في ٣ مايو في مركز أركان الحرب الامبراطوري في لتزن :

أيها الجنود :

« اني مسرور منكم فقد حققتم آمالي بكم وعوضتموني من كل شيء بارادتكم وبسالتكم . فقهرتم في يوم ٢ مايو المشهور وهزمتم الجيش الروسي البروسياني الذي يقوده العاهل الاسكندر وملك بروسيا . وقد أضفتم بهاء جديداً الى مجد أعلامي وأظهرتم كل مايستطيع الدم الفرنسوي إظهاره . وسيكون مقام معركة لتزن فوق مقام معارك استرلتز وايانا وفردلاند والموسكوفا . . . »

(* * *)

الفصل التاسع والعشرون

تابع حرب سنة ١٨١٣

ولما انهزم في لتزن جيش الاسكندر وفريدريك غليوم المختلط بادر هذا الجيش الى العبور الى ضفة الالب اليمنى . واستولى نابوليون في ١١ مايو على درسد وخف في الغد الى لقاء ملك الساكس . فدخل هذا باحتفال عظيم عاصمته بين قرع الاجراس وهتاف الجماهير الغفيرة . وظل الامبراطور راكبا جواده الى جانب هذا الملك الجليل ورافقه على هذه الصورة الى قصره بين قصف المدافع .

وبعد ما أعاد نابوليون حليفه الامين بانتصار باهر الى عاصمته كان أول أمر فكر به بعد قهره أعداءه اقتراحه عليهم عقد مؤتمر في براغ لتقرير شروط الصلح العام . إلا أن اقتراحات الظافر في لتزن لم تحل محل القبول فكان نصيبها نصيب اقتراحات الظافر في موسكو . وعلم نابوليون من الاخبار الواردة اليه من وكلائه السياسيين ان « الوحدة المغطاة بالازهار التي داسها عند عقد قرانه موشكة أن تفغر فاها أمامه وقد دنت ساعة خيانة حميه » . إلا أنه كتم شكواه وقلقه واكتفى بارسال البرنس أوجين الى ايطاليا مفوضاً اليه تعبئة جيش لمواقعة النمسا اذا ماخطر لها أن تهاجم البلاد الفرنسوية .

ولما افترق نابوليون عن البرنس أوجين لم يذهل عن ابداء سروره منه بشكل علني ورضاه عما أداه من الخدم الجليلة للجيش من ابتداء الحرب الاخيرة فرفع الى درجة دوقيـة قصر بولون وأرض غاليارا الجارية على ملكه الخاص وجاد بها على أميرة بولون كريمة أوجين البكر

وكان الامبراطور في درسد لما بلغه خبر استسلام سبندو فغلى جوفه لذلك الحادث متفزعاً من تأثيره تأثيراً سيئاً بالحاميات الاخر وفي الحال أمر بالجنرال المتولي قيادة حامية ذلك الموقع أن يوقف ويساق أمام مجلس مؤلف من المارشالية وأمر باعضاء مجلس الدفاع أن يعاملوا بنفس هـذه المعاملة لانهم لم يعترضوا على عمل القائد . وقد قال نابوليون : « لو سلمت حاميـة سبندو بلا حصار موقعاً حصيناً تحيط به المستنقعات ووقعت شروط تسليم صار موضوعا للتحقيق والحكم لكان تصرف حاميـة ويتمبرغ مخالفاً لتصرفها . وقد أحسن الجنرال لابويب التصرف ودافع عن شرف الجيش في الذود عن ذلك الموقع الحصين مع كونه غير محصن تحصيناً كافياً وقد هدم نصف سوره ولم يتمكن من المقاومة إلا بفضل المدافعين عنه الشجعان »

ولما لم يبق نابوليون منتظراً شيئاً من وراء مقترحاته السلمية خرج من درسد في ١٨ مايو ميمما اللوزاس لاستئناف حركاته الحربية فنال في بضعة أيام انتصارات جديدة باهرة وقهر لوريستون الجنرال يورك في ١٩ منه في ويسي . وانتصر العـاهل بذاته في ٢٠ و ٢١ منـه في موقعي بوتزن وورتخن . وتعقب الجنرال رينيه مؤخرة الروس في ٢٢ منه فأدركها وظهر عليهـا في مرتفعات ريخنباخ . ولـكن جرى في آخر ذلك اليوم حادث مؤلم جـديد فاق تأثيره بنابوليون جميع ما ألم به من الحوادث المؤلمة المـاضية على أثر فقدان قواده الابطال واخدانه الاصفياء كبسيارولانّ وغيرهما فـكان دوروك مارشال البلاط الامبراطوري الاكبر واقفاً على يفاع من الارض في الساعة السابعـة مساء وفي مكان بعيد عن مرمى القنابل يحادث المارشال مرتيه والجنرال كرجنر وهم مترجلون فرت على مقربة منهم قنبلة جرفت الدوق دي تريفيزا وبقرت بطن دوروك وصرعت الجنرال كرجنر وقطعت أنفاسه

ولما انتهى ذلك النبأ الى نابوليون خف الى المكان المضطجع فيه دوروك فوجد انه لا يزال فيه رمق من الحياة وأنه لا يزال حافظاً رباطة جأشه. فضغط دوروك يد العاهل وأدناها من فيه قائلا له : « لقد وقفت جميع حياتي على خدمتك ولا أتأسف الا على الفائدة التي يمكنني أن أقفها عليك » . فأجابه الامبراطور: « يادوروك ثمة حياة أخرى فانتظرني فنلتقي يوما من الايام. » — « أجل يامولاي ولكن سيتم ذلك بعد ثلاثين سنة بعد قهرك جميع أعدائك وتحقيقك أماني وطننا . . . لقد عشت رجلا شريفا ولا أنحي على نفسي بشيء من اللوم من جراء ذلك . فانا أترك ابنة أؤمل أن تنوب جلالتك عني بان تكون أبا لها . »

فتأثر نابوليون كل التأثر من ذلك الكلام وقبض على يد دوروك اليمنى وظل نحو ربع ساعة سانداً رأسه الى يده اليسرى من دون أن يستطيع التفوه بكلمة واحدة . وحينئذ أراد دوروك أن يبدأ بالكلام رجاء أن يكفي نفس ذلك الرجل العظيم مؤونة الحزن ولم يذهل أنه مع كونه مولاه كان صديقه الحميم فقال : « بعيشك يامولاي اذهب فهذا المشهد يثير الشجن في فؤادك . » فاجاب نابوليون طلبه وغادره من دون أن يتمكن من أن يقول له غير هاتين الكلمتين : « الوداع ياصديقي . » واضطر العاهل الى الاستناد الى المارشال سولت وكولانكور وقت ما عاد الى مضربه ولم يشأ أن يستقبل أحداً في ذلك الليل بطوله .

وأصاب الجنرال رينيه في الغد انتصاراً جديداً على الروس في وقعة غرلتز واجتاز المارشال ناي نهر نيس في ٢٤ منه ووصل في ٢٥ منه في الصباح الى ما وراء كيس فدخل بنزلو ووصل الامبراطور اليها في المساء . ولقي كوتوزوف الشيخ حمامه في هذه المدينة من بضعة أسابيع .

على ان ما لقيه الجنرال ميزون من الفشل اليسير في ٢٦ منه أمام مدينة هاينو لم يثبط الجيش الفرنسوي مدة طويلة عن المسير وعن نيل الانتصار.

واستولى الجنرال سباستياني بعد يومين في سبروطو على ذخائر وفيرة وظفر المارشال اودينو في الوقت عينه في هويرسفردا بفيلق دي بولوف البروسياني ووصل الذعر المنتشر في برلين الى برسلو التي هددها لوريستون. على ان الملكين

المتحالفين وان صمما على مواصلة القتـال ما دامت الحقوق العامة في أوربا القديمة غير حالة محل الطريقة الفرنسوية الحديثة شعرا بضرورة ايقاف رحى الحرب إما لم شعثهما على اثر الانكسارات اليومية المتوالية عليها من شهر من الزمان وإما ليمهلا النمساويين البطيئين ليدبروا ما كانوا يتوخونه من الخيانة طمعاً بتحويل جميع أهواء الحرب ضد نابوليون . وفي ٢٩ منه في الساعة العاشرة صباحا جاء الى مركز طلائع الجيش الفرنسوي الكنت شوفالوف حاجب قيصر الروس والجنرال كليست البروساني ليقترحا هدنة كان قد فاوضهما الدوق دي فيسنس في شأنها في مفتتح الامر في دير واتلستادت قراب ليغنيتز ثم في قرية بيشروتز المتحايدة حيث عقدت تلك الهدنة في ٤ يونيو ووقعت بعد دخول لوريستون عاصمة سيليزيا بثلاثة أيام .

وعين اليوم العشرون من شهر يوليو موعداً لنهاية الهدنة فألح نابوليون ليجعلهما يرضيان بعقد مؤتمر في براغ واقترح طلب وساطة العاهل النمساوي رغبة في عرقلة مساعي المجلس النمساوي .

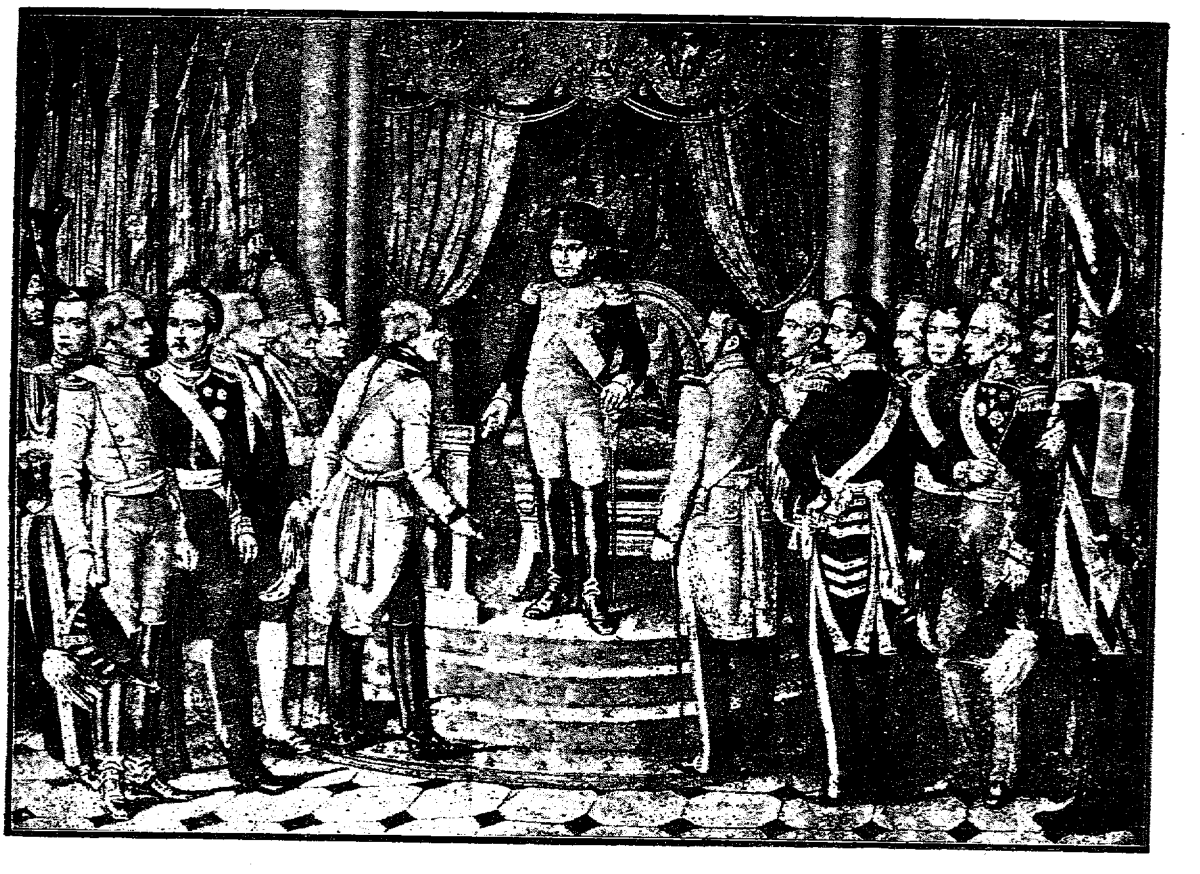
وتحاشى الساسة الاجانب البت في القضية متعمدين المماطلة فاغتنم المسيو دي مترنيخ الفرصة من احترام نابوليون لحميه وسعى لدى الظافر في لتزن وبتزن لتمديد أجل الهدنة الى ١٠ أغسطس . ولما انقضى الاجل المعين ورأت بروسيا وروسيا ما طرأ من الضعف على الحالة الروحية في الجيش الفرنسوي على اثر انتصاراته الاولى واتخذت النمسا على مهل جميع التدابير لخيانتها وتصيير هـذه الخيانة وبيلة ومشؤومة على الجيش الفرنسوي أعلن قواد الاسكندر وفريدريك غليوم انقضاء أجل الهدنة في ١١ أوغسطس عند الظهر وقت ما كان وزير العاهل فرنسوى يبلغ المسيو دي نربون السفير الفرنسوي فى فينا اعلان النمسا الحرب على فرنسا . فاكتشف نابوليون عمق الوهـدة التي وضع فوقها رجله باتحاده باسرة اللورين وسعيه لقرن فخر اسرته الحديثة النشأة بكبرياء العتر المالكة القديمة .

وطرأ حادث قضائي كان من ورائه شكوك عظيمة في جميع أنحاء الامبراطورية الفرنسوية فان مأموري المكوس في أنفرس اتهموا بالاختلاس وثبتت عليهم التهمة ولـكنهم نجوا من طائلة العقاب الذي استوجبوه بعدل برشوهم أعضاء مجلس

الاتهام . ولما انتهى الى العاهل ما كان من أمر تبرئتهم استشاط غضبا وبادر الى الكتابة الى القاضي الاكبر وزير العدلية يأمره باجراء التحقيق عن الاسباب الداعية الى انقاذ المجرمين من طائلة العقاب وانتصار الباطل على الحق . ودونكم ما كتبه في هذا الشأن :

« بناء على الفقرة الرابعة من المادة الخامسة والخمسين من الكتاب الخامس من دستور الامبراطورية نريد أن تقدموا لنا في مجلس خاص صورة قرار من مجلس الشيوخ يقضي بالغاء الحكم الصادر من محكمة الجنايات في بروسل وبارسال هذه الدعوى الى محكمة النقض والابرام فهذه تعين مجلسا امبراطوريا تجدد لديه رؤية الدعوى ويحكم بها المجلسان المجتمعان من دون أن يكون لمجلس الاتهام تدخل فيها . ونرغب أن يعلم الراشون اذا قويت الرشوة على نسخ قوة القوانين أن حكمة واضعي الشريعة استدركت كل شيء . »

ودل هذا الامر على اعطاء نابوليون السلطة الامبراطورية المطلقة معظم ما لها من القوة فان ارادة المولى الاكبر لم تعتبر شيئاً أعلى منها سواء كان في الامور العدلية أو في الامور السياسية . واذا ما دعت الآداب العمومية الى إثارة الشكوك والريب فلا يلقى له بدا من اصلاح ما فسد ولو قضت الحال باجراء ما يلزم اجراؤه من العنف تجاه النصوص الدستورية . على انه وان لم يكن لذلك الاحتقار لضمانة الصور الشرعية من غاية سوى ضمان قوة الشريعة ومعاقبة الرشوة والخيانة فالمشتغلون بمنع الاستبداد عن الاستفحال والناظرون ان في ذلك العمل الدمار التام لاستقلال السلطة القضائية يضجون وقد استندوا الى مبادىء منتسكيو المستفاد منها انه حيث تتدخل السلطة الاجرائية في الاحكام ترتكب الحكومة فظائع منكرة . وكان من عداد أولئك الحكام حاكم انفرس فوايه درجنسون النزيه فانه آثر الاستقالة من منصبه على موافقته على ضبط أموال المتهمين المبرأة ساحتهم عند اعادة النظر في الدعوى المسوقة عليهم



معركة روسيا (الملوك المقهورون يحيطون بالامبراطور نابوليون)



الفصل الثلاثون

تتمة حرب سنة ١٨١٣

وتهافت ملوك الشمال وامراء الالمان من كل جهة على انتجاع درسد ولكنهم لم يتهافتوا اليها هـذه المرة تهافتهم في سنة ١٨١٢ لتأليف حاشية من الرؤوس المتوجة حول ذلك الرجل العظيم بل جاؤوا بجيوشهم الجرارة لمقاتلته .

وكان مئتا الف من الروس والبروسيانيين والنمساويين بقيادة عاهل روسيا وملك بروسيا والبرنس شوارتزنبرغ يسرعون في اجتياز بوهيميا للغزو الساكس والتخييم على عدوة الالب اليسرى . وكان مئة الف محارب بقيادة بلوخر وساكن يقومون بالحركات الحربية في سيليزيا ومئة وعشرة آلاف مقاتل بينهم فيالق المتطوعين الكثيرين الملبين نداء الوطنية الجرمانية يزحفون على طول الخط بين همبورغ وبرلين للقاء الفرنسويين .

ورجحت أفضلية العدد ولامشاحة الى جهة الدول المتحالفات اللواتي ألفين لهان مساعداً قويا فى روح الثورة المنتشر بين الشعوب الالمانية . على ان الفرص الملائمة والعناصر المؤملة بنيل الظفر لم تكف لتجعل الحلفاء يملون النفس بغلبة الثورة الفرنسوية بشخص اعظم ابنائها . فاقتضت الحال أن يستميلوا اليهم اثنين من ابنائها ليصيبوا بواسطتهما سر الفن الحربي والتفوق العسكري وهما سبب عظمة وطنهما وعلة رفعة شأنه: فان مورو آثر مؤالفة سلطان مطلق على ضيافة شعب حر وهجر أرض وشنطن السعيدة ميمما بلاد العاهل الاسكندر ليكون مستشاره وخرج الى الحرب مع جيش بوهيميا العظيم تحت الراية الروسية بازاء الراية الفرنسوية. أما برنادوت فانه على ماجاء في مفكرات القديسة هيلانة سلم اعداء فرنسا مفتاح سياستها وخطة جيوشها الحربية ودلهم على طريق أرضها المقدسة وكان هو المتولي القيادة أمام برلين .

وقد أنصف الشعب الفرنسوي بابداء اعجابه واحترامه وثقته عند دنو ١٨ برومير وفي عهد القنصلية حين أبى أن يربط حظ الثورة بغير اسم بونابرت وأعلن أن هذا الاسم مقدم على سواه بين أسماء جميع الوطنيين من دون أن

ينخدع بتصرف بعض الجمهوريين المعروفين بتطرفهم وتصلب آرائهم ومن دون أن يبالي باعتراضات بعض الافراد الميالين الى حمل مورو وبرنادوت على السير في ذلك العصر على الطريق الذي سار عليه بروتوس وكاتون وأمثالهما في العصور الخالية . فليبادر قدماء نادي مانييج وأعضاء جمعية الفيلادلفيين الاقدمين الى انكار تفضيلهم واعترافهم بأفضلية الميل الوطني الطبيعي وعصمته . فقد قام الآن متولي زعامة المعارضين في السنة الثامنة مقام برنسويك وخلف زعيم المحالفين في سنة ١٨٠٤ سوفاروف . . . وقد شاء الحق سبحانه وتعالى هـذا الامر ليتحقق فكر الشعب العظيم وحماسته في الذي انتخبه واللذين رذلهما .

ولا بأس من استعمال مورو وبرنادوت خبرتهما واستخدام ذراعهما المشؤومة لمناهضة حظ نابوليون فان هو هوى فسيظل في سقوطه على ما كان عليه يوم ارتفاعه أي سيظل رجل فرنسا وداهيتها أما خصماه القديمان فلا يلقيان من انتصارهما سوى الخزي ووخز الضمير اللاصقين الى ما شاء الله بلقب خدام الاجانب والفارين من الوطن . على انه لا بد من التمييز بين برنادوت ومورو فالاول يتردد بين ما يجب عليه أن يقوم به بين فرنسا وطنه الاصلي واسوج وطنه الجديد مع جهله حقيقة مصالح كل من البلادين أما مورو فانه لم يكن له من عذر يتنصل به .

وتوهم الناس أن مورات سيركب مركب الخيانة ويخرق بردة مجده . .

وقد كتب في احدى صفحات حظه أنه سينكر ويخون المحسن اليه وصديقه وختنه ولـكن لم تكن قد دنت ساعة غدره والتحافه بمبذل الهوان والصغارة . فجاء مورات في ١٤ أوغسطس الى معسكر درسد لمحاربة خصوم نابوليون وأعداء فرنسا .

وافتتحت الحرب افتتاحا موافقاً لموقف الجيش الفرنسوي فخف نابوليون الى ملاقاة الاسكندر وملك بروسيا واقتحم منافذ بوهيميا وفتح غوبل ورمبورغ وجرجنتال . وبعد ما وصل الى موضع يبعد عشرين فرسخا عن براغ عاد الى زيتو ومنها أسرع الى موافاة جيش سيليزيا المحتاج الى حضوره بين ظهرانيه . ووصل الى لونبرغ في ٢١ منه عند بزوغ الفجر فمد الجسورة على البوبر وعبره في بحر النهار غير مكترث لنيران العدو ودحر العدو حتى أوصله الى

غولدبرغ وهجم هجوماً جديداً في ٢٣ منه فكسر الجنرال جيرار القادم من جهــة الميسرة فيلقا من البروسيانيين قوامه خمسة وعشرون ألفاً وبدد شملهم وأخذ فلنسبرغ عند الميمنة واكمل انهزام الحلفاء هجمة صادقة قامت بها الفصيلة المئة والخامسة والثلاثون .

الا أن جميع ما ناله الفرنسويون من الانتصار في سيليزيا لم يؤثر بزحف جيش بوهيميا وقد ظل سائراً نحو عاصمة الساكس . ولما انتهت الى نابوليون أنباء هذه الحركات ترك للمارشال مكدونال قيادة جيش سيليزيا وخف ومعه ناي الى نجدة درسد ولكن هل يصل اليها في الاجل الملائم ؟ وأحاطت العساكر الكثيرة بالمدينة من كل جهة لتسحق جيش المارشال سان سير الضعيف المتحصن وراء الاستحكامات الخشبية في ضواحي المدينــة وأرباضها . وشهد الملك الشيخ من نوافذ قصره دمار الأراضي الخصيبة المحدقة بعاصمته وقرن حزنه بذعر رعيته . وأنذر كل شيء بأن درسد أوشكت أن تسقط في حيازة النمســاويين والروس وان المارشال سان سير لا يستطيع مقاومة شوارتزنبرغ مدة طويلة فان بعض الفيالق الالمانيــة المنضمة الى الفيالق الفرنسوية لتقاتل تحت ألويتها لم تثبت على موالاتها للفرنسويين فانحازت الى أعــدائهم كوكبتان من فرسان الوستفاليين وما عتم الاهلون أن أبدوا ميلهم الى الاستسلام .

ولــكن ما أبطأ نابوليون أن ظهر فاجتاز في ٢٦ منه في الساعة العاشرة صباحاً جسر درسد سائراً سـيراً حثيثاً وجنوده وراءه . وحينئذ تقلص ظل الفشل وبدت طلائع الثقة . ولما أبصر القوم في درسد مدرعي لاتور موبورغ يمرون طبقوا الفضاء بأصوات الفرح كأنهم يقرأون على وجوه أولئك الابطال آيات خلاص المدينة .

ولما وصــل الامبراطور عمد في فاتحة الامر الى استعراف ما أجروه من معدات الدفاع فما مكث أن ثلج صدره حين عرف أن جميع ما فعله سان سير يستوجب أن ينال موافقته . ولما هدأ باله من هذه الجهة صعد الى القصر فسكن بحضوره جأش الاسرة المالــكة بعد ما كانت تهم بالهرب .

ولم تدم زيارته سوى مدة قصيرة فــكان قد نضب معين اصطباره لان يشاهد بذاته عدد العدو وموقفه وحركاته وسار مسرعا لهذه الغاية نحو باب من أبواب

المدينة ماراً بين جمهور من السكان الموالين وهم ينظرون الى جبينه لعلهم يستدلون من رباطة جأشه وثبات جنانه على الامن والدعة . ووصل نابوليون في الساعة الواحدة الى طرف دسكرة بلنتز فترجل وتفقد أسوار المدينة الخارجية واقترب من طلائع أعدائه بحيث وقعت رصاصة باردة على خادمه على مقربة منه .

وأعطيت علامة الهجوم في الساعة الثالثة باطلاق ثلاثة مدافع من بطاريات الجيش النمساوي الروسي وعند إعطاء هذه العلامة شرع الجيش المغشي المرتفعات المحيطة بالمدينة ينحدر الى السهل ويحمل حملات شعواء على استحكامات الفرنسويين وحرك حضور ملكيه ساكنات الشجاعة فيه . وبينا هو ثمل بسلافة ذلك الحماس ومعتقد أنه أصاب نصراً مبيناً جعل يصيح مطبقاً الفضاء ويقول : الى باريس الى باريس !

ولكن لم يلبث الجندي الفرنسوي أن جعله يشعر بثقل ضرباته وكان عاهله معه يراقب أعلامه ويحاذر أن يدع الهوان والخسيفة يدنوان منها. ولم يمض حين طويل حتى عمت المعركة وأصبحت هائلة وقد اشترك فيها الجنود الاحتياطيون وصارت القنابل والقذائف المنفجرة تتساقط على المدينة كالوابل المدرار . فأدرك نابوليون أنه لايسعه أن يضيع دقيقة واحدة في سبيل تقرير حظ القتال وانقاذ عاصمة حليفه الوحيد الذي بقي دون سواه من بين جميع الحلفاء معتصما بحبل موالاته . فسير مورات وفرسانه للوقوع على ميمنة أعدائه ووجه فيلق الدوق دي تريفيز للتمرس بميسرتهم ثم اخرج من بابي بيرنا وبلاون أربع فرق من الحرس الفتيان بقيادة الجنرالية دوموتيه وباروى ودكوز وروغه الأشداء وأمرهم بان يجروا على مارسمه لهم البرنس دي لاموسكوفا الشجاع . وكان من وراء هجوم ذينك الفيلقين تغير وجه الحرب في الحال : نخشع كل شيء أمام الحرس الفتيان الصناديد ولاذ بالفرار . وأصبح المهاجمون المفاخرون بجرأتهم متشتتين في كل جهة وهاربين من وجه أعدائهم ومغادرين السهل الذي شنوا عليه الغارة الشعواء . وقد طردهم منه المدرعون من دون أن يبدوا لهم أدنى مقاومة .

وصاح البرنس دي شوارتزنبرغ بصوت جهوري: ان الامبراطور في درسد

ولا مراء وقد أضعنا الفرصة الملائمة للاستيلاء على المدينة فلانفكر والحالة هذه إلا بضم متفرق شملنا .

ولم يكن الامبراطور والحق يقال قدأثبت وجوده بما أمرباجرائه من التدابير الصائبة والحركات الحربية المحكمة بل باشتراكه في المخاطر المحدقة برجاله اشتراكا فعلياً . وهذا ماقاله في هذا الصدد الماجور دودلبن السكسوني :

« وكان نابوليون تحت سيل جود من القذائف والقنابل راكباً جواده وماراً بسرعة في سيكاوس غاس يبتغي الوصول الى مدخل البحيرة وسد لبوديسلد . وبعد ماوقف ثمة هنيهة من الزمان كر عائداً الى ساحة القتال فقتل ضابط من ضباط حاشيته الى جانبه وجرح كثيرون من حجابه . »

ولم ينقطع صوت المدافع الا في الساعة التاسعة مساء وكان الامبراطور في الساعة الحادية عشرة لايزال واقفاً على رجليه يتفقد معرس جنوده ويعمل لاستكشاف خطط اعدائه ويدبر الخطة المقتضي عليه المسير عليها في الغد . ولما انتصف الليل دخل القصر ولكنه قبل أن يرقد دعا اليه برتيه وأملى عليه أوامر أنفذت في الحال الى جميع قواد فيالق جيشه ليكون كل منهم عند طلوع الفجر مستعداً لمناصرة دهاء الامبراطور في المعركة المنتظر تسعر نيرانها .

وكان فيلق من النمساويين قد ثابت اليه قواه وانتعش بشربه مقداراً من الخمر ونفض عنه ماجره اليه انكساره الراس دي شوارتزنبرغ من الخمول فعالج مفاجأة الفرنسويين تحت جنح الظلام عند باب بلاون ولكنه ألفى ثمة الجنرال دوموتيه والكولونل كمبرن : وكان دوموتيه يريد النزال غير مبال بفخذه المكسورة وجعل كمبرن المهاجمين يندمون على جرأتهم بأخذه منهم راية وأسره فرقة كاملة .

ودل ذلك الهجوم الليلي على أن الحلفاء مع انهزامهم انهزاماً تاماً في اليوم السادس والعشرين لم ينكسروا انكساراً نهائياً وانه لابد من عودتهم الى القتال . وعرف نابوليون هذا الأمر حين أنفذ ليلا الى جميع قواده أوامر معجلة وفي الساعة السادسة صباحاً ركب فرسه غير مكترث للوحل والمطر وخرج من باب فريبرغ لتفقد الاماكن المنتظر نشوب الحرب فيها . وأبصر ثغرة في المرتفعات

أمامه ولم يكن فيلق الجنرال كلينو النمساوي قد شغل الموقع المعين له فأمر العاهل مورات وفكتور بأن يحتلا في الحال ذلك الموقع ويسبقا العدو اليه . فقام ملك نابولي والدوق دي بلون بهذه الحركة بسرعة وأخذا الموقع في الساعة التاسعة صباحاً ولكن سمع اطلاق المدافع بشدة آتياً من الوسط فكانت المدفعية تقوم بأصعب عمل في المعركة . وجاء في مفكرة سنة ١٨١٣ أن الجندي الفرنسوي تحمل في ذلك الموقف عنف قوانين الخطط الحربية الحديثة فظل ساعات يقضم شكيمة الاوامر الضابطة حماسته وهو مستهدف للقنابل المقذوفة من الجانبين .

ووصل مورات في الساعة الحادية عشرة الى ماوراء مضايق بلاون فابصروه شاهرا سيفه وثانياً على كتفه رداءه الموشى بالذهب وهو يهجم في مقدمة المدرعين على مشاة النمساويين . وانتصر انتصاراً كاملا بمكاتفة فكتور ولاتورموبورغ فسحق ميسرة الحلفاء .

ولم تكن ميمنتهم أسعد حظاً من ميسرتهم فانها فرت من وجه الحرس الفتيان وقد انضم اليهم العاهل نفسه وشاطرهم المهالك والنصر .

وبدت البسالة الفرنسوية في كل جهة بأعظم مجاليها كما بدت في الايام المأثورة في التاريخ فاشتركت فصيلتان من الحرس القدماء في المعركة ولم تقاتلا الا بالنصال فقلبتا كل ما تصدى لهما ظهرا لبطن . ولم تكن أفعال مرتيه وسان سير ونانسوتي دون أفعال مورات وفكتور ولاتورموبورغ . وقد بلغ بهم ما أبدوه من الشجاعة والاقدام تحت ظل الدهاء الى نتيجة جازمة : فلم تدن الساعة الثالثة حتى نال نابوليون نصراً مبيناً في معركة درسد . وخشي الملوك المتحالفون أن يفقدوا اتصالهم ببوهيميا فاضطروا الى استدراك أمر سلامتهم وصمموا على التراجع تاركين في حيازة الظافر خمسة وعشرين ألفاً الى ثلاثين الفا من الأسرى وأربعين راية وستين مدفعا . وجرح الجنرال مورو جرحا مميتا بأول قذيفة رميت عن بطاريات الحرس الامبراطوري . فكأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يفسح في أجل قاهر هوهنلندن ليزيد في مآثمه ويخلد عاره في ميادين القتال بل قطع أسباب الشكوك بوجود مثل هذا الرجل مع الروس ...

وتوهم العاهل أن العناية الالهية عادت الى حمايته بكنفها وشاءت [illegible]اقبة الخائنين . ولكن لم يكن ذلك التوهم سوى برق خلب فان نابوليون صار الى

حال لا تستطيع معها الانتصارات الباهرة أن تدفع عنه مقدوراً وتبعد عنه سقوطه القريب : فانه بانفصاله عن الروح الحر الناهض بعجب لمناوأته من بين الناشئة الألمانية ألفى نفسه بعيدا عن مهمته الاصلية : فأوشك الرجل السياسي أن تتقطع أنفاسه في شخص نابوليون ولكن لما كان دهاؤه قد ظل مقيما على موالاته وكانت الجنسية الفرنسوية باقية متجسمة فيه فانه ولو سقط عن العرش لا يفقد شيئا من مجده : فهو سيسقط ولكنه سيعظم في أنظار الاجيال الآتية بتجديده حتى آخر نسمة من حياته السامية المعجزات عينها التي أدهش العالم بها وهو يسعى لنيل عظمته أو أتاها عند حلوله في أعلى ذروة من ذرى المجد

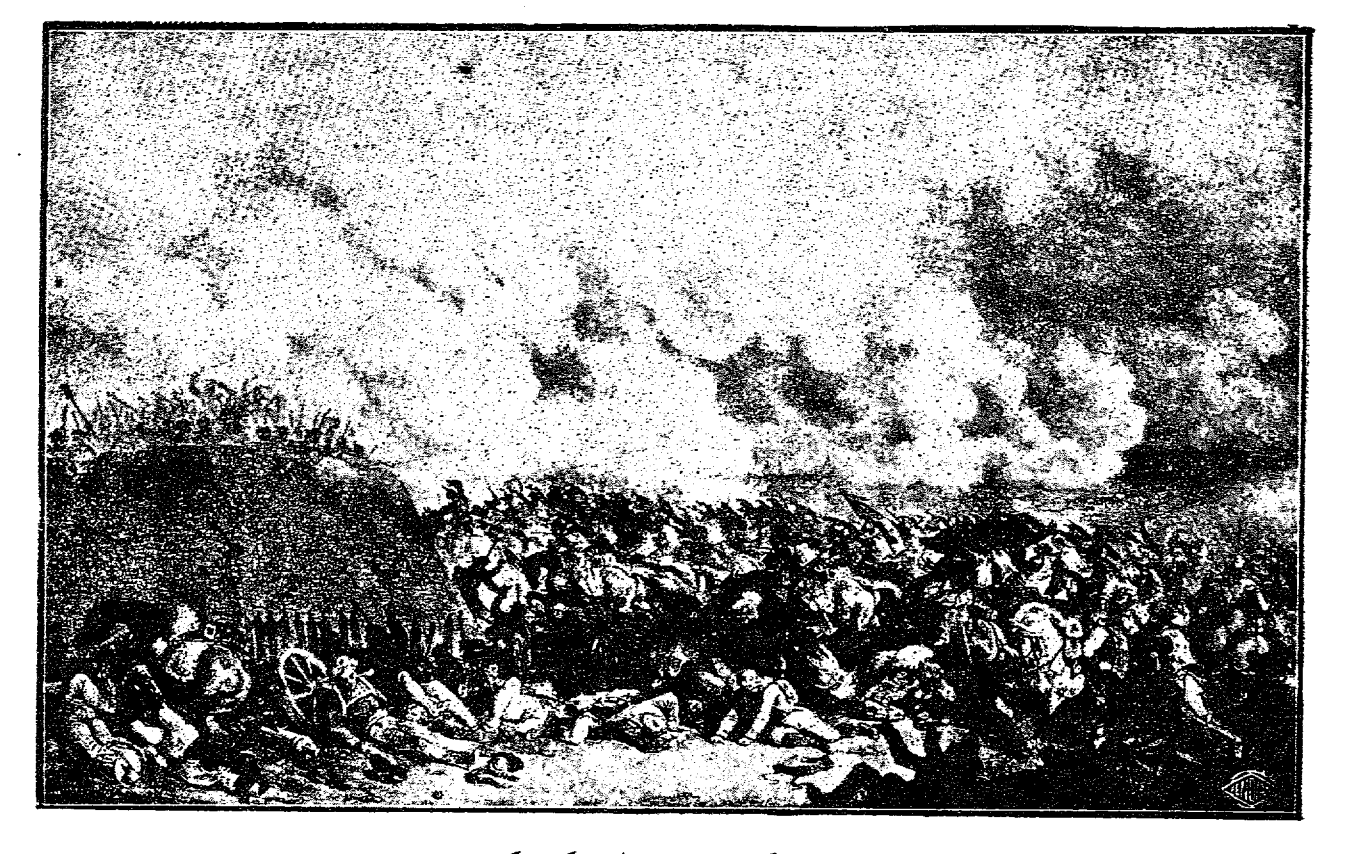
وهرب هذه المرة أيضاً القيصر وملك بروسيا والبرنس دي شوارتزنبرغ أمام النسر الفرنسوي ومعهم مورو وهو يجود بنفسه وأسرعوا للوصول الى مضايق بوهيميا . فشد نابوليون وراءهم شدا عنيفا الا أن واحدا من قواده يدعى فندام كان كثير الدعوى والتبجح ببسالة جنوده وجرأته الشخصية فعالج بعدد يسير من الجنود الاشداء أن يقف سدا منيعا في وجه أعدائه وقد ذهل عما قاله نابوليون غير مرة : « انه يلزم أن نمد جسرا من الذهب أو أن نقيم سدا من الفولاذ في وجه الجيش الهارب » وعن كونه غير قادر على اقامة مثل هذا السد فاندفع في مضايق كلم معالجا التصدي للجيش العظيم المنكسر في درسد وقوي خصومه عليه بكثرة عددهم بعد جهد فاقد النظير ومقاومة مقرونة بالقنوط كان من ورائها إصابة العدو بخسارة فادحة فاختفى في المعركة فظنوا أنه قتل وأسر رجاله على بكرة أبيهم . وعرف بعد حين من الزمان أنه سقط أسيرا في أيدي النمساويين والروس

ولا يخفى ان هذا الانكسار الذي فقد فيه أكثر من عشرة آلاف مقاتل من الفرنسويين خفف من تأثير معركة درسد . ووقعت في الوقت عينه حوادث فاجعة لجيش سيليزيا : فطفت الأنهار على أثر سقوط الأمطار الغزيرة وغمر الماء جميع الطرقات وجرفت الجسورة وانقطعت المواصلات بين الفيالق الفرنسوية واضطر المارشال مكدونال في ذلك الموقف الحرج الى عبور البوبر والكيس والنيس بعد مافقد القسم الأكبر من فرقة بوطود في لونبرغ ونجا الباقون منها سباحة .

ولما ترك نابوليون جيوش أعدائه العظيمة محصورة بين جبال بوهيميا وسيليزيا فالتقى بفيلق مكدونال عند مرتفعات هوخكرخ في ٤ سبتمبر وأمر هذا الفيلق في اليوم عينه بالهجوم على العدو ففعل واكرهه على مزايلة مرتفعات وولنبرغ وظل سحابة اليوم الخامس منه يتعقبه حتى وصل الى غرلتز وأجبره على عبور نهري الكيس والنيس بسرعة ودخل درسد في الساعة السابعة من مساء اليوم السادس منه فأخبروه أن المجلس الحربي في الفيلق الثالث حكم بالموت على الجنرال جوميني السويسري الاصل رئيس أركان حرب هذا الفيلق لفراره من الجيش وانضمامه الى الاعداء عند انفتاح أبواب القتال .

ولم يكن المارشال أودينو الزاحف الى برلين أسعد حظاً من مكدونال المقاتل في سيليزيا فانه انكسر في غروس بيرين في ٢٤ أوغسطس فأخذ ناي القيادة منه وبعد ما أصاب هذا الاخير شيئاً من النصر في ١٥ سبتمبر على الجنرال طنزين انكسر في الغد في جوطربوك في محاربته برنادوت وبولوف .

وتوالى الانكسار على الفرنسويين في الاماكن المتغيب عنها الامبراطور فكان نابوليون أول من شعر بهذا الامر فاتخذ درسد مركزاً لحركاته الحربية وصار يخف منها الى المكان المتعرض جنوده فيه لنبال المتالف . وقضى على تلك الحال شهر سبتمبر والنصف الاول من شهر اكتوبر وهو يزحف تارة الى شوارتزنبرغ وتارة الى ساكن وطوراً الى بلوخر وبرنادوت فيدحر أولئك عند جيرسبرغ ويهزم هؤلاء عند ديسو ويجمل جميع أعدائه يرهبون التمرس بالذراع القوية الحاصلة على امتياز الوجود في كل مكان . إلا أن هذه الانتصارات كانت تحصد جنوده حصداً بعد ما أضعفتهم نكبات الحرب السابقة من دون أن تتلف موارد الجيوش المتحالفة غير الناضبة . وكانت النجدات متواصلة تترى الى العدو ووقعت خيانات شتى كانت له معيناً قوياً فان ملك بافاريا سلك مسلك عاهل النمسا وداس حرمة المواثيق وحطم القيود العائلية . ثم ان الفتنة احتدمت مواقدها وراء الجيش الفرنسوي فتألفت فيالق من المعارضين في الساكس ووستفاليا . وهجر الجنرال طيلمان السكسوني الجيش الفرنسوي فالتف حوله ثلاثة آلاف رجل من الروس والبروسيانيين العيارين وفاجأ في هومبورغ ثلاث مئة مريض الى أربع مئة مريض إلا ان الجنرال ليفيفر دينوت



معركة الموسكوفا ومقتل الجنرال كولانكور



استخلصهم منه في فريبورغ . وكان في أثناء الحركة العامة التي أبداها الالمانيون ضد السلطة الفرنسوية ان جيروم بونابرت ملك وستفاليا طرد من عاصمته واضطر الى التراجع الى الرين .

ولما انتهى الى نابوليون نبأ خيانة بافاريا وما نوى الالمانيون من الانتقاض على سلطته في المانيا الوسطى علم انه يصعب عليه المحافظة على موقفه في الالب فعزم على التقرب من حدود فرنسا مع المحافظة بقدر الامكان على الموقف الذي أصابه على أثر انتصاره . وكان نابوليون بازاء الجيوش الجرارة التي لم يذللها ما لقيته من الفشل لانضمام جنود كثيرين اليها قادمين من جميع أنحاء أوروبا يشعر بأن تعبئة جيش عظيم ضروري له . فطلب من مجلس الشيوخ اصدار قرار بتجهيز مئتين وثمانين ألف جندي وقد تولت الامبراطورة الوكيلة إبلاغ المجلس المشار اليه هذا الطلب بالقائها عليه خطاباً في ٧ اكتوبر كان نابوليون قد أرسل اليها صورته من مركز أركان حربه العام .

وكان من وكد مجلس الشيوخ المبادرة الى اجابة طلب العاهل بحسب مقتضيات الاحوال وحاجة البلاد ولا سيما لان موقف الجيش الفرنسوي في الخارج كان يقتضي نجدة معجلة فقرر مجلس الشيوخ بالاجماع تعبئة جيش مؤلف من مئتين وثمانين ألف مقاتل .

وكان نابوليون على نهر الالب مستولياً على جسورة ديسو وآكن وو ارتنبورغ التي استولى عليها الجنرالان رينيه وبرتران والمارشال ناي وقد عقد عروة العزم على عبور النهر والقيام بحركة حربية على ضفته اليمنى من همبورغ الى درسد وتهديد بتسدام وبرلين واختيار مغدبورغ قاعدة لاعماله الحربية إلا انه لما بلغه ما كان من أمر خيانة البافاريين عدل عما كان ينتويه وصمم على العودة الى ليبزيك .

فسر لهذا المقصد منتقدو مركز أركان الحرب فانهم شق عليهم ان يروا نابوليون ينوي الاغارة على برلين وينقل الحرب الى البقعة التي بين الالب والاودر مع انهم لم يرغبوا إلا الاسراع في العودة الى الرين .

ووصل العاهل في ١٥ اكتوبر الى ليبزيك وقد احتشدت فيها فيالق فكتور وأوجيرو ولوريستون . وكان الحلفاء يجدون وراءهم عن قرب فقاموا بحركة

مشتركة بكل ما تجمع عندهم من القوات وتمكنوا من الانضمام في ١٦ منه والاحاطة بالجيش الفرنسوي فاضطر هذا الى الوقوف عن المسير لتصدي شوارتزنبرغ وجيولي له في جهة الجنوب وجهة الغرب وإغارة بننغزن وكولوريدو وبلوخر وبرنادوت عليه من الشرق والشمال .

الفصل الحادي والثلاثون

معركة ڤاشو وليبزيك — خيانة السكسونيين — نتيجة تلك الحرب المشؤومة — عودة العاهل الى باريس

وكان خمس مئة ألف مقاتل محتشدين وواقفين بعضهم بإزاء بعض أمام أسوار مدينة ليبزيك وفي ضواحيها فأصبح اشتباكهم بمعركة عظيمة أمراً محتوماً . ومنذ اليوم الخامس عشر بعد ما سكن نابوليون خاطر ملك ومملكة السا كس الوافدين عليه في ليبزيك جعل يستكشف ظاهر المدينة ويتفقد شؤون الفيالق المخيمة في أرباضها . وقضى ما بقي من النهار وقسماً من الليل في تهيئة معدات الحرب المتوقع حدوثها في الغد .

وأعطى البرنس دي شوارتزنبرغ علامة القتال في جنوب ليبزيك في ١٦ منه في الساعة التاسعة صباحاً وما أبطأ الهجوم ان أصبح عاماً وقد عضده مئتا مدفع . وجنح النصر في مقتبل الامر الى الحلفاء فهددوا قريتي مركليبرغ ودولتزخشعت أمامهم ميمنة الفرنسويين إلا ان مشاة بنياتسكي وأوجيرو وفرسان الجنرال ميلهو تمكنوا من التصدي لاعدائهم وتوقيفهم عن التقدم في تلك الجهة. وتمكن فكتور ولوريستون في الوسط من المحافظة على ڤاشو وليبر ولكتونر مع ما أبداه البرنس دي ورتمبرج والقائدان غورزا كوف وكلينو من الجرأة والاقدام .

ولم يكف نابوليون ان يتمكن من المقاومة والمحافظة على مواقعه فقد قضت الاحوال بأن يصيب نصراً مبيناً ويدرك ظفراً باهراً يكون فيه فصل الخطاب .

وحين فشل أعداؤه في هجماتهم الاولى كان يجب عليه ان يشدد في الهجوم عليهم في نوبته من دون ان يترك لهم فرصة يلمون فيها شعثهم ويسدون ثلمتهم ويجعلون الجنود الجدد يحلون محل الجنود الواهنة عزائمهم وهذا ما فعله نابوليون

فسير مكدونال وسباستياني على كاينو الى جهة الميسرة وأمر مرتيه بالاسراع الى مناصرة لوريستون بفرقتين من الحرس الفتيان وأرسل أودينو الى الميمنة لمظاهرة فكتور اما كوريال فانه زحف الى دولتز لنجدة بنياتسكي . وكانت تحميهم مئة خمسون مدفعاً من بطاريات الحرس المتولي ادارتها الجنرال دروو

ونهض الجيش كله من القواد والجنود باعباء المهمة الموكولة اليهم بحسب رغائب القائد الاكبر فشد فكتور وأودينو وراء أمير ورتمبرج فانهزم أمامهما حتى وصل إلى غوسا . ولم تقل معاملة مرتيه ولوريستون لفيلق كلينو في العنف عن معاملة فكتور ورفيقه لجيش أمير ورتمبرج . ونال مكدونال وسباستياني نصراً تاماً وصير بنياتسكي جميع مساعي البروسيانيين والروس والنمساويين عقيمة وقد صمموا على اجباره على اخلاء موقفه على ضفاف نهر بلييس

ولما رأى العاهل الاسكندر انه أوشك أن ينكسر في معركة فاشو صحت عزيمته على عدم الاكتفاء باصدار الاوامر الى الجنود الاحتياطيين بالنزول إلى ميدان القتال بل على دفع حاميته عينها على النزول الى الميدان غير مبال بالمحافظة على سلامة شخصه فخف الى الموضع المتهددهم فيه الخطر الجسيم وأمر قوزاق الحرس بشن الاغارة على الفرسان الفرنسويين . وكان من وراء عمله هذا الدافعة اليه الحاجة القصوى إنقاذ جيش الحلفاء من الانكسار التام وان يكن فيه تعريض شخص القيصر لسهام المتالف . فتمكن القوزاق من استرجاع أربعة وعشرين مدفعاً من الستة والعشرين مدفعاً التي غنمها الفرنسويون من الروس وعقب ذلك ظهور الجنود النمساويين الاحتياطيين . وجاء في مفكرات جزيرة القديسة هيلانة ما يأتي : « وكان عدد الحلفاء كبيراً بحيث أنه لما كانت جنودهم المحاربة تشعر بالتعب كانوا يستبدلون بها جنوداً جدداً » . ولم يخشوا بتفوقهم على خصومهم بكثرة العدد من الانكسار انكساراً نهائياً . ومع كل ما أتاه الجيش الفرنسوي من معجزات البأس والشجاعة ظل النصر متردداً بينه وبين جيش الحلفاء .

ولم تقتصر نيران القتال في فاشو وحدها بل سمعت أصوات المدافع في البارتا وفي ناحية لندنو . ففي البارتا تقهقر فيلق مرمون أمام بلوخر الذي كان معه من العساكر أكثر مما كان مع قرنه وفي لندنو لم يكن جيولي سعيد الجد بمقدار ما كان الجنرال برتران بمدافعته عن طريق فرنسا وحمايته لها .

وفقد الحلفاء في فاشو عشرين الف رجل وهوى الجنرال مرفلد النمساوي عن صهوة جواده بين حراب الفرنسويين فسلم سيفه لقائد المئة بلينسلف من فرقة كوريال . وبلغ عدد القتلى والجرحى الفرنسويين الفين وخمس مئة رجل وأطارت قنبلة فخذ الجنرال لاتورموبورغ . وأثنى نابوليون على بسالة قواده فكتور ومرمون وناي وأودينو ومكدونال وأوجيرو الخ . وخص بالتقريظ شجاعة لوريستون وإقدام بنياتسكي ورقاها الى درجة المارشالية

وقد أصبحت عقيمة المعارك التي كان العاهل نابوليون يأمل أن تكون جازمة فان حماسة أعدائه اشتدت أمام لوتزن وبوتزن ودرسد وكثر عددهم . وماذا يستطيع أن يأمله من يوم لم يجمله فيه انكسار أعدائه أو تراجعهم أمامه يعلل النفس بنيل الانتصار الباهر الفاصل وعند عودته الى مضربه ألفى ذاته مضطراً الى الاستعداد للحرب في الغد

وجاؤوه في المساء بأسيره الجنرال دي مرفلد وكان قد عرفه في ليوبن فبادر الى ارجاع سيفه اليه . ثم انه أطلق سراحه بعد أخذ المواثيق عليه وكلفه بأن يبسط اقتراحات الصلح لعاهل النمسا ولما فصل عنه خاطبه نابوليون بما يأتي :

« لقد ساءت ظنونهم في فلا شيء اشهى عندي من الاستراحة في ظل السلم والتفكير في جر السعادة الى فرنسا بعد مافكرت في جر المجد اليها ...

« أجل انه لا يخفى علي اني مضطر الى بذل بعض التضحيات ومع ذلك لاشيء يجعلني أحجم عن هذا الامر ... الوداع ياحضرة الجنرال وحين تخاطب من قبلي الامبراطورين عن عقد هدنة لا اشك بأن الصوت الذي يطرق مسامعهما سيكون فصيحاً باعادته عليهما ذكرى الماضي » .

وعاد الجنرال مرفلد الى ذويه فزاد دهشهم على سرورهم بلقياه ولكن لم يلق ماحمله من كلام الصلح سوى آذان صماء فكانت عواطف العاهلين الشخصية وما ذكرهما به نابوليون خاضعة كل الخضوع لمقتضيات سياسة عامة لا تلين

صلابتها . فان المحالفة لم تشأ أن تقطع نظام صفوفها وتعـدل مزاحمها وتخفف ضرباتها مادام مجرى الحوادث مؤاتياً لها

وكان استئناف القتال ممكنا حدوثه في ١٧ منه لولا انهمار الامطار الغزيرة ووعورة الطرقات مما أدى الى تأخير وصول الجنرال بننغزن واضطرار الحلفاء الى ارجاء المحاربة الى الغد . وقد ضلّل سهم ظنّ نابوليون بافتكاره بأنهم يتباحثون في معسكر أعـدائه في المقترحات السلمية التي فوض الى المسيو دي مرفلد أمر إبلاغهم إياها فباشر الحلفاء التحرك في ١٨ منه منذ بزوغ الفجر. إلا أن العاهل استدرك كل شيء فقضى ليلته باعداد العدد اللازمة فـكان يسير من مضربه الى خيام قواده فيوقظ ناي في ريدنتز ويتعهد برتران في لندنو ويصدر أوامره في كل مكان بوجوب الاستعداد للغد

وبوشر إطلاق المدافع على طول الخط في الساعة العاشرة ووجـه الحلفاء جهدهم بنوع خاص على قريتي كونوتز وبروبستيد وقد علقوا آمالهم بالنصر على الاستيلاء عليهما وعالجوا أربع مرات أخذ بروبستيد ففشلوا في المرات الاربع. ودافع الجيش الفرنسوي عن مواقفه في جميع الجهات مدافعة الاسود للمحافظة عليها . وسعى جيش سيليزيا على غير طائل لاخذ قرية هال واحتلال ضفة البارتا اليسرى . وبعـد ما تمكن مرات متوالية من عبور النهر اكرهه البرنس دي لاموسكوفا على الرجوع ادراجه الى الضفة الاخرى

وكان النصر في الساعة الثالثة قد مال الى الفرنسويين إلا أنه طرأ حادث من الحوادث التي لا يستطيع فن الحرب تلافيها أو تداركها والتي ضللت غير مرة منذ سنة من الزمان حسبان نابوليون فتغير في الحال وجه الامور : فان الجيش السكسوني وفرسان الورتمبرجيين انحازوا الى الحلفاء ولم يتمكن القائد زيشو المحافظ على ولائه للفرنسويين من ابقاء أكثر من خمس مئة رجل تحت قيادته . وقد صوب مدفعيو هذا الجيش مدافعهم الاربعين على فرقة الجنرال دوروط

على أن هذه الخيانة التي لم يسبق لها نظير والتي جرت في ساحة الحرب عينها جعلت فراغا في الصفوف الفرنسوية . والقت الى الحلفاء بمقاليـد الموقع المهم المقضي على السكسونيين بالمدافعة عنه . وعبر برنادوت في مدة قصيرة نهر البارتا واحتل ريدنتز . وكان بينه وبين ليبزيك نصف فرسخ حين اطلع نابوليون ذاته

بفرقة من فرق الحرس فانعش حضور العاهل قوى جنوده وأضرم في أفئدتهم نيران الحماسة فما مكثت ريدنتز ان عادت الى حيازة الفرنسويين. ولما دخل الليل كان هؤلاء يجرون ذلاذل الانتصار كما فعلوا في اليوم السابق ولكنهم أجبروا أن يكرروا كل يوم المعارك الدموية التي لم يكن من نتيجتها سوى إضعافهم والتي لم يستفيدوا منها مع نيلهم الظفر فيها غير فتح الطريق في وجوههم للعودة الى مواطنهم .

ولم يلق نابوليون بدا بعد أعمال جيشه العظيمة في ميادين ليبزيك كما أنه لم يلق بعد أعمالهم الخطيرة في يوم فاشو بدا من الاستعداد للاشتباك في موقعة جديدة في الغد وجاء الجنرالان صوربيه ودولولوى في الساعة السابعة مساء وأخبراه أن الذخائر الحربية نفدت من عندهم وان مالديهم منها يكاد لايكفيهم الا ساعتين . وقد أطلق الجيش الفرنسوي من خمسة أيام أكثر من مئتين وعشرين ألفاً من قذائف المدافع ولم يبق لهم أن يختاروا مكاناً يجددون فيه ذخائرهم الا مغدبورغ وارفرت .

ولم يمكنهم التردد في مثل هذه الحال فآثر نابوليون ارفرت فأمر في الحال بالتراجع بمضايق لندنو وكان الجنرال برتران محافظاً عليها ببسالة وقد سد طريق المرور بها في وجه فيلق جيولي النمساوي .

وغادر العاهل مضربه في الساعة الثامنة مساء فدخل ليبزيك ونزل في نزل فأخبره الدوق دي باصانو مادار بينه وبين ملك الساكس من الحديث فقد كان هذا الملك الجليل شديد الاسف على ما كان من تصرف جيشه ولم يشأ أن يفترق عن العاهل بل رغب في مشاطرته مايصيبه من الحظ . فقال نابوليون : « انهذا الملك كريم فاضل فهو لايزال على ما كان عليه من قبل ولم يتغير عما كان عليه في سنة ١٨٠٧ حين كتب على أقواس النصر : الى نابوليون من فريدريك أوغسطوس المعترف بالجميل . »

وقضى العاهل ليلته وهو يملي أوامره على الدوق دي باصانو والدوق دي فيسنس وكان معظم الجيش قد جلا عن الاماكن التي كان نازلا فيها في ١٩ منه عند طلوع الصباح فر فكتور واوجيرو في المقدمة . وفوض الى مرمون أن يدافع ما أمكنه عن دسكرة هال ورينيه عن دسكرة روزنتال وناي عن الدساكر

في الناحية الشرقية. وأمر لوريستون ومكدونال وبنياتسكي متولي قيادة الساقة بأن يظلوا في الجهة الجنوبية للمحافظة على الالستر ريثما يتمكن فيلقا ناي ومرمون من عبور النهر. وتلقى بنياتسكي الامر من العاهل ذاته فقال له نابوليون: « يا أيها الامير دافع عن العسكرة الجنوبية . » فأجابه : « يامولاي معي عدد قليل من الجنود . » فقال نابوليون : « يمكنك الدفاع بمن معك . » فقال بنياتسكي : « آه يا مولاي سنثبت في مواقفنا ونحن مستعدون للموت في سبيل حب جلالتك » . وقد حافظ هذا البولوني النبيل المنكود الطالع على كلامه ولم يمد من ذلك الحين يبصر الامبراطور .

واقترحوا على نابوليون أن يجعل ليبزيك رأساً للمضيق وأن يحرق أرباضها الواسعة فيحول دون اقامة أعدائه فيها ويفسح المجال للجيش الفرنسوي للتراجع والخروج من مضيق لندنو .

وجاء في التقرير الرسمي أنه مع ما في خيانة الجيش السكسوني من الفظاعة لم يرض العاهل بأن يتلف مدينة من أجمل مدن المانيا وفضل فقدان بضع مئات من المركبات على اتيان مثل هذا العمل الدال على الهمجية .

ولما شعر الحلفاء بحركة الفرنسويين التقهقرية أغارت جميع فرقهم على ليبزيك وقد انحلت عقدة صبرهم لدخولها واهلاك مؤخرة الفرنسويين فيذيعوا على الملأ طرا ان المانيا عادت الى الحلفاء .

ولقي الحلفاء في ضواحي المدينة مقاومة عنيفة وغير منتظرة فان مكدونال وبنياتسكي الموكول اليهما أمر خلاص الجيش نهضا حق نهوض باعباء المهمة الخطيرة الشريفة المنتدبين لها . وبينما هما عند أبواب المدينة يصدان العدو عن دخولها كان العاهل في قصر ملك الساكس يبث لهذا الشيخ ما يشعر به من الكآبة بتركه اياه بين أعدائه وكان يطيل الحديث معه ويؤخر الوداع رجاء أن يبعد ساعة الفراق . ولما سمع قصف المدافع في ناحية هال نهض الملك وألح على العاهل بمغادرة ليبزيك بأسرع مايمكن قائلا له : « حسبك مافعلت فأنت تبالغ في اظهار مكارم أخلاقك بتعريضك ذاتك للعطب ببقائك دقائق أخر تجاذبنا في أثنائها أطراف الحديث . » فأبى نابوليون في مؤتنف الامر اجابة طلبه ولكن لما اقتربت أصوات المدافع اتحدت الملكة والاميرة اوغسطا مع الملك في الحاحهما

على العاهل بالانصراف . فأذعن نابوليون لالحاحهما وقال : « لا أشاء أن أفترق عنكم الا عند دخول العدو المدينة ومن المقضي علي أن أظهر لكم هذا الدليل الساطع على اخلاصي لكم وأرى ان بقائي هنا يضاعف مخاوفكم فلا أصر على البقاء. أودعكم وأؤكد لكم أنه مهما طرأ من الحوادث فان فرنسا ستؤدي لكم دين الصداقة الذي عقدته معكم . » ورافق الملك العاهل الى الدرج فتعانقا وكان ذلك آخر العهد بهما .

ولم يكن خوف حلفاء نابوليون في محله فان مرمون وناي ورينيه ومكدونال ولوريستون وبنياتسكي كانوا قابضين بأيديهم على أزمة المواقع المفوض اليهم أمر حراستها وقد تمكنوا من رد هجمات بلوخر وغيره من قواد أعدائهم ردا عنيفاً فتمكن العاهل من الخروج من ليبزيك والوصول الى لندنو بلا مشقة .

الا أنه طرأت حوادث جديدة لا يتسنى للدهاء تداركها فجرت وراءها نكبات جديدة على الفرنسويين : وتحرير الخبر أنه في أثناء مدافعة ساقة الفرنسويين عن ضواحي المدينة والجلاء شيئا فشيئاً عنها هبت عواصف الخيانة في صدور السكسونيين المرابطين في المدينة فأطلقوا من أعلى الاسوار القذائف على الفرنسويين فأسرع هؤلاء في التراجع الى الجسر الكبير الممتد فوق الالستر عند مدخل مضيق لندنو . وكان هذا الجسر ملغوما . وقد أمر الكولونل منفور بنسفه حالما تبلغ ساقة الجيش الضفة الاخرى ارادة أن يتأخر زحف العدو . وقد حدث غلط فاضح كانت له نتيجة وخيمة فان الجندي المعهود اليه في أمر نسف الجسر والمعطى الذبالة اللازمة لذلك ظن أن جميع الفرنسويين مروا وان الحلفاء وصلوا عند رؤيته القذائف ترمى من الاسوار على ساقة جيش الفرنسويين فأضرم النار في الالغام فحدث انفجار هائل أيقظ الامبراطور النائم في مطحنة لندنو والرازح تحت أوقار التعب والنعاس . ولما نسف جسر الالستر الكبير كانت أربعة فيالق من الفرنسويين باقية في المدينة وضواحيها ومعها مئتا مدفع ونيف . فأي مصير كان مقدرا لاولئك الشجعان المتولي قيادتهم مكدونال ورينيه ولوريستون وبنياتسكي ؟ فقد كان عددهم يقل عن عدد أعدائهم ولم تكن المقاومة ميسورة لهم وقد سدت في وجوههم طرق التراجع يد فرنسوية بغير قصد فقذف مكدونال بنفسه الى الالستر ونجا سباحة . ودفع بنياتسكي جواده



نابوليون فى سمولنسك . تدخل عليه امرأة حاملة طفلها وتخبره أن زوجها قتل فى الحرب فيرق لها الامبراطور ويطلق اسمه على الطفل و يجرى عليه رزقا خاصا


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى النهر فسقط في وهدة لم يخرج منها . واختفى رينيه ولوريستون أيضاً فظن أنهما قتلا أو غرقا . وبلغ عدد الذين وردوا مورد الهلكة أو سقطوا في أيدي الحلفاء في ذلك الحادث الاليم اثني عشر الفاً .

واستولى الحلفاء على ليبزيك فسيق ملك الساكس الى برلين ليكفر فيها عن أمانته نحو نابوليون وقد رذلته دول أوربا العظمى . وشاطر برنادوت أعداء الاسم الفرنسوي في ليبزيك انتصارهم وسكرهم بخمرة الظفر وجلس على مائدة الملوك الساعين لاعادة الحق الالهي بتقليمهم أظفار مجد نابوليون وسؤدده .

وكان الملوك العريقون في الشرف يشعرون بأنهم محتاجون الى كتمان تفوقهم ومقاصدهم السرية وأغراضهم الخفيـة عن الملك الخامل الأصل كما كتموها عن الحزب الحر في ألمانيا مع انتصار الملك والحزب لهم لمناهضـة العاهل العظيم ومواقعته . وستنهض أوربا القديمة نهضة مقرونة بالعظمة أمام مساعديها المغفلين وتنكر عليهما ما وعدتهما به حين تبلغ قصوى أمانيها وتقضي لبانتها من العدو العام

وأدرك نابوليون لمـا نزلت به الضربة الاخيرة أن ثمة قوة لا تقهر وقدرة لا يفل لها حد تعبثان بجميع تدابيره وتضللان جميع أغراضه ومساعيه وتجرانه الى وهدة الدمار وهو ينتقل من انتصار الى انتصار

وبعد ما أبدى العاهل أسفه الشديد على الذين نشبت بهم مخالب المنية في ذلك اليوم المشؤوم أمر بالـكولونل منفور والجندي الذي نسف جسر الالستر قبل الاجل المضروب أن يمثلا أمام مجلس حربي . ثم أنه استأنف السير الى ارفرت . فاتخذها مركزاً لاركان حربه في ٢٣ منه وكتب منها للامبراطورة أن الجيش الفرنسوي الظافر وصل اليها كما يصل الجيش المكسور .

وبرح نابوليون ارفرت في ٢٥ منه زاحفاً الى الرين نخف النمساويون والبافاريون الى ملاقاته معالجين سـد طريق المرور في وجهه عند هانو . الا أن ما أصاب الجيش الفرنسوي من النكبات في ليبزيك لم يبلغ من ذلك الجيش ولم يضعفه لانه لم يلبث أن جعل المتجرئين على التمرس به ومواثبته يندمون على تطويحهم بنفوسهم في ذلك المأزق الحرج . ولم يحتفل بالستين ألفاً من النمساويين والبافاريين الذين يقودهم دي ريد ومعهم ثمانون مدفعاً . وكان فرسانهم يشنون

الغارة على الفرنسويين مبرقين ومرعدين الا أن المدفعيين الفرنسويين حين أحاط بهم أعداؤهم من جميع الجهات وعللوا نفوسهم بالظفر بهم تناولوا بنادقهم ودافعوا بها عن مدافعهم . وشهر دروو الشجاع حسامه وحرض رجاله على الثبات ريثما يصل نَنسوتي بفرسان الحرس لنجدتهم .

وفقد البافاريون عشرة آلاف جندي في وقعة هانو وجرح وقتل ستة من قوادهم وتركوا كثيراً من المدافع والرايات في قبضة الفرنسويين وذكر نابوليون أن فرقتين من حرس الشرف شاطرتا المدرعين والدراغون والفرسان الاخطار والفخار في ذلك اليوم العصيب .

ووصل العاهل الى فرنكفور في أول نوفمبر فكتب منها الى ماري لويز ينبئها أنه مرسل اليها عشرين راية غنمها في فاشو وليبزيك وهانو . وكانت هذه الاسلاب قد اشتريت بالدم الغزير . ودخل نابوليون في الغد مايانس في الساعة الخامسة صباحاً . فعني أياماً بتنظيم الجيش الموكول اليه أمر المرابطة على خط الرين وعاد ليلا الى فرنسا في ٨ منه فوصل الى سان كلود في ٩ منه في الساعة الخامسة مساء .

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

تقريظ مجلس الشيوخ للامبراطور — تعبئة ثلاث مئة الف مقاتل عقد المجلس الاشتراعي وحله

وعاد نابوليون الى عاصمته مرة ثانية في خلال سنة بعد ما خانه حلفاؤه وقلب له الجد ظهر المجن وتعقبته جميع الجيوش الاوربية ولم يكن لديه مايقاومها به الا بقايا جيشه الساقط في ساحة القتال سقوطا مجيداً تحت ضربات الغدر والخيانة وتقلبات الاقدار . وقد عود نابوليون الباريسيين سماع هتاف النصر وتهليل الظفر .

فهل نووا أن يطالبوه في هذه المرة بتأدية الحساب عن تغير الحظ عليه والخيانات النازلة به ؟ وهل نسيت فرنسا أنه لم يشتبك في الحرب الا لأجلها » وأزمعت أن تقول له ما قاله في غابر الحين صاحب رومية لفاروس : « رد علي كتائبي » ؟

كلا ان الشعب العظيم لا يسود صحيفة مجده بهذه المظلمة ويجحده فضل الرجل الكبير : فلا يتزلف اليه كما فعل مجلس الشيوخ ولا يسلقه بألسنة حداد كما فعل المجلس الاشتراعي بل يرثي للهفوات السياسية المرتكبة في أبان اقبال الدنيا عليه ويحاذر أن يتخذها حجة للشكوى والتذمر في أوان تنكر الحظ عليه ويكتشف غريزته المعصومة من الخطأ وراء الستار الملكي الذي سدله دهاء الثورة بشكل منحوس ويصر على تسخير مساعدته بدمه وأمانيه لذلك الجبار الذي كان وهو لابس الحلة القنصلية ومزين بغار النصر في مصر وإيطاليا يحتفل في سنة ١٨٠٠ في الميدان الكبير بتذكار ١٤ يوليو ويحيي بحماسة الشعب الفرنسوي داعياً إياه باسم مولاه . وإذا لم تعبر مجالس الحكومة الكبرى عن أفكاره فانه يبحث في العزلة عن وطني شهير ويتخذه ترجماناً له . وهذا الوطني الجريء الذي أقام النكير دون سواه على انشاء الامبراطورية جاء وقدم ذاته لخدمة العاهل فجاء عمله هذا بمثابة شكوى من الحكام الذين حبسوا ألسنتهم مدة طويلة وانتظروا ليظهروا اراداتهم الضعيفة في المقاومة تشجيعاً من أصوات مدافع الاجنبي وعضداً في المعاطب الجسيمة المتكنفة الامبراطورية

وكان هذا الوطني العظيم يدعى كارنو وقد اعتزل المناصب العالية والتدخل في الشؤون العامة ولم يجر من لسانه كلام التملق حين كان نابوليون يرى كبراء فرنسا وملوك أوربا المتعجرفين يتزاحمون على تعفير جباههم عند أعتابه فكتب كارنو الى الامبراطور يبسط له استعداده لخدمته فانه مع ما كان يرى في أعماله من المعاكسة لروح العصر كان يرى فيه دائماً ممثل الجنسية الفرنسوية ولسان حالها . فاجابه العاهل مفوضاً اليه أمر الدفاع عن انفرس

وبادر مجلس الشيوخ الى المثول أمام العاهل مكرراً تملقه المعروف فاجابه نابوليون قائلا : « من سنة من الزمان كانت أوربا قاطبة تسير معنا واليوم تسير أوربا جمعاء ضدنا : وهذا دليل على أن رأي العالم كله صدى لتفوق فرنسا

أو لتفوق بريطانيا العظمى واذا خذلتنا الامة ولم تسندنا بيأسها وقوتها خشينا من سوء المصير

« وستقول الاجيال الآتية أنه طرأت أحوال كبيرة خطرة بيد أنها لم تكن فوق مقدرة فرنسا ومقدرتي » .

وطلبت الحكومة في الغد في ١٦ نوفمبر تجنيد ثلاث مئة الف محارب فقرر مجلس الشيوخ إجابة طلبها .

ولما كان نابوليون في غوتا في ٢٥ اكتوبر أصدر أمره باجتماع المجلس الاشتراعي وحين وصل الى باريس علم أن يداً معادية تسعى للقبض على زعامة المجلس والتسلط على أفكار أعضائه وآرائهم فاستعان بما له من السلطة السامية وكان يعلم كيف يستخدمها عند الحاجة وأصدر أمراً عالياً قاضياً بان يسمي هو زعيم المجلس الاشتراعي وفي الوقت عينه سمى في الحال الدوق دي ماصا القاضي الاكبر رئيساً لذلك المجلس وأقام موله مستشار الدولة وزيراً للعدلية بدلا منه

وجعل نابوليون من وكده تهيئة جميع معدات الدفاع عن السلطنة الفرنسوية فأصدر أمراً في ١٦ دسمبر يقضي بانشاء ثلاثين فرقة من الحرس الوطني وتخصيصها للمدافعة عن الحصون

وافتتحت جلسات المجلس الاشتراعي في ١٩ منه

وأحال العاهل الى مجلسي النواب والشيوخ الاوراق السياسية المتضمنة سر المفاوضات في خلال الحرب الاخيرة والمبينة التدابير الحالية التي اتخذتها الدول العظمى . فعين كل مجلس من المجلسين مفوضاً للتدقيق في الاوراق وجعل المسيو دي فنتان زعيما لمفوض مجلس الشيوخ والمسيو لينه نائب الجيروند رئيساً لمفوض المجلس الاشتراعي

وظل المسيو دي فنتان مقيما على ميله الى الامبراطورية وصدق خدمته لنابوليون فقال أنه يقضي العجب من تصريح الملوك المتحالفين القائلين انهم لا يتعمدون الغض من كرامة الشعب الفرنسوي وانما يقصدون تذليل العاهل . وقال ذلك الخطيب في مجلس الشيوخ : « ان هذا التصريح لم يسبق له مثال في سياسة الملوك فلا ينبغي لهم أن يبسطوا شكواهم بعضهم للبعض بل يجب عليهم أن يذيعوها بين الشعوب . أو لا يكون مثل عملهم هذا وخيم التبعة مر المجتنى ؟

فهل يحسن بهم أن ينشروا في مثل هذه الايام التي تلقى فيها الافكار العابثه بها أمراض الكبرياء مشقة عظمى للخضوع لسلطة تحميها بخضد شوكة جرأتها؟ ومن هو الموجه اليه هذا التهجم؟ هو رجل عظيم يستوجب معرفة الجميل من جميع الملوك فانه باعادته عرش فرنسا سد فوهة بركان كان يتوعدهم جميعهم» .

على أن هذا الكلام المبين مافطر عليه اولئك الملوك من التغفل والجحود أوضح بصورة جلية مايحتاج اليه العامل في مثل هـذه الاحوال لنسخ مايريد نسخه من اذهان الشعوب . وكان نابوليون قد ظفرغير مرة باعداء فرنسا بقوة الديمقراطية العظيمة وبقوة الحركات الثورية الشـديدة وجعل الناس يعتقدون أنه لا يشق له غبار ولا يجارى بمضمار . ولمـا مال الى اعادة الانظمة القديمة وتحرير أوربا العتيقة فقد ما له من المزية الاصلية والطبيعة الشعبية وهما التمويذتان اللتان كانتا خير معين له على اجراء ما أجراه من المعجزات في حياته ولم يبق داهية ذلك العصر القارن النصر بأعلام الثورة الفرنسوية . على أن ذلك الجبار الشعبي الذي جعل دهاء المـاضي يخضع له في خلال سنين طويلة أفضى به الأمر الى الخضوع في نوبته لذلك الدهاء حين جاهر بالمحاماة عن الملكية والارسطقراطية . فذكره متملقوه بجنوحه اليهما وهنأوه على ذلك الفعل جهاراً إلا أنهم بمجاهرتهم بهذا الامر وبذكرهم شكر أوربا الملكية حركوا ساكنات الاستياء في أفئدة الاحرار الاوربيين الناشرين ألويتهم في ألمـانيا من الطرف الواحد الى الطرف الآخر والواعدين بوضع دستور في برلين بعدماشرعوا بوضع دستور في قادس . ودعا ذلك الامر أيضاً الى إثارة روح الاحزاب في الداخل بالتهجم على مبادىء الديمقراطية في ذلك العصر وبتصوير نابوليون عدوا لهذه المبادىء . ومما بعث على الخوف والحذر ما بسطه المسيو دي فنتان مما لم يكن يخلو من الحقيقة . وكان نابوليون ولا مشاحة يسعى لتوفيق ما وضعه من الأنظمة الجديدة مع الانظمة القديمة . ولو لم يرم الى هذه الغاية لما خذله أنصار المبادىء الجديدة ولما ولاه الحظ صفحه ولمـا خانه أحلافه ولمـا دهش الملأ من سرعة هبوطه بعد اصابته في حرب واحدة انتصارات كثيرة متوالية .

ولم يبسط المسيو دي فنتان سوى جهة واحدة من حياة نابوليون السياسية وهي الجهة التي عملت أكثر من سواها على زيادة برودة البعض ونفور البعض الآخر . ولم يتذمر العاهل من النوع الذي ترى فيه أعماله وموقفه تجاه الشعوب والملوك فان زعيم الأسرة الرابعة وجد فكره ممثلا في خطاب ذلك الملكي القديم الذي عهد اليه مجلس الشيوخ في التعبير عن عواطفه . فشكر نابوليون لوفد المجلس عواطفه ووصف بعد ذلك موقف فرنسا بالكلمات الآتية التي لم يكن من ورائها تسكين للخواطر :

« لقد اطلعتم على الاوراق المبسوطة لكم وعلمتم ما بذلته في سبيل السلم فسأجري بغير تأسف ما اقترحه علي أعدائي من التضحيات التي تقتضيها قواعد السلم المقبولة عندي . وليس لي من غرض في الحياة سوى سعادة فرنسا .

« فالبيارن والالزاس والفرنش كنته والبرابان اصطلمت ومزقت أحشائي أصوات هذه الناحية من بلادي واني استصرخ بالفرنسويين لنجدة الفرنسويين . »

وأصاب نابوليون في قوله ان جزءاً من فرنسا اصطلم فان الجيوش الفرنسوية المخيمة في اسبانيا اكرهت على اخلاء تلك الديار واجتياز جبال البرنات عائدة إلى مواطنها ومنهزمة أمام الجيش البريطاني الاسبانيولي الجاد في أثرها والمحتل بعض الاراضي الفرنسوية وعبر الحلفاء في الشمال نهر الرين في جهات كثيرة . وكان يشق على البرنس أوجين المحافظة على موقفه في ماوراء الألب . ودخلت الحصون التي على ضفاف الألب والاودر في حيازة الحلفاء وسلمت مدينة دنتزيك . وصارت الفرصة ملائمة للحزب المعاكس للثورة الذي لم يكن قد بلغ منه القنوط وعضده الحزب الملكي في بريطانيا العظمى بما تيسر له من الوسائل وهو الذي استمال اليه جميع المحالفات المؤلفة لخضد شوكة نابوليون وتذليله . وان البوربون الذين نسيت الأجيال الحاضرة اسمهم ظهروا عند الحدود الاسبانيولية ووزعوا انشرات كثيرة في الولايات الفرنسوية الجنوبية ونسجوا على منوال حلفائهم في ماوراء الرين باستنصارهم الاحرار ولم يخشوا من الظهور بذلك المظهر وسلوك ذلك المسلك واتهام نابوليون بأنه يسعى لاعادة العرش والمذبح فيكون والحالة هذه أعداء الثورة أنفسهم قد اعترفوا بأفضليتها وجاهروا بأنها أعرضت عن

الامبراطور رجاء ألا يعود القوم يتوهمون أن الامبراطور لا يقهر

وهب أنصار البوربون ومريدوهم في غربي فرنسا وجنوبها بنوع خاص وعمد بعض الجنود الفارين من الجندية وفي بعض الجهات الى عقد اجتماعات قرروا فيها بمؤازرة فريق من المتآمرين فتح أبواب العداء وأنشئت جمعية في باريس انتمى اليها أفراد من غلاة الدستوريين فكانوا صلة بين المؤتمرين في الداخل والمؤتمرين في الخارج .

واختار مفوض المجلس الاشتراعي تلك الفرصة ليجاهر بأن حكم الاستبداد خلف حكم الشريعة وان تمديد أجل الحرب تعزى أسبابه الى الامبراطور والى أفكاره الرامية الى التوسع والسيادة مما يعتبر عقبة كؤودا في وجه السلم العامة . وكأن الرزايا والاخطار العامة جرأت المفوض فرأى أن يضع شروطاً لما طلبه نابوليون من نواب الامة من المساعدة للذود عن حياض البلاد ودفع غزوات الاجانب عنها . فاغتاظ العاهل من هذه الجرأة المتأخرة عن حينها واقترع أربعة أخماس المجلس على طبع تقرير المسيو لينه وتوزيعه الا أن ارادة المولى الاكبر ألغت قوة الاقتراع وأوقف الطبع في ٣٠ دسمبر وضبطت المسودات وجاء نابوليون الى مجلس شورى الدولة وكشف له اسرار قلبه بالكلام الآتي :

« ياحضرة السادة تعلمون حقيقة الاحوال وكنه الاخطار التي تهدد الوطن وقد ظننت من دون أن اضطر الى ذلك أنه يجب علي أن أوقف عليها بلطف أعضاء المجلس الاشتراعي ولكنهم اتخذوا من عملي هذا الدال على ثقتي بهم سلاحاً لمقاتلتي أي لمناهضة الوطن . فالمجلس الاشتراعي بدلا من أن يعمل على خلاص فرنسا يعمل على تعجيل خرابها فهو يخون ما يجب عليه الذود عن ذماره وأنا أفعل ما يجب علي أن أفعله وعليه اني أحله . »

ان أعضاء المجلس الاشتراعي مع ما اتخذه نابوليون من التدابير لانكار عملهم جاؤوا في أول يناير الى التويلري ليرفعوا اليه تهانئهم بدخول العام الجديد . وحالما مثلوا في حضرته شعر بأنه عاد اليه ماشعر به من الغضب عند ما انتهى اليه لاول مرة ماعقدوا عليه عرى العزائم فانتهرهم بشدة بهذا الكلام :

« أمرت بالغاء طبع قراركم فهو مهيج للافكار . ان أحد عشر جزءاً من اثني عشر جزءاً من المجلس الاشتراعي تتألف من كرام القوم وأنا أعلم ذلك

وأجلهم وأما الجزء الآخر الباقي فانه ليس فيه سوى مشاغبين ويعد أعضاء المفوض الذي انتخبتموه من هذا الجزء (وكان ذلك المفوض مؤلفاً من لينه ورينوار ومين دي بيران وفلوجرغ) فالمسيو لينه خائن وله علاقات بوكيل المملكة في بريطانيا العظمى بواسطة دي ديسيز وأنا أعرف ذلك ولي عليه أدلة مقنعة والباقون مشاغبون .

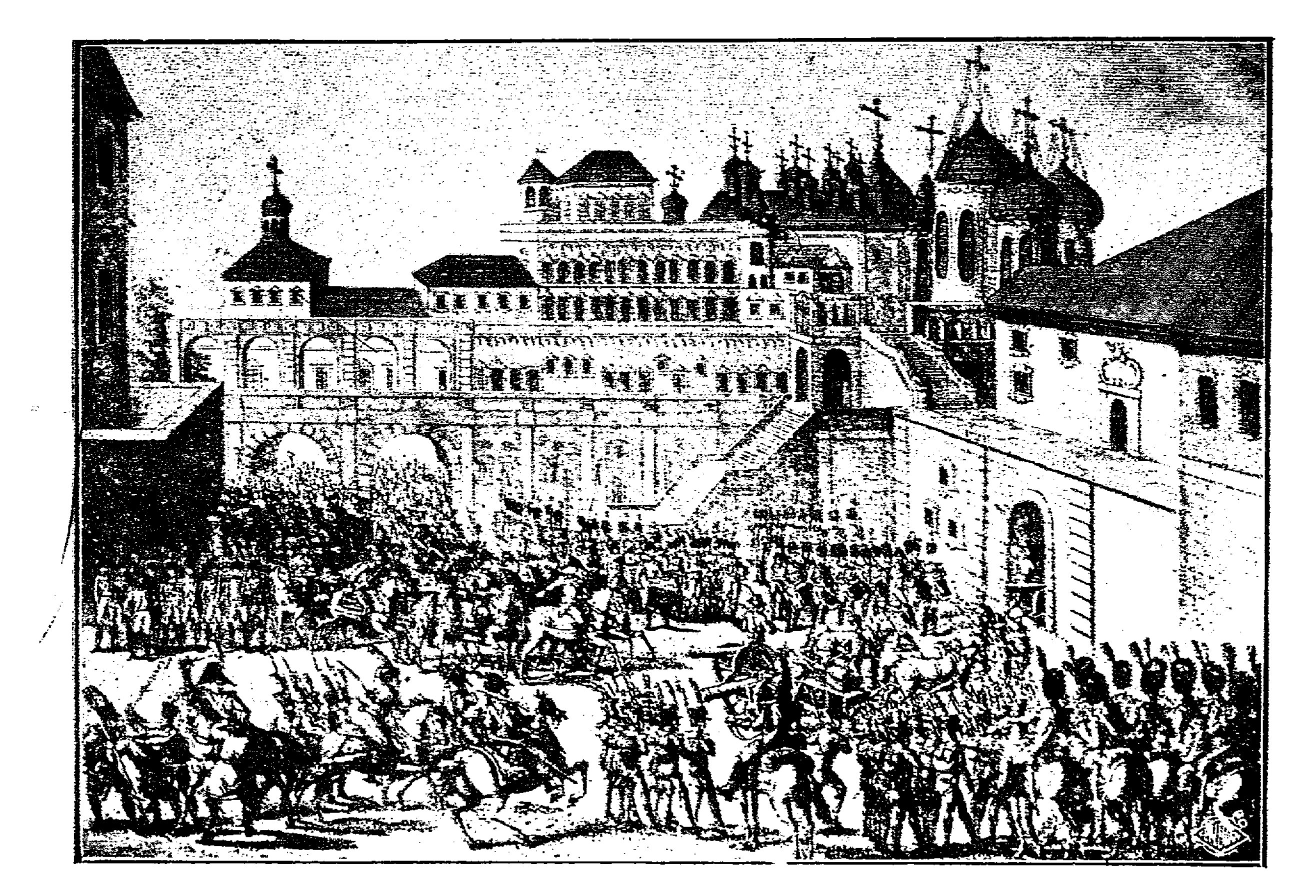
«تتوسلون في قراركم لفصل العاهل عن الأمة فأنا وحدي ممثل الشعب ومن منكم يستطيع أن يأخذ على عاتقه مثل هذا الحمل ؟

« ليس العرش سوى خشبة تغشيها القطيفة . ولو أردت تصديقكم لأعطيت العدو فوق ما يطلب مني ولأصبتم السلم في مدى ثلاثة أشهر أو هلكت .

« فالاعداء يشتدون علي أكثر مما يشتدون على فرنسا ولكن هل ينبغي لي من جراء هذا الأمر أن ادعهم يجزئون دولتي ؟

« أو لا ترونني أضحي بكبريائي وأنفتي في سبيل الصالح ؟ أجل اني أنوف لأني شجاع ولأني فعلت أموراً خطيرة لأجل فرنسا فقراركم غير جدير بي وبالمجلس الاشتراعي وسأطبعه يوماً من الأيام لكي يكون مجلبة للعار والخزي على مجلسكم وقد شئتم أن تقنعوني بالخسيفة والغضاضة ولكنني من الذين يقولون : المنايا ولا الدنايا !

« ارجعوا الى منازلكم ... وهب كنت مخطئاً فلا يحسن بكم أن توجهوا الي ملامة علنية فالناس يغسلون الملابس القذرة في البيت . وفضلا عن ذلك أرى ان حاجة فرنسا الي أشد من حاجتي اليها ! »



دخول الفرنسويين الى موسكو فى ٤ سبتمبر ١٨١٢



الفصل الثالث والثلاثون

ابتداء حرب سنة ١٨١٤

« ان حاجة فرنسا الي أشد من حاجتي اليها ! » ما أقوى هذا الكلام الصادر عن كبرياء شديدة في ذلك الداهية الصليب العود الشاعر بقدرته والعارف مبلغ قوة ذراعه. إلا أن الداهية لا يخلو في غالب الاحيان من الاوهام بأزاء سر قوته أجل ان نابوليون كفرد وكرجل تاريخي لا يحتاج ولا جرم الى فرنسا ليتمتع بمجده وينقله الى الأجيال الآتية ولكنه كامبراطور وزعيم دولة عظيمة لا يستطيع الاستغناء عن فرنسا وكيف يتسنى له أن يدافع بدونها عن تاجه واسرته ؟ وكيف يقدر أن ينجو من الموت السياسي الذي تتوعده أوربا جمعاء بانزاله به ؟

فاذا صح من وجه آخر أن فرنسا تحتاج أكثر مما كانت عليه من قبل الى سيف نابوليون لمقاومة جيوش الملوك المتحالفين وتخليص أرضها العائث فيها العدو أفلا يكون محققاً أن نجاح الغزوة قد يجر وراءه دمار السلطنة وسقوط ذلك الرجل المقدام سقوطاً لا يرجى له من قيام بعده وألا يكون سوى انكسار وقتي وحادث عرضي في حياة شعب عظيم. وقد قال عنه الشاعر فيما بعد انه اذا سقط فيكون سقوطه « كصاعقة تهوي على الارض من عل » ولا ينبغي لنا أن نذهل عما قيل مرات كثيرة من أن الصدمات والنكبات التي تجتاح الملوك الأسر والانظمة جرفاً من دون أن تمس الأمة يجب أن يطلق على فرنسا ون سواها.

وكأن نابوليون حين فاه في حنقه بتلك الالفاظ الصادرة عن الكبرياء والموجهة الى نواب فرنسا نسي هذا المبدأ المأثور. فالمجلس الاشتراعي وان يكن قد انقاد إلى أفكار وبيلة المغبة وأماني مبنية على الحماقة وان لم يكن محبوباً عند الشعب من جراء أعماله الماضية لم يكن من الحكمة أن يعامل بمثل هذا الاحتقار وهذه الغلظة فانه مع ما كان لموقفه الدستوري من قلة الاهمية ومع

شدة انقياده الأعمى كان مصوناً باللقب الفخم الذي يحمله وقد تعود الناس أن يروا فيه ثمالة الديمقراطية وظل الطريقة الانتخابية . وكفى هذا الأمر أن يجعل كل من يتهجم عليه مستهدفاً لنبال العطب الوبيل . ومعلوم أنه يحدث غير مرة أن الملوك الذين يزعمون أنهم راسخو القدم على عروشهم يكونون قد خبروا بأنفسهم أن الارادة الفردية مهما قويت لا يمكنها التمرس بالمجالس النيابية ولولم يكن تمثيلها للأمة كاملا من دون أن يصيبها من هذا التمرس ما لا تحمد عقباه . وقد تحطم الصولجان غير مرة في يد القابض عليه المريد التحكك بصورة التمثيل الوطني .

أجل ان المجلس الاشتراعي ركب مركب الخطأ بما توخاه من العمل لمعاكسة أفكار نابوليون في زمن كان زعيم الامبراطورية الفرنسوية محتاجاً فيه الى ثقة الامة به ليتيسر له وقاية أرض الوطن من تهجم الاجنبي عليه . إلا أنه يترجح أن العاهل زاد ذلك الموقف حرجاً باعارته أهمية كبرى لمعارضة النواب غير المنتظرة وتحقيره إياهم تحقيراً علنياً : وكان بعد ذلك أن الاحزاب في الداخل ووكلاء الدول الاوربية استغنموا الفرصة من الخلاف الناشيء بين العاهل ومجلس من مجالسه الكبرى واستفادوا منها فائدة عظمى وسر أعداء فرنسا بأن يفرقوا بين نابوليون وبلاده ليسهل عليهم بلوغ مآربهم منه وأن يسمعوا نابوليون يصرح بانفصاله عن الامة بعد اندغامه بها كل الاندغام وبزعمه أن احتياجها اليه يفوق احتياجه اليها ولكن الشعب الفرنسوي لم ينقم عليه من جراء دعواه المقرونة بالعجرفة بل اندفع ابناؤه وراء ذلك القائد الكبير الى الالزاس واللورين وشمبانيا ليساعدوه على الدفاع عن أرض الوطن وشرفه .

وقبل انطلاق نابوليون من باريس أقام في ٢٤ يناير الامبراطورة ماري لويز وكيلة للامبراطورية فأقسمت الامبراطورة اليمين المألوفة في اليوم عينه أمام الامبراطور في مجلس شهده الأمراء وأصحاب الخطط العالية في الامبراطورية والوزراء .

ودعا اليه نابوليون قواد الحرس الوطني الباريسي في اليوم نفسه في قصر التويلري وأعلن أنه زعيمهم فقال لهم : « اني منطلق والثقة ملء أهابي لمحاربة العدو وأترك عندكم أعز ما عندي في هذا العالم أعني الامبراطورة وابني . »

وكان المسيو دي برنكا والمسيو دي ريفان من جملة القواد الذين حلفوا على الوديعة الموكول اليهم أمر المحافظة عليها .

وانتهى إلى نابوليون كتاب كارنو الآنف ذكره في هذا اليوم أيضاً فما أشد المناقضة التي بدت حينئذ لنابوليون فان كارنو أشد الناس تمسكا بالمبادىء الجمهورية بعد ما أعرض بجملته عن زخارف الملكية الجديدة وبهارجها تقرب عند تقلب الاقدار من ذلك الذي كان هو من أكبر المعارضين لجلوسه على العرش ومورات أول أمير من أمراء الامبراطورية وختن العاهل وصديقه ورفيقه القديم والحاصل منه على أسمى المناصب والمعالي والنائل منه تاج مملكة اختار الحين الذي قلب فيه الحظ ظهر المجن للمحسن اليه ليخونه وينحاز الى النمساويين والروس وينجدهم بتلك البسالة الفرنسوية التي طالما كانت شؤماً عليهم ... فقد رقي إلى علم نابوليون أن ملك نابولي سلك مسلك ولي عهد أسوج وان ختنه عقد مع حميه في ١١ يناير بايعاز من البريطانيين وثيقة تقضي عليه بمحاربة العاهل الفرنسوي بحيث ان البرنس أوجين الذي كان يناجز النمساويين اضطر أيضاً الى مكافحة جيش نابولي ومليكه المعتبر من أشجع القواد في الجيش الفرنسوي .

واقتضى موقف نابوليون في ذلك الحين أن يكون في ذلك الرجل الهمام شدة صريمة نادرة تجمله رابط الجأش ثبت الجنان عند رؤيته ما نزل به من النكبات وما أبداه نحوه أصدقاؤه من الغدر واللؤم . وكانت الطبيعة قد جادت عليه بعزيمة لا يفل غرارها فاستاء من الاعمال الدنيئة الصادرة عن ذويه والمقربين اليه لكنه لم يدعها تنال من أجلاده وتفت في عضده .

فتجلد وظهر على عواطفه ولم يعبأ بالعاصفة الهابة على جميع أنحاء فرنسا وزحف لملاقاة الحلفاء الذين خرقوا حرمة حياد سويسرا لغزو الولايات الشرقية فغادر باريس في ٢٥ منه في الساعة الثالثة صباحاً بعد ما أحرق أوراقه السرية وعانق زوجته وابنه ... للمرة الاخيرة . وجعل في ٢٦ منه فتري مركزاً لأركان حربه ووصل الى سان ديزيه في ٢٧ منه فطرد أعداءه منها وكانوا قد ارتكبوا فيها منذ يومين فظائع شتى . فابتهج السكان بحضور العاهل وجاء أحد الجنود القدماء الكولونل بولان وانطرح على قدميه معفراً جبينه ورافعاً اليه شكر الأهلين

المزدحمين حول مخلصهم كالبنيان المرصوص واستخلص نابوليون مدينة بريان وقلعتها من بلوخر بعد يومين وحمله خسارة تقدر بأربعة آلاف رجل وأسر عند أسفل درج القلعة قائداً اسمه هردنبرغ وهو ابن أخي مستشار دولة بروسيا . على أن بلوخر الذي لم يكن يظن أن العاهل في الجيش على مقربة منه أوشك أن يصيبه ما أصاب الضابط البروسياني وهو نازل من القصر ماشياً في مقدمة أركان حربه . وأضرم البروسيانيون النار في المدينة رجاء أن يحموا ساقة جيشهم في أثناء جلائهم عنها .

وانضم بلوخر الى شوارتزنبرغ في أول فبراير للهجوم على الروتيار وديانفيل حيث كانت ساقة الجيش الفرنسوي وكانا يتباهيان بوفرة عدد رجالهما ويؤملان اصابة ظفر داني المنال الا أن الجنرالين دوهيم وجيرار لم يمكناهما من تحقيق امانيهما: فدافع دوهيم عن الروتيار وجيرار عن ديانفيل. وكان المارشال فكتور مخيما في مزرعه جيبري فظل سحابة ذلك النهار محافظا فيها على موقفه. ولما جن الظلام ضلت بطارية من الحرس عن سواء السبيل فسقطت في كمين وأسرها العدو وقد تمكن المدفعيون من الفرار بخيولهم فألفوا فصيلة وجعلوا يقاتلون بشدة حين رأوا أنهم لا يستطيعون استرجاع مدافعهم .

وقد افتتحت تلك الحرب باليمن والنصر في موقعة بريان والدفاع عن الروتيار وديانفيل وجيبري إلا انه كان مع بلوخر وشوارتزنبرغ قوات هائلة بحيث ان نابوليون خشي أن يطوق أو يقطع خط الاتصال بينه وبين عاصمته ان هو أصر على البقاء في مواقفه في ضواحي بريان وفضلا عن ذلك زحفت فصائل من أعدائه الى سانس بطريق بارسور اوب واوكسير .

فاضطر العاهل الى الاسراع للمدافعة عن باريس لئلا يفاجئه خصومه فتراجع الى طروى ودخلها في ٣ فبراير ثم تراجع الى نوجان وأقام فيهـا مركز أركان حربه في ٧ منه . ونوى ان يقوم بحركات حربية سريعة تدل على الدهاء للتفريق بين الجيشين البروسياني والنمساوي لانه كان يتعذر عليه قهرهما متحدين

وكان لخطته بداءة حسـنة فانه نال النصر في ١٠ فبراير في شمبوبير ولـكن ضرباته وقعت هذه المرة على الروس فان قائدهم الاكبر أوسويف المقاتل باثنتي عشرة فرقة انكسر انكساراً تاماً وأسر هو وستة آلاف من ذويه ومات الباقون

غرقا في المستنقع أو قتلا في ساحة القتال . وغنم الظافر منهم أربعين مدفعاً وكثيراً من الذخائر والاسلاب

ولما كان من الغد كانت نوبة بلوخر في الانكسار فان نابوليون أدركه في منميرايل وحمله في ساعتين من الزمان خسارة فادحة بحيث أن فيلقه أوشك أن يفنى على بكرة أبيه وأصاب الفرنسويون في الغد انتصارات جديدة فان فصيلة من الحلفاء كانت تسعى لتأمين تراجع بلوخر فشلت في شاتوتياري فدخلها الفرنسويون والبروسيانيون والروس مختلطين بعضهم ببعض . وكان من جملة الاسرى الساقطين في أيدي الفرنسويين خمسة قواد من البروسيانيين والروس . وقضى العاهل الفرنسوي ليلته في قصر نيسل فعجل بقايا جيش أعدائه في التقهقر بحيث أن الناظر الى عملهم هذا توهم أنهم منهزمون . وكان جنود بلوخر وساكن في أثناء زحفهم الى باريس وهم مملؤون آمالا وافتخاراً يأتون كثيراً من الفظائع والمحظورات فلم يطق فلاحو شمبانيا هذه الاعمال المنكرة فهبوا هبة واحدة وهجموا عليهم في الاحراج وأسروا منهم كثيرين وجاؤوا بهم بعجب الى مركز الجيش الفرنسوي

إلا أن جيوش الحلفاء وان فقدت كل يوم عدداً غفيراً من رجالها كانت تعود الى القتال بهمة جديدة فقد تألبت أوربا جمعاء على فرنسا وأتت بجنود جدد ليقوموا مقام الجنود القتلى والجرحى أو الفارين : فان بلوخر بعدما انكسر جيشه في ١٢ منه في شاتو تياري استطاع في ١٤ منه أن يعود الى القتال في فوشان وهي قرية هجم عليها الدوق دي راغوزا وأخذها من اعدائه ثم استرجعوها ثم عاد فاخذها منهم مرة ثانية . وبينما وطيس الحرب حام فيها وقع الجنرال غروشي على ساقة أعدائه فمزق شمل مربعاتهم كل ممزق واغتنم العاهل الفرصة فأمر الفرق الاربع المقيدة بخدمته بأن تهجم فهجمت ودحرت مربعاً مؤلفاً من الفي رجل وأسرتهم . وجاء فرسان الحرس على أثرها وكان العدو قد انكسر فعجل في التقهقر من أمامهم ولكنهم تعقبوه وأعملوا السيف في قفاه حتى دخل الليل فلم يدعوا له فرصة تمكنه من وجدان أماكن يلجأ اليها في ذلك الليل البهيم بل شدوا وراءه وقطعوا نظام مربعاته وغطوا وجه الارض بجثث قتلاه واسروا منه عدداً كبيرا وغنموا منه مدافع كثيرة . وكانت ساقة جيش

الاعداء مؤلفة من فرقة الجنرال أوروسوف الروسية فأغارت عليها الفرقة البحرية الأولى بالحراب وضعضعت أركانها وأسرت منها الف مقاتل كان من جملتهم قائدهم الاكبر

وفقد الحلفاء في يوم فوشان عشرة آلاف اسير وعشر رايات وعشرة مدافع وكثيراً من القتلى والجرحى .

وعهد العاهل الى قواده في أن يقفوا في وجه شوارتزنبرغ ويصدوه عن اجتياز الاوب والسين ليتسنى له أن يزحف لملاقاة الجيوش العائثة فساداً عند المارن والمتهددة باريس من جهة رنس وسواسون ولكن القائد النمساوي لما لم يبق معه سوى قوات أدنى من قواته تقدم الى الامام بعدما الجأه الجنرال بورمون الى التوقف مدة يومين كاملين أمام أسوار نوجان . ولم ير المارشالان فكتور وأودينو من الحكمة أن يشتبكا في معركة لتوقيف الفلد مارشال النمساوي عن الزحف ولما علما أنه لا يتيسر لهما سد الطريق في وجهه تراجع الاول منهما الى نانجي والثاني الى نهر اليار وأمر أودينو بنسف جسري منطرو وميلون.

ولما انتهى الى العاهل ما كان من فوز شوارتزنبرغ ترك مرمون ومرتبه على المارن وخف بسرعة البرق الى الجهة التي كان الجيش النمساوي يهددها ووصل الى اليار في ١٦ فبراير وحمل مركز أركان حربه في غينيه وتوجه في ١٧ منه الى نانجي حيث كان فيلق وتجنستين الروسي القادم لعضد النمساويين والبافاريين وكان في مورمان فيلق آخر روسي بقيادة الجنرال باهلن فهجم العاهل على ذينك القائدين وكسرهما شر كسرة . واستولى الجنرال جيرار على قرية مورمان فدخلتها الفرقة الثانية والثلاثون دخولا سريعاً . ثم أن الفرسان الذين يقودهم الجنرالان دي فلمي وميلهو وتعضدهم مدفعية الجنرال دروو مزقوا في دقيقتين من الزمان مربعات مشاة الروس الذين سقطوا جميعهم في الاسر من قواد وضباط وجنود ويبلغ عددهم ستة آلاف محارب . وقد تمكن الجنرال وتجنستين بعد شق النفس من الفرار والوصول الى نوجان . ولما مر ببروفان أعلن أنه سيدخل باريس في ١٨ منه . ولما اضطر الى المرور بهذه المدينة وهو هارب اعترف بانه أصاب الفشل بدلا من الظفر الذي أمل الحصول عليه . وكان من

جملة ماقاله : « اني انكسرت ووقعت فرقتان من جنودي في ربقة الاسر وستبصرون الفرنسويين بعد ساعتين »

وقد تحقق إنذار القائد الروسي هذه المرة فان الكنت دي فلمي والمارشال أودينو زحفا الى بروفان واحتلاها وزحف الجنرال جيرار الى فيلنوف ليكنت وهجم على الفرق الباڤارية وكسرها . ولو لم يرتكب أحد قواد الفرنسويين الكبار خطأ بتأخره عن الهجوم في طليعة فرقة من الدراغون منتظمة تحت لوائه لاندحر فيلق الجنرال دي ريد كل الاندحار .

وقضى العاهل ليلة ١٧ الى ليلة ١٨ منه في قصر نانجي وهو مصمم على الزحف في الغد الى منطيرو وسير اليها المارشال فكتور ليسبق الجيش النمساوي ويهيء موقفه فيها في ١٧ منه مساء .

ولما وصل الجنرال شاتو الى منطيرو في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن عشر من فبراير وجد ان الجنرال بيانكي قد احتلها من ساعة من الزمان ونزلت فرقة في الاماكن المرتفعة المشرفة على جسورة المدينة . على أن الجنرال شاتو وان يكن عدد رجاله أدنى من عدد رجال أعدائه لم يسمع الا لصوت شجاعته وحمل عليهم حملة صادقة . ولما كان بين الفريقين تفاضل في القوة من جراء الفرق في العدد ولم يكن قد وصل اليه في مساء اليوم السابق النجدات المنتظرة انهزم في بدء الامر الا ان المقاومة العنيفة التي أبداها مكنت أنصاره من الوصول والاصطفاف في ميدان الحرب . وكان جيرار في مقدمة القادمين فأوجد موازنة في القوى ووافى الامبراطور مسرعاً فضاعف مجيئه النشاط والشجاعة عند جنوده فاندفع الى وسط المعمعة حيث كانت تتساقط القذائف والقنابل ولما سمع الجنود يتذمرون من تعرضه للمتالف قال لهم : « لا تخافوا يا أصحابي فان القذيفة المعدة لقتلي لم تصب بعد » . وتقهقر أعداؤه الى هضاب صورفيل واذا بالجنرال باجول قد ظهر فجأة وراءهم آتياً على طريق ميلون فاضطرهم الى القذف بأنفسهم في السين وآليون . ولم يجبر الحرس الى الاشتباك في المعركة فلم يظهروا الا ليشاهدوا العدو ينهزم في جميع الجهات ويشهدوا انتصار فيلقي جيرار وباجول . واشترك سكان منطيرو في هذا الانتصار باطلاقهم النار من نوافذهم على النمساويين والورتمبرجيين . وأصيب الجيش الفرنسوي

بخسارة اشتد وقعها على الامبراطور فان الجنرال شاتو لقي منيته على جسر منطيرو على أثر ما أبداه من البسالة في ذلك اليوم العظيم . واشترك أيضاً في معركة الحرس الوطني واستولوا على قرية ملون . ولما عرضهم العاهل قال لهم : « اظهروا مبلغ مقدرة رجال الغرب فقد اشتهروا في كل عصر بمدافعتهم باخلاص عن بلادهم وكانوا العضد القوي للملكية » .

وبعد ما أسرف نابوليون في الثناء على القواد الذين ساعدوا على نيل الظفر في المعركة وكافأهم بما يستوجبونه من المكافأة فكر في الذين تباطأوا في الزحف أو تعاهلوا في النهوض باعباء القيادة الملقاة مقاليدها اليهم . فعنف الجنرال غيو أمام الجنود على تركه العدو يغنم منه بعض مدافع من معرسه . وذكر في النشرة الرسمية ان الجنرال منبرون ترك للقوزاق غاب فنتنبلو بلا مدافعة وأحيل الجنرال ديجون الى مجلس حربي لاستجوابه عن نقص الذخائر عند المدفعيين عند هجوم الاعداء عليهم في هضاب صورفيل . وكان العاهل يلقى في حرج موقفه مسوغاً لابداء العنف والشدة الا انه ألغى ما اتخذه من التدابير الشديدة بحق الجنرال ديجون اجابة لالتماس الجنرال صوربيه حين ذكره هذا بما أتاه رفيقه القديم من الخدم الكبيرة الجليلة .

وكان أشد تعنيف خرج من فم نابوليون ورن صداه في جميع الاقطار الاوربية فكان له تأثير عظيم التعنيف الموجه الى المارشال فكتور وقد جاء في التقرير الرسمي ما يأتي في هذا الصدد : « كان مقضياً على الدوق دي بلون أن يصل الى منطيرو في اليوم السابع عشر من شهر فبراير عند المساء فتوقف في سالان وقد ارتكب بعمله هذا خطأ جسيما فان احتلال جسورة منطيرو يجعل الامبراطور يكسب يوماً ويمكنه من مفاجأة الجيش النمساوي على غرة » . ولم يكتف العاهل بهذا الملام العلني بل أرسل الى المارشال الاجازة بترك الجيش وأقام الجنرال جيرار قائداً للفيلق المتولي هو قيادته .

وتأثر المارشال فكتور من مصرع صهره الجنرال شاتو المقدام فلم يغض الطرف على القذى بل جاء الى الامبراطور وبسط له أسباب تأخره زاعماً أنه لم يأت ذلك الامر الا لأن الاعياء كان قد بلغ من رجاله . وقال انه اذا كان قد اقترف جناحا فقد نزل بأسرته من النكبة المنيفة يعتبر تكفيرا عن ذلك الجناح .

نابوليون يغادر موسكو المحروقة فى ١٩ اكتوبر ١٨١٢



فحينئذ تمثل للعاهل مصرع شاتو فرق فؤاده فاستغنم المارشال الفرصة من تأثر العاهل وقال : « اني عازم على حمل البندقية فلم أنس مهنتي القديمة وسينتظم فكتور في صف الحرس » . فأثرت هذه الكلمات النبيلة بالعاهل فمد يده لمصافحته وقال : « يا فكتور ابق . أجل اني لا أستطيع أن أعيد اليك فيلقك فقد أعطيت جيرار قيادته ولكنني أعطيك فرقتين من الحرس فتول قيادتهما واطو كشحاً عن كل ما حدث بيننا » .

وكانت نتيجة معركة مورمان ومنطيرو على شوارتزنبرغ مماثلة لنتيجة معارك منميرايل وفوشان وشمبوبير وشاتوتياري على بلوخر فان النمساويين أصيبوا بمثل ما أصيب به أحلافهم البروسيانيون والروس في زحفهم الى باريس وقد أفضى بهم الامر في نوبتهم الى التقهقر مارين بينقوم استاؤوا من مظالمهم فشدوا وراءهم وأذاقوهم من النكال أشكالا وألواناً ودخل نابوليون طروى في ٢٣ فبراير وكان حضور الاعداء قد أثار دفين الحماسة في أفئدة أنصار البوربون فجاهروا بأميالهم ومذاهبهم السياسية غير هيابين وقد بلغ الحماسة بمهاجر من المهاجرين وخفير من الخفراء القدماء فعلقا نشان القديس لويس فأمر العاهل بهما أن يمثلا أمام مجلس حربي فحكم عليهما بالموت وأجري الحكم بحق المهاجر أما الخفير فانه تمكن من الفرار .

ولما انكسر الحلفاء على ضفاف نهري السين والمارن وأبصروا جيوشهم الجرارة ممزقة الشمل لم يشاؤوا التقهقر من وجه جيوش نابوليون المظفرة فعقد الملوك المتحالفون عرى العزائم على المماطلة رجاء أن يثوب الروع الى عساكرهم وتصل اليهم الجيوش الاحتياطية المنتظر وصولها واتفقوا على استئناف المفاوضات العقيمة التي كانت أبوابها قد انفتحت في فرنكفور في شهر نوفمبر السابق وفوضوا الى عاهل النمسا حمي العاهل الفرنسوي مباشرة المفاوضات الاولية رغبة بأن يجعلوا نابوليون يثق بأقوالهم وينبذ الارتياب بمقترحاتهم السلمية .

الفصل الرابع والثلاثون

مؤتمر شاتيون – نهاية حرب سنة ١٨١٤ – دخول الحلفاء مدينة باريس

ورقد نابوليون في مزرعة شاتر في ٢٢ فبراير في كوخ نجار عربات وفي صباح ٢٣منه بينا هويتهيأ للزحف الى طروى أدخل عليه البرنس دي لختنستين حاجب عاهل النمسا وكانت مهمة هذا الامير الظاهرة مجيئه بجواب من العاهل فرنسوى على كتاب سيره اليه صهره من نانجي فافتتح السفير النمساوي كلامه بعبارات مزوقة قائلا ان مولاه الجليل وحلفاءه العظام عرفوا قوة ذراع نابوليون من الضربات الهائلة التي أصابتهم وهم يأسفون على مواصلة مثل هذه الحرب الفظيعة التي لا يأملون أن يجنوا منها كل يوم غير الفشل والاندحار هذا ماتكلم به الأمير . فقضى نابوليون العجب من سماعه كلامه المناقض كل المناقضة للأراجيف المستفيضة في كل جهة تحت ظل سياسة غير متكتمة . وقد عبر كلام السفير النمساوي تعبيراً جلياً عن موقف مولاه وحلفائه . فسأله نابوليون قائلا : «أو لا تتعمد المحالفة تحقير شخصي وابادة ذريتي وإعادة البوربون الى عرش فرنسا وفقاً لمبتغى الحكومة البريطانية ؟ » فلم يتردد البرنس دي لختنستين في التصريح بأن مثل هذا القصد لم يخطر قط على بال ملوك القارة وانهم لم يحركوا البوربون وحزبهم إلا لاثارة الفتن في فرنسا وإلهاء الحكومة بها . فلم يقتنع العاهل كل الاقتناع بهذا الجواب : فلو لم يمثل البوربون في معسكر الحلفاء سوى أشخاص خاملي الذكر لاحتمل كلام البرنس دي لختنستين التصديق ولكن أركان الأسرة البوربونية كانوا أنفسهم مع الأجنبي : فالكونت درطوى كان في سويسرا والدوق دنغوليم في البرنات والامراء الآخرون تحت راية المتحالفين . فكيف والحالة هذه تعتمد المحالفة المستمدة الآراء والاعمال من بريطانيا العظمى والرامية من خمس وعشرين سنة الى انتصار الحق الالهي على المبدإ الشعبي إلى الهزء بالاشخاص العظام ممثلي الحقوق الملكية الشرعية ونبالة محتد الأسر المالكة في أوربا ؟ وهب رأينا فرنسا الثورية تستذل أحفاد لويس الرابع عشر الكبير

وتقصيهم عن أرضـها فلا بأس من ذلك . ولكن ما قولكم في عمل أصـحاب لمبادىء الملكية الاوربية الذين فكروا في نبذ أولئك الاحفاد وتعريضهم سخرية الناس وقد أوشكوا أن يختتموا بالنصر حرباً عواناً باشروها وظلوا وقدون نارها نحو ربع قرن . فمثل هذ الأمر لا يأول الى مصالحة أصحاب تلك لمبادىء أو الى ضمان حقوقهم بل يتعذر وايم الحق تحقيقه اذ أنه لو حدث أن الملوك المتحالفين لم يفكروا بالنتيجة التي لا ندحة لهم عن إصابتها من وراء انتصارهم لقي المبدأ السياسي الناشئة عنه تلك المحالفة رجال الاعقلاء في الحكومات يعبرون عن أفـكارها ويحملون الملوك أنفسهم خاضعين لسيادة العقل .

ولم يكن غير النصر من واق لفرنسا من اعادة البوربون اليها في مثل تلك الاحوال الحرجة بيد أن نابوليون أصـاخ لـكلام البرنس دي لختنستين ومقترحاته السـلمية فوعده بأن يرسل في الغد أحد قواده الى طلائع الحلفاء ليفاتحهم في أمر الهدنة .

ولم يكد السفير النمساوي يخرج حتى دخل على العاهل المسيو دي سانت اتيان وهو الذي فوض اليه أمر المفاوضات السلمية في فرنكفور وكان قادماً من باريس فبسط له ما أبصره وسمعه وقال : ان الحالة الحاضرة تقتضي أن تضع الحرب أوزارها الان القوم سئمت نفوسهم منها وتجاسر المسيو دي سانت اتيان على القول للعاهل ان الشعب الفرنسوي راغب في عقد الصلح على أي وجه كان . وختم مقاله بهذا الـكلام : ياصاحب الجلالة يكون الصلح حسنا اذا تم بسرعة . فقال نابوليون بحدة : « اذا تم الصلح بسرعة جر وراءه العار والخسيفة . » ونظر بعين الغضب الى المسيو دي سانت اتيان فتراجع هذا حتى وصل الى الباب .

قلنا ان الحلفاء لم يطلبوا الا هدنة ليتسنى لهم ضم نشرهم وجبر كسرهم وتعزيز قوتهم وقطع مجرى الظفر السريع الذي أصابه نابوليون وإضعاف السيادة الادبية والتفوق اللذين منحته الحوادث الحربية اياها من ثمانية أيام أكثر مما منحته أياها من قبل . وقد تمكن العاهل بما أوتيه من الدهاء أن يستشف سر الحلفاء من وراء كلام السفير النمساوي فطلب أن تكون قواعد الصلح من جملة شروط الهدنة بين تلك القواعد : ومن جملتها ابقاء انفرس وسواحل البلجيك في أحيازته . وكان نابوليون المتوقع من البريطانيين معارضة شديدة على مطالبه

المهددة مصالحهم يصر على النظر قبل كل شيء في هذا الامر عند البحث عن شروط الهدنة وأبى أن يحال ذلك الى مؤتمر شاتيون الموكول اليه أمر النظر في انجاز المفاوضات المبتدإ بها في فرنكفور. ورأى في ذلك الاقتراح ذريعة وحيدة للتملص من الشروط والقيود التي يخشى من وضعها بتدخل السياسة البريطانية .

الا أن ملوك الحلفاء في القارة نبذوا الاقتراح المعاكس لمقاصدهم وأبوا الانفصال عن حليف يعتبرونه محركا لاعمالهم وموليا لهم وأصروا على إحالة كل مفاوضة بشأن الصلح الى مؤتمر شاتيون

ولم يلق نابوليون بدأ من مواصلة القتال مع بقاء مندوبين يفاوضون مندوبي الحلفاء في أمر الهدنة في لوزيني وفي قضية الصلح في شاتيون

وبينا النمساويون المخيمون على ضفاف السين والاوب يبدون ميلهم الى السلم ويسعون لابقاء نابوليون في موقفه أملا بتوقيف رحى القتال في أجل قريب كان البروسيانيون المدحورون من عشرة أيام والمسرعون لاصلاح ما فسد من أمورهم يجددون الهجوم على المارن وقد انتهز بلوخر الفرصة من غياب القائد العظيم وعالج إعادة الزحف إلى باريس .

ولما بلغ نابوليون وهو في طروى في ليل ٢٦ الى ٢٧ فبراير ما كان من حركة الجيش البروسياني عقد في الحال عروة عزمه على الأمر الذي ابتغى اجراءه نخف إلى نجدة عاصمته ووصل بالسرعة المعهودة فيه الى ساقة جيش بلوخر وكان أمام القائد البروسياني جنود مرمون ومرتييه

وعلم شوارتزنبرغ أن العاهل انطلق وإنه لم يبق أمامه سوى فيلق مكدونال واودينو وقد أظهر الفرنسويون على طول خطهم حماسة شديدة كما كانوا يفعلون في كل مرة يظهر الامبراطور في المعسكر .

وابتعد العاهل عنهم كثيراً فذهب من طروى في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير ووصل في المساء الى حدود ولايتي الاوب والمارن وقضى ليلته في هربيس في منزل خوري البلدة ولم يكن هذا المنزل يتألف الا من غرفة واحدة وفرن .

وعلم في ٢٨ منه وهو في سيزان أن مرتيه ومرمون بعد ما انضم الواحد منهما الى الآخر في ٢٦ منه في فرته سوجوار وجدا أن عدد رجالهما يقل كثيرا عن

عدد رجال بلوخر فتراجعا أمامه الى ناحية مو . فتوجه نابوليون في الحال الى تلك الجهة وجعل مركز أركان حربه في قصر استرني حيث قضى ليلة ٢٨ فبراير الى أول مارس .

وجاء الى العاهل ضباط أوفدهم اليــه مكدونال واودينو فاخبروه ان النمساويين باشروا الهجوم في يوم مغادرته لطروى وعلموا بعد معركة هائلة نشبت على مرتفعات بارسوراوب انهم لم يكونوا يقاتلون الجيش المعظم وأن قائده الاكبر لم يكن معه . وقد أدت معرفتهم ذلك الامر الى بعث دفائن الجرأة في أفئدتهم فاوفدوا البرنس دي هس همبورغ والجنرال بيانكي الى ليون ليحولا دون محاولة المارشال أوجيرو إلهاء اعدائه في وادي الصون ولينزعا منه الموقع المنيع النازل فيه في تلك المدينة التي لها المقام الثاني في الامبراطورية . وظن شوارتزنبرغ وونجنستين ان جيشهما وان يكن قد انفصل عنه فيلقا البرنس دي هس همبورغ والجنرال بيانكي لا يزال كثير العدد يستطيعان به العودة الى طروى حيث كان الدوق دي طرانت والدوق دي ريجيو وليس معهما قوات كافية تمكنهما من المقاومة .

ولم يتردد نابوليون بين الخطر المحدق بعاصمة امبراطوريته والخطر المطيف بحاضرة ولاية من ولاياتها : ففكر في فاتحة الأمر في أن يصد عن التقدم أعداءه المقتربين من باريس والمعرضين لضربات يده الهائلة. وأمل أن يفرغ في القريب العاجل من بلوخر ليسرع في العودة الى مناهضة شوارتزنبرغ فيحمل على غرة على النمساويين قبل ان يصيبوا انتصارات تقلق باله . فكان الداهية نفسه الذي جعل العالم يعجب من «حرب الخمسة الايام» بيد أنه كرر هذه المرة في بضعة أشهر ما فعله في بضعة أيام وكأنه وزع ذاته ليتيسر له ان يكون في كل مكان يدنو الخطر فيه من الجيوش الفرنسوية . وان يقاتل على مسافات بعيدة وفي الوقت عينه على التقريب فيالق اعدائه الكثيرة

ولما عرف بلوخر ان العاهل يقترب منه عمل على الفرار من وجهه ولم يسهل على الجيش البروسياني الزحف الى باريس بسرعة كما خشي نابوليون فان مرتيه ومرمون لم يخليا مواقعهما الا بقرع السيف وقد أصابا في أثناء تقهقرهما بعض

الانتصارات في ضواحي مو في وقمتي غي آتريم وليزي.

ولم يعلم الامبراطور ماكان من حركة بلوخر التقهقرية الا في أول مارس عند وصوله الى المرتفعات المشرفة على الفرته . فعلل نفسه بحصر القائد البروسياني بينه وبين المارشالين دي راغوز ودي تريفيز الا انه أبصره يعجل في ابتعاده نحو جهة سواسون بعد ما تحصن وراء المارن بهدمه الجسورة الممدودة فوقه .

فاصدر نابوليون الاوامر في الحال الى مرمون ومرتيه بتعقب البروسيانيين من دون أن يضيعا الوقت ووجه باكله دلب الى باريس وروميني الى شاتيون ليبشرا بتقهقر البروسيانيين . واقتضى ترميم جسر الفرته يوما كاملا وقد تمكن جيش العاهل من عبور المارن في ليـل ٢ الى ٣ مارس والزحف الى شاتوتياري ومنها سار على طريق سواسون . وأمل نابوليون أن يحصر بلوخر في ذلك المكان تحت مطر من قنابل المدافع المنصبة عليه من الموقع المنيع الحصون والمؤلفة حاميته من الف وأربع مئة بولوني .

وأجرى مرتيه ومرمون بكل سرعة ودقة الاوامر التي تلقياها وكان سيرهما الى سواسون المحاذي لسير العاهل يضطر بلوخر الى البقاء محصورا بين الجيشين الفرنسويين . وظن الناس أن البروسيانيين اشرفوا على الهلاك وان هربهم سيفضي بهم اما الى الاستسلام وأما الى الهلاك أمام أسوار سواسون .

الا أن العناية لم تشأ هلاك البروسيانيين فقد كان لها مقاصد أخرى ..

ولما أوشك بلوخر أن يسقط تحت ضربات الفرنسويين الذين ضايقوه وأحاطوا به فتحت سواسون ابوابها في وجهه وأجارته وقد كان مقضيا عليها أن تقاومه : وتحرير الخبر ان البولونيين الامناء الاشداء لم يكونوا يؤلفون حامية المدينة فان جنود ونتزنجيرود الروس ورجال بولوف البروسيانيين استولوا عليها بمساعدة قائد من القواد الفرنسويين الخائنين.

وكان نابوليون في فيم وقت ما انتهى اليه ماجرى في سواسون فكان حنقه مضارعا لدهشـه من ذلك الأمر ولم يلق مندوحة عن استخدام العنف لابقاء الضعفاء العزائم تحت الراية والضرب على أيدي الناغلي النية فاصدر في ٤ مارس مرسومين عاليين : احدهما يقضي على كل فرنسوي بحمل السلاح عند اقتراب العدو

والآخر يقضي بالموت على كل ذي منصب يعالج التخفيف من حماسة الوطنيين وفل حد عزائمهم .

ولم تبق السياسة الاجنبية بغير عمل فان المندوبين البريطانيين عقدوا في شومون في أول مارس وثيقة مع جميع دول القارة مآلها المثابرة على القتال حتى تعود فرنسا الى حدودها القديمة. ومالبث نابوليون ان علم من روميني ان هذه الوثيقة أصبحت في شاتيون بلاغا اخيرا صادراً عن الحلفاء ولم يخف عليهم أنهم يلقون الجنادل في الطريق المؤدي الى الصلح بوضعهم شروطاً لايمكن التسليم بها مع اظهارهم الميل الى اخماد نار الحرب وابرام اسباب السلم .

وادرك الجيش الفرنسوي في كران جيش بلوخر في ٧ مارس وكسره شر كسرة ولكن بلوخر ظل يتراجع الى الآين بدلا من أن يدخل سواسون للتحصن فيها وانتهت رسالة في تلك الاثناء من الدوق فيسنس الى نابوليون تنبئه ان الحلفاء لم يكتفوا بأن يطلبوا منه ترك الاراضي التي استولى عليها الفرنسويون في عهد الجمهورية وعهد الامبراطورية بل يطلبون أن يكون تركهم لها بمثابة مقدمة للمفاوضات على أن يضمها المندوبون الفرنسويون أنفسهم المحظور عليهم اقتراح ما يخالف أغراض الحلفاء التي لا تحتمل النقض والرد ولا يخفى ان مثل هذا التحقير وهذه التضحية يعتبران شديدي الوطأة على نابوليون لو كان هو مقهوراً فما ظنك بهما وقد اقترحا عليه وهو في ساحة الحرب يجر ذلاذل النصر المبين ؟ فلما وقف نابوليون على مطالب الحلفاء صاح بملء فيه : « اذا خطر لهم تحقير أحد من الناس فليفتشوا عن غيري ولا يتوهمن أحد منهم أنهم يهولون علي بمثل هذا الامر . »

وكان مندوبو أوربا القديمة يتوقعون مثل هـذا الجواب الموافق لرغائبهم لعلمهم ان الرجل الذي ارتفع فوق جميع العظماء الاقدمين والنبلاء المحدثين كممثل فرنسا الجديدة لا يرضى بوجه من الوجوه أن ينحدر عن ذروة مجده ويقترح على الملوك الباقية آثار قدمه على جباههم المتشامخة ومفارقهم المتعالية أن يتحاقر متجرعاً كؤوس الصغارة ويذل الشعب العظيم الملقي مقاليد حظه بين يديه فيحسن أن يعرض مثل هـذا الاقتراح على رجال فرنسا القديمة ومع ذلك لا يظن أن هؤلاء أنفسهم يرضون به ولا سيما بأن يقترحوه هم على أعدائهم . ولان يطلب

من نابوليون أن يضع هو ذاته قاعدة للصلح شرطا يجرح فيا بعد عواطف الوطنيين الصادقين والمعاكسين للثورة والامبراطورية أنفسهم المهاجرين لمواطنهم يعتبر اعلانا جديداً للحرب وطريقة من طرائق الاهانة ونوعا من أنواع تنفير العدو غير المسالم وقد أظهروا للملأ طرا انهم يبتغون مفاتحته بأمر السلم .

وعليه لم ينقل المسيو دي روميني الى شاتيون الاقتراح الجديد الذي أجمعت عليه كلمة الحلفاء وبعد أيام قليلة انتثر عقد المؤتمر الملتئم للنظر في أمر الهدنة وأقفلت أبواب المفاوضات السلمية في شاتيون . وكان نابوليون كلما فكر في مطالب الحلفاء وهو في جزيرة القديسة هيلانة يقول : « لقد اضطررت الى رفض مطالبهم ولم أخطىء في رفضي اياها . والآن وأنا ملقى على صخور هذه الجزيرة الجرداء أقاسي من شظف المعيشة ما أقاسي لا أندم البتة على ما فعلت . أجل ان القليلين يدركون مرمى الغاية التي انتحيتها الا ان عامة الناس مع ما طرأ عليّ من النكبات المتوالية لا يسعهم الا الاعتراف بأن الواجب والشرف لم يتركا لي الخيار في عملي . وهب بلغ الحلفاء مني مآربهم فهل يقفون عند هذا الحد ؟ وهل كان ما يقترحونه علي من الصلح صحيحاً ؟ وهل كانت مصالحتهم صادرة عن نية صادقة ؟ انه لضرب من الحماقة أن يصدق الانسان مثل هذا الامر وينقاد اليه . أفما كانوا يغتنمون الفرصة من الفوز الباهر الذي ينالونه بفضل وثيقة الصلح ليعودوا بدسائسهم الى اجراء ما باشروه بقوة السلاح ؟ وكيف يكون والحالة هذه مصير الامن في فرنسا واستقلال تلك الربوع ومستقبلها ؟ ولقد فضلت على ذلك التمرس حتى النهاية بحظوظ القتال والانحدار عن العرش عند مسيس الحاجة » .

وقد تمرس نابوليون بحظوظ القتال كما قال : ففي ٧ منه بعد انتصاره في كران زحف الى لان وقد خيم الجيش البروسياني على مرتفعاتها . وكان بلوخر مع ما ألم به من النكبات قد ضم الى أفضلية موقفه كثرة العدد فانه منذ يوم الفرته لم ين عن تعزيز قوته بضمه اليه وهو ينسحب ونتزنجيرود وبولوف وساكن ولنجيرون وغيرهم من القواد ولكن جاءته نجدة أخرى أهم من جميع النجدات التي أتته فصار معه مئة ألف مقاتل بحيث انه آنس من نفسه في هذه الحال المقدرة على انتظار نابوليون والاشتباك معه في معركة يكون فيها فصل الخطاب :



معركة لتزن فى ٣ مايو ١٨١٣ بين الفرنسويين والحلفاء بقيادة امبراطور روسيا وملك بروسيا



وتحرير الخبر ان برنادوت بعد ما تردد في اجتياز نهر الرين وأظهر انه مكره على السير مع جيوش الحلفاء ألف برجاله جيشاً احتياطياً لبلوخر وقد بهرت عينيه المواعيد التي علله بها قيصر الروس في ابو بحضور البوربون .

على ان العاهل صمم على مقاتلة البروسيانيين فاستعد للحرب في ١٠ منه وفي الساعة الرابعة صباحاً بينا هو يلبس حذاءه ويأمر بإعداد فرسه أدخلوا عليه جنديين من الدراغون قدما مشياً على أقدامهما من ناحية كربني فأخبراه أن العدو فاجأ في الليل فيلق الدوق دي راغوز وهزمه بعد ما مزق شمله . فلما سمع نابوليون ذلك الخبر ألغى ما أصدره من الاوامر لقواده بمباشرة القتال ولكن أعداءه لما وقفوا من روادهم على ما جرى في الليلة المنقضية عمدوا الى الهجوم وبعد عراك عنيف أبدت فيه فرقة شربتيه جرأة نادرة ودفعت الغوائل عن الجيش الفرنسوي وذادت عن حياض شرفه فكر العاهل في وجوب التراجع . ففصل عن شافنيون في ١١ منه عند الصباح وقضى اليوم الثاني عشر في سواسون . ثم انه ترك الدوق دي تريفيز في المدينة وأصار اليه أن يقف سداً منيعاً في وجه بلوخر في تلك الناحية وتوجه الى رنس وقد استولى عليها الجنرال سان بريست وهذا القائد فرنسوي الاصل متقيد في خدمة الروس ثما أبطأ نابوليون أن استرجع المدينة ودخلها في ليل ١٣ الى ١٤ منه . وبعد ما ضم مرمون متفرق جنوده انضم الى العاهل وشاطره الهجوم عليها ففي مفتتح الامر عنفه نابوليون تعنيفاً مراً على تركه العدو يفاجئه وإفساده بذلك الاهال ما أصابوه من النصر في ١٠ منه أمام لان ولكنه ما لبث أن عاد الى الحديث معه بلهجة اللطف والحب التي تعود مخاطبته بها .

ومكث نابوليون ثلاثة أيام في رنس قضاها في اتخاذ التدابير الحربية وتنظيم الشؤون الادارية .

وكانت الحوادث تتوالى آخذاً بعضها برقاب بعض .

وبينا الجنرال ميزون يحافظ على الحدود الشمالية على المواقع الموكول اليه الدفاع عنها وكان يحبط مساعي البريطانيين ومحاولتهم فتح انفرس والجنرال بيزانه يحصر أربعة آلاف بريطاني في برغ أب زوم ويبطش بهم بعد ما تمكنوا من دخول المكان ليلا وأملوا أن يستولوا عليه بغير قتال لما كان بينهم وبين

بعض الخونة فيه من العلاقات السرية كانت التدابير السياسية تجمل الحركات الحربية وصدفها وخيمة التبعـة على نابوليون في جميع أنحاء الامبراطورية : فانكسر سولت في أرتيز وتراجع الى طارب وطولوز ولم يتمكن أوجيرو من البقاء في ليون الا بشق النفس وقد تهيأ لمغادرتها ليؤم الايزر ويتحصن وراءه وفتحت بوردو أبوابها في وجه البريطانيين وكان القوم فيهـا ينتظرون قدوم الدوق دنغوليم . ووصل الدوق درطوى الى برغونيه . وأخيراً كان شوارتزنبرغ — ولم يقدرمكدونال واودينو على التصدي له — يهدد باريس بفتحها وقد هب فيها أنصار البوربون من رقدتهم هبوب النار من سنة الكرى وجاهروا بعبادتهم على رؤوس الاشهاد .

وكان العاهل في الموقف الحرج الذي صار اليه وعرف خطورته في لمحة عين يشعر بأنه لا يتمكن من النجاة الا بحادث عظيم وضربة شديدة جازمة فلم يتردد في توجيه تلك الضربة الى شوارتزنبرغ الناجم عن دنوه من العاصمة ذعر شديد في أفئدة القوم فيها . ففوض الى مرمون ومرتيه مناصبة بلوخر والدفاع عن باريس من جهة الاين والمارن وكان يخشى من أنهما لا يضطلعان حق الاضطلاع بتلك المهمة الخطيرة وانه ربما أفلت منهما بعض فيالق من العدو وشنت الغارة على العاصمة فأمر أخاه يوسف الذي أقامه نائباً عاماً بألا يدع الفرصة تمر عند حلول الخطر قبل أن يسير الامبراطورة وملك رومية الى مكان تخفق فوقه ألوية الامان . ثم انه شخص الى ابرني وسار على طريق فيرشمبنواز وميري ليفاجيء النمساويين من أقفيتهم وكان يظن انهم وصلوا الى نوجان .

وبرح العاهل رنس في صباح ١٧ منه فوصل في ١٩ منه الى طروى وكسر ساقة جيش أعدائه في شاتر وهي القرية التي استقبل فيها البرنس دي لختنستين والمسيو دي سانت انيان الا ان النمساويين لم يزحفوا الى باريس كما اتصـل به فانهم بعد ما تقدموا حتى بلغوا بروفانـ عادوا فتقهقروا فجأة فان العاهل الاسكندر لما وقف على ما أصابه نابوليون من الغلب في كران ورنس خشي من أن يصاب شوارتزنبرغ بالانكسار منفرداً عند تقدمه وحده من العاصمة وان تفضي الانكسارات اليومية المتوالية الافرادية الى الفت من عزائم الحلفاء الداخل

عليهم الفرق والطائرة نفوسهم شعاعا من جراء تظاهرات الاهلين في الشمبانيا واللورين والالزاس بالمعاداة لهم .

وألح القيصر في مجلس حربي عقد في طروى بوجوب معالجة الجيشين العظيمين المتحالفين لانضمام احدهما الى الآخر في ضواحي شالون ليزحفا منها الى باريس ويسحقا كل من يتصدى لهما في طريقهما . فانقاد الحلفاء الى رأي القيصر وعملوا بموجبه ولقي نابوليون في ٢٠ منه جيش شوارتزنبرغ برمته عند ارسيس وكان زاحفاً الى هـذه المدينة ليعبر نهر الاوب ويصـل بسرعة الى سهول الشمبانيا المعينة لالتحام الجيشين المتحالفين . وحدث من وراء التغيير الفجائي المدخل على حركات الحلفاء الحربيـة بلبلة الخطة التي رسمها العاهل الفرنسوي . وما عتم نابوليون ان أدرك صعوبة الموقف الذي صار اليه عند التقائه بجيش يفوق في عدده ثلاثة اضعاف جيشه ولم يكن متوقعاً أن يلقى ثمة غير ساقة ذلك الجيش إلا أنه لم يدع الفشل يبلغ منه . وكما كان يفعل في المواقف المحفوفة بالشدائد والمهالك صمم على الاتكال على البسالة لتقوم مقام وفرة العدد ويستغني بها عنها فاندفع الى ساحة الوغى غير مبال بما يحف به من المتالف وحذا جميع رجاله حذوه وجاء في النشرة المكتوبة في سـنة ١٨١٤ ان العثير الثائر من سنابك خيل الفرسان ارتفع فغشاه فاستل حسامه واخترق طريقاً في وسط العثير وجعل يقاتل في مقدمة حرسه وبدلا من أن يتجنب المهالك كان يقتحمها . فسقطت قنبلة على مقربة منه فانتظر ريثما تم انفجارها وما ابطأ ان غاب في غمامة من الدخان والغبار . فظنوا انه قتل ولـكنه نهض وامتطى جواداً آخر وعاد فوقف في مكان تمطر عليه فيـه قنابل البطاريات . . . ولـكن المنية لم تشأ صرم حبال حياته .

إلا أن وقعة ارسيس مع ما بذله فيها الجيش الفرنسوي وزعيمه الاكبر من الجرأة والاقدام لم تثبط النمساويين عن اجتياز نهر الاوب . وتراجع العاهل بانتظام بعد ما نكل باعدائه تنكيلا واضطرهم الى تأخر تقدمهم يوماً واحـداً . بيـد ان شوارتزنبرغ تمكن في آخر الامر من فتح الطريق المؤدي الى المـكان المعين لانضمامه الى بلوخر . وترك أوجيرو مدينـة ليون لبيانكي وبوبنا في اليوم عينه .

ولما أصبح نابوليون عاجزاً عن معاكسة اجراء الخطة التي دبرها القيصر الاسكندر ومنعه انضمام جيوش الحلفاء فكر في نوبتة في أن يسوق القلق والاضطراب الى أعدائه في أثناء التحام بعضهم بالبعض الآخر بجره اياهم على رغم منهم الى أماكن تجري فيها حركات حربيـة خطيرة وبنزوله عنـد حدود الشمبانيا واللورين حيث يتمكن بحسب مجرى الحوادث من ضم الحاميات الكثيرة في الانحاء الشرقية وإثارة الاهلين وكسر كل فيلق على حـدة وإتيان حركات حربيـة وراء عساكر شوارتزنبرغ وبلوخر وقطع الصلات بينهما وبين الحـدود أو الدنو منهما اذا ماكانت الآفات المهددة باريس تقتضي ذلك الامر فيجعلهما بين جيشه الذي لا يدنو منه الملل ورجال مرمون ومرتيـه الذين لا ينقصهم شيء من الجرأة والاقدام

ونحا العاهل سان ديزيه وهو يريد إدراك تلك الغاية وقضى فيها ليلة ٢٣ منه . ووافاه كولانكور اليها وأخبره ان أسباب مفاوضات الصلح انقطعت بتة . وقد كان نابوليون منتظراً ذلك النبأ لان مزاعم الحلفاء وتبجحاتهم لم تكن مكتومة عن أحـد . واغتنم المستاؤون في مركز أركان حربه الفرصة ورفعوا أصواتهم متذمرين منه واتخذوا اللهجة عينها التي اتخذها أعداؤه أنفسهم من مثل اتهامهم اياه بشـدة الميل الى تمديد أجل الحرب . وقال أحد كتاب نابوليون ما يأتي : « وكان مع نابوليون ذاته كثيرون من الذين لم يريدوا الابتعاد عن باريس إلا مكرهين وجاهروا بما يتوزعهم من القلق وشرعوا يتذمرون . وفي الردهة الملاصقة للغرفة النازل فيها نابوليون فاه بعض قواد الجيش بكلام يوهي صرح العزائم فتألب حولهم الضباط الفتيان وابتغوا أن يطرحوا عنهم عادة الثقة التامة به وسعوا لاظهار امكان حـدوث فتنة . فكان كل انسان يتكلم وجعلوا يتساءلون قائلين : « الى أين نذهب ؟ وما هو مصيرنا ؟ واذا سـقط فهل نسقط معه ؟ »

ويمم العاهل دولنفان في ٢٤ منه فقضى فيها ليل ٢٥ منه وعاد في الغد الى سان ديزيه لعضد ساقة جيشه وقد هجم عليها فيلق من العـدو ظنه من جيش شوارتزنبرغ ولكنه كان فيلقاً منفصلا عن جيش بلوخر بقيادة ونتزنجيرود

فنجت بحضوره ساقة جيشه وانكسر ونترنجيرود وانهزم فتعقبه الفرنسويون على طريقي فتري وبارليدوق

على أن هذا الظفر الضعيف لم يسد ثلمة انكسار الدوق دي راغوز والدوق دي تريفيز في اليوم السابق في فيرشمبنواز . وقد أصبح الآن طريق باريس مفتوحا في وجه الحلفاء ولم تقم في وجههم أدنى عقبة كؤود . فساروا عليه ودفعوا أمامهم بقايا الجيش المتضعضع الاركان

وحالما انتهى الى نابوليون نبأ انكسار قائديه وما يحيط بالعاصمة من الرزايا صمم في الحال على الرجوع الى باريس ففصل عن دولفان لما انبثق فجر اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس . وسير الجنرال ديجان حاجبه ليبشر الباريسيين بانه قادم على جناح السرعة لنجدتهم وفي مساء اليوم الثلاثين منه لم يبق بينه وبين عاصمته سوى خمسة فراسخ وكان قد استراح في فرومنتو ليبدل مطيته ويجتاز المرحلة الاخيرة الفاصلة بينه وبين مدينته باريس الفخمة واذا بهم قد جاؤوا وأخبروه أنه قضي الامر وأن المدينة العظيمة استسلمت وأن العدو سيدخلها في الغد فتخير المضي الى فنتنبلو . واستسلمت باريس بعدما استنفد الدوق دي راغوز والدوق دي تريفيز كل مجهودهما لصد العدو عن التقدم ولكنهما فشلا عند فيرشمبنواز ولما اقترب الاعداء من العاصمة امتثل يوسف بونابرت لاوامر شقيقه وطلب من الامبراطورة أن تعجل في الخروج منها بابنها ملك رومية غير محتفل بما أقامه مجلس وكالة الملك من النكير على عمله ولما خرج تاليران من المجلس وعلم ما كانت الامبراطورة تنوي عمله قال : « فليهرب من يستطيع الهرب ! »

ويقال أن الملكة هرتنس استاءت من رؤيتها الامبراطورة وابنها يغادران المدينة ويتركانها للمتآمرين والمشاغبين . فاكثرت من الالحاح عليها بالبقاء وقالت لها :

« ان أنت تركت التويلري فلا يبقى لك مطمع برؤيته أبداً ! » وكانت تلك الكلمة كأنها نبوءة ولكن يوسف الذي عضده كمباساريس وكلارك المخالفان برأيهما أعضاء المجلس الآخرين اقنع ماري لويز بالفرار . ويقول مؤرخ معركة باريس واستسلامها أنه وقع أمر غريب جداً في ذلك الحين وهو أن ملك رومية

أبى الانطلاق مظهراً عناداً شـديداً بحيث أنهم اضطروا الى استخدام العنف لحمل الامير الحدث . وكان صياح الغلام يفتت الاكباد فـكان يقول غير مرة : « أبي قال لي ان ابقى هنا . . . » وذرف جميع الحضور الدموع عنـد سماعهم كلامه . ولا يتوهمن أحد انهذه الرواية مفتعلة يراد بها إرضاء القراء فان هذا المشهد المؤلم جرى أمام شهود لا يستطاع الطعن بشهادتهم . فقد يكونون قد لقنوا الامير الحـدث مايقوله ولـكنه خلب الالباب باختياره تلك الـكلمات وطريقة تفوهه بها .

وبعـد انطلاق ماري لويز وابنها عمدوا الى الدفاع عن باريس إلا أن الاضطراب كان سائداً جميع فروع الادارة ولا سيما إدارة الحربيـة فان زعيمها الدوق دي فلتر تصرف تصرفا غريباً جعل الناس يرمونه بكل تهمة : فالاسلحة نقصت المدافعين من الجهة الواحدة والذخائرمن الجهة الاخرى وكأن يداً خفية عرقلتفي كل مكان أعمال الدفاع وساعدتالغزاة . على أن الحرس الوطني المتولي قيادته منسيالشجاع كانمع مايلقونه فيطريقه منالمصاعب السرية يأتي معجزات من البسالة في اليوم الثلاثين من مارس . وقد شاطرهم هـذه المآثر الجليلة طلبة ألفرت والحرس الامبراطوري ومدرسة العلوم والفنون . ولقي الحلفاء مقاومة شديدة عند حدود كليشي بنوع خاص . وكان عميد الجنود الفرنسويين المدعي منسي واقفاً ومعه ابنـه ورئيسه آلن رئيس أركان الحرب ومعهم فريق من مشاهير الصناع والمتفننين والـكتبة يشاطرونهم المعاطب . فقال لهم لقد أحسن البداءة فيجب علينا أن نحسن النهاية وهذا آخرحصنلنا فلنبذل كل مافي وسعنا للدفاع عنه فالشرف والوطن يقتضيان منا هذا الامر »

إلا أن الشجاعة لم تلق لها ندحة في آخر الامرعن الخشوع أمام وفرة العدد وقد خشعت في كل مكان بين اللؤم والغدر والخيانة . واذا كان منسي قد وفق في ضواحي باريس الى وجدان شبان تهب في صدورهم نسمات الوطنية فان غيره ممن نسجوا على منواله لم ينتهوا الى الغاية نفسها التي انتهى هو اليها : فرمون أحاط به أنصار الحزب الملـكي وطوق الدوق دي راغوز من كل جهة أحلاف البرنس دي بنيفاذ (تاليران) فهذا أظهر أنه ميال الى الارتحال مع رصفائه الوزراء ولـكنه بقي في باريس . فأقنعوه بان العاصمة لا تتيسر لها النجاة إلا

بالاستسلام فاسلم الامبراطورية في سبيل انقاذ العاصمة ودخل الاجنبي مدينة باريس في ٣١ مارس سنة ١٨١٤ دخول الظافر ليدك عرش نابوليون . وكان الذين فتحوا له أبواب العاصمة الاشخاص ذواتهم الذين جعلتهم الانظمة الامبراطورية الموضوعة في ٣٠ مارس سنة ١٨٠٦ أعضاداً للسلطة الجديدة يتوارثون مناصبهم خلفاً عن سلف



ذيل للجزء الثاني

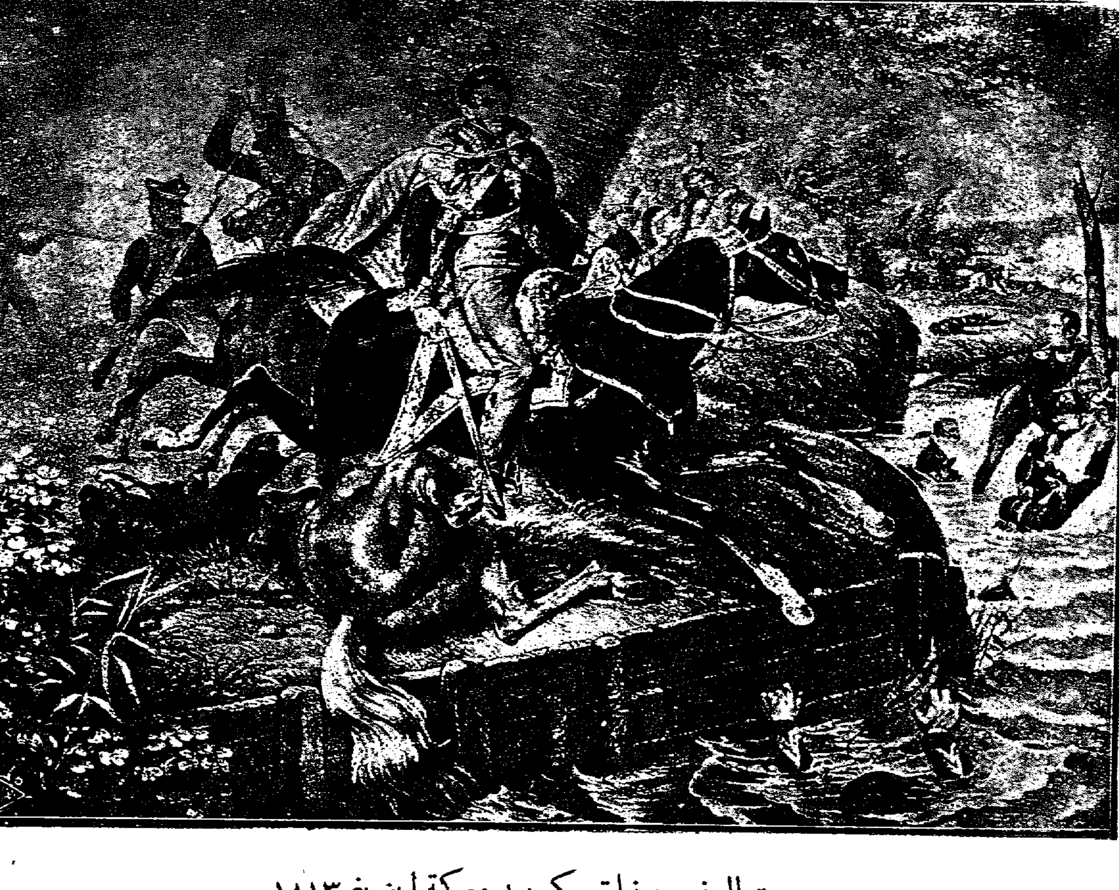
صممنا على ضم هذا الذيل للجزء الثاني من تاريخ نابوليون الاول وتضمينه لمحة عن تاريخ الاسرة البونابرتيسة وبيان حقيقة حالها والدور الذي مثلته في حياة الامبراطور الـكبير

الاسرة البونابرتية

هي اسرة ايطالية الاصل مقيمة في جزيرة كورسيكا وقد تنازلت حكومة جنوى لفرنسا عن هذه الجزيرة في سنة ١٧٦٨ واشتهرت هذه الاسرة بظهور الامبراطور نابوليون الاول فيها . ومن تدبر تاريخ هذه الاسرة وجد انه لم يكن لذلك الرجل العظيم من وجه للامتداح منها فانه اضطر الى النظر في أمر حالتهم في الهيئة الاجتماعية والعناية بثروتهم ولم يكن يرى بداً في كل حياته من مقاومة انانيتهم وحسدهم وفي غالب الاحيان من مناوأة عداوتهم . ولم يؤيد أحد منهم قط خطة سياسته بوجه صريح ولم يجر بوجه من الوجوه على الخطة التي رسمها له . ويمكن القول ان اخوته واخواته أضروا به ولم ينفعوه بشيء من الاشياء وقد أذاع على رؤوس الاشهاد في جزيرة القديسة هيلانة بانه لو ولد ولادة غير شرعية لكان ذلك أفضل له فانه كان يتخلص بذلك من مقتضيات القرابة المرهقة .

وكان لنابوليون أربعة اخوة وهم يوسف ولوسيان ولويس وجيروم وثلاث اخوات وهن اليزا وبولين وكارولين .

وها نحن نذكر مختصر ترجمة كل من والديه واخوته واخواته باسطين أهم ما يحسن بسطه :



موت البرنس بونيا توسكى بعد معركة ليبزيغ ١٨١٣



شارل بونابرت والد نابوليون

ولد شارل ماري بونابرت في اجاكسيو في سنة ١٧٤٦ ولما كان له من العمر أربع عشرة سنة فقد والده فرباه عمه لوسيان بونابرت رئيس كهنة الكاتدرائية في أجاكسيو وكان شارل بونابرت صديقاً حميا لباولي القائد الكورسيكي الهمام الذي كان في ذلك الحين يناضل عن استقلال الجزيرة وأبلى بلاء حسناً في قتال الفرنسويين في سنة ١٧٦٨ ولما دوخ الفرنسويون الجزيرة لم يلق شارل بونابرت بدأ من الخضوع واليكم ماقاله في هذا الصدد : « كنت وطنياً شديد التمسك بعز بلادي وكنت من أشد أنصار باولي حين كانت الحكومة وطنية أما وقد تقلص ظل هذه الحكومة فاننا أصبحنا خاضعين للحكومة الجديدة وهي الحكومة الفرنسوية فليحي الملك ولتحي حكومته ! »

وكان شارل بونابرت دكتوراً في الحقوق من جامعة بيزا وقد أسند اليه منصب معاون الرئيس في القضاء الملكي في أجاكسيو وهو منصب جديد انشأته حكومة لويس الخامس عشر . وانحاز شارل بونابرت الى حزب الكونت دي مربوف حاكم كورسيكا فضمن بذلك الامر مستقبل أسرته

وتوفي شارل بونابرت في سنة ١٧٨٥ وله من العمر ثمانية وثلاثون عاماً وبضعة أشهر على أثر علة السرطان في معدته . وهذا الداء اتصل منه الى ابنه نابوليون . وكان شارل بونابرت قد قصد الى منبلياي ليتداوى فيها إلا أن داءه لم ينجع فيه دواء ولم تنجح فيه حيل الاطباء

ولما اشتد عليه المرض وكان الى جانبه يوسف بكر أولاده وابن حميه فش كان يفكر دائما في نابوليون ثاني أنجاله وكان هذا في ذلك الحين في المدرسة الحربية بباريس . فقال وقد دخل في دور النزع : « أين نابوليون ؟ أين ابني نابوليون ؟ ان سيفه سيجعل فرائص الملوك ترتعد وسيغير وجه العالم ! وهو سيدافع عني من أعدائي ويخلص حياتي » . وكان نابوليون في ذلك الحين في الخامسة عشرة من عمره

وكانت هذه الرؤيا الشبيهة بالنبوءة كل ماعرفه بالفكر ذلك النبيل الكورسيكي

الخامل المنزلة عن المستقبل وكان وهو لا يدري أبا لامبراطور وثلاثة ملوك . ولكن هل كانت زوجه أسعد منه حظاً وقد أسعدها الدهر بان تشاهد أشياء جمة كالثورة الطاحنة ومجد القنصلية والامبراطورية ونكبات سنتي ١٨١٤ و ١٨١٥ ومنفى جزيرة القديسة هيلانة ؟ فقد عاشت احدى وخمسين سنة بعد وفاة زوجها .

ومن الانباء التاريخية ان شارل بونابرت كان من النبلاء وأصله من تسكانا ويقال ان أسرة البونابرتيين كانت صاحبة السيادة في تريفيز ولم يكن شارل بونابرت من أصحاب الثروة فلم يزد ريع أملاكه في اجاكسيو عن ألف وخمسمئة فرنك وكان يقضى عليه بان يقوم بها بأود عائلة مؤلفة من زوجته واولاده الثمانية وكانت له مطامع كبيرة فلم يطق بان يبقى أولاده بغير تعلم ولذلك حرك جميع عوامل دهائه للحصول على مساعدة لتعليمهم فاصاب امنيته بمساعدة الكونت دي مربوف حاكم الجزيرة . ولما كان لقب الشرف في ذلك العهد يمهد لحامله سبيل التقدم لم يحجم شارل بونابرت عن الاستفادة مما اتصل اليه من اسلافه من الالقاب النبيلة فوقت ما أخذ اولاده يوسف ونابوليون واليزا من اجاكسيو وسافر بهم في ١٥ دسمبر سنة ١٧٧٨ الى باريس لإدخالهم في المدرسة عرج على فلورنسة لاخذ الاوراق المثبتة شرف محتده ليقدمها مع ابنه نابوليون وقد اراد ان يعده للمدرسة الحربية . وبعد ما ادخل ولديه يوسف ونابوليون مدرسة اوتان توجه الى فرسايل ليمهد لدخول نابوليون مدرسة بريان . فدفع الاوراق التي جاء بها من فلورنسة الى المسيو دوزياي دي سريني المعين لفحص مثل تلك الاوراق .

فنال شارل بونابرت من مكارم الملك لويس السادس عشر مبلغ الف فرنك مساعدة على تعليم اولاده ونال الاوراق المساعدة له على مبتغاه وتوجه الى بريان وبعد ثلاثة ايام وافاه اليها نابوليون قادما من اوتان فادخله المدرسة الحربية .

وذهب شارل بونابرت الى فرسايل نائبا عن نبلاء الجزيرة ليمثلها مع زميلين له في المجلس الاعلى . ولكن لم يقم في تلك المدينة مدة طويلة لاشتداد المرض عليه ولاضطراره الى الشخوص الى منبلياي للتداوي وهناك استوفى حظه من الدنيا .

لاتيسيا راموليتو والدة نابوليون

وأصاب نابوليون بعد صلح تلست منزلة لم يسبق لها نظير في أوربا . ولقائل ان يقول وكيف أصبحت فى ذلك الحين والدته وأخوته وأخواته الذين لجأ معهم في سنة ١٧٩٣ الى مقاطعة البروفانس ؟ وماذا جرى للمرأة التي اقترن بها قبل معارك ايطاليا بمدة قصيرة ؟ ان كتابة تراجم أولئك الأشخاص الذين يمتون بصلة الرحم والنسب الى العاهل وبيان علاقاتهم به يقتضيان تحبير فصول نبين فيها ما يكمل صورة ذلك الداهية الذي تسلط على حظ فرنسا وقبض بيده على ميزان السياسة في أوربا .

أم الملوك : — كانت أم نابوليون تدعى أم الملوك فما عدا كونها والدة نابوليون العاهل كانت والدة يوسف الأول نابوليون ملك نابولي ثم ملك أسبانيا ووالدة لوسيان أمير كانينو ووالدة لويس الأول نابوليون ملك هولندا ووالدة جيروم الأول نابوليون ملك وستفاليا ووالدة اليزا باتشيوشي أميرة لوك وبيومبينو وغرندوقة تسكانا ووالدة بولين برغيزي أميرة غواستالا ووالدة كارولين مورات غرندوقة برغ وملكة نابولي .

وتزوجت والدة نابوليون قبل ما أكملت الرابعة عشرة من عمرها وأصبحت أيماً في الخامسة والثلاثين منه وتوفيت وقد شبعت من الأيام بعد ما قضت ٨٥ سنة من العمر . وهـذه المرأة متحدرة من أسرة كريمة تقيم في مدينة صغيرة بجزيرة تـكاد تـكون مجهولة وتزوجت رجلا من صغار السادة في كورسيكا وقد توفي تاركا إياها بلا مال وحولها ثمانية أولاد تقضي عليها حالها بأن تعولهم وتربيهم فنهضت بتلك الاعباء الملقاة على عاتقها وأصبحت بعد مدة غير طويلة محتلة منزلة سامية في تاريخ العالم تشع حولها أنوار ساطعة منبعثة من ثاني أنجالها الذي أصبح صاحب السلطان في فرنسا بحيث أصبح تاريخ المرأة وأولادها مماثلا للتواريخ المذكورة في أساطير الأولين أو في حوادث الف ليلة وليلة .

ولـكن رزانتها لم يبهرها ما كان يجري حواليها وقد تمكنت من احتمال المصائب التي توالت عليها في آونة الضراء فانها أبصرت بعينها أولادها ينحدرون عن العروش التي تسنموها وصهرها ينصب هدفاً للبنادق وعاشت خمس عشرة

سنة بعد تحرم تجلها نابوليون وقد ضن عليها جلادوه بعرافته الى منفاه ولبست حداده متباهية به ومات في حياتها حفيدها وقد حظروا عليها مشاهدته وتوفيت هي ذاتها مقعدة وعمياء في قصر بمدينة البابوات . ولم يتمكن بلوتارك ولا شكسبير من ان يطلقا على غيرها تلك الكلمة التي فاه بها لابروبار وهي :
« لايستطيع الانسان أن يرى في الحلم امرأة عاشت نظيرها »

أسرة لاتيسيا — ولدت ماريا لاتيسيا رامولينو في أجاكسيو بكورسيكا في ٢٤ أوغسطوس سنة ١٧٥٠ وكان لاسرة والدها مكانة مكرمة بين أعيان الجزيرة فان أباها انتظم في خدمة جنوى الخاضعة لها كورسيكا في ذلك العهد . ووالدتها فتاة من فتيات بيانراسانتا من أسرة سرتينية الاصل . ومات والد لاتيسيا حين كانت والدتها في ميعة الشباب فتزوجت هذه بربان سفينة جنوية اسمه فرنسوى فش وأصله من مدينة بال بسويسرا وولد لها منه ابن سموه يوسف وأحبت لاتيسيا اخاها يوسف حباً شديداً وهو أصغر منها بثلاث عشرة سنة وقد قضت معه الشطر الاكبر من حياتها في باريس ورومية . وهو ايضا اصاب قسطه من المجد المتصل اليه من اسرة اخته فان ثاني اولادها غمره بنعمائه وجعله رئيسا لاساقفة ليون وكردينالا وسفيراً لجلالته الامبراطورية لدى الكرسي الرسولي وكنتا وعضوا في مجلس الشيوخ ومعاونا لرئيس اساقفة راتسبن .

حداثة لاتيسيا : — لايعرف الناس شيئاً عن حداثة لاتيسيا رامولينو وتربيتها فانها لم تتعلم في المدرسة الا بعض المبادىء الاولية وذلك لأنها من جنس النساء وكورسيكية . ففي تلك الجزيرة السائد فيها نوع من الهمجية وخشونة الاخلاق لم يكونوا يعلمون الغلمان القراءة وبالتالي لم يكن للفتيات حظ من التعلم ومع ذلك اسعد الطالع الميمون لاتيسيا بأن تتعلم مبادىء القراءة والكتابة والحسابة .

وتزوجت تلك الفتاة في ٢١ يونيو سنة ١٧٦٤ قبل ما أتمت السنة الرابعة عشرة من عمرها وقد يكون سبب ذلك الزواج الباكر ناجما عن جمال صورتها ولكن ثمة سبباً آخر وهو أن الكورسيكيين يبادرون الى التملص من بناتهم حين يجدون سبيلا الى ذلك فالزواج الباكر عادة من العادات الجارية في تلك الجزيرة على انه من المظنون ان تلك الفتاة التي لم تكن قد أكملت الرابعة عشرة من العمر كانت ذات جمال مقرون بالقوة مما يرى غالباً في فتيات تلك الجزيرة . وقد قال نابوليون

مرة : « ان والدتي وان تك قد جاوزت الثلاثين من عمرها لا تزال في ريعان الصبا » والناظر الى صورها يتمثلها صغيرة القامة كستنائية الشعر سوداء العينين طويلة الاهداب والحاجبين المتقوسين اللذين يزداد بهما جمال الكورسيكيات متناسبة تقاطيع الوجه مستقيمة الانف صغيرة الفم معتدلة الاذنين بارزة الذقن قليلا وذلك دليل على قوة الارادة . وقد ذكرت أشكالها في الجواز الذي أعطوها اياه في ٩ ابريل سنة ١٨١٤ في اورليان حين أخذت لأول مرة طريق المنفى وهذا ما جاء عن تلك الاشكال في الجواز الذي دفعت ثمنه فرنكين :

العمر : أربع وستون سنة — القامة : متر وخمسون سنتيمترا — الشعر : يخطه المشيب — الجبهة : بارزة — الحاجبان : كستنائيان — العينان : سوداوان — الانف : معتدل — الفم صغير — الذقن : مستدير — الوجه : بيضي الشكل — اللون : أبيض — علامات فارقة : لا يوجد .

زواجها :— وقالت لاتيسيا : تزوجت بشارل بونابرت وكان جميل الطلعة كبير الجسم كورات .

وكان زوج تلك الفتاة في الثامنة عشرة من عمره وهو فارس تام الخلق كبير القامة جميل الصورة فصيح اللسان — لانه كان محاميا — يحسن اللغة الفرنسوية ويتفنن في الاساليب الضامنة لهنائه وهناء اسرته . ولكن هل خطر على باله وهو الشديد الميل الى العلم والادب أن يزين عقل امرأته بالعلم ؟ انه لم يكن له متسع من الوقت لذلك لانصرافه كل الانصراف الى الجهاد في سبيل استقلال وطنه . ثم انه انضم الى الحكومة الفرنسوية وجعل يتنقل بين كورسيكا والقارة لاصابة مطالبه الكثيرة . وفضلا عن ذلك لم تكن صحة لاتيسيا تمكنها من احراز الثقافة التي تنقصها ففي خلال تسع عشرة سنة قضتها مع زوجها ولد لها منه ثلاثة عشر ولدا مات منهم ثلاثة وهم أطفال وتوفي اثنان منهم حين ولادتهم .

وكانت نيران الحرب مشتعلة في كورسيكا فان الحزب الوطني المنتمي اليه البونابرتيون كان ملتفا حول باولي لمقاتلة الفرنسويين بعد ما ابتاع هؤلاء الجزيرة من الجنويين . وكانت مدينة كورتي مركز المقاومة فتبعت تلك المرأة

الفتية زوجها الى ساحة الروع تارة ماشية على قدميها وتارة راكبة بغلا وطورا متسلقة الصخور ومتوغلة في الآجام وطورا عابرة الانهر وهي تسمع أزيز الرصاص حول أذنيها ولا هم لها الا الدفاع عن الحرية غير مبالية بسنها وجنسها وحالتها . وقد قال عنهـا مرة نابوليون : « انها تحتمل مشاق الحياة وشظف العيش غير محتفلة بشيء فلها رأس رجل على جسم امرأة » . ولم يساورها الخوف قط على الولد الذي في أحشائها أو لم تكن قد خصصته قبل ولادته للعـذراء القديسة ملـكة اجاكسيو ومحاميتها ؟ فانها في يوم عيد انتقال السيدة في ١٥ اوغسطوس سنة ١٧٦٩ ولدت ثاني أنجالها وقد كادت تنجز السنة التاسعة عشرة من عمرها .

عقيلة بونابرت أم اسرة :— لندع الآن والدة نابوليون تخبرنا عما كان لها من الشأن في حياتها :

« لما صرت والدة خصصت جميع حياتي لتـدبير بيتي وتربية أولادي فلم أكن أخرج من البيت الا لأذهب الى الـكنيسة لسماع القداس ولم يذهب عني قط انه يجب على المسيحي الحقيقي أن يذهب كل يوم الى الـكنيسة ولاسيما أيام الاعياد ولـكن أظن ان الـكنيسة لا توجب على الناس المتقلدين زمام الاعمال أن يضيعوا القسم الاكبر من اليوم في أيام الشغل خارج منازلهم . . وما عـدا ذلك أرى وجودي في البيت ضرورياً لأضع حداً لبلبلة أولادي واعتداء بعضهم على البعض الآخر وهم صغار . أما حماي وزوجي فقـد كانا كثيري التساهل معهم بحيث كانا عند سماعهما أدنى صراخ منهم وأدنى توبيخ مني يبادران الى مسـاعدتهم بابدائهما لهم كثيراً من الحنان . أما أنا فـكنت قاسية أو متساهلة تبعاً للأحوال ولذلك كان أولادي يطيعونني ويحبونني معاً مع تأنيبي لهم .

« وكان نابوليون أجرأ من جميع أولادي وقد أبدى تلك الجرأة من صغره . وأذكر اني لـكي أعلم مقدار همة ونشاط كل منهم فرزت غرفة من رياشها وخصصتها لهم لـكي يلعبوا فيها في آونة التنزه والمطر [illegible] لهم الحرية في عمل كل ما يروقهم عمله فـكان جيروم واخوته الثلاثة يقفزون أو يصورون على الجدار صوراً مضحكة أما نابوليون وكنت قد اشتريت له طبلا صغيراً وسيفاً من

الخشب فانه لم يصور الا جنوداً مصطفين ومستعدين للقتال » .

شدة صريحة عقيلة بونابرت : — وكانت عقيلة بونابرت شــديدة في تربية أولادها على مثال التربية في كورسيكا فلم تغفل عند تربيتها اياهم عن استعمال الضرب اذا اقتضت الحاجة ذلك فنابوليون كاخوته شعر غير مرة بثقل ذراع والدته وقال عنهــا وهو امبراطور : انها كانت تمزج القساوة بالحنان فتعاقب وتكافىء من غير ما تمييز وتحسب لنا كل شيء الخير والشر» . فذات مرة لم يرد نابوليون أن يذهب الى الكنيسة يوم الاحد فصفعته صفعتين دلتاه على طريق الكنيسة .

وذات يوم ذهبت والدته لزيارة صديقة لها فتبعها نابوليون بغير اذن منها فاندفعت عليه بغضب وصفعته صفعة شديدة ألقته على الارض وتركته يبكي ويفرك عينيه بيديه .

وحدث مرة أخرى أن ذهب نابوليون الى شجرة تين فقطف منها مقداراً كبيراً وأكله وكانت والدته قد نهته عن ذلك ولما جاءت لتقطف التين وجدته مسروقاً فسألت أولادها عن ذلك وحين عرفت أن نابوليون السارق عاقبته بالسوط .

واستهزأ بجدته مقلداً مشيتها بتوكاًه على عصا وبتسميته اياها بالجنية العجوز فحملقت فيه والدته مقطبة الجبين فشعر بخطأه وأراد أن يقبلها فدفعته مقصية اياه عنها وبعــد بضع دقائق دخلت عليه في غرفته وقبضت عليه بيد قوية وأوجعته ضرباً .

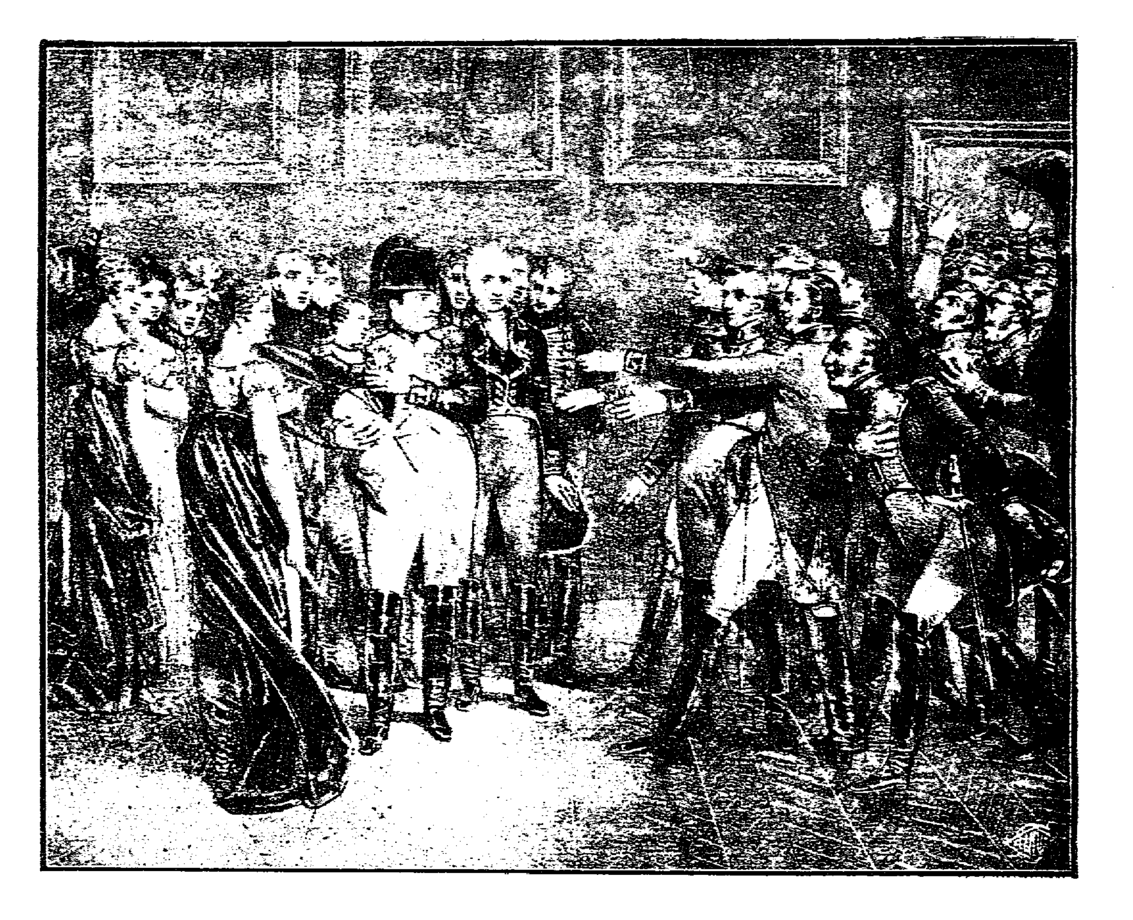
وكان نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة يلمح كثيرا الى تذكارات صباه هذه ويتكلم عن أمه لاتيسيا فانها كانت تطفىء شرة حدتها مازجة الحنان بالشدة الا ان تلك الشــدة والدية فجميعنا نشأنا وكبرنا على ركب والداتنا ولم يذهب هذا الامر عن نابوليون ولذلك جاهر به على رؤوس الاشهاد قائلا : الفضل لوالدتي ولمبادئها الصالحة في سعادتي وكل ما صنعته من الاشياء الحسنة مرجعــه لوالدتي الجديرة بكل ضروب الاحترام » . وقال لطبيبه انطومرخي الذي أرسلته اليه والدته الى جزيرة القديسة هيلانة : « انك شديد التعلق بي ولا تدخر شيئا لتخفيف كربي ولــكن جميع ذلك لا يشــبه بحنان الأم . آه يا أمي لاتيسيا ! يا أمي لاتيسيا !! » .

عقيلة بونابرت ايم : — نزلت مصيبة دهاء بعقيلة بونابرت وأولادها فان زوجها رب العائلة توفي في سنة ١٧٨٥ وهو لم ينجز التاسعة والثلاثين من عمره فقضي على ايمه بأن تعنى بحياة أولادها الثمانية وتهتم بتهذيبهم فيوسف البالغ من العمر نحو سبع عشر سنة كان في مدرسة اوتان ونابوليون الذي كان في الخامسة عشرة من عمره كان في المدرسة الحربية بباريس واليزا التي لم يمض من عمرها الا تسع سنوات كانت من بضعة أشهر قد دخلت مدرسة سان سير الملكية وكان هؤلاء الاولاد الثلاثة يتعلمون على نفقة الملك فالمستقبل وان لم يكن مضمونا لهم فتح في وجه والدتهم باب الامل فكان موقفهم على الاقل في ذلك الوقت يخفف شيئا من قلق الام ولكن كيف السبيل الى تهذيب الاولاد الخمسة الباقين وتربيتهم فللوسيان ١٠ سنوات من العمر وللويس ٧ ولبولين ٥ ولكارولين ٣ ولجيروم ثلاثة أشهر ونصف شهر .

ولم تر لها بدا من تربية ثمانية اولاد وتعليمهم وكان خمسة منهم باقين في حجرها اما دخلها فكان من نتاج بعض المواشي وريع بعض كروم عنب والمزارع وذلك مبلغ يسير فكانت الحال تقتضي همة تلك الايم التي لاتتجاوز خمساوثلاثين سنة من عمرها للقيام باعباء المهمة الملقاة على منكبيها . وقد قال يوسف عند عودته الى اجاكسيو : «ان والدتي عالجت كتمان حزنها مخافة أن تهيج في ذكرى اللوعة فهي امرأة شديدة الصريمة فاضلة ومثال صالح للامهات فما أحسن المثال الذي اعطتهن اياه ! »

وكانت ثلاث نساء يساعدن عقيلة بونابرت في الاهتمام بتدبير شؤون المنزل وهن كاترينا خادمتهم العجوز التي شهدت ولادة نابوليون ولم تبق لها قوة على العمل وكاميلا ايلاري التي ارضعت نابوليون وقد جاءت فيما بعد الى باريس لتشهد حفلة التتويج وسافيريا وهي تسكانية الاصل وقد جاء بها اليها ابنها يوسف في اثناء تلقيه العلم في جامعة بيزا فان والدته كتبت اليه حينئذ أن يأتيها من ايطاليا بخادمة في نحو الاربعين من عمرها لكي تزاول الطباخة والخياطة وكي الثياب بحيث تتراوح أجرتها بين ثلاثة فرنكات وأربعة فرنكات في الشهر .

اقتصادها : — واشتهرت عقيلة بونابرت بالاقتصاد وبمعرفتها قيمة كل شيء وقد نبهها اسراف زوجها الى حب الاقتصاد والى معرفة طريقة الادخار وهي فضيلة



نابليون وملك رومية قبل زحف الامبراطور الى موسكو



خلصت بها اسرتها مرتين: في سني الضيق التي تلت وفاة زوجها وفي سني الشقاء التي عقبت تداعي صرح الامبراطورية في سنتي ١٨١٤ و١٨١٥ .

واستندت مدة من الزمان في تدبير شؤون الاسرة الى يوسف بكرها والى رئيس الكهنة عم زوجها. ومات رئيس الكهنة ولكن قبلما لفظ انفاسه المعدودة نبأ حدسه ماسيكون من حظ ثاني اولاد ابن أخيه فقال لنابوليون انه سيكون رجلا عظيما وكرسه لان يكون زعيم الاسرة . فعقيلة بونابرت كامرأة كورسيكية لم يسعها الا الاعتراف بسيادة الرجال في اسرتها وانيك اولئك الرجال أولادها . وقد شعرت شيئا فشيئا بان احترامها يزداد لزعيم اسرتها الصغير الخفيف القبضة .

الثورة في كورسيكا : — ونشبت الثورة الفرنسوية الكبرى فاصبحت في كورسيكا كما في غيرها من الانحاء الفرنسوية مثيرة للقوم بعضهم على بعض وتألف ثمة حزب جمله نفوره من مظالم الثورة يميل الى سلخ كورسيكا عن فرنسا الا ان هؤلاء الكورسيكيين المتطرفين الملتفين حول باولي بطل الاستقلال الوطني القديم أصبحوا عمالا يخدمون المصلحة البريطانية وبالتالي باتوا من أشد الناس عداوة لفرنسا . فلم تتردد عقيلة بونابرت فان زوجها كان فيما مضى من أنصار باولي يقاتل في سبيل حرية الجزيرة وهي ذاتها اشتهرت بشدة اعتصامها باهداب الوطنية الا ان البونابرتيين مالوا جميعهم منذ دخول الجزيرة في حيازة فرنسا الى هذه الدولة واستسلموا اليها بغير قيد ولا شرط وقد قضى عليهم موقفهم بأن يظلوا مخلصين لفرنسا حتى ولفرنسا الثورية ولو سامهم ذلك ثروتهم وحريتهم وحياتهم . هذا ما شعرت به تلك المرأة الاجاكسية التي أصبحت فرنسوية بجملتها .

وضبط احلاف باولي أملاك عقيلة بونابرت مع ان ريعها لم يكف لسد نفقاتها ونفقات أولادها وأوشك الباوليون أن يستولوا على الجزيرة برمتها . وذهب اليها رسول من لدن باولي يقترح عليها أمورا يرد اليها بموجبها أموالها في الحال فقالت له : « ارجع الى باولي وقل له انه يعرفني كل المعرفة وسيعلم اني أنا أوعزت الى اولادي بأن ينهجوا المنهاج الذي يسيرون عليه الآن واذا اقتضت الحال فاني أعود الى الامر عينه فانا فرنسوية وسأظل فرنسوية » فالامر الذي عزمت عليه عقيلة بونابرت وعزم عليه جميع أولادها — كانت جميع الاسرة مجتمعة

في أجاكسيو — جعل حياة الجميع مستهدفة لنبال العطب فان باولي أمر بافراد تلك الاسرة أن يجلبوا اليه جميعهم أحياءأم أمواتا . فأكبر الاولادوهم يوسف ونابوليون ولوسيان فروا متنكرين وتمكن نابوليون من الوصول الى شاطىء البحر والفرار في زورق صيد ولكن ماذا جرى لوالدته واخويه الصغيرين وشقيقاته الذين تركهم .

هرب عقيلة بونابرت وأولادها :— وعرفت عقيلة بونابرت في ليلة من ليالي شهر مايو سنة ١٧٩٣ ان رجال باولي اوشكوا ان يصلوا اليها فاسرعت في ايقاظ أولادها والباسهم ثيابهم وجمعت في كيس بعض اطهار للاسرة وقليلا من الخبز وبعض المؤونة وانطلقت باولادها هاربة معهم من الخطر الذي يهددهم في وطنهم ولم تكن بولين الصغيرة تفارق امها وكان الخال فش يسير والى أحد جانبيه لويس والى الآخر اليزا ووصل الجميع الى الجبل فالتفتت الى ورائها وشاهدت منظرا محزنا فان غماماً كثيفة من الدخان كانت ترتفع من اجاكسيو فقال احد الاولاد : ان بيتنا يحترق . فقالت له أمه : لابأس من ذلك سنعيد بناءه جميلا فلتحي فرنسا ! »

وكان حادث هرب الاسرة وفي مقدمتها امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها من الحوادث المؤثرة فوصلوا الى ضفة نهر طاغ ولم يلقوا منتدحا عن عبوره فعثروا على جواد في مزرعة قريبة فركبت الام ومعها بنتاها الصغيرتان واجتازت النهر وتكرر العمل حتى عبر الجميع . فاستأنفوا السير في تلك الاراضي الصخرية ولم يبق لاليزا حذاء تلبسه فتهشمت رجلاها وسال الدم منهما فقالت لها امها : « لا تبكي يا بنية فلسنا وحدنا منكودي الطالع افعلي مثلي فانا أتعذب واصمت وقد بقي لنا أصدقاء يهتمون بنا وماعدا ذلك لايهملنا الفرنسويون . »

ووصل الهاربون الى شاطىء البحر بعد ايام أي بعدما اجتازوا طرقا لا تمر عليها الا المعز فابصروا زورقا وكان فيه نابوليون فاسرعوا الى ركوب الزورق والابتعاد به عن البر وساقتهم الى كلفي ريح مؤاتية وقد اجتمعت الاسرة كلها على بعض أخشاب طافية على وجه البحر بين الماء والسماء وبينهم من أسعدهم الحظ فيما بعد ان يعصبوا جباههم بتاج الامبراطورية والملكية وأن تصبح اسماؤهم

المجهولة حينئذ مشهورة فيما بعد في مشارق الارض ومغاربها فكان في ذلك الزورق قيصر واسرته وحظه .

وذاقوا في كلفي طعم الراحة بضعة أيام عند أصدقائهم ولكن لم يفكروا في إطالة المكث هناك اذ لم يكن لهم من ملجأ أمين الا في فرنسا فركبوا سفينة تجارية وقد دخل عليهم الخوف من السقوط في أيدي القراصين البريطانيين المنتشرين عند سواحل البروفانس ولم يخطر على بال قائد المدفعية الخامل الذكر في ذلك الحين ان في اسطول الاعداء ربان سفينة اسمه نلسن وهو اسم خامل أيضاً كاسمه . وآخراً تمكنت الاسرة كلها من الوصول الى طولون .

عقيلة بونابرت في مرسيليا :— وفي بدء الامر سكنت عقيلة بونابرت واولادها في ضواحي طولون ثم انها انتقلت بهم الى مرسيليا واقامت فيها معهم . ولم يكن لها من أسباب المعيشة الا الوثائق التي كان يدفعها اليها ابنها نابوليون بصفة كونه قائداً في المدفعية ولكن ما لبث ذلك القائد أن انتزع طولون من أيدي البريطانيين فرقي الى رتبة جنرال مكافأة له على ذلك الانتصار الباهر الذي خلص فرنسا والجمهورية معاً . وكان ذلك الظفر فاتحة المجد الذي أصابه وهو المجد الذي تسكر أوائله ولا يعتبر عند عدم وجود الثروة ذا أهمية كبرى لهناء العيش ولكن يعد منقذاً من ضيق الحال وشظف المعيشة .

وأخذ كل من الاولاد يتخذ له مركزاً فيوسف تزوج جوليا كلاري ابنة تاجر مثر في مرسيليا ولويس لحق أخاه الى ايطاليا ولوسيان دخل في دوائر الاعاشة العسكرية والبزا خطبها الكابيتان باتشيوتشي أما بولين فلم يقلقوا من جهة مستقبلها فقبلما طوت اربعة عشر ربيعاً من عمرها تهافت عليها الطلاب وبقي الصغيران كارولين وجيروم وهذان أيضاً لم يكن من سبيل للخوف عليهما .

وكان نابوليون يوسع الخطى في السير على الطريق المؤدي الى المجد والسلطة وقد قالت له والدته : « يا نابوليون ليست كورسيكا سوى صخرة صماء فهي زاوية صغيرة من الارض تكاد تكون غير منظورة وهي موطن الشقاء أما فرنسا فانها كبيرة وغنية وكثيرة السكان والثورة فيها مضطرمة اضطراماً ونارها شريفة فلا بد من الاندفاع اليها والتقلي على جمرها » وكانت تلك الاوهام تتحقق في كل يوم

عقيلة بونابرت في ممبلو :— وعفرت ايطاليا والنمسا خديهما عند قدمي الظافر

الشاب فمن قصر ممبلو على مقربة من ميلان حيث أتخذ محل أركان حربه نظر مجـد اسمه وبلاده يلمع في أوربا جمعاء وبصفة كونه ابنا معترفا بالجميل لم ينس امه فطلب منها أن تأتي اليه في ممبلو فجاءت مع بناتها ببساطة ملابسها السوداء على الزي الكورسيكي وظهرت بقامتها الصغيرة، كأنها حورية من حور الجنان أو لم تلد رب ذلك العصر وتربيه وتلق فيخلده الالهامات السامية ؟

وقال الامبراطور : « أقبلت علي والدتي والفرح يتدفق من وجهها والخيلاء تصعر خدها فقالت لي وهي تضمني الى صدرها : « يانابوليون أنا اليوم أسعد الامهات » . وتلك الكلمة أفضـل مكافأة أصبتها على ما أتيته من الاعمال الكبيرة ثم أنها جعلت تنظر الي متفحصة فوجدتني نحيل الجسم عاري الاشاجع فاكتأبت من جراء ذلك وقالت لي : « انك تفني صحتك . فقلت لها ضاحكا : اني بعكس ذلك أعيش. فقالت : قل انك تعيش في الاجيال المستقبلة أما الآن... فقلت لها . وهل أنا أموت الآن ؟ »

عقيلة بونابرت عند العودة من مصر : — وانطلق نابوليون الى مصر فبعد تحطيم نلسن لاسطول برويكس وحصره بونابرت في أرض الفراعنة جعل الناس يتساءلون قائلين : وهل يعود بونابرت ؟ أما والدته فانهـا لم تفقد دقيقة واحدة الامل برجوعه وقد جعلت اقامتها في باريس مع كنتها جوزفين ولم تكن تحبها كثيراً . وأقامت في باريس لئلا تنسى فرنسا اسم ابنها فانهـا ظلت ساهرة على حفظ الامانة لذكرى فرنسا . وما لبث الناس ان انتهى اليهم خبر وصول الجنرال بونابرت وصعوده الى البر في فريجوس . وبعد وصوله بثلاثة أيام أي في صباح ١٦ أكتوبر وصل الى باريس فذهب تواً الى بيته بشارع النصر فلم يجد زوجته لانها ذهبت لملاقاته ولـكنها لم تلتق به . وكان اخوته وأخواته متشتتين ولم يجد من جميع أفراد أسرته سوى شخص واحد ينتظره من دون أن يدهش مما أتاه من الاعمال الـكبيرة وكان ذلك الشخص والدته . وكما ضمت الى صدرها منذ مدة غير بعيدة نابوليون الايطالي ضمت هذه المرة نابوليون المصري.

ونشرت الصحف في الغد هـذا البلاغ : « عاد الجنرال بونابرت الى بيتـه بشارع النصر فلقي والدته تنتظره وهي في التاسعة والاربعين من عمرها »

عقيلة بونابرت مساء برومير : — ووقعت حادثة برومير بعد شهر على أن

تلك المرأة وان لم تطلع على جميع أسرار الانقلاب الذي طرأ شعرت بما يدبرونه من الاعمال ولكن أين كانت في مساء اليوم الذي كان فيه نابوليون في سان كلود مستعداً للاقدام على العمل العظيم ؟ كانت في ملعب فيدوني في مقصورة في مقدمة الملعب تصحبها بولين الحسناء التي كانت قد أصبحت عقيلة لكلرك وعقيلة جونو الفتاة وهي التي صارت فيما بعد دوقة دابرنتس ووالدتها . وكانت اولئك السيدات يتحدثن ريثما يبتدئون بالتمثيل وجميع الابصار شاخصة اليهن

ولنترك الآن عقيلة جونو تسرد ذلك المشهد قالت : « لم تكن عقيلة بونابرت تقول شيئاً لكنها كانت تكثر من التلفت الى باب المقصورة وقد شعرت أنا ووالدتي بانها تنتظر أحداً ورفع الستار وابتدأوا بالتمثيل بكل سكينة وتقدم مدير الملعب بعد دقائق الى وسط الدكة وصاح بصوت جهوري بمدماحيا الحضور :

« أيها الوطنيون لقد أوشك خائنو الوطن أن يفتكوا بالجنرال بونابرت في سان كلود » . فمنذ سماع هذا الكلام صاحت عقيلة لكارك بصوت شديد واضطربت اضطراباً عظيما أما والدتها فعالجت تسكين روعها وهي ممتقعة اللون كأنها تمثال من رخام . ومع كل ماساورها من الخوف والهم لم يبد على محياها الباقية عليه لمحة من الجمال إلا انقباض حول شفتيها وانحنت على ابنتها وتناولت يديها وضغطتهما بشدة قائلة لها بلهجة التأنيب :

« يا بوليت لماذا هذا الانتحاب ؟ اصمتي أو لم تسمعي ان شقيقك لم يصب بأذى ؟ اصمتي وانهضي فيجب ان نمضي لنعلم ماذا حدث » .

« وكان لصوت والدتها تأثير فيها أكثر من كل كلمات التأسية التي فهنا بها . ثم خرجنا وخرج جمهور كبير من الملعب ليتسقطوا الاخبار وهم يقولون : هذه أم الجنرال بونابرت وهذه أخته . وسارتا الى شارع النصر وبعد ساعات وصل اليه الجنرال بونابرت ذاته قادماً من سان كلود وكان قنصلا وقتيا للجمهورية الفرنسوية . »

عرض الجيش في التويلري : — واتخذ القنصل الاول في شهر فبراير من السنة التالية قصر التويلري قصر الملوك مركزاً له . وعرض الجيش في ساحة كاروسل فكانت الاصوات ترتفع من كل جهة مطبقة الفضاء : « فليحي القنصل

الاول ! » ولما انتهى العرض مرت الكتائب أمام القنصل الاول ولما مرت أمامه الاعلام الممزقة والمصطبغة بلون البارود والباقية آثار الرصاص فيها كان الجنرال الشاب الذي لم يطو من عمره أكثر من ثلاثين سنة يرفع قبعته وينحني أمامها احتراما وتجلة ووقفت وراء ذلك الرجل الصغير الشاحب اللون الازرق العينين المسترسل الشعر الى جانب زوجته وشقيقاته الجميلات امرأة جذبت اليها جميع الابصار وهي تلك المرأة الفتية لاتيسيا رامولينو الاجاكسية وابنة بياتراسانتا السرتينية وابم ذلك المحامي الصغير الاجاكسي ووالدة الجنزال بونابرت .

حفلات سنتي ١٨٠٢ و ١٨٠٤ : — وبعد ما قاست تلك المرأة في بدء حياتها ما قاسته من شظف العيش ونالها ما نالها من الشدائد والمكاره بلغت ذروة المجد والشرف فشهدت يوما عظيما وهواليوم الاحد الموافق لعيدالفصح في ١٨ ابريل سنة ١٨٠٢ وقد احتفل فيه في كاتدرائية نوتردام في باريس بتصالح فرنسا والكنيسة وجاء في صحيفة الديبا الصادرة في ذلك الحين ما يأتي : « وجلست الى يمين عقيلة بونابرت حماتها فكانت تجيل نظرها في أولادها الخمسة المجتمعين في تلك الحفلة وخيل اليها انها بينهم في السماء التي جادت بهم عليها . »

وبحث القوم عنها على غير جدوى في كنيسة نوتردام في الحفلة التي أقيمت في ٢ يناير سنة ١٨٠٤ فانها لم تشهد تلك الحفلة الفاقدة المثال والسبب في ذلك هو أنه حدث خصام عنيف عائلي بين القنصل الاول وأخيه لوسيان بسبب رفض هذا الاخيرتطليق المرأة التي اختارها له زوجة وأحبها محبة شديدة . فصمم لوسيان على مغادرة باريس مع زوجته والانطلاق الى رومية . ولم يفهم القنصل الاول معنى الميل الحبي الذي جاهرت به والدته للوسيان مع ما أبداه من التمرد على أخيه . وبعدما بذلت عقيلة بونابرت مجهودها لتحول دون انفصام عرى المحبة بين الشقيقين منعت لوسيان عن الاجتماع بنابوليون ومعاتبته إياه قائلة له : « لا ينبغي لك ان تجتمع به يا ابني... فكلاكما حادالطبع ونابوليون صاحب حول وطول اكثر منك يالوسيان المسكين فالافضل لك ان تذهب من دون أن تشاهده » . وقال لوسيان : « وبقينا مدة من الزمان حتى انتصف الليل فاخذت زوجتي بيدها وخررنا جاثيين أمام والدتنا فقالت لي

« أؤمل أن أشاهدكما بعد وقت قصير في رومية » . هذه كلمات والدتي الاخيرة التي فاهت بهـا وهي تبتعد عنا . وقبلما ذهبت الى غرفتها صعدت لتقبـل أولادنا الراقدين . . . فما أشد ماشعرت به من الـكآبة تلك الام المسكينة في ذلك الحين ! »

فانحى عليها نابوليون باللائمة لانهامنحت لوسيان الاثرة عليه فاجابته بكلمات لا تخرج إلا من فم أم وقالت : « ان الذي أحبه أكثر من سواه بين أولادي هو الذي يتعذب أكثر من غيره » . وقد جاء يوم شعر فيه نابوليون المسكين بان حب والدته له يفوق حبها لباقي اخوته . وذهبت الى رومية للموافاة لوسيان وتسكين غضبه وارجاعه الى الحظيرة لكنها لم توفق الى ذلك ولم ترجع الى باريس إلا في ٢٠ دسمبر من تلك السنة

ولم يخف على نابوليون ان التاريخ يقتضي حضور والدته في حفلة التتويج . ولذلك أوعز الى المصور دافيـد بان يضع رسم والدته في الصورة التي صنعها لتخليد ذكرى التتويج فرسمها الى يمين المذبح في منصة عالية فوق المارشالية كأنها تشرف من كرسيها على الحفلة الجارية أمامها .

السيدة الوالدة : — ولم يشأ نابوليون صاحب السلطان في فرنسا ومنظم البلاط الامبراطوري ان تظل والدته في حالة من الخمول كما كانت عليه من قبل فأوجد لها لقبا جديدا وهو «السيدة الوالدة » وخصص لها قصراً اسوة بجميع افراد الاسرة فقدكان لكل منهم قصر . وقد ذكر في التقويم الامبراطوري الصادر في كل سنة تأليف هيئة المقيدين في خدمتها تحت اسم «قصر السيدة والدة الامبراطور والملك .» فـكان ثمة الوكيل الديني وهو اسقف فرسيل الحاصل على نشان جوقة الشرف من درجة فارس وحاجباه وسيدة شرف وأربع سيدات لمرافقتها (ومن جملتهن دوقة دابرنتس) وقيم وناظر الاسطبل ورئيس نظار الاسطبل وسكريتير وهو الذي صار فيما بعد دوق ديكاز

وكان المال المعين لنفقات قصر السيدة الوالدة مناسبا لحالته فاصلح ابنها لها قصر التريانون الـكبير الذي بناه لويس الرابع عشر لعقيلة منتسبان وانزلها في باريس في دار من انخم الدور في حي سان جرمان وهو قصر بريان في شارع سان دومينيك وهو اليوم قصر وزارة الحرب. وخصص لها عملا في دوائر الحـكومة

الامبراطورية لان القانون يقضي بان تكون المكافأة مطابقة للعمل فاسند اليها رئاسة جميع دوائر الاسعاف العام ومنحها هذا اللقب « الحامية العامة لمؤسسات الاحسان والمحبة في الامبراطورية . »

بساطة معيشتها : — ولم تقم النكير على ذلك لعلمها انها مشيئة ابنها ثم ان هذا الامر كان سببا من الاسباب الداعية الى اظهار عظمة البونابرتيين لكنها بقيت كما كانت عليه مقتصدة ومحبة للترتيب والبساطة ومراقبة لمجرى الحوادث. وكانت تفعل من كل ما يطلبه ابنها منها ما لا تستطيع رفضه فشهدت جميع الحفلات التي اقيمت في قصر التويلري كزواج جيروم وزواج أوجين دي بوهرنه وزواج استفاني دي بوهرنه وزواج نابوليون بابنة اسرة الهبسبورغ فترى في تلك الحفلات امرأة صغيرة الجسم لابسة ثيابا بسيطة بالنسبة الى التأنق الباهر الظاهرة به السيدات الاخريات وتلك المرأة هي السيدة الوالدة التي لم يدهشها قط أن تصبح حماة الارشيدوقة ماري لويز . ونهضت باعباء المهمة التي فوضها اليها نجلها اي اعمال الرحمة والمحبة ويؤيد ذلك ما كان جاريا من الحركة في شارع سان دومينيك والمراسلات بينها وبين المؤسسات الخيرية المختلفة .

ولم تشأ أن تفعل غير ذلك الامر وبقيت عائشة على هواها أي معيشة بسيطة كما في اجاكسيو اي ان خزانتها لم يكن فيها من الثياب سوى بضعة ملابس من النسيج الخشن وشال اسود تضعه على كتفيها . وكان غذاء الاسرة مؤلفا من السمك والتين وجبن المعز ولم ترد أن تغير تلك المعيشة . ولم يهمها قط أن يكون قصر بريان مضارعا في الفخفخة لقصر التويلري وفنتنبلو فكانت تستقبل في بيتها بعض الكهنة الذين يحومون حول شقيقها الكردينال فش وتقضي سهراتها بمزاولة بعض ألعاب بورق اللعب . وكان النور ضعيفا في الردهة والنار قليلة في الموقد .

وقد دعت بساطة المعيشة في ذلك البيت الى جهل بعض الناس مقام صاحبته . فذات مساء دخل سيد ردهة قصر بريان وهو لابس ثوبا موشى بالفضة وهذا السيد حاكم المقاطعة وهو ذاهب الى السهرة فلم ينتبه الى وجود امرأتين جالستين في احدى زوايا الردهة تتحدثان بصوت منخفض على ضوء ضئيل فدنا من الموقد ليصطلي . فتعجبت احدى المرأتين من عمل ذلك الرجل الذي لم يحترم حرمة المقام ونهضت وكانت البارونة دي فلوريو احدى نساء الشرف عند والدة



نابوليون فى شمبو بير ١٠ فبراير ١٨١٤



الامبراطور وقالت له : هل تعلم يا حضرة السيد عند من أنت ؟ فقال : أولست عند الامير رئيس المستشارين ؟ فقالت : لا ياحضرة السيد انت عند حضرة السيدة . فقال وأي سيدة هي ؟ فقالت : هي السيدة الوالدة . فقال : ووالدة من هي ؟ فقالت وهي تشير الى والدة نابوليون : انت عند حضرة صاحبة السمو الامبراطوري والملكي السيدة والدة جلالة مولانا الامبراطور والملك .. فكان اضطراب ذلك الرجل عظيما وبالغ في الاعتذار .

بشرط أن يدوم هذا :— وكان يقلق خاطر والدة نابوليون خوفها من أن تلقى هي وأولادها في شيخوختها مالقيته من المصاعب في السنوات التي تلت فقدان زوجها كأن ذوقها السليم يناجيها بان البناية الفخمة التي شيدها على شكل سحري ذلك الولد الذي تمخضت به كانت كقصر من الورق مع انها كانت تنتهي اليها أخبار الانتصارات التي تتلو الانتصارات والمعاهدات التي تعقب المعاهدات والمؤسسات التي تأتي على تفيئة المؤسسات والتيجان التي تأتي على اثر التيجان فتهز رأسها وتقول . بشرط ان يدوم هذا

وقد فكرت في ادخار المال فكان بنوها وبناتها يستودعونها أموالهم ويبيعون جواهرهم ويلقون أثمانها بين يديها . وهي مشهورة ببراعتها في المسائل المالية فتضع مال كل منهم على حدة وكثيراً ما استشاطت غضباً على بولين التي كانت تحبها فهذه الاخيرة كانت تنفق بغير حساب

شكوى السيدة الوالدة :— وعبثت أيدي الخلاف بين أفراد الاسرة فانمثال نابوليون وارادته التي لا تقبل المعارضة جملاهم جميعهم كالمجانين ولم يكن ثمة من سبيل لجعل يوسف ملك أسبانيا ولويس ملك هولندا وجيروم ملك وستفاليا وكارولين ملكة نابولي يسلسون قيادهم لزعيم الاسرة . ويستدل من مكاتباتها انها كانت دائما كحكم بين أبنائها وبناتها وأصهارها وهي لم تحلم إلا بامر واحد وهو اتحاد جميع البونابرتيين كبارا وصغارا فهي بونابرتية اكثر منها نابوليونية .

وقد استاءت كل الاستياء من تصرف أولادها ومجاهرتهم بالعداوة بعضهم لبعض فقالت ذات يوم للجنرال ستانسلاس دي جيراردان بعد تناول العشاء في مرتفنتين « مالي أراك كئيباً ؟ » فقال : « ياحضرة السيدة لا سبيل لدخول

البهجة فؤادي » . فقالت : ء اصبت وهل تظنني سعيدة ؟ فلست سعيدة وان اكن أم أربعة ملوك فلم يبق أحد من أولادي الكثيرين في حجري فتارة يضطرب بالي من جهة هذا وتارة من جهة ذاك فلويس المسكين الذي كان ساكن البال جاءت الآن نوبته في العذاب لقد جاء لمشاهدتي في اكس لاشابل فسررت برؤيته بضعة أيام . وذات صباح دخل علي في غرفتي وقال: أو لا تعلمين ياأماه؟ فقلت : لا وماذا جرى ؟ فقال : جاءني الليلة ثلاثة سعاة . وكان البريطانيون المقوتون عنده فاضطر الى الذهاب بسرعة . مسكين لويس ! انه رجل كريم ولكنه كثير الهموم لو علمت مايشعر به وانما تعزيته في معرفته بان الجميع يحبونه فقد أصبح هولنديا — ولم يبق فرنسويا قط . وأنا احب أولادي حباً شديدا وهم يحبونني ولست راضية عن يوسف » . فقال الجنرال : « ولماذا ياحضرة السيدة ؟ » فقالت : « لانه لا يكتب الي اجل انه يحترمني ويجلني ويرسل الي هدايا لا حاجة لي بها فانا اغنى من اولادي وقد خصص لي مليون في السنة فلا انفقه كله بل ادخر اكثر من نصفه . يقولون اني بخيلة ولكنني لا ابالي بهذا القول فليس علي دين وانا اضع دائما مئة الف فرنك تحت طلب اولادي . ومن يدري فربما يأتي يوم يسرون فيه باصابة هذا المبلغ . ولا انسى ابداً اني بقيت مدة طويلة اقوتهم بما يجرونه علي من الرزق من لدن الحكومة

« وقال لي الامبراطور اني بخيلة فلم اكترث لكلامه وهو يقول اني لا اطعم كثيرا فاذا اراد ان افتح منزلا فليعطني بيتاً كما يجب ان يكون لوالدة امبراطور وثلاثة ملوك يكون فيه خدام وموظفون ومراقبون فحينئذ يرى اني استطيع القيام بتلك المهمة . فبالمليون المخصص لي لا ينظرون الي كما ينظرون الى والدة الامبراطور بل كما ينظرون الى امرأة غنية . فأولادي لا يعرفون الآن قيمتي ولكنهم سيعرفونها بعد موتي

وقبل سفر الامبراطور شكا الي من جميع اخوته قائلا : سألقي القبض على هذا وازج ذاك في السجن . فقلت له انت مصيب ومخطىء يا ابني انت آية من آيات الدهر لا يستطيع احد ادراك كنهها . ولماذا يكون الملوك مغفلين بحيث يتوهم الناس ان على اعينهم برقعا وان وقت سقوطهم دنا لكي يحل اولادي محلهم ؟ ولما سمع الامبراطور هذا الكلام قال . ياسيدة

لاتيسيا (وهو يضحك) وانت ايضاً تتملقينني . فقلت : وهل أتملقك انا ؟ انك لا تنصف والدتك فالام لا تتملق ولدها وأنت تعرف ذلك يا صاحب الجلالة فامام الناس أبدي لك كل ما يمكنني ابداؤه من الاحترام لاني من جملة رعاياك ولكن حين أخلو بك أعتبر نفسي والدتك وأعتبرك ابني وحينئذ حين تقول : اريد أقول انا في دوري : وأنا لا أريد . فلي أنفة وعزة نفس. والآن أنا متوجهة الى باريس فمن المقضي على الامبراطورة أن تأتي لزيارتي فانا حماتها وان هي لم تتمم ما يجب عليها فلا أذهب لزيارتها هذه هي أطواري . »

السيدة الوالدة في سنتي ١٨١٤ و ١٨١٥ : — ان الوقت الذي أظهرت فيه عقيلة بونابرت رباطة جأش وصدق عزيمة وبعد نظر هو في السنين الاخيرة من سني الامبراطورية فهي الوحيدة التي ظهرت بمظهر الحزم والعزم والشدة .

وكيف لا نبدي العجب حين نقرأ ما كتبته في ٣٠ دسمبر سنة ١٨١٣ الى أخيها الكردينال فش لما أغار الاعداء على فرنسا وأوشك كل ما شيد فيها ان يتداعى فقد قالت له : « يا اخي العزيز لم يبق وقت للمحافظة على الرسميات فالبوربون تضعضعت أحوالهم لانهم لم يعرفوا كيف يموتون والسلاح بأيديهم . »

وكيف لا نبدي العجب أيضا من ذلك المشهد الرائع الذي يشبه المشاهد المبسوطة في روايات شكسبير وكورنيل وتحرير الخبر أنه في أثناء اقامة الامبراطور في جزيرة البا قدمت عليه والدته فمساء يوم من أيام فبراير سنة ١٨١٥ بعد ما لعبت معه ومع شقيقته بولين بالورق خرج وهو مشرد الافكار وجعل يتمشى على السطح المشرف على البحر وهو يناجي نفسه قائلا : « ومع ذلك لا بد من ان أقول كل شيء لوالدتي . » فدنت منه والدته فقال لها : « لا الق مندوحة عن أن أقول لك ذلك ولكن حذار أن تقوليه لاحد حتى ولا لبولين . . . فاعلمي انى منطلق الليلة . » فقالت : « والى أين تذهب؟ » فقال : « الى باريس ولكن قبل انطلاقي أحب أن أستطلع رأيك » فقالت: « دعني أنسى اني والدتك . . . فالحق سبحانه وتعالى لا يشاء أن تموت بالسم ولا براحة لا تليق بك ولكن ان تموت والسيف في يمينك . فالآن امض يا ابني وسر وراء حظك » . ولكن هذه المرة لم تبصر عين الام كل شيء فقد أبصرت باريس من دون أن تبصر جبل ماريوحنا وواترلو.

ولما وقعت البلية الكبيرة كانت باقية هناك وبعد معركة واترلو وافت نابوليون الى المالميزون وأوشك البروسيانيون ان يصلوا الى ذلك الملجأ الاخير فاقتضى الامر الاسراع في الفرار وقد شهد طلما المواجهة الاخيرة بين الام وابنها فقال: ظهر تأثر الوالدة بدمعتين سالتا على وجنتيها ولم تفه بغير هاتين الكلمتين: « الوداع يا ابني ». وكان جوابه مختصراً ايضا فقال لها: « الوداع يا أمي » . ثم تعانقا وافترق الواحد منهما عن الآخر افتراقا ابديا .

السيدة الوالدة في رومية : — ومن ذلك الحين ابتدأت تلك المرأة المسكينة تشعر بنزع مؤلم دام احدى وعشرين سنة فبرحت فرنسا ميممة رومية حيث اتخذت لها قصرا عاشت فيه مع أخيها وبعض أولادها عيشة هادئة وكانت تقول : « لا يضحكون عند والدة الامبراطور » . وقد اختارت لمنفاها مدينة رومية لانها الارض التي احبتها كامرأة أجا كسية كاثوليكية وقالت في كتاب معد لان يطلع عليه البابا بيوس السابع .

« اني في الحقيقة أم جميع الاوجاع فالتعزية الوحيدة الباقية لي هي أن أعلم أن الاب الاقدس ينسى الماضي ويذكر جميع العواطف التي أظهرها لجميع اسرتي . »

ففي قصر رينوتشيني المسمى الآن قصر بونابرت عند زاوية الكورسو وساحة البندقية لم يكن لها من أمنية الا السفر الى جزيرة القديسة هيلانة للاجتماع بابنها وايصال المال اليه وارسال طبيب وكاهن يثق بهما اليه . فرخصوا لها في ارسال المال والطبيب والكاهن ولكنهم منعوها عن الذهاب .

وفي مؤتمر اكس لاشابل المنعقد في سنة ١٨١٨ وجهت الى كل من امبراطور النمسا حمي ابنها وجد ملك رومية وامبراطور روسيا صديق ابنها في تلست وارفرت وملك بروسيا كتابا يحرك الجماد وهذه خلاصته : « ياذا الجلالة أنا أم وحياة ابني أعز من حياتي فلا تنبذ مسعى أم تقيم النكير على المعاملة العنيفة التي عومل بها ابنها . » ولكنها لم تحصل منهم على جواب .

وتقطعت أنفاس ابنها في ٥ مايو سنة ١٨٢١ فارسلت الى وزير خارجية بريطانيا العظمى كتابا مطولا قالت فيه . « اطلب رفات ابني فحق الام بذلك مفضل على سواه فبأي حجة يحبسون عني هذا الرفات الخالد ؟ ان ابني لم يبق محتاجا الى المجد فاسمه يكفي لمجده ولكني اريد ان اقبل رفاته الهامد . . . .

لقد دفعت نابوليون إلى فرنسا والعالم فأناشدكم الله وأستحلفكم بجميع الأمهات وألتمس منك يامولاي اللورد ألا تضن علي برفات ابني . » ولم يكن حظها هذه المرة أفضل من حظها حين أرسلت كتاباً إلى ملوك الحلفاء .

وعاشت السيدة الوالدة خمس عشرة سنة بعد وفاة ابنها نابوليون وتوفيت في ٢ فبراير سنة ١٨٣٦ وقد فجعت بموت حفيدها الذي حانت منيته سنة ١٨٣٢ في قصر شنبرن ببلاد النمسا في الحادية والعشرين من عمره ولم تكن عينها قد وقعت عليه من ١٨١٤ : ولو امتدت حياتها خمس سنوات لشاهدت في الانفاليد بباريس رفات ابنها نابوليون الذي جادت به على فرنسا والعالم .

يوسف بونابرت

ولد يوسف بونابرت في كورتي سنة ١٧٦٨ . ولم يكن في حداثته يشبه نابوليون أخاه بشيء من الأشياء فقد انقضت حداثته بسكينة تامة ولم يصحبها شيء من العناد أو التمرد وكان جميل الصورة بهي الطلعة حلو المبسم وقد ارتسم على محياه مزيج من جمال والده الارسطقراطي وأنفة والدته المختالة تيهاً وعجباً . وكانوا يعجبون به مفتخرين ويفضلونه على أخويه نابوليون ولوسيان المكثرين من التذمر والشكوى لأنهما كانا معرضين للأمراض التي تصيب الاحداث . أما يوسف فقد كان وضاح الجبين بض الوجه يشوق الناظر اليه تقبيله . وكانت السيدة لاتيسيا والدته تتباهى ببكرها بأنه لا يسبب لها أدنى اهتمام أو اغتمام وقد ظل المفضل بين اخوته حتى لمعت بوارق دهاء نابوليون وبهرت بها أنظار الناس طراً ونال وهو ناعم الظفر التفوق على جميع أفراد أسرته وقد اعترف له بذلك في جميع الظروف ولا سيما بعد تخرم والده شارل بونابرت وانتقال حق الزعامة على الاسرة اليه كأنه البكر . على أن امتياز حق البكورية المعتبر عند الكورسيكيين كعقيدة من عقائد الايمان جعل يوسف يخاطب داً عاً أخاه نابوليون بكلام يدل على تفوقه عليه ومع ذلك كان نابوليون يحترم شقيقه البكر . ومما جعل يوسف يتعالى على اخوته تزوجه في شبيبته بفتاة غنية جاءته ببائنة دفعت الشقاء والفاقة عنه وهما من خصائص أسرته وقد أخنت عليها الحوادث السياسية التي جرت في الجزيرة وذهبت بكل ما لديها من المقتنيات .

وتحاقر نابوليون أمام تفوق أخيه يوسف وكان يشكو من ضيق ذات يده وتوسل بجميع الوسائل لاستمالته اليه وأشار عليه بأن يبتاع ببائنة زوجته أرضاً تدر عليه الرزق . وكان نابوليون كلما ارتقى درجة في سلم المجد والمناصب الجندية يذكر أخاه يوسف . ولما قضت الحال بايجاد قنصلية في ايطاليا ألقى بمقاليدها إلى شقيقه يوسف مسهلا في وجهه سبيل مزاولة التجارة في جنوى لا ن القنصلية كانت تساعده على إحراز الثروة . وحالما وجد طريقاً مفتوحاً لديه عينه مع شوفاي بمنصب معاون مسيطر لجيش ايطاليا براتب قدره ستة آلاف فرنك ورقاه الى منصب كبير ثم أرسله سفيراً يمثل الجمهورية الفرنسوية في بارمة وورومية . ولم ينبذ يوسف منصباً من هذه المناصب لاعتقاده اعتقاداً تاماً بتفوقه الشخصي كما كان نابوليون في دوره يعتقد بتفوقه أيضاً وهي صفة يمتاز بها كل فرد من أفراد الاسرة البونابرتية فكل منهم معجب بذاته وكل منهم يسعى وراء المجد والعظمة وهذه الخلة ورثوها عن والدهم فاعتقد يوسف وهو تاجر ثم قنصل فسفير فملك إنه قادر على تذليل جميع العقبات التي تعترضه في القيام بجميع مهماته وقد رأوه من جراء هذا الأمر في خلال المعركة التي انتهت بالانتصار الباهر في مارنغو يفاوض رفاقه في أمر قبضه على السلطة اذا ما هلك نابوليون في المعركة

ووصفه معاصروه بكونه لطيف المعاشرة ومهذب الاخلاق وذكي الفؤاد وطلق اللسان وخفيف الروح وكان ذا طباع لينة كطباع أهل الجنوب وأهل البلاط ولم يكن ذا طباع خشنة كطباع الجنود لانه كان ينفر من الخدمة الجندية التي أصاب فيها شقيقه منزلة سامية . وقد شاء أن ينتظم في سلك القضاة فجعل يختلف الى مكاتب المحامين في اجاكسيو ومرسيليا من دون أن يجني من ذلك ثمار الفوائد ولكنه صادق أصدقاء وحافظ على صداقتهم فأخلصوا له النية وعضدوا مصلحته ودافعوا عنها ضد مصالح نابوليون

وتزعم عقيلة ريموزا أنه كان ناغل الدخيلة ومعتصما بحبل الكذب والرثاء ولكنه لم يجسر أن ينم أمام شقيقه بما انطوى عليه من الطبائع بل كان يعوذ بقوة الكتمان . وكانت تهب في صدره رياح المطامع بيد أنه كان يبذل المجهود لتسكينها ويبتغي الظهور بمظهر الترفع عن العظمة وحب الاعتزال عن معاشر البشر والتملق بأسرته على أنه كان يميل الى اصابة المقام الاول أيان كان . أو لم

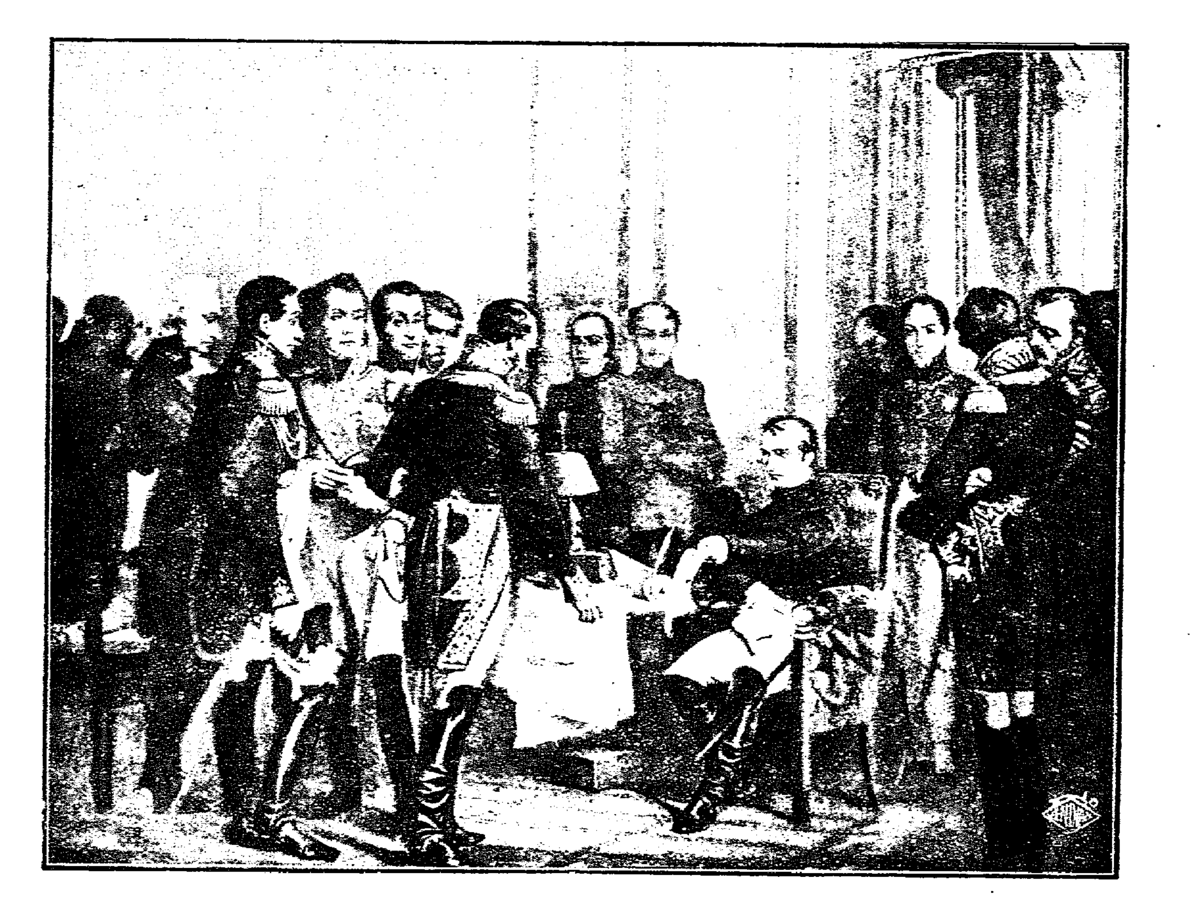
يستنفد الميسور لتقرير حق الوراثة في نسله حين تقررت القنصلية لنابوليون مدى حياته ولاصابته مقاماً رفيعاً في الاحتفالات الرسمية ولجلوسه في المحل الاول على المائدة عند تناول القنصل الاول الطعام معه في مرتفنتين ؟ وكان له بلاط كبلاط الملوك وكان أصدقاؤه أعداء أخيه وقد تصير في ذلك آل ارليان في خالي الحين مع البوربون ومد لواء حمايته فوق عقيلة ستال مع معرفته بتعقب فوشاي مسيطر الشحنة لها ودافع عن برنادوت الناسج برود الدسائس لمناوأة السلطة القنصلية واستقبل في مرتفنتين بنيامين كنستان محرك المعاكسة ومثير المعارضة في المجلس ومع ذلك لم تحل جميع هذه التظاهرات دون التزلف الى أخيه الرفيع المنزلة

ويقول باراس ان يوسف بونابرت لم يتمكن من عقد قرانه الا بطريق الدسائس : فانه أدى في مرسيليا خدمة الى أسرة كلاري التي كان لها فتاتان بتخليصه عمهما من السجن . وكانت هذه الاسرة قد أحرزت ثروة واسعة من تجارة الصابون . وحالما مكنته الاحوال من التعرف بها والتردد عليها لم يبتعد عنها . وكان له من العمر في ذلك العهد ست وعشرون سنة وكان جميل الطلعة يزينه لقب كنت . فأعجبت به ثانية الفتاتين المدعوة جوليا وغشى على عينيها رواؤه وأصم أذنيها الكلام المزوق الذي كان يخاطبها به باثاً لها حبه . وتم قرانهما وكان لها شقيقة تدعى دزيراي ولها بائنة تساوي بائنة شقيقتها . فأراد نابوليون أن يقترن بها ولم يكن يملك شيئاً من حطام الدنيا وطلبها الاأن ولي الفتاة (كان والدها قد توفي) أجاب انه يكفي أن يحصى بين أفراد الاسرة كورسيكي واحد . ولم يكن كلامه هذا تقريظاً ليوسف بونابرت . ولما زفت الآنسة جوليا الى يوسف عرفت أسرة كلاري ما كان عليه العريس من ضيق ذات اليد ويبين هذا الجواب بنوع جلي حالة ذلك الشاب فانهم لم يشاؤوا أن يقبلوا صهراً آخر كورسيكياً لأن الاول لم يرضهم كل الرضى : فهل استشفوا انه مداهن من وراء ما كان يظهره من لين الجانب ودماثة الاخلاق ؟ أو هل جنح عن الطريقة المثلى التي تخطها واجبات الزواج بتصبيه النساء على مثال جميع البونابرتيين وولوعه بالتنقل؟ وقد كان الجواب مفحماً فلم يتمكن الكورسيكي من استغوائهم ونال برنادوت التفضيل عليه .

وذكر باراس أن جوليا كلاري كانت قبيحة الصورة دميمة الخلق تقذى

بها النواظر وقد يكون متحاملا عليها في هذا الوصف ففي المكتبة الوطنية صورة تمثلها بشكل ظريف تقارنه جودة عظيمة ولهاجبين واسع وعينان كبيرتان وأنف غليظ وفم صغير وشفتان رقيقتان . وهي صورة امرأة ليس فيها شيء من مميزات النبلاء وقد خلقت للخضوع لسلطة بعلها ورضيت بحالتها وأحبت أن تقضي حياتها في الهيئة الاجتماعية من دون أن تفتح مجالا للناس للاكثار من التحدث عنها . وقالت عقيلة دي جنلي : لما كان يوسف بونابرت في نابولي جالساً على عرش البوربون كانت جوليا كلاري في باريس مقبلة على التعبد فتسمع القداس في كل يوم في معبد سان سولبيس وكانت قبل خروجها من الكنيسة تلقي في صندوقة الفقراء قطعة من النقود الذهبية قيمتها أربعون فرنكا . على أن عقيلة دي جنلي بالغت في اطرائها بقدر ما تحامل باراس على البونابرتيين في الكلام عنهم . وقد عينت لها ادارة الشحنة في حكومة نابوليون راتباً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك فالضرورة تقضي عليها بأن تخدمها بشيء في مقابل المبلغ الذي تقبضه منها فتسرف في اطرائها وتقابل جوليا كلاري ملكة نابولي بآخر أميرة من أميرات كنتي واصفة اياها بأنها تحاكيها في الهيئة والتصرف . وقد تكون مصيبة في هذه المقابلة .

وانه ليصعب علينا أن نلقى في حياة يوسف بونابرت قبل عهد القنصلية وفي أثنائه عملا من الأعمال لا يظهر فيه شيء من المماكسة لشقيقه فحين نشر يوسف بونابرت في سنة ١٧٩٩ رواية موينا التي أطنب أصدقاؤه برقة العواطف المبينة فيها وطلاوة انشائها رأى القراء في الحال ان الغاية التي يرمي اليها المؤلف يراد بها مماكسة الروح الحربي . فقد انتقد ذلك الروح انتقاداً عنيفاً على مثال السواد الأعظم من رجال الامة في ذلك العهد . وكان حب المجد الباطل متسلطاً عليه فأحب أن يكون ذا مقام سام في المجتمع الانساني وجعل ينتفخ على مثال ضفدعة لافنتين حتى كاد ينشق . فابتاع داراً في شارع روشاي ثم اشترى أرض مرتفنتين الجميلة . وبعد قليل من الحين أبي الاقتناع بذلك فأقام في الدار التي ابتناها في ما مضى بلوان الخادم الخاص للملك لويس الرابع عشر ويوصل مدخل هذه الدار الفخم الى شارع سانت اونوراي وتمتد الحدائق التي خلفها الى الشانزليزاي . وكان شديد التعلق بداره وهي التي ورثها المركيز دي ماربوف حاكم كورسيكا



تنازل نابوليون عن العرش فى ٦ أبريل ١٨١٤



القديم الذي يجل البونابرتيون مقامه ويعدونه في مقدمة أصحاب الوجاهة والثروة وقد أصبح الآن يوسف بونابرت نجل ذلك الرجل الكورسيكي الذي كان في خالي الحين يكثر من التردد الى فرنسا سعياً وراء مركز لأولاده مقيما في قصر فخم خلفاً للمركيز دي ماربوف . وما أشد ماشعر به من المسرة والبهجة يوسف بونابرت الشديد الزهو والخيلاء بصيرورته صاحب ذلك القصر بحيث خيل اليه أنه أصبح المركيز عينه .

ولما وصل الى تلك المنزلة السامية أصبح مسموع الكلمة بين جميع مخالطيه في أثناء تغيب أخيه نابوليون في مصر . ولم يجسر أحد على معاكسته إلا لوسيان ومع ذلك كان هذا الاخير يشعر أكثر من غيره بالاحترام لأخيه بما له من حقوق البكورية عليه فانقاد الى رأي أخيه يوسف وتكاتفا على انشاء الحزب البونابرتي وإذاقة جوزفين امرأة أخيهما مرارة الهوان : فلم تكن تصيب منهما إلا جزءاً يسيراً من المرتب المخصص لها من زوجها . وقد فعلا ذلك إرادة أن يحملاها تتورط في الجنوح عن الجادة المثلى فينحيان عليها بالتعنيف ويدفعان زوجها الجنرال على تطليقها وإقصائها عنه .

وصار القوم في فرنسا من ذلك الحين يعدون حزب البونابرتيين من جملة الاحزاب وأصبح قصر يوسف بونابرت مثابة لذوي التفوق في مجلس الخمسمئة ومجلس الشيوخ وللشعراء ومشاهير الكتبة الذين تقرأ رواياتهم القصصية وتمثل مآسيهم في ملاعب التمثيل المشهورة وحين لا يجتمعون في باريس يحتشدون في مرتفنتين . وكان يوسف بونابرت يفضل مرتفنتين على سواها ويقضي فيها معظم وقته وقالت عقيلة دي ستال انه كان يقضي ثماني ساعات في التنزه في حدائقه من دون أن يناله أدنى سأم . ولم يكن متعوداً ذلك النوع من المعيشة أي بلا عمل فجعل يكرع كؤوس الملذات مترعة الى اصبارها على مثال الذين يصيبون ثروة طائلة في يوم واحد . على انه مهما كانت الذرائع التي تذرع بها لنيل الغنى لم يدخر شيئاً للظهور بمظهر الزهو والعظمة : فوسع دائرة أملاكه وزين قصره بحيث أصبحت أرض مرتفنتين من أجمل الاراضي وصار يستقبل فيها السفراء ويقيم المآدب التي يجلس عليها أكثر من مئة مدعو . وعقدت وثيقة مع الولايات المتحدة أقيمت على أثرها ولائم شائقة فاقت جميع الولائم رونقاً واتقاناً . ومن

تدر الرسائل والاسفار المكتوبة في ذلك العهد وجد فيها ذكراً عظيما للمآدب التي كان يوسف بونابرت يقيمهاوالجميع متفقو الكلمة على الاطراء على مقيمها . فكان أصحاب القصر يتوفرون في الاحتفاء بضيوفهم : فيلقون عندهم جميع أسباب المسرات : كالنزهة على شواطىء البحيرة في النهار والقراءات المختلفة وطرح الالغاز وحلها ولعب البلياردو وقص الحكايات المختلفة في الليل فكانت الاضواء تطفأ والقصاص يحاول القاء الرعب في قلوب السامعين . وكان نابوليون شديد الولوع بالقصص المخيفة بحيث صارت رائجة بين جميع الناس .

وكان يوسف بونابرت يتوجه في غالب الاحيان من مرتفنتين الى المالمبزون ليتغدى عند القنصل الاول ويؤخذ من رواية منيفال كاتب يوسف الخاص انه كان يجتمع في مثل تلك الايام على مائدة نابوليون اخوته وأخواته وحجابه وجميع القادمين من باريس لزيارته . وبعد الغداء والجلوس في البهو مدة قصيرة لتجاذب أذيال الاحاديث كان يوسف يعود الى قصره بعدأن يتبادلهووأخوه الاحاديث الودية .

على أن يوسف بونابرت لم يرعو عن التسبب بجميع الاسباب المعاكسة لسياسة نابوليون بيد أن هـذا لم يظهر انه دار بشيء من أمره وكان يحافظ على الاكرام له ويحاذر معاكسته وقد أجاب سؤله فيما يتعلق بفوشاي وهذا لم يكن أحد يعضده في الاسرة البونابرتية فقدكانوا يبغضونه بغضاً شديداً من جراء انقياده لجوزفين دي بوهرنه . وهذا الرجل بعد ما فصل من منصبه انتظم في سلك مجلس الشيوخ واعترض يوسف بونابرت أخاه نابوليون مرة أخرى حين دارت رحى البحث بينهما على بيع لويزيانا للاميركيين . وحمي وطيس الجدال بينهما في حضرةشقيقهما لوسيان فيوسف المعضود بأخيه لوسيانالعائد من اسبانيا بتنازل الملك شارل الرابع عن تلك الطارئة لفرنسا ألح بتغيير أفكار نابوليون عن بيعها . وكان القنصل الاول في الحمام وقد تعود إطالة المكث فيه وكان الاخوة الثلاثة في مفتتح الامر يتحدثون بسكينة وتؤدة ولكنهم ما لبثوا أن بلغت منهم الحدة . فنابوليون جعل يختبط في الماء لرؤيته أخويه يعاكسانه في مبادئه فلم يكن يطيق أن يرى أحداً يعارضه في مقاصده . أما يوسف فانه جعل يرعد ويبرق ويتوعدففار فائر القنصل الاول ونهض بغتة من الماء ثم انطرح فيه

بعنف فانبعث رشاش الماء على أخيه البكر وغطاه ففاه لوسيان منهكما تهكما مراً بكلمة معناها« كان يجب أن . . . » فوقفت في الحال حركة الجدال بين يوسف ونابوليون . ولكن قضت الحال بتجفيف ثياب يوسف وتنشيفه فقرع الجرس للخادم فجاء كنستان وحين أبصر تلك الحال والغضب البادي على أوجه الاخوة الثلاثة ورشاش المـاء السائل على ثياب يوسف وقع على الارض مغشياً عليه . فقرع الناقوس مرة أخرى لرستان فدخل المملوك وبادر الى إخراج كنستان .

على ان مثل هـذه المشاهد نادر مع يوسف بخلاف لوسيان فان يوسف لم يكن يفور فائره بسرعة ومع ذلك حين كان يوسف يستشيط غضبا كان غضبه هائلا : ويقول لوسيان انه ابصره ذات مرة على أثر جدال عنيف دار بينه وبين نابوليون يطلق غدارة على صورة القنصل الاول متمنياً له الموت الذريع ولكنه حين يثوب اليه الروع يعود الى أخيه مستعطفاً ولا سيما حين يأمل أن يصيب منه مبلغاً من النقود . وكانت هذه الذريعة أكبر ذريعة يستطيع نابوليون أن يتذرع بها لاسترضاء أخيه . وكانت الحال تقضي على يوسف بونابرت بأن يعارض سياسة القنصل الاول لانه التف حوله أنصار المعارضين للحكومة وكان يجاري أصدقاءه في إطالة اسان الانتقاد على مطامع أخيه ولـكنه كان كلما علم أنه يستطيع أن يجني من تلك المطامع ثمار الفوائد يجتهد بايجاد عذر له عليها فيزعم أنه مصيب بذلك . وحين يبوح على غير قصد منه بحقيقة نفسه يكشف الغطاء عن أنانية ذاهبة وشائجها في صدره كل مذهب مع شدة حرصه على كتمانها . أو لا نرى الرثاء في هذه الصفات ؟

وهانحن نذكر الآن بعض نـكات عن حياة يوسف بونابرت :

لما علم يوسف بونابرت أن صحيفة المونيطور ستنشر تقرير الجنرال سباستياني المبني على التحقيق عن البريطانيين في الشرق اعتبر أن اذاعة مثل هذا التقرير اعلان للحرب على بريطانيا العظمى ولـكن هل ساءل نفسه عن الحرب هل هي ضربة لازب أم لا وهـل تبقى مالطة في يد البريطانيين ؟ ان مثل هذا الفكر لم يدر قط في خلده . فاذا ما شهرت الحرب لحقته منها غضاضة شخصية تصرم أسباب الوثيقة المبرمة في اميان والموقع هوعليها وقد كان اول كلام خاطب به سباستياني في هذا الصدد : « وماذا يلم بوثيقتي فانها معلقة

يط أوهى من خيط العنكبوت . » فقد كان خرق حرمة هذه الوثيقة يهمه كثيراً لاعتباره اياها عملا من أعماله الشخصية وهذا كان همه الوحيد . ولو لم تكن الانانية متسلطة عليه لبحث في الحرب على غير تلك الصورة وخاض في مجال التأثر في عواقبها ولكن هي الانانية فقد كان بجملته رقا لها .

ولما انشئت الامبراطورية باح بأسرار عجب باطل يستغربه المرء ولكنه تنغص من رؤية جوزفين دي بوهرنه تتوج امبراطورة وأولاد أخيه الاصغر لويس زوج هرتنس حفدة امبراطورة . وربما اختار نابوليون واحدا منهم ولياً للعهد ووارثا له . أما بنتاه فانهما تبقيان حفيدتين لعقيلة كلاري احدى نساء سوقة الشعب . أو لا يحق له أن يصيب اكراما ساميا ؟ أو لم يكن شقيق الامبراطور الاكبر ؟

وقد شاء نابوليون أن يستنبط كل ما في رأس أخيه يوسف من الافكار واطاق حتى النهاية مشهدا من المشاهد المضحكة وبعد أيام قال للمقربين اليه ما يأتي :

« أولا يعلم أن كلامه عن حقوقه ومصالحه أمامي أنا شقيقه مما يثير حسده ومزاعمه ؟ وهو ولامراء كلام يجرحني جرحا أليما . ولا شيء يستطيع أن يمحو من ذهني مثل تأثير كلامه هذا . ومثله في ذلك مثل القائل لعاشق متيم انه با... عشيقته أو انه يأمل أن يظفر بها وأنه يعالج عبثاً في الغد أن يقنع العاشق المذكور بأنه انما قال له ذلك على سبيل المزاح . فعشيقتي هي السلطة وقد استنفدت المجهود لاصابتها فكيف أطيق أن أدع احداً يسلبني أياها أو يطمح الى احرازها . وهب قلتم ان السلطة وافتني عفواً فانا أدري مقدار العناء الذي كابدته في سبيلها فلم يدر في خلدي قط من خمسة عشر يوما ان أغلظ له في المقال أما الآن فاني لا اغضي الطرف عن شيء ولا أقابله الا بالموارية فقد شاء أن يبا . .. عشيقتي . »

وجرى أيضاً مشهد يقرب من هذا المشهد عند الاحتفال بتتويج الامبراطور في نوتردام فان الاصول تقضي على امرأة يوسف بونابرت والنساء الاخريات من الاسرة البونابرتية بأن يحملن ذيل رداء جوزفين فكبر الامر على يوسف وجرى بينه وبين أخيه جدال عنيف بهذا الشأن كان من نتيجته انصراف

يوسف مغضباً بعد ما قال انه يستقيل من جميع المناصب المسندة اليه ويسافر الى المانيا . وكان نابوليون ينتظر قدوم البابا الى فنتنبلو فغادر باريس في أثناء ذلك الحين ولكنه شاقته رؤية أخيه بعد ستة أيام فندم على ما بدر منه من الكلام القارص الموجه الى أخيـه البكر فدعاه اليه لانه لم يكن يطيق البقاء بعيداً عنه . واليكم ما كتبه في هذا الصدد :

« لقد أطلت الروية في الخلاف الطارىء بيني وبينك واعترف بأني من ستة أيام أي من اليوم الذي دار بيننا فيه الجدال العنيف لم أذق طعم الراحة دقيقة واحدة . وقد طار النوم من عيني وليس لاحد غيرك مثل هذا التأثير في فعليك الآن أن تختار خطة من ثلاث خطط : اما الاستقالة والاعتزال اعتزالا تاما عن الشؤون السياسية والتنازل عن كل شيء وأما بقاؤك متمتعاً بامتيازات امراء الاسرة المالكة مع بقائك معاكسا لما انتحله من المبادىء وأما انضمامك الي انضماماً حقيقيا ومجاهرتك بكونك أول شخص من تبعتي . »

وقد صرح بكل جلاء بحقيقة الخطط الثلاث التي خيره بالمسير على واحـدة منها. وقرر ما يريد ان يفعله اذا صمم على الاعتزال في مرتفنتين فقال انه يخصص له مليونين من الفرنكات في كل سنة ويرخص له بشراء أرض في جوار طورينو وبالسفر الى المانيا وروسيا ويعين خلفاً له ابن أخيه لويس ويجلس وكالة يكون لويس رئيساً له وكمباسارس وليبرون عضوين فيه . أجل ان في هـذه الطريقة محاذير ولـكنها كاملة وما كان كاملا يعتبر دائما حسناً

على انه لم يكن من سبيل الى التساهل بالخطة الثانية فانه يظهر العداوة بهـا وحينئذ يسحقه لويس سحقاً

أما الخطة الثالثة فانها ابسط من غيرها أي ان يكون الاول من تبعة مملـكة يتوارث مليكها الحـكم خلفاً عن سلف . ولعمر الحق انه مركز جميل ان يكون الانسان ذا محل ثان في فرنسا وربما كان صاحب ذلك المحل في اوربا قاطبة . وكل شيء يتحقق باهمية النتيجة وهذه النتيجة مجهولة بجملتها حتى الآن. وهذا ماقاله نابوليون في هذا الشان

« أنا مدعو لتغيير وجه العالم على ما اظن فكن يايوسف في بلاد يجرون فيها على الخطة الملـكية الموروثة تصب فيها امتيازات متعددة . افعـل مشيئتي

راجر على المبادىء نفسها التي اجري أنا عليها . ولا تجامل الذين انبـذهم من لناس ولا تبعد من اقربهم من النبلاء . وكن أميراً ولا تهولنك تبعة هذا اللقب وحين تخلفني تعود اذا شئت الى أفكارك المعتصم باهـدابها . . . وعلى هـذه الشروط يمكننا ان نعيش معاً واحب ان اقول لك ان الخطة الثالثة هي التي أريد ان تسير أنت عليها وان كنت عند مسيس الحاجة أسر بالخطة الاولى ولا ادعك تسير على الثانية . فاختر لنفسك مايحلو »

ولم يبق ليوسف من مناص فاما ان يرفض واما ان يقبل. فقبل يوسف لان الامتيازات الموعود بها صريحة وواضحة ومن شأنها ان تزيد ثروته الواسعة . وكان نابوليون سخي الـكف نحو أسرته فلم يكن المال شيئاً مذكوراً عنـده ولذلك لم يقبض يده عن البذل. وكان كولو يعطي يوسف مليوناً ونصف مليون من الفرنـكات في السنة ليحفظ له امتيازه بكونه مقدم حاجات الجيش . ولو لم يجار اخاه على فكره لفقد هـذا المبلغ وفقد أيضاً لقب أمير وقد كان يباهي به على ان اخاه لوسيان الشكس الطباع اضطر الى مغادرة فرنسا وليس له لقب أو ميزة فكانوا يسمونه الوطني لوسيان بونابرت ليس إلا وهو اسم لا يستطيعون حرمانه اياه ولا يرن في الآذان كما يرن اسم « الامير يوسف »

وفي المـكتبة الوطنية رسوم تمثله بوجه نصفي وبوجه كامل . فالصورة الاولى تدل على نحافة الوجه وجمال الجبين وانتظام الانف ولطف الفم وغلاظة الشفتين والشفة السفلى منهما مقلوبة قليلا على ذقن كبير نظير ذقون جميع البونابرتيين المتصلة اليهم من السيدة لاتيسيا وهذا دليل على صدق العزيمة وقوة الارادة . أما الصورة الثانية فليس فيها ما في هـذه من الدلائل وقد صنعت في المـانيا على شكل خشن . والوجه الـكامل يدل على هيئة الاكتئاب المقرونة بالعبوسة على مثال هيئة خازني الاموال فيخيل الى الناظر اليها ان صاحبها من سوقة الناس خال من كل مايميز المرء عن سواه فاي صورة من هاتين الصورتين أقرب من الاخرى الى الحقيقة ؟ ومعلوم ان الصورة التي يصورها المصور الواحد لا تكون في غالب الاحيان متماثلة وعليه يصعب ابراز الحـكم الجازم في هذا الشأن باسناده الى صورة المصور ومع ذلك يؤخذ من أخبار حياة يوسف بونابرت في عهد القنصلية ان اصح تلك الاخبار ما كان غير منطبق على مدحه

وقد اكد نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة ان اخاه البكر جيد القلب لطيف رقيق الاخلاق بيد انه ابرز الحكم عليه هذه المرة وهو في مكان بعيد عنه بعد ما كابد من المصائب والرزايا ماجعله يمهد العذر لجميع الناس . فمن يتجرع غصص الآلام يصبح كريم الاخلاق لان النكبات والعذابات تطهر عواطف المرء وتجعله متجاوزا عن المساوىء . وحقيقة الامر ان يوسف بونابرت لم يكن موصوفا بالجودة ولا باللطف ولا بالرقة ففي أعماله مايخالف هذا الوصف . ولم يخطىء نابوليون مواقع الصواب لما أدار رحى الكلام على ضعف أخيه وعدم كفاءته لتقلد ما أسند اليه من المناصب . وخلاصة مايمكن القول عن يوسف بونابرت انه رجل متوسط الحال كثير العجب والزهو شديد الرئاء والمداهنة وهذا ماجعل من ابرزوا الحكم عليه يضلون عن جادة الصواب

وخلاصة حياة يوسف بونابرت انه ولد في كورتي في سنة ١٧٦٨ وجعل ملكا على نابولي في سنة ١٨٠٦ وملكا على أسبانيا من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٣ وشخص الى الولايات المتحدة بعد معركة واترلو وعاد الى اوربا بعد اقامته فيها ردحا من الدهر وتوفي في فلورنسة في سنة ١٨٤٤

لوسيان بونابرت

لما كان لوسيان بونابرت حدثا لم يشأ مشاطرة اخوته واخواته العابهم وكانت اليزا التي يقرب سنها من سنه قد أرسلت الى مدرسة سان سير بفرنسا . أما اخواه اللذان كانا اكبر منه فلم يكثرا من مخالطته وكان اخوه لويس اصغر منه . وفيما بعد صارت اليزا التي تقرب طباعها من طباع لوسيان صديقته الحميمة ومعزيته في ضيقه

فهل كان يحب المداعبة كنابوليون أو كان معتصما باهداب طول الاناة كيوسف ؟ هذا أمر مجهول . وكان لوسيان ضعيف البصر بحيث كان يضطر عند القراءة والكتابة الى خفض رأسه الصغير الذي يختلف عن رؤوس غيره من البونابرتيين في الحجم

بيد ان ابتسامته اللطيفة كانت تجذب اليه القلوب . أما الرسم المحفوظ عنه في المكتبة الوطنية فغير مطابق لهذا الوصف : ففي هذا الرسم يرى نصف وجهه

مماثلا لهيئة أفراد أسرته الآخرين : فانفه مستقيم ودقيق وشفتاه بارزتان وذقنه اكبر من ذقن يوسف وكانت ترى على هيئته العبوسة والقلق من جراء حسره . وأخذه والده في أول الامر مع نابوليون الى اوتان ثم أرسله الى بريان وأدخله أخيراً المدرسة الاكليريكية في اكس ليدرس اللاهوت ويستعد للدخول في مصاف رجال الدين إلا ان الثورة الكبرى غيرت أفكاره وحولته عن قصده فترك المدرسة وعاد الى كورسيكا وله من العمر سبع عشرة سنة . ومعلوم ان الانسان في هذه السن ينصرف الى الملاهي والملاذ ولكن لوسيان الميال كل الميل الى اضرام لهيب الفتنة والمعجب بدعاتها وأنصارها انضم الى خطبائها في الاندية المعينة لها وارهف لسانه لخدمتها والمجاهرة بمبادئها وما عتم ان أصاب بما أوتيه من طلاقة اللسان وقوة العارضة شهرة عظيمة في بلاده وصار من المشار اليهم بالبنان . ولما جاء أمير البحر طروغاي الى كورسيكا موفداً من لدن حكومة الجمهورية وتلاه سيمنفيل رحب بهما لوسيان بخطاب بليغ وتزلف منهما. وعظم شأنه في وطنه حتى انه لما عاد باولي الى بلاده اتخذه مستشاراً له ولم يمض وقت طويل حتى انفصل لوسيان عن باولي وسعى به لدى الكنفنسيون كاشفاً دخائله ومتهماً اياه بانه يعمل لتسليم الجزيرة الى البريطانيين . وعقب ذلك الامر خراب أسرته فان أنصار باولي أحرقوا كروم البونابرتيين وأتلفوها وهجموا على منازلهم ودمروها فاضطرت الام الى الفرار بأولادها والالتجاء الى فرنسا . ولم يأسف لوسيان قط على مجاهرته بمبادئه الوطنية ولم يعنفه أحد من أفراد أسرته على عمله هذا

ولما وصل لوسيان الى فرنسا أرسلوه الى سان مكسيمان في الفار لمشارفة مستودع الذخائر والمؤن وعين له مرتب قدره الف فرنك ومئتا فرنك . أجل ان هذا المرتب قليل ولكن لوسيان لم يكن له من العمر سوى عشرين سنة . وجرى هناك على الطريق الذي جرى عليه في كورسيكا أي المجاهرة بمبادئه الجمهورية راكبا في عمله مركب التطرف فاستبدل باسمه اسم بروتوس وغير اسم «الكومون» فاطلق عليها اسم ماراطون . ودخل نادي الثوريين فانتخبوه زعيما له . وكان يتصرف في النادي على هواه لما كان له من الكلمة المسموعة فيه ولم يستطع خطيب من الخطباء أن ينازعه اياه . فان الارسطقراطيين المتنورين

وداع فنتبلو فى ٢٨ أبريل ١٨١٤

المشتبه فيهم زجوا في السجون وهاجر من نجا منهم الى البلدان الاجنبية . ولم يبق في ماراطون الا العملة والكرامون وراهب خرج من الرهبنة يحسن دون سواه من رفاقه القراءة والكتابة وقد كانت له الكلمة المسموعة بينهم قبل مجيء لوسيان ولكنه بعد انضمام هذا الاخير اليهم ترك له الراهب الزعامة عليهم وتولى عملا في ادارة المؤن والذخائر واتخذ اسم ابامينداس وصار من اكبر المؤازرين للوسيان

وأقام لوسيان في نزل بسان مكسيمان يديره رجل يدعى بواياي . فتعرف في النزل بفتاة لطيفة المعاشرة رشيقة القامة حسنة التركيب على وجهها آثار الجدري ولكنها كانت نجلاء العينين خلابة القلوب فتعشقها لوسيان وهام بها هياما شديداً وكان اسمها كرستين بواياي وهي شقيقة صاحب النزل . فلم يشق على لوسيان استمالتها اليه فكان يخاطبها بكلام لم تتعود سماع مثله في قريتها الحقيرة لانها كانت أمية بحيث لم تستطع توقيع اسمها على صك زواجها ولكنها كانت شديدة التعلق بزوجها وعالجت البلوغ الى درجته باتمامها تهذيبها وتثقيفها

ولما تزوج لوسيان سعى لتحسين حالته فأصاب مركز مفتش لنقل الذخائر والمؤن بالمركبات في سان شامون ولم يكف ذلك لان يدرأ عنه الشبهة في دوره فألقي في السجن وهل نجا أحد من سهام الظنة في ذلك الحين ؟ وتمكن نابوليون من اخراجه من سجون الجمهورية ودعاه اليه في باريس ولكنه أبى أن يستقبل امرأة أخيه من جراء خمول أصلها . على أنه اضطر فيما بعد الى نبذ أوهامه هذه وأعان المودة لتلك المرأة التي غير التهذيب كل التغيير ما فيها من الطبيعة القريبة من الهمجية وسمي لوسيان بفضل أخيه أيضاً مسيطراً لجيش الشمال ثم نقل فيما بعد الى بستيا : ولما هيأ نابوليون حملة مصر اقترح على أخيه مرافقته اليها فنبذ اقتراحه وكان قد استمال اليه محبة الشعب في مدينة اجاكسيو وانتخب مع حداثة سنه عضواً في مجلس خمس المئة . وقد أصاب في طرح اقتراح أخيه وراء ظهره كما يتبين ذلك فيما بعد فان المجلس رحب به ولم ينظر الى صغر سنه واتخذ باريس محلا لاقامته من ذلك الحين . وأصبح البيت الذي ابتاعه في الشارع الأخضر مثابة لزملائه ولأنصار الأدب فصنف رواية عنوانها «القبيلة الهندية» أودعها انتقاداً لاخلاق الشعوب المتمادية في التمدن . وأقبل في أثناء ذلك على العمل بجد

وكد شديدين في تهيئة الخطب التي كان يبتغي القاءها أمام مجلس خمس المئة في سبيل توطيد أركان الحرية . فأصاب تفوقاً عظيماً في هذا المجلس المؤلف معظمه من فتيان الجمهورية كما أصاب في ماضي الحين تفوقاً في الاندية الكورسيكية. وما عتم زملاؤه أن نسجوا على منوال نادي سان مكسيمان فانتخبوه زعيماً لهم . واشترى لوسيان بونابرت من ختنه الجنرال لكارك أرض بلسي ـ شامان والقصر المشيد فيها وضمه الى منزله في الشارع الاخضر . وهذا القصر مبني في فسحة جميلة وكان في غابر الايام جارياً على ملك آل سان سيمون ثم انتقل الى أحد حجاب الملك . وجميع هذه التظاهرات والدلائل على الغنى الواسع زادت منزلته ارتفاعاً بين رصفائه ووسعت دائرة آماله. إلا أن نابوليون لما عاد من مصر لم يطق أن يلقى مناظراً بين اخوته بل كان يبتغي أن يلقى له بينهم أنصاراً يمهدون له السبيل الى نيل أوطاره من دون أن تطمع نفوسهم بمشاطرته السلطة .

ولا يخفى أن لوسيان وان يكن من اكبر العاملين لحوادث سان كارود لم يكافئه أخوه بما يستحقه عند توزيع المكافئات . وقد مضى على تلك الحوادث عدة أسابيع قبلما أسندت اليه وزارة الداخلية . فرضي بهذا المنصب وقتياً مع علمه بأنه دون كفاءته ومقدرته فكان يبدي في الشؤون السياسية مايبديه من الدهاء أخوه الجنرال في الشؤون الحربية . ولما كانت الدعوى قد نفخته ترك ادارة شؤون وزارته لمريديه من الكتاب وغيرهم لاعتباره هذه الشؤون أدنى من مستوى عقله السامي وانصرف الى ترتيب الاجتماعات في المجالس وتمهيد السبيل لسياسة توخى حمل الحكومة القنصلية على انتحالها . وأكثر من ارسال الاوامر العامة الى مديري النواحي والنصائح لحكام الولايات . ورأس الحفلات المقامة لاكرام الأبطال الذين قضوا في ساحات القتال . وخطب في الجماهير المحتشدة في هذه الحفلات لما أوتيه من الفصاحة ولشدة ميله الى الخطابة . وأبن طوران تأبيناً بليغاً في يوم الاحتفال بنقل رفاته الى الانفاليد وأعلن افتتاح القرن العظيم وأقسم على أن حظ فرنسا الجمهورية سيكمل . وصار أيضاً رب عائلة وزين قصره ووضع فيه طرف الصور المجلوبة من ايطاليا أو المشتراة من المخازن الغاصة بغنائم الثورة . وكان أصدقاؤه المصورون يدلونه على التحف الفنية الثمينة الممكن ابتياعها بأثمان بخسة فيبادر الى احرازها . وكان أيضاً يظهر بمظهر السيد

العظيم عند الاقتضاء ويروى عنه أنه دخل عليه في داره الدوق دي لوين باموز المهاجرين ولما علم أن صورتين من الصور النفيسة المزدانة بها ردهة قصره كانتا لهذا النبيل أرجعهما اليه في الغد وفوض الى من حملهما اليـه ان يقول له انه مبتهج كل الابتهاج باعادة تينك التحفتين النفيستين الى صاحبهما . وفتح في دار الوزارة التي كانت تدعى قبل ذلك الحين قصر برساك الرده الفخمة في وجه المدعوين الـكثيرين المختلفين اليها للرقص والموسيقى ومغازلة الغواني ومداعبة الحسان ـ وأنشأ أيضاً في داره ملعباً لتمثيل الروايات وكان يسر بأن يكون هو وأخته البزا من عداد الممثلين . وجاهر بحمايته للفنون وعلم الأدب . وسعى لاعادة الندوة العلمية وتألب حوله فريق كبير من مشاهير العلماء والشعراء لميله الى قرض الشعر ونظم عقوده . ولما نفي فيما بعد الى رومية أقبل على نظم ملحمة موضوعها شارلمان سبكها في عشرين الف بيت . وقد انتقدها نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة انتقاداً مرا وأحال على لوسيان بالتعنيف لاضاعته وقتاً ثميناً في نظمها من دون أن يصيب نتيجة تذكر من وراء ذلك العمل الشاق

وقد أظهر تغير معيشة لوسيان وارتفاع منزلته وازدحام كبار الرجال وشهيرات النساء في داره بباريس ما كانت كرستين بواياي مطبوعة عليه من سلامة الذوق وسمو المدارك : فانها تمكنت بمقدرتها العقلية من الاضطلاع بما انتدبتها اليه منزلتها في الاستقبالات الرسمية وأصبحت زينة لمنزلها ومثالا يقتدى به في الحديث وغير ذلك من الامور الممتازة بها شهيرات النساء . وصار الناس يشيرون اليها بالبنان فافعم قلب قرينها بهجة ما أصابته زوجته من رفعة المقام عند الخاص والعام . ومع ذلك لم تكن شديدة الرغبة في إقامة الاحتفالات الـكبيرة في الوزارة وغير ذلك من الاحتفالات في الهيئة الاجتماعية الباريسية وكانت تؤثر على جميع هذه الامور السكنى في بيت بسيط تستطيع فيه أن تنصرف بجملتها الى تدبير شؤون منزلها والعناية بأسرتها ولـكنها فعلت مافعلته في المركز الذي احتلته مجارية رغبة قرينها .

وروت عقيلة ابرنتس أنها كانت صديقة لتلك المرأة اللطيفة فكانت تلتقي بها مرات كثيرة عند عقيلة دي برمون والدتها وتسمعها تستشيرها عما يحسن أن تفعله في السهرات مع استطاعتها الاستغناء عن آراء غيرها لمعرفتها ماتقضي عليها

الحال باجرائه وجاءت في ذات يوم الى عقيلة ذي برمون والبشر تلمع بوارقه على محياها وكان السبب في ذلك أن القنصل الاول سر بما رآه من تصرف امرأة أخيه وتغيرها الفجائي الغريب وصار يستقبلها بلطف واكرام وتودد. وأهدتها جوزفين بعض الحلى الفاخرة وقد تكون فعلت ذلك مكرهة عليه لانها كانت دائماً تعتبر لوسيان عدواً لها وتعتبر أيضاً امرأته اعتبارها له. وكتبت عقيلة ابرنتس ما يأتي: وكانت كرستين اللطيفة الفاضلة تزلف الى سلفتها وتستنفد المجهود في سبيل استمالتها اليها إلا أن جوزفين لم تن عن ابداء بعض الملاحظات الجارحة لها. فكانت كرستين تغضي الجفن على القذى وتحتمل كلام جوزفين بالصبر الجميل لئلا تحزن قرينها وكانت تحاذر أن تجعل يد الخلاف تعبث بينه وبين سكان التويلري.

وأصيبت تلك المنكودة الحظ بمرض صدري اضطرها الى ملازمة الفراش وذاقت في آخر حياتها أشكالا وألواناً من العذابات المبرحة فكانوا ينقلونها من غرفة الى أخرى على فراش جاس ليسهل عليها استنشاق الهواء النقي. وكتبت عقيلة ابرنتس في مفكراتها صفحة مؤثرة عن وفاة كرستين بواياي وكانت تلازم وسادة المحتضرة:

« وقالت لي: يذكرني هذا الفراش بفراش سان مكسيمان فلا أستطيع الرقاد أو التنفس تحت هذه الستائر الكبيرة (وأشارت بيدها الى سريرها الفخم) ولا في هذه المضاجع الوثيرة. اقتربي مني يا لوريت فأنا أعلم أن فراش المحتضرة لا يروعك. وقبضت على يدي فكانت يدها عجيفة فلمحت تأثير ضغط عظامها الملتهبة في وقالت لي: هل تخافين مني؟ فذرفت الدموع من دون أجيبها بكلمة وضممتها الى صدري... ومن ذلك الحين حرمت رؤيتها لانها توفيت في الغد. »

وبلغ اليأس من لوسيان مبلغاً عظيما وقد كتب في هذا الصدد ما يأتي: « هذا حزني الاول وليس وراءه من مزيد فان كرستين بواياي زوجتي توفيت. ولم يبق لي سوى رفاتها في هذه الدار التي ابتعتها لها وزينتها اكراماً لها فما ألطف وأطهر تلك النفس! » وبنى لها في حديقة القصر ضريحاً من الرخام الناصع البياض وأحاطه بسور من قضبان الحديد فكان يأتي اليه ومعه بنتاه الصغيرتان للبكاء على الراحلة العزيزة وتجديد نار الحزن اضطراماً.

وفقد قصر بلسي بفقدان كرستين رونقه وبهجة أعياده . ولا يخفى أن طباع لوسيان المتقلبة كانت تعدلها أطوار زوجته اللطيفة ومحبتها الشديدة له : فكانت تشاطره جميع مشقاته وتسعى لارضاء الجميع . وأكثرت عقيلة ابرنتس من الكلام عن اللذة التي كان يجدها من يزور قصر بلسي ويقيم فيه . فكان السرور رافعاً دائماً ألويته فوق ذلك المنزل الفخم وكان الزوار المنتخبون يذوقون من الغبطة أشكالا وألواناً . وذكرت أن من جملة الذين كانوا ينتابون ذلك الصرح في ذلك العهد عقيلة دي فرشفيل زوجة الجنرال الذي عضد البونابرتيين في حوادث سان كلود والمسيو دي شاتيون النحات والمسيو بواياي نسيب كرستين والمسيو ساباي دي رامولينو أحد أنسباء أسرة السيدة لاتيسيا والمسيو دوفرفيل الشاعر الخفيف الروح .

وأخذت اليزا أخاها لوسيان الى منزلها في نويي رجاء تخفيف عبء الاحزان عنه . وكان لوسيان على أثر وفاة زوجته يأبى التعزية ويميل الى الاختلاء ولم يكن ينتاب دار الوزارة إلا نادراً جداً بحيث أن تغيبه أحدث خللا فاضحاً في أعمال وزارته . ولم تدخر أليزا شيئاً لاجل تسلية شقيقها فمثلت رواية الزيرة من نظم فلتير وكان لوسيان من جملة الممثلين فانه مثل دور زامور ومثلت أليزا دور الزيرة . وكان نابوليون يضحك كثيراً عند سماعه تمثيل شقيقته التي كانت لهجتها الكورسيكية تلفت الانظار فكانت أليزا تستاء جداً من استهزائه بها .

وما مكث لوسيان أن عاد الى ما كان عليه من السيرة فصار يغشى الاندية ويهصر غصون الملاذ ويسعى وراء مداعبة الحسان وقد شغف شغفاً عظيما بميزيراي الحسناء إحدى ممثلات « ملعب الفرنسويين » وعقيلة ريكامياي . وعاد الى التدخل في جميع الشؤون السياسية فانحاز الى الحزب المعاكس لمطامع القنصل الاول الظاهرة . وكان شديد الاخلاص في الاعتصام بتلك المبادىء وحدث ذات مرة حين كان في منزل عقيلة دي برمون ودار الحديث على الاحوال الحاضرة انه أشار الى صدره وقال : « هنا قلب وطني مغرم بالحرية وأخي يعرفني ولا يخفى عليه شيء من حقيقة حالي ولا شيء في وسعه أن يحول دون تذكيري إياه

عما عاهد الامة الفرنسوية عليه علانية في ١٩ بروميير وأنا ذو النفس الفرنسوية الحرة قد ضمنت ذلك العهد . »

وكان يكثر من الكلام في هذا الموضوع وقد اشتهرت أحاديثه واميااله بين الخاص والعام فاغتاظ نابوليون منها ومن تصرفه في وزارته تصرفاً منافياً لمصلحته . وذات يوم خلا نابوليون بأخيه لوسيان فدار بينهما حديث طويل عن تلك الحال فأغلظ نابوليون في الكلام لاخيه وخاطبه بحنق شديد فكان لوسيان يجاوب أخاه ببرودة متهكما على كلامه وختم حديثه بقوله له : ان غضبك عنوان خطائك . فقال له أخوه الهائل : أريد أن ألقي القبض عليك . فحينئذ لم يبق في قوس صبر لوسيان منزع فألقى على المنضدة المحفظة التي فيها أوراق وزارته وقدم استقالته وخرج في الحال لا يلوي على شيء .

ولم يكن من الممكن التوفيق بين ذينك الاخوين لتنافر طباعهما : فلوسيان كان يعتبر ذاته مماثلا للجنرال في المنزلة ومحرزاً نظيره صفات يخضع لها جميع الناس . وقد أصبح التقاطع بينهما أمراً محتوماً إذ لم يشأ أحد منهما أن يستكين لدى الآخر . فعالج يوسف على غير جدوى أن يصالحهما . ورضي لوسيان بأن تلقى اليه مقاليد سفارة اسبانيا فأسندها اليه نابوليون وهو يرمي في ذلك الى غايتين الاولى إبعاده عن فرنسا اتقاء لشره والثانية تمهيد السبيل في وجهه للأثراء . وقبل افتراقهما جمعتهما سهرة في التويلري وقد أسهب ستانسلاس دي جيراردان في الكلام عن تلك السهرة . فجلس الذين حضروها في البهو حيث كانت جوزفين وابنتها هرتنس قاعدتين قرب الموقد واجتمع في الغرفة الملاصقة نابوليون وأخوه لوسيان فكانا يتحدثان تارة بصوت منخفض وتارة بصوت عال : وكانت جوزفين تظهر قلقاً شديداً تضمر تحته فرحاً عظيماً لمعرفتها أن لوسيان سيغادر فرنسا عن قريب وكانت تكره لوسيان كل الكره وتنفر منه أشد النفور . وكانت عقيلة باتشيوتشي في البهو ودموعها تكاد تنهل من مآقيها . فنصح لها ستانسلاس دي جيراردان بأن تحبس عبراتها لان بعض الناس يسر بها وآخراً فتح باب الغرفة المجاورة فخرج منه لوسيان وهو متجلد يحاول كتمان عواطفه . أما نابوليون فان هيئته كانت تدل على اضطراب نفسه وكان شعره منتثراً وقد كان من الاشخاص الذين لا يقدرون أن يخفوا عواطفهم . وانصرفت

عقيلة باتشيوشي مع أخيها لوسيان وعيناها مغرورقتان بالدموع. وحينئذ نهضت عن كرسيها عقيلة نابوليون بونابرت التي لم يخف عليها شيء من أمر عقيلة باتشيوتشي ودنت منها لتشيعها. فأظهرت حزنها وصافحتها وعانقتها وكادت تطير من الفرح حين أبصرت على خديها أثر الدموع وشاهدت أجفانها مبللة.

ولا يخفى ان النشرة الصادرة تحت عنوان « مقابلة بين قيصر وكرمول ونابوليون » زادت علاقة الاخوين توتراً. ويقال ان هذه النشرة دبجتها يراعة فنتان بايعاز من لوسيان ولم يخف ذلك على نابوليون. وقد انتشرت في جميع الديار الفرنسوية وكانت الغاية منها استمالة القوم الى طلب تقرير حق الخلافة في تولي السلطة في أسرة بونابرت وكان كل فرد من أفراد الاسرة يطمع بها ويطمح الى اصابتها.

ودونكم أهم ما جاء في تلك النشرة :

« ان بونابرت يعد فرنسا بعصر جديد مجيد وجميع الآمال معلقة على مجده وحياته. فياما أسعد هذه الجمهورية لو تسنى لها دوام البقاء! ومعلوم ان حياة الرجل العظيم أشد استهدافاً لنبال المعاطب من حياة الرجل الخامل الذكر: فلا يسهل تخلصه من الاختلافات الطارئة والمصايب النازلة. وهب نزل القضاء المحتوم ببونابرت بغتة وفقده الوطن فجأة فأين تصبح الانظمة التي وضعها وهي المستطيعة أن تخلد دهاءه وتجعل الناس ينسجون على منواله؟ فحظ ثلاثين مليوناً من البشر معلق بحياة فرد واحد. يا أيها الفرنسويون كيف يكون مصيركم لو سمعتم الآن ناعياً ينعي اليكم مصرع ذلك الفرد؟

« وهب دخل عليكم الذعر عند رؤيتكم مظالم المجالس فالى من تلتجئون وبمن تعتصمون؟ أولا تستجيرون برجال الجندية؟ أين خليفة بريكليس؟ وأين البطل الموصلته ثقة الشعب والجيش العامة الى منصب القنصلية والمستطيع هو البقاء فيه؟ فلا تلبثون وأيم الحق ان تخضعوا لنير زعماء الجندية الذين يجملون من وكدهم ان يخلع الواحد منهم الآخر والذين يصيرهم ضعفهم ظلاماً. فنيرون وكاليغولا وكلوديوس وأمثالهم خلفوا في رومية زعماء من أشهر دهاة الرجال فتكت بهم أيدي الحساد الاثيمة. »

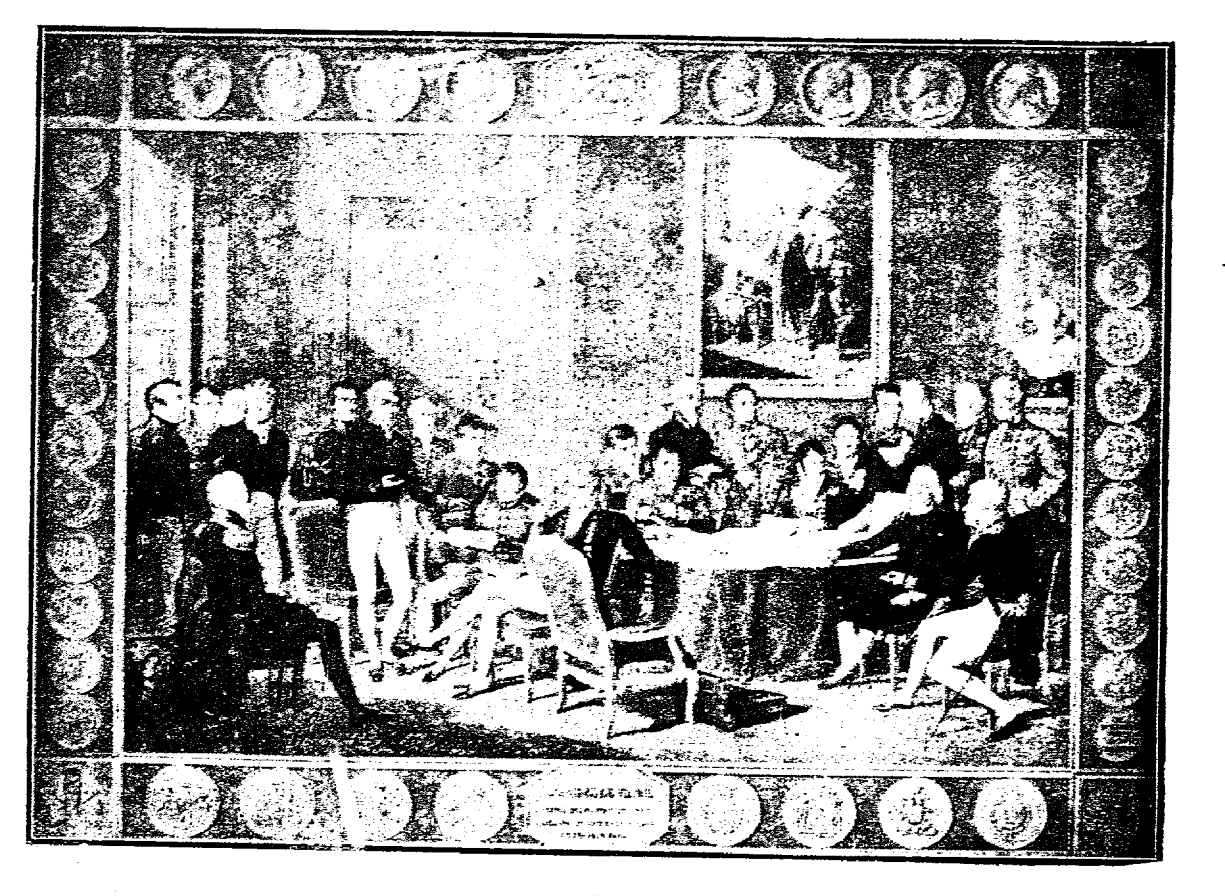
لم يكن نابوليون ليكترث لتلك النشرة لو لم يقل له فوشه ما كان من

تأثيرها السيء في الجمهوريين الذين كان يداريهم حتى ذلك العهد . وقد زاد نابوليون تحذراً ما كان يوسف ولوسيان يبديانه من المثابرة على السعي المتواصل في سبيل اصابة الوراثة بطرق سرية مجهولة فارتأى ان أفضل شيء له الافتراق عن لوسيان لأنه كان يخشاه أكثر من غيره من أخوته .

وقد شاء لوسيان أن يستصحب في سفره أصدقاءه الذين أخرجهم من الوزارة كفيلكس ديبورت وساباي وأرنول واستصحب أيضاً مصورين أخذهما معه ليدققا في الصور التي كان يروم احرازها في أسبانيا . وكان يتفادى من الغض من كرا... ـد عامة الناس ومن تجرده من النعمة المسبغة عليه فركب عربته وانطلق بها سائراً على طريق الشمال أما أصدقاؤه وخدامه فانهم أخذوا طريق الجنوب . وبعد ما طاف حيناً من الزمان وافاهم وقد ذكرت صحف بوردو في ذلك العهد مروره بتلك المدينة ومرور حاشيته وكان فيها باتشيوتشي . وظهر في مدريد بمظهر سيد عظيم من أبناء البيوتات الكبيرة ولم تكن داره تقل في الفخامة والزينة عن دور الامراء بحيث ان الاسرة المالكة أعجبت بها كل الاعجاب . وصار يدخل بغير استئذان على الملك والملكة ويحادثهما على انفراد في الشؤون السياسية الخطيرة الموفد هو لاجلها . وصادقه أمير السلام عشيق الملكة . وسعى لاستمالة بلاط أسبانيا الى فرنسا وتنفيره من بريطانيا العظمى ونجدة الاسطول الاسبانيولي للفرنسويين في مصر وتهيئة غزوة البرتوغال ان لم تخلع هذه البلاد نير بريطانيا العظمى وتدبيره التنازل عن لويزيانا في مقابل مملكة صغيرة لوارث اسرة بارم وزوجة ابنة ملك أسبانيا وعقده محالفة بين المملكتين يرمى بها الى طرد بريطانيا العظمى من البحر الرومي بحيث يصبح هذا البحر لاتينيا وهذا ما كانت تبتغيه « لجنة الأمن العام . »

وأصاب لوسيان نجاحاً باهراً في مدريد وقد حولت البرتوغال عنها العاصفة المهددة أي الغزوة المنوية بتقديمها للسفير عدة ملايين من الفرنكات . وروت عقيلة دي ريموزا في مفكراتها ان لوسيان بونابرت أحرز مبالغ طائلة يصعب تصديقها .

ولم تكن سيرة لوسيان في مدريد أفضل منها في باريس فانه اختطف امرأة رجل من باعة المرطبات كان زوجها شديد الغيرة عليها فهاج الشعب على الخاطف .



مؤتمر فينا ١٨١٤ اجتماع مندوبي ثماني دول وقعت على معاهدة باريس



ويروي دي بوريان ان الشكاوي من لوسيان في هذا الصدد انتهت الى نابوليون في باريس . وفضلا عن ذلك لم ترض الوثيقة المعقودة مع أسبانيا أحداً في أسبانيا وفي فرنسا ولذلك أبى القنصل الأول التوقيع عليها وأرسل الى أخيه مكاتيب جافية اللهجة مرة الأسلوب . فأبى لوسيان الاذعان لمقتضيات هذه المكاتيب وزعم انه لا يستطاع اتيان أفضل من ذلك وبادر الى الاستقالة . وطال الوقت قبل ان يصل اليه الجواب فخشي ان يمنعوه عن مغادرة مدريد وخاف غضب أخيه فانتحل اسماً مستعاراً ومضى خفية من عاصمة أسبانيا الى باريس . وظفر لوسيان بثروة واسعة وأصبح أغنى من جميع البونابرتيين . وقد أهداه ملك أسبانيا ثلاثين صورة من أجمل الصور المصنوعة بقلم مشاهير المصورين وصورة كبيرة لها كنفاف مغلف بورق حريري ومرصع بالالماس الثمين . وقال لوسيان ان ثمنها لا يقل عن خمسة ملايين فرنك . وذكر غيره ان الثروة التي جاء بها لوسيان بونابرت من أسبانيا لا تقل عن خمسين مليوناً من الفرنكات . على ان أعداءه الكثيرين قالوا انه أخفق في مساعيه في الخارج لأنه لم يكن ذا صفات تؤهله لادارة شؤون منصب السفارة فكان فظ الطباع حادها مطلق الارادة مستبداً في رأيه مفتقراً الى الأخلاق الفرنسوية كاللطف ورقة الجانب واللين والمجاملة مما لم يكن مندوحة عنه في بلاط نظير بلاط أسبانيا . اما لوسيان فانه يغالط جميع هؤلاء المنتقدين ويزعم ان ما فعله كان عين الصواب .

ولما درى القنصل الاول برجوعه دعاه اليه في التويلري واختلى به ثلاث ساعات . فقال لوسيان : لا تطمع نفسي بمنصب من المناصب فأنا أريد أن أعيش في باريس كفرد بسيط من أفراد الشعب يبتغي أن يقضي حياته حراً مستقلا . ولا أشاء خدمة الحكومة إلا اذا أردت أنت ان تسند الي منصباً أستعين به على تعزيز سلطتك . فامنحني في الاستقبالات الرسمية والاحتفالات الكبيرة المنزلة اللائقة بمقامي . ويجب ان تفرز لي دائماً مكانة ممتازة بحيث لا يتوهم الناظر الي اني من جملة حجابك أو من عداد السفراء . فأنا شقيق القنصل الاول ولي الحق ببعض الامتيازات . وقد سألتني زوجتك عن السبب الذي من أجله أبيت تناول الطعام على مائدتها فانا أجيبك على سؤالها . وقصارى الكلام ضع حداً للمهازحة والمداعبة وأد الي حقي من الكرامة وعد عن استعمال مثل هذه العبارات :

« ياوطني لوسيان ماذا فعلت وماذا تفعل ؟ . . . وما هي هذه المرأة التي ...؟ »
فان أنت وعدتني بأن تحترمني رأيت مني احتراماً شديداً لسلطتك .
وافترق الشقيقان على وفاق ووئام .

وكانت المشاغل الكثيرة تملأ أفكار لوسيان فانه ابتاع قصر بريان وباشر ترميمه واصلاحه فأنفق عليه مبالغ طائلة من الثروة الواسعة التي جاء بها من أسبانيا بحيث فاق ذلك القصر في زخرفته جميع قصور الملوك . وامتلأت ردائهه من الصور المشتراة بأثمان باهظة . وكان قد دفع بالمزاد عشرة آلاف فرنك بتمثال من التماثيل وحين شعر بأن أحدهم يبتغي مشتراه زاد دفعة واحدة ضعف ثمنه . وبالغ أيضاً في تزيين قصر بلسي . ولما كان يشعر بالملالة من طول النظر الى الأشياء عينها كان يبادر الى التغيير فيها محولا وجوهها الى وجوه جديدة . وكان لوسيان بونابرت من أصحاب الغنى العظيم في ذلك العهد فقد كان المليون فيه يساوي ثروة واسعة . وكان يكثر من التردد على سيدة نبيلة جاء بها من مدريد وهي المركيزة دي سانطا كروز . وكثر عدد المتملقين المتزلفين اليه وأشرف فنتان في التنويه بمناقبه الشريفة وتولت شقيقته اليزا تدبير شؤون منزله . ولم يأنف شاتوبريان من التحاقر لديها والتماس مساعدتها لنشر مؤلفاته . وكانوا يعيشون في قصر بلسي عيشة الكبراء ويكثرون من مزاولة الالعاب والتسبب بأسباب السلوى بحيث نسي لوسيان ذكرى زوجته المتوفاة .

وكان فنتان في تلك الاثناء مدمنا الرماية على الغرض الذي توخى الرماية عليه وقد وضع نصب عينيه ان ينصب عرشاً يجلس عليه أحد أفراد أسرة بونابرت وأن يجني ثمار المكافأة على غيرته وسعيه . فكتب الى لوسيان ما يأتي :

« قرأت التاريخ فلم أجد فيه أن رجلا من مشاهير الرجال احتل منزلة سامية بتقصيره عن مؤاتاة حظه . ويجب أن تكون النهاية موافقة لهذه المأساة الكبرى التي شاهدت بداءتها والتي اؤمل أن أشاهد ختامها . وانا معتقد كل الاعتقاد ان كل ما أفتكرنا به سيتم . والعمل الخطير تتمهد سبيله يوما فيوما ولعمر الحق أنه يتعذر ارجاؤه : »

فأثر كلام فنتان المكرر بلوسيان بحيث شد الكرة على أخيه . ومع كونه جمهوريا شديد الاعتصام بمبادئه لم ينفر من مضافرة شقيقه ومريديه على

انشاء سلالة جديدة يبدو له الفضل في انشائها . ولما كان يصعب على الملك أن ينشيء اسرة ولا يكون له ولي عهد اقترح بالاتفاق مع باقي أفراد اسرته طلاق جوزفين واقتران القنصل الاول بامرأة أخرى . والا وجب على جوزفين أن تعالنهم على حيلة يموه بها على الناس بانها ولدت ولداً . ولم يتردد في بسط ذلك الامر لامرأة أخيه بغير حياء ولا تحفظ . وبعد أيام اوقفت جوزفين المنكودة الحظ المستاءة دي بوريان على ما اقترحه لوسيان عليها .

وشعر نابوليون بان الحزب المعاكس له يشتد ساعده ويشتد أزره وعلم أن مساعي كباساريس وتاليران لكبت ذلك الحزب ذهبت سدى . أما لوسيان فانه يستطيع أن يكون عضداً قويا لاخيه ان هو تمكن من دخول مجلس الشيوخ ويقدر أن يظفر بذلك الحزب بما أوتيه من المقدرة على ترأس الجمعيات ومن طلاقة اللسان على المنابر ومن الغنى المستميل اليه انصارا كثيرين واختار لوسيان عضوية تريف في المجلس المشار اليه .

وكانت هذه الفرصة من أفضل الفرص لان يقضي الشقيقان حياة سداها الوفاق ولحمتها الوئام وان يعيشا متجاورين . فسر نابوليون بذلك التقرب وسعى لعمل كل ما يأول الى هناء أخيه وغبطته . وحدث في تلك الاثناء أن ملك اتروريا الشاب توفي وكانت زوجته ابنة ملك اسبانيا فرغبت في الاقتران بلوسيان بونابرت شقيق القنصل الاول طمعاً باصابة مناصرته لها لتظل جالسة على عرش فلورنسة . وبقي نابوليون بضعة أسابيع يسعى لتحقيق هذه الامنية . و[illegible] لوسيان قد أبى الاقتران بكريمة لافايات وليس له من سبب لذلك غير أهو[illegible] اما ابنة ملك اسبانيا فان للوسيان أسباباً تدعوه الى نبذ الاقتران بها [illegible] كانت قبيحة الصورة مشوهة الاعضاء حدباء الظهر عرجاء على ما جاء في [illegible] تلك الايام . وفضلا عن ذلك كان قد علق أيم تاجر يدعى جوبرتو تو[illegible] الديار الاميركية بعد ما فقد جميع ثروته . وبعد ما قضى لوسيان معها [illegible] ردحا من الزمان تزوجها سراً أيضاً . وولدت له ولداً قبل اقترانه بها شرعيا . على ان نابوليون وان لم يكن يجهل علاقته بأيم جوبرتو كان [illegible] القران المعقود في بلسي شامان بحضرة كاهن شيخ يزاول في الوقت عينه [illegible] محافظ البلدة وكيف كان الامر فماذا يهم لوسيان المكثر من الكلام عن ال[illegible]

والمشير به على أخيه وأي اعتراض جدي يبديه عشيق أيم جوبرتو على افتراق الزوجين ؟ فالعرش ولقب ملك يفضلان عشيقة مطلقة .

الا ان تلك المرأة لم تكن سهلة المراس وكان لوسيان يحبها محبة شديدة بحيث شقت عليه مفارقتها . وكانت رياح المطامع تهب في صدرها وعوامل العجب والزهو تتجاذبها وقوة الارادة تمنحها سلطة قوية على حبيبها فأسرت لبه وعواطفه وصيرته رقيقا لها لا يقوى على الاعراض عنها . وقد وصف فنتان أخلاق هذه المرأة في رسالة سيرها الى اليزا وقال لها فيها ما يأتي :

« لا يخفى عليك ياصديقتي اللطيفة الفاضلة ما يمكنني أن أقصه عليك فانت بما أوتيته من الذكاء تدركين بلمحة طرف ما هو مخبؤ وراء الستار : فالسيدة حسناء وعلى جانب عظيم من التدلل . وتستطيع بهاتين الصفتين أن تتسلط على القلوب حينا طويلا .

« وجميع دلائل الحب الشديد بادية على وجه حبيبها وفي حديثه وهو يعالج الكتمان على غير جدوى فان دلائل الحب لا تخفى على أحد . وهو يحصر فيها جميع هنائه أما هي فلا يكفيها هذا الامر لان لها مطامع أسمى وأبعد وهي تميل الى احراز الشهرة وتركها في الدنيا دويا عظيما . وعيناها النجلاوان تخلبان الالباب . ولعمري ان ما فيها من العُجب يدعوا الى العَجب وقد اجدت في تمثيل دوري وتمكنت من الوقوف على كنه حالها فعرفت أنها من أشقى خلق الله وقد أخبرني حبيبها انها تفضل غيرها من النساء في فضيلتها .

« يستعدون لتمثيل رواية الزيرة وهي من جملة الممثلات . وبينا كانت تمثل دورها كدت أصيح قائلا لها عند رؤيتي ما هي عليه من اللطف : ان اللطف أفضل من الجمال . وفي أثناء تمرنها على تمثيل دورها سمعتهم يلفظون اسمك وكان ذلك الاسم اللطيف يعبر عما يخالج ضميري . واني مع شدة شوقي الى رؤيتك سررت بتغيبك . وعندي انه لا ينبغي لك أن تظهري للناس بحضورك انك تمالئين على تفضيل هذه المرأة على الاميرة الاسبانيولية . وأظن انهم يسعون لتأليف حاشية لها من بعض النساء . واصرح لك بأن النفس حدثتني في فاتحة الامر بأن اهجر هذا المكان ليخلو الجو لتلك السيدة وللاضياف ولكنني خشيت أن ينسبوا الي الفظاظة والخشونة . ولا يذهب عنك اني شديد التعلق

بالاماكن التي تذكرني بك وسأظل فيها غير مبال بالمحاذير لان ذكراها عزيزة عندي . »

وذهبت على غير طائل جميع مساعي نابوليون لدى أخيه فان لوسيان أصر على عناده . وكان يريد أن يعلم جميع الناس أنه مستقل في تصرفه وان القنصل الاول ليس له عليه سلطة ما وانفذ اليه مورات ليتدخل في القضية وتدخل فيها أيضاً كباساريس ويوسف حاملين اليه رغائب القائد العظيم الشديد الحول والطول .ولكنه أصر على عزمه فأصبح في حال لا يرى له معها بداً من مفارقة أخيه . وكان نابوليون يشعر بعذاب أليم من جراء هذه المعاكسات المتوالية وقد حرمه خلافه مع لوسيان لذة النوم وأقض مضجعه . وقالت جوزفين انها كثيراً ما كانت تسمع زوجها في الليل يلفظ وهو غائص في لجة الكرى اسم أخيه لوسيان ويقول انه زاحف برجال الثورة الى التويلري ليخرجه منه عنوة ويطرحه في الشارع . وكان تارة يذكر اسم لوسيان وتارة اسم برنادوت وهذا ظل عدوا للقنصل الاول مضمراً عداوته حتى جاء حين جاهر بها فيه لما تضعضعت اركان الامبراطورية وأفل نجم صاحبها العظيم .

وكان لوسيان يشتد تشبثاً بعناده كلما طلبوا منه أن يوافق أخاه على رغائبه فأذاع اقترانه بأيم جوبرتو ولم يكتف بذلك بل كان يذهب معها الى الملعب الفرنسوي في الايام التي تملأ فيها السيدات النبيلات مقصورات الملعب فتبدو الى جانبه أيم جوبرتو بجمالها الرائع وملابسها الفاخرة وحلاها الثمينة . وكان يبذل كل ما في وسعه لاستمالة الشعب اليه بمناداته على رؤوس الاشهاد بأنه جمهوري شديد التمسك بغرز مبادئه وان أخاه الكثير المطامع يعمل على تقويض دعائم الجمهورية . وقد خرج ذات يوم الى مرج سان جرفه للتنزه بين الجماهير الغفيرة التي كانت تحترمه وتنوه بمحاسن زوجته الجديدة فيفتخر بذلك متباهيا ولكن أو ليس للجمال في باريس منزلة عالية يحج اليها القوم على اختلاف طبقاتهم .

وفي آخر الامر دعا نابوليون شقيقه لوسيان الى سان كلود فكانت مقابلتهما جازمة وقد هدمت فيها صروح المقاصد العظيمة التي شيدها ذلك الرجل العظيم المعلل نفسه بعودة أخيه اليه وقد أصر لوسيان على عزمه وأجابه : «أنا وزوجي

وابني وبناتي شخص واحد » وأقامت جوزفين تنتظره في الردهة مدة طويلة فلما عاد اليها انطرح في كرسي والاضطراب بالغ منه . وقد حفظت عقيلة ريموزا ذكرى تلك الليلة المحزنة .

وقال نابوليون لزوجته : « لقد قضي الامر فاني قطعت أسباب كل علاقة بلوسيان وطردته من حضرتي » . ولما توسطت جوزفين له قال لها : « ان طيب عنصرك يحملك على التوسط له . » ثم أنه نهض وعانق زوجته والقى رأسه على كتفها وقال لها : « لقد أصر لوسيان على غيه ولم يبال بتوسلاتي فلجأت الى الوعد والوعيد على غير طائل . والحال تقضي علي بالاعتزال عن معاشر البشر والتعويل على نفسي وعليك ياجوزفين فأنت سلواني . » وكانت العبرات تنهل من محاجر نابوليون حتى كادت تبل نحره وهو يفوه بهذا الكلام .

ويبين الرسم المحفوظ في المكتبة الوطنية والممثل أيم جوبرتو وهو منقول عن كانوفا طباع هذه المرأة التي ترك زوجها كل شيء وتعلق بها : فرأسها مستطيل وجبينها منخفض وعيناها كبيرتان ومفتوحتان وأنفها دقيق وناتىء وشفتاها رقيقتان تجري عليهما ابتسامة الاحتقار .

وبعد اشتداد الخلاف بين الاخوين لم يجد لوسيان ندحة عن مغادرة فرنسا فصمم على انتجاع رومية . وقد أدخر يوسف له حبه فجاء ليلة سفره الى منزله في باريس مودعاً وسهر معه في الردهة المحشودة فيها الصناديق المحتوية أمتعته . وحبس التأثر لسانيهما عن الكلام فجعل الواحد ينظر الى الآخر وهو صامت والافكار الكثيرة تزدحم في مخيلته وقد ساورته الكآبة . وكانا يستطيعان أن يذوقا طعم الهناء لو لم تهب رياح المطامع في صدر شقيقهما . ولكن لم يكن في اليد حيلة وقد برح لوسيان الديار الفرنسوية وليس له من مطمع بالرجوع اليها . وباع قصره من والدته بمليون من الفرنكات قبضها منها نقداً .

وتروى عنه عبارة مشكوك في صحتها فيقال ان انطلاقه المعجل ناجم عن انتشار خبر مقتل الدوق دنغان . وقد كثرت في ذلك الحين دسائس الحزب الملكي ومورو وبيشغرو فاتفق أن لوسيان دخل منزله في تلك الاثناء وقال لزوجته : « الفرار الفرار يا الكسندرين لقد ذاق طعم الدم ! » ولكن لا يعقل أن تكون هذه الرواية صحيحة فان عقيلة ريموزا المنتقدة انتقاداً مراً ذكرت أن القنصل

الاول ساوره غم شديد لعجزه عن تليين عجسة أخيه . واذا كان الامر كذلك فهل يصدق انه يقضي عليه بالموت ؟ والحقيقة أن قلب لوسيان كان شديد التعلق بعياله وكان يحافظ عليهم كل المحافظة على ماجاء في رواية أحد حفدته .

وكانت ثروة لوسيان في سنة ١٨٠٤ أي عند مهاجرته من فرنسا الى ايطاليا كما يلي :

دخل يقدر بمئتي الف فرنك من موارد مختلفة وخمس مئة الف فرنك مودعة في مصارف أميركا وخمس مئة الف فرنك مودعة عند احدى الشركات وخمسة وستين الف فرنك مرتباً سنوياً كعضو من أعضاء مجلس الشيوخ وخمسة عشر الف فرنك مرتباً سنوياً كعضو في الندوة العلمية على أن هذين المرتبين حبسا عنه في سنة ١٨١٠ . وكانت له أيضاً عقارات واسعة في سان شامان وقصر بريان الذي باعه لوالدته بمليون فرنك . وابتاع في ايطاليا عقارات باصانو وقصر لانسيلتي في رومية واشترى بمئة وخمسين الف فرنك قصر ميغز في رومية وروفيكولا أو تسكولوم في سنة ١٨٠٤ وقصر ميسين في تيفولي وروكا بريورا والدراغنسلا وأرض كانينو في سنة ١٨٠٦ البالغ ريعها السنوي ثمانين الف فرنك والا بولينا. ويضاف الى هذه الثروة الكبيرة الصور والتماثيل الكثيرة والتحف الفنية الثمينة التي كانت عنده ويرى القارىء والحالة هذه مقدار الثروة الطائلة التي جاء بها لوسيان من اسبانيا .

ومن أهم حوادث حياته انه ولد في اجاكسيو في سنة ١٧٧٥ وتولى رئاسة مجلس خمس المئة وجعل أمير كانينو وتوفي في فيتربي من أعمال ايطاليا في سنة ١٨٤٠ . وان أحد أولاده المدعو بطرس بونابرت ولد في رومية في سنة ١٨١٥، وتوفي في سنة ١٨٨١ وهو والد البرنس رولان الذي ولد في سنة ١٨٥٨ .

لويس بونابرت

كان لويس بونابرت ثالث أخوة نابوليون غلاماً لين الاخلاق لطيف الطباع ميالا الى الدرس . ولما عاد نابوليون من كورسيكا الى اكسون المقيمة فيها الحامية المنتظم هو تحت لوائها جاء اليها بأخيه لويس . فكان الفتى يرقد في غرفة أخيه ويشاطره طعامه وشرابه وكان نابوليون يأمل أن يربي أخاه هذا على المبادىء الميال هو اليها . وأعده لدخول فرقة المدفعية لاعتباره الخطة العسكرية من أشرف الخطط وأفضلها وماعدا ذلك لم يشأ أن يعلمه الا ما يحسن هو معرفته . وكان الاخوان يعملان في الغرفة نفسها جنباً الى جنب . وكثيراً ماكان لويس يسر شقيقه بنسخه له صوراً خطية لأن نابوليون لم يكن يحسن تنميق الخط وعلى هذه الصورة كان كل منهما مبتهجاً بالآخر وعاضداً له في وقت ضيقه وحاجته . وكان الاخلاص شعاراً للويس . وقد نم لاخيه يوسف في كتابته له بما فطر عليه من كرم الجبلة . وأراد ذات يوم أن يرسل اليه اربة من الحرير ولما كان قد مضى على رؤيته اياه زمان طويل كتب اليه ما يأتي . « اني وماتريد فاطلب مني المسير اليك فأوافيك في الحال وأقيم عندك اذا راقك ذلك . فأنت بعد نابوليون أعز جميع اخوتي . » وكتب عنه نابوليون وهو في اكسون مفتخراً به : « انه سيكون أفضلنا نحن الاربعة وقد تعلقت جميع النساء في هذه البلدة بأهداب حبه وصار يحسن اللهجة الفرنسوية وامتاز في معرفة أساليب الدخول في الالفة الاجتماعية : فكان يدخل بخفة حركة ورشاقة ويحيي ويفوه بما يجب أن يفوه به من الكلام وحين يخرج يرى الانسان انه راق جميع الحضور . »

وكان من المقضي عليه أن ينجز دروسه قبل أن يرتقي الى درجة ضابط فأدخله نابوليون مدرسة شالون فأقبل لويس على الدرس بجد عظيم بحيث سر منه رئيس المدرسة فكتب الى أخيه يوسف ماخلاصته : « اني مسرور من لويس وهو سيحقق آمالي فهو فتى من أفضل الفتيان : رشيق الحركة متوقد الذهن قوي البنية حسن الصحة شديد العارضة سديد الرأي كريم القلب . » على أن الكتب والرسائل المنسوجة برودها في عهد القنصلية على منوال حياة ذلك الشاب تبين ان بين الاخوين مشابهة شديدة بيد أن نابوليون كان يمتاز عن



أقامة الأمبراطور فى جزيرة البا سنة ١٨١٤



شقيقه لويس بقوة نظره وعلامات السلطة البادية على وجهه .

ولما انطلق نابوليون الى ايطاليا لقيادة الجيش فيها استصحب معه أخاه لويس اليها وجعله حاجبا له . ولم يكن للويس سوى ست عشرة سنة من العمر ولكنه كان مع حداثته جريء القلب في ميادين القتال شديد الاقدام وغير مبال بالمتالف والمعاطب . وكان نابوليون يعامله كما يعامل حجابه الآخرين قاذفاً به الى ساحات الروع من دون أن يثبطه عن ذلك شيء من الخوف من أهواء الأقدار . واضطر نابوليون في معركة أركول الى ارسال أمر الى قائد يقاتل في موضع تحصد فيه قنابل الاعداء جنود الفرنسويين حصداً فاختير لويس لتلك المهمة . فسار وعاد سالما وأوقف أخاه على نتيجة مهمته برباطة جأش نادرة . فدهش نابوليون من جرأته وعلق عليه الآمال الكبيرة في المستقبل . وقال له: خيل الي انك وردت مورد الهالكة .

ولما عقد الصلح لم يشأ لويس ان يفارق أخاه نابوليون فأقام معه في باريس وكان رفيقاً لطيفاً حسن المعاشرة جيد القلب كريم المهزة . وفي خلال اختلافه الى منزل عقيلة كمبان في سان جرمان لزيارة شقيقته كارولين أبصر أميلي دي بوهرنه نسيبة جوزفين ورفيقة أخته في المدرسة فعلقها وتصباها وأكثر من التردد على ذلك المكان لمشاهدتها . ولما كان نابوليون غير راض عن اقترانه بها بادر فزفها الى شامان لافاليت أحد حجابه . وعلى أثر ذلك تقررت حملة مصر فتطوع لويس فيها ورافق شقيقه الى أرض الفراعنة .

وأصابت لويس علة ناهكة في القطر المصري خفيت حقيقتها على نطس الاطباء فاضطر الى العودة الى فرنسا للتداوي . ولما خيم ظله في باريس سعى لاستمالة الحكومة الى الجيش المقاتل في الديار المشرقية ببسالة وجرأة عظيمتين . وكانت العلة تشتد وطأتها عليه شيئاً فشيئاً وناله من جراء ذلك اكتئاب مقيم وتجهم دائم . ولم يكن يهمه إلا أمر صحته فلم يترك علاجاً من العلاجات الموصوفة له إلا واستعملها حتى انه لبس أقمصة كان المصابون بالجرب يلبسونها .

ومع ما صار اليه من تلك الحال السيئة لم يترك الجندية . وحالما ارتقى نابوليون الى درجة قنصل أول جعل هو قائداً لفصيلة الدراغون الخامسة ثم جعل كولونيلا لهذه الفرقة فأرسل الى فرنويل لتولي قيادة حاميتها ولبث فيها

حتى استتبت الاحوال في أقليم الفنده . وقبل ذلك بقليل من الحين ألقى الجنود القبض على أربعة من زعماء الملكيين المحرضين على الفتنة وجاؤوا بهم الى مركز الحامية فمثلوا أمام مجلس حربي حكم عليهم بالموت رمياً بالرصاص . وألح قائد الفرقة على لويس بونابرت الكولونيل بأن يترأس المجلس المذكور . فأبى لويس إجابة طلبه مشدداً النكير على ذلك الحكم وعلى تعجيل اجرائه . وأنفذ رسولا الى القنصل الأول برسالة يطلب بها العفو عن المحكوم عليهم فتأخر الرسول عن العودة بالجواب في الأجل المعين وتمت تلك المأساة الفظيعة فدخل لويس غرفته وقضى فيها بياض نهاره وسواد ليله علامة الحداد وأمر ضباطه بأن يحذوا حذوه . ويذكر هذا الحادث في السفر الذي دون فيه تذكارات هولندا وقال انه من ذلك الحين ابتدأ ينفر من الخدمة الجندية .

ولم يكن نابوليون ينظر بعين الرضى الى أطوار أخيه لويس الغريبة التي نفرت منه جميع الناس فاقترح عليه أن يباشر رحلة في المانيا رجاء أن يروح نفسه وينسى ما نزل به من الداء المبرح فوافقه لويس على اقتراحه وشخص الى المانيا فزار المدن الكبرى في تلك البلاد ونزل في برلين واستقبل في بلاط ملك بروسيا ونظر اليه فيه بعين الاحترام . ولكنه ما أبطأ أن هاج به الحنين الى الوطن فاسرع في العودة الى باريس وجعل يكثر من التردد على المالميزون والمواظبة على معاشرة هرتنس دي بوهرنه . وكانت هرتنس بارعة في الجمال . ومع ذلك كانت افكار لويس موجهة الى فتاة أخرى لقيها في التويلري وهي الآنسة ليفيفر وقد اقترنت فيما بعد بالمسيو درسن في طروى .

وكانت العادة جارية في تلك الايام أن يستشيروا دهاقنة الطب في منبلياي فيشخص الانسان الى تلك المدينة ويقيم فيها ردحاً من الزمان يتردد في أثنائه على الاطباء ويعمل بموجب وصفاتهم ومشوراتهم . وظعن لويس الى منبلياي وتعرف فيها بالجنرال فرشفيل قائد الجند في تلك الناحية وتعرف أيضاً باسرة دوران سان موريس والاب كستو الذي شهد وفاة شارل بونابرت . واخرج لويس باشارة من ذلك الاب رفات والده المدفون في كنيسة الكردلياي التي تحولت الى كنيسة بروتسطانطية ووضع العظام في حق ولفها بالقطن وعاد بها الى باريس بعد ما كتب على ذلك الحق : « ساعة دقاقة » . ولما شيد له فيما بعد منزلا فخما

ملائماً لاسمه ومقامه وضع رفات والده في نعش وأقام له ضريحاً لائقاً به في حديقة قصره .

ولما كان لويس ميالا الى الابتعاد عن معاشر الناس ابتاع بيتاً في وسط حرجة ليس وكان ذلك البيت في خالي الحين يخص ليترمان ديتول زوج عقيلة دي بمبادور المنكود الحظ . وهناك ظل معذباً ولم يكن يبرح منزله الا ليزور المالميزون في بعض الاوقات الا انه كان يراسل دائماً أصدقاء مجهولين لم يذكر اسمهم قط . وكان اعز صديق له يدعى المسيو ميزنجير فهذا كان مستودع أسراره وكان هو يرسل اليه مكاتيب طويلة يودعها ما يساوره من العذاب والقنوط .

وانطلق لويس الى بريج للتداوي عند الاطباء وبقي في تلك الاثناء يراسل ميزنجير واحتاج الى المال فأرسل يطلب منه شيئاً من النقود . فحينئذ طلب ميزنجير من أمين صندوق الحكومة ارسال المال المطلوب فاستاء لويس من ذلك الامر لأنه لم يشأ ان يدري أحد من أصحاب المناصب شيئاً من أمره . وكان يحب ان يبقى كل شيء عنده سرياً وقد توهم انهم يرصدون حركاته وسكناته متعمدين جر الأذى اليه . ولم يقر له قرار ولم يسكن له فكر . وكانت أبواب الغرف في منزله موصدة ولم يترك سوى باب واحد مفتوحاً في كل غرفة . ويمكن القول انه سار على هذه الخطة خاضعاً لعوامل الوساوس والاوهام .

وكان يلذ له في غالب الأحيان ان يزور في باريس فيلسوفاً شيخاً يدعى أوربان دومرغ من أعضاء الندوة العلمية فيلتقي في ناديه منفال وأرنول وباليسو الشيخ . فيتباحثون في علم الأدب والروايات التمثيلية والفنون الجميلة فكان ذلك المريض الوهمي يجد بهجة شديدة في معاشرتهم . وكان ميالا الى علم الادب وقد نظم بعض القصائد والمقطعات وكتب بعض الروايات الجميلة ولكنه كان يحاذر ان يدع أحداً يطلع عليها .

وعمل بقدر استطاعته على الابتعاد في ذلك العهد عن المالميزون وحين كانت الحال تقضي عليه بغشيان ذلك القصر كانت جوزفين تحتفي به كل الاحتفاء لانها كانت تنوي أن تزف اليه ابنتها هرتنس . وحاذر لويس الوقوع في الاشراك المنصوبة له ولم يخف عليه أن مثل هذه الاشراك نصب لاخيه لوسيان من قبله ولم يجهل ما ذاع عن علاقات القنصل الاول السرية مع ابنة زوجته وفي

ذات يوم نهض لويس صباحاً وبرح المالميزون سراً ولحق بفصيلته المنطلقة الى سيوداد ردريغو لموافاة الجنرال ليكارك ووقف في أثناء الطريق في مون دي مرسان وحل ضيفاً على الحاكم فتقاطر أصحاب المناصب الى المثول بين يديه والتعرف به . ووقف لديه رئيس المحكمة وفتح صحيفة وشرع يتلو خطاباً افتتحه بهذه الكلمات : « أيها البطل الشاب الجريء . . . » وكان لويس ينفر من مثل هذا المدح والاطناب فطلب الصحيفة من الرئيس وقال له : « عرفت الغاية التي ترمي اليها في خطابك فأنت تمني أخي بكلامك وسأنقل اليه صدى عواطفك الكريمة عند عودتي وهو ولا مراء سيقدر عملك هذا حق قدره . . . » وكان بعض الحضور ينوون أن يخطبوا الخطب في مدحه فلما سمعوا كلامه أحجموا عما كانوا ينوون عمله . ولم يطل مقامه في سيوداد ردريغو شيئاً من تجهمه وكآبته فعاد الى باريس بعد أشهر ولم يطرأ عليه شيء من التغير . وبقيت أفكاره قلقة على صحته . وفي واقع الحال كان عقله مريضاً وليس بدنه . وقال نابوليون عنه وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « قد يكون للويس عذر على اضطراب أفكاره فقد كانت صحته متوعكة وقد طرأ عليه الانحراف وهو في مقتبل العمر وعرضت له أحوال سيئة سببت حلول السقام في جسمه وأثرت في عقله . وكاد يقضي من جراء هذه الحال وبقيت فيه تأثيرات العلة الناهكة التي نزلت به بحيث ظل كشحه مشلولا على التقريب . » وأوجست جوزفين خيفة من طلاق نابوليون لها لانه لم يكن له ولد منها ففكرت في أمر تثبيت مركزها باقتران لويس بابنتها وبتبني نابوليون للولد الذي يولد لأخيه من هرتنس فليس ليوسف سوى بنتين ولم يكن لوسيان يسلس قيادته لاخيه وقد رأت والحالة هذه أن الاخ الثالث يلائم مصلحتها أكثر من سواه فلم تبال بذبول نضارة لويس قبل ميعادها ولا بما هو عليه من الاخلاق المتقلبة وعدم الاكتراث لشيء من الاشياء . وقد أعمتها مطامعها ومصلحتها الشخصية عن رؤية المستقبل فلم تدخر شيئاً من شأنه أن يجذب ابن حميها الى المالميزون فأكثرت من اقامة الولائم والمآدب وبدت هرتنس في مرقص حافل بمظاهر البهاء ومجالي السناء فنشب لويس في حبائل دلالها وقد كتب في مفكراته التي دونها في هولندا ما كان من أمر استغوائه فقال ان امرأة أخيه دعته اليها الى احدى الزوايا بجانب النافذة ودلته على ابنتها المتدفق

ماء الجمال من وجهها فدنا منهما نابوليون وتألبا عليه ولم يتركاه حتى وافقهما على اقتراحهما . وكانت تلك الساعة ابتداء عذاب لم يفارقه حتى آخر نسمة من حياته . وكان له من العمر اثنتان وعشرون سنة . أجل أن جسمه بلغ أشده لكن عقله وطبعه لم يكونا قد كملا بعد . وكان ذا بساطة كبساطة الاحداث . وحدث أن زواجه أحدث فيه تغيراً بيناً فتأثرت صحته من جراء ذلك من دون أن يشعر بشيء ففقد جميع أسباب الراحة من ذلك الحين

وانه لأمر محقق ان لويس بونابرت كان تاعس الجد وان امرأته لم تكن أسعد حظاً منه . وقد شعرا في أثناء حفلة الزواج بنفور كان يجب عليهما أن يريا فيه عدم موافقة هـذا الزوج لهما . ومع ذلك رضيا بعقده ولم يأنسا من نفسهما مقدرة على اقامة النكير عليه والفرار من الحال السيئة المنتظر وصولها اليها . وكان جميع الحضور مبتهجي الفؤاد وعلامات الفرح والبشر منتشرة على جميع الوجوه وثغر المستقبل يفتر للجميع ما عداهما . وقصارى الكلام أنهما سلكا مسلك جميع الاحداث الذين يسعى والدوهم وأصدقاؤهم لاقناعهم بأن أفئدة الاشخاص المتقارنين لاتلبث أن تتحد اتحاداً لا تنفصم عراه .

ويروي أن القنصل الاول تردد ذات يوم في أمر زفاف هرتنس لأخيه لويس فأراد أن يزفها الى دوروك . لأنه شعر بأنه يميل اليها ولم تكن الفتاة تنفر من دوروك . فدخل بعد الغداء غرفة بوريان مؤملا أن يجد عنده دوروك . ولما لم يجده عنده سأله قائلا : أين دوروك ؟

— أظن أنه في ملعب التمثيل

— عند عودته قل له اني أعده بهرتنس وسيقترن بها ولكن أريد أن يتم هذا القران بعد يومين على الكثير وأنا أعطيه بائنة قدرها خمس مئة الف فرنك وأسميه قائداً للفرقة الثامنة وفي غد اليوم الذي يقترن فيه يسافر مع عروسه الى طولون وحينئذ نعيش مفترقين الواحد منا عن الآخر فأنا لا أريد أن يقيم صهري عندي . أخبرني هذا المساء ماذا يكون من جوابه لأني شديد الرغبة في انجاز هذه القضية .

— أظن أنه غير ميال الى هذا القران .

— بناء عليه ستقترن بلويس .

— وهل هي راغبة في ذلك ؟

— لا بد من اتمام هذا الأمر .

وحدث بعد ذلك أن عاد دوروك فأوقفه بوريان على ما كان من حديث القنصل الاول معه فقال دوروك : مادام الحال على هذا المنوال يمكنه يا صاح أن يبقي ابنته عنده . وهاءنذا منصرف . . . قال هذا وتناول قبعته وانصرف وهو غير مبال بما سمعه .

على أن متدبر هذا الأمر يشك في صحته من جهة نابوليون ولا سيما من جهة دوروك فقد كان هذا يتصبى هرتنس ويكتب اليها رسائل يوصلها اليها بوريان فتتلقى الرسائل وتقرأها بسرور جزيل وان لم تكن ترسل اليه الاجوبة عليها . وعليه كان يمكنه أن يأمل الانتهاء الى غاية أمانيه وهل يعقل أنه ينبذ بغتة جميع تلك الآمال حين يبتغي نابوليون التعجيل في عقد قرانه ؟ . . . فمن يطمع بمثل هذا القران لا يخضع لعوامل الأهواء الوهمية الغريبة بل بعكس ذلك يسر بتلك السرعة . ومع ذلك يستنتج من الصفحة التي كتبها بوريان في هذا الشأن ان رغبة نابوليون في تزويج لويس وهرتنس لا تقل عن رغبة جوزفين فيه ولكنه لم ينج من طائلة العذاب ووخز الضمير اللذين شعر بهما من جراء تدبيره ذلك القران الخالي من الموافقة

وكتب لويس بونابرت في هذا الغرض ان أفضل عذر لذينك العروسين هو حداثة سنهما وخلوهما من اختبار الحياة وبساطتهما . فقد كان الحياء متسلطاً عليهما ولكن هل يصح أن يطلق هذا الأمر على هرتنس ؟ فانها عارضت والدتها ورفضت الاقتران بابن روبل ولم تشأ أيضاً أن تزف الى الكنت دي مان الشاب لمعرفتها أنه من عشاق عقيلة دي ستال في ألمانيا ولكن لا بد من أن يكون لهرتنس من سبب غير الحياء يجعلها توافق والدتها وترضى بأن تدعها تتصرف بها على هواها . أجل أنها تدري أن لويس لا يلائمها وانها لا تلائم لويس ولكنها تعلم أنهما سيعيشان في ظلال بلاط تحف به المسرات والعظمة وانهما سيرتعان في بحبوحة الغنى ويصبحان معززين ومكرمين عند رجل عظيم تهيبه أوربا قاطبة

وعلاوة على ذلك اعمموها أن مستقبل أسرة عظيمة ووراثة سلطة سامية منوطان بها . أو تستطيع والحالة هذه أن تنبذ مثل هذه الاعتبارات الخطيرة وهذه السياسة الكبيرة؟ وقد كانت سلطة هرتنس على جوزفين تفوق سلطة هذه عليها . وكانت مستقلة في أميالها وأهوائها وقد اتبعت باقترانها بلويس مجرى مطامعها . والناظر الى صورتها المحفوظة في المكتبة الوطنية يرى في هيئتها لاول وهلة أنها من اللواتي تتسلط عليهن المطامع: فوجهها بيضي الشكل وشفتاها رقيقتان وأنفها ممتلىء ومروس وهذا الشكل يدل على شخص شديد الميل الى ركوب مركب الاعمال العظيمة . وانها بدلا من معارضة مقاصد والدتها بادرت الى الموافقة عليها إلا أن نكد طالعها جعل قرينها كثير الظنون مضطرب الافكار غريب الأطوار لا يلين مجسته لأحد من الناس ولذلك لم يسهل عليهما الائتلاف .

وهيأ نابوليون لاقامتهما قصراً صغيراً له في شارع شنترين فقضيا فيه شهر العسل . وأقيمت لقرانهما حفلات شائقة فأحيت عقيلة دي منتسون ليلة ساهرة اكراماً لها كان الخدام يلبسون فيها ثياباً تماثل الثياب التي كان يلبسها الخدام قبل الثورة الكبرى ولم يكن الناس قد شاهدوا مثل ذلك المنظر بعد الفتنة المار ذكرها . وكانت هرتنس تكثر من ملاطفة زوجها والتدلل عليه وترغب في الاستيلاء على عقله وقلبه فما لبث ذلك الزوج الشاب بعد ما رأى من افراطها في التدلل أن نفر من فرط تمسكها به وولاها صفحته وقال . انها لم تبالغ في إظهار التعلق بي الا لتخونني فيما بعد .

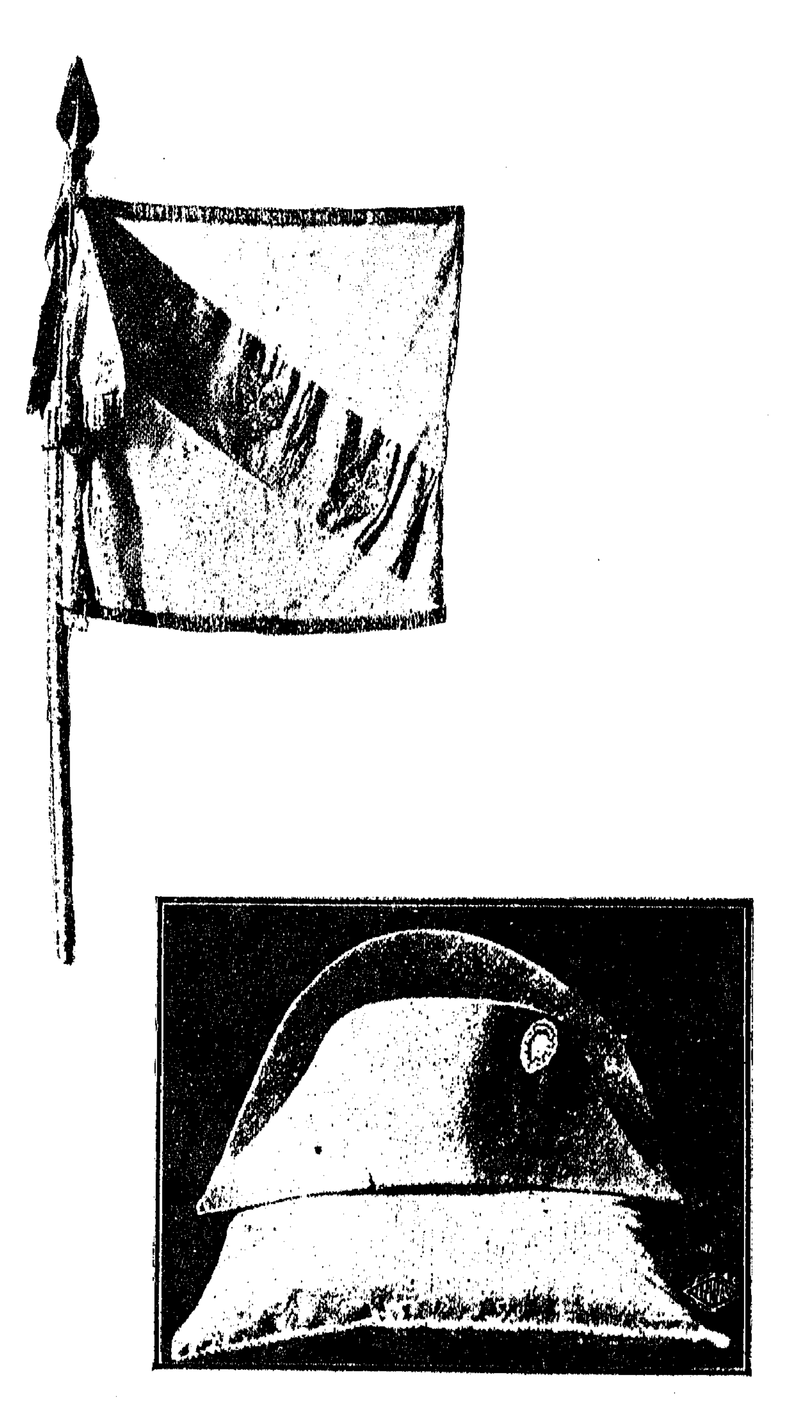
ولم يكن شيء يحول دون تقليب تلك الافكار في ذهنه فان اشقاءه المستائين من اقتران نابوليون بابنة بوهرنه ازداد استياؤهم من اقتران لويس بابنة جوزفين وخافوا من اشتداد تسلط أسرة بوهرنه على أسرة بونابرت وصاروا ينظرون اليها بمقلة الارتياب والنفور وعمدوا الى القاء الشقاق بين الزوجين وقضوا لبانتهم من التفريق بين لويس وزوجته

ولما انقضت مدة الاحتفالات وخلا الجو للزوجين حسر لويس اللثام عن حقيقة أخلاقه فبدا بعيد الغور متقلب الأهواء كثير الظنون مستبداً في رأيه وقال لزوجته أنها أصبحت من ذلك اليوم مندمجة في أسرة بونابرت ولم يبق لها

من علاقة بوالدتها . فاستاءت هرتنس من سماعها كلام زوجها ولاسيا لأنه لم يكن ثمة من داع الى ذلك ... فبأي شيء اساءت جوزفين الى لويس انها لم تأت شيئاً تؤاخذ عليه ولكنه صرح بلا مواربة بكل ما يعلمه عن حماته من الطيش والخفة والاسراف والعلاقات والاختلافات ومصالحتها لعشاقها . أو لا تذكر ما جرى في شارع شنترين امام باب الجنرال العائد من مصر ؟ وهل نسيت أن الجنرال أبى أن يفتح بابه وانه لم يفتحه الا بناء على التماس جوزفين وولديها وتوسلهم اليه بتذريف الدموع وان شاءت هي أن يحبها زوجها وجب عليها أن تقتصر على تولي العلاقات البسيطة مع تلك المرأة وأن تتجنب المسير بموجب مشوراتها الوخيمة المغبة . وهل نسيت أيضاً ماذاع مما لنابوليون من العلاقات بها مما يثير الشكوك بين الناس ويفسح المجال للقيل والقال فيريد وارادته لا مرد لها ألا ترقد تحت سقف البيت الذي يرقد فيه نابوليون

ما أشد ماشعرت به هذه المرأة من العذاب عند سماعها كلام زوجها المفعم اهانة فعرفت حقيقة الشخص الذي قرنت حياتها بحياته لأنه لم يكن يعتقد وجود فضيلة فكيف والحالة هذه تجمله يثق بصدق دخيلتها فلم يبق من سبب للوفاق بين ذينك القلبين . والى من تشكو حالتها ألى والدتها ... وكانت تحترمها احتراماً شديداً وتحبها محبة عظيمة فنبذت نبذ النواة ماسمعته من زوجها مما يتعلق بالقدح بها وآثرت كتمان حزنها في صندوق صدرها . وشعرت بأن حياتها انسحقت انسحاقا وانه لم يبق لها من مطمع بهناء العيش ورغده . فذوى ورد خديها وعلا الشحوب محياها وحصرت من ذلك الحين حبها في غرض واحد وقد قالت لعقيلة ريموزا في هذا الشأن : « لم يبق لي من غاية في الحياة الا سعادة أخي وغبطته . »

وكانت هرتنس في ذلك الحين ذات أخلاق طاهرة شريفة تحول دون اتيانها المنكر واقترافها المحظور . ويقول بوريان وجميع المعاشرين للقنصل الأول من الاصدقاء والاعداء على السواء انه لم يحدث بين نابوليون وابنة زوجته أقل إشارة تدعو الى تحريك ساكنات الظنون ومما يؤيد ذلك ما أذاعته عقيلة ريموزا من جميل المدح لصفات تلك المرأة الفاضلة فقد قالت ان هرتنس دهشت عند معرفتها أن النساء يخضعن لعوامل أهوائهن اكثر مما يخضعن لعوامل عواطفهن وان



قبعة نابوليون ورايته فى جزيرة البا



ضعفهن المقرون بالجريمة لا يتفق مع ميل قلوبهن ولم تجسر هرتنس أن تخاطب زوج والدتها فكانت تتهيبه وتلجأ الى بوريان ليتوسط لدى القنصل الاول ويحصل لها على ماتبتغي إصابته منه . ودونكم ماقاله بوريان في هذا الصدد : كانت تطلب مني أن أسأل القنصل الاول قضاء ماتريده من الحاجات وحين ألقى صعوبة لنيل غايتي أسميها له فيبادر بونابرت الى القول : ما أشد حماقتها ! لماذا لا تطلب مني ذلك بذاتها فهل تخاف مني هذه الفتاة ويقول بوريان : وكان نابوليون يشعر نحوها بحنان والدي منذ اقترانه بوالدتها فانه أحبها كأنها ابنته الحقيقية . أما المتحاملون عليها فانهم يزعمون أن شهادة بوريان غير صحيحة لانه كان شديد الهيام بها وكثير التزلف اليها وكان يلعب معها بالبليياردو ويدير أمامها ذكر دوروك ويسلمها مكاتيبه ويخرج معها الى التنزه راكباً جواده . فهل يمكنه والحالة هذه أن يذكرها بالقبيح

ما أضعف هذا البرهان وما أسخفه

وكان لويس من الأُلى يزعمون أن الرذيلة تنتقل بالأرث من السلف الى الخلف وقد قال ان ابنة جوزفين ستطأ أقدام والدتها وانه سيحمر وجهه خجلا في المستقبل من جراء جنوح زوجته عن الطريقة المثلى . وبعد قضاء لويس بضعة أسابيع مع زوجته غادرها حاملا وسافر منطلقا الى الانحاء الجنوبية وقد نبذ ذكرها من جنانه .

ولما رأت هرتنس أن زوجها هجرها جاءت الى المالميزون وأقامت فيه مدة اقامة والدتها فيه وكتمت أسباب حزنها الهائل بحيث اعتقدتها أمها سعيدة الجد . وكتبت اليها جوزفين من ليون « عانقي عني زوجك الذي أحبه حباً يقرب من الجنون . » وكانت عقيلة كمبان تباهي في كل مكان بالهناء والوئام السائدين في منزل هرتنس . بيد أن كنستان خادم نابوليون الخاص يروي أنه شاهد غير مرة تلك الفتاة مكتئبة وصامتة بين صديقاتها وعيناها محمرتان من الدموع المذرفة سراً وزوجها جالس في إحدى زوايا البهو مقطب الجبين باسر الوجه كأنه تمثال من الصخر الصلد لاتؤثر به كآبة زوجته المنكودة الطالع . وكانوا يظنونها معذبة لأنها لم تكن تفوه بأدنى كلمة تدل على حزنها المضمر فكانوا يرثون لحالها لما فيها من الصفات الكريمة المستميلة اليها جميع القلوب

وكان وجهها الصبوح يروق جميع الناظرين اليه وشعرها الأشقر يكلل جبينها باكليل من البهاء والجمال وقدماها الصغيرتان تفتنان الأنظار ويداها البيضاوان تخلبان الألباب وقامتها الرشيقة تأخذ بمجامع القلوب . وكانت تحسن الضرب على القيثارة وتحكم التصوير والرقص والتمثيل في الروايات الممثلة في ردهة المنازل الخاصة ولا سيما الأدوار الغرامية فيها . فهل يتعذر اذاً على من كانت مثلها أن تستميل اليها القلوب ويقول كنستان انها كانت أرصن من والدتها جوزفين وأشد منها تسلطا على نفسها بيد أن طباعها كانت ضعيفة

وأدخلت هي وابنة عمها اميلي دي بوهرنه من السنة الثانية عشرة من عمرها مدرسة عقيلة كمبان فكانتا من أول الطالبات اللواتي دخلن هذه المدرسة وقد برزتا على رفيقاتهما في جميع دروسهما . وكان من مصلحة عقيلة كمبان أن ترى هرتنس تكبر فتستفيد من ذلك . وبفضل هرتنس فوض اليها أمر تهذيب شقيقتي القنصل الأول : فان بولين اضطرت الى التعلم بعد اقترانها بالجنرال لكارك لانها كانت أمية وكارولين أصغر شقيقات نابوليون كانت تجهل الكتابة والقراءة. ولا يخفى أن المكاتيب التي كانت عقيلة كمبان تسيرها الى تلميذتها القديمة غريبة اللهجة ومنطوية على عبارات تدل على أخلاق يحسن بنا ألا نبقيها مكتومة . وهذا ما جاء في مكتوب أرسلته الى هرتنس الى التويلري : « لاتبرزي أبدا من النوافذ وضعي ستائر من الموسلين على ألواح الزجاج في فصل الشتاء ومن الجنفيص في فصل الصيف . فذوو البذاءة يأتون ويخطرون ذهاباً واياباً تحت نوافذك بعد رؤيتهم اياك في أحد المراقص . » وفي مكتوب آخر توصية أخرى تدل على تراخي الاخلاق في ذلك العصر فان عقيلة كمبان كتبت ما يأتي : « قبلي عني بشوق شديد عزيزتي كارولين وقولي لها اني التمس منها ألا تعطي علامات خارجية لمحبتها لزوجها العزيز حين تكون في الملعب معه فينبغي لها أن يحترما الجمهور المحتشد . » الا أن هرتنس لم تجاوب عقيلة كمبان على رسائلها فكانت هذه تشكو من صمتها وتكتب اليها قائلة : « لاتتخذي العادة القبيحة التي تتخذها نساء هذا العصر فهن لايحسن الكتابة الا حين يقضى عليهن أن يدبرن وقائع حفلة من الحفلات . »

ولم يخف شيء على نابوليون من حزن هرتنس المكتوم لمعرفته أخلاق لويس

وبالتالي علم ماسيكون من وراء قرانه بهرتنس . فساءه ذلك الأمر كثيراً وحين كان يبصر في المالميزون هيئة هرتنس الشديدة الاكتئاب كان يرثي لحالها ويسعى لتخفيف وطأة الشقاء عنها ويجاهر بالعطف عليها ويمنحها كل ماترغب فيه وتميل اليه . ورأى أن قصرها في شارع شنترين بسيط الظاهر تحف به جدران قاتمة فابتاع لها ولأخيه قصر درفيو من المسيو سيمون البلجكي قرين الانسة لانج . وكانت تحدق به حديقة غناء واسعة فيها من جميع أنواع الاشجار والرياحين .

وكان حبل هرتنس يتقدم شيئاً فشيئاً وقد بقي زوجها لويس متغيبا . وذاع أن هرتنس ولدت . وكانت الحال تقتضي تكذيب ذلك الخبر فألح عليها نابوليون مع ماهي عليه من تلك الحال أن ترقص في مرقص أقامه في المالميزون . ففي مفتتح الامر أنكرت طلبه ولكنه زاد في الحاحه ليتحقق الجميع ان ماذاع عن ولادتها غير حقيقي وان حبلها حديث العهد . ولكي يثبت حقيقة ماينوي اثباته نشر في صحيفة الديبا خبراً ذكر فيه ان عقيلة لويس بونابرت شاطرت الراقصين والراقصات الرقص في مرقص المالميزون .

وبقيت هرتنس عائشة وحدها مع والدتها بحيث أن الخدام كانوا ينسون موقفها الجديد وينادونها باسم الآنسة . وكان لها بأمر القنصل الاول موقف مستقل تجاه جوزفين : ففي السهرات تترأس جمعية السيدات وجماعة صديقاتها ومائدة من موائد اللعب منفصلة عن غيرها . واذا كان لها أعداء في أسرة زوجها فقد كان لها أصدقاء يتحاشون الاعراض عنها ويزيدون في احترامهم لها لمعرفتهم مايخالج فؤادها من حزن تحاذر افشاءه . وأخيراً ولدت غلاماً كان لها سلواناً في وحشتها وعزاء في مصابها . فصرفت كل عنايتها الى ولدها وكان القنصل الاول عراباً له فأحبه محبة شديدة وعزم على اتخاذه وارثاً له ووليا لعهده لأنه بصفة كونه قنصلا مدى الحياة يحق له أن يعين خلفه . فانكر لويس مقاصد أخيه وانقاد الى أخويه يوسف ولوسيان : فيوسف كان يطلب أن تقرر ولاية العهد له ولوسيان يتباهى باستقلاله ونفيه الاختياري في رومية .

وقال لويس لنابوليون : لماذا يجب علي أن أتنازل لابني عن قسم من ميراثك ؟ وما السبب الذي من أجله استوجبت الحرمان وماذا يكون موقفي حين يصبح هذا الولد الذي تتبناه أنت في مقام يسمو مقامي ويكون مستقلا كل الاستقلال

عني ويتلوك في المنزلة وربما يصير ينظر الي بازدراء . فأنا لا أرضى أبداً هذا الامر . ولأن أغادر فرنسا خير لي من تنازلي عن السيادة المعتبرة جزءا من ميراثك وطأطأة رأسي أمام ابني . وسنرى هل تتجرأ جهاراً على سلب الاب ابنه .

وكان عقل لويس مضطرباً كل الاضطراب من جهة زوجته بحيث أدت به الحال الى الايعاز الى خدامه بتجسس حركاتها وسكناتها فلا يصل اليها مكتوب من دون أن يطلع عليه زوجها قبلا . ولو تسنى له منعها عن الافتكار لما تردد في ذلك قط لما كان عليه من الانانية وسوء الخلق . وهو يقول في مفكراته انه في أثناء حكم أخيه لا يزيد عن أربعة أشهر مجموع المدة التي قضاها مع زوجته ومع ذلك ولد له منها ثلاثة أولاد كان يحبهم كثيراً بمقدار محبة والدتهم لهم .

ولما كان نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة وأدار رحى الكلام على أسرته قال عن لويس وهرتنس ما يأتي :

« ان هرتنس مع ما هي عليه من جودة القلب ومكارم الاخلاق وصدق المبادىء لا تخلو من الخطأ بحق زوجها وهذا أمر لا يمكنني نكرانه بقطع النظر عن مودتي لها وتعلقي الشديد بها . ومع غرابة أخلاق لويس وصعوبة مراسه كان يحبها وفي مثل هذه الحال يجب على كل امرأة أن تتمكن من التسلط على نفسها ومقابلة حب زوجها بمثله ولا سيما حين تقضي عليها مصلحتها بذلك . ولو استطاعت أن تكبح جماح عواطفها بشكيمة التعقل لكفت نفسها مؤونة الدعاوي التي أقيمت عليها ولقضت حياة سعيدة ولرافقت بعلها الى هولندا ولظلت حتى الآن مقيمة فيها ولما فر لويس من امستردام ولما اضطررت الى ضم مملكته الى مملكتي وهذا نجم عنه ضعفي في اوربا وربما حدثت أمور شتى غير هذه الامور التي ذكرتها . »

ولد لويس بونابرت في اجاكسيو في سنة ١٧٧٨ وجعل ملكا على هولندا من سنة ١٨٠٦ الى سنة ١٨١٠ وتوفي في ليفورنو في سنة ١٨٤٦ . وهو والد نابوليون الثالث .

وزوجته هرتنس ابنة الامبراطورة جوزفين من الكنت دي بوهرنه ولدت في سنة ١٧٨٣ وتوفيت في سنة ١٨٣٧ .

جيروم بونابرت

وكان جيروم أصغر اخوة نابوليون حدثاً في ابتداء عهد القنصلية وقد خرج من عهد قريب من المدرسة وأقام في التويلري عند أخيه وجرى على اهوائه من دون أن يهتم بأمر من أمور المستقبل وخضع بجملته الى سلطان الملذات. وكان ناعم الظفر لما هاجرت والدته من جزيرة كورسيكا في حالة متناهية في الشقاء. وخيل اليه أن التويلري كان في كل حين مقر أجداده وانه ولد سيداً عظيما وان حياته مماثلة لحياة أمير من الامراء. فان مال الى شيء فلا يلبث أن يسعى لنيل رغبته: وحدث أنه مر ذات يوم بشارع سانت أونوراي فأبصر في أحد المخازن علبة فاخرة مصنوعة من الذهب الابريز ومرصعة بالحجارة الكريمة فابتاعها بستة عشر ألف فرنك وأوعز الى صاحب المخزن أن يرسلها الى التويلري ويقبض ثمنها من حاجب القنصل الاول. فدفع دوروك ثمنها ولكنه في المساء أخبر القنصل الاول بأمر العلبة المذكورة. فنوى نابوليون أن يغلظ في الكلام لاخيه المسرف. وفي الغد دعاه نابوليون اليه وسأله عن الداعي لمشترى تلك العلبة بذلك الثمن الباهظ. فلم يكترث جيروم لتقطيب جبين أخيه وأمارات الغضب المنتشرة على محياه وأجابه من دون أن تنبض له فريصة أو تطرف له عين قائلا ابتعتها لاني أحب كل شيء جميل.

وكانت جوزفين تسر بخفة روح جيروم وتميل اليه وتعامله بتساهل لا مزيد عليه وتأخذه في غالب الاحيان معها الى المالميزون فيلعب في الحديقة مع هرتنس. وكثيراً ما تدعوه الى البهو لتشاهده صديقاتها الراغبات نظيرها في مداعبة ذلك البونابرتي الصغير والمسرورات برؤيتهن إياه يستشيط غضباً من تلك المداعبة. وكان جيروم يسر بتلك الالعاب اللطيفة ويعلم أنه يروق أولئك السيدات بحركاته وسكناته وأحاديثه وترك نابوليون أخاه جيروم عند جوزفين في أثناء معركة مارنغو فقضى ذلك الحدث في المالميزون أشهر الربيع والصيف وبقي كل حياته يتذكر تلك الايام السعيدة. واقتبس جيروم من معاشرته للجنس اللطيف لطفاً وخفة روح ورقة وظرفاً جعلته ممتازاً على أقرانه طول حياته. ولم يحسن أحد نظيره مخاطبة الغواني واستمالتهن اليه وسواء تسلسلت اليه هذه الهبة بالارث أو اقتبسها في بهو جوزفين يمكن القول أنه كان يفضل جميع اخوته في اصابة ميل

الجنس اللطيف اليه واستغوائهن فهو بكل معنى الكلمة زير نساء .

وآخراً استاء نابوليون من نوع معيشة أخيه المخنثة وكان ينوي أن يصير جيروم بحاراً وأن يركبه متن إحدى السفن مع أمير من أمراء البحر ليعوده تلك الخطة الخشنة . فنبذ جيروم رغبة أخيه ورغب في أن يكون حاجباً له كما كان أخوه لويس وأوجين بوهرنه من قبله وكانت تتعذر مماكسة نابوليون حين يقرر شيئاً من الاشياء فقال لاخيه : « أو أنت تبتغي أن تكون حاجباً لي يا أيها الفتى الغر فانتظر ريثما تخترق جسمك رصاصة من رصاص الاعداء . » وفوض أمره الى غنطوم فرافقه في سفرته البحرية الاولى .

ولم تغير هذه السفرة شيئاً من أخلاقه فكان كثيراً ما يبارز رفاقه وقد شاعت مبارزته لدافو الشاب : فتبارزا بالغدارات على أن يظل الواحد منهما يطلق غدارته بعد الآخر حتى يصيب قرنه فأصابت جيروم رصاصة في القص . ووجدوها فيه بعد ستين سنة عند تشريح جسمه بعد وفاته .

ويروى أيضاً عنه أنه وصل ذات يوم الى مائدة القنصل الاول وهو لابس حذاءه الطويل وقابض بيده على السوط عند رجوعه من التنزه . وكان نابوليون شديد التمسك بالمحافظة على الرسميات وآداب المجالس ففار ثائره على أخيه واندفع عليه بالتعنيف والتقريع . ويقول بوريان ان نابوليون مع شدة عطفه على أسرته وتعلقه بها وميله الى الصفح عن هفوات اخوته كان يسمي البحار الشاب « المعتر الصغير » وكان جيروم شديد العجرفة فكلما أداروا أمامه حديث البحر والملاحة يظهر بمظهر دعوى منكرة وذلك لكونه ركب البحر بضعة أشهر فيقول لجلسائه إنكم من جماعة المغفلين البله وأنتم تتوهمون أنكم تستطيعون الكلام عن البحر مع أنكم قضيتم حياتكم وأنتم جلوس على طنافسكم .

وركب البحر مرة ثانية فتوجه الى الانطيل ومنها الى أميركا وهناك تعرف بفتاة أميركية ارلندية الاصل تدعى اليصابات باترسن من بلتيمور فتعشقها وتزوجها من دون أن يحتفل بانذار قنصل فرنسا له . وكانت بارعة في الجمال حنطية اللون لطيفة الشكل خفيفة الروح رقيقة الشعور طامعة . وقالت إنها تؤثر أن تكون ولو يوماً واحداً زوجة شقيق القنصل الاول على كونها زوجة غيره مدى الحياة . وكانت واثقة بجمالها وبما لها من السلطة على عاشقها الولهان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأن تظل عقيلة بونابرت . وقد تمكنت والحق يقال من التحبب اليه واستمالته اليها ولكنها ما لبثت أن خابت آمالها فانها عند شخوصه الى أوربا عرفت أن برق هنائها خلب وأن زوجها أفلت من بين يديها : فانه لما ذهب لزيارة أخيه قال لها انه لا يلبث أن يعود اليها ولكنه لم يعد اليها قط . فقد هدم نابوليون صرح أمانيها ولم يكن لجيروم ما لاخيه لوسيان من الجرأة الادبية . فرضي بأن يمتثل لارادة أخيه نابوليون رئيس الاسرة ويطلق امرأته . وهذه أول مرة رأى نابوليون فيها أن أحد اخوته يذعن لمشيئته .

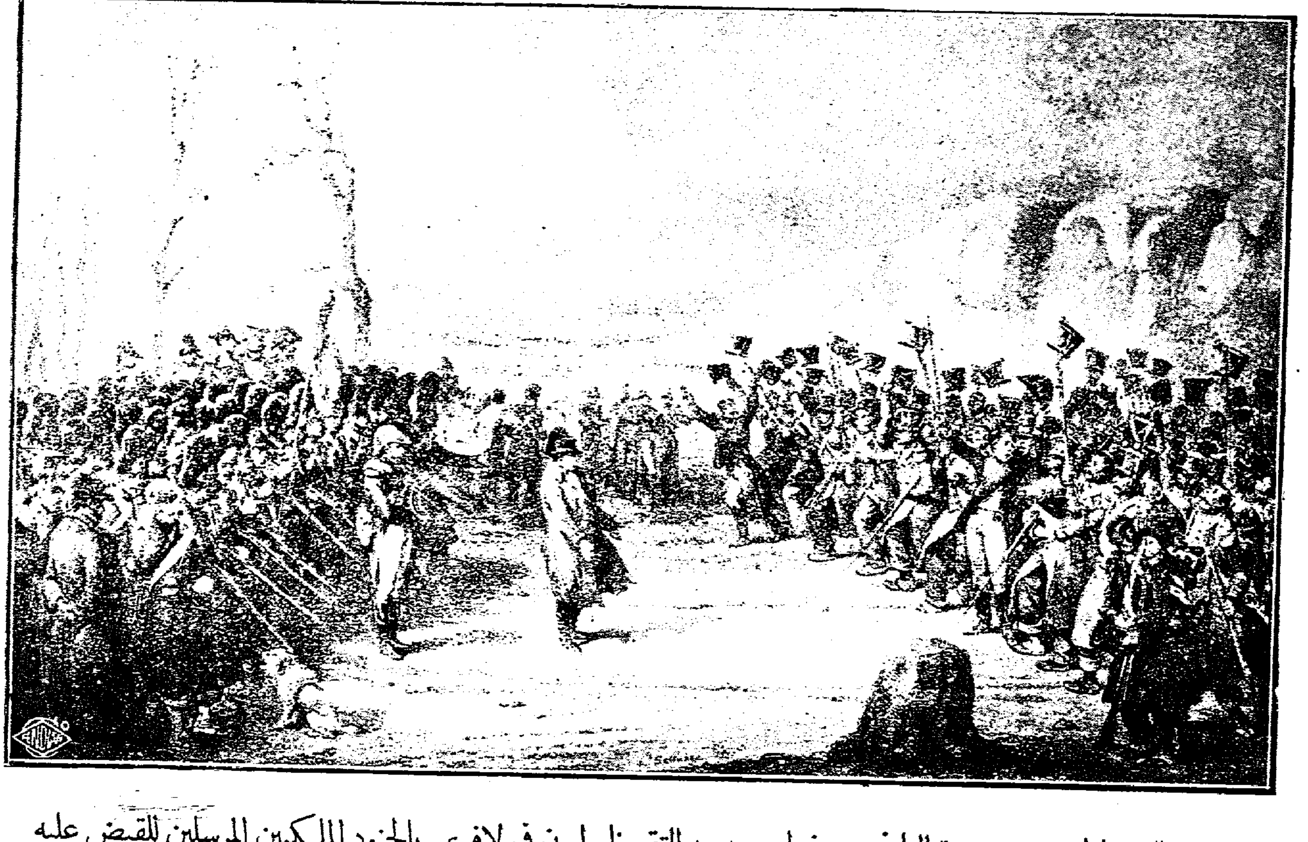
ولد جيروم بونابرت في اجاكسيو في سنة ١٧٨٤ وجعل ملكا على وستفالي من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨١٣ وجعل حاكما للانفاليد في سنة ١٨٤٨ ومارشالا في سنة ١٨٥٠ . وبعد وفاة زوجته الأولى اقترن في سنة ١٨٠٧ بالأميرة كاترين دي ورتمبرج وتوفي في سنة ١٨٦٠ في فلجنيس بولاية السين والواز . وابنته الاميرة ماتيلد ولدت في تريستي في سنة ١٨٢٠ وتوفيت في سنة ١٩٠٤ . وابنه الأمير نابوليون المدعو جيروم ولد في تريستي في سنة ١٨٢٢ واقترن بالاميرة كلوتيد ابنة فكتور عمانوئيل وولد له منها في باريس في سنة ١٨٦٢ الأمير فكتور نابوليون . على ان الفرع الأكبر من أسرة بونابرت يتألف من اختلاط اعقاب يوسف ولوسيان شقيقي نابوليون وهذا الاختلاط تم في سنة ١٨٣٢ بزواج زينابيد كريمة يوسف بشارل حول نجل لوسيان . وزعيم هذا الفرع هو الكردينال لوسيان بونابرت الذي أبصر النور في سنة ١٨٢٨ . وأما الفرع الثاني من الأسرة فانه يتسلسل من جيروم أصغر اخوة نابوليون وكان زعيم هذا الفرع الأمير نابوليون الذي توفي في سنة ١٨٩١ .

اليزا بونابرت

لايخفى ان شقيقات نابوليون كن كاشقائهن خاضعات لعوامل الرذيلة وشديدات التطلب ومتعبدات الملاذ . على ان اليزا كبيرتهن لم تنل من الحظ قسمة وافرة فانها كانت أقل جمالا من شقيقتيها بولين وكارولين وقدرضيت بأن تتزوج بضابط خامل الذكر يدعى فيلكس باتشيوتشي وهو رجل كورسيكي الأصل كان يقيم في مرسيليا في البيت الذي كانت تقيم فيه أسرة بونابرت . وكانا عائشين في شظف المعيشة ولولا مساعدة نابوليون لهما لذاقا من الضيق أشكالا وألوانا فانه انقدهما الثلاثين الف فرنك واستحصل لختنه التقدم في سلك الجندية وظل ساهراً عليه بعين يقظى . وكان نابوليون كلما ارتقى في مدارج العلاء وازدادت سلطته اتساعاً يرقي ختنه الخامل وآخراً عينه عضواً في مجلس الشيوخ حين أسندت اليه مقاليد القنصلية . واستصحبه معه الى مصر ثم أرسله الى الى كورسيكا ليتولى قيادة الجند في حصن بستيا . وبعد ذلك نقله الى سدان . ولما أرسل لوسيان سفيراً الى أسبانيا أخذ معه ختنه وجعله مستشاراً للسفارة . وعلى هـذه الصورة تملصت اليزا من زوجها الذي كان يضايقها أمام أصدقائها الذين يؤلفون عصابة من مشاهير الكتاب .

وانقضت حداثتها في مدرسة سان سير فقد دخلت تلك المدرسة بمساعدة وحماية المركيز دي مربوف الذي ساعد أيضاً شقيقيها نابوليون ولويس على دخول مدرستي أوتان وبريان . ولما أقفلت مدرسة سان سير بعد خلع لويس السادس عشر عاد بها نابوليون الى أسرتها . وكان من نتيجة درسها في تلك المدرسة المشهورة ومن أحاديثها مع أخيها لوسيان الذي كانت تقدر عقله وخلقه حق قدرها أن نشأ فيها احترام شديد لعلم الادب الفرنسوي وقد عضدت ذلك العلم لما أصبحت ذات مكانة عند القنصل الاول

وكانت منفصلة دائماً على التقريب عن زوجها وقد قضت معظم حياتها في بيت لوسيان . وهي الآمرة الناهية فيه فتستقبل فيه الفلاسفة والشعراء والصناع وتكرم وفادتهم وتسرف في ملاطفتهم وتجود عليهم بالمبالغ الطائلة من المال



رجوع الامبراطور من جزيرة البا فى ٢٦ فبراير ١٨١٥ التقى نابوليون فى لافرى بالجنود الملكيين المرسلين للقبض عليه فانضموا اليه وصاحوا جميعهم « ليحيي الامبراطور »

مساعدة لهم . وبعد وفاة كرستين بواياي ودخول عقيلة جوبرتو منزل لوسيان وحلولها فيه حلول الفاتح المنتصر افترقت اليزا عن أخيها الذي كانت تحبه محبة شديدة وتمالئه على جميع مقاصده . وقد اتحدت معه لمناوأة جوزفين وجميع أفراد أسرة بوهرنه وفوشه المنتصر لامرأة أخيها . ويتهمها فوشه في مفكراته بأن لها اليد الكبرى في اسقاطه من منصبه بالاتفاق مع يوسف ولوسيان . ويزعم أعداؤها انها كانت قبيحة الصورة كبيرة الجثة هزيلة البدن أما أصدقاؤها فانهم لا يصفونها بالجمال ولكنهم يطرئون عقلها وذكاءها ودهاءها السياسي وقوة ارادتها الثابتة . وبعضهم يقول أنها شديدة المشابهة بأخيها نابوليون والبعض الآخر يقول أنها تشبه شقيقتها لوسيان على أن الحقيقة هي أن جميع البونابرتيين متشابهون في الهيئة . ويندر أن يرى الانسان أولاد أم واحدة يتشابهون كما يتشابه أولاد لاتيسيا بونابرت . وكانت اليزا سمراء اللون ذات شعر جميل وعينين براقتين ووجه ترتسم عليه آيات الذكاء والنجابة . على أن لاليزا صورة صغيرة في فرسايل لا تنطبق كل الانطباق على وصف معاصريها لها أجل أنه لايستدل من هذه الصورة أنها كانت جميلة ولكن الهيئة الممثلة فيها لاتدل على أنها كانت من الخاضعات لعوامل الشهوات العنيفة التي وصفوها بها ومع ذلك كان لها عشاق كثيرون يهيمون بها ومن جملتهم هنغرلو الصيرفي وفنتان الذي لم تفترق عنه قط . ولما تولت الحكم فيما بعد في تسكانيا كان من جملة عشاقها قضاة وحجاب وبعض الخدام الخاملي الاصل .

ولا يخلو الامر من تحامل شديد عليها في ما يتعلق بأخلاقها التي وصفوها فيها بالفساد . بيد ان فنتان بقي دون سواه متمسكا بأسباب صداقتها ولولا تلك المرأة لضاع بين جماعة الكتاب المعاصرين له لأنه لم يكن من أصحاب الشهرة الواسعة . وقد عرف الطريق الذي ينتهجه ليصيب رضى اليزا ويستميلها اليه . فجعل عضواً في مجلس النواب ثم رئيساً للمجلس الاشتراعي وقد نال مانال بفضل اليزا وحمايتها له وكان كل شهر يقبض ماعدا مرتبه الخاص خمسة آلاف فرنك من صندوق القنصل الاول الخاص ومرجع الفضل كله الى اليزا .

وتمكن ريناي دي شاتوبريان الشاب من الحصول على رضى اليزا بونابرت بواسطة فنتان واكتساب حمايتها فأرسلته الى رومية كاتباً للكردينال فش سفير

الحكومة الفرنسوية لدى الكرسي الرسولي . وقدمت هي لحكومة القنصلية التقرير الذي وضعه هذا الكاتب وضمنه جنوح رئيسه عن الطريقة المثلى وما كان عليه من الحماقة المنكرة . ودفعت أجرة عربة شاتوبريان وأنقدته المبلغ اللازم لطبع مؤلفاته وأبقته في رومية مع ما كان من الحادث الذي جرى له مع عقيلة بومون التي وصفها هذا الشاعر بكونها عاشقة والهة مع انها لم تكن على شيء مما وصفها به . وبعد ماغضب القنصل الأول على دي شاتوبريان بسبب ما كتبه عن حادثة الدوق دنغان تمكنت اليزا من تخليصه من سخط نابوليون وانتقامه .

وزعمت اليزا انها محرزة موهبة العلوم والفنون وكانت على مثال أخيها لوسيان تمثل روايات كورنايل وفلتير بلهجة كورسيكية جعلت أخاها نابوليون ينتقدها ويقول انه لم يسبق لأحد قبلها ان يهين اللغة الفرنسوية بمثل اهانتها لها .

وبقيت اليزا تبرز للناس في الهيئة الاجتماعية وتترأس الجمعيات العلمية الأدبية زاعمة أنها محامية العلوم والفنون . وقد انتحل لها شاتوبريان هذه الصفة اقراراً لها بالمعروف . وكان من وكدها ان ترتدي ملابس تحاكي الملابس التي يصورون إلهة الشعر مرتدية بها وتضع على رأسها أكليلا من الغار كالاكليل الذي يصورونه على رأس بترارك ومفرق الدانتي .

وقال نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة : « وكانت اليزا من حداثتها ذات أنفة واستعلاء واستقلال في الرأي . وقد ناصبت كلا منا من دون ان تلين مقادتها لاحد . وهي ذات عقل راجح وهمة لا تدنو منها الملالة » . وهي تفضل شقيقتيها في تمكنها من التسلط على نفسها وكتمان ما يجول في خاطرها . ففي وليمة أقيمت في سان كلود بعد اعلان الامبراطورية ببضعة أيام وبعد اعطاء نابوليون كلا من ذوي قرباه اللقب الذي رآه موافقاً له أبدت شقيقات العاهل الجديد استياءهن من سماعهن لقب « أميرة » يطلق على هرتنس دي بوهرنه زوجة شقيقهن لويس . أومثل ابنة بوهرنه تستحق لقب أميرة ! . . . واليزا زوجة العضو باتشيوتشي وكارولين زوجة المارشال مورات لا يطلق عليهما لقب شريف ولا تصيبان منزلة سامية وكانت كارولين أشدهم استياء من تلك الحال . أما اليزا فانها تجلدت وأبدت الاحتقار والأنفة وأسمعت من يخاطبها قوارص الكلام . وتقول عقيلة

دي ريموزا التي روت هذه الحادثة انه لما بلغ الأمر غايته وضاق صدر نابوليون عن سماع تلك الأحاديث قال لشقيقاته : « ان الناس والحق يقال يزعمون بحضرة السيدات اني حرمتكم قسماً كبيراً من تركة والدنا الملك المتوفى »

وقد ولدت اليزا في أجاكسيو في سنة ١٧٧٧ واقترنت كما ذكرنا بفيلكس باتشيوتشي الذي جعل أميراً على لوك وبيمبينو وتوفيت في تريستي في سنة ١٨٢٠ .

بولين بونابرت

كانت بولين بونابرت بما رزقته من جمال الصورة وطلاقة المحيا تجعل الناس يكثرون من إطالة اللسان على سيرتها وآدابها بيد انها كانت في الحين عينه تستميل اليها فريقاً كبيراً من المعجبين بنضارتها وحسن رواتها . وكان لها عند البعض عذر بما نالته من الملاحة والقسامة . ولم يضن عليها معاصروها بالمديح والاطراء وقد صنع لها كانوفا تمثالا من الرخام يعد أفضل ما نحتته اليد البشرية.

وكانت بولين في أثناء حداثتها تمرح لاهية وتفعم بالبهجة قلوب جميع الذين يبصرونها . ولم تدع الهموم والاحزان تبلغ منها بل كانت تغتنم الفرصة من الحاضر وتستسلم لاهوائها من دون ان تعاكس رغبة أو تذعن لأمر. ولا تفعل إلا ما يروقها ولو كان في ذلك معارضة لمشيئة أخيها نابوليون الذي لم تنقد لرغائبه إلا حباً له ليس إلا . وقيل أن تقيم أسرة بونابرت في مرسيليا عند قدومها الى فرنسا من جزيرة كورسيكا نزلت في مكان يدعى أنطيب تحيط به بساتين غناء وحدائق جميلة تكثر فيها الفواكه اللذيذة . وكثيراً ما كانت بولين تدخل تلك البساتين والحدائق لتسرق منها ثمارها . وكانت فتيات الأسرة يذهبن الى السوق لابتياع حاجاتها وفي أثناء الطريق يلتقين بالفتيان الذين يدنون منهن لمغازلتهن ومداعبتهن وهذا ماجعل باراس يقول ان بنات السيدة لاتيسيا وضعن بالمزاد محاسنهن الحديثة النشأة . على ان مايرويه باراس لايمكن اثباته لانه منقول عن خصوم نابوليون . ومع ذلك احبّ بولين المتفوقة على اليزا في الجمال تاجر صابون غني يدعى بيلون ولو رضيت والدتها الاقترن بها وعلق بها أيضاً فريرون

المندوب من قبل الديركتوار للتوجه الى مرسيليا فهذا جعلها تتصباه وتبادله رسائل الغرام . ومع ان لفريرون ثلاثة أولاد رزقهم من راقصة من راقصات الاوبرا صمم على تذليل جميع المصاعب الحائلة دون حصوله على بولين التي حلفت له بالمغلظة على المحافظة على حبه إلا ان الجنرال بونابرت اعترض على اقترانها به فأذعنت بولين لارادة أخيها .

ورأى جميع أفراد الاسرة انه يجب تزويج تلك الفتاة فضى بها الاب فش الى ممباو في ايطاليا وكان أخوها نابوليون يبتغي أن يزفها الى الجنرال لكارك المتيم بها على مثال جميع الذين شاهدوها وحادثوها فسكروا بسلافة كلامها . وتم عقد الزواج بسرعة . وكان نابوليون يحترم الجنرال لكارك ويقدره حق قدره وقد كتب عنه وهو في جزيرة القديسة هيلانة مبدياً فيه رأيه فوصفه بأنه من أفضل رجال الجندية وانه من رجال الادارة الممتازين ومن رجال السياسة المحنكين .

وكان الجنرال لكارك يعمل دائماً على تصيير ختنه في ملابسه وحركاته وسكناته وقد كان جسمه مماثلا لجسم نابوليون في الرقة والقامة : على ان الجنرال طيابول يقول ان نظر نابوليون الحاد لا يستطيع أحد ان يقلده فهو بمثابة سهام تجرح المرشوق بها بحيث لا يرى في نظر لكارك ما يرى في نظر نابوليون من القوى والكهربائية الشديدة . وأراد لكارك أيضاً ان يقتدي بالجنرال بونابرت في الكتابة ولكن فاته ان الكتابة تمثل الكاتب وهل كان لنابوليون من ند في ذلك العصر فهل رضيت بولين ان تقترن بذلك الرجل لكونه شبيها بأخيها نابوليون ولم تجفل من دخول مدرسة عقيلة كمبان لانجاز دروسها في خلال تولي زوجها قيادة الجيوش التي وكل اليه القنصل الأول قيادتها .

ولما خرجت من المدرسة وجعلت تتردد على الاندية الباريسية شخصت اليها جميع الابصار وأكثر القوم من التحدث عن جمالها الرائع فحسدتها الغواني . وكانوا يرصدون كل حركة من حركاتها ويرهفون آذانهم لسماع كل كلمة من كلامها وينظرون الى الملابس المرتدية بها . فقد كانت تلبس ثياباً فاخرة على زي لطيف يخلب الالباب ويزيد في بهائها الفتان . إلا ان عيباً صغيرا في جسدها أحزنها ذات يوم حزناً شديداً وتحرير الخبر انها دعيت مرة الى ليلة راقصة عند عقيلة

دي برمون وكانت لابسة ثوباً ثميناً . فدخلت احدى الغرف لتستريح وهي تتباهى بجمالها وباعجاب الناس بها . وكانت عقيلة دي كنتاد احدى السيدات المشهورات بالتأنق في عهد الديركتوار وعهد القنصلية قد بلغت منها الغيرة فسمت لايجاد ذريعة تتمكن بها من كبت تلك المزاحمة التي استمالت الرجال عنها اليها . فتأبطت ذراع أحد أصدقائها ودخلت معه الغرفة الجالسة فيها بولين على عرش جمالها وقالت لرفيقها بصوت عال : « ياالضيعة الأمل انهذا الجمال الفتان تشوهه أذناها . » وكان لبولين أذنان قبيحتان فاستاءت كل الاستياء من تلك الملاحظة غير المنتظرة وغادرت المرقص بنفس حزينة حتى الموت وعبراتها تتماطر من محاجرها .

وكانت شديدة الاعجاب بجمالها الرائع ويروى أنها لما عادت من ايطاليا بعد اقترانها بالبرنس برغيزي كانت تستسلم بجملتها الى وصيفاتها ليلبسنها ثيابها وتستقبل صديقاتها وهي عريانة وكثيراً ما تنهض وهي على تلك الحال وتخطر في طول الغرفة وعرضها أمام الجميع باسطة لديهن محاسنها المخبوءة وكل ذلك تفعله بوقاحة ما عليها من مزيد . ويقول كنستان انها كانت تفعل ذلك الأمر كأنها مرتدية بجميع ملابسها .

واعتبرت المعيشة في باريس قبلة أمانيها والتدلل غاية آمالها وقد نشبت باشراك حب لافون الممثل المشهور في الملعب الفرنسوي . ولما كان لافون يمثل دوراً مهماً في احدى الروايات في الملعب كانت بولين وكارولين شقيقتها الصغرى تشهدان التمثيل فلا ترفع عينيها لحظة واحدة عن هذا الممثل المحبوب الذي تهتكت في حبه كما تهتكت من قبل بحب فريرون الآنف الذكر . والممثل في نوبته لم يشخص دوره الا اكراماً وحباً لها ولم تفارق عينه المقصورة المقيمة فيها بولين . ولما ذاع أمر مرافقتها لزوجها الى سان دومنك قالت الآنسة دوشنوى : « ان لافون لا يطيق هذا الفراق المؤلم وقد يكون مجلبة لحتفه . » ولكن لافون لم يمت من جراء الفراق وبولين في دورها لم تمت أيضاً . اذلا يخفى ان مثل هذا الغرام المبرح لايلبث أن تخمد نيرانه المضطرمة .

وأرسل نابوليون الجنرال لكلرك الى تلك الجزيرة الكبيرة المرفوعة فيها ألوية العصيان طامعاً بأن ختنه المشهور بحسن ادارته ودرايته يضرب بيد من حديد على أيدي الثائرين وراغباً بأن يمهد له السبيل لاصابة الثروة . وفي مبتدإ الأمر أبدت بولين النفور من شخوصها الى تلك البلاد المتوحشة التي تكثر فيها الافاعي ولا تلقى فيها الفة اجتماعية ولا سلوى ولا مراقص ولا احتفالات تبرز فيها السيدات أسرار جمالهن ودلهن . فأنذرها أخوها بأنه يضطرها الى السفر ولو ألجىء الى حملها الى متن السفينة . ثم انه لجأ الى طريقة أخرى وهي أنه حرك ساكنات ميلها الى العظمة والمجد الباطل بقوله لها انها تعيش في الجزيرة كملكة كما تعيش جوزفين في باريس

ولما كانت تلك المرأة تعلم أن ارادة أخيها لامرد لها لم تجد لها بداً من الانقياد لمشيئته وتوسلت بجميع الوسائل لاقناع بعض صديقاتها بمرافقتها الى ذلك الصقع الشاسع وفي حديث دار بين عقيلة جونو وبولين بدت جميع أطوار هذه المرأة الغريبة فان عقيلة جونو قالت لها أنها ستكون فتنة للناظرين وهي لابسة الثياب التي تلبسها الخلاسيات . فقالت بولين : وهل تظنين أن تلك الثياب تلائمني واني أكون فيها أجمل مما أنا عليه الآن ؟ . . . وقالت عقيلة جونو : « ولا بد من أن يتصور القارىء ما بدا من عقيلة لكارك من ابتسام الثغر عند تصورها أنها ستظهر بمظهر الجمال بملابسها الجديدة وقد نسيت أنها ستنطلق الى بلاد تخشى أن يفترسها فيها السكان المولعون بأكل لحوم البشر وألحت علي في ذلك اليوم بمرافقتها الى الجزيرة البعيدة قائلة لي : وسنقيم فيها المراقص ونخرج للتنزه في الجبال الجميلة وكأنها نسيت الأفاعي والاشخاص المتوحشين ... وقالت ان جونو يتولى قيادة حامية العاصمة التي أجهل اسمها . وسأقول للكلرك أن يقيم حفلة كل يوم وسنأخذ معنا عقيلة برمون . وكانت وهي تخاطبني بمثل هذا الكلام تفرك أنفي وتجذب أذني وتضع في بعض الأحيان يدها على بطني . »

وقضت في سان دومنك عيشة تحاكي العيشة التي كانت تتصورها فبينا الجنود يقاتلون ببسالة وشجاعة ويضطرون الزنوج الثائرين إلى الاذعان لسلطة فرنسا لم تفكر بولين الا بالملذات وصنع المربيات وارسالها إلى أسرتها . وظهر بغتة الداء الرهيب الشديد الفتك بالبيض في البلدان الحارة وهو داء الحمى

الصفراء فتفشت بين الجيش الفرنسوي وذهب عدد كبير منه ضحية لها . فألح لكلرك على زوجته بالعودة الى فرنسا فأبت إجابة طلبه وأبدت جرأة عظيمة قائلة له « : اني أبقى في هذا المكان أو لست شقيقة الجنرال بونابرت ؟ فليهرب من يشاء الهرب من هذا المكان أما أنا فاني أبقى فيه ولا أخاف شيئاً : » وفي واقع الحال بقيت بولين في سان دومنك من دون أن تغير شيئاً من أطوار معيشتها ولم تبطل ارسال المربيات الى ذويها واقامة الحفلات الشائقة حال كون المستشفيات تغص بالجنود المصابين بالحمى . وفي آخر الأمر أصيب الجنرال لكارك بذلك المرض وتوفي به في ٢ نوفمبر سنه ١٨٠٢

وكان لمصرع الجنرال لكارك رنة حزن شديد عند زوجته بولين فرزحت تحت عبء الكآبة والجزع وقطعت غدائر شعرها الجميل وزينت بها جثمان بعلها وحنطته على مثال تحنيط المصريين لجثث موتاهم ووضعته في تابوت ثمين . ووضعت قلبه في حقٍ من الرصاص ضمن حق آخر من الذهب حفرت عليه هذه الكتابة :

« بولين بونابرت المقترنة بالجنرال لكارك في ٢٠ براريال من السنة الخامسة أودعت في هذا الحق حبها الى جانب قلب زوجها بعد ما شاطرته المتالف والمجد . وان لم يحرز ابنها ميراث فضائل والده العزيز فلا يظفر بميراثه المحزن . »

وأكثروا من الكلام عن تهتك بولين في سان دومنك وتعشقها لقائد زنجي يدعى كرستوف . ولما عادت الى فرنسا كانت ضئيلة الجسم منسرقة القوى لا تستطيع الوقوف الا بمشقة . فكانوا يحملونها في محفة حين تبتغي الذهاب من مكان الى آخر . وكانت مريضة إلا أن مرضها لم ينجم كما يزعمون عن ولادتها وعدم الاعتناء بصحتها على أثر الولادة وانما كان نتيجة من نتائج تهتكها وجنوحها عن الجادة المثلى .

وعادت السفينة سويفتسور ببولين وبالنعش إلى فرنسا وكان السفر طويلا وشاقاً للأيم الفتاة الرازحة تحت أوقار الكآبة والنافر قلبها من تصبي الفتيان والمرضة عن الجنرال همبرت المسافر معها في السفينة نفسها. ولما ألقت سويفتسور مرساتها في ثغر طولون كان لوريستون حاجب القنصل الأول مقيما فيها على حبل انتظارها . وأراد نابوليون أن يحتفي احتفاء باهراً برفات ختنه . فنقلوا النعش

من مدينة الى مدينة باحتفال عظيم ورافقته الجنود من مرحلة الى مرحلة الا أن الاحتفالات الرسمية لم تلق لها صدى في افئدة الشعب . فكانوا يبصرون الموكب المهيب يمر من دون أن يشعروا بشيء من التأثر فقد نسوا الجنرال لكلرك لأن الشؤون العامة ومجد القنصل الاول وعقد الصلح مع بريطانيا العظمى استغرقت جميع الافكار وحولتها عن الحداد المقتصر على التظاهرات الرسمية . ونقلت الجثة الى منفوبير على مقربة من سواسون في القصر المقيمة فيه أسرة لكلرك وهو المكان الذي شيد له فيه فيما بعد ضريح فخم وبذل نابوليون جهده ليعوض عن عدم مبالاة الشعب بذلك الحادث فوضع في ردهة بقصر فنتنبلو صورة كبيرة للجنرال لكلرك وفي البنطيون تمثالا له

وكان التابوت ثقيلا جدا فأذاع أعداء بونابرت أن بولين أودعت فيه كنوزا مهمة تقدر بسبعة ملايين من الفرنكات جاءت بها من سان دومنك . فلم تكترث بولين لتلك الاراجيف وأقامت عند شقيقها يوسف في قصر ماربوف بشارع سانت أونوراي . وخولت الوصاية على ابنها درميد وسرت بوجودها في باريس ولا سيما حين علمت أن الثياب السوداء تلائمها فكان لها ذلك الامر أكبر تعزية . وما عتم حزنها أن خفت وطأته عليها فأيقظت فيها حركة باريس وصدى الاخبار المختلفة هاجدات التدلل فيها وصارت تتبرم من الوحدة وضجرت من المقام عند أخيها يوسف وتأسفت على حريتها المفقودة . فأرادت أن يكون لها بيت خاص ترتبه على ذوقها . وكان على مقربة من قصر يوسف قصر للدوق دي كارست أعجبها كثيرا فابتاعته . ولم تكد تشتريه حتى بادرت الى ترتيبه فأوصت على رياش فاخر ثم أنها ابتاعت مركبة وجيادا مطهمة وصارت تقضي جميع أوقاتها في تهيئة ما تريد تهيئته

وجعل نابوليون يفكر في تزويج بولين وزفها إلى ملزي مدبر شؤون الجمهورية الايطالية تحت سيطرته إلا أن هذا الرجل العظيم الذي أربى على الخمسين لم يوافقه على رغبته . وعادت بولين الى مخالطة الالفة الاجتماعية الباريسية واللمعان بين حسانها فأكثر الناس من القيل والقال عنها وعن الكولونل دي كانونفيل الشاب الذي برّح به غرامها ودار أيضاً ذكر الوزير ديكريس الذي استرقته بمحاسنها . وقد أزف الحين لايجاد قرين موافق لها ولكن كيف يتم ذلك ؟



وداع الملك لويس الثامن عشر لما فر من وجه نابوليون عند دنوه من باريس فذهب الى ليل ومنها الى غاند للاقامة فيها في ٢٠ مارس سنة ١٨١٥



وذاع في باريس نبأ وصول البرنس كميل برغيزي القادم من رومية وهو شاب حسن الطلعة حنطي اللون قوي البنية أسود العينين أنوف . ولاسرته مقام عال بين النبلاء الرومانيين العريقين في الشرف . ولم يكد ظله يخيم في باريس حتى خطر لصديقيه الدوق دي سنتا كروسي وانجيوليني الايطاليين المكثرين من انتياب منتديات باريس الخاصة ان يعرفاه ببولين بونابرت . واجتمع البرنس برغيزي ببولين بونابرت في منزل شقيقها يوسف في مرتفعتين فوقع كل منهما في قلب الآخر موقعاً حسناً . وكانوا في صيف سنة ١٨٠٣ أي بعد وفاة الجنرال لكلرك بثمانية أشهر أو بتسعة أشهر على الكثير وبولين لاهم لها غير الاقتران بحبيبها الجديد . ولم يكن البرنس يعرف من اللغة الفرنسوية سوى كلمات قليلة بيد أنه قدر ان يفهم ان حبيبته تحبه وتتصباه وتميل الى الاقتران به .

ولا يخفى ان بولين اهتمت اهتماماً شديداً بتهيئة ملابس العرس ولم تكن تصدق ان يتم ذلك القران . ولم يكن أحد من أفراد أسرة بونابرت قد ارتقى حتى ذلك العهد الى درجة من درجات النبلاء فشقيقتا بولين لم تكونا سوى سيدتين من السيدات المكرمات في باريس لكونهما شقيقتين للقنصل الأول وبهر لقب أميرة المعد لبولين أبصار جميع أفراد الأسرة البونابرتية حتى بونابرت ذاته فلم يقم أدنى نكير على ذلك الزواج .

على انه لم يكن بد من انتظار المهلة التي يقتضيها القانون ولم يكن بونابرت يتساهل بشيء من هذا القبيل . فهزأت به بولين واحتفلت بزفافها في أثناء تغيبه وكان قد ابتعد عمداً عن باريس لئلا تحدث في حضوره الحفلة المخالفة للنظام وتمت الحفلة عند يوسف بونابرت وقد نفد صبر بولين للتردي بملابسها الجديدة الفاخرة ودفع لها خطيبها خمسة وأربعين الف فرنك لتنفقها على الملابس وقدم لها أيضاً جواهر أسرة برغيزي لتصوغها على الزي الحديث عند أمهر الصاغة والجوهريين في باريس وقضت الخياطات في ذلك العهد معظم أوقاتهن مع الاميرة الجديدة باحثات عن الازياء الموافقة لها . ولما جاءت نوبة الرأس وغطائه وجدن عقدة يصعب حلها لأن بولين كانت قد قطعت غدائر شعرها عند وفاة زوجها الأول الجنرال لكلرك على ما سبقت الاشارة اليه فاخترعوا لها طريقة جديدة على الزي اليهودي

ودفعت لأرباب تلك الصناعة ثماني مئة فرنك لكي يعلموا عادلا يدة خادمتها الخاصة فن تصفيف الشعر على الزي الملائم لها .

ولما جاء الحين الموافق لاعلان الزواج شخص الزوجان الى رومية فعرجا على ليون لزيارة الكردينال فش ثم توجها الى فلورنسة لزيارة أصدقاء أسرة برغيزي الكثيرين واستقبلتهما أسرة برغيزي في رومية استقبالا عظيما مفتخرة بذلك القران الذي عدته جارا اليها جميع أسباب العظمة والجاه وقد شاء البابا ان يشارك الأسرة في أفراحها فاستقبل العروسين في الفاتيكان ولكن ليس في الحدائق جريا على العادة التي يستقبل بموجبها الأسر النبيلة الرومانية بل في رده القصر الخاصة. وقد تمكنت بولين بما أوتيته من اللطف وجميل الاخلاق من استمالة بيوس السابع اليها فانصرفت هي وزوجها من عند الأب الأقدس والبشر يتدفق من جبينيهما .

على ان تغيير حالة بولين بونابرت لم يرقها كثيراً فان باريس كانت دائماً منتهى رغائبها وقصوى أمانيها لوجدانها فيها كل ما تميل اليه نفسها من الازياء الجديدة والملاذ المتجددة يوماً فيوماً . ولم تلق قط مكانا يضاهي باريس في العظمة والسناء والمسرات . وخشي نابوليون من تقلب الأفكار في شقيقته فأراد ان يبتاع منها قصرها في باريس لينزع منها كل ميل الى الرجوع الى هذه المدينة الا ان بولين عينت لها في باريس قيما على أملاكها شديد الحرص على مصلحتها فبقي القصر لها مع شدة الضغط على القيم ليبيعه . ما أشهى العودة الى باريس ! . . .

فادعت ان صحتها تقتضي العودة اليها بيد ان نابوليون أجابها بواسطة الكردينال فش مشدداً النكير على مجيئها وقد كتب الى فش في هذا الصدد ما يأتي : « اذا قدمت الى باريس فلا تلقى عندي أدنى عضد وأرفض مواجهتها لاني لا أشاء ان ينشأ خلاف بيني وبين أسرة برغيزي . فيجب عليها ان تذعن لمقتضيات حظها فانه سعيد . . . » فأذعنت بولين لمشيئة أخيها وهي مكتئبة لعدم تمكنها من البروز في منتديات باريس بمظاهر العظمة فان لقب « أميرة برغيزي » له صدى شديد في أودية القلوب ولا سيما لان أسرة برغيزي من الاسر المتناسقة في الشرف وقد خرج منها باباوات مشهورون

وادعت انها منحرفة الصحة فانطلقت الى حمامات لوك وأخذت معها وصيفاتها وملابسها الفاخرة لتبهر بها عيون الاسر الايطالية النبيلة . وتركت في رومية سليلها درميد فمات في أثناء تغيبها .

وقد ذكروا حزنها الشديد على تخرم زوجها الاول الجنرال لكلرك ولكن لم يذكروا شيئاً عن حزنها على وفاة نجلها . فاغتنمت الفرصة من تقطع أنفاسه المعدودة واستأذنت بالشخوص الى باريس للعزاء وسميا وراء الاسباب الآيلة لتحسين صحتها فأذن لها في هذه المرة بزيارة باريس .

وكان انحراف مزاجها وهميا يراد به التخلص من الاستقبالات والزيارات الرسمية في التويلري . فكانت تقضي الوقت مضطجعة على مقعد ويحملها عبدها بولس الزنجي على منكبيه بمقعدها الى المكان الذي تريد الذهاب اليه حتى الى حمامها . ولما كانت تذهب لزيارة شقيقها القنصل الاول لم تكن تصعد الى غرفته الا محمولة على أذرع خدامها . واذا أقيم مرقص أو احتفال يمكنها أن تظهر فيهما بجميع مجالي العظمة والبهرجة برحها في الحال الالم وانحراف الصحة والضعف فتشهد المرقص مرتدية أنخر ما عندها من الملابس وترقص الليل كله من دون أن يلم بها أدنى تعب . وبعد ما تبرز على جميع الحسان اللواتي يحسدنها على جمالها الفتان تعود الى قصرها وتنزوي فيه زاعمة أن العلة عادت الى التبريح بها فتقيم على تلك الحال حتى تقام حفلة جديدة . هذه كانت معيشتها في عهد القنصلية فقد كانت لها السيادة في مملكة الجمال وسلطنة الازياء .

وكان الخدام والخادمات المقضي عليهم الاعتناء بها اشقى حظاً منها بيد انهم كانوا يسرون باجراء رغائبها . وقالت الآنسة افريليون عنها انها جمعت بين الحسن والجمال والملاحة كأنها زهرة مديسي وان اللطف المحرك أوصال ذلك الجسم البديع المحاسن يفوق جماله وبضاضته .

وكان نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة يشكو من اسرافها المفرط فقد وهبها أموالا وافرة واجرى عليها رزقا واسعاً وفي أواخر عهد الامبراطورية لم يبق معها شيء يذكر من تلك الاموال الطائلة لانها كانت تنفق بلا حساب . . . ولم تكن والدتها تني عن تعنيفها على تبذيرها وتنبأت عنها بأنها ستموت في المستشفى لكن نبؤتها هذه لم تتم . وتوفيت بولين في فلورنسة في سنة ١٨٢٥ ولها من العمر ٤٥ سنة .

كارولين بونابرت

هي أصغر شقيقات نابوليون وكانوا يسمونها انونسياتا في كورسيكا . ولم تدر شيئاً من حالة الضيق الذي كانت فيه اسرتها لانها كانت في ذلك العهد حديثة السن . ولما صارت تميز الخير من الشر كان شقيقها نابوليون قد أصبح صاحب الامر والنهي في فرنسا . فأدخلت مدرسة عقيلة كمبان مع هرتنس بوهرنه . ولما خرجت من المدرسة أقامت في بيت أخيها يوسف حتى اقترنت بمورات وكانت تسير مع يوسف ابان سار فصحبته الى رومية والى سفارته . ثم انها صحبت أخاها نابوليون الى ميلانو فتعرف بها الجنرال مورات وطلب في الحال الاقتران بها .

ولما كانت في كورسيكا في ابان حداثتها كانوا يعتبرونها نفاية الاسرة فانها كانت بلهاء وخالية مما يدل على انها ستصيب حظاً كبيرا . الا ان هواء فرنسا وتهذيبها مع الفتيات الفرنسويات غيراها تغييرا بينا فما عتمت أن ظهرت بمظهر الحسن والنضارة والجمال فكانت غدائر شعرها الاشقر المسترسل على منكبيها تلفت اليها جميع الانظار .

ووقت ما صار نابوليون زعيم الاسرة بعد حادث بروميرأراد أن يزفها الى أوجيرو أو الى مورو . وقد اعترف بذلك في جزيرة القديسة هيلانة وقال أنه لا يستصوب أبدا عقد الزواج الناجم عن الغرام لاعتقاده أن مثل هذا الزواج يكون وخيم المغبة في غالب الاحيان . ولم يبق عنده سوى هذه الشقيقة ليزوجها ولذلك احب أن يزفها الى نبيل من النبلاء اوالى رجل من مشاهير الرجال لزعمه أنه لا يمضي وقت طويل حتى يتهافت الملوك والامراء على مصاهرته . الا ان كارولين عارضت على مثال اشقائها وشقيقتيها رغائب نابوليون فمالت الى الاقتران بمورات واقترنت به غير مكترثة لاخيها نابوليون رضي أم لم يرض وكان كل فرد من أفراد الاسرة صعب المراس لا تذعن ارادته لغير عقله . وشعر مورات المولع بكارولين أنه نال شرفا اثيلا باقترانه بكارولين بونابرت . وكانت ارادتها متسلطة على ارادته وقد بقيت على هذه الحال حتى دفعتها مطامعها في آخر الامر الى حمله على ركوب ذلك المركب الخشن فهوى عن متنه واعتطم

اعتطاما وصير الدهر والظروف كارولين من ربات السياسة على مثال شقيقتها اليزا فلم تحجم عن شيء من الاشياء حتى الغدر نفسه لاصابة مبتغاها بعد صيرورتها ملكة نابولي للمحافظة على مقامها العالي . وكانت نظير شقيقتيها تحب الفخفخة والبهرجة والملاذ

وفي مؤتنف الامر لم يتوخ مورات وزوجته الا حشد الثروة فان زملاءه القواد الذين واقموا الاعداء وواثبوا الخصوم كانوا يعودون الى فرنسا ومعهم مقادير وفيرة من الغنائم والاسلاب أما هو فانه لم يحرز شيئاً مما احرزوه وآخراً طلب من ختنه أن يفوض اليه قيادة الجيش في ايطاليا . ولما عاد من تلك الاقاليم ابتاع في ولاية مل أرض مت سان هيراي التي كانت لامراء طور . ويبلغ ريعها السنوي اثنين وثلاثين الف فرنك . ورأى أنه يلزمه قصر على مثال قصور عديليه وانسبائه فاشترى قصر طيلوسون بشارع بروفنس وهو مع ملحقاته يعتبر من أجمل قصور باريس . وقبل ذلك كان ذانك الزوجان يقيمان في قسم من التويلري ويعيشان عيشة بسيطة . ويروي الجنرال طيابول أنه تناول الغداء في ذات يوم عند مورات فقال ان الغداء كان لذيذا وان الصحاف كانت من الخزف الفاخر

وبعد تناول الطعام وضعوا على المائدة صحفة من الخزف الخشن فرفع مورات غطاءها باحترام وقال : هذا المربى عقدته والدتي من العنب . وكانت والدة مورات قروية من كرسي وهي صاحبة نزل حقير . وبيناهم على المائدة جاء المصور ايزابي ومعه صورة صغيرة صنعها لاخيل الصغير نجل مورات ولم يكن عمر الغلام سوى بضعة أشهر .

وتخلل حياة مورات كثير من الحوادث كما تخلل حياة معظم القواد . ويروى ان مورات جاء الى باريس وهو حدث في خدمة نبيل من النبلاء مقيم في شارع كومرتان ثم دخل في خدمة مطبخ الدوق دي بربون في شانتي ويقال أنه طرد من خدمته بسرقة ارتكبها ولما تولى مورات قيادة الجيوش في باريس بعد جونو كان في ذات يوم يتناول الغداء عند ريكامياي فوجد الطعام لذيذا وسأل الصيرفي عن اسم الطاهي الذي عالجه . فسماه له ريكامياي فاحمر وجه مورات ولم يفه ببنت شفة لان ذلك الطاهي كان الطاهي نفسه الذي استخدمه في شانتي وطرده من القصر بداعي السرقة .

وكان مورات في ذلك العهد معجبا بمهابته وهيئته العسكرية وقد زاد موقفه عجبه وخيلاءه . وبصفة كونه ختنا للقنصل الاول توهم انه لا تبلغه قوة من القوات وأنه يستطيع عمل كل شيء . وازدادت مطامعه بما ألقته زوجته في صدره من حب العلاء والعظمة وقد حملتهما أوهامهما على السعي وراء أسمى المطالب من دون ان تروي لهما غلة . وكانت كارولين في فاتحة الأمر تحبه حبا شديداً وقد ساعدها من جهته على تلك المحبة زاعما أنه ذو طلعة جميلة تستميل اليه الجنس اللطيف على ان دوقة ابرنتس تنكر تلك الدعوى الفارغة قائلة : « لا أسلم أبدا بان الرجل يعد جميل الصورة لكونه كبير الجسم يرتدي بالملابس الفاخرة فمورات لم يكن جميل الصورة وعندي انه متى عري من شعره المصفف وملابسه الموشاة بالذهب والفضة يبين قبيح المنظر فوجهه يشبه وجه الزنجي بتقاطيعه وان لم يكن افطس الانف وانما كانت شفتاه غليظتين . »

وكانت زوجته ذات صورة نحيفة التقاطيع تقرب من شقيقتها بولين بيد أن جسمها ادق من جسم شقيقتها وهو يقرب من جسم شقيقها نابوليون . وهي على مثال شقيقتها بولين لا تخلو اخلاقها من الانتقاد وقد اتهمت بان لها علاقات غرامية بدي فلاهو الشاب ولما صارت ملكة نابولي تعشقت البرنس دي مترنيخ .

وكان منذ حداثتها بينها وبين بولين تنافس وتخاصم فكانت كل منهما تحسد الاخرى على جمالها وارتقائها في سلم المعالي وقد صارت بولين أميرة قبل ما اصابت كارولين ادنى لقب سام . وكانت بولين عند مخاطبتها لشقيقتها تغلظ لها في الكلام مطلقة عليها اسم فلاحة ولكن لم يطل وقت اجتماعهما فان بولين في سان دومنك وفي إيطاليا لم تتسن لها معاشرة اختها لتداوم انتقادها . اما كارولين فانها كانت تستقبل ضيوفها على الرحب والسعة في قصر طيلوسون . ولم تكن في عهد القنصلية الا في فاتحة حياتها العامة فكانت تقضي وقتها في اجتناء الملاذ من روضة المسرات . ولم تبح باسرار مطامعها الا في عهد الامبراطورية فانها مازالت بما رزقته من الجرأة تدفع زوجها حتى أوصلته الى التربع على عرش نابولي .

ويؤخذ من رواية اللورد رزبري ان كارولين بعد مصرع زوجها بخمسة عشر

شهراً تزوجت في فينا . ولما انتهى ذلك النبأ الى نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة فار فائره وصاح قائلا :«ان هذا الامر لمن أعجب الامور التي مرت علي. ما أغرب اطوار البشر ! فالحب كان المحرك لعواطف هـذه الخبيثة في جميع ادوار حياتها . »

ولدت كارولين بونابرت في اجاكسيو سنة ١٧٨٢ واقترنت بيواكيم مورات في سنة ١٨٠٠ وارتقت الى درجة غرندوقة برغ وكليف ثم صارت ملكة على نابولي وتوفيت في فلورنسة في سنة ١٨٣٩ .

الامبراطورة جوزفين

لما اسندت قيادة الجيش الداخلي الى بونابرت جاءه فتى لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر الى بيته بشارع الكابوسين في ١٣١ كتوبر سنة ١٧٩٥ وكان ذلك الفتى يدعى اوجين دي بوهرنه فان والده الفيكونت الاسكندر دي بوهرنه كان قائداً اكبر لاحد الفيالق وقد قضى على النطع . وطلب الفتى من قائد الجيش الداخلي ان يرد اليه والى والدته سيف والده الذي ضبطوه في اثناء التفتيش في منزلهم . فراقت بونابرت طلعة الفتى البسيطة الدالة على الانفة وأمر في الحال بارجاع سيف الجنرال دي بوهرنه الى نجله .

ولما كان من الغد جاءت أيم دي بوهرنه لتقديم الشكر للجنرال بونابرت وكانت أول مرة وقعت عليها عينه تخلبت لساعتها لبه بمحاسنها ولم يكن لها من العمر الا اثنتان وثلاثون سنة . وكانت ذات قامة هيفاء يترقرق ماء اللطف على محياها . وكان لها صوت رخيم وعينان خلابتان وهي تتهادى في مشيها . وكان الجنرال بونابرت أصغر منها بست سنوات لانه لم يكن قد اربى بعد على السادسة والعشرين من عمـره . ولم يكن قد أتيح له حتى ذلك الحين ان يغازل الجنس اللطيف او يداعبه بل كان يقضي معظم وقته مع الجنود . وهو الآن يرى في بيته امرأة وهي ايم نبيل من النبلاء يفيض الحسن من وجهها الوضاح . ومعلوم ان اطلاع هذه الزائرة عليه كان طبيعياً وبسيطاً فانها قدمت لتشكر له ارجاع سيف زوجها المقتول ولـكنه لم يسعه كتمان دهشه من مسعى تلك المرأة لانه لم يكن متعوداً معاشرة الحسان والغواني فكان لهذه الزيارة وقع شديد عليه .

ورد الجنرال بونابرت الزيارة لأيم دي بوهرنه وكانت تقيم في بيت بشارع شنترين وهو الشارع المسمى اليوم باسم « شارع النصر » في المحــل الموضوع عليه الآن عدد ٦٠

وما لبث بونابرت ان صار يكثر من التردد على ذلك المنزل مدفوعاً اليه بمحاسن صاحبته وكان يلتقي ايضا بتلك الصديقة الحسناء عند عقيلة تاليان وكان يختلف الى دارها كثيرون من رجال الديركتوار وكان المجتمعون عندها يجرعون كؤوس المسرات مترعة الى اصبارها وينفقون الاموال بسخاء وعن سعــة ولا يبالون ببعض مسائل تتعلق بالآداب والازياء الخارجية لان باراس المقدم بينهم لم يكن معتصما باهداب تلك الامور وكان له من العمر اربعون سنة .

ولا يخفى ان حياة جوزفين لم تــكن تنطوي على اسرار كثيرة فان ماري جوزف روز المدعوة جوزفين كانت كريمة يوسف تاشر دي لاباجري وكان اسم والدتها روز كلير دي فرجاي دي سانوى من اسرتين اتخذتا جزر الانتيل محــلا لاقامتهما من صدر القرن الثامن عشر . وقد ولدت جوزفين في جزيرة المرتينيك في ٢٣ يونيو سنة ١٧٦٣ ولم تتلق الا مبادىء التعليم في دير بمدينة «فور دي فرانس» حاضرة الجزيرة وجاؤوا بها الى فرنسا فاقترنت في سنة ١٧٧٩ بالفيكونت الاسكندر دي بوهرنه نجل احد حكام المرتينيك السابقين وكانت قد طوت من عمرها ست عشرة سنة ونصف سنة وكان قد مضى من عمر زوجها تسع عشرة سنة . فولدت غلاماً في شهر سبتمبر سنة ١٧٨١ سمته اوجين وولدت ابنة في شهر ابريل سنة ١٧٨٣ دعتها هورتنس. واهملها زوجها ومال الى الغواني في اندية باريس وهي في نوبتها جارت الهيئة الاجتماعية البــاريسية في ذلك العهد وقد قال تاليران في هذا الصدد . « من لم يعش قبل سنة ١٧٨٩ لم يعرف معنى لذة الحياة . »

وأفضى الامر بالفيكونت دي بوهرنه وزوجته جوزفين الى الافتراق في سنة ١٧٨٤ بعد دعوى ظهر فيها خطأ الزوج فبرحت جوزفين دير بنتيمون في شارع غرينل وكانت النساء يأوين اليه وعادت الى المرتينيك. وكان ان الاضطراب الذي نشأ عن الفتنة الــكبرى اتصل الى تلك الجزيرة فعادت جوزفين الى باريس في أواخر سنة ١٧٩١ وقد زعم بعضهم ان الزوجين تصالحا ولــكن ليس من



تمثال نابوليون الذى نصب فى سنة ۱۸۳۳
فوق العمود الكبير فى ميدان فندوم بباريس



دليل يؤيد هذا الزعم وكل ما عرف عنهما انهما بقيا مفترقين وقد ارتقى الزوج في مدارج المناصب وانتخب عضواً في مجلس النواب وانتخب مرتين رئيساً للجمعية الدستورية ثم أسندت اليه القيادة العامة لجيش الرين . ولما جاء زمان الرعب فقد حريته وحياته وألقيت جوزفين نفسها في السجن في ٢١ ابريل سنة ١٧٩٤ . وأصبحت ايماً في ٢٣ يوليو من السنة عينها وكانت تتوقع صعودها الى المقصلة ولكن جاء يوم ترميدور وأخلي سبيلها .

وتعرفت في ذلك الحين بتريزا كاباروس وهي مطلقة وفي العشرين من عمرها وقد تزوجت بتاليان فتوثقت بينهما عرى صداقة متينة .

وهل كانت جوزفين تشعر بضيق مالي حين كانت تتردد الى منزل تاليان وباراس وتسترق العقول بلطفها ومحاسنها ؟ ان جوزفين كانت ذات ثروة طائلة فقد كان دخلها السنوي نحو ٢٥ الف جنيه ولكن كانت هذه الثروة عقارات في المرتينيك ولم يكن دخلها في ذلك العهد مضموناً . وكانت ميالة الى التزين بالملابس الفاخرة والظهور بمظهر التبرج ولم تكن تحسن انفاق الاموال في وجوهها وكانت في سنة ١٧٩٥ تقيم في منزل في كرواسي بجوار سان جرمان وتعرف بها فيه المستشار باسكيه واليك ما كتبه عنها : « وكانت عقيلة دي بوهرنه جارتنا ولم نكن نعرف ثروتها فبيتها كان ملاصقاً لبيتنا ولم تكن تأتي اليه الا مرة واحدة في الاسبوع لتستقبل باراس ورفاقه الكثيرين فكنا نشاهدهم من الصباح يأتون بسلال الطعام والشراب وكنا نبصر بعد ذلك فرساناً قادمين في الطريق المؤدي من نانتر الى كرواسي لان باراس كان يأتي في غالب الاحيان راكباً جواده . وكان ظاهر منزل عقيلة دي بوهرنه يدل على الفخفخة ولكن كان بازاء الاشياء الزائدة كثير من الاشياء الضرورية ناقصاً فكانت لحوم الطير ولحوم الصيد والثمار النادرة تملأ المطبخ ولكن لم يكن عندهم مايكفي من القدور والاقداح والصحاف فكانوا يستعيرونها من عندنا . »

ووضعت جوزفين ولديها في مدرسة داخلية بسان جرمان فأدخلت أوجين مدرسة بتريك مك درمت الارلندي وهورتنس مدرسة عقيلة كمبان في طرف المدينة عند مدخل الغابة . واضطرت الى استدانة مبالغ كبيرة من المال لتتمكن من المثابرة على نوع المعيشة الذي اختارته . وكانوا يقولون ان باراس كان يريد

لها الخبر على ان الحقيقة هي انها أصابت من الديركتوار نعمة غريبة فقد طلبت تعويضاً عن المركبة والخيل التي كانت لزوجها وضبطها ممثلو الكنفنسيون في سنة ١٧٩٣ من جيش الرين فساعدها باراس على الحصول على جوادين مطهمين ومركبة من جياد ومركبات اسطبلات الملك الخليع وقد توجه الجنرال بونابرت في ليلة عرسه الى المنزل الصغير في شارع شنترين بهذه المركبة المهداة من باراس.

وكانت ايم بوهرنه تعتبر زواجها ضرورياً اصيانة موقفها في الهيئة الاجتماعية ولما شاهدت تهمك ذلك الظافر في فنديميار بها أدركت انه لا يمضي عليها وقت طويل حتى تغير اسمها . إلا ان ما كان عند بونابرت نتيجة غرام متيم ومبرح كان عند تلك المرأة المتسلطة على ارادتها نتيجة حسبان دقيق طويل فكتبت الى بونابرت في ذات يوم : « ما بالك لا تجيء لمشاهدة صديقة تحبك فقد أعرضت عنها وانك وايم الحق أخطأت لانها شديدة التعلق بك فتعال غداً السبت لتتغدى معي وإني أبتغي أن أشاهدك وأخاطبك في مايتعلق بمصلحتك . »

وأسرت في الوقت عينه الى احدى صديقاتها أموراً تتعلق بحالتها الروحية: « لقد أبصرت الجنرال بونابرت عندي وهو يرغب في أن يكون أباً ليتيمي الاسكندر دي بوهرنه وزوجاً لايه وقد تسأليني قائلة : وهل تحبينه . فأجيبك لا. وقد تقولين وهل تشعرين بنفور منه . فأجيبك لا . لكنني أجد نفسي في حالة فتور لا تروقني ويعتبرها المتدينون حالة مزعجة .ويؤكد لي باراس بأني إذا اقترنت بالجنرال بونابرت يسعى لأن يجعله ينال القيادة الكبرى لجيش ايطاليا . ولما كان بونابرت يحدثني أمس عن هذه النعمة الموعود بها والمثيرة عليه سخط رفاقه في الجندية مع كونه لم يحصل عليها بعد قال لي : « وهل يظنون اني محتاج الى حماية لأصيب تلك القيادة وسيعدون أنفسهم سعداء في المستقبل عند منحي اياهم تلك الحماية . ان حسامي على جنبي وأستطيع الوصول به الى غاية بعيدة » فماذا تقولين في تأكيده بأنه يحرز التقدم ؟ لا أدري شيئاً من ذلك إلا انني لا أتمالك نفسي في بعض الاحيان عن تصديق مثل تلك الثقة الغريبة بنفسه بحيث انني أعتقد امكان حدوث كل ما يدور في خلد هذا الرجل الغريب ومن يستطيع ان يحسب ما يباشره هذا الانسان في تصوره »

وكان كاتب العدل الموكولة اليه اعمالها يشير عليها بألا تقترن بذلك الشاب

الذي لم يكن يملك شيئاً من حطام الدنيا . ونظم صك الزواج في ٨ مارس سنة ١٧٩٦ وصرح العريس بأنه لا يملك شيئاً من ثابت او منقول ما عدا ملابسه الموضوعة في خزانته وسلاحه ولكنه خصص معاشاً سنوياً للعروس قدره الف وخمس مئة فرنك وتم عقد الزواج في الغداي في ٩ مارس امام شيخ المحلة بشارع انتان وكان شاهدا العريس باراس وتاليان وشاهدا العروس ليماروى حاجب الجنرال وكالملاي مستودع سر جوزفين . وكان قد عين موعد الاجتماع في الساعة الثامنة مساء فاجتمع الجميع ماعدا بونابرت ولم يقدم الا بعد الساعة العاشرة ولما وصل قال : ارجو منك ياحضرة الشيخ ان تعجل في عقد قراننا . وصرح بونابرت في صك الزواج بانه ولد في ٥ فبراير سنة ١٧٦٨ وصرحت جوزفين بانها ولدت في سنة ١٧٦٧ فالاول زاد على عمره سنة ونصف سنة والثانية حذفت من عمرها اربع سنوات بحيث لم يبق فرق في العمر بينهما الا ستة اشهر .

وذهبت جوزفين بزوجها في غد اليوم الذي تم فيه عقد الزواج الى سان جرمان لمشاهدة ولديها فهورنتس التي كان لها من العمر نحو ثلاث عشرة سنة كانت تستحي وكانت قد شاهدت عمها قبل ذلك الحين في عشاء عند باراس كانت قد ذهبت مع امها اليه وجلست الى جانب الجنرال . وقد اسرت الى رفيقاتها في المدرسة انها تشعر بانقباض في صدرها لان امها موشكة ان تقترن بالجنرال بونابرت وهي تشعر بان الخوف يدخل عليها كلما ابصرته وتخشى من معاملته لها ولشقيقها اوجين بالعنف والقسوة . الا ان الجنرال الذي لم يكن قد مضى على قرانه اربع وعشرون ساعة ابدى لهورنتس لطفاً شديدا واثنى على الطالبات ومعلماتهن ثناء طيباً وقال لعقيلة كمبان : « سأكل اليك تثقيف شقيقتي الصغيرة كارولين فابذلي جهدك لتصييرها عاملة نظير هورتنس العزيزة : » قال هذا الكلام وضغط باصبعيه على طرف اذن هورتنس .

ولم يطل بونابرت المقام في سان جرمان لانه كان مقضياً عليه ان يعد أهبة السفر . وكان في ٢ مارس أي قبل زواجه بسبعة أيام قد سمي قائداً عاماً لجيش ايطاليا وكان لباراس يد في تقليده تلك القيادة ودارت على الالسنة في ذلك الحين هذه العبارة وهي « ان هذه القيادة بائنة أيم بوهرنه »

وركب بونابرت مركبة انطلق بها الى ايطاليا في ١١ مارس أي بعد ثماني

وأربعين ساعة انقضت على حفلة شارع انتان وكان ذلك فاتحة تسع عشرة سنة قضاها هذا الرجل العظيم في الجد والتنقل من مكان الى آخر في أوربا .

وما كان أشد ما أثرت فيه تلك المرأة التي لم يقض معها الا ساعات قليلة فكان في كل مرحلة يجتازها يخط لها كتاباً يفيض غراماً مبرحاً لم يسبق لعاشق ولهان ان خط مثله لحبيبته فأرسل اليها الكتاب الآتي من شانسو في ١٤ مارس :

« كل دقيقة تبعدني عنك أيتها الحبيبة المعبودة تجعلني أشعر بأن عزيمتي تهي عن حمل أعباء نواك فأنت موضوع افتكاري الدائم وكلما أغرق فكري في ما تفعلينه الآن تضعضع فان أنا رأيتك كئيبة تصدع فؤادي واشتدت كآبتي وان رأيتك مبتهجة الفؤاد تلهين مع أصدقائك أنحيت عليك بالتعنيف لكونك نسيت فراقنا من ثلاثة أيام فأنت ترين انه يصعب ارضائي . »

وكتب اليها في ٤ ابريل من بورتو موريزيو قبل ان يصل الى سافونا :

« يا عزيزتي جوزفين الوحيدة اني اذا ما ابتعدت عنك أرى العالم مقفراً وأراني منفرداً فيه فقد سلبتني أكثر من نفسي فأنت الغاية المحصورة فيها جميع أفكاري في هذه الحياة .. . فبأي حيلة تمكنت من أسر عواطفي جميعها وحصر جميع كياني الأدبي فيك . ان تاريخ حياتي هو المعيشة لاجل جوزفين. . . »

ووجه رسالة الى كارنو في ٩ مايو سنة ١٧٩٦ من بلازانس بعد عبوره البو تطرق فيها الى الكلام عن زوجته فقال له « اوصيك بها خيراً فهي صادقة الوطنية واحبها حباً يقرب من الجنون » وداخلته عواطف قاق كسفت باله وكادت تقضي على حبه الشديد فكتب الى جوزفين في هذا الصدد ما يأتي : « يازوجتي المحبوبة اني اجهل ماتخبئه لي الاقدار واذا قضت علي هذه الاقدار بالبقاء بعيداً عنك مدة طويلة رزحت تحت اعباء القنوط لان شجاعتي لاتصل الى هذا الحد فان تصوري بانه يحتمل ان تكون عزيزتي جوزفين مريضة أو انه ربما تكون محبتها لي قد ضعفت تكسف بالي وتجمد الدم في عروقي وتصيرني كئيباً خائر القوى وتضن علي بأن أستطيع ابداء السخط أو الشعور باليأس . فلأن أموت محروماً حبك أشد من عذاب الجحيم وهو صورة شديد الوضوح تدل على الانحطاط التام فكأني اشعر بأني اكاد اختنق . فيا ايتها الرفيقة الوحيدة التي قيض لك الحظ بان ترافقيني في سفر الحياة الشاق اعلمي ان اليوم الذي افقدفيه

قلبك أعتبره يوماً تخلو فيه الطبيعة في نظري من الحرارة والحياة » .

ومزق بونابرت شمل جيوش كولي وبوليو وقبل أن يوقع صك هدنة شيراسكو رغب في أن تأتي جوزفين الى مشاهدته فكتب اليها ما يأتي :

« انقضت أيام ولم تكتبي لي شيئاً فماذا تفعلين ؟ أو لا تريدين المجيء اليّ ؟ ستأتين الى هنا لموافاتي لتكوني قريبة مني وتتكئي على صدري وتلقي ذاتك بين ذراعي . فاتخذي لك أجنحة وطيري اليّ » . ولم تكن تفهم شيئاً من معنى ذلك الغرام المبرح الحاكي للحمم المصهور فان تخنثها واسترخاءها ولطفها واسلاس قيادها لدواعي الحياة الهنيئة لم تكن لتنطبق على ذلك الهيام المتيم . وكان ان مورات الذي قدم الى باريس حاملا أسلاب منتنوت ولودي الى الديركتوار دفع الى عقيلة بونابرت كتاباً من زوجها . وقد قال أحد المعاصرين في هذا الصدد : ان هذا الكتاب الذي أطلعتني عليه كان منسوجاً على منوال سائر الكتب التي وجهها اليها بعد انطلاقه أي انه كان يحتوي على عبارات تشف عن غرام شديد . وكانت جوزفين تسر بتلك العواطف وان لم تكن تخلو من الغيرة وكاني لا أزال أسمعها تقرأ بعض عبارات يقول لها فيها زوجها وهو يعالج اقصاء أفكار تزعجه : « واذا صح ذلك فخافي مدية عطيل » وكأني بي أيضاً أسمعها تقول : ما أبرد بونابرت ! وكيفما كان الامر فقد كانت لهجة هذا الكتاب شديدة لا تحتمل الرد فلم تلق بداً من الرحيل مع انه كان يشق عليها كثيراً مغادرة باريس والابتعاد عن منزلها بشارع شنترين والافتراق عن قصر اللكسمبور ورده الديركتوار .

غيرة بونابرت — وشخصت جوزفين الى ايطاليا ولكنها لم تكن على اتفاق ووئام مع زوجها فكتبت الى عمتها تقول لها : « ان المسيو سربلوني يبسط لك كيف استقبلوني في ايطاليا وكيف احتفوا بي في كل مكان خيم فيه ظلي وقد أقام لي جميع الامراء في ايطاليا حفلات شائقة ولم يتأخر غرندوق تسكانيا شقيق امبراطور النمسا عن الاحتفاء بي ومع ذلك أؤثر أن أكون خاملة الذكر في فرنسا على جميع هذه المجالي الاكرامية التي يبدونها لي . . . فقد تولتني السآمة . . . »

وكان بونابرت يتعذب عند رؤيته زوجته غير مبالية بتلك المظاهر وهو لم يكن ينى عن اظهار شدة الحب لها فكان يقول لها : « ان كتبك باردة اللهجة كالكتب التي تخطها امرأة لها من العمر خمسون سنة أو امرأة مضى على زواجها خمس عشرة سنة فالقارىء يرى فيها صداقة وعواطف باردة وهي تدل على لؤم وخساسة . ولم تدخري شيئاً من شأنه أن يجعلني كثير التذمر والشكوى فهل نضبت موارد حبك لي . لقد قضي الامر . وهل تبتغين أن تمالنيني بالقلى . اني أتمنى ذلك فكل شيء يحقر منزلة الانسان ما عدا البغض ولكن عدم الاكتراث والظهور بمظهر البرودة . . . »

وكانت الغيرة تنهش فؤاد بونابرت نهشاً يطبع فيه آثاراً لا تمحى . وحدث في ذات يوم في سنة ١٧٩٨ حين كان في مصر قبالة العريش انه كان يروح النفس متنزهاً وكان معه جونو فبلغه أخباراً مزعجة عن جوزفين وأخبره ان هذه الاخبار جاءت في رسائل خاصة وانتشرت بين الجيش فكان بونابرت يصغي اليه وعقله مشرد وعيناه زائغتان ثم ذهب الى بوريان وقال له : « انك غير مخلص لي . . . تباً للنساء . . . يا جوزفين . . . لو كنت صادق الود لأخبرتني بكل ما أخبرني به جونو فهو صديق وفي . . يا جوزفين . . . أنا بعيد عنها ست مئة فرسخ . . . فقد كان الواجب عليك أن تخبرني . . . يا جوزفين . . . لقد خنتني . . . الويل لك ولمن شاطرك هذه الخيانة . . . سأنتقم من جميع أولئك الشبان وأعفي آثارهم . . . أما هي فليس لديها سوى الطلاق . نعم الطلاق . الطلاق بشكل جهاري يكون عبرة رادعة ويجب عليّ الآن أن أكتب لأني مطلع على كل شيء ... فأنت مخطىء يا بوريان وقد كان من المقضي عليك أن توقفني على كل شيء » .

وكانت نار الغيرة تتأكله بحيث لم يسعه أن يخفي ذلك عن أوجين بوهرنه نجل جوزفين وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة وقد اتخذه حاجباً خاصاً له . وقال أوجين في هذا الصدد : « تعود أن يفضي اليّ في المساء بشكواه ويستودعني أسراره وهو يتمشى في خيمته وكنت أستطيع من دون سواي أن أتكلم معه بحرية فعالجت أن أسكن جأشه بما حضرني من كلام التسكين وبما أستطيعه وأنا في تلك السن مع احترامي له » .

تصالح الزوجين — ولما عاد بونابرت فجأة الى باريس في ١٦ اكتوبر سنة ١٧٩٩ لم يجد جوزفين في منزلها بشارع النصر فانها كانت قد ذهبت لملاقاته بطريق برغونيه ولكنها لم تلتق به لانه مر بنيفير فعادت على جناح السرعة الى باريس وكان التقاؤهما الاول في غاية البرودة ولكن بونابرت ما عتم أن فتن بمحاسن تلك المرأة التي سحرته وكانت بما لها من العلاقات في الهيئة الاجتماعية وبخبرتها في ادارة شؤون المنزل لازمة له ليمثل دوراً مزدوجاً : دور المتآمر الذي يدبر حركة لقلب الحكومة ودور المنتصر الذي يبتغي استمالة الناس اليه وتأليف دار يلتف حوله فيها كبراء القوم .

وكان عهد القنصلية سعيداً على جوزفين فكانت في التويلري ولا سيما في المالميزون قد أصبحت كملكة وكان سؤددها يزيد يوماً بعد يوم وانتهى بها الامر الى ان أصابت من زوجها عربون مودة كانت تعلق عليها أهمية عظمى .

واحتفل الكردينال فش خال الامبراطور في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ في قصر التويلري بزواج نابوليون وجوزفين الديني واشتركت جوزفين في ٢ دسمبر بحفلة التتويج فعصب نابوليون بيده جبينها بالتاج في حفلة لم يسبق لها نظير وكانت قد أصبحت زوجته الشرعية أمام الحق سبحانه وتعالى وصارت امبراطورة واعترف لها بهذه الصفة البابا والملوك والشعب .

جوزفين امبراطورة — اذا أرسلنا الكلام عن جوزفين وهي امبراطورة لم نجد على أعمالها أدنى غبار من الجهة السياسية فلم تكن تطمع بأن يكون لها تأثير وكلمة مسموعة في الدولة وهب دار في خلدها هذا الامر فان ابرازه الى حيز العمل كان متعذراً عليها ولذلك بقيت عائشة في عهد الامبراطورية كما كانت عائشة في عهد القنصلية فانها اشتهرت بجودة القلب ورقة العواطف والميل الى مؤاساة المساكين فاستخدمت تفوق مركزها لاغاثة الملهوفين ودفع عوادي الدهر عن المظلومين . فكم من محكوم عليه بالنفي عملت على محو اسمه من جدول المنفيين وأعادت اليه أمواله المحجوزة .

وبقيت جوزفين حافظة لنضارتها ومحاسنها الفتانة بعد تجاوزها الاربعين من عمرها فكان منظرها يخلب الالباب وكان فمها صغيراً وكانت تعلم كيف تخفي بعض أسنانها القبيحة . وكان لونها مائلا قليلا الى السمرة بيد انها كانت

تتبرج وتتخضب وكانت ممشوقة القامة ناعمة الخدين لدنة الانامل تفتن الناظرين بمشيتها ويمكن القول بالاجمال انها أحرزت جميع المحاسن التي خلدتها ريشة برودون . فكانت تبدو للانظار وتسحر الالباب وتدعو الناس الى الاعجاب بها وهي جالسة للتأمل على الصخور في غابة المالميزون وقد لبست ثوباً أبيض يحسر عن كتفيها وذراعيها وقد وشي بالذهب وألقت على منكبيها رداء أحمر التفت بأطرافه .

اسراف جوزفين — وكانت جوزفين مستعبدة لميل تعدت فيه الحدود وهو حب التأنق في الملبس والتزين فكانت تنفق على ذلك مبالغ طائلة من المال ويروي بوريان حوادث شتى من هذا القبيل اسرها اليه الامبراطور عن الامبراطورة في شهر مارس سنة ١٨٠٥ فقال له « اذهب اليها وحاول أن تقنعها بالعدول عن نفقاتها الباهظة فكل يوم اطلع على شيء جديد في هذا الشأن وهذا يزعجني كثيراً . وحين اكلمها عنه يفور فائري فتبكي فاصفح عنها واصبح فتعدني بالاقلاع عن ذلك ولكنها لا تلبث أن تعود اليه في الغد فنعود الى المعاتبة والتقريع . » فذهب بوريان الى الامبراطورة ونقل اليها كلام الامبراطور فقالت له ببساطة مؤثرة : ماذا تريد أن أفعل وهم يأتونني بأشياء جميلة فلست مخطئة في ذلك ولا سيما بعد أن يعرضوها علي ويبالغوا في وصفها فاشتريها وهم لا يطلبون مني دفع ثمنها في الحال ولكنهم يعودون الى طلب ثمنها حين لا يكون معي نقود فيتصل خبرها به فيستشيط غضبا وحين يكون معي مال يا بوريان تعرف كيف أنفقه فان القسم الاكبر منه يبذل على المساكين الذين يطلبون رفدي فسأجتهد من الآن فصاعداً بأن أقتصد . قل له ذلك حين تبصره . »

ولم يكن تعنيف نابوليون لجوزفين على نفقاتها الجنونية بلا أساس فلم تكن تحجم عن اقتناء أي شيء ترغب في اقتنائه مهما كان ثمنه كبيراً فقد انتهى اليها في عهد القنصلية ان عند أحدهم عقداً من اللؤلؤ كان للملكة ماري انطوانت يبلغ ثمنه ٢٥٠ الف فرنك فتمكنت من الحصول على هذا المبلغ بمساعدة برتيه وزير الحرب عند تصفية حسابات مستشفيات ايطاليا ولكن كيف السبيل للبس العقد ونابوليون لم يكن قد عرف شيئاً من أمره وصممت أن تلبسه في ليلة ساهرة فقال لها بونابرت ما هذا الذي في عنقك ما أجملك اليوم ما هذه اللآلىء

فاني لم أبصرها عندك قبلا . فقالت له : بلى أبصرته أكثر من عشر مرات فهذا هو العقد الذي أهدتني اياه جمهورية ما وراء الالب وكنت أضع اللآلىء في شعري . . . فقال : ولكن يظهر لي . . فقالت : اذا لم تصدقني فاسأل بوريان يصدقك الخبر. فقال: وماذا تقول يا بوريان في هذا فهل تذكره . فقال نعم يا حضرة الجنرال اذكر اني رأيته قبلا . ولم يكذب بوريان في قوله هذا لان جوزفين كانت قد أرته العقد وهيأته لهذه الكذبة .

وكانت شديدة الولوع بالاردية الفاخرة فكان في خزائن ملابسها نحو أربع مئة منها وكانت تصنع منها فساتين وأغطية لسريرها ووسادات لكلبها وكانت تشتري من الاردية كل ماتعثر عليه بلا مساومة فكان ذلك يجرها الى نفقات باهظة ولما كانت شؤونها غير منظمة كانت أثمان الاردية تبقى في غالب الاحيان غير مدفوعة . ولما كان نابوليون في جزيرة البا وكانت جوزفين قد ماتت جاؤوه من جميع أنحاء ايطاليا بجداول حسابات لم تكن جوزفين قد دفعتها بعد فكان نابوليون يقول: لو كانت من ربات الترتيب لكانت قد تركت بعد وفاتها خمسين الى ستين مليون فرنك لانه دخل عليها أموال كثيرة .

اخلاقها — وكان الامبراطور ينحي عليها باللائمة لانها لم تكن محرزة قسطا وفيراً من العلم فلم تفتح قط كتابا ولم تقبض قط على قلم علي ان مثل هذا الامر لم يكن شيئاً مذكوراً في نظر زوج ميال الى الامور النسوية أما في ما سوى ذلك فقد كانت كاملة أو لم يجدها دائما ذات أخلاق رضية وذات طاعة تامة . فكان يقول : « واذا قضي على بأن أركب المركبة في جوف الليل لاذهب الى جهة بعيدة كنت أدهش من رؤيتي جوزفين مستعدة لمرافقتي وان لم يكن وجودها معي ضروريا فاقول لها لا يمكنك المسير معي فانا ذاهب الى مكان بعيد والسفر اليه شاق فتقول : أخطأت في قولك هذا فاقول : ولكن لا بد لي من الانطلاق في الحال فتقول : إني مستعدة . فاقول : ولكن يجب أن يكون معك حاشية . فتقول : لا تهتم بذلك فكل شيء معد . وكنت في كل مرة اجيب سؤلها . »

وقال نابوليون أيضاً عن جوزفين : « انها كانت راموز المحاسن ومثال اللطف وكانت قدوة في الطاعة والاخلاص والمجاملة في كل حين ولذلك أدخرها في فؤادي

ذكرى حسنة ومعرفة جميل متناهية . »

فكرة الطلاق — وكان لها أعداء كثيرون وكان من أشدهم عداء ابناء وبنات حميها وخصوصا لوسيان وكارولين فانهما لم يكونا يفتران عن الكيد لها وكل ذلك منشأه الحسد . وكانت هي تشعر بأنها حجر عثرة في سبيل حظ نابوليون من الجبن الذي شعرت فيه بأن سلطته اصبحت وراثية فلم تكن قد ولدت له أولاداً ولم تكن قادرة على ذلك وكانت تفكر وتقول : وما الفائدة له من بقائي معه لانها كانت تعرف مقدار أنانيته ولم يكن يغرب عنها ان الاسباب الدولية القاهرة ستنتهي بالتغلب على آثار ذلك الغرام الذي كان متيما والذي كانت ناره تنتعش من حين الى آخر ولكنه مع كل ذلك لم يكن سوى نار آخذة بالخمود وكان نابوليون قد أوشك قبل التتويج بايام أن يطلق جوزفين بصورة فظة فانها كانت قد عرفت أن له في سان كلود علاقات غرامية وعرف هو ذلك . فاستاء من انفضاح أمره واغلظ لها في الكلام وصمم على التملص منها والاصاخة الى صوت السياسة التي كانت تقتضي ان يكون له امرأة ولود . وقال لاوجين أن يوافيه الى سان كلود لكي ينظم شروط الطلاق لامه ولكن انقشعت الغمامة أمام نسيم لطف جوزفين ورشاش دموعها وزال كل شيء وانتهى الامر باقناعها اياه بان يتمم عقد الزواج — دينيا قبل التتويج بيومين — وطلبت من الكردينال فش بعد ما بارك الاكليل أن يعطيها شهادة خطية بواقع الحال وقد حفظت هذه الشهادة بكل اعتناء ولم ترض بأن تدفعها الى الامبراطور مع شدة الحاحه عليها بطلبها وقد توهمت انها ضمنت بها مستقبلها فرضيت بان تكون زوجة مطيعة لبعلها ومتغاضية عن جميع هفواته وكان نابوليون يستودعها اسراراً غريبة فتساعده في بعض الاحيان على تحطيم سلاسل كانت تثقل عليه .

ومع كل ذلك لم تكن هذه الأمور لتحول دون فكرة الطلاق فقد كانت من عهد بعيد تخالج ضمير نابوليون وتتقوى فيه يوما بعد يوم وقد قال لبوريان في سنة ١٨٠٥ : « لوكانت على الاقل قد ولدت لي ولداً فانا أتعذب كل حياتي لانه ليس لي ولد وأعلم أن دعائم مركزي لاتتوطد الا حين يكون لي ولد . وان أنا مت فلا يستطيع أحد من أخوتي ان يقوم مقامي. ان كل شيء ابتدأ ولكنه لم ينته فالله وحده يعلم ماذا يحدث . »

واقترح نابوليون أمراً غريبا على جوزفين بعـد التتويج بقليل من الحين فطلب منها أن تتظاهر بالحبل لينخدع الجميع بذلك وأن يقدم للناس طفلا يتوهمونه ابنه من دون أن تكون هي والدته. ويقال انها رضيت بذلك الاقتراح ولم يبق الا أن يوافق عليه كورفيزار طبيب العاهل الاول فقال له: اذا تمكنت من ضمان ولادة غلام يكون ابني فهل تريد أنت ان تشهد بان الامبراطورة ولدته بتدبير جميع الاشياء اللازمة لتمويه الحقيقة على الناس . فرفض كورفيزار موافقة الامبراطور على تلك الحيلة. ولـكن كان عند فوشه حل بسيط لتلك المسألة المعقدة وقد بسطها في سنة ١٨٠٥ بقوله: « ليت الامبراطورة تموت فتزول المصاعب ويتمكن الامبراطور من التزوج بامرأة تلد له أولاداً فانه ما دام بلا عقب من صلبه يخشى أن ينشأ عن وفاته تفكك أجزاء السلطنة التي أنشأها فليس أخوته قادرين على ادارة الشؤون فيغتنم أنصار البوربون الفرصة ويهبون لنيل أوطارهم وهذا ما لا بد من تلافيه . »

مفاتحة نابوليون بامر الطلاق — وخطر لنابوليون أن يتبنى ابن أخيه لويس ولـكنه ماعدا رغبته في أن يكون وارثه من صلبه كان يرى ابن شقيقه ضعيف البنية وهذا ما كان يقلق خاطره فاستند الى هذه الحجة وحدث جوزفين بمسألة الطلاق بانياً ذلك على ضرورة اتخاذ امرأة تلد له أولاداً فقال لها : « اذا تم مثل هذا الفكر ياجوزفين وجب عليك ان تساعديني على تدبير المسألة وأنا اعتمد على صداقتك لتخلصيني من المأزق الحرج الذي يدفعني اليه فصم عرى زواجنا الباعثة عليه أحوال قاهرة فانت تفاتحينني بالامر وانت مع مراعاتك للحالة التي أنا فيها تتدرعين بالشجاعة لتقرري بذلك شروط انفصالك عني .» فاجابته جوزفين بانفة وتمكنت من التجلد من دون أن تفوه بكلمة عن الحالة التي أبدى نابوليون مشيئته في ايصالها اليها واقتصرت على قولها له بلهجة تفصح عن حزن شديد مقرون بعزة نفس : « يامولاي أنت صاحب الأمر والنهي وفي يدك حظي فحين تأمرني بمغادرة التويلري ألبي أمرك في الحال ولـكن اصدار أمرك الي على هذا الشكل القطعي ليس بالأمر السهل فانا زوجتك وقد توجتني بحضور البابا فمثل هذا الشرف السامي يجعلني غير ميالة الى تركه بسهولة فاذا طلقتني عرفت فرنسا كلها أنك طردتني وهي تجهل مقدار طاعتي لك وحزني الشديد . »

وجعلوا يسعون لحل تلك المنكودة الطالع على الرضى بفصم عرى الزواج مختارة أو مكرهة عليه .

تدابير فوشه — وخلا نابوليون بفوشه وزير الشحنة العام في فنتنبلو في يوم من أيام اكتوبر ١٨٠٧ وكان هذا الوزير نائلا ثقة مولاه في ذلك الحين وطال الحديث بينهما ودعاه العاهل الى الغداء معه على مائدته في ذلك اليوم وكان نابوليون مبتهجا . وذهب خادم الامبراطورة الخاص في منتصف ليل ذلك اليوم للبحث عن عقيلة دي ريموزا أو زوجها كبير حجاب الامبراطور فاسرع المسيو دي ريموزا في المثول أمام الامبراطورة فوجدها منبوشة الشعر وقد خلعت قسما من ملابسها وانقلبت سحنتها فناولته رقعة طويلة بتوقيع فوشه وقد بلغ منها التأثر مبلغاً شديداً وكان فوشه يقول لها في الرقعة « انه يكتب اليها من تلقاء نفسه من دون أن يكون للعاهل اطلاع على ذلك وأنه يتوسل اليها بأن تحفظ المسعى الذي لجأ اليه سرا لنفسها وهو يعتبره مؤاتيا لمصلحة الامبراطورية فنابوليون صاحب السلطة العليا في فرنسا ولكن الاحوال تقضي بان تراعى مصلحة مستقبل فرنسا الموكولة اليه فلا ينبغي كتمان الحقيقة يامولاتي . ان مستقبل فرنسا السياسي مستهدف لنبال الخطر من جراء الافتقار الى وارث للامبراطور واني بصفة كوني وزيراً للشحنة أعرف حقيقة الرأي العام وأعلم أن الناس كثيرو الاهتمام بأمر الخلافة في الامبراطورية فتمثلي مقدار القوة التي تكون لعرش جلالته حين يكون معضوداً بوجود ابن له حوله . »

ولما كان فوشه معتقداً أن الامبراطور لا يقدم على مثل تلك التضحية جرؤ على الاشارة على الامبراطورة بان تفعل ذلك الجهد العظيم وتضحي بنفسها في سبيل فرنسا . ودخلت الامبراطورة في الغد على زوجها وأطلعته على كتاب فوشه فلم يكن ماأبداه من الدهش يقل عما أبداه من الغضب ولولم يكن الوزير قد انطلق الى باريس لكان قد وبخه توبيخا شديدا وكان مستعدا اذا شاءت جوزفين ذلك ان ينزل به عظيم العقوبة وان يفصله من منصبه . وصحب هذه الكلمات كثير من الملاطفة والمجاملة ولكنه كان يصعب على الامبراطور اخفاء ما كان يساوره من الاضطراب

وعاد فوشه بعد بضعة أيام الى فنتنبلو فاستقبله نابوليون ببرودة وكتب

اليه في ٥ نوفمبر ١٨٠٧ رسالة تفيض غضبا وقال له : « ياحضرة السيد فوشه انك تأتي من خمسة عشر يوما أعمالا تدل على الحماقة فقد آن الأوان لان تضع حدا لهذه الاعمال وان تكف عن التدخل رأسا أو بالواسطة بأمر لا يعنيك بوجه من الوجوه. هذه ارادتي. » ولكنه كان في الوقت عينه يقول لزوجته وهو يغالي في ملاطفتها : « انه فعل ذلك منقاداً الى غيرة شديدة على مصلحة الدولة فلا ينبغي أن نوغر الصدر عليه فيكفي أن نسد آذاننا عن سماع مشوراته وأن تتيقني اني لاأستطيع أن أعيش بدونك . »

ولكن فوشه لم يفتأ عن تحريك الرأي العام فكان رجال الشحنة يرددون في كل ناحية أنه من الضروري لمستقبل الحكم الامبراطوري أن يكون للامبراطور وارث من لحمه ودمه. وكانت مثل هذه الاحاديث تدور في جميع الملاهي وقد اعتقد نابوليون أن الرأي العام ممالىء له من هذه الجهة الدقيقة. وأراد فوشه أن يسبق مزاحمه البرنس دي بنيفان (تاليران) الى تدبير قضية الطلاق وكان يعلم أيضا أن كارولين شقيقة الامبراطور وملكة نابولي كانت تبغض جوزفين بغضا شديداً من عهد بعيد وتسعى لتدبير ذلك الطلاق متوسلة بوسائل شتى لنيل أمانيها .

تردد نابوليون — وكان تاليران يسعى لنكاية فوشه بالتظاهر بالدفاع عن مصالح جوزفين على أنه كان في الحقيقة يرغب كل الرغبة في وقوع الطلاق في الفرصة الملائمة لعقد زواج جديد كان يدبره من زمان طويل . فأوقفه الامبراطور على تردده الا أن مصلحة الدولة كانت تقوى يوما فيوما على ذكرى تلك المحبة القديمة .

وروت عقيلة دي ريموزا مشهداً غريباً وقع في شهر مارس ١٩٠٨ وقد عرفته من جوزفين نفسها فان الامبراطور دعا الامبراطورة الى تناول الطعام معه وكان الصمت والكآبة مخيمين فوق المائدة ودخلت الامبراطورة مخدعها بعد العشاء لترتدي ملابس السهرة ولكن جاؤوا ودعوها بحجة أن العاهل يشكو من ألم شديد في معدته . ولما أبصرها لم يقو على حبس عبراته فجذبها الى سريره وانطرح الى جانبها غير مبال بتعطيل ملابسها الفاخرة وضمها الى صدره وهو يقول : « ياعزيزتي جوزفين الحبيبة لا أستطيع فراقك . » وكان تهيجه العصبي يزداد

فأشارت عليه جوزفين بألا يظهر للناس على تلك الحال ونصحت له بأن يرقد . فأذعن لمقالها مشترطاً عليها بأن تنزع ملابسها وتنام الى جانبه وكان يردد قائلا ودموعه تسيل من محاجره : « انهم يحيطون بي ويضايقونني ويصيرون عيشي مراً » وكان في تلك الليلة يمزج التهييج بالحنان وثاب اليه الروع في الصباح .

تصميم نابوليون على الطلاق — وآخراً قرر نابوليون فكره وحيث أن الامبراطورة لم تظهر أنها فهمت مايبتغون منها عمله لم يبق الا أن يبلغوها ارادة لامرد لها فبعد التمهيد جاء دور الهجوم الفجائي وكان ذلك في ٣٠ نوفمبر ١٨٠٩ في قصر التويلري وقد شهده المسيو دي بوصه بصفة كونه قيم القصر واليك تفصيل الحادث :

« لما قدمت القهوة تناول نابوليون الفنجان من يد الخادم وأشار اليه بالانصراف وسمع في الحال صوت خرج من فم الامبراطورة جوزفين من غرفة الامبراطور . وهم الخفير الواقف أمام الغرفة بفتح الباب لظنه ان الامبراطورة أصيبت بوعكة فمنعته عن ذلك بقولي له ان الامبراطور يدعو الناس حين يرى أن الحال تقتضي ذلك . وكنت واقفاً الى جانب الباب حين فتحه نابوليون بيده . فلما أبصرني قال لي بتهييج: ادخل يابوصه واقفل الباب . فدخلت الغرفة وأبصرت الامبراطورة متمددة على الطنفسة وهي تبكي وتنتحب بصوت يلين له الجماد قائلة . « لا أقوى على الحياة بعد ذلك . » فقال لي نابوليون : هل تستطيع أن تحمل جوزفين الى غرفتها مارا بالدرج الداخلي ليعتنوا بها بحسب ماتحتاج اليه. فأنهضتها بين يدي بمساعدة نابوليون وتناول هو قنديلا عن المنضدة وفتح الباب وسار أمامي لينير لي الطريق . ولما وصلت الى الدرجة الأولى من الدرج قلت لنابوليون انه ضيق جداً وأخشى من العثار فنادى أحد الخدام وناوله المصباح وقبض على ساقي جوزفين ليساعدني على النزول براحة . ولما شعرت الامبراطورة بما أبذله من الجهد لئلا تسقط همست في أذني قائلة : انك تضغط علي كثيراً فعلمت حينئذ انه لاخوف على حياتها وانها لم يغم عليها دقيقة واحدة . وكان اضطراب الامبراطور وتهيجه شديدين فأخبرني في اثناء اضطرابه عن سبب الحادث الذي حدث وكانت الكلمات تخرج من فيه بجهد من دون أن يكون بعضها مرتبطاً بالبعض الآخر وكان صوته متهدجاً يدل على مايشعر به

من الضيق وكانت الدموع تتماطر من مقلتيه . وقد كان من الضروري أن يكون شديد التهيج حتى أفضى الي بتفصيل الحادث مع أني لم أكن من الذين تعود البوح لهم بمكتومات ضميره .

« ولم يدم هـذا المشهد أكثر من ثماني دقائق فأرسل نابوليون في الحال يدعو اليه كورفيزار والملكة هرتنس وكمباسارس وفوشه وقبل أن يصعد الى مخدعه ذهب بنفسه ليقف على حالة جوزفين فوجدها ساكنة الروع . »

وقد شهدت الامبراطورة في يوم الاحد في ٣ دسمبر صلاة الشكر المقامة للاحتفال بذكرى استرلتز ومعاهدة فينا وكانت جالسة في المحل المعد لها في كنيسة نوتردام . وشهدت في الغـد أيضاً مرقصاً شائقاً في دار بلدية باريس وكانت جالسة على عرش الى جانب الامبراطور وقد ترأست الاستقبال ثم أنها رافقته وهو يدور على المدعوين الحاضرين في الردهة وكانت جميع الانظار موجهة اليها ولكنها لم تفقد شيئاً من رباطة جأشها ولطفها . وكانت هذه المرة آخر مرة ظهرت فيها بين الناس بصفة رسمية .

الطلاق — وكان كل شيء مقرراً ولم يبق إلا اجراء المراسيم الرسمية وقد رضيت الامبراطورة بذلك كما جاء في كتاب مؤرخ في ١٥ دسمبر أملي عليها وهـذا نصه :

« باذن زوجي العظيم العزيز لا أرى لي بداً من التصريح بأنه لم يبق لي من أمل بالحصول على أولاد يقومون بحاجات سياسته ومصلحة فرنسا فيسرني أن أظهر له أكبر دليل على تعلقي به واخلاصي له مما يعطيه البشر على هذه الارض. فكل ماعندي أصبته من مكارمه فيده توجتني ومن أعلى هـذا العرش لم ألق إلا دلالات المودة والمحبة من الشعب الفرنسوي .

وأظن اني أعرب عن جميع هذه العواطف بقبولي الغاء زواج يعد من الآن فصاعداً حائلاً دون مصلحة فرنسا وخيرها ويحرمها الهناء الذي تصيبه يوما ما بصيرورتها تحت حكم أعقاب رجل عظيم أوجدته العناية لينسخ آثار ثورة هائلة ويرمم ماتداعى من المذابح والعرش والنظام الاجتماعي . على أن فصم عرى زواجي لايغير شيئاً من عواطف قلبي وسيلقى الامبراطور فيّ صديقة مخلصة . واني أعلم ما يسببه له من الغم هذا العمل الباعثة عليه السياسة والمصالح الخطيرة ولكننا

كلينا نشعر بعظمة بسبب هذه التضحية التي نضحي بها في سبيل وطننا
جوزفين »

ولم يكن الغاء هذا الزواج المدني مزعجا لان مجلس الشيوخ كان قد عهد اليه في تنظيم كل مالم يكن مستدركا في الدستور وكانضروريا لحسن سيره . وقد أراد الامبراطور أن يأتي عملا غريبا ويبين أن ماوقع لم يقع بالاكراه ففوض الى أوجين دي بوهرنه أن يبلغ مجلس الشيوخ ما قررته والدته وقد فعل ذلك بصفة كونه كبير مستشاري الدولة .

فقال : « من الضروري لسعادة فرنسا أن يشيخ مؤسس هذه الاسرة الرابعة محاطاً باعقاب يتحدرون منه ويكونون ضمانا لجميعنا . فالدموع التي ذرفها الامبراطور من جراء ذلك تكفي لاعلاء شأن والدتي . »

وكان الغاء الزواج الديني أصعب من الغاء الزواج المدني ولكن رجال الدين في باريس كانوا موالين للامبراطور فعلموا ان الزواج الذي عقد في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ لم يكن قانونيا لانه لم يسبقه اعلان المناداة التي يقتضيها الحق القانوني ولم يتم عقد الزواج بحضور خوري الرعية أو نائبه وان أهم شيء في هذه المستندات كان عدم وجود الرضى من جهة الامبراطور فلم يكن الزواج الديني والحالة هذه معتبراً عملا قانونيا .

واجتمع المجلس الخاص في الساعة العاشرة من مساء ١٤ دسمبر سنة ١٩٠٩ بغياب الامبراطور ليقرر تنظيم صك الطلاق وبعد قليل من الحين وقع نابوليون وجوزفين بحضور جميع الاسرة الامبراطورية الصك الملغي الزواج بموجبه . وبعد ما عرض الامبراطور في صباح الغد فصيلة من الحرس شهد انطلاق جوزفين في الساعة الثانية بعد الظهر فانها فصلت عن قصر التويلري ميممة قصر المالميزون لتقضي فيه ما بقي لها من العمر .

آخر حياة جوزفين في المالميزون — وأمر نابوليون بأن تبقى جوزفين حاملة لقب امبراطورة وملكة وخصص لها مرتبا سنويا قدره مليونا فرنك وزيد فيما بعد الى ثلاثة ملايين فرنك وكان يتحفها بهدايا نفيسة من حين الى أخر فاهداها في سنة ١٨١٠ مئة الف فرنك لنفقات غير عادية على المالميزون وبضع مئات من الوف الفرنكات لشراء عقد من الزمرد وادوات فضية للمائدة وملابس وغير ذلك من الاشياء . وكان يكثر

من زيارتها ويكتب اليها واصفا المالميزون بمثل العبارات الآتية : « ان هـذا المكان مملوء من عواطفنا فلا يستطيع شيء من الاشياء أن يغيرها من جهتي فانا شديد الشوق الى رؤيتك ولكن يجب أن أتحقق انك قوية ولا تدعين الوهن يساورك . فأنا أشعر بشيء من الضعف وهذا يعذبني قليلا . . . لا تدعي مجالا للريب يداخلك في حقيقة عواطفي نحوك فهي ستحيى في فؤادي ما حييت وان انت شككت في ذلك ارتكبت خطأ كبيراً . »

ولم تبرح جوزفين ذلك المكان الذي حسنته وأكثرت من غرس النباتات العطرية النـادرة في حديقته بحيث أصبحت كحديقة من حدائق النباتات المشهورة .

وجاءها العاهل في ذات يوم بابنه ملك رومية وكانت وهي تلعب بشعر هذا الغلام الأشقر تذري الدمع من عينيها . وقضت في المالميزون السنوات ١٨١٢ و ١٨١٣ و ١٨١٤ الحزينة المختلفة كل الاختلاف عن السنوات التي كانت فيها زوجة القنصل الاول والعاهل المظفر . فكانت تقول : « يخيل الي في بعض الأحيان أني مت وأنه لم يبق لي سوى تصور مبهم بشعوري بأني لست من عداد الاحياء في هذا العالم . »

وكان انها قبلما جاءها العاهل بابنه كتبت اليه رسالة لما بلغها خبر ولادة ولي العهد من الامبراطورة ماري لويز وكانت هي في منزلها بقصر نافار قرب افرو واليكم ترجمة الرسالة :

« كنت أرغب أن أعرف منك نبأ ولادة ملك رومية وليس من مدفع مدينة افرو ولكنني أدري قبل كل شيء أنك مدين بنفسك للدولة والأميرة التي حققت أعز آمالك وأسمى رغائبك . انها لا تستطيع أن تفوقني في الاخلاص لك ولكنها استطاعت أن تأتيك بما لم استطع اتيانك به وضمنت بذلك سعادة فرنسا . فلها الحق إذن بعواطفك الاولى وبعنايتك كلها وأنا رفيقة حياتك في أوان الشدائد لم يبق لي الحق بأن أحتل في قلبك الا مركزاً بعيداً جداً عن المركز الذي احتلته في قلبك الامبراطورة ماري لويز . وبعد أن تسهر حيناً من الزمان عند وسادتها وبعد أن تقبل ولدك تتناول قلما لتخط جواباً الى أشد صديقاتك اخلاصاً فأنا أقيم على حبل الانتظار . . . »

وفي هذه الرسالة وصف كاف لما كانت عليه نفس جوزفين بعد طلاقها فقد كانت راضية بالحالة التي صارت اليها وصابرة على نكد طالعها وباقية شديدة التعلق بالامبراطور مع ما أصابها من الغموم من جراء توليته اياها صفحه وقد بقيت على تلك الحال حتى آخر نسمة من حياتها .

ولما سقطت باريس في قبضة المتحالفين في شهر مايو سنة ١٨١٤ وعاد الامبراطور من جزيرة البا وهربت ماري لويز لاتلوي على شيء ولا تهتم بزوجها الذي جافاه الحظ كتبت جوزفين الى نابوليون ما يأتي :

« يا صاحب الجلالة اليوم أستطيع أن أقيس عظم النكبة التي نالتني برؤيتي الاربطة التي تقرنني بك مصرومة بيد القانون وأنتحب لاني لم أبق لك سوى صديقة لا يسعها الانتحاب على الداهية الدهماء غير المنتظرة النازلة بك . لا أرثي لك لفقدانك العرش فقد اختبرت بنفسي ان الانسان يستطيع أن يسلو هذا الامر ولكن يسوءني ما تشعر به من الكآبة من جراء انفصالك عن الاشخاص الذين صحبوك الى مواطن المجد والفخار . . فان ترك هؤلاء الابطال بلا زعيم كالزعيم الذي شاطرهم المشقات يكون شديد الوطأة على قلبك المكلوم . ولا أرى مندوحة عن مشاطرتك هذه العواطف ستبكي على نكران الجميل وتخلف الاصدقاء عنك وخذلهم اياك ولا سيما الاصدقاء الذين استرسلت اليهم فيا ليتني يا صاحب الجلالة أستطيع المضي اليك لاؤكد لك ان النفي لا يدخل الفرق والخشية الا على النفوس الصغيرة وان النكبات لا تفصم عرى التعلق الصادق بل تزيدها توثقاً . وقد أوشكت حيناً من الزمان أن أغادر فرنسا وأقتص أثرك وأخصص لك بقية حياة زينتها لي مدة طويلة ولكن ثبطني عن اللحاق بك سبب لا يخفى عليك كنهه .

« واذا علمت اني انا الوحيدة التي تحب أن تنهض بما يجب عليها فلا يحول شيء دون انطلاقي الى المكان المقيم انت فيه فألقى فيه الهناء اذ يتسنى لي حينئذ أن أسليك في خلوتك ومصائبك .. قل كلمة واحدة فأخف اليك . . . »

وهذه الكلمة المنتظرة بفروغ صبر لم يفه بها نابوليون فبقيت جوزفين في المالميزون ولكن لم تطل مدة اقامتها فيه .

وبينا هي عائدة بعد أيام من عند ابنتها الملكة هرتنس في سان لي تافرني

حيث كانت قد أدبت مأدبة لعاهل روسيا وملك بروسيا شعرت بتوعك في مزاجها فدعي في الحال طبيبها الخاص لمعالجتها وما عتمت أن ثابت اليها عافيتها . وجاء بعد مدة قصيرة لعيادتها صديق لها من نبلاء البريطانيين يدعى اللورد بفرلي ومعه نجلاه فاسهبت في محادثته عن العاهل نابوليون وكان من جملة ما قالته له : « اني وان لم أبق زوجة له صممت على موافاته غداً بحيث لا ينجم عن عملي هذا استياء الزوجة التي فضلها علي ويلذ لي خصيصا في هذا الحين ان أكون الى جانبه لاشاطره حمل أعباء التبرم في جزيرة البا وأقاسمه الاحزان التي دهمته على أني لم اشعر منذ طلاقي بمثل كآبتي اليوم . . . »

وكان تعلقها بنابوليون شغلا شاغلا لها وقد اكتسب لها ذلك التعلق بالعاهل الهاوي عن عرشه ميل الشعب اليها .

وزارها الاسكندر قيصر الروس في منزلها بالمالمزون في ١٠ مايو وتناول الطعام عندها وأبدى لها صداقة شديدة وسر بمعاشرتها ومعاشرة ابنتها الملكة هرتنس ونجلها البرنس أوجين . فاستقبلته الامبرطورة في الردهة ثم خرجت الى الحديقة للتنزه معه . وكانت صحتها تضعف شيئاً فشيئاً .

وزارها أيضاً الاسكندر قيصر روسيا في ٢٤ مايو ومعه ملك بروسيا فاستقبلتهما جوزفين في هذه المرة أيضاً ولكنها ما لبثت أن شعرت بتعب شديد فاستأذنت من ضيفيها ودخلت غرفتها وبقيت ابنتها هرتنس معهما . وصارت وطأة المرض تشتد عليها من ذلك الحين وكانت تشعر بآلام مبرحة في حلقها فوصف لها الاطباء نفاطة بين كتفيها ولكن الداء كان قد استفحل أمره وأصبح لا ينجع فيه دواء . وغاصت في الليل الذي بين ٢٧ مايو و٢٨ منه في لجة كرى بعيدة القرار وظلت خمس ساعات على تلك الحال وكان هذا نذيراً بالموت .

ولما نمي الخبر الى قيصر روسيا خف الى عيادة جوزفين فلم تتمكن من محادثته بل ألقت عليه نظرة ملؤها معرفة الجميل . وكان الامير أوجين والملكة هرتنس راكعين الى جانب سرير المحتضرة . وتزعم احدى صديقات جوزفين ان الامبراطورة قالت وهي تجود نفسها : « لقد سعيت دائمًا لجر السعادة الى فرنسا وبذلت غاية المجهود لادراك هذه الضالة ويمكنني أن أقول أمام جميع الناس

وانا غير محاذرة في قولي لومة لائم ان زوجة نابوليون الاولى لم تسبب قط ذرف عبرة من العبرات . . . »

وفاضت روح الامبراطورة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين من صباح يوم ٢٩ مايو سنة ١٨١٤ . وكانت تلك الوفاة الفجائية التي وقعت بعد رجوع البوربون ببضعة أيام قد اثارت في صدور القوم بعض المزاعم الغريبة فذهب بعضهم انها ذهبت ضحية السم وان تاليران ارتكب هذه الجريمة السياسية الفظيعة وقد بعثت الاسباب التالية على الظن بان جوزفين ماتت مسمومة :

« ان الشعب الفرنسوي لم يستقبل بالتحمس الملك الشرعي فخافوا السعي لارجاع الامبراطورية وحيث ان رجوع نابوليون لم يكن مؤكداً كان البرنس اوجين بوهرنه الرجل المعد للجلوس على عرش الامبراطورية وهو جندي باسل يحبه الشعب ويميل الى اللحاق به . واذا كانت جوزفين قد تزلفت الى قيصر روسيا فانها لم تفعل ذلك الا لاستمالته الى نجلها . أو لم يكن امبراطور روسيا في ذلك الحين مسلطاً على حظ فرنسا . أولم تكن كلمته مسموعة فيها أكثر من كلمة الملك لويس الثامن عشر . وحسب الحزب الملكي الف حساب لتردد القيصر على المالميزون لرؤية جوزفين وعلى سان لو لمشاهدة الملكة هرتنس ولاظهار شدة ميله الى الامير أوجين . . . فخطر لذلك الحزب أن يقضي على جوزفين بالتواري فينهدم صرح التدابير التي كانت تسعى لاعدادها طمعاً باجلاس نجلها على عرش الامبراطورية . ويؤكد المسيو دي منغاليار ان أمر جوزفين تقرر في ٢٢ مايو سنة ١٨١٤ في حديث دار بين لويس الثامن عشر وتاليران حتى انه يروي الكلام عينه الذي دار بينهما ويقول ان تاليران قال للملك : ان إغواء زوجة نابوليون الاولى لاماهل الروس يجلب علينا خطراً عظيما فالقيصر يعتقد انه يأتي عملا من أعمال المروءة بمد يد المساعدة الى عقيلة دي بوهرنه ونجلها الا ان دهاء جلالتك وحكمتك السامية وخلقك النبيل فوق جميع المزاعم التي يطمع أصحابها بهضم حقوق الملكية المقدسة وعلاوة على ذلك لنا علاج لكل شيء ويمكن اتخاذ التدابير التي . . . فقطع عليه لويس الثامن عشر كلامه قائلا : حسناً قلت يا مسيو تاليران فالسياسة الحقيقية لا تقف عند الاعتبارات المبتذلة فملك فرنسا يعول على سمو مداركك واخلاصك وخبرتك في مسائل الحكومة الخطيرة .

وكان كلام الملك بمثابة اقرار على ما كان تاليران يرمي اليه من التدابير من دون أن يصرح بحقيقة هذه التدابير . . .

ويقال أن جوزفين تممت ارادة اخفاق المساعي التي كانت تدبرها لاستمالة عاهل الروس الى تحالها . »

الا أن التاريخ أنكر هذه التهمة وثبت فيما بعد أن الحديث المزعوم أنه دار بين لويس الثامن عشر وتاليران لا نصيب له من الصحة وقد كذب هذا الامر مؤرخو الامبراطورية جميعهم وخصوصا المسيو فريدريك ماسون . وقد بين الطب من جهة تطبيقه على الحادث التاريخي نوع موت جوزفين وأكد الدكتور كابانيس ان جوزفين توفيت بالتهاب الشعب الرئوية المصحوب بالذبحة الغنغرينية وكيفما كان الامر فقد كان لتخرمها رجة لا تحدث عادة عند تخرم غيرها من النساء في فرنسا ولا يثير في افئدة الملأ الفرنسوي مثل ما أثاره مصرعها من ساكنات الحب المقرون بالشفقة .

وقد ينهض بعض الناس ويقول أنها لم تكن تستوجب مثل هذه العواطف وانها كانت في ماضي حياتها تجنح عن الطريقة المثلى وأن الخفة كانت تستهويها وأنها كانت مسرفة مبذرة وانها كانت في غالب الاحيان تضطر العاهل عند اتيانها مثل تلك الامور المستهجنة المستوجبة الانتقاد الى الاستشاطة غضباً عليها ولكن لا يمكن حبس اللسان عن التنويه بجودة قلبها وعطفها على البائس الملهوف . أولم يقل زوجها نفسه في ذات يوم وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « هجرني سعدي لما هجرت جوزفين . » وكان الشعب الفرنسوي قد قال قبله حين طلق جوزفين الفاضلة واستبدل بها النمساوية الجلمودية الفؤاد: « سيكون هذا الأمر شؤماً عليه . »

جدول أسماء الأعلام في الجزء الثاني

لما كانت ترجمة بعض أسماء الأعلام من اللغة الفرنسوية الى اللغـة العربية تبعث في بعض الأحيان على الابهام والالتباس رأينا أن نضع جدولا لأسماء الأعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الأول وقد اتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية

— ا —

اباميننداس	Epaminondas
ابرسبرغ	Ebersberg
ابرسدرف	Ebersdorf
ابرنتس	Abrantès
ابرنون	Epernon
ابرني	Epernay
ابسيلنتي	Ipsilanti
ابله	Eblé
ابنسبرغ	Abensberg
ابو	Abo
أبو قير	Aboukir
ابولدا	Apolda
اتابل	Etaples
اتروريا	Etrurie
اتلنجن	Ettlingen
ادركلا	Aderklaa
أرانجويز	Aranjuez
ارتيز	Orthez
ارخا	Orcha
ارزا	Orza
ارستاد	Auerstaëdt
ارسيس	Arcis
ارفورت	Erfurth
أرل	Arles
ارمانياك	Armagnac
ارمنسبرغ	Ormansperg
ارنول	Arnault
اريزاغا	Arizaga
اسبرن	Ospern
اسبينوزا دي لوس منتيروس	Espinoza De Los Monteros
استرمان	Ostermann
استرني	Estrenay
استرود	Osterode
استرولنكا	Ostrolenka
استريا	Istrie

استند	Ostende
استوكهلم	Stockholm
اسطفان	Etienne
اسلنغ	Essling
اسن	Essen
اسوج	Suède
اشبيلية	Séville
اغسبورغ	Augsbourg
افريليون	Avrillon
اكس لاشابل	Aix-la-Chapelle
اكس	Aix
اكسلمان	Excelmans
اكمهل	Eckmühl
اكسون	Auxonne
آكن	Aken
الالافا	L' Alava
الال	L' Alle
الان	L' Inn
الب	Elbe
البا	Alba
البك	Albeck
البوفيرا	Albuféra
البويرة	Albuera
التكركن	Altkirken
الادرياتيك	L' Adriatique
الدنبورغ	Oldenbourg
الاراغون	L'Aragon

الارغون	L' Argonne
الارزوبسبو	L'Arzobispo
الزيرة	Alzire
الاسترعادور	L'Estrémadure
أميرالاستوريين	Prince Des Asturies
الاسكوريال	L' Escurial
الاغريقي	Le Grec
الفور	Alfort
الشنجن	Elchingen
الكسستن	Alexiston
الكسندرين	Alexandrine
الكنتز	Alcanitz
الالستر	L' Elster
الاندلس	L' Andalousie
الاودر	L'Oder
ألم	Ulm
الايزر	L' Isère
الاين	L' Aisne
ال ورانس	Ill-et-Rance
المو ناسيد	Almonacide
الزا	Elisa
آلن	Allent
الاوب	L' Aube
الايبر	L' Ypres
الايبيرية	L'Ibérique
اليكانت	Alicante

— ب —

باجول	Pajol
باداجوز	Badajoz
دي بادو	De Padoue
بارتا	Partha
بارسوراوب	Bar-Sur-Aube
بارليدوق	Bar-le-Duc
بارم	Parme
باروى	Barrois
الباسارج	La Passarge
باسكيه	Pasquier
باسنهيم	Passenheim
باكا	Bacca
باكله دلب	Bacler d'Albe
بال	Bâle
البالاتيني	Le Palatin
بالاغوير	Balaguer
بالافوكس	Palafox
بالا كوف	Balachoff
بالستروس	Ballesteros
باليسو	Pallisot
بانوس	Banos
باهلن	Pahlen
بايرت	Baireuth
بايلن	Baylen
بايون	Bayonne
دي بينا او بوبنا	De Bubna
بترارك	Pétrarque

بتروالد	Peterwalde
بتروسكويي	Petrowskoie
بتسدام	Potsdam
بتي	Petit
البرابان	Le Brabant
دي برادت	De Pradt
برداو	Prado
البرازيل	Le Brésil
براغ	Prague
براغا	Praga
براغانس	Bragance
برتاليس	Portalis
البرتوغال	Le Portugal
برتران	Bertrand
برتونو	Partounaux
برساك	Brissac
برسبورغ	Presbourg
برست	Brest
برسفرد	Beresford
برسلو	Breslau
البرسينا	La Bérésina
برشلونة	Barcelone
برغ	Berg
برغ أب زوم	Berg-op-Zoom
برغفريد	Bergfried
برغهوسن	Burghausen
برغوس	Burgos

برغونية	Bourgogne
برغيزي	Borghèse
بركلي	Barclay
بركيم	Berkeim
برلتز	Porlitz
برلين	Berlin
برن	Brunn
برنا	Pirna
برنتزلو	Prentzlow
برنتي	Pernetty
برنجن	Pringen
برندبورغ	Brandebourg
برنسويك الس	Brunswick-Aels
دي برنكا	De Brancas
برنيه	Brenier
بروتوس	Brutus
بروسل	Bruxelles
بروسيا	Prusse
دي بروفنس	De Provence
بروسيك ايلو	Preussik-Eylau
بروصيه	Broussier
بروفان	Provins
برون	Brune
برون	Brunn
بريار	Briare
بريان	Brienne
دي بريفان	De Prévannes
بريج	Bruges
بريجل	Prégel
بريفو	Prevost
بريفيون	Pérignon
بستيا	Bastia
البستيل	La Bastille
البسكية	Les Pasques
بسيار	Bessières
بطرس الاكبر	Pierre Le Grand
بطرسبرج	Petersbourg
بغراسيون	Bagration
بفافنهوفن	Pfaffenhofen
بكسهودن	Buxhowden
بلاتوف	Platow
بلازنس	Plaisance
بلاسنسيا	Placencia
بلافه	Blavet
بلاك	Blake
بلخنتزي	Plechnitsi
بلاون	Plauen
بلتيمور	Baltimore
بلسي شامان	Plessis-Chaman
بلشيت	Belchitte
بحر البلطيك	La Baltique
بلغارد	Bellegarde
بلنتز	Pilnitz
بلنسية	Valence

Borodino	بورودينو
Borowsk	بوروسك
Borisof	بوريسوف
Poserna	بوزرنا
Posen	بوزن
Beausset	بوصه
Bossuet	بوصويه
Butturlen	بوطرلن
Puthod	بوطود
Potocki	بوطوكي
Bug	بوغ
Bouvet-de-Lozier	بوفه دي لوزيه
Beaucaire	بوكير
Bouland	بولان
Pultusk	بولتسك أو بلطسك
Polsk	بولسك
Polotsk	بولوتسك
De Bulow	دي بولوف
Pologne	بولونيا
Pauline	بولين
De Polignac	دي بولينياك
De Pompadour	دي بومبادور
Poméranie	بوميرانيا
Poniatowsky	بونياتسكي
Boniface	بونيفاسيوس
Poniémen	بونيمن
Bohême	بوهيميا
Du Belloy	دي بلوى
Blücher	بلوخر
Plouzonne	بلوزون
De Bellune	دي بلون
Pleiss	بليس
Pleineselve	بلينسلف
Bamberg	بمبرغ
Pampelune	بمبلونة
Benavente	بنافنتي
Ponte-Corvo	بنتي كرفو
Les Bénédictins	البندكتيون
Pondichéry	بنديشيري
Bentham	بنتام
Buntzlau	بنتزلو
Beningsen	بننغزن
Benvenutti	بنفنوتي
Bénévent	بنيفان
Boyer	بواياي
Bobr	بوبر
Bautzen	بوتزن
Porto-Maurizio	بورتو موريزيو
Bordeaux	بوردو
Bourcier	بورسيه
Borysthène	بورستين
Bourguignon	بورغنيون
Porlier	بورليه
Bourmont	بورمون

بوين ريتيرو	Buen-Retiro
بياترا سانتا	Pietra-Santa
البيارن	Le Béarn
بيافا	Piava
بيانكي	Bianchi
بيبراخ	Biberach
بيزا	Pise
بيزانه	Bizannet
بيسنغ	Peissing
بيشروتز	Peicherwitz
بيشغرو	Pichegru
بيلاج	Pélage
بيلار	Pilar
بيلون	Pilon
بيومبينو	Piombino
بفرلي	Beverly
برودون	Prud'hon

(ت)

التاج	Le Tage
تاشردي لاباجري	Tascher de la Pagerie
تاليان	Tallien
تالافيرارينا	Talaveyra de la Reyna
تايلر	Taylor
تركيا	Turquie
تريستي	Trieste
تريانون	Trianon
تروكسيلو	Teruxillo
تريف	Trèves
تريفيز	Trévise
تريزا كباروس	Thérèse Cabarrus
تلست	Tilsitt
دي تلستوي	De Tolstoï
تشيرين	Tscherin
تور	Tours
تيمورلنك	Tamerlan
تمستوكل	Thémistocle

(ج)

جاكا	Jaca
جاكوبوفو	Jakubowo
جان دارك	Jeanne d'Arc
جاكوليف	Jakowleff
الجبال السوداء	Les Montagnes Noires
جرجنتال	Georgenthal
جنترسدف	Juntersdof
جنفياف	Geneviève
دي جنلي	De Genlis
جوبير	Joubert
جورداز	Jaurdan
جوبرتو	Joubertou

وكان كلام الملك بمثابة اقرار على ما كان تاليران يرمي اليه من التدابير من دون أن يصرح بحقيقة هذه التدابير . . .

ويقال أن جوزفين فهمت ارادة اخفاق المساعي التي كانت تدبرها لاستمالة عاهل الروس الى مجلها . »

الا أن التاريخ أنكر هذه التهمة وثبت فيما بعد أن الحديث المزعوم أنه دار بين لويس الثامن عشر وتاليران لانصيب له من الصحة وقد كذب هذا الامر مؤرخو الامبراطورية جميعهم وخصوصا المسيو فريدريك ماسون . وقد بين الطب من جهة تطبيقه على الحادث التاريخي نوع موت جوزفين وأكد الدكتور كابانيس ان جوزفين توفيت بالتهاب الشعب الرئوية المصحوب بالذبحة الغنغرينية وكيفما كان الامر فقد كان لتخرمها رجة لاتحدث عادة عند تخرم غيرها من النساء في فرنسا ولا يثير في افئدة الملأ الفرنسوي مثل ماأثاره مصرعها من ساكنات الحب المقرون بالشفقة .

وقد ينهض بعض الناس ويقول أنها لم تكن تستوجب مثل هذه العواطف وانها كانت في ماضي حياتها تجنح عن الطريقة المثلى وأن الخفة كانت تستهويها وأنها كانت مسرفة مبذرة وانها كانت في غالب الاحيان تضطر العاهل عند اتيانها مثل تلك الامور المستهجنة المستوجبة الانتقاد الى الاستشاطة غضباً عليها ولكن لايمكن حبس اللسان عن التنويه بجودة قلبها وعطفها على البائس الملهوف . أولم يقل زوجها نفسه في ذات يوم وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « هجرني سعدي لما هجرت جوزفين . » وكان الشعب الفرنسوي قد قال قبله حين طلق جوزفين الفاضلة واستبدل بها النمساوية الجلمودية الفؤاد: « سيكون هذا الأمر شؤماً عليه . »

جدول أسماء الأعلام في الجزء الثاني

لما كانت ترجمة بعض أسماء الأعلام من اللغة الفرنسوية الى اللغـة العربية تبعث في بعض الأحيان على الابهام والالتباس رأينا أن نضع جدولا لأسماء الأعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الأول وقد اتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية

— ا —

اباميننداس	Epaminondas	ارخا	Orcha
ابرسبرغ	Ebersberg	ارزا	Orza
ابرسدرف	Ebersdorf	ارستاد	Auerstaedt
ابرنتس	Abrantès	ارسيس	Arcis
ابرنون	Epernon	ارفورت	Erfurth
ابرني	Epernay	أرل	Arles
ابسيلنتي	Ipsilanti	ارمانياك	Armagnac
ابله	Eblé	ارمنسبرغ	Ormansperg
ابنسبرغ	Abensberg	ارنول	Arnault
ابو	Abo	اريزاغا	Arizaga
أبو قير	Aboukir	اسبرن	Ospern
ابولدا	Apolda	اسبينوزا دي لوس منتيروس	Espinoza De Los Monteros
اتابل	Etaples	استرمان	Ostermann
اتروريا	Etrurie	استرني	Estrenay
اتلنجن	Ettlingen	استرود	Osterode
ادركلا	Aderklaa	استرولنكا	Ostrolenka
أرانجويز	Aranjuez	استريا	Istrie
ارتيز	Orthez		

استند Ostende
استوكهلم Stockholm
اسطفان Etienne
اسلنغ Essling
اسن Essen
اسوج Suède
اشبيلية Séville
اغسبورغ Augsbourg
افريليون Avrillon
اكس لاشابل Aix-la-Chapelle
اكس Aix
اكسلمان Excelmans
اكمهل Eckmühl
اكسون Auxonne
آكن Aken
الالافا L' Alava
الال L' Alle
الان L' Inn
الب Elbe
البا Alba
البك Albeck
البوفيرا Albuféra
البورة Albuera
التكركن Altkirken
الادرياتيك L' Adriatique
الدنبورغ Oldenbourg
الاراغون L'Aragon

الارغون L' Argonne
الارزوبسبو L'Arzobispo
الزيرة Alzire
الاستريمادور L'Eslrémadure
أميرالاستوريين Prince Des Asturies
الاسكوريال L' Escurial
الاغريقي Le Grec
الفور Alfort
الشنجن Elchingen
الكسستن Alexiston
الكسندرين Alexandrine
الكنتز Alcanitz
الالستر L' Elster
الاندلس L' Andalousie
الاودر L'Oder
ألم Ulm
الايزر L'Isère
الاين L' Aisne
ال ورانس Ill-et-Rance
المو ناسيد Almonacide
اليزا Elisa
آلن Allent
الاوب L' Aube
الايبر L' Ypres
الايبيرية L'Ibérique
اليكانت Alicante

— ب —

باجول	Pajol
باداجوز	Badajoz
دي بادو	De Padoue
بارتا	Partha
بارسوراوب	Bar-Sur-Aube
بارليدوق	Bar-le-Duc
بارم	Parme
باروى	Barrois
الباسارج	La Passarge
باسكيه	Pasquier
باسنهيم	Passenheim
باكا	Bacca
باكله دلب	Bacler d'Albe
بال	Bâle
البالاتيني	Le Palatin
بالاغوير	Balaguer
بالافوكس	Palafox
بالاكوف	Balachoff
بالسبروس	Ballesteros
باليسو	Pallisot
بانوس	Banos
باهلن	Pahlen
بايرت	Baireuth
بايلن	Baylen
بايون	Bayonne
دي بينا او بوبنا	De Bubna
بترارك	Pétrarque

بتروالد	Peterwalde
بتروسكويي	Petrowskoie
بتسدام	Potsdam
بتي	Petit
البرابان	Le Brabant
دي برادت	De Pradt
برداو	Prado
البرازيل	Le Brésil
براغ	Prague
براغا	Praga
براغانس	Bragance
برتاليس	Portalis
البرتوغال	Le Portugal
برتران	Bertrand
برتونو	Partounaux
برساك	Brissac
برسبورغ	Presbourg
برست	Brest
برسفرد	Beresford
برسلو	Breslau
البرسينا	La Bérésina
برشلونة	Barcelone
برغ	Berg
برغ أب زوم	Berg-op-Zoom
برغفريد	Bergfried
برغهوسن	Burghausen
برغوس	Burgos

برغونية	Bourgogne
برغيزي	Borghèse
بركلي	Barclay
بركيم	Berkeim
برلتز	Porlitz
برلين	Berlin
برن	Brunn
برنا	Pirna
برنتزلو	Prentzlow
برنتي	Pernetty
برنجن	Pringen
برندبورغ	Brandebourg
برنسويك الس	Brunswick-Aels
دي برنكا	De Brancas
برنيه	Brenier
بروتوس	Brutus
بروسل	Bruxelles
بروسيا	Prusse
دي بروفنس	De Provence
بروسيك ايلو	Preussik-Eylau
بروصيه	Broussier
بروفان	Provins
برون	Brune
برون	Brunn
بريار	Briare
بريان	Brienne
دي بريفان	De Prévannes
بريج	Bruges
بريجل	Prégel
بريفو	Prevost
برينيون	Pérignon
بستيا	Bastia
البستيل	La Bastille
البسكية	Les Pasques
بسيار	Bessières
بطرس الاكبر	Pierre Le Grand
بطرسبرج	Petersbourg
بغراسيون	Bagration
بفافنهوفن	Pfaffenhofen
بكسهودن	Buxhowden
بلاتوف	Platow
بلازنس	Plaisance
بلاسنسيا	Placencia
بلافه	Blavet
بلاك	Blake
بلخنتزي	Plechnitsi
بلاون	Plauen
بلتيمور	Baltimore
بلسي شامان	Plessis-Chaman
بلشيت	Belchitte
بحر البلطيك	La Baltique
بلغارد	Bellegarde
بلنتز	Pilnitz
بلنسية	Valence

Du Belloy	دي بلوى
Blücher	بلوخر
Plouzonne	بلوزون
De Bellune	دي بلون
Pleiss —	بليس
Pleineselve	بلينسلف
Bamberg	بمبرغ
Pampelune	بمبلونة
Benavente	بنافنتي
Ponte-Corvo	بنتي كرفو
Les Bénédictins	البندكتيون
Pondichéry	بنديشيري
Bentham	بنتام
Buntzlau	بنتزلو
Beningsen	بننغزن
Benvenutti	بنفنوتي
Bénévent	بنيفان
Boyer	بواياي
Bobr	بوبر
Bautzen	بوتزن
Porto-Maurizio	بورتو موريزيو
Bordeaux	بوردو
Bourcier	بورسيه
Borysthène	بوريستين
Bourguignon	بورغنيون
Porlier	بورليه
Bourmont	بورمون
Borodino	بورودينو
Borowsk	بوروسك
Borisof	بوريسوف
Poserna	بوزرنا
Posen	بوزن
Beausset	بوصه
Bossuet	بوصويه
Butturlen	بوطرلن
Puthod	بوطود
Potocki	بوطوكي
Bug	بوغ
Bouvet-de-Lozier	بوفه دي لوزيه
Beaucaire	بوكير
Bouland	بولان
Pultusk	بولتسك أو بلطسك
Polsk	بولسك
Polotsk	بولوتسك
De Bulow	دي بولوف
Pologne	بولونيا
Pauline	بولين
De Polignac	دي بولينياك
De Pompadour	دي بومبادور
Poméranie	بوميرانيا
Poniatowsky	بونياتسكي
Boniface	بونيفاسيوس
Poniémen	بونيمن
Bohême	بوهيميا

بوين ريتيرو — Buen-Retiro
بياترا سانتا — Pietra-Santa
البيارن — Le Béarn
بيافا — Piava
بيانكي — Bianchi
بيبراخ — Biberach
بيزا — Pise
بيزانه — Bizannet
بيسنغ — Peissing

بيشروتز — Peicherwitz
بيشغرو — Pichegru
بيلاج — Pélage
بيلار — Pilar
بيلون — Pilon
بيومبينو — Piombino
بفرلي — Beverly
برودون — Prud'hon

(ت)

التاج — Le Tage
تاشردي لاباجري — Tascher de la Pagerie
تاليان — Tallien
تالافيرارينا — Talaveyra de la Reyna
تايلر — Taylor
تركيا — Turquie
تريستي — Trieste
تريانون — Trianon
تروكسيلو — Teruxillo

تريف — Trèves
تريفيز — Trévise
تريزا كباروس — Thérèse Cabarrus
تلست — Tilsitt
دي تلستوي — De Tolstoï
تشيرين — Tscherin
تور — Tours
تيمورلنك — Tamerlan
تمستوكل — Thémistocle

(ج)

جاكا — Jaca
جاكوبوفو — Jakubowo
جان دارك — Jeanne d'Arc
جاكوليف — Jakowleff
الجبال السوداء — Les Montagnes Noires
جرجنتال — Georgenthal

جنترسدف — Juntersdof
جنفياف — Geneviève
دي جنلي — De Genlis
جوبير — Joubert
جوردان — Jaurdan
جوبرتو — Joubertou

Goi ice	غوريس	Gustadt	غستاد
Gossa	غوسا	Gustave-Adolphe	غستاف ادلف
Gorodeczna	غورودكزنا	Guilleminot	غلمينو
Gourgaud	غورغو	Glinzendorf	غلنزندرف
Guastalla	غوستالا	Glogau	غلوغو
Gouvion - Saint-Cyr	غوفيون سان سير	Gobel	غوبل
Goldberg	غولدبرغ	Gentz	غنتز
Golymin	غوليمين	Gotta	غوتا
Gué-à-trème	غي آتريم	Günzbourg	غنزبورغ
Guidal	غيدال	Gutakowski	غوتاكوفسكي
Guimarans	غيمارانس	Gudin	غودان
Guindet	غينده	Godding	غودن
Guignes	غينيه	Godoï	غودوي
Guyot	غيو	Gordonia	غوردنيا
		Gorzakoff	غورزاكوف

— ف —

Valoutina	ڤالوتينا	Fabre	ڤابر
Valogne	ڤالونيه	Fabvier	ڤابفيه
Fain	ڤان	Le Vatican	الڤاتيكان
De Vaublanc	دي ڤبلان	Varus	ڤارس
Vitry	ڤتري	Vachau	ڤاشو
Vittoria	ڤتوريا	Valladolid	ڤالادوليد
L'Euphrate	الفرات	Valençay	ڤالنساي
Ferrare	فراري	Valée	ڤاله
La Ferté	الفرته	Valhuber	ڤالهوبر

فرته سوجوار	Ferté-Sous-Jouarre
فردلاند	Friedland
فردون	Verdun
فرديناند	Ferdinand
دي فرسن	De Fersen
فرسيل	Pharsile
فرسوفيا	Varsovie
دي فرشفيل	De Frescheville
فركروى	Fourcroy
الفروند	La Fronde
دون فرنسيسكو	Don Francisco
الفرنش كونته	La Franche-Comté
فروشو	Frochot
فرومنتو	Fromenteau
فرنكونيا	Franconie
فرنويل	Verneuil
فرهويل	Verhuel
فريان	Friant
فريبرغ	Freyberg
فريبورغ	Freybourg
فريجوس	Fréjus
فريدريك	Frédéric
فررون	Fréron
الفستول	La Vistule
فش	Fesch
فكتورعمانوئيل	Victor-Emmanuel
فلاخيا	Valachie
فلاهو	Flahaut
فلسنغ	Flessingue
دي فلمي	De Valmy
فلنوف	Villeneuve
فلني	Volney
فلنسبرغ	Flensberg
فلهينيا	Volhynie
فلوجرغ	Flaugergue
فلورنسة	Florence
دي فلوريو	De Fleurieu
فنتان	Fontanes
فندام	Vandamme
فنغاس	Venegas
فنكنستين	Finkenstein
فواياي درجنسن	Voyer d'Argenson
فور دي فرانس	Fort-de France
الفورس	La Force
فورنيه	Fournier
فوشان	Vauchamp
فوشه	Fouché
فوشه	Foucher
فولد	Fulde
فيازما	Viazma
فيتربي	Viterbe
فيدوني	Vidoni
فيرشمبنواز	Fère-Champenoise
فيريا	Véréia

Villenberg	فيلنبرغ	De Vicence	دي فيسنس
Fili	فيلي	Vischau	فيشو
La Vilia	الفيليا	De Vivès	دي فيفس
Fisme	فيم	Villacampa	فيلا كمبا
Vimeiro	فيميرو	Villeneuve — le-Comte	فيلنوف ليكنت
Philippe II	فيليب الثاني	Wilna	فيلنا

— ق —

Constantinople	القسطنطينية	Cadix	قادس
Castille	قسطيلة	L'Ile de Sainte-Hélène	جزيرة القديسة هيلانه
Cosaque	قوزاق		
		Constantin	قسطنطين

— ك —

Cassel	كاسل	Cabanis	كابانيس
Castlereagh	كاسلري	Kapelsdorf	كابلسدرف
Le Cavado	الكافادو	Les Capucines	الكابوسين
Calais	كاله	Le Capitole	الكابيتول
Kalocza	كالوكزا	Catalogne	كاتالونيا
Caligula	كاليغولا	Caton	كاتون
Kaminski	كامنسكي	Cadoudal	كادودال
Canova	كانوفا	Don Carlos	دون كارلوس
Canonville	كانونفيل	Charles IV	كارلوس الرابع
Canino	كانينو	Caro	كارو
Kaïa	كايا	Carrousel	كاروسل
Caën	كاين	Caroline	كارولين

كبرارا	Caprara
كربني	Corbeny
كبلنتز	Coblentz
كتكارت	Cattcart
كراسنوي	Krasnoï
كران	Craonne
كرجنر	Kirgener
كرداد	Cardade
كرستوف	Christophe
كرسومب	Kursomb
كرسي	Crécy
الكرملين	Le Kremlin
كريستين	Christine
آدم كزارتورسكي	Adam Czartorys-ki
كزارنوفو	Czarnovo
كستيليا	Castille
كستانوس	Castanos
الكستليانية	Castillane
كسكنت	Cascante
كلاباريد	Claparède
القديسة كلارا	Sainte-Claire
كلاري	Clary
كلكروث	Kalkreuth
كلفينوس	Calvin
كلوديوس	Claude
كلوفس	Clovis

كلوني	Cluny
كالفي	Calvi
كليست	Kleist
كلم	Kulm
كلوتيلد	Clotilde
كلينو كلين	Klenau Klein
كليف	Clèves
كمبير	Compère
كنديلياك	Condillac
كمبان	Compans
كنسبرغ	Koenigsberg
كمبرن	Combronne
كنوبلسدرف	Knobelsdorf
الكنتبريون	Les Cantabres
كهل	Kehl
كوبنزل	Cobentzel
كوانسا	Cuença
كوتوزوف	Kutusov
كوراكين	Kourakin
كورلاند	Courlande
كوريال	Curial
كوردلياي	Cordeliers
كوبنهاغن	Copenhague
الكورسو	Le Corso
كوره	Curée
كورين	Corinne
الكورونيا	La Corogne

كورنوبورغ	Korneubourg
كورتي	Corte
كوزن	Koesen
كوستران	Custrin
كوستا	Cuesta
كولونيا	Cologne
كولوريدو	Colloredo
كولنباخ	Collenbach
كولانكور	Caulaincourt
كوفيه	Cuvier
كولوراث	Kollowrath
كولنياف	Koulniew
كولوغا	Kologha
كولومنا	Kolomna
كومارخي	Comarchi
كومودیوس	Commode
كومرتان	Caumartin
كونو	Kowno
كونوز	Connewitz
كونتي	Conti
كيناماير	Kienmayer
الكويرينال	Le Quirinal
كيروغا	Quiroga
كيس	Queiss

— ل —

لابانوف	Labanof
لابرويار	La Bruyère
لابلاس	La Place
لابويب	Lapoybe
لاترافا	La Trava
لاجوله	Lajolais
لارومانا	La Romana
لاريبواسيار	Lariboissière
لاسال	Lassalle
لاسي	Lacy
لاسيبيد	Lacépède
لافون	Lafon
لاكن	Laken
لامارك	Lamarque
لاموط	Lamotte
لان	Laon
لانج	Lange
لاندشت	Landshut
لانشيلتي	Lanciletti
لاهوري	Lahorie
لاهوغ	La Hogue
لاون	Léon
لبرتون	Lebreton
لبرون	Lebrun
ليبسيك اوليبزيك	Leipsick
ليبوديسلد	Lippodiswalde

Louisbourg	لويزبورغ
Louisiana	لويزبانا
Louis le Débonnaire	لويس الحليم
De Luynes	دي لوين
De Liéven	دي ليافن
Lieberwolkwitz	ليبرولكوتز
Lech	ليخ اولوخ
Jean De Lichtenstein	جان دي ليختنستين
Lisy	ليزي
Lisbonne	ليشبونة
Lithuanie	ليطوانيا
Legrand	ليغران
Ligneau	ليغنو
Livourne	ليفورنو
Lefebvre	ليفيفر
Lefebvre — Desnottes	ليفيفر دينوت
Léopoldstadt	ليوبولد ستاد
Lainé	لينه
Lignitz	لينيتز

Lutchissa	لتخسا
Ledru	لدرو
Lherminier	لرمينيه
Lérida	لريدا
Lambach	لمباخ
Lambert	لمبر
Lamberty	لمبرتي
Lintz	لنتز
Langeron	لنجيرون
Lindenau	لندنو
Lopackzen	لوباكزن
Lubeck	لوبك
Lobenstein	لوبنستين
Lobau	لوبو
Lutzen	لوتزن
Luther	لوتيروس
Lorette	لورت
La Lorraine	اللورين
La Lusace	اللوزاس
Lusigny	لوزيني
Lugo	لوغو
Lovers	لوفرس
Locke	لوك
Locques	لوك
Lomitten	لومتن
Lœwenberg	لونبرغ
Lowicz	لويز

— م —

ماتيلد	Mathilde
ماراطون	Marathon
ماراك	Marrac
ميدان مارس	Champ De Mars
المارن	La Marne
مارنت	Marente
ماريا	Maria
ماريانو دومنغز	Mariano-Dominguez
ماري انطوانت	Marie Antoinette
ماري تيريز	Marie Thérèse
ماري لويز	Marie Louise
ماري المديشية	Marie De Médicis
مارينزال	Marienzal
ماريون هوار	Marion-Huart
فريدريك ماسون	Frédéric-Masson
دي ماصا	De Massa
ماك	Mack
مالاي	Malet
مالهه	Malher
مالوجاروسلاوتز	Malojaroslawetz
دي مان	De Man
المانش	La Manche
مانيج	Manège
مايانس	Mayence
دي مترنيخ	De Metternich
محمود	Mahmoud
البحر المتوسط	La Méditerranée
المدلين	La Madeleine
مدلين	Medellin
مديشي	Médicis
مدين	Medyn
مرتفمتين	Mortefontaine
المرتينيك	La Martinique
مرتيه	Mortier
مون دي مرسان	Mont-de-Marsan
مرسية	Murcie
مرشان	Marchand
مرغوني	Morghoni
مرفلد	Merfeld
مركليبرغ	Markluberg
مسياسي	Missiessy
مرهنباخ	Merhenbach
مغدبورغ	Magdebourg
المكسيك	Le Mexique
مكسيمليان	Maximilien
مكدونال	Macdonald
مكينزا	Mequinenza
ملغراف	Melgrave
ملك	Molk
ملدافيا	Moldavie

ملقا	Malaga
منبرون	Montbrun
منبليه	Montpellier
منتاليغر	Montalègre
دي منتسون	De Montesson
منتسبان	Montespan
منتي كافالو	Monte-Cavallo
منجوى	Montjoie
منرويل	Montreuil
منزا	Monza
منسانارش	Monçanarès
منسي	Moncey
منسك	Minisk
منغاليار	Montgalière
منغوبير	Montgobère
منفور	Montfort
منمارتر	Montmartre
منطولون	Montholon
منيفال	Méneval
منمورانسي	Montmorency
منميرايل	Montmirail
مو	Meaux
موحد افندي	Mouhed Effendi
مور	Moore
مورافيا	Moravie
موران	Morand
مورلا	Morella

موروس	Morus
موري	Maury
مورمان	Mormant
موزون	Mouzon
موسكو	Moscou
الموسكوفا	La Moscova
موطون	Mouton
مولن	Mullen
مولندرف	Mollendorf
مولك	Molck
موجايسك	Mojaïsk
مولاي اوموله	Molé
مولودتشينو	Molodetschino
مونطرو	Montereau
مون سرا	Mont-Serra
مونه	Monet
مونيخ	Munich
موهرنجن	Mohrungen
موهيلوف	Mohilow
موينا	Mouina
ميده	Médée
ميري	Méry
ميزون	Maison
ميزيراي	Mézérée
ميغز	Miguez
ميكاليوسكا	Michalewska

ميلهو	Milhaud
ميلورادتز	Miloradowitz
ميلون	Melun
مين دي بيران	Maine-de-Biran
مينا	Mina
ميولي	Miollis

— ن —

ناروكي	Narocki
نازيلسك	Nasielsk
نافار	Navarre
نانتر	Nanterre
نانجي	Nangis
ناي	Ney
دي نربون	De Narbonne
نزني نفغورود	Nizni-Novgorod
نزويغ	Neswig
نفر	Nevers
نكر	Necker
ننسوتي	Nansouty
النيمن	Le Niémen
نوجان	Nogent
نورمان	Normann
نوسطارك	Neustark
نوسيدال	Neusiedel
نوشاتل	Neufchatel
نوفوزيلزوف	Novozilzof
نومارك	Neumark
نومبورغ	Naumbourg
نويي	Neuilly
نيرون	Néron
نيس	Neiss
نيفير	Nièvre
نيكلسبورغ	Nicolsburg
نيل	Nesle
نيمور	Nemours
نيورت	Niort

— ه —

هارسب	Harispe
هارلي	Harlay
الهافر	Le Havre
هال	Halle
هانو	Hanau
هاينو	Haynau

هربيس	Herbisse
هرتول	Hertwell
دي هردنبورغ	De Hardenberg
هبسبورغ	Habsbourg
هس	Hesse
هس همبورغ	Hesse-Hambourg
هكسو	Haxo
هلستد	Hollstedt
همبرت	Hembert
همبورغ	Hambourg
هوخكرخ	Hochkirch
هولابرن	Hollabrünn
هولان	Hulin
هوف	Hoff
هولن	Hullin
هولندا	Pays-Bas
هوبورغ	Hauembourg
هونفلور	Honfleur
هوهنزولرن	Hohenzollern.
دي هوهنلوه	De Hohenlohe
هوير سفردا	Hoyerswerda
هيلر	Hiller

— و —

واترلو	Waterloo
واتلستادت	Watelstadt
الوادي الكبير	Guadalquivir
وارتنبورغ	Wartenbourg
واصا	Wassa
واطيه	Wattier
والادوليد	Valladolid
وتبسك	Witepsk
وتجنستين	Wittgenstein
وتردرف	Waterdorf
الورتا	La Wartha
ورتزبورغ	Wurtzbourg
ورتمبرج	Wurtemberg
ورتنجن	Wertingen
ورتخن	Wurtchen
الوزر	Le Weser
وغرام	Wagram
وستفاليا	Westphalie
ولتر	Walther
ولخرين	Walcheren
ولكر سدرف	Wolkersdorf
ولكنسكي	Wolkonski
ولكووسكي	Wilkowsky
وكهام	Wickham
ولنتن	Wellington
ونتزنجيرود	Wentzingerode

ونكونو Wenkowo
الروب La Woop
وولنبرغ Wolenberg
ويازما Wiazma
ويتمبرغ Wittemberg

ويسي Weissy
ويسنفلس Weiesenfels
ويشلمند Weischelmunde
ويمار Weimar

— ي —

اليار L'Yères
ياتلزه Ietelsée
يالاشيش Iéllachich
يزوف Vésuve

اليون L'Yonne
اليونان Les Grecs
يهوديت Judith
يوسف Joseph

فهرست الجزء الثاني

ذيل الجزء الثاني

انتهى الجزء الثاني











